
مراد تونجل
العثمانيون 1
شمس تراقيا
رواية تاريخية
ترجمة: محمد عزت غازى
2768
سلسلة
الإبداع
القصصى
المركز القومى للترجمة



رواية شمس تراقيا إحدى الروايات التي كتبها الكاتب التركي مراد تونجل، وهي الرواية الأولى في سلسلة الروايات التاريخية التي تتناول تاريخ العثمانيين خلال الفترة التاريخية 1350 - 1850. والرواية التي بين أيدينا تتناول تاريخ الدولة العثمانية خلال حكم السلطان العثماني أورخان غازي وأوائل حكم ابنه السلطان مراد الأول الذي تولى حكم الدولة العثمانية من بعده.

الرواية تهتم في المقام الأول بقصص وحكايات العثمانيين، وتصور الصراع العثماني البيزنطي في شبه جزيرة تراقيا. وتعرض بالتفصيل للواقع السياسي في الدولة العثمانية الفتية التي كانت تعيش المراحل الأولى من توسعاتها، والإمبراطورية البيزنطية التي كانت تعيش هي الأخرى فترة خريفها وبداية نهايتها.

سوف يشعر القارئ أثناء قراءته للرواية أنه يعيش داخل الأحداث، وكأنه أحد المشاركين فيها أو الذين يشاهدونها عن قرب.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن

العثمانيون(١)

شمس تراقيا

(رواية تاريخية)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2768
- العثمانيون (١): شمس تراقيا (رواية تاريخية)
- مراد تونجل
- محمد عزت غازى
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Trakya Güneşi
Murat Tuncel

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

العثمانيون (١)

شمس تراقيا

(رواية تاريخية)

تأليف: مراد تونجل

ترجمة: محمد عزت غازي



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تونجل ، مراد ، ١٩٥٢ - ٠٠٠
شمس ترافيا / تأليف : مراد تونجل ؛ ترجمة : محمد عزت غازي .
القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٦
٧٨٤ ص ، ٢٤ سم
(العثمانيون ؛ ١)
١ - رواية تاريخية .
٢ - تونجل ، مراد (مؤلف) .
٣ - غازي ، محمد عزت (مترجم) .
(ب) العنوان ٨٩٤,٣٥٣

رقم الإيداع : ٢٠١٥ / ٩١٠٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977-92-0250- 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

شكر وعرفان

أتقدم بخالص الشكر إلى عزرا إرهات (Azra Erhat) الــذي منحنــي القوة والدافع، وكان سببًا للبدء في كتابة هذا العمل، بجملته التى تقــول: (إن استطعنا أن ننطق الأحجار الموجودة على هذه الأراضي، فإن العالم ســوف يعرفنا أكثر)، الموجودة في إحدى مقالاته التي قرأتها في الأيام التي فكــرت فيها بالبدء في كتابة هذا العمل الصعب، وإلى إسماعيل حامي دانشمند الــذي ترك لنا أحد المؤلفات المرتبة ترتيبا تاريخيا، والتي تحمــل الكثيــر مــن الأبعاد... ليتغمدهما الله برحمته الواسعة ويسكنهما فسيح جناته.

تقديم

سلسلة الروايات المسماة بـــ(العثمانيين) التي أعكف على كتابتها منذ سنوات، هي سرد بأسلوب روائي للأحداث التاريخية التي وقعت في الفتـــرة من١٣٥٠ وحتى ١٨٥٠ على أراضي الدولة العثمانية، والحياة الاجتماعيـــة، والشخصيات التاريخية المعروفة وغير المعروفة على حد سواء، وحكايـــات العشق والغرام في تلك العصور والعصور الأخرى، والأفراح، والمشاركات والمشاطرات. سوف تصدر سلسلة الروايات التي تحمل عنوان العثمانيون ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ ولكن كل رواية من تلك الروايات ســيكون لهـــا عنوانهـــا الخاص بها.

إن الفكرة الأساسية التي دفعتني إلى مثل هذا العمل الصـــعب، الـــذي يحتوي على تفصيلات كثيرة، هي باختصار، جملة " إن استطعنا أن ننطـــق الأحجار الموجودة على هذه الأراضي، فإن العالم سوف يعرفنا أكثر." التـــي قرأتها في إحدى المقالات التي كتبها عزرا إرهات في الخمسينيات من القرن الماضي. ولا جرم أن هناك من تحدثوا عن قصص العشق، وحركات التمرد، والنعرات القومية، وأنطقوا الأحجار الموجودة على هـــذه الأراضـــي، منـــذ الخمسينيات من القرن الماضي وحتى يومنا الحاضر. أما أنا فلا أصدق بأن كل ما كُتب تقريبا قد عبر عما قالته تلك الأحجار. لأن ما تقولـــه، أو مـــا تحكيه هذه الأراضي أو تلك الأحجار الموجودة على هذه الأراضي أكثر مما كُتب بكثير. وهأنا ذا بسلسلة رواياتي تلك أسعى وراء ما قالته تلك الأحجار

والتي لم تُذكر ولم يُحْكَ في الكتابات السابقة. بمعنى أن الروايات ستكون روايات تاريخية لأنها تتناول حقبة زمنية تبلغ خمسمائة عام من التاريخ العثماني، وبمفهوم آخر ستكون روايات تتناول حياة الأشخاص الذين عاشوا في تلك الحقبة الزمنية. لأن هذين المفهومين هما بالنسبة لي مثل الظفر واللحم اللذين يتمم أحدهما الآخر. وأنا أرى أن ارتباطهما أحدهما بالآخر هو منظر في المرآة يؤكد ارتباطهما أحدهما بالآخر.

سيتم التركيز في الروايات على قصص وحكايات العثمانيين، لكن ستتناول أيضا قصص وحكايات كل من البيزنطيين، والبلغار، والمجريين، وأهالي سافويا، والفويناق، وأهالي راغوزا، والتتار، والتتار السود، والكتالونيين، والحلفاء المخلصين، والحلفاء غير المخلصين، والأسوتردين، والغلاطيِّن، والرومان، واليونانيين، وأهالي إسبرطة والسلاجقة الذين عاشوا قبل العثمانيين على تلك المناطق الجغرافية.

إن الجبال، والصحاري، والمرتفعات، والقلاع، والأنهار، والبحيرات، والبحار، والمنخفضات، والمرتفعات الموجودة في الساحة الجغرافية الموجودة خارج حدود الدولة العثمانية سوف تتحدث أحيانا إلى القارئ، مثلما تتحدث الجغرافيا الموجودة ضمن نطاق الحدود العثمانية في إطار الجغرافيا التي تغطيها الروايات. كما أن أبطال الأساطير الموجودة في المناطق الجغرافية التي تغطيها الروايات سوف يتحدثون بدورهم إلى القارئ. عندما هبت آلهة جمال إيروس لمساعدة الأميرة مايكي، فإن ملائكة الليل الذين هربوا من شر الأميرة تمار سوف يقعون في أيدي البانونيين. وستقوم عنقا تور بنثر الزمرد على قلعة أفراسياب الموجودة على الأرض.

سيقوم القراء خلال قراءتهم لتلك الروايات بالذهاب بصحبة المشاة العثمانيين إلى كل الأراضي التي وطأتها أقدامهم، وسوف يتقدمون ليل نهار دون أى عوائق مثل أخييان الروم، وباجييان الروم أو فدائيي الوحدات القتالية الغازية، وسوف يركضون من مغامرة إلى أخرى مع المجاذيب المغيرين مكائن موت الفرسان. ولكن أثناء الركض سوف يتطلعون كذلك إلى الموت الذي ينتظر كل رجل منهم عند الآخر.

القراء أثناء قراءتهم لتلك الروايات، سوف يدركون في فترة وجيزة أن النصوص الموجودة في الروايات شيء أكبر بكثير من كونه نصا لإحدى الروايات، فأحيانا سيقومون برحلة إلى الفلسفة، وأحيانا سيجدون أنفسهم في لجة الأحداث الاجتماعية، وأحيانا سيفكرون في التواريخ ذات البعد الواحد، وأحيانا سيشاركون في عمليات التنقيب الغامضة عن الآثار، وأحيانا سيلتقون وجها لوجه مع ابن عربشاه، وأحيانا أخرى مع تيمور اليزيدي، وأحيانا سيتمتمون بِحِكَم ابن خلدون، وأحيانا سيسبحون في بحر أفكار أنتيفون، وفي الكثير من الأحيان سوف يتبادلون أطراف الحديث مع العلماء والأمراء والسلاطين العثمانيين. وكذلك مع كل من حولهم المرئيين منهم وغير المرئيين.

وإني لعلى يقين بأن قرائي الذين سيقرءون هذه الرواية التي عرفت بها بإيجاز آنفا، سيستنطقون بإخلاص ومن جميع الجوانب كل المعلومات التي يعرفونها حتى يومنا هذا بعد قراءتهم لها. ولكن أقول بكل ارتياح واطمئنان إن هذه الرواية لا هي تاريخ فحسب، ولا هي اجتماع فحسب، ولا هي جغرافيا فحسب، ولا هى فلسفة فحسب، ولا هي آثار فحسب. ولكنها هي رواية تجمع كل ذلك.

مراد تونجل

(١)

سليمان باشا الذي يشاهد تهادي الأمواج المتلاطمة التي تخجل من السكون الشديد للسماء الزرقاء، رفع رأسه ونظر إلى تموجات الأشعة البنفسجية المتموجة المحيطة بالشمس التي تميل نحو الغروب. إن ناظريه اللذين شخصا إلى البلورة الزرقاء، والتي تشاهد أشعة الشمس التي وصلت إلى الأرض مداعبة إياها وهي تتجول فوق الأمواج المنهكة، همهم قائلا: "كأنها أجنحة الطيور التي عبرت البحر". نظر ثانية إلى الشمس وبينما كان يقوم بإجراء بعض العمليات الحسابية في ذهنه اقترب بخطى وئيدة إلى الشاطئ. خلع عمامته الرقيقة البسيطة ذات الشريط الأصفر ووضعها على الحجر الأسود الكبير الذي يقف وكأنه مغروس في رمال الشاطئ الرمادية. خطا بضع خطوات على الرمال. توقف بعدما مس الماء طرف حذائه ذي الحياكة المزدوجة المصنوع في صاروخان والذي يعصب ساقيه. جثا على الأرض ثانيًا ساقيه المنحنيتين النحيلتين. غمس إحدى يديه الضخمتين في الماء البارد. وبعد فترة غمس يده الأخرى. ملأ حفنتيه بالماء وضرب بهما وجهه عدة مرات. لما دخل الماء المالح الذي كان قد بقي بين ثنايا صدغيه من خلف شفتيه المنتفختين إلى فمه قطّب وجهه. وقال وهو يمسح وجهه بمنديله: إنه شديد الملوحة.

إن أفرانوس بك الذي يرقبه من على الشاطئ منذ مجيئهم؛ قال له: يـا سيدي نظرا لأننا اعتدنا على الماء العذب فإننا نجد ماء البحر شديد الملوحة. ووفقا لما يحكى فإن المورة هي تياره الجاري وهو الذي يجعل بحـر هـلا وبحر الجزر مالحا على هذا النحو.

كان سليمان باشا لا يحبذ الحديث في الموضوعات التـي لا يعلمهـا جيدا. ولذا لم يدلُ بدلوه حول ماء البحر.

إن أفرانوس بك الذي لم يَرِقْ ونظرا لمكانته ودون أن ينظـر أيضـا لوجهه المقضب العبوس، عاد ونظر من فوق منكبيه إلى الشـمس العظيمـة التي تحاول أن تختلط بالأفق. قال: إنه يجري إلى أسفل. إن أفرانـوس بـك الذي لم يستطع أن يستبين ما هو المقصود مما قاله سليمان باشا، هل يقصـد به الشمس أم مياه المضيق، وظنا منه أنه كان يتحدث عن مياه المضيق، قال: يقال يا سيدي إن التيار الموجود في هلا يأتي من بحر الجزر الموجود فـي الأعلى، ومن الأسفل إلى المورة. ولكن لا يوجد من يعلم جيدا حقيقـة هـذا الأمر. ربما هي فرية أهالي جنوة.

نهض سليمان باشا واستدار نحو أفرانوس بك. وقال بصـوت هـادئ وهو يشير إلى البحر: هل تقول بأنه هدأ الآن يا أفرانوس بك؟.

ابتسم أفرانوس بك ابتسامة عريضة. نظر أولا إلى الدردنيل ثم إلـى هلا. ولم يكد يلتفت إلى سليمان باشا حتى قال له: إن كنت قد قلت شيئا فهو مجرد هراء. إن قلت بأنه هادئ فإنني أخجل إن هاج بفعل الريح مرة أخرى. إن صيادي هذا البحر هم أفضل من يعلمون هذا الأمر.

ولما كان سليمان باشا يعرف جيدا بأن أفرانوس بك لديه قدرة كبيـــرة على التلاعب بالألفاظ، لم يلح عليه، ولكنه عندما التفت نحو البحر قال: لقــد انتظرنا بما يكفي، والأفضل ألا ننتظر أكثر من ذلك.

قال أفرانوس بك: أنت محق يا سيدي، بيد أن البحر ليس صلبا مثل الأرض التي نقف عليها. وغالبية ملاحينا لا يجيــدون الســباحة كذلك. أرى ألا نتعجل. لننتظر يوما حتى يكــون الأمــر أفضل.

سليمان باشا: أنت محق، ولكن سئمنا من الانتظار لبضعة أيام. انظر ها هي الشواطئ المقابلة تنادينا. إن قوله بأنه رأى المراكب الشراعية القادمة من هلا أصابه بالهلع.

أفرانوس بك، الذى لاحظ أنه أصيب بالهلع الشديد، قال: يا ســيدي لا تأبه بظهورهم وكأنهم كانوا قريبين لهذه الدرجة، إنهــم لا يمكــنهم رؤيتنــا بسهولة.

سليمان باشا: إذن، من الأفضل أن نتخذ جميع أساليب الحيطة والحذر.

أفرانوس بك: الذي حصر بصره ودقق النظر إلى المركب الشراعي الموجود في المقدمة. التفت نحو سليمان باشا قــائلا: إنهــا المراكــب الشراعية لأهالي البندقية يا سيدي. لو كانت لأهالي جنوة للزم الاختباء ولكن لا يوجد ما يجبرنا على الاختباء مــن أهــالي البندقية.

سليمان باشا، بعد أن ابتسم مبديا أسنانه البيضاء اللامعة وكأنها الضياء على وجهه الأسمر الذى لفحته أشعة الشمس، بصوت يشبه الصفير؛ سأل قائلا: لماذا؟.

أفرانوس بك بعد أن ابتلع ريقه وكأنه ابتلع ابتسامة عريضة ملأت شفتيه الرقيقتين، قال: إن أهالي البندقية كانوا لا يعيرون اهتماما لمن لا يأتون لتحقيق مصالحهم. وعندما يجلسون مع من يرونهم كانوا يقومون بتقديم الشربات البارد لهم أثناء الحديث معهم.

سليمان باشا: فهمت عدم اكتراثهم بمن لا يحققون منافع لهم. ولكن ما الحكمة من الشربات البارد؟.

كانوا يقولون: إن الشربات البارد لا يخدر العقل.

حرك سليمان باشا عينيه الجاحظتين في محجريهما يمنة ويسرة بسرعة وبشكل مستمر، وحلق بهما في الفضاء وهو يشير إلى أفرانوس بك، ونظر إلى المراكب الشراعية القادمة إلى الدردنيل. أخذ يقلب جملة أفرانوس بك في عقله. وبدا وكأنه سيعلق بشيء على الحديث. لكنه تراجع عما كان سيقوله. وبينما يأخذ عمامة المولوي التي كان قد وضعها على الحجر الأسود قبل قليل، علق قائلا: " لنأخذ حذرنا ولنذهب خلف هذه الأدغال. ثم مشى إلى خلف الأدغال الكثيفة القريبة منهم. نظر إلى أفرانوس بك، الذي كان قد أتى إلى جواره عندما انتقل إلى خلف الأدغال وقال: " وما أدراك أنها سفن أهالي البندقية؟ " رد أفرانوس بك بأسى قائلا: " أتريد أن تقول إني قد هرمت يا سيدي؟ "

لا ! كنت أسأل كيف أمكنك رؤية راياتها من هذه المسافة؟

سفنهم تختلف كثيرا عن سفن الآخرين. وأيضا يمكن معرفتها حتى من دون رؤية راياتها.

كيف؟

مقدمة سفنهم تنتصب في الهواء وكأنها تشم السماء. وبنيتها كبيرة ومستديرة بشكل أكبر من السفن الأخرى.

سليمان باشا: من الأكثر تفوقا في البحر أهالي جنوة أم أهالي البندقية؟

أفرانوس بك: أهالي البندقية يا سيدي، بيد أنه يوجد بينهما منافسة شرسة.

وبينما كان سليمان باشا يُجَهز سؤالا جديدا، جاء الحاج إلباي مهرولا إليهما. وعندما نظر إليه الاثنان في اللحظة ذاتها. قال الحاج إلباي: سيدي لقد سألنا واستقصينا ودلنا الجميع على صياد الأمس. وقالوا: إنه أفضل من يعرف أحوال البحر في هذه المنطقة.

داعب سليمان باشا لحيته القصيرة قائلا: " إن كان الأمر كذلك فلنصطحبه معنا.

انتبه أفرانوس بك الذي كان ينظر إليهما وكأنه يحلم، مسح عينيه بسبابتيه ونظر إلى مضيق الدردنيل. وعندما رأى سفينة قادمة من بحر الجزر متجهة إلى القسطنطينية مباشرة قال: إن السفينة القادمة، سفينة أهالي جنوة. من الأفضل ألا يروننا. وقال وهو جاثم في مكانه، يُقال: إن أهالي جنوة حينما يكونون في البحر يرون كل شيء حتى النمل الذي يمشي على الشاطئ. لا أدرى مدى صحة ذلك. ولكن من الأفضل أن نختفي عن أنظارهم.

سليمان باشا الذي جثم على الأرض كما فعل كل من الحـــاج إلبـــاي وأفرانوس بك قال: هل رأيت هذا الصياد من قبل يا أفرانوس بك؟. ويا تُرى لماذا كان غاضبا إلى هذه الدرجة عندما كان ينظر إليـــك بـــالأمس؟. كـــان مصرا على إطلاق اسم بحر لندروس على المضيق.

لا أظن أنني قد رأيته من قبل يا سيدي. ولكن أظن أنه رآنى في مكان ما. يقولون: إنه يعلم أشياء لا يعلمها غيره. يبدو أنه شخص مطلع وعلى علم ... ربما كان يعيش في بورصة في الماضي، ولربما عرفني هناك. أنا لـــم أرق له أو بالأحرى أنه أيضا لم يرق لي.

- قال الحاج إلباي بصوته الرقيق : ليكن من يكون، فهـــو أفضـــل مـــن يعرف هذه المنطقة.

سليمان باشا الذي كان ينظر إلى الرجلين لفترة دون أن ينـــبس ببنـــت شفة سأل قائلا: ألم يقل إنه سيحكي "مرثية الإسكندر الذي لم يتحمل مـــرارة فراق طروادة " وكأنه لم يكتف بما حكاه حسبما يرى؟

أفرانوس بك: بينما ينهض على قدميه وهو ينظر إلـــى الأرض قـــال: ليعبر بنا إلى الجانب الآخر. وأنا أعلم المرثية التي سأقولها له.

(٢)

بينما كان الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس يشاهد عن بعد تلك الأمواج التي تضرب شاطئ كيرساكوروس فتجعل مياهه الزرقاء يعلوها الزبد الأبيض، دخلت زوجته الإمبراطورة إيرينا أسانينا. ولم تكد تلاحظ أن الإمبراطور قد شخص ببصره إلى الأمواج البعيدة، حتى ذهبت إلى جانبه متمايلة بجسدها الذي لم يفقد شيئا من حيويته ونضارته حتى ذلك الوقت، والذي بدا وكأنه منقسم إلى قسمين من عند خصرها النحيل رغم تقدمها في العمر. ومست يدها كتف الإمبراطور الذي كان يخلل لحيته البيضاء بأصابعه السمينة قائلة: يوحنا. انتظرت إجابة الإمبراطور الشارد. وعندما لم يرد الإمبراطور عليها، قالت مرة أخرى: يا يوحنا ها قد استغرقت في التفكير ثانية. أعلم أن اتخاذ قرار ما أمر صعب. ولكن يجب أن تتخذ قرارا حتى تكون مطمئنا فيما بعد. أيا كان القرار الذي ستتخذه سأكون إلى جانبك كما هو الحال دائما.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس وهو يدير رأسه عن زوجته: في الواقع إن اتخاذ قرار بعد كل ما حدث ليس بالأمر اليسير. ولكن يجب ألا يخطر ببالك هذا مرة ثانية. إن لم تخدعني مشاعري، فإن الإمبراطورة الأم لن تتمالك أعصابها. أعتقد أن الانتظار قليلا سيكون أفضل.

قالت إيرينا أسانينا التي حصلت على لقب الإمبراطورة منذ أن تقاسم زوجها يوحنا كنتاكوزين السادس عرش الإمبراطورية مع صهره يوحنا

باليولوج الخامس، بعد أن تفحصت نظراتها الساحرة الرقيقة وجهه الملتحـــي لبرهة، قالت: يوحنا، أنا لا أريد أكثر من ذلك. أنا أومن بفضـــيلة القناعـــة بالأشياء الصغيرة التي تمنحني السعادة. إن طلبي منك هو ألا تكلف نفســـك أكثر من هذا. انظر إن الشمس والقمر اللذين منحانا الحيوية والشـــباب فـــي الأيام الخالية يصيباننا بالشيب مع مرور الأيام دون أن نلحظ ذلــك. إحـــدى بناتنا في قصر أورخان والأخرى فى قصر إمبراطور بيزنطـــة. وأولادنـــا سعداء في قلاعهم. أخشى أن أصبو لأكثر من ذلك؛ حتى لا يجلب لنا التعاسة والشقاء.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس وهو ينظر بارتيـــاح إلـــى عينى الإمبراطورة إيرينا الزرقاوين، تلك الإمبراطورة التي نجحت فـــي أن تبقي الحب حيا بينهما، بتقديمها الحب بشكل مختلف يوما بعـــد يـــوم منـــذ زواجهما: وأنا أيضا في حاجة إلى الراحة والسكينة يا عزيزتي إيرينا. أبحث عنهما باستمرار حتى اليوم. بيد أن ابنة السافونيين تصعب الأمر دائما. إن ما أردته هو أن يُلَقَّن أفراد هذه الأسرة درسا بسيطا وألا يتجاهلوا أيضا ما أقوم بفعله. وإلا هل كنت سأطلب من إلينا أن تبتعد عن أحفادى. وعندما انتهى من حديثه تنهد تنهيدة بسيطـــة، وقال: إن كل ما أريده هو جزء مـــن الســـكينة والهدوء الذي ذكرته، بيـــد أن إرادتي وحدها ليست كافية كي تقنـــع العـــالم أجمع. فقد كنت أعتقد أن ابنة السافونيين عندما يرق قلبها سترتب شيئا مـــن جديد، بعد أن أصابنا القادمون من فيودوسيا بمرض الكسل. وما إن خلصـــنا من المرض مؤخرا حتى ابتلينا بمتعصبى سلانيك. لقد تضرر أسطولنا الذي وقع بين أهالي جنوة وأهالي البندقية بشكل كبير، وكأن كل تلك المصائب لم

تكن كافية. كما أنني لست مستغربا من رغبة أنا السافونية في رؤية ابنها إمبراطورا منفردا بالعرش شأنها شأن كل إمبراطورة، ولكن كان قد آلمني كثيرا تسخيرها لي لمصلحتها وكأنني خرقة بالية تستخدمها بما يتوافق ومصلحتها. وفي الحقيقة: وقبل أن يفرغ الإمبراطور من حديثه، ولما بدأ يتفقد الشواطئ بناظريه، وعندما حاولت الإمبراطورة إيرينا أسانينا حثه على استكمال جملته التي لم يكملها قائلة الحقيقة...... إلا أن الإمبراطور لم ينبس ببنت شفة. سحبت الإمبراطورة يديها من فوق كتف زوجها إلى خصره قائلة يوحنا لماذا تنظر دائما إلى نفس الجهة؟ ثم صمتت.

الإمبراطور الذي شعر برعشة غريبة بعد ملامسة يد الإمبراطورة لظهره برفق شديد، لم يستطع أن يتخذ قرارا بما سيفعل. وبينما ينتظر تحرك أشياء ما بداخله، اقترب خطوة أخرى إلى النافذة ونظر إلى سفينة أهالي جنوة الشراعية التي اقتربت من الشاطئ مسرعة فوق الأمواج المتلاطمة. وبصوت أقرب ما يكون إلى التنهيدة قال: هذه هي الثانية هذا اليوم.

قالت الإمبراطورة إيرينا: ما هي الثانية؟

سفن أهالي جنوة تلك.

ألا يأتون كل وقت؟ تكون الثانية والثالثة كذلك، حتى إنه في بعض الأحيان تأتي الرابعة والخامسة منها كذلك مقتربة من الميناء؟

وثب الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس من مكانه وكأن إبرة قد وخزت ساقه وقال: لقد أزعجتني أفعالهم الأخيرة تلك، وكذلك أفعال كل من أبيكافوس وكلاكاس. فعلى الرغم من كون أرباح أهالي البندقية من الجمارك

أقل منهم فإنهم يدفعون ضريبة أكثر منهم. وفي موعدها المحـــدد... إنهـــم، يلعبون على الحبلين. وهم أيضا وراء كل ما يتم من خلف الظهور. لم أستطع أن أفهم هل هم في جانبنا أم في جانب أورخان؟ كما أن أورخان في الأيـــام الأخيرة أصبح مثلهم. لماذا يتصرف على هذا النحو في الوقت الذي حصـــل فيه على كل ما يريد؟ لا أستطيع فهمه هو الآخر كذلك. آه لو أتمكـــن مـــن معرفة ما يسعى إليه ...

الإمبراطورة إيرينا أسانينا وهي تقترب أكثر من زوجها: أعتقد أنه لا توجد له أي مشكلة معك. وابنتنا تيودورا سعيدة جدا معـــه أيضـــا. أرى أن ابتعادك عن أورخان هذه الأيام هو أفضل شيء من أجل مدينتنا بيزنطة.

بينما يلتفت الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس نحو الإمبراطـــورة، قال: يا إيرنتى الجميلة لتعلمى، أن الحكم سلسلة من الرغبات التي لا نهايـــة لها. ولذا فإن تطلعات الحكام لا تنتهى أبدا. ورغبتهم كل وقت في تغيير كل شيء يأتي على رأس هذه الرغبات. لا أستطيع أن أعلم ماذا سأســـمع مـــن رئيس الوزراء عندما أذهب إلى قصر حكمي بعد قليل. ربما أيضـــا ســـيثير سخطي قوله: بأنه يحبذ أن نتنازل طواعية عن قسطنطينيتنا للعثمانيين علـــى نحو ما فعل تكفور أمير بورصة، وكأنه يحدثنا بأقوال جديدة مرة ثانية. آه لو أن قادتنا كانوا متحدين ومرتبطين ببعضهم بعضا مثل القادة العثمانيين! أعلم ما سأقوم بفعله ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ رجالنا لا يحترم بعضهم بعضا، كما أنهم لا يحبون قسطنطينيتنا كذلك. هل تذكرين أيام عودتنا إلى القصـــر، كان أورخان قد جاء حتى سيوتاري. ولما وافـــق أورخـــان علـــى رغبتـــى باستضافته فى قصر الأمراء كنت قد صرت سعيدا وقلت لنفسى: إن الســـلام

قادم. ولكن حب وتقدير كل منهما للآخر كان قد أصابني بالرعب والفـزع. ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر كيف أصنع ذلك بين قادتنا. إلا أنني كما ترين، لـم أستطع أن أتقدم قيد أنملة في هذا الاتجاه.

الإمبراطورة إيرينا أسانينا التي تجلس راسمة ابتسامة جميلـة علـى شفتيها الرقيقتين: ربما حصلت على ذلك. ولكن أعتقد أنها لم تمثل لـك أي شيء لأن رغبتك كانت تطمح إلى أكثر من ذلك بكثير.

نظرات الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس التي كانت تتأمل شفتي الإمبرطورة المبتسمتين اتجهت نحو البسفور ثم نظر إلى سـيوتاري وقـال: ربما تكونين على حق كذلك. فإلى الآن، ربما لا يمكنني رؤيـة أي تغيـر للناس الذين يعولون على كل من روما والفاتيكان وأفنون لكونه بطيئا جدا.

بللت الإمبراطورة هذه المرة شفتيها الرقيقتين بلسانها. وقالت بصـوت عذب رقيق: كان أندرونيكوس قد ذهب قبل ذلك إلى كل من روما والفاتيكان وأفيجنون ولكن كما علمت كان قد عاد دون أن يحصل على أى شيء.

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس: حبيبتي إيرينا: ملكـة عقلـك تجعلك اليوم تقولين أشياء كثيرة، ولكن سلومون يقول: " إن تعرضت لظلـم تصالح، أما إن رأيت شرا فدافع عن نفسك"، وهذا هو حالنا اليوم.

وما الحل إذا كان باغي الشر أقوى كثيرا منك؟ هل قال سولومون شيئا ما في هذه القضية؟

لا أعلم أنه قال شيئا في هذا الخصوص. ولكن أرى أن أفضل وسـيلة للخروج من هذا الموقف هو الصبر والبحث عن مخرج بالعقل والتفكير.

إن نضبت كل منابع القوة، فأنت تعلم أكثر من أي شخص آخر أن ذلك لا يمكن أن يكون مفيدا لما يدور في عقلك.

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس وكأنه لا يوجد أى شيء يفعله، في البداية حاول أن يضفى نوعا من الحيوية على نظراته التي غاصت في الفضاء الشاسع. وبعد ذلك فكر فيما تسعى زوجته أن تقوله. بعد أن خطا بضع خطوات نحو الباب، رجع ثانية وتحسر على من لم يستطع أن يحذو حذو زوجته. وعندما لم يحرك ساكنا، تساءل ما هذا الذي يحدث لي؟ بعد أن قام بالدعاء حتى ينعش انقباض المشاعر الموجودة بداخله، قال وكأنه يهمس: "يقولون الأصل أن مياها أخرى تتدفق من فوق الغمام إلى نفس المياه دائما".

الإمبراطورة إيرينا التي سمعت ما قاله، قالت: أغلب الظن أنه إذا كان هناك مذنب فهو في الأغلب المياه التي لم تتوقف في نفس المكان.

الإمبراطور الذي نظر إلى زوجته، هز رأسه وكأنه مندهش من تلك الكلمات الحكيمة التي قالتها زوجته، قال وهو ينظر من النافذة إلى حي أهالي جنوة : دخلت الثالثة أيضا إلى الميناء.

(٣)

عند مرور بعض السحب القادمة من الشمال من أمام القمر وحجبهـــا لضيائه بظلالها، قام النجارون الذين اختبأوا خلف الربوة القريبة من الشاطئ، بحمل العوارض الخشبية المربعة الأضلاع، والمثقوبة على أبعاد متساوية مع أخشاب القوائم التي قاموا بتخزينها تحت الأشجار الشــاطئ الــذى ابتلعتــه الأمواج. وبينما كان البعض منهم يضم أخشاب القوائم بعضها إلى بعض، قام البعض الآخر منهم بصف العوارض الخشبية على رمال الشاطئ على أبعاد متساوية. بينما كان كبيرهم، ذلك الرجل متوسط القامة عريض المنكبين الذى يقف بينهم يقودهم ويوجههم باستمرار قــائلا: "اصــمتوا، أســرعوا" كــانوا ينصتون إليه وفى ذات الوقت يقومون بإنجاز أعمالهم بمهــارتهم المعتــادة. كبيرهم الذي يتابع عملهم منذ فترة، عندما رأى أن كل الأخشــاب وضــعت على العوارض، وضع يده في الجيب الكبير لمئزره المصنوع مــن الجلــد المدبوغ وحفن حفنة من المسامير الخشبية ووزعها على النجــارين الــذين ينتظرون عند رأس العوارض. ولما نظر إلى المطارق التي بيد النجــارين، قال " إنها تحدث صوتا عند الطرق بها". وبينما كان يريد أن يحكم قبضــته جيدا على يد المطرقة التي بيده، قال: ضعوا على المطارق خرقــا مبللــة. وعندما لف النجارون المطارق بالخرق المبللة وبــدءوا طــرق المســامير الخشبية وتثبيتها فى أماكنها، جاء صوت المراقب الذي يقــول اختبئــوا. إن النجارين الذين سمعوا صوت المراقب اختبأوا على الفور خلــف الصــخور

والأدغال الموجودة على الشاطئ، وبدعوا في مراقبة المركب الشراعي القادم من الشمال الشرقي مقتربا من مضيق الدردنيل بطرف عيونهم، ذلك المركب الذي ترك نفسه للريح تسيره كيفما تشاء تحت ضوء القمـــر الـــذي تحجبـــه الغيوم. إن الحرفيين الذين كتموا أنفاسهم وأخذوا ينظـــرون بإعجـــاب إلـــى المركب الشراعي المضاء بمصابيح البحارة المعلقة على الصوارى المفتوحة كالأذرع، عادوا لمباشرة عملهم من جديد بمجرد أن ابتعد المركب الشراعي. وعندما حجبت الغيوم ضوء القمر كانوا ينفذون عملهم عن طريق اللمـــس، ومع هذا أنجزوا عملهم في فترة زمنية وجيزة، وانتهوا من بنـــاء العوامـــات التي ستحمل الأشياء. رئيس العمال جعلهم يحضرون العوامات اثنتين اثنتين إلى جوار بعضهما البعض ويربطون بعضها ببعض بإحكام بواسطة حبـــال المراسي. وعندما أتموا أعمال الربط، جعلهم ينزلـــون العوامـــة الضـــخمة المكونة من أربع عوامات صغيرة إلى البحر. وما إن أنزلوا العوامة الكبيرة المكونة من أربع عوامات صغيرة، حتى سُمعت أصوات مجـــاديف قـــوارب الصيادين الذين جاءوا لمراقبة الشاطئ. وعندما اقترب أربعة مـــن قـــوارب الصيادين إلى الزوايا الأربع للعوامة الضـــخمة ربطـــت الأحبـــال الغليظـــة الموجودة في زوايا العوامة في القوارب. وما إن أخذ الصياد الـــذى ســـيقوم بدور المرشد مكانه في مقدمة القارب، حتى نادى رئيس العمال بصوت قوي: كل شيء تمام يا سيدي، نستطيع أن نقوم بتحميل السلال إلى العوامـــات. إن البحارة الموجودين خلف الربوة والذين سمعوا صوت رئيس العمـــال قـــاموا بنقل سلال الظهر التي اشتروها من القرويين إلى الشاطئ. قـــام الحرفيـــون الذين وصل الماء إلى منتصف خواصرهم بوضع السلال التى نقلـــت إلـــى

الشاطئ على سطح العوامات الضخمة المكونة من أربع قطع والتي تبدو وكأنها قطعة واحدة بشكل جيد ومتوازن، وربطوها بعضها ببعض بالحبال. ولما أنجزوا عملهم أخذ بحارة قراسي أماكنهم على المجاديف على الفور، ثم ركب القادة والبحارة الآخرون القوارب وجلسوا على المقاعد. إن أفرانوس بك الذي رأى أن الجميع قد ركبوا القوارب، انتقل من عوامة إلى الأخرى حتى ركب هو الآخر قارب الصياد الذي سيكون مرشدا للرحلة، وجلس خلف المرشد الذي لا يمكن أن يرى وجهه بوضوح في ضوء القمر. وعندما فهم أن الجميع ينتظره ربَّت برفق على كتف المرشد وقال بلغة واضحة يفهمها الصياد: هيا على بركة الله.

التفت الصياد ونظر إلى أصدقائه الموجودين على الشاطئ، ثم نظر إلى أفرانوس بك. قال بلغته التي يتحدثها، وهو يشير بيده إلى الناحية التي سيتم سحب المجاديف منها: هيا على بركة الله. وعندما ترجم أفرانوس بك ما قاله، بدأ من يجلسون على المجاديف بضرب مجاديفهم في المياه الزرقاء. وبينما تبتعد مراكب الصيادين والعوامة الضخمة التي يسحبونها ببطء عن الشاطئ، اكتفى أصحاب قوارب الصيد والنجارون الموجودون على الشاطئ بالنظر إليهم من خلفهم. وكان الصياد الذي يقوم بدور المرشد يقوم بالتجديف مع بحارة قراسى، وفي الوقت ذاته كان يكرر باللغة الرومية قائلا لأفرانوس بك الذي يجلس خلفه: ليسحبوا مجاديفهم معا في نفس اللحظة وفي نفس الاتجاه. وكان أفرانوس بك يقوم بترديد ما قاله المرشد باللغة التركية بصوت يسمعه المُجَدِّفون الموجودون خلفه. وكان الدردنيل قد أصبح كالبساط بعد أن هدأت أمواجه من عناء التلاطم طوال اليوم. وبعدما تقدمت القوارب بسهولة ويسر لفترة طويلة، أصبح الصياد الذي يقوم بالإرشاد قلقا بعض الشيء: قال

وهو ينظر إلى أفرانوس بك: إن هدوء البحر بهذا القدر ليس بشير خير ولكن علينا أن نقطع ما نستطيع من مسافة مستفيدين من هذا السكون.

قال أفرانوس بك، وهو ينصت إلى الصياد الذي تلمع عيناه تحت ضوء القمر الذي تحيطه الغيوم: " لم أر هذا النحس منذ فتحت عيني على الحياة ". كما قال بصوت غاضب: تحدث بالخير...وقام بتوبيخ الصياد. لم يستطع الصياد أن يتفهم غضب أفرانوس بك معتبرا أنه لم يكن في كلامه شيء يمكن فهمه على نحو خاطئ. قال وهو ينظر إلى القمر الذي يظهر ويختفي بين الغيوم في السماء: قلت هذا لمعرفتي بالبحر. كان يجب أن تكون هناك رياح حفيفة في هذه الساعات، إن عدم وجود رياح يصيبني بالخوف لا محالة.

قال أفرانوس بك بصوت مرتفع قليلا هذه المرة: احتفظ بعلمك لنفسك. إن مهمتك هو أن تعبر بنا إلى الشاطئ الآخر سالمين. من الآن لا أريدك أن تنبس ببنت شفة قط.

ضحك الصياد المرشد ضحكة خبيثة منتهزا فرصة اختفاء القمر بين السحاب.

إن أفرانوس بك الذي شاهد ضحكة الصياد الخبيثة عندما ظهر القمر فجأة من بين الركام، حرك رأسه يمنة ويسرة ونظر إلى القوارب الموجودة في الخلف. وبحث بنظراته عن سليمان باشا لفترة. وعندما رآه انفرجت أساريره. رجع ينظر نحو مقدمة القارب. وبينما ينظر إلى الصياد همس بصوت يستطيع أن يسمعه قائلا: "آمل ألا يكون قد نسي أن حياة أسرته كلها في يده، ويجب أن يكون تحت المراقبة".

وبينما كان أفرانوس بك يراقب الصياد المرشد، كان سليمان باشا يتابع بولع مداعبة ومضات البرق التي انقطع أملها من ضوء القمر المختفي بين الغيوم لبعضها بعضا. وبينما كان يتذكر يومه الفائت وهو يتابع انكسارات البرق المتصادم، خطر بباله حكاية هيرو ولاندرو التي قصها أفرانوس بك بالأمس. وفي الوقت الذي كان يفكر فيه في لاندرو الشجاع، كان كذلك ينظر إلى المُجَدِّفين الموجودين على القوارب. وقال بصوت مختلط بأصوات المجاديف التي تغوص في الماء وتخرج: " نحن محتاجون إلى الكثير من المُجَدِّفين، بسواعدهم تلك كل ليلة".

أفرانوس بك الذي يجلس فى قارب المرشد الموجود في المقدمة، عاد نحو الخلف. وقال وهو ينظر إلى سليمان باشا: سيدي لو كان هيرو الذي يرشد الطريق بفناره على الشاطئ الآخر هل يتم العبور مرتين في اليوم؟

قال سليمان باشا بصوت خجول من سماع ما قاله: كنت أظن أنني قلت بصوت خفيض جدا ولكن....

قال أفرانوس بك: سيدي لا تنظر إلى الأشياء الكثيرة التي تخفيها المياه في أعماقها، فإنها لا تستطيع أن تخفي شيئا فوق سطحها. كل ما هو موجود تأخذه وتلقي به إلى الشاطئ.

سليمان باشا: أنا لا أعرف البحر مثلكم، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع. ولكن نظرا لأنه يخفي الأسرار فإنه لا يمكن الوثوق به....

أفرانوس بك من أجل أن يحفز الحاج إلباي الموجود في القارب الذي يأتي خلف القارب الذي يركبه سليمان باشا مباشرة على الكلام، قال: يا أميرنا ستسمع حكاية هذه الشواطئ من الحاج إلباى.

نظر الحاج إلباي إلى إيجه بك ذي الشعر الأبيض، والذي يجلس في القارب المقابل للقارب الذي يركبه وقال: في الحقيقة إن إيجه بك هو من يعرف جيدا الأساطير الموجودة في هذه المناطق. حيث جال هذه المناطق شبرا شبرا في زمن ولاية قراسي.

أسطورة سامندرا وعبد الرحمن التي سمعتها في نيقوميديا هي الأسطورة الوحيدة التي أعرفها جيدا.

قال سليمان باشا: سمعتها أنا أيضا، أنا أريد سماع أساطير جديدة.

في الوقت الذي سيجيب فيه الحاج إلباي، فإذا بصوت المرشد الذي يشبه الصرخة: اضربوا المجاديف معا بسرعة من كلا الجانبين.

أفرانوس بك الذي أصابه الفزع والهلع من صرخة المرشد، ظنا أن هناك خطرا ما شعر به المرشد، قام بترديد ترجمة ما قاله المرشد لمن هم وراءه وبصوت يسمعونه جيدا. وبدأ المجدفون الذين سمعوا ما قاله في التجديف بسرعة أكثر. ولكنهم كانوا قد تأخروا. لأن الأمواج العاتية كادت أن تقلب القوارب على جنوبها. أما الحاج إلباى الذى أصابه الرعب والفزع أكثر من أى شخص آخر فإنه بدأ في قراءة الأدعية بصوت مرتفع من شدة الخوف. كما شاركه البحارة الذين سمعوه الدعاء بأصواتهم ولكن ما إن ارتفعت أصوات المياه المرتطمة بالمراكب حتى خنقت أصواتهم في فترة

وجيزة، وسكت الجميع. وبينما كانت تتأرجح المراكب الكبيرة على الأمـــواج العاتية مثل قطع الخشب الصغيرة، فإن الدلافين التي لا يعرف من أين أتت، دخلت في سباق بعضهم مع بعض في القفز العالي مع القوارب كلما مـــرت الأمواج. أما المرشد الذي شاهدها فلم يستطع أن يتحكم في ضحكاته. وبعـــد أن ضحك كثيرا دون اكتراث، حتى إنه جعل أفرانوس بك الذي يجلس خلفه يصر أسنانه. قال وَهو ينظر إلى الخلف: ها هم الأصحاب الحقيقيون لهـــذا المكان.

أفرانوس بك الذي أصابه الغضب من ضحكة الرجل، قال: لنخرج إلى الشاطئ، ولنجعلك الصاحب الحقيقي للبر.

المرشد الذي سمع ما قاله أفرانوس بك، أدرك أنه تجاوز كثيرا في هذا الموضوع، وقال: كنت قد أردت أن أقول بأنه يوجد في البحر أحياء أخـــرى غيرنا.

قال أفرانوس بك الذي التفت نحو البحار: كنت قد قلت لك قبل قليـــل احتفظ بأفكارك لنفسك، إن سمعت صوتك ثانية سأقطع لسانك قبل أى شيء.

(٤)

ابتسمت الإمبراطورة الأم وهى تنظر إلى عينى ابنها اللتين يغشـــاهما النعاس. ظهرت إحدى البسمات الرقيقة من نظرات عينيها التي تعكس كـل أطياف اللون الأزرق بالشعاع الذي يملأ داخل الغرفة، والذي يدخل من خلال النافذة الموجودة في الجدار العريض. نظرت أنتيجونـا إلـى خضـراوات الجزيرة، وإلى أجبان سلايمبيرا الطازجة الموجودة في الأطباق المصـفوفة على طاولة الطعام المزينة بالقطع الخزفية الصغيرة. وبينما تنظر إلى ابنهـا من جديد قالت وهي تجمع بين البسمة الموجودة على شفتى عروسـه إيلينـا شديدة الحمرة والحيوية والتي تشبه البرعم، مع ما تعبر به نظراته هو مـن مشاعر، وقالت: "بالغة النضارة والحيوية" ثم انطلق الاختلاف الكبير الموجود بداخلها في الطريق المباشر نحو العالم الرحب.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس المنفي الذى لاحظ شرود والدته، اتجه نحو مائدة الإفطار التي أعدها الخدم وهو يحاول الـتخلص مـن أرق الصباح الذي مازال واضحا فـي عينيـه. تجولـت نظراتـه لفتـرة بـين الإمبراطورة الأم والدته أنا السافويانية وعروسة الإمبراطورة إيلينا. جلـس على المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه. وقال وهو ينظر مرة أخرى إلى كـل من أمه وزوجته: " بالهناء والشفاء ". وبدأ في تناول طعام الفطور. وبعد أن ظل صامتا لفترة بعد تناول طعام الفطور، قال: يا والدتي هل ستذهبين اليوم

إلى سوق أهالي جنوة؟ أنا أيضا كنت أرغب في الذهاب معكم ولكن لدي الكثير من الأعمال اليوم. سوف أستقبل الرسل القادمين من بحر الجزر. إن أردتم يمكنني أن أقوم بتأجيل جزء من هذه المقابلات إلى الغد. على أية حال فإن قدوم الوفود والبعثات لا ينقطع. لقد قابلتهم أمس، ولن يضيرهم شيء إن أجلت مقابلتهم يوما.

الإمبراطورة الأم: لا يا ولدي، نحن سنذهب بمفردنا. اهتم أنت بمن يبدون لك إخلاصهم وولاءهم. لا يمكننا معرفة ما الذى سيحدث غدا.
من الممكن أن تكون محتاجا لكل شخص.

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الموجود في المنفى وهو يبلع اللقمة الموجودة في فمه: يا أمي لا تتخيلي خيالات كهذه. الحقيقة الثابتة هو أننا موجودون على هذه الجزيرة. إن غايتي الآن هو أن أمضي معكم بعضا من الوقت. أما الأعمال الأخرى فستسير من تلقاء نفسها، حتى وإن لم أكن موجودا. حتى إن رئيس الوزراء أليكسيس يقوم بإنجاز الكثير من الأعمال على نحو أفضل مني.

الإمبراطورة الأم أنّا، قالت وهي تنظر إلى ابتسامة العروس التي لم تفارق شفتيها وهي تتناول الفطور: كان حماك هو أحد الأشخاص الذين رباهم والداك والذي كان يثق بهم جدا كذلك. وكذلك كل من سبقوه تعلموا من والدك أيضا. آه لو استطعنا أنا وكذلك الآخرون أن نلتقي به في عصرك ما كان ليحدث كل هذا لبيزنطتنا. أنا حتى الآن ما زلت أثق بمعرفة حماك ورجاحة عقله. لا نستطيع أن نلقي بالمسئولية على عاتقه بمفرده من بين كل هؤلاء. أعتقد أننا جميعا مخطئون في هذا الأمر.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس المنفي، قال لوالدته وهو ينظر إلى الإمبراطورة إيلينا التي تجلس على المقعد الموجود بجانبه ببسمتها الموجودة على شفتيها: والدتي العزيزة أنا أيضا أثق برجاحة عقل حماي قدر ثقتك به. ولا يساورني أدنى شك في ذلك، وصفه لي حتى الآن بأنني شريك عرش الإمبراطورية يزيد أملي في ذلك. وأثق أنه إن عاجلا أو آجلا سيقوم بدعوتنا إلى القسطنطينية. حتى وإن لم يفعل هو، فحتما سيدعونا الآخرون. وبعدما فرغ من كلامه نظر ثانية إلى الإمبراطورة إيلينا التي تجلس إلى جواره. وعندما لاحظ عدم وجود الابتسامة الموجودة دائما على شفتي الإمبراطورة إيلينا، قال: آه يا إيلينا لقد فهمت كلامي على نحو غير صحيح.

إيلينا التي يلقبها الخدم بالإمبراطورة الصغيرة التفتت قليلا نحو زوجها وقالت وهي تنظر بنظراتها الناعمة نحو الإمبراطورة الأم أنّا: يوحنا إن الذي تريد الحصول عليه من والدى لا يهمنى على الإطلاق. إن طفولتنا أنا وأنت قد عشناها وسط صراعاتهم وخلافاتهم. وحتى الآن لم نتخلص أيضا من هذه الصراعات والمنازعات. إن بقاءنا بعيدا عن القسطنطينية في هذا الوقت ربما يصيبك بالحزن. ولكن صدقني أنا سعيدة جدا باللقب الذي يحمله أولادي. طفلي الذي سيولد أريد أن أضعه على هذه الجزيرة الهادئة. آه هل يمكنكما الاستفادة بعضكما من بعض، ليتك تستفيد من خبرات أبي وتجاربه، وليت أبي يستفيد كذلك من شبابك؟

الإمبراطورة الأم أنّا وهي تنظر إلى جسم إيلينا الصغير والمفعم بالحياة والحيوية، قالت: شابة يافعة ولكنها أنضج عقلا منا. واستمرت في حديثها قائلة: عندما كنت في مثل عمرها لم أكن أستطيع أن أتحمل نفي أندرونيكوس

إلى إحدى الجزر فحسب، بل لم أكن أستطيع أن أتحمل أن أبقى بعيدة يوما واحدا عن القسطنطينية.

بعدما آوت إيلينا إلى غرفتها في هدوء بعد أن انتهت من تناول فطورها، أخذت الإمبراطورة تتابع التهام ابنها للطعام باشتهاء. ومع متابعتها لوجه ابنها وفجأة – ودون أن تدرى– تخيلت صورة وجه زوجها المستدير المتدلي على وجه ابنها. كانت طريقة فتح ابنها وغلقه لفمه يشبه فتح وغلق فم والده إلى درجة كبيرة جدا. استندت على ظهر المقعد دون أن تفارق نظراتها وجه ابنها الذي تخيلته وجه زوجها. وهي ترتشف جرعة من مشروبها الدافئ حدثت نفسها قائلة: إن فم أندرونيكوس يشبه فم ضفدع مسن أما فم يوحنا فإنه يشبه فم ضفدع شاب إلى حد كبير. وحاولت أن تتذكر متى كان آخر طعام فطور تناوله زوجها باشتهاء على هذا النحو. بعد أن أغمضت عينيها وفتحتها مرة أو مرتين قالت بصوت مسموع: " إن لم تخني الذاكرة، كان آخر فطور تناوله والدك باشتهاء على النحو الذي تناولته أنت، في اليوم الذي ذهب فيه إلى نيكايا لحضور الاجتماع السابع لمجلس القادة."

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي استمع إلى كلام والدته ابتلع ريقه عدة مرات وكأن اللقمة الأخيرة التي ابتلعها قد وقفت في بلعومه. وكان إذا أراد الحديث لا يستطيع صوته الذي تحدثه أحباله الصوتية الوصول إلى شفتيه لفترة . وبعد أن شرب عصير الفاكهة الموجود في الكأس الكبير عن آخره قال:

يا والدتي! إن حديثك عن والدي يشعرني دائما بالسعادة، ولكن عندما أتذكر تركه أنتيجونا بمفردها يجعلني لسبب ما أتحامل عليه. أرى أن والدي لو لم يترك أنتيجونا بمفردها في ذلك الوقت لما كان قد حل بنا كل هذا الآن.

الإمبراطورة الأم أنّا التي تنصت لابنها قالت: كان العثمانيون قد حاصروا أنتيجونا قبل سنوات من عصر والدك. إن والدك لم يتخل عن تلك المنطقة كما تظن أنت. ولأن والدك قد استشرف الخطر قبل أن يحدث بسنوات فإنه قال للمشاركين في الاجتماع السابع لقادة المجلس: "إن لم تقدموا لنا الدعم من أجل إيقاف تقدم العثمانيين في الأناضول فإنكم لن تستطيعوا فيما بعد التصدى لهم في مناطقكم". حتى إن الكاردينال الذي جاء من أفيجنون، كان قد قال: " يا أندرونيكوس، إن مخاوفك ليست في محلها البتة، لا تخف أبدا، إن قوة العثمانيين لن تستمر لعدة سنوات كالسلاجقة وستنتهي في الأناضول أيضا كما ستنتهي من على وجه الأرض". وكان والدك قد حزن جدا لعدم الأخذ برأيه مأخذ الجد ووضعه موضع الاهتمام. ومن أجل أن يسلي نفسه قال: "إنهم لا يعدوننا منهم يا أنّا. لو كانوا قد أخذوا كلامي مأخذ الجد، لكانوا قد حافظوا حتى الآن على جيوشهم الجرارة التي قضت على السلاجقة" واستمر في حديثه... وبينما كنت أداعب رأسه التي وضعها على صدري الذي لم يستطع أن يتحمل أحزانه قلت: " يا عزيزي أندرونيكوس! ألم تعلم أن القارة الكبيرة بمثابة مكان الحريق". وكنت أحاول أن أسري عنه قائلة: انظر ستري، إنه في الوقت الذي يتصارع فيه الملوك بعضهم مع بعض من ناحية فإن الطاعون من ناحية أخرى يتفشى وينتقل من مدينة إلى أخرى، وحتى يتخلص من أحزانه، قلت: ستهب كل من أفيجنون

وكذلك الفاتيكان لمساعدتك. وبينما كانت أمه تحكـــي هــذه الأشــياء، فــإن الإمبراطور المنفي يوحنا باليولوج الخامس الذي استغرق في عالم آخــر غيــر الذي تتحدث عنه والدته، كان يجول في عقله باستمرار سؤال يقول: ماذا نحــن فاعلون مع العثمانيين؟. عندما انتهت والدته من حديثها نهض الإمبراطور مــن مقعده ومشى عدة مرات من جدار إلى جدار في قاعة الطعام الواســعة. توقــف ونظر لوالدته؛ التي ما زالت تتناول فطورها. وبعد فترة أخرى من المشي خرج من قاعة الطعام وذهب إلى قاعة الجلوس. حيث دخل القاعة وجلس على مقعــد مصنوع من جلد الإبل ، وبينما كان ينظر من النافذة إلى الخارج جاءت والدتــه أيضا. التفت نحوها قائلا: يا والدتى احكى لى قليلا عن إمبراطورية والدي.

الإمبراطورة الأم أنًا السافويانية التي يستدل من التجاعيد الموجودة في جيدها فقط على تقدمها في العمر قالت وهي تنظر إلى عيني ابنها: ولدي، إن الجروح التي نكأها اليونانيون الذين استطاع جدك الأكبــر إخــراجهم مــن القسطنطينية لم تكن قد اندملت بعد عندما تولى والدك عرش الإمبراطورية. بعد أن صمتت لفترة وفي الوقت الذي كانت ستستأنف فيه حديثها قُرع بــاب القاعة. الساعي الذي دخل إلى الداخل، بعد أن ألقى التحية مرتين، قال: يــا صاحب العظمة، إنهم قادمون، إنهم كثير جدا.

وفي لحظة خرج من القاعة الإمبراطور المنفي يوحنا باليولوج الخامس الذي اصفر وجهه راكضا دون أن يأخذ حذره ولو بالسؤال: من القــادمون؟ وكذلك الإمبراطورة الأم أنًا من خلفه.

(٥)

إن الدلافين التى دخلت فى سباق بعضها مع بعض حول القوارب حتى مطلع الفجر فإنها مثلما ظهرت وخرجت فجأة، غاصت واختفت فجأة فى مياه الدردنيل عند طلوع الفجر.

وعلى حين كان سليمان باشا ينظر من خلفهم حيث شاهد الشاطئ الذى بدا وكأنه شريط أسود: ثم قال: يا أفرانوس بك كان علينا أن نصل إلى الشاطئ قبل شروق الشمس.

إن المُجَدِّفين الذين سمعوا صوته أخذوا في التجديف بسرعة وبدأت القوارب تشق طريقها وكأنها في سباق بعضها مع بعض.

وعلى حين كانت قوارب الصيادين تقترب بسرعة نحو الشاطئ كان أفرانوس بك ينظر باستمرار إلى سليمان باشا، الذي كان ينتظر منه إشارة ما. ولكن عندما لم تأت الإشارة التي ينتظرها بأي شكل من الأشكال عاد ونظر إلى المنكبين العريضين للمرشد الذي يجلس في المقعد الموجود أمامه. ولما شاهد المرشد الذي يضحك بخبث شديد قال: "من الواضح أنك تعلم شيئا ما. وكأنه لم يكفك أنك جعلت البحارة يجدفون ضد التيار طوال الليل، والآن تضحك بخبث شديد. وتحدث قائلا وهو ينظر إلى الشاطئ الذي بدا يقترب شيئا فشيئا: "لو قفز إلى البحر فلن نستطيع الإمساك به". واقترب شيئا فشيئا من المرشد الذي يدير ظهره له. لم يستطع الصياد الذى كان ينظر إلى

الشاطئ بتلك البسمة الشيطانية الموجودة على شفتيه أن يدرك أن أفرانـــوس بك يدنو منه. جثا أفرانوس بك على ركبتيه وكأنه يحتضن ظهـــر الرجـــل. وانقض عليه وكأنه سيأخذ الرجل في قفطانه. فزع الرجل عندما أحس بأنفاس أفرانوس بك الساخنة في عنقه. أراد أن يدير رأســـه إلـــى الخلـــف بيـــد أن أفرانوس بك بينما كان يطبق بأحد ذراعيه على عنقه مثل الكماشة أمســـكت يده الأخرى بالمقبض الصدفي للخنجر الطويل المسنون المشهور المعلق في حزامه. وبلا أي هدف قال الصياد الذي أدرك ما سيحل به وهو ينظر إلـــى جواربه المنقوشة على مضض: " لا يوجد في هذه المناطق من يحيك هـــذه الجوارب المنقوشة مثل زوجتي أنا". أفرانوس بك الذي لم يستطع فهم ولـــو نصف ما قاله المرشد، قرب فمه جدا إلى أذن الرجل الذي جثم على كتفيـــه مثل الكابوس في غسق الليل. وبعد أن أخذ نفسا عميقا عدة مرات: ولم يكـــد يقول: " لو اعتقدت بأنك لن تقفز إلى البحر وتهرب بعد قليل ما كنت أفعـــل هذا. ولكن منذ رأيتك وحتى الآن لم تفعل أى شيء يجعلني أثق بك قط" حتى غرس النصل المدبب للخنجر الطويل الموجود في يده فـــي عنـــق الرجـــل. الخنجر الطويل المدبب وكأنه يعرف إلى أين سيذهب بعد أن قطع مسافة في الأنسجة الرخوة وصل واستقر فى المخيخ. ولما توقف الخنجر زاغت عينـــا الرجل وفقد الوعي. قام أفرانوس بك الذي يمسك بالصياد الذى فقد وعيه من تحت المقعد بجره إلى حافة المركب وألقى به إلى الماء من بين اثنـــين مـــن الجدافين. الجثمان الثقيل الذي أحدث صوت جلبة "جللوب" وهو يسقط إلـــى الماء وبينما كان يغوص في ظلمات المياه العميقة، وبينما كان أفرانوس بـــك ينظر بوجهه الطويل المقطب قليلا إلى المياه التي ابتلعت الرجل، فإذا بوجـــه

الرجل الذي طفا على سطح الماء البارد وكأنه فم ضخم فتحه ثم أغلقه وقال ليندروووس:

أفرانوس بك الذي ينظر إلى الماء بعد أن مسح عينيه، عندما لم ير أي جزء من الرجل على سطح الماء ابتسم بسمة حزينة، ذهب إلى مكانه وجلس وهو يقول: إن بطلتك وكذلك أبناؤك أمانة عندى.

قال سليمان باشا الذى شاهد كل ما قام به أفرانوس بك مــن القــارب الموجود خلف قارب المرشد مباشرة،: " لا جرم أن هناك سببا لمـــا فعلـــت، وبينما كان ينظر إلى قارب المرشد التقت نظراته بنظرات أفرانـــوس بـــك. الذي رأى نظرات سليمان باشا تستجوبه نفض كتفيه وقال بصوت مســـموع: هل ديته روح مثله.

سليمان باشا الذي لم يرغب في الرد عليه: بعد أن صمت لبرهة، قال بصوت خفيض: خيرا إن شاء الله.

أفرانوس بك الذي لم يتمكن من سماع ما قاله سليمان باشـــا، دون أن يكترث بعدم وجود المرشد نهض على قدميه وقام بإرشاد البحارة إلى الموقع الذي سيرسون عليه عند الشاطئ. وعندما أنهى عمله رجع إلى الخلف وقال لسليمان باشا الذي ظن أنه ما زال ينظر إليه منذ برهة: كان يستعد للهـــرب وكأنه لم يكن يكتفي بأنه جعلنا نتجول فى البحر منذ المساء.

سليمان باشا ومن أجل أن يهدئ من روعه، قال مرة أخـــرى، ولكـــن بصوت مسموع هذه المرة: "ليكن خيرا إن شاء الله".

التفت أفرانوس بك نحو الشاطئ من جديد وكأن شيئا لم يكن. ووقف على قدميه دون أن ينبس ببنت شفة قط إلى أن اقتربت القوارب من الشاطئ تماما. وعندما لامست مقدمة قارب المرشد رمال الشاطئ، نظر إلى الجدافين وقال: هيا اقفزوا.

عندما اقتربت القوارب بعضها خلف بعض من الشاطئ ذهب إلى جانب سليمان باشا وقال: لقد فهمت أنه سيقفز إلى البحر بعد أن رأيت ضحكته الخبيثة وهو ينظر إلى الشاطئ ومن ثم لم يكن بمقدوري الانتظار حتى الوصول إلى الشاطئ.

تذكر سليمان باشا وهو ينظر إلى يدى أفرانوس بك الضخمتين بنظرة تحمل قدرا من الاستياء، قول الرجل لأحكي لكم كذلك مرثية سكامندروس الذي لم يتحمل مرارة فراق طروادة، بعد أن أنهى حديثه الممل الذي حمل كثيرًا من السفه عندما رآه للمرة الأولى. وقال لأفرانوس بك وهو يضحك مبتسما ابتسامة رقيقة مستقرة على شفتيه: إن عائلته في حمايتك أنت.

وبينما كان أفرانوس بك يتهيأ للإجابة، قال الحاج إلباي الذي جاء إلى جوارهما: لقد أخافتنا الدلافين كثيرا. وعندما فهم أن السيدين اللذين بجانبه لا توجد لديهما رغبة في الحديث كثيرا، غض طرفه ونظر إلى الشاطئ المقابل.

قال أفرانوس بك الذي رآه ينظر إلى الشاطئ المقابل: "يبدو قريبا جدا أليس كذلك؟"

الحاج إلباى وهو يضحك: كنت قد ظننت أننا لن نخرج من البحر أبدا.

أفرانوس بك: كنا سنصل إلى الشاطئ قبل طلوع الفجر بوقت كثير إلا أنـــه وضعنا فى مواجهة التيار مرتين.

وبينما كانوا يتحدثون فيما بينهم، فإن فاضل بك الموجود إلـــى جـــوار البحارة، قال للبحارة الذين قاموا بخلع المجاديف من أماكنها: أخفوا المجاديف بين تلك الأدغال، واخلعوا طوافاتها كذلك وضعوها إلى جوارها وكأنه حريق حطب ما.

بعد أن نظر إيجه بك الذي يراقب قيام البحارة بتنفيذ ما طلب منهم في تناغم وهدوء تام بعد أن نظر هو وبلابانجيق أوغلو إلى الشـــاطئ المقابـــل للدردنيل لفترة كما فعل الحاج إلباي، فإن أقجه قوجه أوغلو الذى جاء إلـــى جوارهما عندما كانا يسيران نحو بقية القادة الآخرين قال ضاحكا: هل تنوون العبور إلى الشاطئ المقابل مرة أخرى؟

وبعد أن ضحك إيجه بك بصوت عال قال: أقبل بأن أقطـــع الطريـــق على ظهر الخيل لعشر سنوات بيد أنني لن أركب القـــارب الصـــغير مـــرة أخرى.

وبينما كان أفرانوس بك الذي استمع إلى حديثهم وهم في حالـــة مـــن السعادة، يسير نحوهم؛ قال سليمان باشا بصوت قوي:

هيا أيها القادة لتبدلوا ملابسكم ولنجلس لتناول الفطور. وبعد أن نتناول الفطور ننتظر مجيء القرويين إلى القلعة والآن لنتقاسم الأعمال.

إن البحارة الذين جلسوا حول المائدة الأرضية التي تم إعدادها في فترة وجيزة لتناول فطورهم، كانت شهيتهم لا ترغب في تناول أي شيء قط. كان

الكثير منهم يشعر بدوار البحر وكأنه يتمايل في المكان الذي يجلس عليه. سليمان باشا الذي أدرك بأنه لا يوجد أي شخص منهم يرغب في تناول أي شيء. نظر إلى كل من القادة والبحارة قائلا: ليقم بالمراقبة على جانب الطريق من لا يعاني أي شيء. وليسترح الآخرون إلى أن تفتح أبواب القلعة. ولنندس بين العابرين من الطريق عندما يبدأ القرويون في الدخول إلى القلعة. لا بد أن ندخل تشميا قبل الظهر؛ لأنه من الممكن أن نلفت الانتباه إن دخلنا بعد الظهر. ليدخل إلى القلعة في البداية رجال كل من إيجه بك وفاضل بك وحسن بك وسيقومون بالقضاء على الحراس الموجودين في الأبراج كما سيقومون بمحاصرة مقر إقامة قائد القلعة. وسيقوم أقجه قوجه أغلو وبحارته الذين سيدخلون من بعدهم بالقضاء على الحراس الموجودين عند البوابة والمناطق القريبة منها. أما الحاج إلباي وبلابانجيق أوغلو ومن معهما من البحارة فسيقومون باتخاذ وعمل ما يلزم في سوق القلعة وشوارعها. وسأكون أنا وأفرانوس بك آخر من يدخل القلعة، ثم صمت.

قال أفرانوس بك الذي أدرك أن سليمان باشا سينهي كلامه: إن اللغة الرومية لأهالي هذه الضفة مختلفة عن اللغة الرومية لأهالي الضفة الأخرى. إنه من الأفضل ألا يتحدث أحد من الذين يجيدون اللغة الرومية بها. وبعد أن صمت لبرهة صاح قائلا: هيا لتكن غزوتنا مباركة.

(٦)

استند الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس على ظهر كرسي العرش الذي يجلس عليه. بعد أن جال بنظراته عدة مــرات بــين جــدران القاعــة الواسعة، نظر على غير قصد إلى عرش الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس زوج ابنته شريك العرش الذي أرسله إلى المنفى، والذي ما زال قابعــا فــي مكانه حتى الآن. وتذكر حال الطفولة التي كان عليها قبل سنوات الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس شريك عرش الإمبراطورية الذي نفاه بعد أن أحكــم قبضته بشكل كبير على القسطنطينية بمساعدة صهره أورخان غازي. كان قد استقرت على شفتيه ابتسامة ممتعضة. كان قد نظر إلى كرسي العرش الفارغ وبينما كان يتذكر الماضي تمتم لنفسه قائلا: نهض من فوق كرسي العــرش الذي أجلسته عليه والدته بالقوة وذهب إلى جانب الجدار المكسو بالأحجــار المنحوتة، وبينما ينظر من النافذة للخارج سأل رئيس الوزراء قائلا:

هل استطعتم معرفة الحالة التي كانت موجــودة بــالطرف المقابــل بالأمس؟.

نظر رئيس الوزراء إليّ أولا وهو تنتابه حالة من الارتباك، ثــم قــال وهو يمد يده له بالمعلومات المكتوبة التي بيده: يا صــاحب العظمــة: " إن أورخان غازي الذي ساند أهالي البندقية ضد أهالي جنوة خلال الاشــتباكات التي وقعت قبل ذلك في البسفور، قرر مساندة أهالي جنوة بحجة أن أهــالي

البندقية لم يلتزموا بالاتفاقات المبرمة. في الواقع إن هذا الشيء لا يعنينا في شيء، بيد أن اتفاق أهالي جنوة على دفع جزء من الضرائب التي يؤدونها إلينا إلى أورخان غازي أمر يعنينا بشكل مباشر. فضلا عن استيلاء العثمانيين على خالكيدون التي يوجد بها مخازن أهالي البندقية، هو بمثابة الصداع الذي يؤلم رأسنا. أما الأسوأ من ذلك فهو قيام رهبان وقساوسة الكنائس الموجودة في الجزر بإرسال الوفود إلى عثمان غازي وكانوا يقولون له: ابسطوا يد عدالتكم على جزرنا، وأنقذوا شعب الجزر من الضرائب البيزنطية. يا صاحب الجلالة! إذا لم تستطع الجزر تحقيق رغبات الحكام البيزنطيين، وإن لم نستطع أن نمنع وبكل حزم قيام كل موظفينا الذين نرسلهم إلى الجزر من فرض ضريبة جديدة خاصة لأنفسهم، فإننا لن نستطيع الحيلولة دون ضم الجزر إلى الأراضي العثمانية في أقرب فرصة.

عندما التفت نحوي شريكي الإمبراطور برأسه ذى الشعر المجعد الذى يشبه الكرة الصغيرة، ولما رآني أتفقد بنظري من النافذة الواسعة حى أهالى جنوة وبقية الأحياء الأخرى، وكأنه يلمح بأنني لم أهتم بالموضوع، حيث كان قد تحدث بحديث والدته قائلا:

شريكي الإمبراطور المعظم ترى كيف ينظرون إلى هذه المسألة! حتى إن تزويج ابنتكم تيودورا من أورخان غازي لم يكن مفيدا في الأغلب. مع أنكم كنتم قد زوجتموه من أجل الصداقة والسلام. ماذا يريد منا أكثر مما حصل عليه! سيكون من الأفضل لو عبرتم إلى الجانب الآخر وتفاوضتم معه باسم بيزنطيتنا كما فعلتم من أجل أنفسكم من ذى قبل. وإلا فإنه لا بقاء لإمبراطوريتكم وإمبراطوريتي بسبب وجود صهركم أورخان غازي.

كنت أنظر إليه بعين طفل صغير حتى انتهى من حديثـه، لكـن بعـد سماعي حديثه هذا، أدركت أنني أمام أحد الشباب الذين بدءوا في النضـوج. إلا أن شبهه لوالدته قد ضايقني بعض الشيء. وكما أفعل في كـل الأوقـات التي أتضايق فيها وبينما كنت أخلل لحيتي بأطراف أصابعي، قلت:

أنت أيضا صهري يا عزيزي يوحنا. إن ما يجب أن تعلمـه هـو أن أورخان يصغي إلى بنفس الدرجة التي تصغي بها إليّ. قبـل وفـاة والـدك تحدثنا كثيرًا بخصوص احتلال العثمانيين لأراضينا. وكنت قـد قلـت لـه فلننقض عليهم قبل أن تستفحل قوتهم. بيد أن والدك اعتمد على قوة الإسبان الموجودين في القارة العجوز بدلا من أن يعتمد على قوتنا. وفي تلك الأثناء طلب دعم كل من روجر وباليوم ورجالهم العائدين من مالطة. ولكـن مـا فهمناه بعد فترة وجيزة أن فكرة الغنيمة هي التي كانت قد أسالت لعاب كـل من الإسبان واليونانيين. ربما قصت عليك والدتك هذا. ولم يترك كـل مـن اليونانيين والإسبان أي شر إلا وفعلوه ببيزنطيتنا. علاوة علـى ذلـك فـإن الرجال الذين لم يعودوا إلى بلادهم جثموا كالكابوس لسنوات على الكثير من قلاعنا. وكأن كل هذا لم يكن كافيا لهم فقد احتلوا الكثير من قلاعنا مثل قلعة بيجاسي. آه لو أن حارسي هدريانابولس كلاً من روجر وبلوم وقادتهما لـم يقعوا في الفخ في تلك الآونة، لكان الدخول إلى القسطنطينية هو ما ينتويـه الرجال بمجرد عودتهم من البلقان.

إن تمزق السلاجقة الذي كان قد منحنا الأمل في تلك الأثنـاء، جعلنـا مضطرين لقتال البقية المتبقية من الإسبان. ففي الوقت الذي سقناهم فيه إلـى تسلي والمورة كانت أيضا أراضي الأناضول الخصبة تلد العثمانيين. إن أحد

القرارات التي اتخذها والدك هو أن نتعايش معهم كأصدقاء. وكان هذا هو ما دفعني لتقديم ابنتي تيودورا عروسا لابن عثمان. وكان استمرار الصداقة معهم من أجل سلام بيزنطتنا. وكان والدك قد زوَّج أسباسيا اليافعة لأورخان؛ لأنه كان قد سبقنى في التفكير فيما فكرت فيه. ربما كان هذا الشيء المستغرب هو الذى قد قضى على قلب والدتك. ولكنه كان قد سبقني في إرسال ابنته للعثمانى. ولكن الشيء الذى لا يجوز نسيانه، بعد روجر هو هجوم ملك الصرب المارق علينا. في البداية كان يوقفه القائد أومور ومن بعده أيضا كان يوقفه العثماني. كنت قد قلت في وجه شريكي. إنه لم يكن هناك شيء مستغرب في كل ما حصل قط.

إن شريكي الذي سمع ما تحدثت به، قال بسرعة:

لابد من أن نجد سبيلا ما لنخرجهم من أراضينا. ليبقوا في أراضيهم، ونبقى نحن كذلك في أراضينا.

لقد اندهشت قليلا بسبب رد فعله المفاجئ هذا. ولكن قلت له:

كنت قد قلت له: يا صاحب العظمة، أظن أنه نظرا لصغر سنكم فإنكم لا يمكن أن تروا ضعف قوة بيزنطتنا الذي يزداد يوما بعد يوم. هناك حكمة لأهالي أثينا تقول: " البارد يسخن، الساخن يبرد، الرطب يجف، والجاف أيضا يصير رطبا". وها هو حالنا يتوافق كثير مع هذه الحكمة. والآن هو زمننا الذي نصاب فيه بالرطوبة. إذا لم نتفكك في ظل كثرة الرطوبة هذه فسوف ننجوا ببيزطتنا.

وبينما ينظر الإمبراطور شريك العرش يوحنا باليولوج الخامس كالمسحور، سألته قائلا: هل المعلمون كانوا قد علموك هذا؟

لم أتعلم هذه من أساتذتي، ولكن كنت قد تعلمتها منكم. ولكـــن علـــى الرغم من تعلمك كل هذا فما زلت تلقنني نفس الدرس ولا تثق بي.

شعرت روحي بالضجر عندما وصلنا إلى نقاش " الثقة" هذا الذي نصل إليه عند نهاية كل حواراتنا. بعد أن قلت له وأنا أنظر إليه:

يلزمنا عدم الخوض في هذا النقاش، لنظل مخلصين لمعاهدة شــراكة عرش الإمبراطورية التي أبرمناها فيما بيننا. ومن الآن كذلك يجب أن تعدل عن التحرك وفقا لكلام والدتك. لأنه لم يعد لدينا ما نضيعه مـــن الوقــت. لا أريد أن نجلس هنا ونخوض في هذه الحوارات التي لا طائل منها، في الوقت الذي تنتظر فيه قلاعنا، التي حولها الإسبان ومن قبلهم اليونانيون إلى خراب، دعمنا العاجل لها. قال الشاب يوحنا باليولوج ودون أن ينظر إلى وجهي:

أنت تعلم أشياء كثيرة أكثر مني. من الآن فصاعدا أنا أيضا لن أدخـــل في حوار حول هذا الموضوع. ولكن لنفعل كل ما بوسعنا من أجل بيزنطتنا، ومن أجل قسطنطينيتنا، بعدما أراد أن يضع كل العبء على كاهلي، قال:

ولكن عندما قلت يا صاحب العظمة، عندما أضع يدي الكبيرة تحـــت الحجر يجب أن تضع يدك الصغيرة أنت أيضا. ظهرت مسحة حزن بسيطة في عيني ذلك الشاب وقال وهو يغمض عينيه:

يا حماي العزيز، علينا أن نفعل كل ما هو نافع ومفيد لبيزنطتنا.

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين، كما فعل في بقية الأيام نظر إلى كرسي عرش صهره وشريك إمبراطوريته يوحنا باليولوج الخامس الموجــود فـــي المنفى وتحدث. الأنكى من ذلك أنه في الوقت الذي كان سيتحدث فيه، فـــإن

رئيس الوزراء سمنداروس الذي خرج من الغرفة في هدوء وسكينة بعد أن جاء صباحا إلى حضرته، وبعد أن قام بتقديم تقريره اليومي دخل إلى الداخل. الإمبراطور الذى شاهد اكفهرار جبهته، واكتسائها باللون البنفسجي، قال:

حتى وإن كان خبرا سيئا، فأنت مجبر على الإفصاح عنه يا سمنداروس. بعد أن بسط رئيس الوزراء إحدى الخرائط القديمة جدا والمرسومة على الجلد الرقيق الموجودة تحت مقعده، بينما ينظر للإمبراطور بعينه، قال:

يا صاحب العظمة! كما تعلمون فإن بروكارتيس وسيكوتاري كانتا قد وقعتا تحت سيطرة العثمانيين قبل فترة قصيرة. وفي الوقت الذي تسعون فيها لاستردادهما فإن الشياطين الموجودين في قسطنطينيتنا لا يتوقفون عن ألاعيبهم..... الإمبراطور ينظر إلى وجه رئيس الوزراء وكأنه يقول " لم أفهم أى شيء مما قال" وفجأة سأله قائلا:

سمنداورس، عن من تتحدث؟ لم أستطع أن أفهم.

العفو يا صاحب العظمة، ولكن كنت أتحدث عن السيد باتريك أكثر الرجال الذين وثق بهم ألكسيو في القسطنطينية. فكما أنه لا يعترف بكم إمبراطور بأي شكل من الأشكال، فإنه كذلك يسعى للترويج على ألسنة الناس بأنكم إمبراطور غاصب لعرش الإمبراطورية.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين، وهو يضرب جبهته بيده:

لا يوجد شخص غيره على وجه الأرض يمكن أن تثير كلماته الحقد والكراهية إلى هذا الحد الذى يثيره. لم يستطع إكمال جملة "أفضل شيء هو

إحضاره إلى هنا وفي القصر ......". كبير المخبرين الذي دخل إلى الداخل على عجلة من أمره، قال:

العفو يا صاحب العظمة سامحوني لأني سأقول هذا الخبـــر الســـيئ. وانحنى للأمام وبدأ يتحدث شيئا فشيئا.

(٧)

إن قلعة تشمبا الصغيرة التي تشهد منذ مئات السنين تدفق ميـــاه بحــر إيجه الزرقاء إلى مصب الدردنيل من ناحية، وتشاهد من ناحية أخرى مداعبة مياه مليس المالحة للسان الأزرق لبحر الجزر الممتد حتى تراقيا، اســتيقظت من نومها ونظرت إلى قلعة أبيودوس الموجودة علـــى الشــاطئ المقابــل. ابتسمت لأحبائها الذين يلتقون في الساعات الأولى من الصباح في العريشـــة عند ساحة العرض. اكتنفها الحزن عندما لم تشاهد الدلافين التي تقوم بعرض مشهد " من يقفز إلى الأعلى أكثر مــن الآخــر ". وعنــدما رأت الحــراس الموجودين على أبراجها يتبادلون نوبة حراستهم، كما يحدث كل يوم في نفس التوقيت، قالت للرياح: "يظنون أن هذا اليوم لن يكون مختلفا عن بقية الأيــام الأخرى...". عادت ونظرت مرة أخرى إلى المضيق يحــدوها الأمــل فـــي مشاهدة الدلافين التي تلعب مع مياهه الزرقاء. ولاحظت كذلك عدم مداعبـــة الأسماك الأخرى للوميض دون أن تراها. ارتعدت الجدران الحجرية. وبينما تبحث عن سبب لارتعادها، حدثت نفسها قائلة: " ترى هــل هـــي الـــذكرى السنوية لسقوط جِزَّة هيلن من فوق الكبش الذهبي؟". بعد أن فكــرت ثانيـــة لبرهة من الزمن، قالت: "اليوم ليس الذكرى السنوية لها". ظنت أن اهتــزاز الأحجار الضخمة المنحوتة التي شعرت بالبرد نتيجة هبوب الرياح قارصــــة البرودة التي هبت من بين أبراجها. وأثناء حالة الخوف التي تنتابها، همست

قائلة: "هذا اليوم إما أن أُهدم، وإما سأجد نفسي بين أذرع حياة ما جديدة."، ثم عادت إلى صمتها مرة أخرى.

لم يكن قد مضت فترة طويلة على انبلاج الصباح على القلعة وكأنها إنسان ما، حتى بدأ رجال سليمان باشا بالدخول من باب القلعة مندسين مثنى وفرادى بين القرويين الذين جاءوا إلى السوق. إذا كان حراس البوابة في ذلك الوقت يراقبون بلا اكتراث، فإنهم أيضا لم يشتبهوا بجنود البحرية الذين يرتدون الأزياء المحلية، والذين يحملون السلال على ظهورهم. سليمان باشا الذي كان يتابع من أحد الأماكن المنعزلة، والذي كان قد توارى فيه عن العيون دخول كل الأشراف ورجالهم، بينما يحك وجهه بسرعة كالذي سئم من حك أعماق لحيته، شعر بظهور ابتسامة واستقرارها على شفتيه. وكان قد غلبته الابتسامة عندما رأى خجل جنود البحرية الذين يقفون إلى جواره بملابسهم المحلية التي يرتدونها. وتبادر إلى ذهنه سؤال يقول: يا ترى كيف أبدو أنا أيضا؟. في الأغلب أنا أيضا مثلهم، وهز يده وكأنه يقول " أبدو كيفما أبدو". ومرر ذراعيه في علاقات سلة الخضراوات التي يوجد في قسمها العلوي الفواكه الطازجة وفي قسمها السفلي سيفه الذي أخفاه داخل القش. اقتنص لحظة خلو الطريق الموجود بالقرب منه، من المارة وانطلق إلى الطريق. وبينما كان يسير ببطء نحو القلعة ، نظر إلى القرويين الذين كانوا يركبون إحدى العربات التي تجرها الخيل والتي مرت من جانبه. وفي الوقت الذي كان يحافظ فيه على المسافة الموجودة بينه وبين الفدائيين الموجودين في المقدمة، اندس بين إحدى مجموعات القرويين التي كانت تمر بخطى سريعة من جانبه. وكان الرجل والمرأة اللذان يسيران أمامه يتبادلان الحديث

فيما بينهما، في تلك الأثناء كانت المرأة تعطي الرجل الشيء الذي تخرجه من جيب مئزرها. وكان الرجل ودون أن يضيع أى وقت يلقي في فمه بالشيء الذي تعطيه له المرأة. وهذه الفعلة كانت تتكرر باستمرار. كانت أرداف المرأة عريضة تهتز أثناء سيرها. كان أول موضع في جسد المرأة يلفت الأنظار إلى جانب سيقانها الطويلة هو أردافها التي كانت تتمايل. كما كان شعرها شديد السواد الذي يتدلى من أسفل غطاء رأسها حتى خصرها يتأرجح على ظهرها من جهة لأخرى بفعل تمايل أردافها. سليمان باشا الذي كان يتابع مشية المرأة أحيانا، والذي كان يراقب بنظراته الفدائيين عن بعد أحيانا أخرى، سواء الموجودون منهم في المقدمة أو الموجودون في الخلف، كان ينظر كذلك إلى المنطقة الموجودة أمام قلعة تشمبا. كان ظهر الحراس الذين ينتظرون فتح باب القلعة وهم يرتدون زيهم الرسمي بني اللون منحنيا للقادمين، ولكن سليمان باشا الذي عرف أيضا رجال أقجه قوجه أوغلو.... وبينما كان يحدث نفسه قائلا : "كان هذا الشيء سيتم بعد أن ندخل جميعا للداخل"، شاهد أقجه قوجه أوغلو أطول القادة قامة والذي يجلس كالمتعب الذي أسند ظهره على الجدار الداخلى الموجود مباشرة قبالة الباب الوحيد الذي ظل مفتوحا. وفكر قائلا: " نظرا لكونها هادئة فلا يوجد شيء يدعو للقلق". وكان هو آخر من دخل من الباب الخارجي، خلف آخر شخصين دخلا إلى القلعة. أمسك سليمان باشا نفسه عن الضحك بصعوبة عندما نهض أقجه قوجه أوغلو الذي يرتدي أحد السراويل الطويلة الذي يرتديه رجال هذه المنطقة. عندما رأى ضحكته أيضا وهو ينظر إليه، أومأ إليه قائلا " في الغالب لن يبقى أحد منا".

خاطب أقجه قوجه أوغلو قائلا: آمل أن يكون الأمر أسهل مما نتخيل".

ولما جاء أقجه قوجه أوغلو الذي ينظر من خلف القرويين الذين دخلوا كذلك من باب القلعة الداخلية حاملين الأجولة والسلال على ظهـــورهم إلـــى جوار سليمان باشا، قال:

اشتبه الحراس الموجودون على باب القلعة في واحد من جنود بحريتنا، وعندما ذهبوا به إلى عنبر الحراسة بدأنا عملنا مبكرا شيئا ما. لو كنا سمحنا للحراس بالخروج من عنبر الحراسة كنت أخاف من أنهم كانوا سيثيرون كل من بالقلعة.

سليمان باشا حتى وإن حاول لفترة عدم إظهـــار ســـروره الممتـــزج بالنشوة، والذي يملأ وجهه الأسمر إلا أنه لم يستطع النجاح في هذا. وبعدما نظر وهو يبتسم، بنظرة تمنح الثقة للإنسان أومأ بالإشارة إلى أقجـــه قوجـــه أوغلو وكأنه يقول: " ليس هناك أي ضرر من التدخل مبكرا". وعندما ســـأل سليمان باشا أقجه قوجه أوغلو عن عاقبة الحراس:

قال وكأنه يهمس لقد تم إسكاتهم يا سيدي.

بعدما أدرك سليمان باشا أنه لم يبق هناك شيء يجب القيام به، دخـــل من الباب الداخلي للقلعة سريعا ومشى إلى حيث يوجد الســـوق. إن مكـــان السوق المقام على الطريق المرصوف بالحجارة والممتد حتى الجدار المواجه للقلعة، كان يبدو وكأنه قد قسّم القلعة إلى قسمين شمالي وجنوبي. كانت توجد القصور الصغيرة الرائعة التي تستند على الجدران المطلة على بحر هلا. إن الطريق الضيق إلى حد ما، والذي يقطع بشكل عمودي الطريق المرصـــوف

بالحجارة والمقام عليه السوق من منتصفه تماما، كان يربط أبـواب القلعـة الغربية والشرقية بعضها ببعض.

عندما رأى مجموعة كبيرة من الحراس سليمان باشا أثناء سيره بـين الباعة، أشار إلى الفدائيين الموجودين في الأمام بأن يسيروا مـن الشـارع الضيق نحو الباب الشرقي. حتى يتباطئوا بخطواتهم أثناء سيرهم نحو الباب الشرقي، حيث كان قائد القلعة يتفقد السوق المقام برفقة مجموعة من حراسه، وكان يتحدث كذلك مع الباعة. وفجأة التفت قائد القلعة إلى الخلـف وسـأل مساعده قائلا:

هل هناك شاحنات بحرية ستذهب إلى المركب التي تنتظر في عرض البحر؟.

مساعد قائد القلعة الموجود أمام الحراس والذي توجد إشارات خضراء على أكمام ملابسه الزرقاء الملوثة، فأجاب قائلا: نعم توجد إحدى الشاحنات يا سيدي.

قائد القلعة: المركب المنتظرة هي مركب لأحد التجار، أليس كذلك؟

مساعد القائد: نعم تُعد كذلك.

القائد بصوت غاضب: ماذا يعني تُعد كذلك؟.

سامحني سيدي لعدم إعطائي جوابا قاطعا. لم نستطع الحصول علـى معلومات كثيرة كما هو الحال دائما عن السفن التي تحمل أعلام أهالي جنوة. وعندما نصر على الحصول على المعلومات يقولـون لنـا: " نحـن نبلـغ

الإمبراطور فقط بما ننقله أو ما سننقله، ولسنا مجبرين على تقــديم كشــف حساب لكم".

أهكذا؟، إذا كان الأمر كذلك أبلغوا ربان المركب، فليأت إلى القلعــة. أخبروه بأنه إن لم يأت فلن تتمكن الناقلات التي تحمل البضائع من مغــادرة الميناء.

إن لم يتحركوا حتى نذهب إليهم...

هل كانوا لا يأخذون البضائع إلى الآن؟

كنت قد سمعت بأنهم سيتحركون اليوم يا سيدي.

إن كانوا يستعدون للتحرك فمعنى هذا أنه لم يأت أحد من المركب إلى السوق.

أظن أن الأمر كذلك يا سيدي.

إن كان الأمر كذلك، فلماذا السوق مزدحمة إلى هذه الدرجة؟. أم هناك من جاءوا من الشواطئ المقابلة؟.

بعض قوارب الصيادين يا سيدي.

لكن هذا الازدحام لا يشبه الازدحام الذي يسببه من يــأتون بواســطة مجموعة من القوارب. لنبحث في سبب ذلك، ولنعلم لماذا السوق مزدحم إلى هذه الدرجة ولنقف على حقيقة الأمر.

مساعد القائد الذي يرفع ذراعه وهو يبرز صدره إلى الأمام وكأنه يريد أن يظهر شعار الإمبراطورية الموجود علــى صــدره، وكــذلك الشــارات

الموجودة على أكمام ملابسه الزرقاء الملوثة، قال: أعتقد يا سيدي أنه نظرا لموسم الحصاد أن يكون قد جاء من كل عائلة مجموعة من الأشخاص. قائد القلعة الذى لم يقتنع بما قاله مساعده، نظر بريبة وشك إلى المنطقة التي يقف بها، ثم مشى حتى الباب الشمالي للقلعة. وبعد أن قام برد التحية على بعض القرويين الذين دخلوا من الباب، بدأ على الفور في الصعود على الدرج الحجري الذي يصعد إلى أعلى جدران القلعة. وما إن صعد إلى أعلى الجدار في نفس واحد حتى صعد إلى أعلى برج من أبراج الحراسة الموجود بالقرب منه. في البداية استدار ونظر بدقة إلى الشوارع الضيقة الموجودة في القلعة، ثم إلى الحدائق ذات الأشجار القصيرة التي تبدأ من خارج القلعة مباشرة. وعندما رأى أن الأبنية ذات الجدران الحجرية والحدائق الموجودة خارج القلعة تنعم بهدوئها وسكينتها كحالها كل يوم قال: " شكوكي ليست في محلها" ونزل الدرج بنفس السرعة التي صعد بها.

أفرانوس بك الذي كان يراقب عن بعد قائد القلعة منذ أن خرج مع حراسه لتفقد السوق، والذي كان قد أعطى إشارة لجنود البحرية المنتشرين بين الباعة ليتبعوه، أثناء مشاهدته قائد القلعة يتوجه عبر الطريق المرصوف بالحجارة إلى المبنى الذي توقع أن يكون مقر القيادة، رأى عودة سليمان باشا الذي كان قد ذهب قبل قليل نحو الباب الشرقي. وما إن اقترب سليمان باشا من المبنى الحجري الذي يوجد به مقر القائد حتى أمسك بسيفه الذي أخفاه بين طيات عباءته ولحق بأفرانوس بك.

تعثرت قدم سليمان باشا الذي كان ينظر إلى أفرانوس بك الذي كانت تتباطأ خطاه بشكل كبير كلما اقترب من المبنى الذي دخله القائد، بأحد الأحجار الذي خرج من مكانه على الطريق. اصطدم سليمان باشا المترنح بإحدى طاولات عرض البضائع التي مر من جوارها. وبينما تمسك به المرأة صاحبة منضدة العرض البسيطة والتي رأت أنه فقد توازنه، قامت بإصدار صيحة بصوتها المجلجل. ما إن سيطر سليمان باشا الذي لم يتمكن من إدراك ما حل به، وخشي على نفسه من السقوط، حتى قام على الفور بتحية المرأة بالكلمات الرومية التي علمتها إياه والدته. المرأة متوسطة العمر التي تمارس مهنة بيع الخضر والفاكهة منذ سنوات طويلة، ظلت تنظر لفترة إلى البنية الضخمة والعينين المتلألئتين لسليمان باشا الذي تراه لأول مرة. بيد أن سليمان باشا في ذلك الوقت استمر في سيره بخطى سريعة في الاتجاه الذي ذهب إليه أفرانوس بك. سمع قائد القلعة الذي خرج أمام باب مدخل بناية المقر الموجود في نهاية الطريق صيحة المرأة، ولكن استمر في طريقه قائلا: "إنه صياح الباعة". وما إن دخل قائد القلعة إلى غرفة العمل الموجودة في نهاية الممر الطويل في بناية المقر، وبينما كان يقوم بخلع الدروع التي يرتديها في معصميه ومرفقيه وذراعيه واحدا تلو الآخر، وإخراج سيفه من غمده وتعليقهم في أماكنهم في الصوان المدفون بالحائط كما يفعل كل يوم، كان كل من أفرانوس بك وسليمان باشا قد وصلا أمام بناية مقر القيادة. إن الفدائيين الذين تتبعوهم من قريب ومن بعيد، والذين كانوا قد أخذوا حذرهم جاءوا مثنى وفرادى. أحس سليمان باشا بأن نشوة ما لم يشعر بها من قبل تسري في قلبه. وعندما أدرك أنه لن يتمكن من السيطرة على نشوته وسعادته نظر بسرعة إلى أفرانوس بك وقال: حان الوقت الآن.

أفرانوس بك وفي لمح البصر وكأنه يوافق هو الآخر على ما قاله، قام بالتلويح في الهواء بالمنديل الأبيض الكبير الذي أخرجه من جيب الصديري الذي يرتديه قرويو تراقيا، على نحو يمكن رؤيته من بعيد. إن كلا من إيجه بك وفاضل بك وقرا حسن بك وكذلك أقجه قوجه أوغلو الذين شاهدوه من أماكنهم، قاموا بإعطاء الإشارة إلى جنود البحرية الموجودين في أبراج القلعة وأماكنها المختلفة. كما أن جنود البحرية والفدائيين الذين تلقوا إشارتهم من قادتهم قاموا في هدوء بالسيطرة على الحراس الموجودين في الأبراج واقتادوهم إلى المستودعات الموجودة تحت برج القلعة. بعد أن كبلوا أيدي وأرجل حراس القلعة الذين جردوهم من ملابسهم، قاموا بارتداء ملابس هؤلاء الحراس وذهبوا إلى أماكن حراساتهم. لم يكن الباعة وكذلك الزبائن قد لاحظوا أى شيء حتى تلك اللحظة. بيد أن المرأة التي هي في مقتبل العمر، والتى كانت قد التقت قبل قليل بنظرات عينيْ سليمان باشا وبنيانه القوي؛ كانت تراقب كلا من أفرانوس بك وسليمان باشا بنظرات عينيها الحادة وكأنها كانت تريد أن تظهر طولها الفارع. وعندما اقتربت من بابهم بشكل كبير همست قائلة: "وكأن سهما قد خرج من عين الرجل ودخل إلى عيني". نظرت إلى باب مقر القيادة. وعندما لم تستطع رؤيتهم نسيت أنها قامت بعرض بضاعتها على منضدة البيع الخاصة بها، وسارت نحو بناية مقر القيادة. ولكن في الوقت الذي كانت قد خطت فيه عدة خطوات، فإن إحدى السيدات اللواتى عرضن بضائعهن مثلها صاحت من خلفها قائلة: إلى أين تذهبين؟.

المرأة التي هي في مقتبل العمر والتي أفاقت لنفسها بعد سماعها صوت المرأة، تذكرت بضاعتها المعروضة وعادت أدراجها. كانت قد رجعت بجسدها إلا أن قلبها كان ما زال متعلقا وكان يردد قائلا: "ماذا تنتظرين؟".

(٨)

كان يوحنا كنتاكوزين السادس الموجود في القسطنطينية أحد الإمبراطوريين الاثنين اللذين يحكمان الإمبراطورية البيزنطية ذات الإدارة الثنائية، قد حزن كثيرا بسبب الخبر الذي جلبه رئيس وزرائه. بيد أن الحزن والقلق الموجودين على وجهه قد تبددا قليلا بعدما خطر بباله الأمور التي يفكر فيها منذ فترة طويلة من أجل ابنه الكبير ماتيوس. وبينما كان يحك وجهه الملتحي المستدير بأصابعه السمينة، تواترت أفكاره بسرعة. وعندما نظر إلى عرش صهره يوحنا باليولوج الخامس مرة أخرى تذكر ابنته إيلينا. امتلأت عيناه بالشوق. وقال بصوت يغلب عليه البكاء: إلهى امنحني القوة حتى أتخلص من هذا الوضع الصعب! تعلم بأنني لا يمكنني ظلم أى شخص. مهما حدث، لا تجعلني أعدل عن القرار الذى اتخذته! ليفعلوا ما يريدون فعله لا تحول الرحمة والرفق الموجودين في قلبي إلى قسوة وغلظة. ولم يرغب في الغوص في أفكاره وكأنه يستحي من نفسه ومن أفعاله. ولعدم قدرته على تحمل سعير الحقيقة الثابتة الموجودة داخله صاح قائلا: أنا لست رجل حرب. أنا محب للسلام. ولهذا أعطيت ابنتي لرجل مسن مثلك يا أورخان. يا أورخان لماذا كلما أدعوك إلى السلم والمحبة تجنح أنت إلى الحرب على الدوام؟. ولكن لتعلم أن صبر بيزنطة له حدود. أظن أنك سوف تجعلني أعدل عن أفكار الصداقة هذه. لتعلم أن قوة بيزنطة كافية لردعك.

نهض الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين على قدميه من تلقاء نفسه عقب سماعه الجملة الأخيرة التي خرجت من فمه. وبينما كان يسير مهموما داخل قاعة المكتب وهو يحدث نفسه قائلا: " قوة بيزنطة". عض شفته السفلى الغليظة، وقبض على لحيته الكثيفة الواقفة المتشابكة مع بعضها بعضا. وبدأ في الحديث وكأنه يتشاجر مع نفسه قائلا: يا كنتاكوزين، أنت مجبر على التفكير مليا في كل شيء من ألفه إلى يائه ووضعه في نصابه الصحيح. انظر إلى هذا الشاطئ المقابل. قبل بضع سنوات كانت الرايات البيزنطية ترفرف على أبراج القلاع الموجودة هناك. والآن لا توجد راية واحدة منها قط. دعك من الضفة المقابلة، الآن لم يبق في الضفة المقابلة سوى عدد محدود من قلاعنا. إن خوض حرب في هذه الظروف يعني نهاية كل من الإمبراطورية وبيزنطة على السواء. وبعد أن هدأ قليلا وبينما يبحث عن سبل لاستمرار حديثه خطر بباله الإمبراطور أندرونيكوس. وكأن أندرونيكوس ما زال على قيد الحياة، دار حول الكرسي الذي كان يجلس عليه داخل القاعة، نظر إليه وكأنه واقف أمامه وخاطبه قائلا: آه يا أندرونيكوس، آه يا أندرونيكوس لو كنت قد استمعت لكلامي من البداية. لو كنت قد تفاهمت مع العثمانيين، وعشت معهم في سلام، ألم يكن هذا ممكنا؟ والآن أنى لي أن أوقفهم وقد غاصت خناجرهم في الدماء. هيا، لو كانوا قد بقوا عند الضفة المقابلة لما كان قد حدث أى شيء على الإطلاق. ولكن انظر إلى الموجودين الآن على الضفة الأخرى. حتى الآن لم أتيقن من صدق الأخبار التي وردت. ولكن إذا كانوا يفكرون في البقاء على هذه الضفة من الدردنيل فإنهم أيضا لن يتوقفوا عند تراقيا.

عندما شعر بالتعب أثناء المشي ذهب إلى كرسي عرشه وجلس. وصمت لفترة طويلة وهو ينظر أمامه. عندما رفع رأسه وشخص ببصره نحو كرسي العرش العتيق الموجود أمامه، والذي يعرف بأنه عرش جيستيوس والذى ورثه يوحنا باليولوج الخامس عن أندرونيكوس الثالث؛ تذكر قيام صهره بإدخال أصابعه الطويلة النحيلة إلى أنفه عندما كان يجلس على كرسي العرش هذا ذات يوم. وبينما يبلل شفتيه الغليظتين بلسانه الضخم، لم يستطع التغلب على شكوكه بأى شكل من الأشكال. وكان ينظر إليّ بخوف باستمرار، دون أن يدري بأنني مشفق عليه. تذكر أحد أحاديثه الأخيرة معه. وكأن صهره موجود على العرش الموجود أمامه:

يا ابن أندرونيكوس هل أحسست بشيء داخل غرفتك الآن؟

صوت شريك العرش الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الموجود في المنفى:

لا، غليان قلبى هو الشيء الوحيد الذي أشعر به.

لا يا ابني العزيز، ليس قلبك الذي يغلي، إنه الغضب الموجود داخلك. هذا يبدو طبيعيا لشاب في مثل سنك لكن لتعلم، أن الغضب هو مصيبة الإنسان. لاسيما وأن أسوأه هو الغضب المدفوع بالطمع.

قال له صهره يوحنا باليولوج الخامس الذي لم يفهم شيئا مما قاله:

"لم أفهم ما تريد قوله. يا حماي العزيز، إن كنت تريد الحط من شأني بالغمز واللمز وخطابك لى بابن أندرونيكوس فأنت مخطئ. من الأفضل أن تضع نهاية لكلامك الغامض هذا وأن تتحدث بلغة أفهمها."

يوحنا كنتاكوزين السادس نظر بابتسامه ساخرة إلى شريك العرش الذي ما زال في عمر الصبي، ودون أن يفكر فيما إذا كان سيرد على ما قاله أم لا، قال:

يا ابن أندرونيكوس إن تنصت جيدا ستفهم، ولكن أظن أنه يتوجب عليك أن تتعلم فن الإنصات.

يوحنا باليولوج الخامس الغاضب من كلام يوحنا كنتاكوزين السادس شريك عرش الإمبراطورية الذي يحمل إيحاءات وتلميحات والذي لا يمكن أن يقبله، قال وهو ينظر لحماه:

سأصغي إليك بكل جوارحي في اليوم الذي ستعترف فيه بأنني شريك لك في العرش الإمبراطوري والذي ستعدل فيه عن معاملتي معاملة ذلك الصبي الذي يلعب مع بناتك.

في ذلك اليوم ومن أجل عدم إغضاب الإمبراطور الشاب شريك العرش خاطبته بلطف ولين قائلا: ليكن الأمر كذلك، من الآن لن أخاطبك بابن أندرونيكوس. سأخاطبك قائلا يا صاحب العظمة. يا صاحب العظمة، إن ما يجب ألا يفارق عقلكم، هو أننا في مواجهة خطر مرعب وأقوى من الرومان. لأنهم لا يجعلون أحدا ينفر منهم...

يوحنا باليولوج الخامس شريك العرش، بعد أن قام بتدليك عنقه النحيل غير المتناسق مع رشاقته وكذلك معصميه قام بتدليك يديه النحيلتين الواقفتين كالمطرقة الواقفة ببعضهما، وقال:

لا تظن أنني غير مدرك للخطر. أنا لست ذلك الشخص الذي لا يفكر في التدابير التي يجب اتخاذها لمجابهة الخطر القادم، لكن كل الأحداث تقع بسرعة على هذا النحو، فإنه دون إمكانية التوصل إلى وسيلة لحل الأمور السابقة، يقع أمر جديد.

عندما شعر بتأثر باليولوج الخامس الكبير بالشائعات المنتشرة في المدينة، وأنه كان على وشك القيام ببعض التصرفات غير السليمة، قال عندما قلت:

"حتى اليوم، لم أقل لك أى شيء عن العثمانيين ولكن هناك فائدة في معرفتك لذلك، ولكن كل حجر من أحجار هذه الجدران الصماء هو بمثابة الأذن التي تسمع ما يريد أن تسمعه فقط. حتى وفاة والدك، كانت تلك الأحجار آذانا فقط ولكن بعد وفاة والدك صارت تلك الأحجار ألسنا أيضا بنفس درجة كونها آذانا. كل واحد منها لسان يريد أن يذيع ما يقوله فقط. ولذا فإنه من الأفضل عدم إعطاء أذنك لكل لسان يتكلم." لقد تملكني الغضب عندما قال ابن أندرونيكوس دون أن ينظر لوجهي: " ليتك أيضا فعلت أفعالا جميلة، بنفس درجة حديثك الجميل". وقلت له: يا ابن أندرونيكوس، في الأغلب لن أستطيع فعل الأفعال الجميلة طوال الفترة التي تجبرني فيها أنت وأمك على الصبر. بيد أنني أكرر، نحن مضطرون إلى التوافق والتعايش بسلام مع العثمانيين.

ابن أندرونيكوس الذي سيفهم الحدة الموجودة في نبرة صوتي، هرب بنظراته بعيدا عني وقال:

حماي العزيز، ترى على أي شكل تريد أن تكون تصرفاتنا نحو العثمانيين. أرى أن هذا الوقت هو الوقت المناسب لمقابلتك لرسل النبيل جاتيليسيو القادمين من أينوس. وعندما قال: " لو يوقف حراس النبيل جاتليسيو المأجورين العثمانيين فليقوموا بإيقافهم" كنت قد استحسنت الفكرة ولكن كان قد نظر من النافذة إلى الخارج ضاحكا ضحكته الخبيثة وقال، توجد لدي فكرة أخرى ولكن سأفصح عنها فيما بعد.

(٩)

نظر تليوتيوس سرمانوسيدس قائد قلعة تِشَمبا الذي سمع الأصوات المدوية التي كانت تزداد عند اصطدامها بالجدران الحجرية للممر الطويل، إلى الباب المواجه تمامًا لطاولة العمل. وأنصت جيدا حتى يتمكن من فهم الأصوات المبحوحة القادمة من الممر. كانت الأصوات تقترب ، وكانت كلما اقتربت وازدادت الأصوات كانت نظراته تصوب نحو الكلب الذي وضعه على الحائط قبل قليل. وعندما اقتربت الأصوت وازدادت أكثر اتجه مسرعًا صوب سيفه. وعند سماعه أصوات الأقدام التي تقف أمام بابه، أمسك بيده مقبض السيف المعلق بحزامه. وعندما هم بإخراج سيفه من غمده، فتح الباب. أحس بحد سيف قاطع يلامس عنقه. وسمع من خلفه صوت أفرانوس بك الرقيق يأمره قائلا: ألق سيفك وارفع يديك إلى الأعلى. وأخذ قائد القلعة نفسًا عميقًا من أنفه وفكر في العودة إلى الوراء ولكنه أدرك أن هناك طرف سيف آخر يلامس خاصره الأيمن. رفع يديه إلى الأعلى مرة أخرى، أمسكوا به وقيدوا ذراعيه وساقيه جيدًا وطرحوه أرضا منكبًا على وجهه. قائد القلعة الذي انخدع بحديث أفرانوس بك باللغة الرومية، قال بغضب وبصوت مرتعش، أتمنى أن تكونوا على علم ودراية بعقوبة المتمردين والعصاة. بعد أن صمت برهة صاح قائلاً: إن كان هذا تمردا فستدفعون أرواحكم ثمنًا لهذا. ألا تفكرون في هذا؟. إن الفدائي ضخم الجثة الذي غضب لصياح قائد القلعة لم يستطع السيطرة على غضبه وصفع قائد القلعة صفعة على وجهه.

ولم يكن قائد القلعة الذي شارك في الحروب وأصيب فيها بجـروح لا عـدد لها، لم يكن يتوقع أن تصيبه هذه اللطمة بكل هذا الأذى. وبينما كان يحـاول أن يرى وجه الفدائي الذي صفعه الصفعة القوية، والذى أخفى وجهه، وبخه أفرانوس بك باللغة التركية قائلاً: "تعلم أنه لا يُضرب الأسير مغلول اليدين"، وبعد أن أنهى ما سيقوله له ارتفع صوته قليلاً باللغة الرومية قائلا: أنت من الآن أسيرنا. ليس هذا عصيانا ولا تمردا. نحن جئنا لنأخذ قلعتنا التي وُعِدنا بها من قبل. إن قمت بتسليم القلعة لنا دون مشاكل لن تكون أسيرا. سـتقوم بخدمتنا كقائد تحت إمرة أحد قادتنا وستواصل حياتك مع أفراد أسرتك، حتى إنه بعد فترة يمكنك العودة إلى قلعة تشمبا مرة أخرى. ولكـن إن تمـردت وعصيت سنكون مضطرين إلى القبض عليك وعلى عائلتك. فأنت بالخيـار إما أن تخدم آل عثمان باعتبارك قائدا حرا، وإما أن تعمل أسيرا في أراضي الأشراف العثمانيين. وعندما أحس قائد القلعة الذي لم يفهم شيئاً من الحـديث بأنه ينزف من الجهة الداخلية لشدقه، أصيب بنوبة مـن الرعـب والهلـع. وارتجف خائفا. ونظر نظرة بلهاء للرجل طويل القامة طويل الوجه والـذي كان ينتظر الرد منه، وكأنه أصيب بحالة مؤقتة من فقدان الذاكرة. وبينما كان يحرك شفتيه رغبة منه في أن يقول شيئًا ما، فإذا به يدرك أن لسانه قد تورم وتضخم في فمه. وعندما شعر بألم لسانه تمتم قائلا: "لقد لدغت ". وشعر أن لسانه يزداد حجمه ويكبر. واغرورقت عيناه رغبة فى البكاء الذي لم يدر من أين أتى. وكأنه أخرج جميع أعصابه التي تمتد شعيراتها إلى جميع أجـزاء جسده. ولم يعد لعقله القدرة على التحكم في كل أعضاء جسده. وعلى الفـور حاول أن يستجمع قواه العقلية. إلا أن عقله وجسده أصبحا وكأنهما ممزقـان

إربا إربا. وعندما حاول رفع رأسه ليرى ما حوله، إذا بيد تضغط على عنقه. وعندما أيقن أنه لن يستطيع أن يتحرك إلا إذا سمح له بالحركة، قرر أن يبقى في المكان الذي رقد فيه دون أن يتحرك إلا إذا أذن له بالحركة. إن اليد الضخمة التي صفعته على وجهه واليد التي ضغطت على قفاه قبل قليل أوقفتاه على قدميه. وحينما نظر قائد القلعة بنظرات تملؤها الدهشة إلى من هم بداخل الحجرة، فإذا بأفرانوس بك يبتسم لسليمان باشا الذي نظر إلى عيني قائد القلعة اللتين يملؤهما الخوف والرعب. وكان سليمان باشا قد رأى العديد من الأعين المليئة بالخوف من الموت في أوقات النزال، إلا أنه لم ير عينا تعكس هذا القدر من الخوف والرعب مثل عين قائد القلعة.

قال سليمان باشا الذي نظر صامتًا لفترة إلى نظرات الخوف والفزع التي كان ينظر بها إليه:

"إن خوفه يبدو جليا يا أفرانوس بك "

ابتسم أفرانوس بك ابتسامة عريضة غمرت وجهه الطويل النحيف.

من الواضح، أنه لم يكن يتوقع شيئا كهذا البتة.

سليمان باشا: لماذا؟

أفرانوس بك: قدومنا إلى القلعة. الآن يتملكه رعب وهلع داخل خوفه وهلعه.

سليمان باشا: لم أستطع فهم ما تريد قوله.

نظر أفرانوس بك حوله وهو يعاني كيفية توضيح ما قاله. وبعد برهة، بلل شفتيه الصغيرتين بلسانه وقال:

سيدي إنه شيء يشبه التحليل العقلي، فكما أن الفكرة تنتقل من فكـــرة إلى أخرى، ينتقل الخوف أيضا من خوف إلى آخر.

سليمان باشا: هذا يعني أنه سيتحدث عندما يستكمل كل المراحل.

أفرانوس بك: نعم.

سليمان باشا: لو انتابته موجة خوف جديدة ....

أفرانوس بك: ربما تعود إليه ذاكرته ويتذكر كل شيء.

ولم يكد سليمان باشا يفرغ من حديثه، حتى سحب خنجـــره المتشـــعب الذي يشبه لسان الثعبان وغرزه في فخذ قائد القلعة.

فجأة استرد قائد القلعة وعيه نتيجة تأثير الألم الذى أحس به من ضربة الخنجر الذي غُرز في ساقه.

تذكر النظرات الشاردة التي كانت قبل قليل. وأغلق عينيـــه بهـــدوء وحاول أنَ يتذكر ما حدث، وبينما كان ينظر إلى من هم أمامه ويسمع صوت سليمان باشا وهو يتحدث أدرك أنهم من الأجانب القادمين. ولم يكد يدرك ما ألم به حتى ذرفت عيناه بالدموع التي بدت وكأنها قد توقفت وجفـــت نتيجـــة الأحداث التي وقعت قبل قليل. حينئذ اندهش الفدائيون الذين لم يروا بكاء قائد قبل ذلك قط. وأطلقوا سراح الرجل تمامًا. قال أفرانوس بك الذي كان يراقب قائد القلعة باهتمام شديد: الآن هدأت أعصابه. وسيتجاوز هذا بعد قليل، كان لا يستطيع أن يشعر بأى شيء حدث قبل ذلك، لأنه كان فاقدا لوعيه من شدة الرعب؛ والآن بعدما استرد وعيه أدرك ما يجب عليه فعله. لنضـــعه تحـــت المراقبة، لأنه لا يمكن التنبؤ بما سيفعله عندما يسترد وعيه تمامًا. والآن لنر

الآخرين، ولنتحدث بعد قليل عندما يهدأ هذا. وما إن فرغ من حديثه، حتـــى سمعوا الأصوات القادمة من الممر. فأنصتوا إليها.

كانت الأصوات تأتي من ناحية الفناء. ذهب سليمان باشا وأفرانوس بك نحو الجهة التي يأتي منها الأصوات. كان الفناء الذي يطل على البحر مـــن خلال النوافذ والمزاغل الصغيرة طويلا للغاية. عندما خرجا ركضا إلى الفناء كانا يلهثان. قرابة عشرة من حراس القلعة، إلى جانب أحد جنـــود البحريـــة ضخم الجثة والذي اختلط شعره بلحيته، كانوا قد استلقوا أرضا في الفناء على جروحهم التي أحدثتها بهم سيوف رجال البحرية. أفرانوس بك وهو ينظـــر بقلق إلى سليمان باشا الذي يأتي من خلفه:

قال سليمان باشا بصوتٍ هادئ أفرانوس بك: فلتسأل علي الفور مـــن هم هؤلاء الرجال؟

أفرنوس بك هذه المرة باللغة الرومية التي يتحدثها سكان شبه الجزيرة:

أيها السادة من أنتم وماذا تفعلون في تشمبا؟

ابتسم الرجل الذي اختلط شعره بلحيته لأفرانوس بك الذي كان يتحدث بنفس لكنته. ولم تكد نظراته تخفي القلق الموجود بداخله وقال وكأنه يتحدث من صدره. اسمي ألكايسيدس، أنا صاحب الميناء.

وبينما كان أفرانوس بك يترجم ما قاله، اصفر الوجه الضخم المستدير للرجل ذي اللحية الطويلة. أما أفرانوس بك الذي لاحظ التغيير الموجود فـــي هذا الرجل فسأله قائلا: من من هؤلاء الحراس؟

وبينما كان هذا الرجل يحاول أن ينهض علي قدميه فإذا بأحـد جنـود البحرية الذي يقف عند رأسه يضغط علي كتفه. ولكن أفرانوس بك قال له إنه أذن للرجل بالنهوض. نهض الرجل. وبعد أن نظر لوجوه من بالفناء واحـدا تلو الآخر، قال:

دعاني قائد القلعة مع ربابنة السفن الشراعية. السفن التي تـأتي إلـى الميناء ليلاً...

وعندما توقف الرجل عن الحديث دون أن يكمـل جملتـه، قـال لـه أفرانوس بك: أكمل حديثك... ماذا حدث للسفن التي أتت إلى الميناء ليلا؟.

كانوا يريدون ضرائبهم.

أفرانوس بك: هل كل سفينة تؤدي لك الضرائب عندما تأتي إلى الميناء؟

سفن أهالي جنوة وأهالي البندقية يؤدون الضـرائب عنـدما يقومـون بتحميل سفنهم من مرفأنا.

سليمان باشا: من أجل دفع الخوف الذي يبدو على وجه الرجـل وبطريـق المداعبة، قال: يا أفرانوس بك قل له بأننا من الآن فصـاعدا سنقوم بتخفيض قيمة الضرائب إلى النصف. ولكن يوجد لدينا شرط. وبعدما قام أفرانوس بك بترجمة ما قيل إلى الرجـل، قال الرجل الضخم المهموم، وهو سعيد لدرجة ما: أيها السادة لم أستطع فهم ما تريدون قوله، ولكن منذ سنوات عديدة وأنـا أؤدي ضرائب إمبراطوريتنا كاملة. ولكن في الآونة الأخيـرة

عندما لا تدفع لنا سفن أهالي جنوة شيئا فنحن أيضا لا نستطيع أن نؤدي ما علينا من ضرائب.

بعدما ترجم أفرانوس بك ما قاله الرجل، قال سليمان باشا: من الآن فصاعدا سيدفع لنا الضرائب التي كان يدفعها للإمبراطور.

قال أفرانوس بك واضعا في حسبانه عدم إرهاب الرجل، وبصوت يدفع إلى الطمأنينة: القلعة من الآن فصاعدا هي تحت حماية القائد أورخان العثماني. وأنتم من الآن ستقومون بدفع ضرائبكم إلى إمارة العثمانيين.

صاحب الميناء الذي عرف أخيرا من يتكلم معه، وهو يعبث بأصابعه الطويلة في لحيته قال: يا سيدي، أنا عبد مخلص لإمبراطوري. لا تطلب مني هذا.

سليمان باشا: نحن أيضا حلفاء إمبراطوركم. وبسبب الخدمات التي قدمناها للإمبراطور كان قد وعدنا بأن نترك إحدى وحداتنا الصغيرة في قلعة تشمبا. ولكن قائد القلعة ألقى القبض على جنودنا الذين تركناهم في المخفر الصغير الموجود بالقلعة وأرسلهم إلى الضفة الأخرى. ونحن ليس من عاداتنا رفض الهدية. والآن نحن نريد قلعة تشمبا كلها والتي يوجد بها مخفرنا الذي أهدى إلينا. والسيد كذلك سيقوم بدفع الضرائب لنا. وإذا أراد أن يدفع الضرائب مرة أخرى لعظمة الإمبراطور فهو وشأنه. نحن لن نتدخل في هذا.

أما الرجل الذي سمع ترجمة أفرانوس بك، ودون أن يعرف ما الذي يمكن أن يقوله فحك رأسه بضجر. نظر إلى الحراس الذين ينامون منبطحين

على وجوههم في الفناء. ولم ينبس ببنت شفة. ولما صمت هكذا؛ قال سليمان باشا بلغته الرومية التي تعلمها من والدته: إن أردت أن تدير الميناء سأطلب منك طلبا آخر، ونظر إلى وجه الرجل.

أما الرجل الذي وقف وكأنه ابتلع لسانه، فقال بعد فترة: ترى ما هـو طلبك يا سيدي؟

قال أفرانوس بك دون أن يترجم ما قاله الرجل إلى اللغة التركية، لأنه فهم أن سليمان باشا فهم ما قاله الرجل لمعرفته باللغة الرومية بالقدر الـذي يمكنه من فهم ما قيل: شرطنا هو! أن يؤجر لنا معداته الموجودة في الميناء لفترة ما.

الرجل الضخم الذي لم يكن يتخيل أبدا أن يكون في هذا الموقف الذي صار فيه، عندما فهم أنه أصبح أمرا واقعا كان ينظر إلى السيدين بنظـرات يملؤها العجز وقلة الحيلة.

قال أفرانوس بك حتى يخلصه من هذا الموقف، وهو يشير إلى حراس القلعة الذين جاءوا لتغيير نوبة الحراسة، وكذلك إلى الراية العثمانيـة التـي علقها رجال أقجه قوجه أوغلو و فاضل بك والذين هم على برج القلعة: يـا سيدي إن قلعة تشمبا هي من الآن إحدى القلاع العثمانية.

إن أحد مساعدي حارس القلعة المنبطح على الأرض، لما تغير وجـه الرجل وصار لون وجهه كالرماد؛ فجأة انقلب على ظهـره بعـد أن شـعر بتراخي يد الجندي التي تضغط على عنقه وأمسك بيد الجندي وعضها. بعـد

أن سحب الجندي يده التي تؤلمه وثب ونهض على قدميه. ولم يكد يقف على قدميه حتى أطبق سليمان باشا على عنقه بكلتا يديه.

(١٠)

لم تذق عين كل من يوحنا باليولوج الخامس الموجـود فـي تنـدوس وحماه كونتاكوزين السادس المُلقب بـ "الإمبراطور الغاصب" الموجود فـي القسطنطينية، الذي أرسله إلى المنفى طعم النوم منذ أيام. كان كل منهما يفكر أولا في كيفية التخلص من الآخر، وثانيا في كيفية طرد العثماني الذي جـاء إلى شبه جزيرة جاليبولي إلى الضفة الأخرى للدردنيل. وكانا يكتبان الرسالة تلو الأخرى إلى فرانشيسكو أنا ليسبوس حيث عيناه حديثا في دوقية يامنوس، حتى يحقق كلاهما أكبر فائدة لنفسه من رسائله. الغريب في الأمر، كونهمـا يقومان بالأعمال ذاتها في نفس الأوقات تقريبا رغم كونهمـا بعيـدين عـن بعضهما بعضا.

ذات مساء آخر من تلك الأيام كان الإمبراطـور يوحنـا كنتـاكوزين السادس الغاصب قد انعزل بنفسه داخل حجرة مكتب قصره مثل الإمبراطور باليولوج الخامس المنفي، وبعد أن انتهى من كتابة الأسـطر الأخيـرة فـي رسالته إلى دوق أينوس لفها ووضعها في مظروف على شـكل أسـطوانة. وأغلق غطاء المظروف، ثم ختم شريطها بالختم الشمعي وخرج من مكتبـه. تطايرت أطراف ردائه المسائي الواسع وهو يتجه إلى حجرة النـوم مـارا بحجرة الصالون. لم يلتفت لشدة احمرار وجهه المسـتدير الممتلـئ بسـبب سعادته بإنهاء رسالته. ما إن دخل إلى حجرة النوم وأضاء المصـباح حتـى

أدركت زوجته الإمبراطورة إيرينا تغير وجـه الإمبراطـور كانتـاكوزين السادس، هرولت إلى جواره بخطوات مسرعة. رأى الإمبراطـور يوحنـا كونتاكوزين السادس هرولتها نحوه، فتراجع خطوة وقال: لـيس وقتـه يـا حبيبتي إيرينا.

نظرت الإمبراطورة إيرينا إلى زوجهـا مبتسـمة، وسـألته بصـوت مضطرب قائلة: لِمَ اكفر وجهك يا يوحنا؟

اندهش الإمبراطور يوحنا كونتاكوزين السادس عندما لاحظ أن زوجته تدقق النظر في وجهه، وحتى يستبين ماذا تعني بسؤالها، ثم سألها قائلا: أي احمرار يا إيرينا؟

الإمبراطورة إيرينا: أتحدث عن احمرار وجهك يا يوحنا. هل هناك ما يؤرقك؟ أم أن حرارتك قد ارتفعت ...

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين: كيف لا ترتفع درجة حرارة الإنسان في حال كهذه؟ آه لو لم تأت أي سفينة من سفن أهالى جنوة تلك قط ...

الإمبراطورة إيرينا وكأنها لم تفهم أى شيء قط، قالت بصوت هـادئ وهي تنظر إلى وجه كونتاكوزين: يوحنا هل أنت بخير؟ إن سفن أهالي جنوة إن لم تأت كل يوم فهي تأتي كل أسبوع. أي سفينة لأهـالي جنـوة؟ كانـت تحدث المشاكل عندما كانت لا تأتي السفن في الأيام الماضية. لماذا أصـبح مجيء السفن الآن يثير المشاكل؟ لماذا كنت منزعجا أيضا بالأمس عنـدما رأيت سفنهم قادمة؟

عندما تيقن الإمبراطور كنتاكوزين السادس بأن زوجته ليس لديها علم بأي شيء رسم على مضض بسمة مصطنعة على وجهه ... وقال وهو يحتفظ بالبسمة على شفتيه: آه يا عزيزتي إيرينا آه ... ابن أورخان اجتاز الدردنيل ... إن سفينة أهالى جنوة التي أتت في الظهيرة جلبت خبرا عن رفرفة الراية العثمانية فوق إحدى قلاعنا. كنت قد سمعت قبل عدة أيام كلاما عن خروج ابن أورخان إلى القلعة، بيد أنني لم أكن قد صدقت ما سمعت. كنت قد وعدته بمنحه مخفرا لجنوده في تلك القلعة في المستقبل، بيد أن قائد القلعة كان قد أرسل قوة لمواجهة بعض الجنود العثمانيين الذين بقوا في القلعة وأبعدهم إلى الشاطئ الآخر. ولما سكت أورخان على ما حدث لفترة طويلة ظننت أنه قد نسي، بيد أن ما يحدث يعني أنه لم ينس.

ربما لا يعلم أورخان شيئا عما يقوم به ابنه.

لا أدري إن كان لديه علم بذلك أم لا، ولكن ليس من السهولة بمكان أن يقوم أحدهما بعمل ما دون أن يخبر الآخر ...

ربما يكون هذا خيرا يا يوحنا ... فأورخان صهرنا أيضا ... اذهب وتحدث معه ...

آه ثم آه يا إيرينا، ألا تعلمين أنه بعدما امتلك القوة يريد أن يصبح أكثر قوة. وبعدما يتم الاستيلاء على الأرض يصبح استعادتها أمرا شديد الصعوبة. ولكن كما قلتِ يجب البحث عن الخير في كل أمر ... أفكر منذ البداية في ابننا ماتيوس... تعلمين ابن أندرونيكوس لم يكن يرغب في دعمه أبدا. اليوم سلمت حكم ديموطيقا إلى ابني وشريكي في الحكم قائد قلعة أدرنه. حتى أنني

أفكر أيضا فى إعطائه أشياء أخرى. ولكن يجب تسوية كل أمور القسطنطينية أولا ... تواتر عليها الكثير من الأمراء خلال الفترات الماضية. لما لا يصبح أمراء سلالة كنتاكوزين هم الحكام بعد أمراء سلالة الباليولوج؟ أعلم أنك تفكرين في ابنتنا إيلينا، وستعارضين وقوفنا ضدها ولكن إذا أصبح أخوها الأكبر شريكا للإمبراطور لن يطرأ أي تغير على حياة ابنتنا إيلينا.

أرغب بشدة بأن يتحالف ابن أندرونيكوس مع ابننا، وأن يصبحا أكثر قوة، ولكن ليس هما من يقومان بذلك، حتى أن إمكانية جعلهما حليفين يعملان مع بعضهما فهو أمر شديد الصعوبة. حتى أنني أريد أن أضمهما تحت جناحي وأتعهدهما بالرعاية ونعمل معًا، لكن ابنى يتهمنى بقوله إنني أتصرف بلين ورفق، وأن صهرى يبتزني حتى يصبح شريكا في عرش الإمبراطورية. الأفضل أن تستمر أسرتنا بمفردها في حكم الإمبراطورية.

عندما رأت الإمبراطورة انفراج أسارير زوجها بعدما تحدث وكذلك زوال حمرة وجهه بعض الشيء تنفست الصعداء. وأحاطت يد الإمبراطور السمينة بيديها الناعمتين الرقيقتين وهي تنظر إليه بنظرات يملؤها الأسى، وقالت:

يدك ليست دافئة، أعني أن حرارتك ليست مرتفعة ...

الإمبراطور الغاصب يوحنا كانتاكوزين السادس الذي أحس بدفء رقيق يسري من يده الموجودة بين اليدين الناعمتين للإمبراطورة إيرينا حتى وصل إلى أعلى جسده، دلف بنظراته إلى صدر زوجته الذي لا يخفيه ملابسها الليلية. عندما رأت الإمبراطورة إيرينا الرغبة الموجودة في نظرات زوجها، أخذت بيده وسارت بخطوات هادئة نحو الفراش.

في الوقت الذي سار فيه الإمبراطور يوحنا كانتاكوزين السادس برغبته الملتهبة نحو زوجته، كان الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس شريك عرش الإمبراطورية المنفي هو الآخر ينظر إلى جسد زوجته إيلينا الجميـــل التـــي استدارت بوجهها نحوه في فراشه. ومهما كانت قوة رغبته الجامحة فـــي أن يمد يده لمداعبتها، فإنه لم يستطع أن يهزم عدم الرغبة الموجود بداخله، ولم يكن يستطيع مد يده أيضا.

إيلينا التي أحست بالضيق الواضح في نظراته. قالت: يوحنا هل هناك ما يؤرقك؟ إن كنت تخشي أن يقوم أبي بخدعة جديـــدة فـــلا داع لخوفـــك. وسترى أنه سيقوم بدعوتنا إلى القسطنطينية عاجلا أو آجلا.

ابتسم يوحنا باليولوج الخامس وقال وكأنه يريد أن يتخلص من القلـــق الموجود بداخله: إيلينا حتى الآن، غالبا لا توجد إمبراطورة مثلك لا ترغـــب بأن يقصيها والدها عن عرش الإمبراطورية؟

أعتقد أنه عندما يحين الوقت سيعيدنا أبي إلى القسطنطينية كما أبعـــدنا عنها، لا أعتقد أنني عُزِلت من موقعي كإمبراطورة لهذا السبب.

أنا أيضا أعتقد أنه يمكن أن يدعونا ولكن لا يمكن التنبؤ بهذا الآن. إن صحت الشائعات التي تقول إنه سيجعل شقيقك الأكبر ماتيوس شريكا لعرش الإمبراطورية ستكون عودتنا إلى القسطنطينية ما هي إلا أضغاث أحلام.

أرى أن شكوكك لا مبرر لها. لو كان أبي يفكر في ســـلطان ســـلالة كانتاكوزين ما كان ليوافق على زوجنا. لا أعتقد أن أبي يطمع فـــي عـــرش الإمبراطورية، لا أعتقد أن أبي يطمع في إمبراطوريتك ولكـــن أعتقـــد أنـــه ينتظر الأيام التي تحكم فيها إمبراطوريتك بنفسك.

كان يقول هكذا عندما أرسلنا إلى تندوس.

أعلم قدر المعاناة التي عاشها وهو يتخذ هذا القرار. لكن لو بقيت أنت في قسطنطينيتنا كان سيقتل أي منكما الآخر. والدي لا يقوم بفعل أي شـــيء دون التفكير فيما سيفعله جيدا. لو لم أدرك المعاناة التي عاشها أبي يوم أرسل شقيقتي الكبرى تيودورا إلى أورخان، لكنت صدقت الذين يقولون بأنه قاسي القلب. ولكني رأيت بأم عيني ما ألم به من ألم. لا مبرر لخوفك، فأبي ليس شخصا أنانيا حتى يرغب في المزيد.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس المنفي لمس جسد إلينـــا شـــديد البياض الذي ينتظره بشغف. اقتـــرب منهـــا فـــي فراشـــها. أراد معانقتهـــا والالتصاق بحسدها الملتهب، ولكنه تراجع للخلف مبتعدا قليلا عنها وكأنه لم يلمسها. قال بصوت لا يخفي مخاوفه وهو ينظر إلى إلينا: خطر ببالي ما قاله أورخان ... في رسالتي التي أنهيتها قبـــل قليـــل لتســـليمها إلـــى ســـفراء جوتوليسيوس دوق يامنوس، كنت أتجرع المرارة وأنا أكتب لجوتوليســـيوس عن سعادتي بتوليه حكم يامنوس وما حولها. حاولت التخلص من هذه المرارة قدر الإمكان، إلا أنني لم أنجح في ذلك. شعور عجيب جدا ومختلط بمشاعر غريبة، وكأنني من قام بتسليم الإمبراطورية إلى دوق يا منوس. انظر، قـــد حدث ما توقعناه. فابن أورخان جاء إلى تشمبا.

ظنت إيلينا أنها أدركت مبعث قلق زوجها وحتى تهون عليـــه قالـــت: يوحنا، لماذا تضع دائما حسابا للأمس. ليتك تنظر للغد! بالأمس وقع آباؤنـــا في الكثير من الأخطاء، أليس من المهم ماذا ستقوم بفعله غدا؟ أنا لا أقـــول بمساءلتهم عن أخطائهم، لتسائلهم، ولكن لزاما علينا إضافة بعض الأشياء إلى القرارات الصائبة التي اتخذوها في كل هذه الأمور.

الإمبراطور المنفي يوحنا باليولوج الخامس وهو يـدقق النظـر فـي الشفتين المثيرتين لإمبراطورة المستقبل واللتين هما كورقتي وردة حمـراء لفمها الصغير قال: آه يا إيلينا ، أنا أيضا أريد العمل بهذه المقـولات، لكـن الرجال يفكرون بأمور أخرى حيث لا يقبلون أن يقفوا على الضفة الأخرى. أظن أن هذا هو ما يؤرقني. فالأصح والأصدق أنني لم أسـتطع أن أكـون إمبراطورا بمفردي، ولكن حتّى لو صرت كانت ستصبح في الأغلـب هـي أكبر مشكلة تؤرقني.

(١١)

إن الباعة الذين شاهدوا السفينة الكبيرة وجميع المراكب الموجودة في الميناء وهي تغادره متتابعة مسرعة في إثر بعضها بعضا، ركضوا إلى الميناء تاركين معارضهم ومناضدهم. فمنذ تأسيس هذه القلعة لم تكن أي سفينة قد غادرت الميناء دون صوت أو جلبة على هذا النحو الذي حدث. إن مغادرة إحدى السفن للميناء ليست هي المشكلة، ولكن لماذا كانت المراكب تسير خلف السفينة الفارغة؟ وكان أكثر من أصابتهم الدهشة من هذا الموقف هم سكان القلعة. وكان مجرد التفكير في حرمانهم من متعتهم الوحيدة المتمثلة في مغادرة السفينة يصيبهم بالحزن. وبعد أن تابعوا إبحار السفينة والمراكب من ورائها نحو الشواطئ المقابلة، وبينما كانوا جميعا يتجهون إلى معارضهم ثانية، كان يقبع أمامهم مباشرة زينوس بقامته الفارعة. إن زينوس الذي شاهد الحراس الذين يرتدون الدروع والموجودين أمام باب دخول القلعة من الطريق القادم من الميناء زمجر بصوت ساخط غليظ خرج من عنقه الرفيع الطويل قائلا : هل أحدث قائد القلعة عادة جديدة أخرى دون أن يأخذ رأينا؟ هلا أخبرتمونا؟.

رفع أحد حراس القلعة رمحه في الهواء من أجل إيقاف الجماهير المندفعة نحوهم وقال: نحن أيضا لا نعرف ماذا حدث. ولكن بعد قليل سيلقي قائد القلعة كلمة من فوق باب القلعة الكبير. إن ذهبتم إلى الساحة الموجودة أمام البوابة الكبيرة ستعلمون بما حدث.

إن الباعة الذين أصابتهم الدهشة مما قاله الحارس بعد أن قاموا بجمع مناضدهم ومعارضهم على وجه السرعة التقطوا أنفاسهم في الساحة الموجودة أمام الباب الكبير. ثم أتى زينوس طويل القامة إلى الساحة وبينما هو ينظر إلى الراية الجديدة التي ترفرف فوق برج الحصن صرخ فجأة قائلا: هل احتلت قلعتنا؟

زينوس الذي لم يتلق إجابة عن سؤاله، سأل مرة أخرى مزمجرا بصوته : هل احتلت قلعتنا أم ماذا؟

في هذه الأثناء مشى الحراس الذين أغلقوا كل الأبواب وقاموا بتطويق كل من بالساحة من كل الجهات وفرضوا طوقا أمنيا حولهم. انتاب سكان القلعة وكذلك الباعة الذين جاءوا من القرى القريبة والموجودين داخل الطوق الأمني، والذين طالما كانوا يشعرون بالأمن داخل أسوار القلعة الشاهقة بشعور غريب. بدأت قلوب هؤلاء الناس، الذين شبوا وكبروا تحت احتلال اليونانيين والإسبان تخفق بقوة. حتى تلك الآونة، فإنه بخلاف احتلال اليونانيين والإسبان لم تكن تُحتل القلاع إلا من قبل أبناء الأباطرة، الذين لم يكونوا شركاء في عرش الإمبراطورية، ولكن هذه المرة كانت الراية التي ترفرف على برج القلعة راية غير معروفة لهم.

كان كل من بالقلعة قد اجتمع في الساحة الكبيرة في فترة وجيزة. وكانوا جميعا يتطلعون بشغف لمعرفة حكام القلعة الجدد، وعلى حين غرة صعد حارس القلعة إلى الجدار الموجود فوق الباب الكبير، وطلبوا منه توضيح الأمر.

زينوس الذى يظن بأنه كان سعيدا في قلعته حتى ذلك اليوم، عندما شاهد أمامه المرأة السمينة التي تطاير شعرها الطويل أثر نسمة ليل مضى قائلا: "دائما توجد داخل قلعتنا رياح باردة تثلج صدورنا. ليت ما سيخبرنا به حارس الحصن لا يشعلها. ثم تحدث قائلا: "أين الطلعة البهية لقائد الحصن يا ترى؟ وتساءل قائلا لماذا ارتدى الحراس الذين عادة ما يتجولون بغير دروع دروعهم اليوم على هذا النحو؟" سأل المرأة المتطاير شعرها الواقفة أمامه والتي مسحت عنقها المتصبب عرقا بغطاء رأسها قائلا: هل تسنى لك فهم شيء من هذا الموقف يا سيدتي؟ ترى من هؤلاء الذين استولوا على القلعة دون قتال؟

قالت المرأة على مضض: في الأغلب اتفق أحدهم مع قائد الحصن...

إن آل باليولوج هم وحدهم الذين باستطاعتهم عمل ذلك. ولكن نظرا لكون ممثلهم يوحنا باليولوج شريكا في عرش الإمبراطورية، فإن آخرين هم من استولوا على قلعتنا ...

نعم هو شريك الإمبراطورية، بيد أنه يعيش في المنفى الآن. أرى أنه يعالج هذه المشكلة مع قادته قبل أن يذهب من تندوس إلى القسطنطينية. وفي الأغلب أنه عندما سيذهب إلى القسطنطينية سيقضي على سلالة كانتاكوزين.

وبينما كان زينوس يمسح العرق الذي يتصبب على عنقه من جهة، قال وهو ينظر إلى وجه المرأة وكأنها قد أجابت عن سؤاله: ليتهم يوضحون الأمر دون الانتظار أكثر من ذلك.

ولم يكد ينتهي من كلمته حتى ظهر أفرانوس بك على الجدار الذي يعلو باب المدخل الكبير.

وبينما ينظر إلى المجتمعين في الميدان وهو واقف بقامته الطويلة الممشوقة، صعد الأمراء ورماة السهام من على سلالم الجدار، واصطف كل اثنين منهما بجانب بعضهما. وبعد أن نظر أفرانوس بك إلى فاضل بك الذي يقف عن يمينه وإلى الحاج إلباي الذي يقف عن يساره، وبعدما رفع يده نحو أهالي القلعة المجتمعين في الساحة صمت كل من بالساحة. إن أفرانوس بك الذي ينظر للشعب الذي يسعى لاستمرار صمته على مضض وهو ينظر إلى الحراس الموجودين في أبراج القلعة ضحك مبتسما ابتسامة رقيقة وقال:

إخوتى أهالى تشمبا. نظر إلى الميدان وحاول أن يعرف مدى تأثير صوته على الموجودين بالميدان. وبسبب الثقة الموجودة في صوت هذا الرجل الذي تحدث بلهجة لم يسمعوا مثلها من قبل أصبح من في الميدان على وشك إدراك أن كل شيء تحت سيطرته، حتى أنهم كانوا يتطلعون إليه وهم يحبسون أنفاسهم. تحدث أفرانوس بك ثانية قائلا: إخوتي، أتينا هذا الصباح إلى قلعتكم. وبعد مباحثات طويلة توصلنا إلى اتفاق مع قائد قلعتكم. من الآن فصاعدا سنقوم بحماية قلعتكم. ولتعلموا أن أرواحكم وكذلك أموالكم من الآن فصاعدا أمانة لدينا. إن كنتم تريدون الحفاظ على أرواحكم، فلتنفذوا ما سنطلبه منكم. ولا رحمة بمن سيرتكب أي خطأ.

كل الموجودين بالميدان لم يستطيعوا استيعاب ما يريد قوله هذا الرجل، طويل القامة، طويل الوجه، الذي يتحدث لغتهم على نحـــو أفضـــل مـــنهم. زينوس الذي جال بخاطره أن يسأل عن مكان قائد الحصن، سأل قائلا:

أين قائد قلعتنا؟ نحن لا نراه بجواركم. مادمتم قد توافقتم فأين حراسنا؟

السيدة التي استمدت جسارتها من حديثه، تحدثت قائلة: إن زينوس محق فيما يقول، أين حراسنا؟ من أنتم؟ لماذا سننفذ أوامركم؟ منذ مولدنا ونحن نعيش في هذه القلعة وحتى يومنا هذا لم تكن تغادر أي سفينة الميناء دون إقامة مراسم الوداع لها. أما الآن فنرى أن السفن تغادر ميناءنا دون أن يتم إخبارنا، ثم يخرج علينا شخصا لا نعرفه ويتحدث عن سلامتنا وكأنه يقول لغزًا ما.

أفرانوس بك الذي ظن أن ارتفاع صوت السيدة سيؤدي إلى خلق فوضى كبيرة بين المجتمعين في الميدان، رفع يد وهو يشير إلى رماة الحاج إلباي وقال ويده مرفوعة في الهواء: سيدتي إن حديثك جميل جدا ولكنك متسرعة جدا. إذا حاولت أن تنصتي قليلا ستعرفين كل شيء.

صاحت السيدة صارخة وكأنها تريد أن توقف الرجل الذي قطع حديثها واتهمها بالتسرع هو الآخر عند حده قائلة:

لا تحاول إسكاتي. نحن ولدنا في هذا القلعة وفيها نكبر ونشيب. لكننا نراك في قلعتنا لأول مرة. أسألك ثانية من أنتم، لماذا يحيط بنا هؤلاء الحراس؟ إن كنتم قد استوليتم على قلعتنا بالقوة فلن يمكنكم فعل هذا. إن كنتم تفعلون ذلك فإننا باسم إمبراطورنا سنقوم بالدفاع عن قلعتنا.

أفرانوس بك قبل أن يبدأ في الحديث ابتسم ابتسامته المعهودة. بينما كان وجهه يزداد غضبا فإنه أنزل يده فجأة كما رفعها فجأة. إن الرماة الذين وضعهم الحاج إلباي فوق الأبراج عندما شاهدوا هبوط يده بسرعة شدوا

أوتار أقواسهم وأطلقوا السهام. إن الموجودين في الميدان الذين خافوا من أزيز السهام التي تتطاير فوق رءوسهم جثموا جميعا على الأرض مرعوبين من شدة الخوف. هذا الفعل الغريب الذي صدر من الأجنبي المجهول، كان قد أصاب السيدة بالرعب الشديد كما فعلت بكل من بالميدان. حتى أنها لم تفتح فمها بعد ذلك قط. إلا أن أحدهم لم يكترث لموت العجوز الذي كان يقف مستندا على عصاه قبل ذلك، و قال بلا مبالاة:

سيدي، قبل أي شيء قولوا لنا من أنتم. لا يوجد في هذه القلعة من يريد شرا. فالشكر للرب، لم تُحتل قلعتنا منذ احتلال الكتالونيين لها. وتلك هي غاية أمانينا. نتمنى ألا تقع تحت الاحتلال ثانية. نحن الأبناء المخلصين للأباطرة البيزنطيين العظام، ولا نرغب بوجود آخرين في قلعتنا.

أفرانوس بك نظر متفحصا ومتمحصا بدقة وجه الرجل الذي شرح كل أمانيه دفعة واحدة، قال:

إخوتي ... نحن نريد أن تنصتوا للحديث الذي يخرج من أفواهنا. حتى الآن لم يستمع أحد لما قلناه ... لكن مارأيته قبل قليل، هو أنكم جميعا متعجلون جدا ... وأسكتم كلامي في فمي قبل أن أفرغ منه. لم يكن هناك داع لهذا إطلاقا ... اعتبارا من الآن فصاعدا أنتم في حماية أورخان غازي العثماني.

(١٢)

بينما كان الإمبرطور البيزنطي يوحنا كانتاكوزين السادس يحتسي قهوة الصباح في مكتبه في قصر الحكم الموجود بمقر رئاسة الوزراء، نظر إلـى كرسي العرش العتيق المتبقي من عهد الإمبراطورية الرومانية والـذي لـم يستطع أن يزيله من مكانه. قال: الآن حان وقت إزالته من داخـل القاعـة. ولكنه تراجع عن فكرته سريعا معتقدا أنه إن قام بإزالته ستخلو عليه القاعـة وسيبقى أكثر وحدة في قاعته الفارغة. تحدث وهو يبتسم قـائلا: إن أمـرت بإزالته سأبقى بمفردي تماما. وكما فعل في الشهور السابقة نظر إلى كرسي العرش العتيق مرة أخرى وكأن صهره يوحنا باليولوج الخامس شريك عرش الإمبراطورية يجلس عليه، وأضاف إلى صوته نبرة عتـاب وكـذلك ثقـة غاضبة بعض الشيء، وخاطبه قائلا:

شريكي العزيز. زوج حبيبتي إيلينا ... ربما يكون هذا هو آخر حديث بيننا. لم يرجع أي من الرسل الذين أرسلتهم إليك واحدا تلو الآخر من أجـل إخبارك. وكأن هناك جب بلا قاع في تندوس تلقيهم في غياهبه. ربما عـدم إرجاعك للرسل لا يمثل لك أية مشكلة على الإطلاق. ولكن عليك أن تفكـر في اضطراب الأجواء في القسطنطينية إذا لم يعودوا! عندما كنت هنا كـان فوران هذا الغضب يزداد يوما بعد يوم. عندما أبعدتك كنت قد فكـرت فـي إلغاء الشراكة في عرش الإمبراطورية. بيد أن عبور ابن أورخان الـدردنيل

قد أجج النار الموجودة تحت الرماد. وكان الخبر الآتي من جولتيسيوس دوق يامنوس هو سلوتي الوحيدة وسط حالة اليأس التي أعيشها.

نظر يوحنا باليولوج الخامس شريك الإمبراطورية الموجود في تيندوس إلى حماه بعد ابتسامة ماكرة لا تتناسب وشرخ صباه قائلا : أرى أن إمبراطورنا الغاصب الذي ظن نفسه قويا قدر قوة سلالة الباليولوج مضطربا ومنزعجا للغاية. ترى ما هو سبب اضطرابك وانزعاجك إلى هذه الدرجة يا حماي العزيز؟

عندما رأى الإمبراطور يوحنا كانتاكوزين السادس نظرات صهره الباسمة الماكرة التي حملتها شفتاه الرقيقتان، شعر بألم ممزوج بالحزن يسري في بدنه وكأنه رياح عاتية. برد بدنه. صار شعره وكأنه منتصب للأعلى. مد يده نحو عرش صهره الخالي وقال وهومغاضبا:

شئون الدولة لا تقبل المزاح يا ابن أندرونيكوس. ليت والدك كان حيا حتى الآن. ليتنا كنا قد استطعنا اتخاذ التدابير ضد آل عثمان قبل أن تحل بنا كل هذه المصائب ... ألا ترى، أنه كلما تفرقت وتشتت قوتنا ازدادت قوة هؤلاء ... آمل أن تكون مدركا لكل هذا. فما تسرعي واضطرابي إلا لهذا السبب!

قال الصوت المعبر عن فتوة يوحنا باليولوج الخامس والقادم من كرسي العرش الخالي:

لقد نجحت في تفتيت قوتنا يا حماي العزيز... ليس لصبي مثلي أي جرم في هذا الأمر.... فإذا كانت بيزنطتنا قد خارت قواها في مواجهة

العثمانيين في الأعوام الأخيرة، أليس المتسبب في هذا هو حماي الذي يجلس أمامي؟ مساء أمس فكرت لفترة في كيفية إنقاذ بيزنطتنا من هـذا الموقـف. حتى وإن لم يكن بإمكاني التفاهم مطلقا مع حماي، فقد كتبـت رسـالة إلـى ماتيوس. ولكن مازال يتملكني شعور بالريبة والخوف منكم. أرى أنه حـان الوقت لتعيد إليّ عرشي الذي اغتصبته فورا، وأن تتنحى وتذهب بعيدا عـن القسطنطينية. انظر ماذا جنيت من جراء إرسالي إلى هنا؟ هل جلبت الأمـن والأمان إلى الشوارع؟ هل صمت البطريرك؟ هل دفع أهالي جنوة ضرائبهم في موعدها؟ هل عقدت اتفاقيات جديدة مع أهالي البندقية؟ أرى أنك إن سلمت إمبراطوريتي لي دون تباطؤ فسوف تكون قد قدمت أفضل معروف لبيزنطتنا.

قام الإمبراطور يوحنا كانتاكوزين السادس الذي لم يذق الراحـة منـذ انفراده بعرش الإمبراطورية البيزنطية، بعد أن ضرب المنضدة الموجـودة أمامه بقبضته الضخمة بغيظ، واتجه نحو عرش صهره الخالي وقال:

انظر يا ابن أندرونيكوس، دعك من العودة للحكم ثانية. لك حق فـي عرش هذه الإمبراطورية ورثته عن عائلتك. أما أنا فلي الحق أيضـا فـي عرش الإمبراطورية من جهة والدتي، فضلا عن كفاحي الكبير من أجلها. إن لم تتنازل أنت عن حقك الذي ورثته عن أبيك، فلن أتنازل أنا عـن كفـاحي الذي بذلته في سبيلها، كما أنني أحب قسطنطينيتي أكثر منك. رأيـت بـلادا كثيرة من الفاتيكان إلى القدس ومن دمشق إلى طرابزون ومن أدرنه حتـى فيينا ولم أر بلدا بجمال قسطنطينيتنا. والآن تقول لي اذهب فورا واترك هذه المدينة الجميلة. هلا قلت إلى أين؟

صوت يوحنا باليولوج الخامس الموجود على العرش الفارغ وكأنه يريد الاستمرار في عناده، قال: آه يا حماي العزيز، أعلم تفاهة العودة إلى الحديث في هذا الموضوع كل صباح، بيد أنني أحاول أن أحكي لك كيف بدأت في إذاقتي صنوفا من العذاب في كل يوم أمضيته في تندوس التي أعيش فيها الآن. شرعت في إصابتي بالحزن بنفي إلى تندوس التي أقيم بها حاليا. ولأجل راحتنا جميعا أريد خروجك من القسطنطينية ولتذهب إلى أي مكان.

غضب كانتاكوزين السادس من إصرار صهره العنيد على نفس الأشياء. صاح غاضبا في وجه صهره قائلا: هذا هو وقت الإفصاح عن السر الذي أكتمه بداخلي منذ أيام:

يا باليولوج الأحمق، لقد كانت لدى أمك الرغبة وبنفس الدرجة التي أردتها أنا في إبعادك إلى هناك. أرادت أمك التي تقترف السوء ضدي لسنوات، حيث قالت إن إبعادك عن هنا سيكون فيه أفضل الخير لبيزنطتنا، ورغبت في إرسالك إلى تندوس. لأنك لو كنت قد بقيت هنا كان سيقضي أي منا على الآخر. ولأن والدتك أدركت هذا في النهاية، فإنها طلبت مني أن أقوم بفعل هذا من أجلك أنت. ستبقى هناك حتى تنضج وتتعلم كيف يمكنك السيطرة على غضبك.

قال يوحنا باليولوج الخامس الذي لم يتنازل عن عناده:

لِمَ تقحم أمي في اللعبة؟

ولعدم رغبة الإمبراطور يوحنا كانتاكوزين السادس في الدخول في حوار جديد بسبب ملله من هذا الموضوع الذي أرهقه، قال بعبارة واضحة:

لو كنت أقوم بإحدى الألعاب، لكنت قد لعبتها يوم وفاة والدك. وما كنت أنت وغيرك سببا للمشاكل التي ألمت بي.

قال يوحنا باليولوج الخامس شريك الإمبراطورية الذي أدرك أنه لـن يواصل حديثه بسبب شدة غضبه، وكأنه يحدث نفسه:

كنت في وقت من أوقات الغروب التي شعرت فيها بالوحدة الشديدة في الأيام الماضية أنظر من النافذة إلى الدردنيل. وكنت مستغرقا فـي التفكيـر. دخلت أمي غرفتي وكأنها تطرد الظلام الذي بدأ يتسلل بهدوء إلى غرفتـي. عندما رأتني مستغرقا في التفكير على هذا النحو، سألتني قائلة:

هل تفكر في السفر إلى القسطنطينية يا ولدي؟

وقالت دون أن تكترث بإجابتي عن سؤالها:

يجب أن تثبت نفسك قبل أن تعود إلى هناك. وإلى أن تعود إلى هنـاك يجب أن تشعر بأنك مسلح بالعلم والمعرفة. انظر، لقد تحملت كل شيء بعـد وفاة والدك حتى تكبر ... الشكر للرب على أنك بلغت العمر الذي يمكننا أن نتشارك ونتبادل فيه الأفكار والآراء ... ومادمنا قد تمكنا من اقتناص هـذه الفرصة. والآن لو أردت فعل شيء ما فهذا وقت فعله:

وعندما سألها قائلا:

ما هو مقدار فرصتي في إمكانية تحقيق رغبـاتي وحيـاتي الآن يـا والدتي العزيزة؟

قالت: أرى أنه يوجد أمامك الوقت الكافي، وأنت سوف تخلـق فرصـتك بنفسك.

سألتها قائلا: أمي العزيزة، كيف يمكنني إيجاد فرصتي بنفسي في الوقت الذي لم يُترك فيه ولا حتى زورق واحد على مرسي جزيرة تحيطها المياه من كل الجوانب.

كرر جملته الأخيرة ثانية دون أن يوضح أي شيء أكثر من ذلك، قالت:

يا ولدي إنك سوف تخلق فرصتك إن أردت أن تطيل عمرك.

من أجل توضيح هذا الكلام الغامض سألت والدتي قائلا:

كيف سيكون هذا العمل يا والدتي؟ لو كنت أنت على الأقل في القسطنطينية، ربما كان لدي فرصة أما الآن فكلانا بعيد جدا عن هناك.

حاولت أن تثبت لي براءتها من الزج بنا إلى المنفى قائلة:

كان قبولي بهذه الرحلة حتى تكبر وتتضج أكثر، ومن أجل الحيلولة دون إراقة المزيد من الدماء في قسطنطينيتنا. كنت أعتقد أنا وكانتاكوزين أن قسطنطينيتنا عانت بما فيه الكفاية... وكان من الأفضل إبعادك عن هناك لفترة. نحن قمنا بهذا... وإلا كنا سنجدك أنت أو حماك مذبوحين على سريريكما. لا تظن أن رجال كانتاكوزين هم من كان يمكنهم الخيانة فقط بل رجالك أيضا كان باستطاعتهم فعل ذلك. لكنني رددت بعناد منحتني إياه شبيبتي :

عندما نتحدث عن ابتعادنا عن الخطر يكون لزاما علينا ألا نتحدث عن أي شخص ...

قالت أمي:

إذا كنت تقصد أننا نشير إلى ماتيوس فأنت مخطئ. إن دوق يــامنوس وقائد جاليبولي وقادة البحارة الموجودين في بحر الجزر دائما كــانوا إلــى جانبنا على الدوام. طالما كان هؤلاء إلى جانبك لن يستطيع أي قائد قلعة حتى وإن كان اسمه ماتيوس هزيمتك، ولا حتى الزج بك إلى السجن. ثم قالــت: والآن عليك أن تهتم بتعلم كيفية إدارة شئون الدولة نهارا، وأن تهتم بــإثراء حياتك بعمل بعض الأشياء الأخرى ليلا. ثم خرجت وذهبت.

دُهِش كانتاكوزين من حديث صهره الذي يقف في مواجهــة عرشــه تماما، وكأنه كان يحدث رجلا يجلس على عرش الإمبراطورية القديم قبــل ذهابه إلى المنفى. وعندما ذهبت دهشته بدأ في الضحك بصــوت مرتفــع. وأثناء ضحكه بصوت مرتفع دخل رجل البريد وبيده إحدى الصواني التــي يوضع عليها الرسائل. كانت توجد قطيفة حمراء فوق الصينية المصنوعة من الفضة وعلى القطيفة الحمراء توجد رسالة.

سأل الإمبراطور كانتاكوزين السادس، قائلا:

ممن الرسالة؟

أجاب ساعي البريد:

من الإمبراطورة سيدي .

(١٣)

بينما كان سليمان باشا يمشي محركا منكبيه العريضين في الشارع الضيق المرصوف بالحجارة للقلعة التي أطلق عليها اسم تشمبا الذي رآه سهلا له، بدلا من الاسم الذي يطلقه عليها سكانها المحليون، كان أفرانوس بك الذي يمشي إلى جانبه ينظر إليه ويبتسم. سليمان باشا الذي رآه يبتسم، دون أن يبحث عن سبب هذه الابتسامة نظر إلى السفن القادمة نحو الساحل في الظلام، وقال:

إن جنودنا قاموا بالتجديف طوال الليل من أجل عبور ذاك المضيق ونحن نعبر بالقوارب، أما هؤلاء فإنهم يستطيعون الذهاب إلى الشاطئ الآخر والعودة خلال بضع ساعات. إن أردنا أن نمتلك البحر فلابد أن يكون لدينا أيضا سفن مثل سفنهم.

قال أفرانوس بك بعد أن ابتلع ريقه وكأنه قد ابتلع ابتسامته: " إن حاجي بك وفاضل بك وإيجه بك يعرفون البحر جيدا لأنهم تجولوا في بحر الجزر. أما نحن فإن مرشدنا في تلك الليلة الأولي كان قد قصد الذهاب بنا إلى المكان الذي يجري فيه التيار السريع، وأطال وقت عملنا. ولما كان ربابنة هذه السفن والشاحنات البحرية يعرفون البحر جيدا، ولم يتأثروا كثيرا بالتيارات بسبب مراكبهم الشراعية، وثقل أحمال شاحناتهم البحرية فإنهم يستطيعون الذهاب إلى الضفة الأخرى والعودة في وقت قصير وبسهولة كبيرة. كما أنهم في بعض الأماكن يتركون الأمر للتيار دون أن يقوموا بالتجديف." ثم صمت.

نظر سليمان باشا إلى فاضل بك الذي يحتفظ بابتسامة على وجهه حتى في أصعب الأوقات. وبعدما رأي السعادة التي تغمر وجه فاضل بك والذي بدأ يمتزج شيئا فشيئا مع ظلام المساء، ابتسم هو الآخر. فاضل بك الذي لم يكترث لمداعبة ريح المساء الباردة للحيته التي خط الشيب نصفها استدار برأسه وعندما نظر إلى سليمان باشا التقت نظراتهما ببعضها بعضا. وسأل سليمان باشا فاضل بك سؤالا كان يدور في عقله منذ أن نظر إلى السفن، ولكنه لم يكن يستطع أن يسأله، قائلا: ما رأيك يا فاضل بك، هل سيكون لدينا مراكبنا الشراعية وشاحناتنا البحرية وقوادسنا وغليوناتنا التي تنطلق في عباب البحر؟

ضحك فاضل بك، وهو يشير إلى إيجه بك الذي يكبره في السن قليلا، والذي عبر بحر الجزر بأسطول إمارة قراسي الذي يتكون من عدد قليل من القوارب والشاحنات البحرية بالإضافة إلى أحد القوادس الذي تم شراؤه من قراصنة فوتشي، وقال:

يا أميرنا، إن إيجه بك هو أفضل من يعرف هذا الأمر. فقد كان مُستأمَنا علي أسطول قاراسي في الآونة الأخيرة.

نظر إيجه بك إلى القادة الذين بدأت وجوههم تختفي في ظلام الليل شيئا فشيئا وضحك. ولما انتهت ضحكته قال: أسطول قراسي. ثم ضحك مرة أخري وكأنه يريد أن يظهر أسنانه البيضاء للظلام. وبعد أن صمت لبرهة من الوقت، قال: يا سيدي إن السيطرة على البحار، شرط أساسي للتفوق على البيزنطيين. لذلك يجب أن يكون لدينا أسطول أقوى من أسطولهم، لو أصبح لدينا أسطول حقيقي لا يشبه الأسطول الصغير الذي يملكه قراسي فلن يبقي على ظهر الوجود حينئذ ما يسمى الآن بالإمبراطورية البيزنطية.

ظهر الضجر علي وجوههم التي أصبحت غير واضحة الملامح بسبب ظلام الليل، ولم يكونوا يرغبون في الاستمرار في الحديث طويلا. أما سليمان باشا الذي شعر بعدم رغبة الرجال في الحديث فقد أعرض هو الآخر عما كان سيقوله وعما كان ينتوي السؤال عنه. وبينما هم يمشون صامتين وبخطوات تصدر نفس الصوت علي أرض الشارع المرصوف بالحجارة، فإذا بسليمان باشا الذي يرى ميدانا في نهاية الشارع وباب كنيسة مفتوحا على هذا الميدان، يتذكر ذهابهم الأول إلى الكنيسة فور تسلمهم القلعة. وأنه بمجرد أن استقبلهم الراهب المسن ذو الوجه الناصع والذي خاطبهم بصوت حزين، قائلا: أيها السادة مرحبا بكم في قلعتنا. أمل ألا تضنوا بالتسامح علي جميع من يعيش في القلعة. فهذه القلعة تعتبر خندقا لساتوس مثلها مثل كل القلاع التي علي هذا الساحل من الدردنيل، وهي تعيش منذ عصور وهي تشعر بذنب عدم قدرتها علي منع إطفاء مصباح هيرو. إن أمنيتي الوحيدة هو أن تتخلص قلعتنا اعتبارًا من الآن من حزن لندروس وهيرو الذي يعم قلعتنا وأن ينتهي هذا الحداد الحزين. قال للراهب الذي قال هذا ثم أردف صامتا:

أيها الأب، إن ما نريده هو ألا يكون في هذه القلعة أي شكل من عدم الأمان أو وجود ما يزعج أي شخص. فليداوم أهل القلعة حياتهم اليومية في الغد مثلما كانت بالأمس. إننا سنكون سعداء لو أبلغتم رغبتنا هذه لكل من يأتي إلى الكنيسة في الاحتفالات أو من أجل العبادة، كما يسعدنا أيضا لو أبلغتموهم أنهم من الآن في حماية القائد أورخان غازي بن عثمان. حتي الآن لم يتم أسر أحد من قلعتكم باستثناء بعض الحراس الذين تصدوا لجنودنا وكذلك بعض القرويين الذين هاجموا رجالنا. ونتمني ألا يضع أحد العراقيل

في طريقنا بعد ذلك، تذكر أنه عندما قال ذلك بدأ القلق الذي يكسو وجه الراهب يزول شيئا فشيئا. وقال وكأنه يحدث نفسه: الحمد لله أن نعمت القلعة بالأمان والهدوء الذي نريده في وقت قصير بمساعدة الراهب. ثم نظر إلى فاضل بك الذي كان يمشي بجواره وسأله قائلا:

يا فاضل بك، هل عبر جميع فرسانك إلى هذه الضفة؟

قال فاضل بك: القافلة الأخيرة أتت منذ قليل.

سليمان باشا: إذا كان الأمر كذلك تحرك الليلة، وقم بمحاصرة سيستوس. تتحرك قوات بالابنجيق من خلفكم بمجرد عبورها إلى هذه الضفة. في الوقت الذي تحاصرون فيه القلعة تقوم قوات بالابنجيق بالسيطرة على القرى المنتشرة حول القلعة، وتأتي لدعمكم. وإلى أن يأتوا، إن كانت هناك سفن في الميناء تسيطرون عليها.

نظر سليمان باشا إلى ميناء تشمبا الموجود على مقربة من باب القلعة المفتوح. وبينما ينظر إلى السفن والشاحنات البحرية التي اقتربت جدا من الميناء، قال لإيجه بك: يا إيجه بك، لتعبر قواتك تلك إلى هذه الضفة بعد عبور فاضل بك وبالابنجيق أوغلو. وانطلقوا أنتم أيضا بمجرد أن تصل وحداتكم. وأنتم أيضا ستحاصرون مايدوس. وبمجرد أن يصل فرسان بالابنجيق أوغلو وفرسان قاره حسن أوغلو إلى هذه الضفة سيأتون من خلفكم. أما أنا والحاج إلباي فسنقوم بإنجاز أعمالنا في تشمبا ونحن ننتظر قدوم الأخبار السعيدة منكم. وبعدما تعبر جميع قواتنا إلى هذه الضفة، سنترك القلعه للحاج إلباي ونتحرك مع أفرانوس بك نحو جاليبولي. وبعدما ينهي عمله سوف يلحق بنا. وخرج من باب القلعة واتجه نحو الميناء دون أن يتكلم.

الحاج إلباي المكلف بحفظ النظام في قلعة تشمبا الصغيرة، والذي كان قد قام بتوزيع رجاله الأشاوس الموجودين في القلعة على الأبواب، وعلى الأبراج، في نظام محكم لدرجة أنهم كانوا لا يسمحون ليس لأي إنسان داخل القلعة فقط، بل حتي لأي طائر أن يستطيع الطيران في كبد السماء دون إذن. وكانوا يتصرفون بحكمة بالغة حتي لا تشعر القلاع الأخرى بأي تغيير حدث في القلعة وذلك لحين عبور قوات كافية من الشاطئ المقابل، وكانوا يسمحون لمن يأتي إلى أبواب القلعة بالدخول ولا يسمحون لأحد بالخروج من القلعة، وحتى ذلك الوقت فإن النظام داخل الميناء كان يقع علي عاتق أقجه قوجه أوغلو، وبعدما خرج للمعركة من خلف فاضل بك أسندت مهمة حفظ الأمن في الميناء إلى الحاج إلباي.

عندما بدأت الومضات تداعب ضوء القمر الضارب إلى الصفرة لليلتهم الأولى، كان قد اكتمل الدفع بوحدات الفرسان التي نزلت من المراكب الشراعية، ومن مراكب الشحن التي رست مؤخرا. وعندما نظر كل من فاضل بك وبلابانجيق أوغلو نحو سليمان باشا من أجل الحصول على مباركته قبل أن ينطلقا إلى المكان الذي تتمكز فيه وحداتهما من أجل الاستعداد للحرب، قال سليمان باشا: أيها القادة الذين جعلتموني قويا في كل وقت بغزواتكم أقول لكم يا من قويتمونا بغزواتكم على مر الأوقات، باسم والدي السلطان أورخان غازي وباسم إمارتنا " أقر الله عيونكم في هذه الغزوة التي خرجتم فيها مع جنودكم الأشاوس وأدخل السرور والحبور إلى قلوبكم، وقوى سواعدكم، وجعل غزوتكم غزوة مباركة، ثم ودعهم بالأحضان."

وكالمعتاد بعد كل فراق سرت في قلب سليمان باشا لوعة فراق بسيطة. وظل لفترة ينظر إلى البحر وهو واقف في مكانه. ولم تستطع كل من الأضواء البنفسجية التي تداعب ضوء القمر الأصفر غير الصافي والمركبين الشراعيين ومراكب الشحن البحرية المزينة بالقناديل المتعددة الألوان التي تشق طريقها صوب الشاطئ المقابل، أن تزيل هذه اللوعة التي في قلبه. ثم التفت، وأثناء سيره نحو القلعة كانت هذه اللوعة البسيطة مازالت في قلبه. وعندما وصل إلى البناية التي يوجد بها مقر قيادة القلعة والذي يوجد به الحاج إلباي، مارا من خلال الشوارع الضيقة الموجودة بين البيوت ذات الجدران الحجرية؛ كانت هذه الحسرة ما زالت تراوح في مكانها. وعندما وصل الحاج إلباي إلى غرفة قائد القلعة وقبل أن يجلس في مكانه سأله سليمان باشا قائلا: يا حاج إلباي، ماذا تقول تجاربكم وخبراتكم؟ هل من الممكن أن نظل هنا؟

قال الحاج إلباي، وكأنه قد أدرك القلق الموجود داخل سليمان باشا، والذي تعكسه نبرات صوته: لا تقلق أبدا يا سيدي. ستكون معركتنا وغزوتنا هنا أسهل مما تأملون. لأن الأرض عند من يعيشون على الضفة الأخرى أغلي من الروح، أما من يعيشون على هذه الضفة فالروح عندهم أعز وأغلي من الأرض. فإذا ما أوضحنا لهم بأسلوب جميل أن أرواحهم عزيزة لدينا، وأننا لن نتعرض لأموالهم، فإن ذلك سوف يسهل مهمتنا كثيرا. وفي الوقت الذي كان الحاج إلباي مستطردا في حديثه شيئا فشيئا بخبرته الناتجة من تجارب رجل الدولة، حيث كان قد شغل منصب الوزارة في إمارة قراسي، دخل قرا حسن أوغلو من الباب شبه المفتوح. وبعد أن ألقى التحية على

الموجودين بالداخل؛ واضعا يده علي صدره ومنحنيا إلى الأمام قليلا، نظر إلى سليمان باشا وقال: يا سيدي، إن إيجه بك علي وشك إنهاء استعداداته. ويريد التحرك أيضا فور وصول القافلة الأخيرة. وسيأخذ معه أثناء ذهابه آلات المنجنيق المقوسة الخفيفة التي تم الاستيلاء عليها من مخازن القلعة. بيد أنه ليس لدينا العربات التي ستحملها، ولا الحيوانات التي ستجر هذه العربات. ولذا فإننا نستسمحكم بأن توفروا لنا أحد الحيوانات لجر العربة من أهالى القلعة.

نظر سليمان باشا لبرهة إلى قرا حسن أوغلو ثم عاد إلى الحاج إلباي. وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، قال الحاج إلباي: هذه فرصة عظيمة. ليخرج منادي الآن، ويدعو أصحاب العربات التي تجرها الحيوانات إلى هنا وسأشرح لهم بأننا سنستأجرهم وحيواناتهم نظير مقابل مادي. وسنقول لهم أيضا إننا سندفع الأجر لمن يرغب منهم في نقل آلات المنجنيق بعرباتهم. والآن لنخبر أفرانوس بك ليأتي إلينا فورا. إنه يستطيع أن يشرح للقادمين ما نريده بشكل أفضل منا. ونظر إلى سليمان باشا وقال يا سيدي إنها لفرصة أتيحت لنا دون أن نبحث عنها ونتعب من أجل العثور عليها.

نظر سليمان باشا الذي لم يستطع فهم أي شيء قط مما قاله الحاج إلباي إلى قرا حسن أوغلو. وكان هو أيضا ينظر اليه وكأنه يقول له " أنا أيضا لم أستطع فهم أي شيء قط". ولما التفت ثانية إلى الحاج إلباي، قال الحاج إلباي الذي كان يحك وجهه ذا اللحية القصيرة المستديرة: سيدي إننا عندما ندفع لهم الأجرة سيعرفون أنهم سيربحون عندما يعملون معنا، وأنهم سيوقنون أننا لا نضع أعيننا علي أموالهم. فكروا فيما سيحققه انتشار ذلك في

القلعة، وكيف سيسهل هذا مهمتنا بشكل كبير. ولا شك أن هذا الصنيع الذي سيشيع بينهم سيسهل مهمتنا كثيرا. فهؤلاء الناس الذين لم يستطيعوا أن يحصلوا على أي مقابل لأي عمل قاموا به حتي الآن، سيدركون الفارق بيننا وبين من سبقونا عندما يحصلون منا علي أجر مقابل كل عمل يقومون به من أعمال لصالحنا.

(١٤)

كان الخطاب الذي جاء من الإمبراطورة الأم آنا كان قد قلب حياة الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس رأسا علي عقب. وكانت الجملتان الأخيرتان من الخطاب تدوران في ذهنه باستمرار أينما حل وأينما ذهب. وطوال الفترة التي كانت تدور فيها هاتان الجملتان في رأس الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس، كان يشعر وكأنه سيحاكم أمام إحدى المحاكم التي سيكون هو على رأس قضاتها. وعلى الرغم من أنه كان يقول في كل مرة " إنني لست مذنبا" فإنه لم يكن يستطيع التخلص من الشعور بالذنب ويظن أن المحكمة ستحكم بإدانته في النهاية. وكان لا يستطيع أن يستريح حتى وهو نائم بسبب هذه الأفكار التي تسيطر عليه وعلي هذا النحو كانت مثل هذه الأفكار تتعقبه في ذهابه وإيابه بل كان لا يستطيع أن ينام مرتاح البال أو يهنأ بنومه. ولهذا كان في الكثير من الليالي يفضل السهر على النوم.

وكان يعرف أن الحل الوحيد للخلاص من هذه الحالة هو أن يتخذ القرار بعودتهم، ورغم أنه كان يقول حينما يستيقظ في منتصف الليل " إن أول عمل سأقوم به في صباح الغد سيكون إرسال سفن الأسطول" فإنه كان يتراجع عن رأيه بمجرد رؤيته لضوء النهار. وكان يسوف حتى حلول الظهيرة وكان الإحساس بالندم يهجم من عقله على قلبه اعتبارا من منتصف اليوم. وبعد ذلك كان يقضي ما بقي من اليوم إما بالتفكير في هذه الأمور أو

مع الضيق والملل الذي يجلبه الشعور بهذا الندم. ومر ذلك اليوم على هذا النحو. ورغم قوله بعزم وإصرار حتى طلوع الفجر" إن أول عمل سأقوم به هو إرسال السفن" فإنه تردد في فعل ما قرر بعدما شاهد نور الصباح. وظل في هذا التردد حتى تناول طعام الفطور. حتى أنه أثناء تناول الإفطار كان يريد أن يقول " يا إيرينا، سآمر اليوم بإرسال سفينة أو سفينتين من سفن الأسطول وسأصدر لهم الأمر بإحضار آل باليولوج من الجزيرة" ولكن لم يكد يركب العربة الإمبراطورية، حتى بدا أنه لن يستطيع قول هذا وحدث نفسه قائلا: " ليبقوا هناك مدة من الزمن، ولْيعد كل من آنا العنيدة، وكذلك ابنها العنيد حاد الطبع إلى رشدهما وصوابهما، وألا يظنا أن كل نفخة هي ريح عاصف". لم يكد يوحنا كنتاكوزين السادس الذي لم يتراجع عن هذا القرار الأخير إلى أن وصل إلى قصر العمل من قصره الذي يطلق عليه " قصري الآمن" يدخل قاعة عمله حتى شعر بالندم. وظل حائرا داخل غرفته مدة من الزمن لا يدري ماذا سيفعل. ثم ذهب ووقف أمام النافذة الواسعة وبدأ يشاهد إطلاق إحدى المراكب الشراعية فوق المياه الزرقاء من البسفور نحو بحر إيجه. وقال بصوت منخفض يشبه النفس الذي يخرج من بين أسنانه وهو يلوح بيديه بشكل غير واضح "أبلغ سلامي إلى كل من الإمبرطورة الأم آنا وإلى عزيزتي إيلينا وإلى شريك عرشي". ولم تكد تخرج بعض الكلمات الأخرى من فمه حتى خجل مما قاله. وغطى وجهه المستدير الضخم بيديه حتى تخفي خجله. وبعد أن وقف مدة من الزمن أمام النافذة على هذا النحو سار وكأنه يركض وجلس على الكرسي الموجود خلف طاولة العمل. وقال وهو ينزل قبضته غاضبا على الطاولة:

يا إلهي أي جرم ارتكبته لأقع في مأزق مثل هذا؟

فُتح باب القاعة قبل أن يتمكن من إتمام جملته، ودخل الخادم إلى الداخل.

وسأل قائلا وهو يلقي التحية منكسا رأسه:

هل كنتم قد أردتم شيئا يا سيدي؟

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين وهو ينظر إلى قبضته:

أحضر شرابا.

ولم يكد الخادم يغلق الباب حتى نظر الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس من فوره إلى كرسي عرش يوحنا باليولوج الخامس الذي استبدله بعرشه قبل يوم. ولكن هذه المرة كانت الإمبراطورة الأم آنا هي التي تجلس فوق كرسي العرش وليس يوحنا باليولوج الخامس. كانت تضحك وهو تنظر إلى يوحنا كنتاكوزين السادس. ارتفع صوت ضحكها شيئا فشيئا ولما تحول ضحكها إلى قهقهة توقفت على حين غرة ونظرت إلى كنتاكوزين ثم قالت:

من الأفضل ألا تطيل في هذا الأمر أكثر من ذلك. كنت قد أردت أنا أيضا المجيء مع ولدي ولكن لم أكن أتصور أن الأمر سيطول إلى هذا القدر. لقد سئمت ومللت ولم أعد أتحمل ثم نهضت وذهبت. لما اضطرب خيالها واختفى في الأضواء التي تدخل القاعة من النافذة الكبيرة، تذكر يوحنا كنتاكوزين آخر مرة أتت فيها إلى قاعة العمل التي يتقاسمها مع باليولوج الخامس قبل ذهابها إلى المنفى. تذكر أثناء اهتزاز جفونه:

كيف خجل ابن أندرونيكوس الذي رأى والدته التي جاءت إلى مكتبه الرسمي. وقال دون أن ينظر إليها:

حاول أن يفهمها بأنه لا يمكنها المجيء إلى قاعة عمله كلما أرادت وخاطبها قائلا: يا والدتي ليتك كنت قد أخبرتني بأنك ستأتين ويا حبذا لو كنت أتيت بعد أن فعلتِ ذلك. انظري استمعنا إلى نائب رئيس الوزراء والموظفين الآخرين، وسنستمع بعد قليل للمراسلين الذين جاءوا... وسنلتقي برسولين آخرين سيأتيان في إثرهم.

لما أدركت أن الإمبراطورة الأم آنا التي أعرف جيدا ما تريد أن تحكيه نظراتها قد انكسر خاطرها بسبب ما قاله ابنها، قلت من أجل تخفيف حدة التوتر:

يا ابن أندرونيكوس، لتعلم أن الإمبراطورة الأم هي العماد الأساسي لإمبراطوريتنا. ولا تنس أن لها الحق في إدارة شئون إمبراطوريتنا مثلنا تماما. وتستطيع أن تأتي إلى غرفة عملنا أنى شاءت. ولا تنس أيضا أن كلمتين من كلمات الإمبراطورة الأم أهم من الأخبار التي يجلبها المراسلون وأقيم من الهدايا التي يقدمها الرسل. ولذا فلا بأس أبدا من مجيئها إلى هنا. ونستطيع أن نسمع المراسلين في حضورها.

أصاب الخجل يوحنا باليولوج الخامس ونظر إلى الأرض وأصابته الحيرة وكأن أفكاره قد وضحت بجلاء بعدما تحدثت على هذا النحو وذهب غضبه ولم يبق أي أثر لحالة الضيق التي تملكته قبل قليل، غض من صوته وتحدث بهدوء قائلا:

بعد أن قال حماي العزيز بأنه لا توجد أية مشكلة في تشريفكم...

وقبل أن تنتهي جملة " بعد أن قال حماي العزيز بأنه لا توجد أية مشكلة في تشريفكم..." تظاهر وكأنه ممتعض جدا من حك لحيته التي ظننت أنها غير مهذبة، نظرت إلى الإمبراطورة الأم ثم قلت:

لماذا يكون هناك مشكلة من مجيئك يا عزيزتي... للإمبراطورة الحق مثلنا تماما في معرفة كل ما يخص الإمبراطورية. لا جرم أنه لا يوجد بيننا أي شيء يمكن أن يكون سرا عن أي منا نحن الثلاثة.

صاح الإمبراطور الطفل شريك عرشي الذي سر كثيرا بكلامي هذا بصوت عال نحو الباب قائلا:

ادخلوا المراسلين.

كان مراسلونا الذين أرسلناهم إلى جاتيليسيو دوق آينوس الجديد أول المراسلين الذين جاءوا. كانوا قد ذهبوا لإبلاغه بموافقتنا على توليه مهام منصب دوق أينوس. وكان الخبر الذي جاءوا به هو رسالته التي تفيد بأن جاتيليسيو سيبدأ من فوره القيام بمهام منصبه وبأنه سيرسل رسله إلى الإمبراطورين في أقرب فرصة. وكان قد كتب لكل منا على حدة. فتح كل منا رسالته ولما بدأنا في قراءتها، قالت الإمبراطورة الأم معاتبة إيانا:

فلأذهب أنا ما دمتما لا تقرآن رسالتيكما بصوت مسموع. وبدأنا في قراءة رسالتينا بصوت مسموع بعدما قالت ذلك. والذي أدركناه حينئذ، هو أن جاتيليسيوا قد مدح كلا منا بذات الكلمات والعبارات. لما فرغت الإمبراطورة

آنا التي انفجرت في الضحك بصوت عال أثناء إنصاتها لرسالتينا المكتوبتين بنفس الكلمات ، قالت معاتبة:

ولدي قرة عيني، ليس هناك أي شيء سيكون سرا إمبراطوريا. وقلت من أجل كسب رضاها:

يا إمبراطورتي، ما رأيك في نزهة في الحديقة الخلفية بعد تناول قهوتنا. على الأرجح سنجد الأشياء التي يمكن لشخصين مسنين مثلنا أن يتبادلا فيها الحديث.

ردت الإمبراطورة آنا على ما قلته وهي تنظر إلى ابنها قائلة:

هل هناك مشكلة ما إن تركنا ولدي بمفرده بعض الوقت؟

قال باليولوج الخامس شريكي في عرش الإمبراطورية بعد أن تردد مدة من الوقت هل يسعد لهذا القرار الذي انتشله من هذا الموقف الصعب أم لا، قال:

يا والدتي الحبيبة، الأفضل لي ألا تعاتبيني فيما بعد على تركي لك بمفردك مع حماي. وإذا أنهيت أعمالي فسأتمكن من الانضمام إليكما فيما بعد. قالت الإمبراطورة آنا التي سمعت كلام ابنها:

لم أكن أتصور إطلاقا أن يطلب مني أحد الإمبراطورين بعد وفاة زوجتي التنزه في الحديقة. ولكن ما أراه، هو أن كلا الإمبراطورين لم يهملاني رغم كل المعاناة والمشاكل الموجودة بيننا.

مشينا معًا بعد حديثها وبعدما خرجنا إلى الحديقة الخلفية قلت للإمبراطورة:

إن ابن أندرينيكوس لا يثق بي ولا بكم حتى الآن الثقة التامة التي يُعول عليها. أري أحيانا أن شكه أمر جيد، ولكن لا يروق لي أحيانا عندما أراه يتصرف بأنانية. الإمبراطورة آنا التي سبقت قليلا على الطريق المرصوف بالحجارة الكبيرة والبيضاء الذي تظلله أشجار الدلب الموجودة في الحديقة، انتظرتني إلى أن أتيت إلى جوارها. وقالت عندما وصلت إلى جوارها:

إيلينا هي الوحيدة التي يثق بها.

نظرت إلى وجهها وحاولت فهم ما إذا كانت تملكتها غيرة الأمومة أم لا ولكن لم أستطع رؤية أية أمارة على ذلك. ثم قلت:

إيلينا عاقلة وحكيمة. وأرى أن ثقته بها شيء جيد...

قالت الإمبراطورة آنا:

أنا أرى ذلك. ولكن يجب عدم ترك إيلينا وحدها. يوحنا يغير قراره بسرعة لأنه شب عن الطفولة حديثا. رغبتي الوحيدة هي نضوجه. تشجعت من حديث الإمبراطورة الأم آنا الصادق على هذا النحو وقلت أنا أيضا:

أنا متفائل من ذلك. وأرجو ألا أفقد الأمل. أعلم جيدا أنني لو فقدت أملي سوف ينتهى آل كنتاكوزين وآل باليولوج أيضا. أدعو كل لحظة من أجل ألا تضاعف مخاوفي التي بدأت مع تدخل العثمانيين الموجودين في بورصة، ومن أجل أن تصل إمبراطوريتنا إلى قوتها التي كانت عليها في

سابق عهدها. وحتى يستجاب لدعائي أدعو الرب أن يمنحنا بعض الوقت. تعلمين أن سبب الموافقة من زواج ابنتي تيودورا الشابة اليافعة من أورخان غازي الكهل العجوز كان من أجل أن يجعلنا نكسب هذا الوقت.

وفي الوقت الذي تشجعت فيه الإمبراطورة آنا من حديثي الصادق وفي أثناء حديثها سقطت إحدى ثمرات قَسْطَل الفرس الضخمة من أحد الأغصان العليا لإحدى أشجار قَسْطَل الفرس القوية المزروعة بين أشجار الدلب العجوزة الموجودة في الحديقة. وفزع كلانا من الصوت الضخم الذي نتج عن اصطدام ثمرة قسطل الفرس بالأرض الحجرية ونظرنا معا نحو المكان الذي أتى منه الصوت. تدحرجت ثمرة قسطل الفرس ذات اللون البني التي تحطمت قشرتها لوقوعها من عل على الأرض الحجرية لمدة وعندما توقفت نسيت الإمبراطورة أنها بدأت في الحديث ونظرت إلى ثمرة قسطل الفرس ثم قلت:

هذا هو كل الموضوع يا إمبراطورتي.

الإمبراطورة آنا التي نظرت وكأنها تقول" هل كان أثناء السقوط"، هزمت غضبها الحزين الممتزج بصوتها وقالت بصوتها القوي العذب:

أفصح عما تريد أن قوله.

في تلك اللحظة ملت وأخذت قشرة قسطل الفرس الشوكية بيدي، وأرَيْتُها للإمبراطورة آنا. ثم قلت:

يا إمبراطورتي إن ما أردت قوله هو أن كل قشرة عجوز تتفلق عندما يحين وقتها وتخرج منها حياة جديدة. ولكن لا أحد يستطيع أن يعرف هل تلك

الحياة الجديدة ستعيش أكثر من القشرة العجوزة أم لا. ولذا يتوجب علينا أن نجد أحد السبل لنضمن ولنحقق بها نضوح وبلوغ ابن أندرينوكوس.

أخذت الإمبراطورة آن الموضوع مأخذ الجد ونظرت إلى وجهي ثم قالت:

آه يا صديقي! الزمان رقيق جدا حتى أنه ينفذ من مصفاة منطق كل شخص. ولذا فإنه هو الذي يظهر ويوضح كل شيء. والآن يجب علينا أن يُمنح بعض الوقت وأن ننتظر تمريره كل شيء برقته من مصفاة منطق الزمان. ولكن للأسف، لا يتركونه وراحته. ولذا فإنني أقول بضرورة أن يبقي بعيدا عن القسطنطينية لفترة من الزمان.

رأيت أن هذا كان رأيا سديدا في تلك الأيام التي كنت أفكر فيها في كيفية خروجي من إدارة الإمبراطورية ذات الإدارة الثنائية. كانت هي نفسها ترغب في الذهاب مع ابنها ولكن فكر قائلا لم أستطع فهم ماذا تريد قوله برسالتها الأخيرة وفُتح باب القاعة بلا مبالاة عندما استند على ظهر مقعده.

(١٥)

ترجل فاضل بك عن صهوة جواده ونظر إلى قلعة ساسـتوس التـي يحيطها سكون ضوء القمر. لم تكن أسوار القلعة الصغيرة مرتفعة حتى وإن تجاوز ارتفاعها في بعض الأماكن طول السلالم متوسطة الطول. فاضل بك الذي شعر بالسعادة لهذا حدث نفسه بصوت منخفض وهو ينظر إلى أبـراج القلعة قائلا " في الأغلب كانت الأسوار مرتفعة قبل ذلك، ولكنها انهارت فيما بعد وتم خفض ارتفاعها...". فاضل بك الذي مر وكأنه يعبر من أحد أنفـاق التفكير الطويلة جدا قائلا " إن مقاتلي كل من المقدونيين الذين ينطقون أسماء اليونانيين وكأنهم يبصقون، وكذلك الفرس الذين يطلق عليهم في هذه المناطق سيف آسيا الصغرى، وكثيرا من الأقوام الأخرى التي لا يمكن أن نعرفها قد سبقونا في النظر إلى هذه الأسوار التي أنظر إليها الآن أنا وفرساني. وربما فعل بعض الذين جاءوا من قبلنا مثلنا الآن، وانتظروا حتى يستغرق حـراس القلعة في سبات عميق ثم هجموا عليهم، وربما شاهد حراس القلعة القـادمين وتظاهروا بأنهم نائمون وأوقعوا بهم في الشرك. وربما يكون سكان القلعة قد أدركوا أنهم لن يستطيعوا التصدي للقادمين وقاموا من فورهم بتسليم القلعة. وربما يكون كل ما فكرت به لم يحدث قط، وكانت جدران القلعة قد انهارت من تلقاء نفسها".

نظر فاضل بك بعد أن استعرض كل هذه الأشياء في ذهنه إلى ساري سليمان بك المعروف بين القادة باسم بيجالي والموجود إلى جواره. أضفى سليمان بك السكينة على الهدوء الموجود في بياض عينيه اللتين تلمعان في ضوء القمر المتلألئ. ونظر إلى المنطقة المحيطة به وهو يأخذ نفسا عميقا مع السكينة التي يشعر بها. ثم نظر إلى أعلى الشجرة التي تظلل المكان الذي يقف فيه. وقف على أطراف أصابعه وأمسك بأسفل غصن من أغصان الشجرة. ونظر إلى بيجالي مرة ثانية و يقف على هذا النحو. سرت السكينة والهدوء اللتان كان يشعر بهما قبل قليل إلى جسده. وحدث نفسه قائلا " إن عقلي أحد الحقول، هو أيضا مثل إحدى البذور ثم نثره في كل أرجاء الحقل " وأثناء نظره إلى القلعة دون أن تتركه أفكاره ولسبب غير معلوم خطر بباله اليوم الذي أُحضر فيه إلى جانب بيجالي. وورد إلى ذهني" أن قلم بك الذي أخبرته برغبتي في تدريب الشباب بدلا من المسنين الذين معي والذين أرهقتهم السنون كان قد أرسل الأعداد الكافية من المقاتلين الجدد حتى أختار من بينهم. وكنت أختبرهم حتى أختار الأفضل والأكثر قدرة على التحمل منهم. جاء أمامي الواثق بنفسه بكل جسارة ومروءة شبابه. اندهش بشدة لطيران سيفه من يده في لحظة عندما منحته الفرصة للقيام بأول هجوم. ولكن أعجبني أنه تخلص من حيرته واندهاشه في فترة وجيزة وتعامله على الفور مع سيفه القصير والعريض. وكانت محاولته للدفاع عن نفسه بالسيف القصير العريض الذي أخرجه من غمده المعلق في حزامه المربوط على خصره بمثابة إحدى علامات الشجاعة والجسارة. في ذلك اليوم أدركت أنه مقدام وشجاع. وقلت له بأن يكون وحدته القتالية بعدما أدركت أنه يمكنني الوثوق

به بعد التدريبات والاختبارات المتعددة. انتهت اختباراتي في مقـر القيـادة وكانت الأيام التي قررت فيها اختباره لآخر مرة وانضم إلى اللواء العثماني الذي يقوده أورخان غازي في ولاية قراسي. ونحن كبقية القـادة الآخـرين انضممنا إلى قوات أورخان غازي. وكانت حربنا الأولى علـى الأراضـي البيزنطية الموجودة في الشمال. بدت سينوس أمامنا كعباءة زرقـاء عنـدما وصلنا إلى مشارف نيكوميديا. أرسل أورخان غازي إلى الداهيـة أيغـوت لمساعدتنا. كان الأمير كولوياني يدافع في تلك الأثنـاء عـن القلعـة التـي حاصرها أيغوت آلب. كانت أسوار القلعة التي يطلق عليها أقجه قوجه اسـم قرا حصار قد روعت كلا من المتسلقين والفدائيين لشدة ارتفاعها. نظر أقجه قوجه الذي جاء إلى جوار أيغوت في ذلك الوقت إلى الفدائيين الذين صاروا هدفا لسهام حراس كولوياني، وبعدما تحدث قائلا " هذا العمل ليس عمل كل شخص. أبحث عن المتطوعين الذين سيتسلقون جدران القلعة" خرج بيجـالي إلى الأمام بعد قرا على بك ابن أيغوت آلب مباشرة. وفكرت وأنا أنظر إليـه في تلك اللحظة قائلا " إن رجع سليما من القلعة سوف أقوم بترقيته من مقاتل تابع لقائد إلى رتبة قائد". ولسبب ما كنت أظن أنه لن يعود ثانية مثل الذين ذهبوا من قبله ولكن حماهم ذلك الظلام الدامس الذي أطبق على القلعة فـي تلك الليلة. ولم ير حراس كولوياني تسلقهم وصعودهم على الجدران. وفتحا أبواب القلعة لفرسان أيغوت آلب وأقجه قوجه عند مطلع الفجـر. وأحضـر رأس كولوياني عند شروق الشمس. وتراجعت الأميرة مليكه شقيقة كوليانى التي رأت تلك الرأس من قلعة نيكوميديا عن الدفاع عن القلعـة. كنـت قـد أصبت بذلك الجرح العميق الموجود في صدري عندما دخلنا من أجل تطهير

القلعة. أتى بيجالي وأنقذني عندما سقطت من فوق صهوة جــوادي. وقــال أورخان غازي الذي أتي إلى جانبي أثناء تضميد الطبيب للجرح:

كان الاستيلاء على نيكوميديا هو هدفنا الذي نسعى إليه منذ ســنوات. كان والدي يحدثني قائلا "بعد الاستيلاء على بورصه يجب أن نستولي علــى نيكوميديا يا ولدي. إذا تم الاستيلاء على هذه القلعة سيبزغ الفجر لأول مــرة على شجعاننا من الشمال". وبعد أن قال " اليوم بزغ ذلك الفجر على شجعاننا بمساعدتك أنت وقادتك. ستُزف أجمل بنات نيكوميديا عرائس إلى الأبطــال الذين فتحوا أبواب قلعة قويونحصار" ثم التفت إلى سليمان باشا الذي يقــف خلفه وقال من الآن فصاعدا ليكن فرسان فاضل بك شرف قراسي وإيجه بك والحاج إلباي هي أماناتي التي أستودعك إياها.

كنت قد رقيت بيجالي إلى رتبة قائد في ذلك اليوم، وزوجته واحدة من أجمل فتيات نيكوميديا اللواتي تم أسرهن. مرت فترة طويلة جدا منــذ تلــك السنوات. رجاله صاروا بارعين في تسلق جــدران القــلاع. غالبــا كــانوا يتسلقون هذه الجدران المنخفضة وكأنهم يلعبون إحدى الألعاب" ثم رجع مرة أخرى إلى أسفل الشجرة التي تسرق الظل من ضوء القمــر. تخلــص مــن التفكير في بيجالي وعندما نظر إلى جدران القلعة المنخفضة أتاه دافــع مــن داخله للتحرك على الفور. ولكن تراجع عن فكرته قائلا " لننتظر حتى يــأتي القادمون من خلفنا". ولكن طغى الفرح الموجود فــي قلبــه علــى الأفكــار الموجودة في عقله بعدما رأى عدم وجود أي حارس يتجول فــوق أســوار القلعة ولا أي ضوء في أماكن الحراس المناوبين الموجودين علــى أبــراج القلعة التي دقق النظر إليها. نظر إلى القلعة ثــم حــدث نفســه قــائلا " إن الموجودين في القلعة استغرقوا في سبات عميق معتقدين أن هذه الليلة مثــل

غيرها من الليالي الأخرى"، ولما فار الدم في عروقه الذي غرق في السعادة الموجودة في قلبه، التفت إلى القادة الموجودين إلى جواره ثم قال:

من الواضح أنه لا يوجد أي ضوء ولا أي حارس. أظن أن من بالقلعة غطوا في سبات عميق. إن انتظرنا القادمين سنفوت هذه الفرصة. سيكون من الأفضل لو انقضضنا على من بالقلعة وهم يغشاهم النعاس.

لما لم يتلق أي رد من أي من القادة سأل كل واحد منهم عن رأيه. لما أدرك أن غالبيتهم يؤيدون الهجوم رأى أن التحرك فورا سيكون مفيدا ثم قال:

يا بيجالي، ستتحرك أنت أولا مع المتسلقين وحاملي السلالم التابعين لك. ستقومون بوضع السلالم وفور صعود الفدائيين على الجدار سيقترب الشجعان من الجدران والأبواب. وفور تسلقهم الجدران ستتحركون على شكل مجموعتين على الجدار. وبينما يقوم الفدائيون الموجودون في المقدمة بفتح الأبواب مشطوا المواقع الموجودة خلفهم وسيطروا على الشوارع. وأنت يا قوندوق آلب انتظر على أهبة الاستعداد مع فرسانك أمام باب القلعة الشمالي. وأنت يا ميخائيل أوغلو ليقترب رماتك جدا من القلعة. وأنت يا باشا بيت بك، اقترب بفرسانك من الباب الغربي. وأنا أيضا سآخذ موقعي أمام الباب الرئيسي الموجود في الجنوب. والآن لنترك وحدة صغيرة عند الباب الشرقي. وليأخذ بلابنجيق أوغلو موقعه هو الآخر عند الباب الشرقي عندما يأتي. كلمة السر هي نعيق البوم. لا يتحرك أي أحد قبل سماع نعيق البوم. سيتحرك الفدائيون مع متسلقي الأسوار التابعين لبيجالي رويدا رويدا نحو جدران القلعة. سأقوم بجولة تفقدية حول القلعة وليكن الجميع على أهبة الاستعداد عندما أعود.

في الواقع فإن القلعة المشيدة بين خليجين كانت وكأنها مغلفة بضوء القمر. ظن فاضل بك الذي يتقدم على صهوة جواده لبرهة وهو ينظر نحو القلعة أنه لا يوجد أي شخص بداخلها. ولكن استخدام الطريق الذي كان يسير عليه جواده كان يجعله يتراجع من فوره عن فكره هذا. تضرع فاضل بك عندما اقترب جواده الذي تقدم راكضا ببطء راسما إحدى الدوائرعلى الطريق المحيط بالقلعة من المكان الذي انطلق منه قائلا " اللهم انصرنا وبيض وجوهنا في هذا العمل". ولم يكد يصل إلى المكان الذي ينتظره فيه القادة حتى ترجل عن جواده وعانقهم واحدا واحدا. ثم قال وهو ينظر إليهم:

هيا لتكن غزوتكم غزوة مباركة! أخبر المراسلون بأن بالابنجيق أوغلو يقترب منهم. إذا ما تم وضع هدوء وسكون القلعة في الاعتبار فإن القوات الموجودة معه كانت كافية للاستيلاء على القلعة ولكنه قرر أن ينتظر قدوم بالابنجيق أوغلو. ولكن في الواقع لم يكن ينتظر بالابنجيق أوغلو، ولكنه كان ينتظر بزوغ الفجر الذي يسكت حتى القمر. لأن النجوم تنسى سطح الأرض أثناء تقدم القمر الذي يخاف من الشمس في تلك الأوقات بسرعة نحو الأفق، أما وجه الأرض فإنه يختفي في الظلام الحالك مستحيا من الصرخات الموجودة في آلام بزوغ الفجر. وهكذا يتسلق المتلسقون الأسوار في ذلك الوقت دون أن يراهم أحد، ويمكن لحاملي السلالم أن يضعوا سلالمهم على الجدران، ويمكن أن يصعد الشجعان الأشاوس فوق جدران القلعة دون أن يراهم الحراس المناوبون الموجودون في أبراج القلعة. لا سيما وأن الصعود على الأسوار كان أصعب ما في الأمر.

فاضل بك الذي انتظر صامتا فترة من الزمن، رحب ببالابنجيق أوغلو الذي جاء إلى جواره قائلا له "حمدا لله على سلامتكم" ثم أخبره بالقرار الذي اتخذه. وقال وهو ينظر إليه وإلى القادة الآخرين:

لن تزهق روح أي شخص بخلاف الذين سيقاومونكم. سيتم أسر كل من قائد القلعة وحراسه ويتم إخراجهم فورا إلى خارج القلعة ويتم تسليمهم إلى فرسان بالابنجيق أوغلو. ولن يتم التعرض لرجال الدين الموجودين في القلعة. وفي الوقت الذي مشى نحو جواده قائلا هيا على بركة الله، لتكن غزوتكم غزوة مباركة، في البداية اضطربت الجياد وبدأت بإخراج الماء من أنوفها، وبعد ذلك طار أحد طيور الحقل من بين الأدغال الموجودة بالقرب منهم وبدأ يغرد بصوت عال. فاضل بك الذي رأى أن انزعاج الخيل في البداية، ومن بعده انتقال أحد طيور الحقل من قمة إلى أخرى وهو يغرد بأعلى صوته ليست بشرى خير، حتى وإن ظل صامتا لفترة من الزمن فإنه لم يتراجع عن قراره الذي اتخذه. طائر الحقل الذي رآه مصمما وعازما بعد أن داهنه لفترة انطلق فجأة نحو القلعة التي تشبه السلحفاة التي تقوقعت داخل غلافها واختفى. تخلت الجياد عن انزعاجها وتركت آذانها التي أرختها على راحتها وكأنها كانت تنتظر اختفاءه.

في الوقت الذي كان يستعد فيه بالابنجيق أوغلو الذي أراد الاستفادة من فترة الصمت القصيرة التي كانت حتى يتسنى له القول" يا قائدنا لننتظر حتى الصباح ولنطلب من الموجودين في القلعة التسليم" جاء أحد مراسلي قول أوغلو حسن بك إلى جوار القائد وهمس في أذنيه ببعض الأشياء. مال قول

أوغلو حسن بك برأسه الضخمة الموجودة في ظل الشجرة إلى الأمام ثم قال بعد أن طلب الكلمة:

يا قائدنا إن العربات التي أرسلها أفرانوس بك ستكون هنا خلال فترة وجيزة. العربات التي تحضر المناجق الخفيفة والسلالم التي يتم تركيبها مع بعضها بسهولة ستفيدنا جدا في مهمتنا.

قال بيجالي الذي ينظر إلى القادة الفرعيين الموجودين إلى جواره بعدما صمت قول أوغلو حسن بك:

يا قائدي، لننتظر مجيئهم. ونتحرك فور توزيع المناجق على رجال المناجق والسلالم على المتسلقين.

ونظر فاضل بك الذي يحاول رؤية وجوه الرجال الموجودة في ظل الشجرة إلى قول أوغلو حسن بك وهو يفكر قائلا" وحتى ذلك الوقت لتأت اللحظة التي أنتظرها أنا الآخر ولنتحرك حينئذ". وابتسم وهو ينظر إليه. ثم استدار وفكر قائلا وهو ينظر إلى القلعة " كان غرا حينما أتى... ولكن كان واضحا أنه يستخدم سيفه بعقله. منذ لم تتغير ملامح وجهه الطفولي هذا قط على الرغم من مرور السنوات منذ ذلك الوقت وحتى الآن. الوجه البشوش ذو البشرة البيضاء الذي تزينه العيون السوداء التي تلمع متلألئة داخل ذلك الوقار الطفولي. إن الوقت هو وقت تسكينهم في القلاع. سأطلب من سليمان باشا أن يتولى أحدهما إدارة الأمن في ساستوس". ولسبب ما فإن عقله الذي ترك التفكير في القائد للحظه واجتاز الدردنيل وذهب وعاد عدة مرات إلى آلاجه نرجس خاتون التي تركها في بورصه... وأفاق لنفسه بعدما خاطبه

قول أغلو حسن بك الذي أبلغه بقدوم أحد المراسلين الذي جاء بعد أن انزعجت الجياد مرة أخرى قائلا:

يا قائدي. وظهر أمام ناظريه صورة القلعة التي تنتظره مرة أخرى. ولكن يا للعجب، كانت القلعة تبدو له وكأنها قد تجردت من ملابسها الليلية. قال لنفسه وهو يهز رأسه" يا للعجب، أراها وكأنها قلعة قد تجردت من ملابسها الليلية". ثم خاطب قادة قواته بصوت أجش قائلا:

يا أبطالي، لقد قهرتم كل القلاع التي وصلتم إليها على الضفة الأخرى. فهل لن تستطيعوا قهر هذه القلعة الصغيرة؟ والآن لتقاسموا المهمات التي جاءت ولتذهبوا لتكونوا على رأس وحداتكم. كلمة سرنا هي نعيق البوم. لا يتحرك أحد من موقعه قبل سماع نعيق البوم. سيبدأ الهجوم مع سماع نعيق البوم. يكون الوضع جيدا بالقدر الذي ستنخفض به الأصوات. هيا على بركة الله لتكن غزوتكم غزوة مباركة.

(١٦)

كانت مراسم استقبال الرسل القادمين هو الحدث الوحيد الحدث الذي يفرج عن الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس خلال الأيام المضطربة التي لم يذق فيها النوم. كان يضم أحيانا الإمبراطورة إيرينا إلى حفلات المرح هذه وكان يستمتع كثيرا بهذا. أنهي أعماله صباح ذلك اليوم وبينما كان يحتسي شرابه مع الإمبراطورة دخل مساعده إلى الداخل ولما أخبره بأن الرسل الذين جاءوا من أينوس جاهزين لتقديم هداياهم نهض وجلس على كرسي عرشه. وبعد أن أجلس الإمبراطورة إيرينا على المقعد المنخفض الموجود بجواره، قال: أخبر رسل النبيل جوتيليسيو ليتفضلوا.

كان رسل أنا جوتليسيو دوق أيونس الجديد يسيرون بخطى بطيئة محركين سراويلهم المصنوعة في تراقيا والمنقوش عليها نقوش كريت مزدوجة الخياطة في الهواء، ومهتمين بظهور صلبانهم الذهبية المرصعة بحجر العنبر الأسود والمربوطة بالسلاسل الفضية السميكة الموجودة على صدورهم. كان الاثنان يخطوان خطوات متساوية للغاية لدرجة أن أحدهما لم يكن يتقدم عن الآخر ولو بسنتيمتر واحد. كانت توجد في أقدامهم أحذية منطقة مرمرة التي تشبه أحد زوارق أهالي جنوة متعدد الألوان الذي ترتفع مقدمته إلى أعلى، كانوا يضعون على رءوسهم قلانس تراقيا السوداء التي تقف وكأنه قد قطع نصفها. ووضعوا تحت جواربهم المزركشة قطع القطيفة

الخضراء التي تُرى من تحت سراويلهم ذات اللون الأحمر الداكن. وكانا يؤديان عملهما بجدية على هذا النحو، لدرجة أن من ينظر إليهما كان يظن بأنه لا يوجد في الدنيا عمل خطير ومهم غير العمل الذي يؤديانه. وعلى الرغم من فعلهما كل ما في وسعهما ليبدوا جادين على هذا النحو فإنهما لم يأخذا الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي ينظر إليهما من تفكيره في مهرجي السيرك الذين جاءوا إلى قصره على فترات خلال سنوات إقامته في ديموطيقا.

كانت الإمبراطورة إيرينا التي جاءت إلى جوار الإمبراطور قبل الرسل بفترة وجيزة تنظر أكثر إلى الصناديق المصنوعة من خشب الجوز ذات اللون الواحد والمزينة بالخطوط الذهبية التي يحملها الرجال الأربعة الموجودون خلف الرجلين أكثر من نظرها إلى ملابس الرجلين... وكانت من وقت لآخر تداعب بيدها الصليب المعلق في سلسلة عقدها الذهبية الموجودة على قميصها ذي اللون البني الفاتح الذي تغطي صدرها. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي يراقب زوجته بعينيه اللتين تتحركان بسرعة تحت حاجبيه العريضين، وبينما يحدث نفسه أثناء ابتسامته التي استقرت على شفتيه الغليظتين اللتين تقفان وكأنهما مقصوصان بالمقص وكأنه يهمس قائلا " سيكون حسنا إن استبقيتهما من أجل مراسم الاستقبال..." سهل منادي الإمبراطورية كان قد يسر الإجراءات التي ستتم عندما صاح بصوت عال قائلا:

سيشرف رسل دوقنا النبيل جوتيليسو المكلف من قبل إمبراطورنا بحكم المنطقة الممتدة من أينوس حتى تندوس بتقديم هداياه إلى إمبراطورنا المعظم... وقام بتسهيل الأمر. لما انتهت من جملته، قدم ساعي بريد الإمبراطور الرسالة المكتوبة على الحرير والموضوعة داخل محفظة جلدية

التي أحضرها الرسل على صينية من فضـــة إلـــى الإمبراطـــور. انتظـــر الإمبراطور الذي أخذ الرسالة بروية، بعض الشيء وأطال هـــذه اللحظـــة. ونظر إلى الرسل دون أن يقرأ الرسالة التي فتح طبقاتهـــا. وبينمـــا ينظـــر الإمبراطور إلى الرسل قال كبيرهم:

وفقا لرغبة عظمتكم، فقد تم إرسال نفس الرسالة مـــع هـــدايا دوقنـــا جوتيليسو نبيل أهالي جنوة إلى عائلـــة بـــاليولوج شـــركاؤكم فـــي عـــرش الإمبراطورية الموجودين في تندوس.

ظن الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس أن الرسالتين تمت كتابتهما بالكلمات ذاتها. نظر إلى رسالته. وبعد أن تجاوز عبـــارات الإطـــراء " ... أشعر بالسعادة الشديدة بقبولي المهمة الرفيعة التي كلفتموني بها، وأخبـــركم بأنني سأقوم بتحقيق الأمن في مناطق كل من أينوس وتندوس. مع موفـــور الاحترام والتقدير. دوق أينوس وتندوس جوتيليسيو ا ..." وكان يوجد أســـفل اسمه خاتم واضح وظاهر جدا.

بعدما قُرئت الرسالة ولما انتهي الرسل من حديثهم جاء الدور على فتح صناديق الهدايا وتقديم ما بداخلها. احمر وجه الإمبراطورة إيرينـــا التـــي لا يروقها كثيرا المشاركة في هذه المراسم ولكنها تشارك فيه إرضاء لزوجهـــا عندما رأت السخرية السخرية الموجودة فـــي عينـــي الإمبراطـــور يوحنـــا كنتاكوين الذي يراقبها. حاول الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي لـــم يغفـــل حالة الخجل هذه التي تملكتها أن ينقذها من هذا الموقف العسير قـــائلا " يـــا عزيزتي إيرينا إن الإمبراطورة تعد بمثابة نصف إمبراطـــور..."، ولكنهـــا شعرت بأنها سُحقت أكثر تحت وطأة المغزى المتـــوارى بـــين الكلمـــات.

وقررت الانتظار حتى تنتهي المراسم وهي تنظر إلى زوجها بنظرات حـــادة قائلة " كان يجب أن أذهب قبل ذلك، أما الآن فلا يمكن".

كان فرانشيسكو جوتيليسيو نبيل أهالي جنوة الذي يعمل بالتجارة بفضل لقب النبيل الذي حصل عليه من الإمبراطورية، والذي يقوم بتوصيل البضائع التي تأتي من بحر الجزر إلى بلاد البلقان، والآتية من بلاد البلقان إلى شتى أرجاء الدنيا عبر بحر الجزر ، الذي يعرف جيدا أين يسوق بضائعه علـــى أفضل نحو قد أرسل إلى الإمبراطور الهدايا التي لا يصدقها العقل لقاء اللقب الأخير الذي حصل عليه. إلى جانب ذلك لم ينس الإمبراطورة إيرينا أيضـــا، فقد أرسل لها أفضل الأقمشة القطنية التي تحبها والقلائد المرصعة بالأحجار الكريمة. نسى الإميراطور يوحنا كنتاكوزين الرسل وكأنه كان يفكر في ثراء خزائنه بمثل هذه المعادن النفيسة والأحجار الكريمة. أما الرســـولان فكانـــا ينظران إليهما وهما يضحكان في سرهما بسبب اندهاش كل من الإمبراطور والإمبراطورة أمام الهدايا التي تخلب الأبصار وكأنهما يقولان " يوجد عنـــد دوقنا الكثير من هذه الألعاب... من الممكن أن يقدم لكما منها كل عام، وبينما تلعبان بالألعاب التي أعطاها لكم فإنه يكدس هو الثروات القادمة مـــن بـــلاد البلقان على ثرواته الأكبر التي تأتي من بحر الجزر...".

فليمر من كان طريقه عبر أينوس، وليفكر الرسولان كيفما يحلو لهمـــا فلم يكن ذلك ضمن اهتمامات الإمبراطور. كان يحدث نفسه وهـــو يتســـلى بالنظر إلى هداياه تلك قائلا " ليت هذين الرسولين يقولان ما سيقولانه وليذهبا فورا". وكان ينظر بين الحين والآخر إلى الإمبراطورة إيرينا وكان يتوقـــع سعادتها مثله، ولما جال بخاطره عدم اهتمامها بمثل هذه الأشياء منذ نعومـــة

أظفارها فكر قائلا " لو كانت الإمبراطورة الأم آنا لصاحت عند رؤية هذه الهدايا. كنت قد احتفظت لسنوات بالقلادة المصنوعة من فيروز فرغانة التي أهداها إليّ أحد التجار الذي جاء من بلاد فارس في طريقه إلى المورة عندما كنت في ديموطيقا وعندما قدمته لها قائلا " هذه تليق بالإمبراطورة آنا" كانت سعيدة جدا. ثم نظر ثانية إلى الإمبراطورة إيرينا. وتأوه لما رأى عدم سعادتها. قالت الإمبراطورة إيرينا عندما نظر إلى الهدايا والرسل مرة أخرى:

يا صاحب العظمة، ليس من حقي طلب الحديث، بيد أن الرسل الذين جاءوا من أماكن بعيدة في حاجة إلى الاستراحة.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس بعبارة سريعة وهو ينظر بنظرات باردة إلى الإمبراطورة إيرينا:

أنت محقة يا إمبراطوريتي. أتوجه بالشكر إلى النبيل فرانشيسكوا جاتيليسو الذي كلفناه بإدارة واحدة من أهم مناطق إمبراطوريتنا على الظرف والرقة التي أبداها. من الآن فصاعدا سيضيف ضم قلعة أينوس وميناء تندوس إلى حكم جناب الدوق طمأنينة إلى طمأنينته. سيكون الخطاب الذي سيكتب باسم الإمبراطورية إلى جناب الدوق جاهزا مع حلول صباح الغد. والآن يمكن للرسل المحترمين أن يذهبوا للحصول على الراحة في دار ضيافتنا. ثم نظر الإمبراطور إلى رئيس الوزراء الذي يقف بجوار الباب:

تبادل الإمبراطور والإمبراطورة النظرات بعدما لملم الرسولان سراويليهما بأيديهما متراجعين خطوات إلى الخلف وخرجا من الباب... أخرج الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس كل الموظفين الموجودين

بالداخل فيما عدا موظفي الخزانة مكلفا كل منهم بعمل ما لتتمكن الإمبراطورة إيرينا من رؤية الهدايا التي جاءت على راحتها. ثم نظر إلى الإمبراطورة إيرينا. لما شاهد نفاد صبر زوجته توجه إليها بالسؤال قائلا:

هل تريد إمبراطوريتنا الذهاب إلى غرفها؟

قالت الإمبراطورة إيرينا: يا يوحنا آمل بألا تكون قد فكرت في أنني لن أصبر بعدما شاهدت الهدايا.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين وهو يبتسم لصراحتها التي هي أكثر ما يحبه في زوجته:

كنت أريد أن تسعدك الهدايا مثل الآخرين. ولكن لما لم أر أياً من علامات السعادة على وجهك اعتقدت أنك تضايقتي وأصابك الملل.

قالت الإمبراطورة: الهدية التي أريدها لم تأت بعد، تعلم أن أولادي هم هديتي. عندما أشتاق إلى تيودورا أعلم أنني لن أستطيع رؤيتها ولكن لا أستطيع أن أجد سببا حقيقيا لبقائي بعيدة عن ابنتي إيلينا.

صفق الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي يدرك أن كلام الإمبراطورة إيرينا سوف يتطرق إلى هذا الموضوع المؤلم كعادتها دائما، واستدعى بإشارة من يديه خدمه الذين ينتظرون خارج الباب على أهبة الاستعداد في كل الأوقات. وأمر خدمه الذين دخلوا إلى الداخل بنقل صناديق الهدايا إلى غرفة الخزانة. وأثناء نقلهم صناديق الهدايا إلى غرفة الخزانة وقيامه بختم بعض المكاتبات الموضوعة أمامه بخاتم الإمبراطورية نظرت الإمبراطورة إيرينا إلى إحدى المراكب الشراعية التابعة لأهالي جنوة التي

تقترب من الميناء الموجود على الشاطئ المقابل للقرن الذهبي الذي يُرى من النافذة. ابتسمت شفتاها وهي تفكر في عقلها خلال متابعتها بنظراتها التي تمتد على البحر للأمواج المرتفعة التي تتقدم خلف بعضها بعضا في البسفور قائلة " ربما ستظل المياه التي تحملها هذه الأمواج تتقدم حتى ترتطم بشواطئ تندوس. ولو كانت عزيزتي إيلينا تمشي على الشاطئ للمست قدميها برفق. وستنظر هي الأخرى إلى هذه المياه مثلي. ولكنها لن تستطيع أن تلحظ أنني أرسلت لها نظراتي مع المياه...". لما تذكرت ابنتها تيودورا أنهت حديثها قائلة " وكذلك أرسل نظراتي مع الرياح إلى عزيزتي تيودورا". ونظر الإمبراطور نحوها؛ لأنها قالت جملتها الأخيرة بصوت عال. وقال وهو ينظر إلى وجهها:

أنا أيضا أشتاق جدا لبناتي يا عزيزتي إيرينا.

قالت الإمبراطورة إيرينا:

إذا كان الأمر كذلك فلتهدم هذا الجدار الذي أقمته بيننا. وإذا لم يكن لدينا أية فرصة لرؤية إحداهن فلن تبقي الأخرى بعيدة عنا في أقل تقدير.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس وهو يتجه بنظراته نحو البسفور:

لا تتحدثي وكأني قد أردت ذلك... إن طمع الإمبراطورة آنا وعناد ابن أندرونيكوس ورغبة النبلاء البيزنطيين الذين هم أسرى لأطماعهم هو ما أوصلنا إلى هذه النقطة. ولكن لا تخافي سوف أحل هذه المسألة على أفضل نحو.

قالت الإمبراطورة إيرينا: مشكلتك أنك تقول شيئا وتفعل شـــيئا آخـــر. ولكن ما أراه أنك لا تريد حل هذه المشكلة التـــي تؤرقـــك نومـــك وتقــض مضجعك. ولكن أريد نهاية لشوق الأم الموجود بداخلي. لن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

قطب الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين وجهه أثناء سماعه لحديث زوجته. قال أفٍّ وكأنه ينفخ الضيق الموجود بداخله إلى الخارج. ثم قال بصوت عال:

آمل ألا يتصرف رجاله قبلنا، ألا يذهبوا به إلى الشاطئ الآخــر كمــا يرددون. لو ذهبوا به فسوف تتعقد الأمور أكثر في ذلك الوقت. ثم قال بعــد أن انتظر صامتا مدة من الزمن، هيا لنخرج ولنتجول قليلا في الحديقة.

(١٧)

تحرك إيجه بك كذلك مع فرسانه نحو قلعة مايدوس في الساعات التي دخل فيها فاضل بك وفرسانه إلى قلعة ساستوس. لما بدت القلعة من بعيد قبيل شروق الشمس قرر انتظار أقجه قوجه أوغلو الذي سيأتي مع قوات الدعم، وأمر بإقامة المقر المتنقل، كما أمر الفرسان الموجودين معه بالذهاب إلى الاستراحة في الحفر والجباب وأن يبذلوا كل ما بوسعهم حتى لا يشاهدهم من بالقلعة إلى أن يأتي أقجه قوجه أوغلو. قال لأقجه قوجه أوغلو الذي جاء مع طليعة فرسانه بعد فترة:

علمت بدخول فاضل بك إلى قلعة ساستوس هذا الصباح. وحتى الآن لم يأت أي خبر آخر. والآن قد جاء دورنا. ساستوس قلعة صغيرة، ومايدوس ليست كذلك. الأفضل أن ننتظر إلى أن تأتي المناجق الثقيلة. ولنبدأ في محاصرتها عندما تأتي. متى تصل العربات إلى هنا؟

قال أقجه قوجه أوغلو: العربات التي تجرها الخيل ستكون هنا بعد الظهر أما عربات الثيران التي تحمل المناجق الثقيلة فستصل إلى هنا في المساء على أقصى تقدير.

قال إيجه بك: إذن وفقا لأخبار الطلائع لننتظر حلول المساء ولنبدأ في الإحاطة بالقلعة شيئا فشيئا. ولنحدد الأماكن التي سنقيم فيها المناجق خلال فترة انتظارنا. وليستطلع طلائعنا هل هناك سفن في الميناء أم لا. إن كانت هناك سفن سيكون الهجوم على الميناء هو أول هجوم ستقوم بتنفيذه ستقوم

أنت ورجالك فور حلول المساء. وإن لم يكن هناك سفن فليقم طلائعنا بمراقبة الميناء. وسأضطلع أنا بحصار القلعة.

لما أفصح أقجه قوجه أوغلو الذي ينصت إليه بكل جوارحه عن رغبته قائلا:

لم ينم الفرسان طوال الليل... وسيكون من المفيد أن يستريحوا إلى أن يأتي المشاة وقائدو العربات. وافقه إيجه بك على ذلك بالإشارة برأسه.

إن إيجه بك وأقجه قوجه أوغلو اللذين تقاسما العمل فيما بينهما على هذا النحو خلال مدة وجيزة، قاما بتقييم الوضع مع القادة التابعين لهما وبدءوا ينتظرون المساء في الكمائن المناسبة.

قبيل حلول المساء وصلت العربات التي تجرها الخيل أولا، ثم قوات المشاة، ومن بعدهم العربات التي تجرها الثيران والفحول التي تحمل المناجق الثقيلة. سيطرت وحدات فرسان إيجه بك على كل الطرق المؤدية إلى القلعة أثناء اقترابهم رويدا رويدا من القلعة. أما الوحدات التي أكملت كل استعداداتها قبل حلول المساء بعد حصولها على قسط قليل من الراحة فبدأت في الاقتراب من القلعة خطوة خطوة. كان المتسلقون والفدائيون في المقدمة. ومن بعدهم كانت قوات المشاة تقترب نحو الأبواب، وبدأ الفرسان في الانتظار على أهبة الاستعداد أمام أقرب أبواب القلعة إليهم.

نظر إيجه بك الذي ينتظر على صهوة جواده في مكان قريب من الباب الشمالي للقلعة، في البداية إلى أديم السماء، ثم إلى القمر الذي على وشك الاختباء خلف إحدى السحب المعتمة، وبعد ذلك نحو القلعة. أرسل مراسليه

من أجل إبلاغ أمر الهجوم إلى قادته الذين يحيطون بالقلعة من كل الجهات بعد طعام العشاء الذي يطلق عليه وقت " النعاس". ولم يكد أقجه قوجه أوغلو يتلقى الخبر حتى قال لرقباء المتسلقين والفدائيين الذين ينتظرون على أهبة الاستعداد:

لتكن غزوتكم غزوة مباركة، لقد أصدر القائد الأمر بالتحرك.

بدأ الرقباء الذين سمعوا ما قاله في التنفيذ من فورهم. وقاموا بتوصيل الخبر من لسان إلى لسان ومن أذن إلى أذن إلى كل المتسلقين والفدائيين الموجودين حول القلعة. صعد المتسلقون في البداية عبر السلالم المتداخلة ببعضها الموضوعة على الجدران، وصعد الفدائيون ومجاذيب المغيرين فوق الجدار بواسطة الحبال التي قام بتدليتها المتسلقون. كان أقجه قوجه أوغلو ينتظر على صهوة جواده على الطريق الذي يربط القلعة بالميناء وهو يثق كثيرا بالمتسلقين والفدائيين الذين بقي له الكثير منهم بعد أبيه، وكان يعتقد بأنهم سيقضون على كل الحراس المناوبين الموجودين على الأسوار في فترة وجيزة وسيفتحون الأبواب وهو يحدث نفسه قائلا " كأنه سيكون سهلا ". ولكن لم يحدث أي شيء مما كان ينتظره ، حيث كان القتال الموجود فوق الجدران مستمرا كما أن أبواب القلعة لم تكن قد فُتحت بعد. استدار وهو متضايق جدا وبينما ينظر إلى اقتراب عيسى بك ورجاله من السفن الموجودة في الميدان، سمع صرخة طغت على كل الصرخات الموجودة على أسوار القلعة. واحتار للحظة فيما يجب عليه فعله. وتابع بطرف عينه اقتراب رجال أسه بك إلى المراكب مثل الظل بعدما التقط أنفاسه واستعاد هدوءه. ركض البحارة الذين سمعوا صراخ وصياح الموجودين على الجدران إلى سطح السفينة المضاء

بالقناديل الملونة. أعطى أسه بك الذي رأى ركضهم نحو سطح المركب الأمر لرماة السهام التابعين له قائلا " هيا ". لم يكد الرماة يطلقون السهام الموجودة في أقواسهم المشدودة حتى اختلطت الصرخات القادمة من سطح المراكب بالصرخات الآتية من فوق جدران القلعة. في الوقت الذي اختلطت الصرخات ببعضها، بدأ البحر يشتعل بالقرب من السفن الموجودة في الميناء بالنار الرومانية التي أُلقيت من أحد أبراج القلعة. شبت الجياد التي خافت من الأصوات والنيران وصهلت. صاح أقجه قوجه أوغلو الذي ثارت ثورته أثناء محاولة الفرسان الموجودين على ظهور الخيل الحفاظ على توازنهم وعدم السقوط على حاملي رءوس الكباش الموجودين أمام قوات المشاة قائلا:.

حطموا الأبواب.

نفد صبر إيجه بك الموجود عند الباب الشمالي وقاد جواده حتى أمـــام الباب، أثناء حدوث كل هذا أمام الباب الجنوبي للقلعة المطل على المينــــاء. وفي الوقت الذي أمر فيه هو الآخر حاملي رءوس الكباش بتحطيم الباب، فتح رقيب الفدائيين آلتون أوغلو سليمان ورجاله الباب. قاد إيجه بك الغاضب جدا جواده نحو آلتون أوغلو الذي يمسك مشعلة في يده. وسرعان أن قال آلتـــون أغلو سليمان الذي أدرك أن القائد الذي يقترب منه غاضب جدا:

يا قائدي، إن داخل القلعة التي تبدو من الخارج ساكنة مثل إناء المـــاء الذي يغلي. شوارعها الضيقة جدا مليئة بالفخاخ. مـــن المســـتحيل دخـــول الفرسان إلى هذه الشوارع الضيقة جدا. بخلاف قوات المشاة لـــن يفلـــح أي شخص في هذا الأمر. وقوتشان أغا يحاول الاستيلاء على مقر القيادة...

إيجه بك الذي ترك الرقيب حتى يهدأ غضبه الذي ظهر قبل قليل هـدأ بعدما سمع كلامه. واتخذ قراره بسرعة:

ولم يكد يقول لتتقدم المشاة، وليلحق بهم الفرسان الذي أخرجوا جيادهم إلى الخارج حتى ترجل عن صهوة جواده ودخل مع فدائييه أحـد الشـوارع الضيقة والمظلمة من خلف قوات المشاة.

وعندما رآه آلتون أوغلو الذي لم يتوقع بأنه سيتحرك هـذه الحركـة الفجائية وكأنه قد طار عقله قال له:

احترس يا قائدي. فُتحت كل الأبواب المفتوحة على الشارع الضـيق وبدأ صب الماء المغلي على قوات المشاة والفدائيين. أطلق أفـراد المشـاة والفدائيون المصابون بالحروق الصيحات المخيفة والمرعبة وأثناء سـقوطهم على الأرض أصدر إيجه بك الأمر بالانسحاب قائلا:

الانسحاب للخلف.

ولم يكد يعطي الأمر حتى انسحب مع فرسانه الذين لم يحترقوا إلـى الخلف. ولم يكد يصل إلى الميدان الموجود أمام الباب الشمالي حتـى قـال لقوات المشاة:

تنقلوا من فوق الأبراج بسرعة وادخلوا البيوت. ولا تبقوا أحدا حيا في المنازل.

كان أقجه قوجه أوغلو يحاول كسر الباب الجنوبي للقلعة في ذلك الوقت، كما كان أسه بك الذي صعد على سطح المراكب هو الآخر قد قال لربابنة المراكب إنه تم الاستيلاء على السفن باسم الحاكم العثماني أورخان غازي،

وبأنه سيتم قتل جميع الملاحين إذا ما أقدموا على فعل أي شيء ما. كان أقجه قوجه أوغلو يريد أن ينجز عمله الموجود على المراكب في فترة زمنية وجيزة والذهاب لمساعدة إيجه بك. إلا أن عمله استغرق وقتا كثيرا لأنه لم يكن يستطيع التفاهم مع ربانة السفن إلا بواسطة اثنين من المترجمين. كان أقجه قوجه أوغلو الذي تضايق جدا بسبب طول الوقت وكأنه سينفجر من الضيق. لما رأى أسه بك الذي أحضر قبطان المركب الثانية إلى جواره أقجه قوجه أوغلو غاضبا على هذا النحو مال برأسه ثم قال:

اسمحوا لي يا قائدي سأتحدث أنا معهم. وقال بهدوء بعد أن أذن له أقجه قوجه أوغلو "تم الاستيلاء على سفنكم باسم أورخان غازي العثماني". بعد أن تم ترجمة ما قاله إلى قبطاني السفينتين هدأ وبدأ في الضحك. أسه بك الذي لم يفهم هذا التغير الذي حدث في القبطانين نحيا غضبه جانبا ثم ابتسم. قال ربان السفينة الأولى الذي رأى ابتسامه المعبر:

إن سفننا رفعت شعار البيزنطيين عندما دخلت مياههم فقط ولكن الملاك الحقيقيين لسفننا هم أهالي جنوة. نحن مجرد بحارة نعمل على هذه السفن، ونمارس التجارة وننفذ المهام التي يكلفنا بها أصحاب السفن.

قال أسه بك الذي علم ما قاله الربان بواسطة المترجم:

حسن ما دمتم لستم بيزنطيين، وأنكم تمارسون التجارة فيمكنكم أن تمارسوها معنا. وإذا نقلتم وحداتنا العسكرية الموجودة على الضفة المقابلة إلى هذه الضفة فسوف يدفع لكم قائدنا مقابل خدمتكم هذه.

لم يكد الربان الذي تحدث قبل قليل يسمع ما قاله المترجم حتى قال:

لا يوجد على الشاطئ الآخر أي ميناء يمكن أن ترسو فيه سفننا غير ميناء بيجاسي.

ظن أسه بك الذي يتحدث باسم كل من إيجه بك وأقجه قوجه أوغلو بعد ترجمة ما قاله الربان أنه يختلق الحجج وقال بصوت عال:

حينئذ لم يعد أمام القبطانين سوى خيارين اثنين. الأول: إن لم تنفذوا ما طلبنا سيتم الاستيلاء على السفن بغض النظر عمن يملكونها، وستصبحان أسيرين لنا. والثاني: إذا ساعدتمونا في نقل قواتنا ستحصلون على أجرتكم، وستواصلون رحلكتم من جديد.

انطفأت النظرات المتلألئة الموجودة في عيني القبطانين اللذين ينظران ضوء الفنارات بعدما استمعا إلى ما قاله المترجم. استدار ونظر بنظراته الباهتة إلى رجاله شبه العراة المقيدين من أيديهم. قال القبطان الأول بعد أن مسح بيده على شاربيه ولحيته الطويلة بصوت مرتعش:

أنا أؤيد الخيار الثاني ثم نظر إلى القبطان الآخر...

كان القبطان الثاني رجلا نحيفا. حليق الذقن ويبدو شديد الثقة بنفسه. قال بأسلوب قاطع من بين شفتيه اللتين تبتسمان ابتسامة غريبة لفترة:

غالبية رجالي من القرى التابعة لمايدوس. وهم الآن في إجازة. ولا أستطيع أن أحرك سفينتي خطوة واحدة قبل أن يعودوا.

قال أسه بك الذي لاحظ الابتسامة الماكرة الموجودة على شفتي القبطان:

نحن لسنا بحارة، ولا أدري ما يعني كلامك. ولكـــن مـــاذا تفعـــل إن مرض بحارتك وأنتم في عرض البحر، كيف تبحرون بهذه المركب الكبيرة؟

قال قبطان المركب الثانية الذي لم يكن يأمل أن يُوجه إليه هذا السؤال وكأنه كان قد أدرك الازدياد التدريجي للغضب الموجود في صوت أسه بك:

يكون معنا البحارة الاحتياطيون حينئذ، ونحن أيضا سنواصل رحلتنـــا ببحارتنا الاحتياطيين.

مد أسه بك إحدى يديه نحو خنجره الموجود في حزامـــه. قـــال قائـــد المركب الثانية الذي لمح يده بطرف عينه للمترجم:

لو سمحتم أبلغوا بحارتنا بأننا سنساعدهم بشاحناتنا البحرية.

قال أقجه قوجه أوغلو الذي صعد على سطح السفينة في تلك الأثنـــاء وحاول السيطرة على غضبه لأسه بك:

على الأرجح هناك بعض الأشياء داخل القلعة تسير على غير المتوقع. سأذهب مع فرساني لمساعدة إيجه بك. هؤلاء وهذا المكان أمانة بين يدك... من يفعل أي تصرف خطأ خذه أسيرا على الفور. قَسَّمْ أسه بك المهام علـــى القادة الفرعيين الموجودين معه بعد ما ذهب أقجه قوجه أوغلو مع فرســـانه الموجودين خلفه، ثم التفت إلى القبطانين وقال:

مادام مُجَدِّفوكم في إجازة، سنعطيكم ما يكفيكم من المجَـــدِّفين. هنـــاك على الشاطئ الآخر الموانئ الصغيرة التي يمكن أن ترسو فيها شـــاحناتكم. لتفعلوا ما تفعلون ستنقلون فرساننا ومشاتنا الموجودين على الضفة الأخـــرى إلى هذه الضفة. ابدءوا الاستعدادات فورا.

قال أسه بك ليافورجه حسن بك الموجود بجانبه أثناء نظر القبطـــانين بنظرات يائسة إليه:

يا حسن بك، أحيل إليك هذه المهمة أنت والقوات التي تحت إمرتـــك. أنت ورجالك مسئولون عن رحلة السفن وأمن ونظام الموانئ. هيا أعانكم الله ويَسَّر لكم عملكم ثم نزل من السفينة مصطحبا معه فرسانه الموجودين خلفه وبعض البحارة الذين تم أسرهم.

حدثت ضجة كبيرة ابتلعت كل الصيحات وأصوات القتال الموجـــودة داخل القلعة بعدما أبحر القبطانان اللذان أتما استعداداتهما في مـــدة وجيـــزة بمركبيهما وشاحناتهما البحرية. عندما سمعوا ذلك الضجيج، كان إيجه بـــك وأقجه قوجه أوغلو ينظران إلى الجنود الذين احترق نصف أجسادهم الذين تم نقلهم إلى الميدان المفتوح على الباب الشمالي للقلعة. أما القائدان اللذان بـــدا حزنهما على وجهيهما ولم يكونا يستطيعان التوصل إلى فهم كيفية القيام بهذا العمل على نحو متواصل ولا صعوبة إلقاء القبض على أي شخص من الذين قاموا به قط. وبينما يفكران في هذا الموضوع جاء واحد من الرقباء التابعين لأقجه قوجه أوغلو إلى جوارهما. نكس رأسه قليلا وقال بعد أن ألقى عليهما التحية وهو يضع يده على صدره:

يا قائدي، توجد الأبواب الداخلية التي تربط المنازل المرتفعـــة مثـــل درجات السلم ببعضها بعضا. الأبواب المدفونة في جدران بعـــض المنـــازل مفتوحة على الأنفاق الموجودة أسفل القلعة. ويُذهب من هذه الأنفاق إلى مقر الحراس الموجود أسفل القلعة. الآن أُخليَ المقر. وقام جنودنا بتطهير المنطقة الممتدة حتى المزاغل الموجودة أسفل جدار القلعة. ولكن مـــن الواضـــح، أن

الكفرة الذي استغلوا الظلام فروا وخرجوا إلى الأراضي التي توصل إليها الأنفاق بعد أن سكبوا الماء المغلي على جنودنا.

سكن غضب إيجه بك الذي استمع إلى ما قاله كبير الرقباء من فوره. وصاح بصوت عال لم يتوقعه أحد قائلا:

كنا نقول بألا نجعل أحدا ينزف من أنفه. ولكنهم أذاقوا أبطالنا أشد العذاب. يجب أن يدفعوا ثمن ذلك. لتأتوا بكل الأسرى إلى ساحة الميناء. وليؤسر كل من يشتبه به أهالي القلعة. وليرسلوا إلى الضفة الأخرى مع الرحلة الثانية للسفن...

قال أقجه قوجه أوغلو الذي يسمعه وهو حائر ومُندهش بعض الشيء وكأنه يرجوه:

يا قائدي، ليتم تفتيش البيوت إن أردتم، وليلق رجال مشاتنا القبض على الرجال المشبه بهم فقط دون المساس بالأطفال والنساء.

قال إيجه بك الذي يعرف بأن أقجه قوجه أوغلو طويل القامة، سمح الوجه صارم الملامح، طيب القلب:

ليكن ذلك. وعلى ألا يؤسر أي شخص لا يقاوم القوات. ثم ألقى نظرة على الذين أُسِروا. وأرسل كل من لا يطيع إلى بورصه مهما كان شأنه.

قال أقجه قوجه أوغلو وهو يميل برأسه إلى الأمام شاكرا له:

يا قائدي أعتقد أنه حان وقت إخبار سليمان باشا بسقوط القلعة...

قال إيجه بك وهو ينظر إلى الجرحى الذين يئنون...

أنت على حق يا أقجه قوجه أوغلو. لقد نسيت وأنا أحاول السيطرة على غضبي. أرسلوا المراسلين على الفور.

تذكر أقجه قوجه أوغلو وهو ينظر إلى وجه إيجه بك الرقيق الذي تزينه لحيته التي غطى الشيب معظمها مشارف نيكوميديا التي شهدت أول لقاء جمعه به واسترجع ذكرياته قائلا: " كان أورخان غازي قد طلب منا تنفيذ رغبة والده ووصية والدي، وكنا قد وعدناه بذلك. بيد أننا لم نف بوعدنا بأي شكل من الأشكال، وكنا لا نستطيع الاستيلاء على قلعة الأميرة ماريكا. كلما تعجلت كنت أشعر برغبة أكثر في الهجوم، وكلما هجمت أكثر، أفقد الكثير من الرجال. وفي الوقت الذي نفدت فيه قوتي، جاء مع قواته إلى المنطقة الموجودة أمام القلعة. لما رأى أن فرساني تملكهم الرعب والفزع أخذني حتى مقر القيادة. وقال يا أقجه قوجه أوغلو أنت لا تزال حتى الآن خارج القلعة لأن غضبك تغلب عليك، لو كنت قد تغلبت على غضبك لكنت الآن داخل القلعة."، وكان قد ساعدنا في حصار القلعة برباطة جأش. استطاع أن يقاوم لمدة طويلة بثباته وهدوء أعصابه هذا، وبعد ذلك كان قد جاء آيجوت ألب لنجدتنا." . اتجهت نظراته مدة نحو باب القلعة. وحدث نفسه وهو ينظر إلى باب القلعة الخشبي السميك قائلا " كان على وشك أن يسيطر عليه غضبه " وعندما نظر ثانية إلى إيجه وحينما رآه وصل إلى رأس الشارع الضيق حدث نفسه قائلا " كيف يحدث ذلك في هذه المدة الوجيزة؟" وعندما بدأ يركض خلفه، سمع أصوات القدم القوية التي تقترب منه.

(١٨)

كتب الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوج من منفاه في تندوس، والإمبراطور الغاصب يوحنا السادس كانتاكوزين من القسطنطينية رسالة شكر إلى فرنشيسكو جوتيليسيو نبيل أهالي جنوة اللذين عيناه دوقا لدوقية أينوس بسبب الهدايا التي أرسلها وبعد أن أرسلا الرسالتين وفي الوقت الذي سيطرت على كل منهما نفس المشاعر تقريبا وأغلق كل منهما باب مكتبه على نفسه واستغرق في تفكير عميق بدأ المراسلون في المجيء من شبه جزيرة غاليبولي واحدا تلو الآخر. وكان كل الرسل القادمين من مختلف القلاع يقولون نفس الكلام تقريبا. ولكن مهما يكن الأمر فإن ما كانوا يُسِرون به للإمبراطورين فقط داخل الغرف المغلقة كان ينتشر بسرعة البرق في القصور والأديرة والبيوت الموجودة في كل أحياء القسطنطينية. هذا الأمر وإن لم يكن له تأثير كبير على الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الموجود في المنفى، فإنه كان يضع الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الموجود في القسطنطينية في موقف صعب جدا. وكأن هذا لم يكن كافيا، فقد كان أنصار باليولوح الموجودون في القسطنطينية يعقدون الاجتماع وراء الآخر، ويشيعون منذ فترة طويلة أن كنتاكوزين السادس أعطى لأورخان غازي بعض القلاع الموجودة في شبه جزيرة غاليبولي وفي تراقيا كجهاز عرس لابنته تيودورا. وكأنه لم يكن كافيا ما فعله أنصار باليولوج الذين أصدروا ونشروا هذه الشائعات فإن قداسة البطريرك كذلك كان ينتقل من كنيسة إلى

أخرى ويهاجم كنتاكوزين، وكان يقول بأنه اغتصب عرش آل باليولوج. وبسبب هذه الأفعال صارت القسطنطينية تغلى من داخلها كما كان الأمر قبل سنوات. ولما كان الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين يعلم بكل الأحداث لحظة حدوثها فإنه كان يشعر بالحريق يوشك على الاندلاع ولكنه لم يكن يستطيع فعل أي شيء من أجل الحيلولة دون اندلاع الحريق. وكان إذا أرسل بعض المراسلين أو الرسل من قصره لا يعودون، أما من يرجع منهم فلم يكن يستطيع الإتيان بالأخبار المقنعة. حتى أن رئيس وزرائه الذي كان لا يثق به والذي وضعه تحت المراقبة، كان يبعث كثيرا التقارير المتعلقة بالوضع في القسطنطينية سرا إلى باليولوج الخامس في منفاه. وكانت آخر الأخبار التي وردت إلى الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي لا حول له ولا قوة أسود من السواد. وكان الموالون لباليولوج يذيعون خبرا يشيع بأن قلعة زيمبا التي سُمِحَ لسليمان باشا ابن أورخان غازي قبل سنوات بإقامة مخفر فيها لإحدى دورياتهم كان الغرض منه بخلاف احتلال قلعة زيمبا كلها هو الاستيلاء على تراقيا كلها، وكانوا يقولون " إن عائلة كنتاكوزين يقدمون للعثمانيين غاليبولي ضمن جهاز عرس بناتهم ولكن العثمانيين سيطلبون تراقيا بعد غاليبولي. يجب أن نفعل كل ما بوسعنا حتى لا نعطي جاليبولي للعثمانيين، لو فقدنا جاليبولي لن نستطيع حماية تراقيا. لهذا السبب يجب أن يتولى الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوج قيادة جيوشنا" كان الإمبراطور الغاصب كانتاكوزين السادس يغضب غضبا شديدا ويخرج عن شعوره بعد سماعه هذه الإشاعات وكان ينزوي إلى غرفة مكتبه بعد أن يعاقب كل شخص يأتي أمامه ويتعرض لنوبات الحديث مع نفسه.

كان الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي تعرض لإحدى نوبات الحديث مع نفسه بعد أن كتب الرسالة وأرسلها إلى دوق أينوس قد استراح وهدأت سريرته وكأنه قد تقاسم كل همومه مع أحد الأشخاص. بيد أن هذه اللحظة الخادعة لم تستمر طويلا. وبدأ الضيق الموجود بداخله يزداد بدرجة كبيرة بدلا من أن يتناقص شيئا فشيئا. وأصابه ضيق وضجر شديدان بسبب هذه الحالة. مما دفعه طويلا للبحث عن حل يريحه ويخفف من الضيق الموجود بصدره ولكن لم يتوصل عقله إلى أي سبيل لذلك. واختلطت أفكاره ببعضها بعضا. وأرقته هذه المشكلة الجديدة التي أضيفت إلى مشاكله. نهض واقفا على قدميه غاضبا على هذا النحو. ثم ذهب بعد أن ركل كل الأشياء التي كانت في طريقه إلى النافذة الواسعة ونظر إلى خليج خاريسوكراس. ولما شاهد إحدى المراكب الشراعية الصغيرة المزينة بالرايات المزخرفة الواضح من كل شكلها أنها تحمل أهالي جنوة المغامرين تتجه صوب المضيق فكر قائلا "في الوقت الذي لا نستطيع فيه الخروج إلى خاريسوكراس لاستنشاق الهواء منذ شهور بسبب الضيق والشك فإن أهالي جنوة يقضون أطيب الأوقات حتى بالنهار ويضيفون بهجة إلى حياتهم" وكأن الشيطان يكرر الكلام نفسه، ثم حدث نفسه قائلا "البهجة التي سرقوها من غيرهم". ولما شعر بأن الضيق الموجود بصدره لم ينقص مقدار ذرة واحدة ذهب بخطوات سريعة ثم جلس على كرسي عرشه. ولم يكد يجلس حتى حدث نفسه بصوت عال قائلا " كنت تتقمص شخصية يوحنا كنتاكوزين حينما كنت تقف أمام النافذة قبل قليل. ولم تستطع أن تجد أي وسيلة تخفف الآلام الموجودة داخل يوحنا كنتاكوزين. والآن فكر وكأنك الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين ولنر كيف

ستخفف الآلام الموجودة بداخله..." ولم يكد يقول ذلك حتى قال وكأنه يتحدث عن الفروق الموجودة بين كلتا الشخصيتين:

يجب أن نعرض اتفاقية على العثمانيين في أسرع وقت. ولنجعلهم يقبلون بالرجوع إلى الضفة الأخرى بدلا من التوسع أكثر في تراقيا...

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي ظل صامتا لفترة بعد قوله هذه الجمل، قال بعد أن مسح عينيه بظهر يده:

آه، لو كانوا يعلمون أن لدينا القوة العسكرية التي سنرسلها للهجوم عليهم من البر، ما كانو تجرأوا على القيام بذلك. لو أخرجت قواتنا البحرية إلى البر سيكونون مثل السمك الذي اصطدم بالشاطئ. فكيف أستطيع أن أعمل على ذهاب العثمانيين إلى الأماكن الذين جاءوا منها؟ طالما لا توجد لدينا القوة القادرة على التصدي لهم. إن سقوط قلعة كل ليلة، بل حتى تسليم الكثير من القلاع من تلقاء نفسها خلال يوم أو اثنين أمر ليس مفهوما. ثم استغرق في لُجة الصمت.

نظر الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي ظل صامتا فترة طويلة، إلى كرسي عرش يوحنا ياليولوج الخامس الموروث عن الرومان والذي لم يستطع إزالته بأي شكل من الأشكال والذي وضع كرسي عرشه مكانه فقط كما يفعل كل يوم تقريبا في مكتبه الموجود في قصر الحكم. نظراته الحائرة تلك التي عادت من رحلتها في محيط الصمت ظلت ثابتة مدة على عرش الإمبراطورية. أدار وجهه برهة وأراد النظر إلى الآفاق بيد أنه لم يستطع الالتفات برأسه. وبينما تتجول النظرات الذكية لعينيه الصغيرتين

بالنسبة لحجم وجهه واللتين تتحركان بسرعة داخل القاعة، ذهب وجلس على المقعد الذي يشبه كراسي العرش الموجود خلف طاولة العمل. نظر بنظرات شاردة إلى كرسي عرش يوحنا باليولوج الخامس مدة ثم قال:

صهري العزيز، إنك تعد بمثابة ولدي... لأقل لك شيئا لا يمكن أن تخرجه من عقلك. إن كريتايس يقول،" إن كل حي لا محالة ميت ولا يوجد في هذه الدنيا شيء أكثر حقيقة وواقعية من هذه الكارثة التي لا يمكن أن يفر منها البشر"، وبعد أن التقط أنفاسه قليلا علق على ذلك بصوت عال قائلا " ولا قبل لنا ولا حكام قلاعنا أو حراسنا، أو حتى أورخان غازي بالفرار من هذه النهاية، ولكن ينسى كل البشر هذه الحقيقة عندما ينتهي الإخلاص الموجود داخل الإنسان لسبب ما ويسيطر عليهم الطمع. انظر نسى القادة الذين أرسلناهم هذه الحقيقة في سبيل طمعهم، والآن يقفون إلى جانب أورخان الذي وعدهم بأكثر مما وعدناهم به. ولا يخطر ببالهم قط أنهم سيعطون ضعف ما حصلوا عليه. ولكن لتعلم جيدا أن العثماني يتقدم خطوة خطوة وهو يعمل حسابا لكل شيء. ولتعلم أيضا أن العثماني لن يترك ناصيتنا دون أن يحصل على ما يريد الحصول عليه. وعلاوة على ذلك عليَّ أن قول لك بأن تكون شديد اليقظة والانتباه لأن ما يريد الحصول عليه هو شيء كبير ولا تقل يوما ما بأنني لم أقل لك:" طننت أذنا يوحنا كنتاكوزين السادس الذي سمع صدى صوته داخل القاعة الحجرية الكبيرة فترة. وفي الوقت الذي لم تتخلص فيه أذناه من الطنين بعد، سمع صوت يوحنا باليولوج الخامس شريك عرشه الموجود في المنفى المختفي داخل صوته. لم يكن الصوت المسموع يشبه صوت ذلك الطائش المتهور قبل ذهابه إلى المنفي. كان صوت باليولوج

الشاب مثل صوت أحد المسنين، الذي خارت قواه والذي لا يثق بنفسه. خاطب باليولوج بصوته الضعيف هذا حماه وشريك عرش الإمبراطورية يوحنا كنتاكوزين قائلا:

لا جرم أن الإخلاص مهم جدا. وكما قال كريتاس فإن الموت للبشر حقيقة ثابتة لا تقبل النقاش، ولكن كما قلت أنت هل قادة قلاعنا وحدهم هم من ينسون هذه الحقيقة؟

قال يوحنا كنتاكوزين السادس:

لا جرم أنهم ليسوا الوحيدين الذين ينسون هذه الحقيقة. نحن أيضا ننسى هذه الحقيقة مرات كثيرة، ولكننا نُخْدَع. يا ليتنا أدركنا إلى هذا الانخداع من قبل!

قال صوت يوحنا باليولوج الخامس:

لا أستطيع أن أعلم ما الذي يجب عليّ استنتاجه من الأفكار التي قلتها استنادا إلى أفكار كريتاس، ولكن من التعليقات التي أضفتها ومن شرحكم وتفسيركم توصلت إلى نتيجة فحواها أن نقدم لقمة أكبر لأورخان، وأننا يمكننا أن نضمن تراجعه عن مخططاته التي ينفذها سرا.

قال كنتاكوزين السادس وكأنه يرب على صوت صهره:

لقد فهمت جيدا... نحن مجبرون على عمل ما يلزم فعله حتى يمكننا أن نوقف تقدمهم في تراقيا، وإلا سوف نتخيل قلاعنا الموجودة فيها جزرا منعزلة داخل الأراضي العثمانية كما حدث على الضفة الأخرى. وهذا يسري أيضا على القسطنطينية.

قال صوت يوحنا باليولوج الذي تحول إلى صوت مهموم مكدر:

يا حماي العزيز لنقم على الفور بعمل ما تريد فعله... آمل أن تفيدنا تجاربك العريضة في هذا الأمر. أريدك أن تذهب إلى صهرك أورخان وتطلب منه سحب قواته من قلاعنا. وأنا من الآن أوافق على المقابل الذي ستعرضه عليه خلال المباحثات والاتفاقيات مقابل الانسحاب من قلاعنا. إن أردت اصطحب معك حماتي الإمبراطورة إيرينا واذهب إلى بورصه. وبهذه المناسبة ترى هي الأخرى ابنتها الموجودة في قصر أورخان.

احتد كنتاكوزين السادس فجأة. وقال لصوت صهره الذي يتجول داخل القاعة:

هل تريد مني أن أقوم بزيارة عائلية؟ نعم العثمانيون يحبون ذلك، ولكن لو أذهب لعقد اتفاق معهم فسيكون هذا عملا من أعمال الدولة ومن المستحيل أن يكون مثل الزيارة العائلية. لا أستطيع أن أحول هذه اللقاءات الموجودة بين العائلتين إلى اتفاقية.

كان صوت باليولوج الخامس الذي رد على صوت الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس غاضبا وإن كان بدرجة أقل قد قال:

مادمت تفكر على هذا النحو فلترسل شروطنا للاتفاقية في رسالة إلى صهرك. أنا أفضل ذهابك بنفسك ولكن لتفعل ما يتراءى لك ولا تدع الوقت يضيع سدى حتى لا تضيع تراقيا من بين أيدينا. ويكون قد سبق السيف العذل إن فعلوا في تراقيا ما فعلوه في كل من بانتيخيوم وبلاكانون وتراقيا. سيكون قد قضي الأمر لو كسبوا ولاء رهبان تراقيا لهم مثل رهبان الجزر الأخرى.

ضغط الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس وكأنه سيسحق شفته السفلى الغليظة بين أسنانه وهو ينصت إلى صهره ثم قال وكأنه يؤيد كلام صهره "أُعجبت بكلامك يا ابن أندرونيكوس. لم تستطع أن تفكر كثيرا في هذه الأمور ولكن نضجت جدا بجانب ابنتي إيلينا. "وبعد أن صمت برهة وكأن الكلام ينساب من فمه همهم قائلا "ليتنا استطعنا قبل ذلك أن ندرك إمكانية أن نفكر معًا" ثم تحدث بصوت مرتفع مرة أخرى قائلا:

انظر يا ابن أندرونيكوس. كان يبدو لي، أنك ستهتم بالحديث عن العرش الذي ستجلس عليه. بيد أن الكثير مما قلته ليس كلاما صبيانيا. والآن لنعمل معا ولْنُؤثِرْ مصالح الدولة على أطماعنا. وإلا ستحل الكوارث بقسطنطينيتنا التي أوجدت إمبراطوريتنا.

ارتعش صوت يوحنا باليولوج الخامس شريك العرش الموجود في المنفي الموجود داخل القاعة وقال:

اصمت. ليقطع لسانك. ليتك لم تكن طماعا ولا جبانا ويا ليتك لم تعط الكثير من الوعود للعثماني. أنت المسئول عن كل ما حل بنا.

قال الإمبراطور الغاصب الذي ينصت بصبر إلى صوت صهره غير المرئي الذي تطن أذناه بصوت حاد ومضطرب:

لا تنس يا ابن أندرونيكوس أن الظلمة هي التي تظهر الضوء. لو لم تكن ظلامكم الذي سقط فوقي، فلربما لم أستطع رؤية الضياء في أي وقت أنا الآخر مثلكم.

اعتقد الإمبراطور المنفي يوحنا باليولوج الخامس أنه بوخزاته الصغيرة تلك سينجح في تحذير حماه. قرر أن يقترب منه أكثر وغض صوته الذي يتجول داخل القاعة وقال:

يا والد حبيبتي إيلينا. إن ما تريد أن قوله أن هذه الوقت هو وقت التكاتف والاتحاد. وهو وقت التفوق على العثمانيين. وأنه وقت إعطاء أورخان لقمة أكبر مما يريدها حتى يمكننا التفوق على العثمانيين ودحرهم. هذه رغبات عاقلة ولكن أنا هنا وأنت هناك...

تنفس الإمبراطور يوحنا كنتا كوزين السادس الصعداء عند سماعه الجمل الأخيرة التي قالها صوت صهره.وأخذ الرسالة الموجودة منذ فترة طويلة على الطاولة. وأخذ يطالعها وهو يمشي نحو كرسي عرشه. وقال أثناء جلوسه عليه قال:

آه يا ابن أندرونيكوس! يجب عليك أن تعرف، أن أية اتفاقية لا تدوم إلى الأبد. ولكن لنقم بعقد اتفاقية جديدة مع أورخان. لكن يجب إعداد أحد النصوص الذي يقبل به والذي يمنحنا الوقت الكافي في ذات الوقت... وليكتب نص الاتفاقية التي سنعقدها على جدران القلاع العثمانية مثلما كُتب نص الاتفاقية التي أبرمها الحيثيون الذين كانوا موجودين في الأناضول على جدران المدن المصرية.

قال صوت يوحنا باليولوج الذي يضعف شيئا فشيئا:

أنا أيضا أرى نفس رأيكم ثم اختفى.

تساءل الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي أفاق لنفسه بعد ذهاب صوت صهره قائلا:

مع من كنت أتحدث؟ ثم عض شفتيه مرة أو مرتين. نظر إلى حي أهالي جنوة الموجود على الشاطئ الآخر من نافذة غرفته الواسعة وهو يحاول أن يواسي نفسه قائلا على الأرجح شاهدت حلما من أحلام اليقظة ثم قال:

هل زادت أعداد أهالي جنوة، أم أنني لا أرى جيدا؟ وفقا لما يقال حدثت هجرات كثيرة من داخل الأسوار إلى بيرا كما حدث في عصر الرومان. واستقر قسم كبير من الذين هاجروا على أراضي سيكايا التابعة لنا ووضعوا لها اسما آخر حسبما أرادوا.

(١٩)

كانت سعادة سليمان باشا قد استمرت لمدة قصيرة حينما كـان يبعـث بالهدايا إلى أمرائه مع الرسل الذين أخبروه بالاستيلاء على الحصون الواحد تلو الآخر. إن سليمان باشا الذي لم يكن يستطيع سماع حديث أفرانوس بـك والحاج إلباي على الرغم من وجودهما في نفس الحجـرة وجلوسـهما فـي مواجهته حتى وإن كان عن دون قصد، وكان بين تارة وأخرى يستغرق في التفكير بعيدا عن الغرفة وعن نفسه كذلك.، وكان يقول لنفسه "كنـت أكثـر فرحا عندما استولينا على إحدى القلاع الصغيرة منذ عدة أيام. الآن أصـبح عدد قلاعنا ثلاث قلاع. إن السرور الموجود في قلبي والذي من المفتـرض أن يسعدني بشكل أكثر بدأ يتناقص تدريجيا. إن انطفاء السـرور الموجـود بداخلى على هذا النحو ..." ، وقبل أن ينهي جملته حدث نفسه قـائلا " مـن جديد تبين أن أبي كان محقا. فكما قال، يجب علينا ألا نتعجل وألا نسـتخف بأي شخص." عندما أحس أن ضيق صدره يزداد شيئا فشيئا وبعد أن عبـر عن أفكاره بصوت مرتفع قائلا " كان يجب ألا نستمر في الانزلاق بهذا القدر في القلاع الصغيرة. وكان يجب أخذ المعارك التي تفتقـد للمـروءة بعـين الاعتبار" ثم سار وخرج من الحجرة. ضاقت باحة قصر القائد الواسع بضيق قلبه. ففكر أنه لو نزل إلى الشاطئ من فوره سيخفف النسيم القادم من البحر آلامه ويقضي عليها. خرج من الساحة مسرعا، وسار إلى البـاب المفتـوح على الميناء. كان السوق قد أُقيم مرة أخرى بعد مرور عدة أيام. وبينما كان

يسير نحو باب القلعة متفحصا مناضد ومعارض البائعين، طالع نظرات المرأة ذات العينين الزرقاوتين التي كانت تنظر إليه بشغف في أول يوم ترقبه بنظرات يملؤها السرور. فكر مرة أو مرتين في التوقف والنظر إلى المرأة، ولكنه شرع في السير بسرعة أكثر. بدأ السير قاصدا الميناء وعندما أتى إلى باب الحصن الذي يبدأ منه الممر الذاهب إلى الميناء، عدل عن النزول إلى الميناء وقرر الصعود إلى أعلى برج موجود على جدران القلعة، واتجه مباشرة نحو الدرج. أما المرأة الطويلة القامة التي كانت تراقبه بطرف عينها، فقد تركت منضدتها لصديقتها التي بجوارها وعلى الفور سارت نحو الدرج التي اتجه نحوه. في الوقت الذي كانت تسير فيه المرأة خلف رجل لا تعرف من هو، كانت من ناحية أخرى تسأل نفسها لماذا تسير خلف هذا الرجل الذي لا تعرفه؛ حيث أحست بجيشان قلبها لأول مرة بعد سنوات. ومع ازدياد خفقان قلبها تسارعت كذلك خطواتها. وفي لحظة تملصت من زحام السوق، واتجهت نحو الشارع الضيق الذي سار فيه الرجل. كان الرجل على وشك الوصول إلى الدرج الذي ظهر في نهاية الشارع الضيق، الذي بدا وكأنه محشور بين المنازل. حثت المرأة خطاها لرغبتها في الوصول إليه قبل أن يصعد الدرج. لكنها لم تكد تخطو عدة خطوات حتى سمعت أصوات أقدام تأتي من خلفها. ارتجفت، وعندما استدارت ونظرت خلفها رأت في مواجهتها مباشرة جنديين قريبين منها. فكرت لبرهة فيما بين التقدم والسير وراء الرجل أو العودة والرجوع إلى منضدتها. في النهاية فكرت أن العودة ستكون هي الأكثر حكمة فاقتربت من الحائط جيدا وسمحت للجنود بالعبور فلم تستطع أيديهم اليمنى الإمساك بالسيوف الموجودة في خصورهم. وعندما

رأت عدم اهتمامهم بها حين عبورها من جوارهم تشجعت من جديد. نظرت وراءها فرأت الرجل على الدرجة الأخيرة من الدرج الحجري. وبينما كان عقلها يتأرجح بين الجانبين حدثت نفسها قائلة " أصحاب القلعة الجدد". أما سليمان باشا الذي لم يلحظ مجيء المرأة طويلة القامة من خلفه، فصعد الدرج بخطوات سريعة وصعد فوق جدار القلعة العريض. سار بخطوات سريعة وصعد إلى أعلى برج مراقبة للحراس. وعندما مس النسيم الآتي من أمواج الدردنيل وجهه الأسمر البرونزي قال بصوت لم يهزه النسيم "أف! ". وتحدث بعد أن أذن للنسيم بمس بشرته قائلا:

يجب أن نمكن كل المشاة الموجودين على الضفة الأخرى من العبور إلى هذه الضفة. وإلا سيتكبد الفرسان المحاربون غير المدربين جيدا خسائر فادحة في ساحات القتال. لو مكنا جميع قوات المشاة التابعة لنا الذين ينتظرون العبور إلى هذه الضفة سيرون حينئذ ...

لم يستطع الحراس الموجودون على البرج والذين كانوا يراقبون سليمان باشا بطرف عيونهم منذ صعوده إلى الأبراج مع من كان يتحدث سليمان باشا الذي كان يحدث نفسه. ولكن هذه الفكرة التي طرأت على ذهنه قللت من اضطرابه حتى أن البهجة حلت محل هذا الاضطراب فنظر إلى أسفل القلعة بارتياح. كان يوجد فراغ فيما بين الأجمة وأساس الجدار. بيد أنه لم يكن هناك أي فراغ بين الأجمة وحتى البحر. إلا أن أطراف الأغصان السفلى للأشجار القريبة من الشاطئ كانت تبدو وكأنها تغوص في مياه البحر الزرقاء.

سليمان باشا الذي جلس على جدار القلعة بعد أن أعياه التعب من الوقوف على قدميه، وبينما يشاهد امتزاج الأزرق بالأخضر غاصت الفكرة الخالدة في المحيط وانتهت. أثناء مراقبته هذا المشهد بنهم لمدة طويلة ناسيا بأفكاره الخالدة أين يكون، سمع أصوات أقدام في مدخل البرج. عندما نظر بدقة نحو الجهة القادم منها أصوات الأقدام ولما لم يتمكن من رؤية الحراس أو أي شخص آخر، امتدت يده بلا قصد إلى خنجره الصغير – الذي أهداه له والده – المخبأ في الحزام الموجود حول خصره. بينما كانت يده تتجه إلى الخنجر ذي المقبض المرصع بالصدف، ولأن الخنجر كان هدية من والده؛ حاول أن يتذكر وجه والده ذي الحلية الكروية يوم أعطاه الخنجر. بيد أن وجه والده في ذلك اليوم لم يكن موجودا إلى جانب عشرات الأوجه الأخرى الموجودة في ذاكرته. وبينما كان ينظر ثانية إلى الشواطئ المقابلة بنظرات حائرة لعدم تذكره وجه والده في ذلك اليوم، سمع صوت رسول الحاج إلباي العجوز. خلال نهوضه من على الجدار الذي كان يجلس عليه. قال الرسول العجوز وقد انحنى قليلا إلى الأمام: جميع الأمراء ينتظرونك يا مولاي.

الرجل الطاعن في السن الذي جاء كان حامل بريد الحاج إلباي منذ أن كان وزيرا في إمارة قراسي. كان يخاطب سليمان باشا كما يخاطب الأمراء قائلا له يا مولاي. لم يكن سليمان باشا يفرق بينه وبين القادة في العديد من المرات، حتى أنه كان يجعلهم يدعونه إلى خيمته في الليالي الطويلة المظلمة ويجعله يقص عليه الحكايات. حيث كان قد اعتاد في طفولته على الاستماع لمثل هذه القصص أثناء خوفه من الليالي شديدة الظلمة الممطرة. حيث كانت أمه تقص عليه تلك القصص في ذلك الوقت باستمرار.

سار سليمان باشا بخطوات سريعة عبر الطريق الذي أتى منه إلى القصر الذي يوجد به مقر القيادة الذي يجتمع فيه القادة. وبينما كان يمر بين معارض الباعة رأى أن المرأة ممشوقة القد طويلة القامة ذات العينين الزرقاوين تتبعه بنظراتها. توقف فترة قصيرة ونظر إلى المرأة حتى سمع أصوات أقدام الحراس. وعندما اقتربت أصوات أقدامهم من خلفه تابع سيره ثانية نحو مبنى القيادة. إلا أن المرأة ممشوقة القد طويلة القامة استمرت في النظر إليه من خلفه ومن خلف الحراس. حتى أنها سارت وراءهم عدة خطوات حتى تعلم إلى أين هم ذاهبون. وعندما رأتهم يدخلون إلى قصر قائد القلعة القديم توقفت عن المراقبة وعادت متجهة إلى منضدتها.

كان القادة قد اجتمعوا في قاعة العمل الخاصة بالحاج إلباي الموجودة في مبنى القيادة. وما إن رأوا دخول سليمان باشا حتى نهضوا واقفين على أقدامهم. عانق سليمان باشا إيجه بك أولا ثم أقجه قوجه أوغلو وفاضل بك وبالابانجيق أوغلو وهنأهم. جلس على كرسي وقال بصوت هادئ وشجي:

أهلا وسهلا ومرحبا...

ولم يرد أي منهم التحدث بسبب تأثير صوته المؤثر الشجي الهادئ لبرهة من الزمن. أدرك سليمان باشا أن القادة ينتظرون حديثه فتحدث إليهم قائلا:

أيها القادة، بدايةً أنا شاكر لكم بسبب هذه البداية التي قمتم بها من أجل إثبات استمرار بقائنا على هذه الأراضي. والتفت إلى فاضل بك وقال: البقية في حياتك لوفاة بيجالي. ولكن ما يجب أن تضعه في حسبانك أن هذا

المصاب ألم بنا جميعا. سبيلنا هذا سبيل التضحية بالنفس ولا يستطيع أي منا معرفة ما سيصيبنا في أي قلعة أو أي يوم. وسيحدث هذا طالما هناك أبطالنا الذين سيحلون مكان أبطالنا الذين قضوا نحبهم. نظر أمامه وصمت لبرهة. ثم رفع رأسه وقال وهو ينظر نحو فاضل بك: وفقا لاقتراح الحاج إلباي وأفرانوس بك من الآن فلنسم قلعة سستوس باسم قلعة الشجاع بيجالي. نظر إلى إيجه بك وأقجه قوجه أوغلو. تحدث إيجه بك قائلا:

حسنا يا مولاي .

وافق أقجه قوجه أوغلو على كلامه هذا من خلال الإشارة برأسه.

نظر فاضل بك إلى وجوه القادة واحدا واحدا. والتفت نحو سليمان باشا وقال:

سلمت يا مولاي، وصمت ...

اعتقد سليمان باشا أنه في حاجة لقليل من الهدوء والسكينة، وأنه سيكون من الأفضل أن يختلي بنفسه، فاستدار نحو إيجه بك وقال:

يا إيجه بك، البقية في حياتك أنت أيضا. بعض أبطالنا ماتوا محترقين ... آمل أن يُعاقب من جعلنا نعاني تلك الآلام العقاب العادل.

قال إيجه بك وهو حزين مهموم:

بالقطع يا مولاي، لقد نال المجرمون كل الجزاء الذي يستحقونه. أخذ نفسا عميقا عدة مرات وبعد أن التقط أنفاسه، قال يا مولاي لقد عاون شعب القلعة حراس القلعة بسبب الظلم الذي عانوه من آخر حكام الكتالونيين بنفس

درجة سئمهم من الضرائب التي فرضها عليهم البيزنطيون. ولهذا السبب انتبهنا إلى عدم أخذ أحد بجريرة الآخر. لكن تم أسرهم مع الحراس الذين قدموا المساعدة من تلقاء أنفسهم ودون أن يُطلب منهم. كل شيء سار على ما يُرام ولكن تمكن القليل من الحراس من الفرار إلى قلعة جاليبولي لأننا لم نستطع تحديد فتحات الأنفاق المفتوحة على الأراضي الموجودة خارج القلعة من ذي قبل.

ولم يكد سمع أفرانوس بك يسمع هذا الكلام حتى نهض واقفا على قدميه. وكان يبدو من تعابير وجهه أنه شديد الانزعاج. خاطبه سليمان باشا وهو ينظر إليه قائلا:

لا تقلق يا أفرانوس بك، لو لم يفر هؤلاء الحراس فإنهم كانوا أيضا سيبلغون أخبار احتلالنا للقلاع إلى الموجودين في جاليبولي كذلك. ليكن، لتصلهم الأخبار وليعلموا مبكرا بعض الشيء. وليخبروا الإمبراطور بما سمعوا. ماذا سيحدث؟

بعد أن استمع أفرانوس بك إلى سليمان باشا قال:

يا مولاي، إن ما يقلقني ليس هو معرفة الإمبراطور باستيلائنا على القلاع، ولكن القبض على قوات المشاة الخاصة بنا التي تنتظر على الضفة الأخرى من البحر. لأن السفن التجارية التي تحمل قوات المشاة الخاصة بنا حاليا لا يمكنها مقاومة نار الروم التي سيطلقها أسطول بيزنطة وستحترق برمتها خلال بضع ساعات.

نظرسليمان باشا إلى أفرانوس بك وقال:

يا أفرانوس بك، إن ما يقلقك يقلقني أنا كذلك، ولكن لم يعد بأيدينا ما يمكن أن نفعله بعد ... ثم التفت نحو الحاج إلباي الذي قال بشعور تملؤه القسوة الموجودة بداخله:

يا مولاي، جئنا عدة مرات ولسنوات عديدة إلى الشواطئ المقابلة في عهد إمارة قراسي ووضعنا أقدامنا فوق أراضي الروم هذه التي نشاهدها. ومما لا شك فيه أن أمراءنا الذين جعلونا نشعر بهذه السعادة فعلوا ما بوسعهم، ولكن ماذا نفعل، بعض الأمور سارت عكس ما نريد. علينا ألا نسمح لهؤلاء بترويعنا وتهديدنا. أنا أؤيد إطلاق اسم السيد إيجه على قلعة مايدوس التي استولينا عليها ليكن اسمها مدينة إيجه بك.

وبعد أن رأى أفرانوس بك موافقة القادة على رأيه، نظر نظرة باهتة إلى وجوه الموجودين بالداخل وكأن هناك شيئا ما قد غاب عنه، ولما انتهى الفتور الموجود في نظراته قال:

إن الذين يعيشون في القلاع الموجودة على أراضي تراقيا الخصبة قد عانوا الكثير إلى يومنا هذا. لذا من الممكن أن يكون لهم رد فعل عنيف. يجب علينا ألا نجعلهم يشعرون بأننا لسنا مثل اليونانيين ولا الإسبان. وكانوا في كلا العهدين مجبرين على تقديم كل ما يملكون للمحتلين الذين ينهبونهم كما تم العمل على تحويل عقيدة سكانها الذين يعتنقون المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي. ووفقا لماعلمته من الناس الذين تحدثت معهم اليوم فإلى اليوم الذي جئنا فيه كان هناك كل يوم تقريبا، حارس يأتي في الصباح وآخر في المساء لجمع الضرائب. كما أن اضطهاد آخر المحتلين الإسبان قد ظلموا سكان المنطقة بشكل كبير وجعلوهم يعانون أشد المعاناة. وهذه تعد

فرصة رائعة لنا. إن أمكننا أن نوضح لهم أننا نختلف عن هـؤلاء، حينئـذ ستصبح مهمتنا سهلة للغاية. وبحسب ما رأينا أيضا لا يوجد اسم بيزنطة إلا في هذه المناطق فقط.

نظر فاضل بك إلى بالابنجيق أوغلو الذي لم يتحدث حتى تلك اللحظة قط وقال:

مولاي، ابتلع ريقه عدة مرات وكأن شيئا ما قد توقف في حلقه. وبعد أن ظل يبتلع ريقه لفترة، وبعد أن أخرج زفيره وكأنه يفرغ صوته المكتـوم في حلقه مع زفيره، قال : مولاي ارتكبنا جرما عظيما بإثارة أحزاننا.

نظر الأمير سليمان باشا والقادة الآخرين بدقة إلى وجه فاضـل بـك المستدير محاولين فهم ماذا يقصد بحديثه هذا. أما نظرات بالابنجيق أوغلـو فزاغت تجاه أرض القصر الحجرية. ثم قال الحاج إلباي:

لا شك أننا بشر يا فاضل بك. كوننا قادة لا يعطينا قوة إلهية زائدة على المعتاد. يمكن أن نخطئ، وأن نذنب أيضا لأننا بشر. لكن من المهم ألا ننسى أبدا أننا بشر وأن نظهر أفضلية اعترافنا بالخطأ الذي وقعنا فيه. أنت دائمـا تحدثنا عن أخطائنا المحزنة، ألا تريد الراحة والهدوء؟

قال فاضل بك الذي اعتراه الخجل، والذي حاول إخفاء جلـد وجهـه المستدير الأبيض أسفل لحيته التي خطها الشيب من شدة خجله:

كانت المرأة العجوز التي صبت الماء المغلي فوق بيجالي قد قالـت : "ظننت أن الإسبان قد عادوا" قبل أن ندق عنقها، بيد أننا لم نستطع فهـم مـا أرادت أن تقول ..."

(٢٠)

باليولوج الخامس يسير بخطى سريعة بمحاذاة الشاطئ بجرأة منحه إياها عنفوان شبابه، وبينما كان يتوقف بين الحين والآخر كان ينظر إلى المياه الزرقاء لبحر الجزر وكان يصيح قائلا:

يا كانتاكوزين ماذا تنتظر أن يحدث أكثر من هذا الذي يحدث هنا؟ إن كان ما سمعناه صحيحا فإننا سنسمع في القريب العاجل أصوات أقدام العثمانيين في قسطنطينيتنا كذلك. إن كنت تقول لنفسك بأن صهرك أورخان لن يفعل بك شيئا فلتعلم بأنك مخطئ. لأن القسطنطينية، هي تلك الجوهرة يتلألأ بريقها من داخلها ومن خارجها. وفي كل الأحوال فإن أورخان لا يسير في الظلام حتى لا يرى بريقها وجمالها هذا. لقد انتهزت صغر سني واغتصبت إمبراطوريتي مني ولكن لتعلم أنه يوجد من يستطيعون أن يغتصبوا منك عرش الإمبراطورية الذي اغتصبته مني.

وبينما كان يسير وهو يحدث نفسه على هذا النحو سمع صوتا قادما من البحر. إلا أنه ولبرهة لم يستطع أن يدرك هل كان هذا الصوت يأتي من الخوف الموجود بداخله أم من أعماق بحر الجزر. جلس على أحد الصخور الموجودة على الشاطئ الذي ترتطم به الأمواج الزرقاء وكأنها تداعبه. وبينما كان ينظر بدقة بعيدا حابسا أنفاسه شخص مستشرفا من أين يأتي الصوت، شاهد مجيء الإمبراطور يوحنا كانتاكوزين السادس قادما على ستة ثيران

مجنحة وكأنه زيوس فوق جبل إيدا. وبينما كان يوحنا كنتاكوزين يقود جواده الذي يشبه الثور من ناحية، فإنه من ناحية أخرى كان يقول وكأنه يرد على ما كان يحدث به صهره نفسه قبل قليل:

يا ابن أندرونيكوس، لقد بدأنا الاستعدادات لكن نظرا لسفر أورخان فإنه لا يمكننا معرفة إلى أين سنرسل خطابنا الخاص بالاتفاقية. ومن بين الأخبار التي تأتي إلينا أخبار تقول بأنه مريض. ولكن سأسافر إلى أنتيجون في أقرب فرصة وسألتقي أورخان هناك. وفي تلك الأثناء سأزور صوفيا الصغيرة التي استضافت اجتماعات المجلس المقدس مرتين اثنتين في أنتيجون كما سأزور آيا صوفيا.

قال الإمبراطور المنفي باليولوج الخامس من المكان الذي يجلس عليه لحماه الذي يمتطي صهوة جواده المجنح:

أبلغ سلامي إلى كل من نيكايا وأنتيجون.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس:

فكر في حب ابنتي إيلينا، ابذل ما في وسعك حتى تكون جديرا بها. ودع لي أنا مهمة إبلاغ السلام إلى كل من نيكايا وأنتيجون. وهكذا، بعدما أخذ الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي كان يتحدث معه، صوته الذي يشبه الرعد المتبقي من زيوس وتوارى بين السحب الزرقاء بجواده الذهبي الذي يشبه الثور، أدرك باليولوج الخامس كونه وحيدا تماما على شاطئ تندوس.

عندما أدرك أن الكلام نابع من خوفه نهض واقفا وبدأ يجري بكل قوته نحو قصر عمله الرسمي، والذي يبعد عن القصر الذي يقيم فيه . وبينما كان يعدو على هذا النحو، كان الإمبراطور كانتاكوزين السادس الموجـود فـي القسطنطينية قد ركب أروع زوارق الإمبراطورية وانطلق متجها نحو حـي أهالي جنوة الموجود على الشاطئ المقابل لبحـر الليمـون. بعـدما هـدأت أصوات المجاديف المغمورة في الماء بمدة قصيرة اقتربت الزوارق الرائعـة من الشاطئ. كان حاكم بلدية جالاطا مستعمرة الكولومبيين ينتظر الإمبراطور عند الشاطئ.

وما إن وطأت أقدام الإمبراطور ومن برفقته أرض الميناء، حتى بـدأ أفراد الفرقة الموسيقية الموجودة في الخلف في العزف على آلاتهم الموسيقية. وبعد أن قام الإمبراطور بتحيتهم، سار بخطوات بطيئة نحو العربـات التـي تجرها الخيول والمعدة لعائلة الإمبراطور. أما عربة حاكم البلدية التي كانت تسبق عربات الإمبراطور ورجال الدولة لتدلهم على الطريق فقد كانت أجمل وأروع من جميع العربات. حيث كانت توجد في أماكن الزخرفة الموجـودة على عجلاتها لوحات محفور عليها صور سمك فضي يقفز في الماء.

كان يوجد منذ الصباح الباكر أمـام عربـة الخيـل التـي يسـتقلها الإمبراطور كانتاكوزين السادس فرسان المراسم الخاصة بالإمبراطور الذين يمتطون الجياد ويرتدون الدروع. إن الفرسان الذين كانوا يمتطون جيـادهم ويجلسون فوق وعرباتهم منتصبة قاماتهم لدرجة أن من ينظر إليهم كان يظن أنه لا يمكن الوصول أبدا لعظمة بيزنطـة وقوتهـا. لاسـيما أن الخـوذات الموجودة على رءوس الفرسان والدروع الموجودة علـى أجسـادهم كانـت

تجعلهم يبدون أكثر أناقة، وتضفي عليهم مظهرا فخما. أما أسلحتهم التي كانوا يمسكون بها وهي عبارة عن سلاح برأس واحدة، وآخر علـــى شـــكل رأس بلطة بحدين ورمح برأس واحدة، والتي كانوا يمسكون بها من وسطها بأيديهم وكأنهم كانوا يقولون "لو اقترب منا أحد بمقدار طول رمح ليعلم أنه ميت".

بعد أن قطعت العربات مســافة علـــى طريـــق الميـنــاء المرصـــوف بالحجارة، بدأت في التقدم على الجانب المقابل بشكل مواز لطريق القـــدوم، وعلى المنحدر راسمة قوسا باتجاه اليسار. تقدموا عائـــدين مـــن منعطفـــات الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجارة الموجـــودة بـــين المنـــازل. وعنـــدما اضطرت القافلة إلى إفساح الطريق للعربات التي يجرها حصان واحد والتي كانت تخرج أحيانا من الشوارع الجانبية كان القلق الشديد يصيب الفرســـان الموجودين في الأمام ولكن الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي كان يشـــاهد البسفور من داخل عربته لم يشعر بالقلق إطلاقا من هذا، حتى أنه كان سعيدا جدا لمشاهدة البيئة المحيطة بروية وهدوء مستفيدا من التوقف.

توقفت العربات الثلاث في الميدان المفتوح على صحن أعلى بناية في حي أهالي جنوة والمطلة على المضيق. أتى حاكم البلدية عدوا إلـــى جانـــب الإمبراطور وبدأ في الشرح له. جلس الجميع معا على الفـــراش الموضـــوع فوق الأرائك الحجرية الموجودة في أجمل ركن في مبنى الرئاسة الذي يطل على البسفور والشواطئ المقابلة. في الواقع إنه كان تحت مظلة عظيمة كانت صالون اجتماع رئيس البلدية ومكانا لاستقبال ضيوفه. عندما كان يبرد الجو كانت تغلق النوافذ بالستائر المنسوجة من الشعر الذي يحـــول دون دخـــول الهواء البارد وماء المطر، وعندما يكون الجو صحوا كانت المظلة تفتح من

جوانبها الأربعة. وعلى الرغم من حلول الخريف، فإن الجو لم يكن باردا بعد. فلو هبت الرياح خفيفة من البوسفور على المظلة كانت تبردها دون أن تجعل الجالسين فيها يشعرون بالبرد. ووفقا لما يُحكى فإن رئيس البلدية كان أحيانا يقيم الحفلات الرائعة للتجار الأغنياء الذين كانوا يأتون بالسفن إلى هنا، وكان التجار يقدمون الهدايا التي لا يتخيلها العقل لرئيس البلدية. وكان جميع تجار أهالي جنوة الذين يأتون إلى القسطنطينية يحلون ضيوفا على هذه الحفلات، عندما كانوا يأتون إلى الحفلات كانوا يحضرون معهم خدامهم وطهاتهم الخصوصيين لمساعدة خدم الروم التابعين لرئيس البلدية وفي نهاية الليلة وبعد نهاية الحفل كانوا يذهبون ويتركون خدامهم الذين أحضروهم معهم هدايا لرئيس البلدية. وفي الواقع فإن التجار في ذلك الوقت كانوا قد اعتادوا إحضار مثل هذه الهدايا إلى أي مكان يذهبون إليه. حتى أن رفقاء التجار كانوا يشترون الجواري من أسواق الأسرى الموجودة في الأماكن التي كانوا يمرون عليها لمثل هذه الأيام. إلا أنه لم يكن أحد يفصح عن سر تسوق رفقاء تجار أهالي جنوة من أسواق أهالي البندقية وتسوق رفقاء تجار البندقية من أسواق أهالي جنوة.

بمجرد أن علم حاكم أهالي جنوة ورئيس بلدية جالاطا بقدوم الإمبراطور لزيارة الحي، كان قد أمر العمال الجنويين بصب تمثالين لفتاتي البحر الذهبيتين كما تفعل الإسكندرية، وتم تزيينهما بالزمرد الذي تم جلبه من فرغانه. وكان قد أكد بشكل كبير على أن يتم صبهما في قالب واحد حتى لا يبدو بينهما ثمة خلاف أو فارق في شكلهما. وفي الواقع وعلى الرغم من أن تجار أهالي جنوة يرددون أن الإمبراطور الطفل يوحنا باليولوج الخامس كان

في المنفي فإن رئيس البلديـــة تصــرف بحكمـــة وحـــذر، لأنـــه يعلـــم أن الإمبراطورين يصل إلى مسامعهما كل شيء، وكان قد أمر بصب عروستين من عروس البحر. وفي الواقع كان رئيس البلدية يكره كنتـاكوزين بدرجـــة كرهه للأوساخ الموجودة على جسده، ولكنه كان مجبرا على تقديم الخدمات له لكونه الإمبراطور الحاكم في ذلك الوقت. وعلاوة على هذا، ووفقا لما قيل فإن كنتاكوزين كان هو الوحيد الذي خرج على أندرونيكوس باليولوج الرابع الذي كتب خطابا يطلب إلى كل من روجر وفلور يطلب فيه مجيء الإســبان الذين يمسحون وينظفون ما بأجساد وأيدي أهالي جنوة من أقذار. عندما تردد أن الإمبراطور أندرونيكوس سيعاقب كانتاكوزين لعرقلتـــه لقرارتـــه، قـــال كانتاكوزين للإمبراطور أندرونيكوس وهو يضع في حسبانه كل شيء:

وقوع البلاء سهل لكن التخلص منه ليس سهلا بهذا القـــدر عظمـــتكم. استولى الإسبان على صقلية وفقا لرغبة ملك فرنسا وأعطوها له لكن بعد ذلك أصبحوا بلاء على ملك فرنسا.

بعد كلامه هذا فكر الإمبراطور قليلا، وتراجع عن مجازاته، إلا أنـــه كان قد غضب بسبب مخالفة كانتاكوزين لأمره وقال له:

إن ما يلزم أن تضعه نصب عينيك هو أن القرار الأول والأخير فـــي الإمبراطورية هو قرار الإمبراطور. ولم أستطع تفســير عصـــيانك عمـــدا لقراري.

تحدث كانتاكوزين السادس وكأنه يريد أن يلطف الجو، فقال موضـــحا الصورة :

عظمتكم، أنا تحدثت لأنني اعتقدت أنكم ستجرون إمبراطوريتنا إلـــى مصيبة أكبر حينما كنتم تأمرونني بوقف الكارثة العثمانيـــة. إن كنــت قــد أخطأت أرجو أن تغفر لي سيدي.

تحدث أندرونيكوس باليولوج الرابع بعد أن أخذ نفسا عميقا قائلا:

أرى أنك على خطأ. ومهما يكن فإن الكتالونيين يعتنقون نفس معتقداتنا ولن يضيرنا أبدا أن يكونوا متوازنين معنا في القوة. حتى أنه بأقل وعد منـــا نجعلهم يقومون بأعمال كثيرة. وبعد إنجاز الأعمال نجعلهم يركبون ســفنهم ونرسلهم إلى ديارهم. أما العثمانيون الذين يستولون على أراضـــينا قطعــة قطعة، فإنهم أخطر من كل الأعداء الذين رآهم البيزنطيون حتـــى الآن. ولا توجد أية قوة غير الإسبان تستطيع أن تجعلهم يعدلون عن التهـــام أراضـــينا قطعة وراء الأخرى.

وبعد أن استمع رئيس الوزراء كنتاكوزين للإمبراطور نظر أمامه ثـــم قال:

لن أقول إنهم سينقذوننا كما أنقذوا صقلية، لكـــن لـــو أنهـــم حـــاولوا الاستيلاء على بيزنطينيتنا وقسطنطينيتنا مثل اليونانيين الذين شـــاركوا فـــي الحملات الصليبية فإن استئصالهم وإبعادهم عن أراضينا لن يكـــون بـــالأمر اليسير.

قال أندرونيكوس الرابع وهو غاضب إلى حد ما:

هل تريد القول بأن قراري لم يكن صائبا يا كانتاكوزين؟

كانتاكوزين السادس الذي أدرك أن قول نعم سوف يكلفه الكثير بعد ما زاد غضب الإمبراطور شيئا فشيئا، حنى رأسه إلى الأمام وقال:

لا عظمتكم ... اتخذتم القرار الصائب. من أنا حتى يمكنني القول بمثل هذا... لكن إن سمحتم لي أرجو أن أتقدم باقتراح متواضع...

باليولوج الرابع حتى يظهر اهتمامه بالاستماع إلى رئيس وزرائه الذي لم يعص له أمرا لأعوام، قال:

حسن ما هو اقتراحك ؟ تحدث لنعلم.

قال رئيس الوزراء كانتاكوزين السادس:

يا صاحب العظمة! سيكون من الأفضل لو جعلتم هؤلاء بعيدين عن قسطنطينيتنا.

قال أندرونيكوس باليولوج الرابع:

اقتراحك هذا ليس من الاقتراحات التي لا يكترث بها. في الحقيقة أنا أريد إرسال هؤلاء سريعا إلى العثمانيين. مثلا، من الملائم إرسالهم إلى أراضي إمارة قراسي الموجودة على شواطئ الدردنيل في الأناضول. ومن هناك من الممكن الدفع بهم بسهولة إلى مواجهة العثمانيين.

أندرونيكوس باليولوج الرابع الذي تحدث قائلا: في الواقع كانت هناك أسطورة ذائعة في حي أهالي جنوة تقول، إنه بخلاف قادة الإسبان روجر وفلور اللذين جاءا إلى الدردنيل لم يتم الدفع بأي أحد إلى القسطنطينية. في الواقع لو كان الإسبان قد نزلوا من سفنهم ووطأت أقدامهم القسطنطينية لما

كان إخراجهم ممكنا على أية حال. ففي كل الأحوال بعد الاستقرار في القسطنطينية كانوا سيأتون إلينا هنا وكانوا سيقومون بعملية تنظيف صقلية.

رئيس بلدية حي أهالي جنوة كان يسترجع كل هذا في عقله وهو ينظر إلى كانتاكوزين السادس. أما كانتاكوزين فكان يشاهد من عربته البسفور فقط، كما كان يفعل إلى أن بدأت عروض جواري رئيس البلدية. عندما بدأت العروض وبدأ الجواري في الخدمة كان يحتسي الشراب بصمت وكأنه نسي كل شيء. فجأة قفز من مكانه ونهض وكأنما طرأ على ذهنه شيء ما. وقف وقال وهو ينظر إلى رئيس البلدة:

منظر قسطنطينيتنا يبدو أفضل كثيرا من حيكم. ولو صعدنا أكثر تجاه بيرا فإن القسطنطينية ستبدو أجمل في كل الأحوال.

قال رئيس البلدية الذي لم ينتظر أبدا سؤالا كهذا:

يا صاحب العظمة يجب ألا يرهقوا أنفسهم ويصعدوا إلى التبة. فإن القسطنطينية ستبدو من هناك جميلة بهذا القدر أيضا.

تحدث الإمبراطور كانتاكوزين السادس بصوت معاتب مستاء حتى يجعل رئيس البلدية يفطن إلى سبب رحلته ثم قال:

وفقا لما سمعنا سُميت بلدتنا سيكايا الحبيبة بأسماء أخرى بين السكان ...

كان رئيس البلدية يطلق على المدينة جنوة الصغرى غالبا لأن التلفظ باسم سيكايا الذي ينطقه البيزنطيون بسهولة لم يكن سهلا عليه. ولكن لمعرفته بكره البيزنطيين لتغيير الاسم قال:

سكان حينا يحبون كثيرا اسم سيكايا لكن التجـار الآتـين والزائـرين يحاولون تمرير بعض الأسماء الجديدة. كما تعلمون فإن نطق اسـم سـيكايا صعب جدا على الزائرين.

ونهض الإمبراطور كانتاكوزين السادس دون أن يتحدث أكثر من هذا، وسار نحو الباب المفتوح على الفناء. ركض رئيس البلدية خلفه ولحق بـه. قطعا معا جانب التل في مدة وجيزة وصعدا الربوة. بعد أن سارا مدة بجانب بعضهما وصلا إلى حي بيرا الذي شيده اليهود المبعدون من المدن الموجودة داخل قلعة القسطنطينية في عهد تيودوسيوس الثـاني. الإمبراطـور يوحنـا كانتاكوزين السادس الذي لم ينظر لحيهم لعدم تمكنهم من تحصيل الضـريبة من اليهود الذين لم يحصلوا على أي إذن لحيازتهم للخيل منذ عهد باسيليوس الأول، وهو يشير لرئيس البلدية إلى الحي الجديد الذي أسسه أهـالي جنـوة ملاصقا لحي سيكايا، ثم سأله قائلا:

لماذا لم يصلنا أي خبر بشأن هذا الحي الذي أسس جانب سيكايا .

استدار رئيس البلدة وكأنه لم يعط أي معنى لصمته وارتد على عقبيه وبدأ السير عائدا. وبينما كان يمشي قال لرئيس البلدية الموجود خلفه:

سيتم عمل إحصاء لكل من يعيش في المنازل الجديدة تحـت مراقبـة جنودنا. وستحدد الضرائب الجديدة وفقا لعدد السـكان بعـد إجـراء تلـك الإحصاءات.

(٢١)

كان سليمان باشا وهو يسير إلى الميناء مرتديا زي الأمراء لأول مرة وكأنه كان يقفز الدرج اثنتين اثنتين. توقف عندما رأى المرأة شديدة النحافة طويلة القامة التي خرجت أمامه من أحد الشوارع الجانبية. عندما رأى الرجال الموجودين خلفه وقوفه جاءوا إلى جانبه مسرعين. كانت عينا المرأة السماويتين وكأنهما قد شخصتا إلى عيني سليمان باشا السوداوين وأنفه الأشم الذي يشبه أنف والده. وكان سليمان باشا على وشك الوقوع تحت تأثير بريق السحر الشاعري لنظرات المرأة الطويلة القامة ذات العينين السماويتين التي ظهرت أمامه فجأة إلا أنه تمالك نفسه. ومن أجل معرفة ماذا تريده هذه السيدة التي تراقبه منذ عدة أيام، نظر إلى الحارس الذي يعرف اللغة الرومية والذي جعله فرانوس بك برفقته على سبيل الاحتياط وسأل المرأة باللغة الرومية التي علمته إياها والدته نيلوفر خاتون قائلا:

لماذا تتعقبينني؟

المرأة ذات البشرة البيضاء طويلة القامة والتي ترتدي ملابسها السوداء وكأنها تقول بأنها من زمان أفروديت، عملت على رسم ابتسامة على وجهها واقتربت خطوة نحو سليمان باشا. الحارس المتأهب الذي شك في اقترابها، سحب سيفه من غمده على الفور ووضعه في وجه المرأة. نظرت المرأة للسيف وتراجعت هذه المرة خطوتين إلى الوراء. نظرت إلى سليمان باشا وقالت بصوت هادئ ووقور يتشابه ويتماشى مع قامتها الطويلة:

أنا أتتبعك منذ اليوم الذي رأيتك فيه لأول مرة في السوق. أنتم الحكام الجدد لقلعتنا. أنا سيدة أرملة تركها آخر الإسبان الذين ذهبوا إلى تيساليا وأثينا. إن أذنتم لي أريد أن أكون في خدمتكم.

لما لم يتمكن سليمان باشا أن يفهم جيدا جملها الطويلة التي قالتها بسرعة، سأل الحارس الذي جعله أفرانوس بك برفقته قائلا:

هل تترجم ما قالته المرأة كلمة كلمة؟

بعدما ترجم الحارس ما قالته المرأة أيقن سليمان باشا بأنها لم تقصد سوءا بمراقبته فقال وهو يبتسم:

الآن لدي الكثير من الأعمال التي سأقوم بها اليوم. قل للسيدة عندما نحتاج إليها سأجعلهم يستدعونها. قال يكفي أن تدلك على مكان منزلها حتى نستدعيها وقت الحاجة، وبدأ نزول السلالم مرة أخرى بسرعة.

عندما أوضح الحارس ما قيل للمرأة، ابتسمت ابتسامة خفيفة بيد أن تعبير وجهها لم يفهم منه إن كانت المرأة سعيدة بذلك أم لا. وذهبت بخطوات سريعة إلى المكان الذي يُرى منه منزلها. وبعد أن دلت الحارس الذي جاء خلفها على منزلها اختفت في شارع ضيق ممتد بين المنازل. وبينما كانت تسير نحو منزلها استدار الحارس وسار للحاق بالجنود الذين يتبعون سليمان باشا.

كان سليمان باشا قد غضب كثيرا على المرأة التي خرجت أمامه بينما كان يسرع من أجل مشاهدة خروج الجواد الأشهب إلى الميناء. لكنه عندما رأى هذا الجواد على رصيف الميناء نسي غضبه وكذلك المرأة في فترة وجيزة. ووصل إلى الجواد الأشهب الذي يمسك السائس بلجامه بسرعة. سر

سليمان باشا سرورا عظيما عندما وصل إلى جانب الأشهب ذلك الحصان الذي أهداه إياه والده منذ أعوام والذي كبر في اصطبلات قراسي والذي رافقه في ساحات الوغى لأعوام. داعب رأس وغرة الحصان ومسح بيده على عنقه وأنفه وكأنه يقول: " كنت قد أردت المجيء لاستقبالك وأنت تنزل من الشاحنة بيد أنني تأخرت ". حك الجواد الأشهب أنفه بكتفه وكأنه يقول: "المهم هو مجيؤك لاستقبالي ". تلاقت عيونهما ونظرا لبعضهما لفترة باشتياق. قال الأمير وهو يحك رقبة الحصان : " كان جيد المرأة ناصع البياض". نظر حوله مترددا وكأنه خجل مما قال وتعجب من تذكره المرأة التي ظن أنه نسيها. ولم يستطع أن يعير اهتماما ولو للحظة لورود المرأة على باله. وفي الواقع، فإنه كان دائم التفكير في المرأة طوال الفترة التي كان فيها مع حصانه. وفي رغبة منه في إخراج المرأة من تفكيرة ولإرادته وعدم إعطائها أي اهتمام حدث نفسه قائلا "يوجد لدي رجل يكفي لخدمتي!". ومن أجل التخلص من الأفكار التي تدور في عقله نظر إلى الشاحنة الثانية التي تقترب من الميناء. وعندما بدأ نقل الجياد التي خرجت إلى الميناء من الشاحنة الثانية قال للسائس الخاص به:

علينا ألا نذهب به إلى القلعة عبر السلالم، فليكن قريبا من خيمتي مع بقية الجياد. فسنرحل غدا على أية حال. أعاد اللجام الذي أعطاه له السائس قبل قليل. وعندما رأى الحاج إلباي قادما نحوه مشى متجها إليه. كان الحاج إلباي قادما نحوه ليستقبل حصانه الأدهم هو الآخر. ثم أتى و هو يحدث نفسه قائلا "أنا وهذا الأشيب نحب أدهمي كثيرا. ما كنا سنستريح أبدا لو لم نستقبلهم هنا. بدا واضحا اشتياقه لي من خلال إدخاله رأسه تحت إبطي واحتكاكه بي". قال سليمان باشا الذي رآه يقترب:

أنت أيضا اشتقت لحصانك مثلي ...

قال الحاج إلباي مبتسما: كيف لا أشتاق يا أميرنا. لأعوام لم أفارقه لمدة طويلة بهذا القدر. ليتك رأيت إدخاله رأسه تحت إبطي ...

سليمان باشا: حصاني أيضا لم يترك من هذا شيئا. ألم يداعب كتفي بأنفه وكأنه لم يكتف بوضع رأسه على كتفي؟

الحاج إلباي: لم نكن قد شاركنا في حروب بجيادنا السابقة. ولكننا في ساحات الوغى منذ سنوات مع هؤلاء. وشاركناهم حتى في المكان. لعل حبنا لهم وارتباطنا بهم لهذا السبب.

سليمان باشا: أظن أن حبنا الشديد لهم نابع من وحدة القدر التي تجمعنا بهم...

نظر الحاج إلباي إليه مبتسما وقال: يا أميرنا، يتغير تفسيرنا للحب كلما جلسنا كثيرا مع العلماء.

سليمان باشا: تعلم أنني إنسان واضح المشاعر والفكر أيضا. أثناء قدومي إلى هنا قبل قليل خرجت إمرأة في طريقي. وعلى الرغم من أنني نظرت لوجهها للحظات، فإننى عندما كنت أداعب الأشهب لاحظت أنني أفكر فيها لوهلة.

نظر الحاج إلباي إلى سليمان باشا الذي يرتدي ملابس الأمير وقال: هل تعمدت الظهور في طريقكم، أم كان ذلك مصادفة؟

سليمان باشا: أظن أنها هذه المرة تعمدت الظهور في طريقي.

الحاج إلباي: إن كانت قد ظهرت في طريقكم قاصدة فلابد أنها قد رأتكم من قبل...

سليمان باشا: كانت تتعقبني منذ يوم مجيئنا إلى هنا ...

نظر الحاج إلباي إلى الحراس الموجودين إلى الخلف منهم بخطوات... وقال:

هل ترجم رجل أفرانوس بك ما قالته المرأة؟

نعم...

وهل عرفتم مكان بيتها؟

أجاب قائلا: لم أستطع التحدث معها كثيرا حيث كنت أريد الوصول بسرعة إلى الميناء. أظن أن رجل أفرانوس بك عرف أين يكون بيتها.

تحدث الحاج إلباي مع الجنود الذين يقفون إلى الأمام منهم على مسافة قريبة واستدعى رجل أفرانوس بك. وبعد أن تحدث معه استدار نحو سليمان باشا وقال:

سيجمع المعلومات عنها ونعلم ماذا تريد. مشى نحو القلعة وبدأ في صعود الدرج وكأنه نسي ما قالوه. ومن خلفه مشى سليمان باشا أيضا. وبينما كان سليمان باشا يتبعه أحس بنشوة طفولية تغمر قلبه. وبينما كان يحاول تفسير البهجة التي تغمر قلبه، خرج من بين شفتيه صوت غريب يشبه الصفير. ضحك مقهقها على هذا الصوت. عندما سمع الحاج إلباي ضحكه استدار نحوه. وعندما شاهد السعادة الطفولية التي تغمر وجه الأمير انفجر

ضاحكا هو الآخر. وبعدما انتهى ضحكهم وبينما كانا يصعدان الدرج بجوار بعضهما قال الحاج إلباي:

لا أعلم ما الذي أضحككم يا أميرنا، ولكن لم تكن قد ضحكت فرحا على هذا النحو منذ وقت طويل. الضحك مصدر البهجة. ليتنا نستطيع أن نضحك كثيرا!

قال سليمان باشا وهو يلمح إلى أن ضحكه لم يكن له أية علاقة بالموضوع الذي حكاه قبل قليل:

يا حاج أنا لست عجوزا ولا عاطفيا كذلك مثلك... نسيت منذ كثير ما حكيته منذ قليل. إن سبب ضحكي، أنه عندما كنت أنظر في الماضي إلى هنا من الشاطئ المقابل، كانت القلاع تبدو بعيدة علي ولا يمكن الاستيلاء عليها؛ حيث كنت أعتقد أننا لن نستطيع الوصول إلى هنا لقرون. الآن نحن نتجول في تلك الأنحاء البعيدة. فضلا عن هذا فإن بعض تلك الأنحاء البعيدة تحت سيطرتنا الآن. هذا هو ما أضحكني وجعلني أتعجب. وبعد ذلك قال بصوت هادئ: لا أعلم إن كان هذا بشير خير أم لا البتة.

الحاج إلباي : يا أميرنا، إن ما علمته وما توصلت إليه طوال حياتي، أن كل شيء مقدر في الحياة. ولا يعلم الإنسان ما هو الخير وما هو الشر. ولكن لا تنسى، ستبدأ حيل بيزنطة بعد علمها باستيلائنا على قلاعها.

أتوق كثيرا لمعرفة ألاعيب بيزنطة العجوز التي تقف بصعوبة على أقدامها.

لا تقلق أبدا يا أميرنا، سوف تعلمون قريبا. ولا تنخدعوا بتقدم عمرها مهما كانت عجوزا ستجد حيلة تفعلها. أتيت للاستيلاء على القلاع بهذا القدر من السهولة. عندما نأتي للاستيلاء على القلاع بهذه السهولة فإنني أعتقد بأننا مدينون قليلا في هذا إلى كل من اليونانيين والإسبان. لو لم يرهقوا السكان الموجودين هنا بهذا القدر، ما كان هذا العمل ليتم بهذه السهولة. لا أدري ما هو مقدار معلوماتكم عن شعب هذه المنطقة، ولكن لا يوجد أي شعب آخر يحب أرضه مثل هذا الشعب. يجب ألا نضيق عليهم في حياتهم. إن وقوع أكثر الحروب دموية في الماضي على هذه الأراضي يبرهن على مدى حب سكان هذه المنطقة لوطنهم.

إن أطماع إمارة قراسي كانت مركزة على هذه الأراضي. ولذا، ففي عهد عجلان بك تم بناء أحد الأساطيل حتى وإن كان صغيرا من أجل العبور إلى هذا الشاطئ. بيد أننا لم نتمكن بسفننا الصغيرة تلك لم نستطع مجاراة قراصنة بحر الجزر، ولكن استطعنا أن نمنعهم من الاقتراب من شواطئنا. ولكن العبور إلى هذه الضفة من البسفور كان هو أكبر ما يطمح إليه عجلان بك الذي حافظ على أسطوله كقرة عينه. بيد أن العمر لم يسعفه لتحقيق ذلك. بعدما توفى عجلان بك حاكم قراسي فإن أبناءه لم يحافظوا على أراضيه، بل قسموها فيما بينهم. وفهمت أن أبناء قراسي في تلك الأثناء كانوا قد أدركوا حاجتهم لقوة توحدهم معا. إن ما أريد قوله هو أنني عندما كنت أخدم في إمارة قراسي كنت أشعر براحة وسعادة هذه الأراضي. حتى أن أولى حكايات الحب التي سمعتها كانت حكايات الحب التي تحدثت على هذه الأراضي.

هل تعني أنه توجد حكايات حب أخرى وجدت على هـذه الأراضـي غير حكاية الراهبة وابن الملك التي حكاها أفرانوس بك.

نعم يا سيدي منذ وجدت هذه الأراضي كانت مسرحا لحكايات الحـب المرة. نحن لم نكن نعلم لكن أينما كنا نذهب إلى أي مكان على أراضي إمارة قراسي كنا نسمع حكاية أخرى. حتى أنه يوجد بين هذه الحكايـات، حكايـة مثلها اندلعت من أجلها الحروب. حيث حدث هذا في أحد الأماكن الموجـودة في غرب إمارة قراسي. كان قاطنو تلك الأنحاء يطلقون عليها المكان الـذي يرويه سكاماندرو. في هذا المكان الذي يرويه سكاماندرو كان أهل طـروادة يعيشون كأسعد مجتمع في قلعة طروادة في عهد الملك بريام. أحـب الابـن الأصغر للملك بريام إحدى الملكات التي كانت تعيش على الشواطئ الأخرى لبحر الجزر فقام باختطافها، وأتى بها إلى طروادة التي تشبه كثيـرا قلعـة أفراسياب.

إن كل ملوك الشواطئ المقابلة الذين وقفوا ضد هذا الحـب، والـذين أرسلوا أحد الأساطيل إلى هناك، لدرجة أنه عندما وصـل الأسـطول أمـام طروادة كان لا يرى وجه البحر من كثرة السفن. وفي تلك الحـرب التـي استمرت لسنوات وبعدما سالت الدماء لأيام من نهر سكامندروس إلى ميـاه البحر، توسل النهر الذي لم يستطع تحمل أنين الجرحى الذين حملهـم إلـى أخيليوس الذي لم يهدأ غضبه قط.

لكن أخيليوس الغاضب لم يستطع إخماد أسى قلب باتروكولوس بـأي شكل من الأشكال، نفد صبر سكامندروس لتألمه لعـدم اسـتطاعته تهدئتـه، فصب الماء بجام غضبه وأفاضه وراء أخيليوس. ولما لم يستطع الوصـول

لأخيليوس بنفسه طلب من جاره نهر سيمويس المساعدة. أخيليــوس الــذي أدرك أنه لن يستطيع التغلب عليه بمياه النهــرين، توســل لآلهــة الــزمن لمساعدتهم. بيد أن آلهة الزمن استطاعت حمايته إلى أن انغرس السهم فـــي كعبه...

قال سليمان باشا الذي استمع باهتمام للحاج إلباي الذي حكى عن إحدى المذابح المرعبة التي سمعها بأسلوب محبوك وشيق:

في الحقيقة ازددت شغفا، لطروادة ونهر سكامندروس...

ربما لا يكون كل من طروادة وسكامندروس شيئين حقيقيين ... وربما يكونا قد وجدا في زمن ما. أو ربما تغيراسماهما إلى أن وصل إلينا.

حسن لنترك معرفة كونهما حقيقيين أم لا لوقت آخر، ولكن ترى هــل ما فعله هؤلاء الإسبان بالناس الموجودين هنا حقيقة واقعة؟

بالتأكيد حقيقة واقعة. هؤلاء أيضا أتوا متطوعين مثل اليونانيين لكنهم عندما رأوا قلاع البيزنطيين الثرية، فكروا في أن " كل القلاع ستكون مجالا للنهب. " وشرعوا في نهبها. وعندما تحولت عمليات ســلبهم ونهــبهم إلـــى الوحشية أرسلهم الإمبراطور إلى البلقان. وعند عودتهم من هناك فإن شريك أدرنة الذي أقام إحدى الولائم على شرف رئيسهم روجر بلوم، أعمل السيف في رئيسه ورجاله. أما البقية الباقية منهم فإنهم لم يتركوا شــرا إلا وفعلــوه أثناء انسحابهم إلى غرب وجنوب تراقيا من أجل إيجاد ملجأ لهم. قسم مــنهم الآن في قلعة بيكاسي. ولنا حساب معهم منذ قدومهم إلى بيكاسي. كــل مــا نتمناه أن يمد الله في أعمارنا ونصفى حسابنا معهم.

قال سليمان باشا الذي نظر إلى الحاج إلباي من فوق كتفه:

لا سيما أن استقرارنا على هذه الضفة استقرار تاما أيسر من الضفة الأخرى. فنحن من هنا، وكذلك أورخان غازي إن جاء من بورصه سنحاصر هؤلاء في بيكاسي. ولكن يجب قبل أي شيء إنشاء جسر فوق الدردنيل.

أما الحاج إلباي الذي ينظر إلى سليمان باشا، دون أن يلاحظ احمرار شعره الأبيض بانعكاس حزمة أشعة الشمس التي تشبه الصينية المستديرة المصنوعة من حمرة إزنيك، التفت نحو جاليبولي. وبعد أن قاس الدردنيل بنظراته قال وهو يبتسم:

يا أميرنا، إن أردتم ستأخذون البحر ولو بالظلم مثل خشايارشا.

سليمان باشا:

يبدو أنك ستحكي اليوم كل الأساطير التي تعيش هنا. كنت قد استمعت أيضا لعاشق باشا من بورصه عن مجيء خشايارشا إلى هنا ولكني لم أسمع عن استيلائه على البحر ظلما، قالها ثم سار مباشرة إلى بناية مقر القيادة ذات الجدران الحجرية.

(٢٢)

عندما اقتربت الشاحنة الشراعية الكبيرة ذات الزوايا الثلاث والتي تحمل شعار النسر البيزنطي من ميناء كريس، خرجت إلى الميناء العربات المزينة الثلاث، والتي تجر كل منها ثمانية جياد في إثر بعضها بعضا. جاءت عربة الإمبراطور المزينة إلى الميناء من خلف العربة الأولى، وكان يوجد على جانبها راية منقوش عليها رمز الإمبراطورية، وعلى جانبها الآخر كانت توجد راية سفارة السلام البيضاء. وأما العربة المزينة الثالثة التي أتت إلى الميناء من خلفهما فكانت تحمل الخدم ومستلزمات الرحلة. كان حراس العربات الواقفون على أقدامهم في أماكنهم، والفرسان الذين يرتدون الدروع والذين يجلسون منتصبي القامة فوق جيادهم التي تسير بجوار العربات كالسلال الموجودة في الزوايا الأربع للعربة والذين كان كل واحد منهم يشبه تماثيل بيزنطة.

بعد عدة أيام من عودة الرسل الذين أبلغوا أورخان غازي برغبة الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس في مقابلته إلى القسطنطينية، أُرسلت الرسل إلى رئيس مفتشي بلدية كريس التي سماها الأتراك باسم آخر، وكان رئيس مفتشي بلدية كريس قد أصدر أوامره باتخاذ كافة التدابير اللازمة في كل من الميناء والطرق التي سيمر فيها الإمبراطور على حد سواء، وفي الميناء كذلك، وكان قد تم إعداد وحدة من الفرسان لمرافقة قافلة الإمبراطور

يوحنا كنتاكوزين السادس من الميناء إلى القلعة. قلق قاطنو كريس الجدد الذين شاهدوا تأهب الوحدة العسكرية في الميناء في ذلك الصباح فهرولوا نحو الميناء. وعندما ظهرت عربة الإمبراطور الفخمة في الميناء استقبلوا ضيوفهم بالتصفيق والتهليل. وبينما كان الإمبراطور يقف في عربته متأثرا بهذا الاستقبال غير المتوقع ومحييا المجتمعين المبتهجين، الذين كانوا عند قدومه يتطلعون لعربته الفخمة بأعين شاخصة وكأنهم كانوا يشاهدون عربة أفراسياب التي سمعوا عنها في الحكايات. وعلى الرغم من شغف القاطنين الجدد على هذا النحو فإن سكان كريس المحليين لم يظهروا بشكل كبير بين الموجودين. لا أحد يعلم هل كانوا مستائين من إمبراطور بيزنطة و سعداء كثيرا بالحكام الجدد، أم أنهم كانوا يتصرفون على هذا النحو نتيجة خوفهم. عندما لم ير كانتاكوزين السادس سكان كريس الأصليين بين المهاجرين الجدد الذين يطلق عليهم "أشباه العراة" وهو ينظر من نافذة عربته، التي فتحت ستائرها؛ حدث نفسه قائلا "لم يأتوا بسبب خوفهم". إلا أنه لم يمض الكثير من الوقت حتى رأى سكان كريس البيزنطيين القدماء يخرجون على جانبي الطريق في مجموعات ملوحين له بأيديهم، فمضى قائلا "هذا ليس ناتجا عن الخوف بل ربما كان بسبب امتعاضهم أيضا". لكن عندما أدرك بعد فترة أن خروج المصطفين على جانبي الطريق لم يكن من أجله وإنما كان من أجل مشاهدة عربته الفخمة شعر بنقص ما بداخله. وتمتم بشفتيه الغليظتين قائلا "ما أسرع أن يعتادوا على حياتهم الجديدة". وفي الوقت الذي توقفت فيه حركة شفتيه انتقل إلى حركة التفكير في عقله. وهذه المرة انسابت جملة من بين شفتيه فقال "هل هناك حلول أخرى أمام شعبنا الذي لم نستطع رعايته غير

إظهار اللطف لسادته الجدد؟". أحس بشفتيه يصيبهما الجفاف بينما اغتص وجهه بالعتاب كأنما تكدر بخروج هذه الجملة الانتهازية من فمه فجأة. والتفت وطلب الماء من خادمه الموجود في القسم الخلفي من عربته. شرب الماء من كأسه الفضي الذي مُد له من بين الستائر ثم استغرق في النظر إلى الخارج من جديد.

بعدما أسرعت الجياد السريعة القوية بالعربة ابتعدت كريس، وتوارى عن الأنظار الناس الواقفون على جانبي الطريق، وبدأ الطريق يضيق بين حدائق الفاكهة مترامية الأطراف. بعض أشجار الفاكهة الموجودة على جانبي الطريق الضيق كان قد أسقط أوراقه منذ فترة، وكان يوجد على البعض منها ثمار الفاكهة وأوراقها الزاهية متعددة الألوان. كانتاكوزين السادس الذي نظر لأشجار الفاكهة المزينة وكأنها تشبه العروس المزينة ليلة عرسها حدث نفسه قائلا: " آه لو كنت في الماضي لأوقفت العربة، على الأقل كنت سأقطف بعض ثمار الفاكهة. حتى وإن كنت لن أتناولها فعلى الأقل كنت سأسعد بقطافها. وكانت ستنبعث بداخلى البهجة والسرور عندما تلمس أطراف أصابعي ثمار الفاكهة. ولكي أطيل لحظات السعادة تلك كنت سأختلق لنفسي ألف عذر وعذر وكنت سأنتظر تحت الأشجار. أما الآن فالحال ليس كذلك، فأنا لا أطيق لمس الفاكهة ولا حتى النظر إلى الحدائق، لا أدري ما السبب. في سنوات شبابنا كنا نأتي مع أندرونيكوس إلى هنا كثيرا. في ذلك الوقت كنت أيضا لا آكل الفاكهة التي كنت أقطفها. ولكنني كنت أستمتع كثيرا بقطافها. ذهب بخياله لسنوات شبابه وبعد أن استرد وعيه ورجع لنفسه لم يدرك هل أخذته سنة من النوم أم لا. حاول بجهد يائس إنقاذ نفسه من غفوة

النوم، بيد أن النوم كان قد احتضن بدنه بذراعين ناعمتين جذبتاه إلى حضنه الدافئ منذ فترة. ولم يخفف ذراعيه عنه حتى وصل إلى بنديك مكان استراحته الأولى.

عندما نزل الإمبراطور يوحنا السادس كانتاكوزين من عربته شعر وكأن إبرًا صغيرة توخز ساقه. ابتسم وورد بخلده " لقد أحكمت الشيخوخة قبضتها علينا. كنت آتي إلى هنا مع أندرونيكوس وعندما كنت أمضي اليوم كله فوق صهوة الجواد وأنا أصطاد كان الفتور لا يصيب أي جزء من جسدي. والآن صرت لا أتحمل حتى السفر ولو لبضع ساعات.". عندما رأى جبل أيدوس الموجود في الشمال وبينما كان يحدث نفسه قائلا" أيدوس الذي تهدر مياهه الباردة، والذي لم يتراجع عن حماية القلعة من رياح الشمال إلى الآن. ترى هل علم بأن صيد أورخان وفير جدا؟"، سمع صوتا يدعوه للاستراحة.

الرجل الذي دعاه للاستراحة كان يتحدث لغته التي يتحدثها. مشى خلف الرجل وعندما وصل أمام باب الحجرة التي سيستريح فيها استدار وقال لخادمه الذي يتبعه:

لنبق هنا حتى أتمدد وتستريح مفاصل ركبتي، ثم لنستمر في مواصلة رحلتنا. كلما أسرعنا في الذهاب والعودة كان أفضل...

بعدما دخل الإمبراطور إلى حجرة الاستراحة في نزل الضيافة ذهب خادمه إلى جانب قائد حرس الإمبراطور مهرولا. وأبلغه بما قاله الإمبراطور ورجع. وبدأ ينتظر أمام باب الحجرة التي دخلها كنتاكوزين السادس منذ

قليل. كان يعتقد أنهم سيمكثون هنا فترة طويلة نظرا لمعرفته أن الإمبراطور ممن يعشقون النوم، بيد أن هذا لم يحدث في ذلك اليوم. الإمبراطور الذي دخل إلى الغرفة منذ قليل من أجل الاستراحة، والذي عدل عن قراره بعدما أيقن بمجافاة النوم لعينه بمجرد أن تمدد على الفراش الواسع، غير قراره، وحدث نفسه قائلا "استمراري في السفر وأنا كسلان أفضل من النوم". وخرج إلى الخارج وقال للخادم الذي ينتظر أمام الباب:

امنحوا عطاء لصاحب النزل. ثم أمره بمواصلة الطريق من جديد.

الحراس الذين لا يحبون الانتظار وهم على أهبة الاستعداد في أماكن الاستراحة، وكذلك المرشدون فكانوا فرحين جدا بهذا الموقف. وفي الواقع فإن الإمبراطور يوحنا كانتاكوزين السادس لم يكن يرغب بشكل كبير في مغادرة القسطنطينية، ولا حتى في الخروج إلى هذه الرحلة، ولكنه كان قد خرج إليها مضطرا حتى يتنصل من مسئوليته عن عبور سليمان باشا للدردنيل. كان يفكر في لقاء أورخان غازي وجها لوجه وأن يفعل كل مافي وسعه من أجل التوصل إلى حل لهذه المشكلة، لكن بمجرد خروج عربته خارج السور بدأت تساوره الشكوك، وبدأت جملة " لو استغلوا غيابي وتحركوا " تدور في عقله بلا انقطاع. عندما دخل حجرة الاستراحة في نزل الضيافة كانت هذه هي الجملة التي طيرت النوم من عينه، ولهذا السبب كان قد خرج من حجرة الاستراحة دون أن يحصل على أي قسط من الراحة. وفي الحقيقة أنه عندما خرج من الحجرة كان يفكر في أن يقول لخادمه "هيا لنعد أدراجنا" لكن نتيجة شعوره بالخجل من قول هذا، لم يستطع التلفظ به، لأنه لو عاد أدراجه كان سيترتب على ذلك أن يدفع مقابل كل هذا؛ وكان

سيضطر لتحمل المسئولية أمام الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس شريك العرش وكذلك أمام عدوه اللدود البطريريك الموجود في القسطنطينية. ربما كان البطريرك كالاكاس الذي سيصل إليه خبر رجوعه سيسرع بالمجيء إلى قصر العمل ويواجهه بكل أعماله السيئة، وكان سيقول من بين أسنانه وهو يبتسم: هل عاد إمبراطورنا الحبيب بهذه السرعة لأنه لا يثق بنا.

كان الإمبراطور كنتاكوزين سيتحمل كل شيء، إلا أنه لا قبل له بأن يكون موضعا للسخرية. لم يكن يريد العودة إلى أيام النزاع القديمة مرة أخرى. الآن إحدى بناته في بورصه التي تخضع للعثمانيين، والأخرى في قصر الإمبراطور شريك العرش، وكانت زوجته إيرينا هي الإمبراطورة، وابنه ماتيوس أصبح حاكما لأدرنة بفرصة واتته بغتة، وحصل على لقب شريك عرش الإمبراطورية. ابنه الأوسط مانويل أسقف مرمرة، وأما ابنه الأصغر فعلى طريق تيسيا. الإمبراطورة الأم التي جعل حياتها جحيما بعد وفاة الإمبراطور أندرونيكوس كانت قد ابتعدت بإرادتها عن القسطنطينية. صهره وشريك العرش الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس ذهب وامتثل لأمره. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي استرجع كل هذا في ذاكرته لوهلة، حدث نفسه قائلا " لن أعاود أدراجي ولن أجعل من نفسي أضحوكة. ولا جرم أن هذا سيسر الحاقدين كثيرا..."، نحى فكرة العودة جانبا وركب عربته من جديد.

وبينما كانت العربة المزينة تسير بسرعة نحو نيكوميديا، عمل على استمرار تهدئة نفسه بتلك الخواطر التي تجول في عقله. في الحقيقة لم يكن يريد القيام بعمل أي منها أبدا، لكن كان هذا بتأثير سلسلة الأفكار والخواطر

التي كانت تأتي وتذهب تحت تــأثير الشــكوك الموجــودة بداخلــه. كــان الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس لا يغلق عقله على مثل هذه الأفكــار قائلا:" ربما تتناقص شكوكي". لكن مهما فعل كان لا يستطيع التخلص مــن الشكوك التي تؤرقه وتزعجه. وكما لم يستطع التخلص مــن شــكوكه، لــم يستطع كذلك تناول أي شيء حتى حلول الظهيرة على الرغم من عدم تناوله لطعام الإفطار. كان الطعام الذي أحضره الخادم للذواقة لتذوقه قبل تحــركهم من مكان الاستراحة الأولى قد أصبح باردا. وعلى الــرغم مــن أنــه أراد التخلص من حالة الفكر هذه التي تسيطر عليه، وذلك بالنظر إلى الخارج من خلال نافذة عربته المفتوحة، وإزالة حزمة الشكوك الموجودة داخله وإلقائهــا بعيدا كلبدة مستديرة، فإنه لم يستطع النجاح في هذا. وعندما عاد إلى عالمــه الداخلي ثانية، أدرك أن قراره هو معاودة الأدراج. عندما مد يده لجذب حبل الجرس الصغير المعلق فوق رأس رئيس الخدم الذي يجلس إلى جوار سائق العربة، ولسبب غير معلوم شخص أمام ناظريه خيال ابنتــه ايلينــا جميلــة الجميلات ذات البشرة البيضاء. ابنته وهــي تنظــر إليــه حزينــة بعينيهــا السوداوين اللامعتين الثاقبتين اللتين تتحركان بسرعة وبشكل مرتبك وكأنهما ستخرجان من محجريها قالت له وهي تنظر إليه حزينة مهمومة:

لا تفعل هذا يا أبتاه.

الإمبراطور كنتاكوزين السادس الذي سمع صوت ابنتــه قادمــا مــن الأعماق، نظر أمامه وكأنه قد خجل من تفكيره في العودة. وظلت يده الممتدة نحو حبل الجرس الصغير معلقة في الهــواء. نهــض و أمســك بــالمقبض الموجود في سقف العربة. وبينما كان يفتح رجليه إلى الجانبين كي لا يقــع،

فتح بيديه اللتين ظلتا في الهواء ستارة النافذة الثانية للعربة والتي لـــم تكـــن مفتوحة. شاهد لمدة عدو الجياد القوية التي تجر العربة وكأنها تسابق الريح. وكلما ازدادت نشوة ذلك السباق الموجود بداخله شعر بأن الشكوك الموجودة بداخلة بدأت تتلاشى. وبعد أن جلس مكانه وهو يمسك بالمقابض نظر إلـــى غطاء إناء الطعام المغلف بالقصدير الموضوع فوق المنضدة المنخفضة عن ركبتيه. مد يده ولمس الغطاء. وما إن لمس غطاء الإناء قضى جوعه علـــى كل أفكاره. رفع غطاء الإناء وبدأ في تناول طعامه. إن حارسه الموجود في القسم الخلفي والذي كان يشاهد تناوله لطعامه من خلال فتحة موجودة فـــي الستارة، بمجرد أن انتهى من تناوله للطعام قام بجمع كل الأشياء الموجـــودة فوق المنضدة بسرعة وأغلق ستارة القسم الخلفي. الإمبراطور الـــذي قـــال لخادمه بأنه لن يشرب شيئا، تمدد على الأريكة التي سيجلس عليهـــا وهـــو يداعب معدته المتخمة بالطعام. وبينما ينظر إلى الخارج من النافذة التي تبدأ من جانب المكان الذي أسند إليه ظهره، سمع صوت سائق العربة. حيث كان سائق العربة الذي كان عندما يمر بالقرب من أية قلعة يقول اسمها بصـــوت مرتفع. كان سائق العربة هذه المرة قد صاح قائلا: ليبيسا.

إن المرشدين الذين هم من الفرسان العثمانيين والذين لم يعتادوا علـــى هذا وإن كانوا قد أبطأوا من سرعة الجياد هذه المرة، كما كانوا يفعلون عنـــد كل صرخة يصدرها سائق العربة إلا أنهم عندما رأوا مراقبته لهم ولســـرعة العربة وخزوا جيادهم مرة ثانية. كنتاكوزين الذي أخذ ينظر إلى قلعة ليبيســـا لفترة حل نوع من الارهاق على نظراته كما حدث في الصباح، ومن ثم حل الإرهاق على بدنه واستغرق في سبات عميق.

الإمبراطور كنتاكوزين السادس الذي استيقظ عندما ضربته الشمس من النافذة الموجودة في مؤخرة العربة أخرج الصليب وصلى، حينما جلس ناظرا إلى الطريق الذي تقطعه الخيل، سحرت عينيه لما رأى من النافذة الموجودة عن يمينه مداعبة وميض الأشعة الحمراء التي تتمايل على الخليج لزرقة المياه بتوهجات الومضات التي تتلألأ على سطح المياه وكأنها قطع بلورية. عندما جال بخاطره انطفاء لمعان الأومضة المتلألئة على سطح البحر وكأنها قطع البلور المتناثرة واختفاء تشابك الألوان المتعددة التي تشبه النجوم فوق مياه البوسفور المتحركة، قال للخليج بنبرة صوت حزينة:

يا سينوس! في الحقيقة أنت أيضا كنت أكثر امتاعا من كل من بسفورنا وقرننا الذهبي. الآن فهمت سبب تضحية الأمير كالو بنفسه من أجلك، وسبب عدم رغبة الأميرة ماريكا في المجيء إلى القسطنطينية. الأمر الذي يعني أن الاثنين أدركا جمالك قبلنا. وفي الحقيقة فإن الأميرة بعد أن ابتعدت عن هذا المكان لم تستطع العيش كثيرا، لأنها لم تستطع تحمل الابتعاد عن هذا الجمال. قالها بصوت عالٍ ثم استغرق في مشاهدة جمال الخليج الخلاب ثانية...

وصلوا بعد حلول المساء إلى قلعة نيكوميديا التي يطلقون عليها بلدة أقتشا قوجه العثمانية. في تلك الأثناء كان إيجود بك قد تولى إدارة القلعة بالوكالة بعد أن عهد إليه بها الأمير خليل نظرا لمشاركته أورخان غازي في الحرب التي كانت موجودة على الحدود الجنوبية للإمارة. إيجود بك الذي علم باقتراب عربة الإمبراطور من القلعة، أمر على الفور بتجهيز الغرفة الكبيرة التي كانت تقيم بها وصيفات الأميرة ماريكا لسنوات باعتبارها مقرا

لاستراحة الإمبراطور كنتاكوزين السادس. وعلى الرغم من تأخر وصول عربة الإمبراطور إلى القلعة عن الموعد المقرر، فإنه لم يُقَصر في الخدمة، وتم عمل مراسم الاستقبال الخاصة به على الوجه الأمثل. بعد إقامة مأدبة إفطار رائعة في الصباح الباكر، وكما تم استقباله في المساء تم وداع الإمبراطور بإقامة مراسم وداع مهيبة تليق بالإمبراطور بمناسبة ذهابه إلى نيكوميديا.

الإمبراطور البيزنطي يوحنا كنتاكوزين السادس، كان قد أصابته الدهشة منذ وطأت قدماه القلعة حتى مغادرته لها، بسبب النظام الرائع، الذي لا مثيل له، الموجود في القلعة رغم عدم مشاهدته لأحد قط. لم يكن هناك تقصير في خدمته، لكنه لم ير أي خادم قط ولم يزعجه أي أحد. كما أنه أيضا لم ير حاكم القلعة إلا أثناء عمل مراسم الاستقبال والوداع. وعلى الرغم من رغبته في الحديث معه، فإنه كان قد عدل عن فكرة الحديث معه عندما رأى أنه " يمكن أن يتعامل مع حاكم يكون نِدا لإمبراطور فقط".

عند وصول جياد السفر التي تجر العربة إلى برينتوس متجهة عند منطقة المقدمة التي تمتد تجاه بحيرة سينوس كانت قد تجاوزت جبال سامان قبل الغروب بقليل، ولم تكن قد استطاعت الوصول لمياه سينوس ذات الأمواج الزرقاء التي كانت ترطم الشاطئ برفق حينما كانت تحيط جانب الطريق ببرودة الصباح كانت وكأنها تنادي حرارة الشمس.

كانتاكوزين السادس الذي أخذ ينصت لفترة للصوت الذي تصدره الأمواج الصغيرة وهي تضرب الشاطئ، ودون أن يفكر في أي شيء حتى وصل إلى قلعة برينتوس المشهورة بأوراقها التي تشبه أوراق البردي

المصري؛ استغرق في النظر إلى رحابة وهدوء المياه الزرقاء للخليج التـــي تتحرك بهدوء. فإذا كانت القلعة قد سماها العثمانيون باسم أول قائد دخلها، إلا أنها لا تزال برينتوس بيزنطة التي تنظر باسمه إلى سينوس.

أما الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي شاهد عند دخوله القلعة قيام الراهب الموجود بجوار القائد الذي استقبل عربة الإمبراطور ورجالـــه بالترجمة، ومضى قائلا: " ما أسرع تعلمه للغة العثمانية ؟". وعلى الرغم من رغبة القائد في حصولهم على قسط من الراحة فإنه قال للإمبراطور:

أورخان بك سينتظرنا في نيكايا ... سيكون من الأفضل لو ظللنا فـــي قطع طريقنا حتى لا نجعله ينتظر أكثر. وانطلقوا فور اتخاذ مرشدي قائد قلعة برينيت مواقعهم.

(٢٣)

كان سليمان باشا وقادته يقودون جيادهم نحو الشرم الذي أقاموا عنده خيامهم المتنقلة حينما كانت الشمس تتجه نحو الدردنيل من فوق جبال بورصه مبددة زرقة أديم السماء. كان بصحبة كل القادة الذين وطأت أقدامهم معا شواطئ تشمبا. قال سليمان باشا الذي نظر إلى الشرم الذي زينته الخيمة الأميرية وخيام القادة المزركشة التي أقامها ناصبو الخيام التابعون لبالابنجيق أوغلو لأفرانوس بك الموجود إلى جواره:

ليكن هذا المكان هو مكان الاستراحة الأولى التي سيحصل عليها قواتنا الموجودة على الشاطئ الآخر بعد رحلتهم البحرية.

نظر أفرانوس بك إلى الحاج إلباي الموجود بجوار سليمان باشا من الناحية الأخرى وكأنه يطلب منه المساعدة ثم قال:

يا قائدي الآن سيكون هذا المكان جاهزا لاستقبالهم.

فهم الحاج إلباي ما يقصده أفرانوس بك. وقال بعد أن سعل سعالا جافا:

أتمنى أن يكون يوما سعيدا يا سيدي... لو أسكنا هنا قوات أخرى بخلاف قواتنا الموجودة على الضفة الأخرى فلن يسعنا هذا الشرم ولا شبه الجزيرة هذه. انظروا أهالي جنوة يقومون برحلاتهم إلى الشاطئ الآخر دون توقف. وسنطلب من بورصه قوات المشاة الأخرى بواسطة رحلاتهم هذه.

قال أفرانوس بك وهو يبتسم:

من الأفضل أن نعرض الأجرة على أهالي جنوة ... لن يتوانى رجال أهالي جنوة عن العمل ليل نهار إذا عرفوا بأنهم سيحصلون على أجرهم...

قال سليمان باشا:

ليت لدينا القوة التي تمكننا من الاستيلاء على السفن الأخرى التي تمر من المضيق ولكننا سنتمكن من نقل الكثير من المشاة والفرسان من الضفة الأخرى...

قال الحاج إلباي بصوته الصبور:

لا تقلق يا أميرنا، ألم تطأ أقدامنا هذه الأراضي؟، سنتمكن من سطح البحر يوما ما...

شاهدوا المراكب والشاحنات البحرية التابعة لأهالي جنوة الذاهبة نحو الشاطئ الآخر وكأنها منثورة على سطح البحر دون أن يتحدثوا عن أي شيء آخر إلى أن نزلوا عن صهوة جيادهم.

وفي الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه منذ أيام في ميناء مايدوس المنتجات التي سيحضرها القرويون من أجل شحن سفنهم، علموا أن الفرصة التي أتيحت لهم ما هي إلا غنيمة وبدءوا من فورهم في ممارسة عملهم، وكانوا لا يتوقفون لحظة في أماكنهم من أجل مضاعفة التي سيأخذونها مقابل كل رحلة سيقومون بها إلى الشاطئ الآخر. واهتموا بالعمل جدا، لا سيما بعد أن تم دفع أجرة رحلاتهم الأولى في الحال، وكانوا يشتغلون على ورديات ونقلوا المشاة والفرسان العثمانيين من أبيدوس إلى مايدوس. وكانت المشكلة

الوحيدة التي صعبت عليهم أعمالهم هي قلة عدد الأرصفة التي يمكن أن تقترب منها السفن في الميناء. كان يوجد في ساتوس الموجودة بالقرب من المكان ميناء قديم جدا ولكن كانت الشاحنات البحرية لا تستطيع الاقتراب منه نظرا لأن أرصفته لم تكن صالحة للاستعمال. كان أهالي ساستوس الموجودون على بعد مسافة قريبة من الشاطئ لا يستخدمون الميناء الذي حوله البيزنطيون الذين سئموا من ظلم اليونانيين وفقا لما يقوله البعض من أهالي القلعة ومن المقدونيين وفقا لما يقوله البعض الآخر إلى خرابة، من أجل الحيلولة دون مجيء الفرس إلى قلاعهم. حتى أن صيادي ساستوس كانوا يرسون بقوارب صيدهم في ميناء مايدوس. تحسر بحارة أهالي جنوة الذين نظروا إلى هذا الميناء القديم ونظرا لأنه لم يكن بوسعهم فعل أي شيء فإنهم كانوا ينتظرون دورهم ثم يقتربون من الرصيف ويقومون بتفريغ حمولاتهم، وكانوا يجلسون على مجاديفهم وينطلقون نحو أبيدوس فور تفريغ حمولاتهم. ابتسم سليمان باشا الذي تابع وهو يبتسم مدة عمل أهالي جنوة بهذا الحماس قبل أن يأتي إلى خيمته التي نُصبت على الفور، ثم ابتسم أثناء دخوله لها ابتسامة مشابهة لابتسامته تلك. قال وهو ينظر إلى صواني الإفطار الموجودة في المكان الواسع الموجود داخل مدخل الخيمة:

هيا أيها القادة لنتناول أولا طعام فطورنا الذي اعتدنا عليه والذي لم نستطع أن نتناوله معا منذ عدة أيام، ثم نقوم بتقييم الوضع بعد تناول الفطور.

مر القادة بهدوء وجلس كل ثلاثة منهم حول إحدى صواني الإفطار وكأنهم كانوا يعلمون أنه سيقول مثل هذا الكلام. جلس كل من سليمان باشا وأفرانوس بك والحاج إلباي حول إحدى الصواني. تذكر سليمان باشا الليل

حيث لم يلحظ جيدا الأعمال التي قام بها أفراد الخدمة في نظام محكم، أثناء مضغه أولى لقيماته. ولسبب ما كان قد أراد أن يخلو بنفسه لفترة بعد حكاية جسر سرهس التي حكاها الحاج إلباي. انزوى إلى الغرفة التي يقيم بها وكان يحاول عقد مقارنة بين إمارة والده وملك الفرس العظيم. كان يفكر في جناح حريمه الذي أسسته والدته من أجله أثناء قيامه بعمل هذه المقارنة. وبينما كان على وشك الاستغراق في التفكير بسبب الوحدة التي وقع فيها بعد فترة من سماع حكاية سرهس التي استمع إليها، طُرق باب الغرفة التي ذهب إليها وكأنه يركض، قال المراسل الذي شُوهِدَ من الباب المفتوح:

يا أميرنا أرسل الحاج إلباي إحدى السيدات لكي تلتقي بكم.

قال الأمير بصوت هادئ وهو يشعر بأنه مثل الضيف في الغرفة التي يوجد بداخلها وهو يرتدي ملابس الأمير:

أدخل السيدة وكذلك رجل أفرانوس بك.

كانت المرأة طويلة القامة، بيضاء البشرة، ذات العينين الزرقاوين التي ترتدي الملابس الحمراء التي تليق بها والتي تراقبه منذ مجيئه إلى القلعة قد انحنت إلى الأمام بعدما دخلت الغرفة وألقت عليه التحية، وكان هو الآخر قد أشار إلى أحد الأماكن حتى تجلس المرأة. بعد أن جلست المرأة مر هو الآخر وأثناء جلوسه على الفراش المرتفع، استنشق رائحة الزهور التي تشبه رائحة زهور الربيع التي ملأت الغرفة مع دخول المرأة ثم قال لرجل أفرانوس بك وهو ينظر إلى قوام الجسد المتناسق مع طول قامة المرأة:

سل المرأة من تكون، وماذا تريد مني. فضلا عن أنها كانت قد قالت عندما اعترضت طريقي إن لديها ما تريد قوله، ما الذي تريد قوله هأنا أنصت إليها.

ترجم رجل أفرانوس بك الذي يطلق عليه العاقل الحكيم، ما قاله سليمان باشا كلمة كلمة.

هدأت المرأة بسبب صوته الهادئ الذي يمنح الأمان. وقالت بصوتها الهادئ الناعم الذي يصدر من قامتها فارعة الطويل:

اسمي ايلوناي. أطلقوا عليّ الاسم الثاني لوالدتي. من بالقلعة لا يقتربون مني. أنا امرأة تعيش بمفردها في هذه القلعة منذ سنوات. وأرتزق من بيع الأقمشة المنسوجة في المنازل التي يحضرها القرويون على طاولتي التي أتنقل بها من سوق إلى آخر...

بعد أن ترجم رجل أفرانوس ذلك سأل سليمان باشا قائلا:

لماذا تعيش بمفردها، أليس لها أب أو أم أو زوج؟

بعد أن ترجم رجل أفرانوس بك ذلك، أصاب الذهول العينين الزرقاوين للمرأة التي قالت بصوتها العذب:

قتل الإسبان والدي قبل أن يذهبوا من القلعة، وأخذوا والدتي التي لم يبلغ عمرها العشرين معهم وذهبوا. كنت طفلة رضيعة في ذلك الوقت. إن أهالي القلعة يعتبرونني شؤما لأنهم يعتقدون أن الكارثة التي حلت بأسرتي مرتبطة بولادتي. وكبرت في رعاية الكنيسة مثل الكثير من أترابي. ولما بلغت سن الزواج تزوجت من أحد الشباب الذين تربوا في الكنيسة مثلي. وبدأ

زوجي في العمل على سفن أهالي جنوة. وكأن الرب لم يكتب لي السعادة، لم يرجع زوجي الذي كان يسافر إلى الأقاليم البعيدة ويعود من رحلته الأخيرة. قال البعض باختطافه من قبل القراصنة، وقال البعض الآخر بغرقه أثناء العاصفة. صدقتهم جميعا وانتظرت عودة زوجي لسنوات بيد أنه لم يأت. تركني أهالي القلعة الذين اعتبروا ذلك نوعا من الشؤم والنحس بمفردي تماما. وفيما عدا القرويين الذين أشترى منهم وأبيع لهم لا يوجد في هذه القلعة من أستطيع الحديث معهم.

كان سليمان باشا ينظر إلى جمال جيد المرأة أبيض البشرة أثناء سماعه حكاية المرأة التي حُكيت بصوت رقيق. وبعد أن فرغ رجل أفرانوس بك من ترجمة ما قالته، قال سليمان باشا دون أن ينتظر كثيرا:

حسن، ما الذي تريده مني هذه المرأة؟

عانت المرأة التي سمعت الترجمة، مدة آلام الشيء الذي تريده ولم تستطع أن تقوله. سأل سليمان باشا الذي أدرك معاناة المرأة ميسرا سؤاله قائلا:

ماذا يمكن أن أفعل من أجلها؟

ازداد اللمعان الموجود في عيني إيلوناي الزرقاوين التي أدركت من الترجمة بأن سليمان باشا قد خفف السؤال بإحدى الحيل الذكية. نحت ضيقها الذي حدث قبل قليل جانبا ثم قالت:

إنني ماهرة في العمل. وكما ترون لم يأت خدم أميركم بعد. سأكون سعيدة جدا بخدمتي له، إن أُعجب بعملي سأكون سعيدة إن جعلني ضمن خدمه عندما يأتون.

أدرك سليمان باشا تغير الأصوات الموجودة في قلبه كما فهم رغبتها في أن تبقى قريبة منه بحجة الحماية. كانت نظرات المرأة قد خرجت عن كونها نظراتها الأولى الخائفة، وصارت سهام نظراتها تصيب قلبه مباشرة. قال سليمان باشا الذي أدرك خفقان قلبه لرجل أفرانوس بك:

قل للسيدة لتذهب الآن إلى بيتها، وسأخبرها بقراري غدا.

إن سليمان باشا الذي أثرت النظرات الحارة الموجودة في عيني إيلوناي في قلبه أثناء ترجمة رجل أفرانوس بك الجملة الأخيرة، لم يستطع التخلص من التفكير فيها بعدما ذهبت، وكان قد وافق أن تأتي المرأة للخدمة في خيمته بعد أن تحدث في الصباح الباكر مع الحاج إلباي للحصول على موافقته. كان هذا القرار الذي اتخذه هو الذي جعله يستغرق في التفكير أثناء تناول القادة لطعام الفطور. وحدث نفسه بعد بلعه كل لقمة تقريبا، قائلا " لم يكن يجب أن يكون بهذه السرعة " وفي الوقت الذي كان على وشك اتخاذ قرار جديد قائلا " لتنتظر قليلا بعد فترة الوحدة الطويلة" أثناء بلعه لقمته الأخيرة، سمع أصواتا تأتي من الأقسام الخلفية للخيمة. وقال هو يمسح يده بإحدى الخرق المبللة " لقد فات الأوان". ثم نهض واقفا على قدميه. مال برأسه وخرج من باب الخيمة الكبيرة مثلث الشكل، ومشى نحو خيمة مقر القيادة. قال سليمان باشا بعد أن تربع كل واحد من الأشخاص الموجودين داخل خيمة المقر على مجلسه:

أيها القادة إن قلعة غاليبولي هي هدفنا القادم، ثم نظر إلى وجوه القادة ليقولوا رأيهم.

قال أفرانوس بك:

إنها أهم قلاع الدردنيل. إن استولينا على غاليبولي نكون قد سيطرنا على الدردنيل. يجب ألا تُخيفنا السفن الموجودة في الميناء فقط. لقد نقل أهالي جنوة المهاجمين، والمشاة والفرسان بالقدر الذي يكفي لمحاصرة القلعة من البر ولكن يلزمنا القليل من جنود بحريتنا من أجل السيطرة على الميناء.

قال الحاج إلباي:

لن نبرح هذا المكان حتى نستولي على غاليبولي. أفرانوس بك محق جدا فإنه يجب علينا أن نستولي أولا على الميناء من أجل الحيلولة دون وصول المساعدات القادمة والأخبار ستذهب إلى القسطنطينية. ولذا يجب أن نكون وحدات المتطوعين من جنود البحرية الذين انضموا إلى مهاجمي البحر من بين مهاجمي قراسي في المستقبل.

تم تقسيم المهام من أجل حصار تراقيا ومن أجل التقدم في تراقيا خطوة خطوة بعد الحصول على آراء وأفكار كل القادة الذين تحدثوا بالدور. وتم تكليف كل من فاضل بك وبالابنجيق أوغلوا بمهمة تحقيق الاتصال الموجود بين قادة القلاع الجديدة مع إدارة المغيريين، وأقجه قوجه أوغلو وأفرانوس بك بمهمة إدارة استقبال القوات التي يتم نقلها بالسفن والشاحنات البحرية والدفع بهم وعمليات الإنزال التي ستتم في ميناء غاليبولي، والحاج إلباي قيادة قوات المشاة، وإيجه بك مساعدة سليمان باشا وسليمان باشا بقيادة قوات الفرسان. فرح القادة المكلفون أثناء مسامحتهم بعضهم بعضا بعد الاجتماع كما يحدث في كل مرة وكأنهم كانوا سيلتقون غدا مرة أخرى.

قامت وحدات الفرسان والمشاة الموجودة في مقر القيادة بعمل استعداداتهم وتحركوا من أجل حصار قلعة غاليبولي من البر أثناء انطلاق الوحدات الهجومية الصغيرة من بعد ظهر ذلك اليوم بغية منع وصول المساعدات التي ستأتي من الشمال والشمال الغربي.

لم يستطع سليمان باشا الذي هو على اتصال مستمر مع الوحدات الأمامية أن يجد تفسيرا لتوقف جواده الذي يتقدم ممشوق القامة تحت ضوء البدر الذي يشبه لون العسل الأصفر الغامق المصفى فجأة. مد بصره نحو مارمارون التابعة للبيزنطيين أثناء نظره إلى المنطقة المحيطة وكأنه مندهش لاستغراقه الذي استمر طويلا جدا. حدث نفسه وهو يشاهد تلألؤ الومضات فضية اللون التي شاهدها قائلا " وكأنهم ركبوا فوق الأمواج". ترجل عن جواده، وأحس برغبته في الركض نحو البحر ولكن الجواد الأشهب الذي فهم ما يدور برأسه صار عصبي المزاج وأدار رأسه نحو الشرق ومشى. بعدما دقق سليمان باشا الذي ارتاب في الأمر بسبب تعصب الجواد الأشهب على هذا النحو النظر فيما حوله شاهد الهوة السحيقة الموجودة في الجهة الأخرى على بعد عدة خطوات. وسمع أصوات الأقدام التي تقترب نحوه وهو يداعب غرة الحصان الأشهب.

(٢٤)

تركت الجياد التي تجر عربة الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس، الطريق الواسع الموجود على شاطئ البحيرة، وملأت داخل العربة برائحة الفواكه الناضجة أثناء تقدمها على الطريق الموجود بين البساتين والحدائق التي تُرى وكأنها لا نهاية لها من أجل التسابق مع نسيم الشمال الذي يأتي إلى صدورها. أخرج الإمبراطور رأسه من النافذة المفتوحة والذي كان يستنشق الهواء المُعَبَّق برائحة الفاكهة وهو يحدث نفسه قائلا: "كنت قد سمعت بالمشاكل المشهورة لهذا المكان، ولكن لم أكن أعلم أن فاكهته كثيرة ومتنوعة إلى هذه الدرجة"، ثم نظر نحو القسم الخلفي للعربة. ظل فمه مفتوحا من الدهشة بعدما رأى اللون البنفسجي المعكوس من البحيرة التي تُرى أحيانا من بين أشجار الفاكهة إلى أديم السماء. أفاق لنفسه بفعل تأرجح العربة أثناء حديثه لنفسه وهو ينظر إلى الشمس الساطعة الموجودة على البحيرة الزرقاء التي لم تنفض عن نفسها خُمار الصباح قائلا " هذه أيضا واحدة من ألعابك". أثناء جلوسه على الأريكة ممسكا بأطرافها حدث نفسه قائلا " العثمانيون لا يخربون القلاع، ولا يدمرون البساتين". وجلس فترة على الأريكة دون أن يفكر في أي شيء. وبدأ ينظر إلى الأوراق متعددة الألوان التي تزين أغصان الأشجار بعدما مل من الجلوس دون تفكير على هذا النحو. واستمر في النظر من النافذة إلى الخارج حتى اجتازت الجياد القوية التي تجر العربة، بسرعة

الحدائق التي تزين السهل والتلال التي تعقبه وإلى أن بدأت تتقدم بين الهضاب التي تتزايد عليها أشجار الصنوبر الحمراء شيئا فشيئا. لما رأى الأشجار ذات الأوراق الشوكية أكثر اخضرارا من الأشجار الأخرى، فكر قائلا " الأوراق العريضة من أجل تبريد حرارة السهل، والأوراق الشوكية من أجل عدم الشعور بالبرد عند هبوب رياح الجبل". قطّب وجهه وكأنه لم يعجب هو الآخر بتفكيره. نظر إلى أشجار الفاكهة البرية التي تقف مثل الضيوف الحائرين الذين لا يعرفون أين سيجلسون بين أشجار الصنوبر التي ترتفع قاماتها شيئا فشيئا. وظلت نظراته تتابع هذه الأشجار وعندما ابتعد رأى قلعة تريكوكيا الموجودة على قمة التل المقابل. كانت نظراته تهرب منه وكأنها كانت تنزلق إلى الماضي وامتدت نحو سنوت الشباب. تذكر قراءته هو وأندرونيكوس شريك العرش للعبارة" تريكوكيا فنار البيزنطيين الذي أطفأه اليونانيون " المدونة على جانب أحد الجدران الداخلية للقلعة في اللحظة ذاتها عندما كانا يقفان إلى جوار بعضهما. وفاضت عيناه بالدموع. نظر نحو قمة جبل قاطرلي أثناء رشح طرف أنفه ثم كرر قائلا " فنار البيزنطيين الذي أطفأه اليونانيون". غاصت العربة التي تقطع طريقها بين المنحنيات والمنعطفات الموجودة بين التلال في أحد الأودية الذي يزينه بحر من الأشجار الخضراء أثناء استغراقه في رحلته إلى الماضي على هذا النحو. في البداية اختلط هذا اللون المميز الموجود فوق البحيرة الذي يُرى من عَل بأديم السماء الأزرق الذي يُرى من بين الأشجار شيئا فشيئا، ثم صارت صور القلعة لا تُرى بين الأشجار. شعر الإمبراطور بإحساس غريب بداخله بعدما غطت أغصان الأشجار الموجودة على حافتي الطريق الممتدة نحو بعضها

الطريق. شعر بالضيق. وبينما هو متضايق على هذا النحو، حاول أن يُهدئ من نفسه قائلا " انتظرت قدر ما أستطيع الانتظار. لا يمكن أن أنتظر أكثر من ذلك. وكأنه قد نشب خلاف بين أورخان وبين إمارة بنو ذولقادر وذهب أورخان إلى هناك. لِمَ أعطيت ردا إيجابيا على خطابي ما دمت لا تريد اللقاء. لقد ألقيت بإمبراطوريتي وسط المخاطر وأتيت إلى حيث تريد أنت. لو كنت قد خطوت خطوة واحدة ، كنا نتقابل ونعقد الاتفاقيات اللازمة. ولكنك لم تأت. وهذا يعني أنك لا تريد اللقاء. وهذا يعني أنك تعلم كل شيء عن الموجودين بتراقيا. أثناء قدومي إلى هنا كنت مرتاحا لأنني كنت أظن أنك ليس لديك علم عن هذا الأمر، حتى أنني كنت أظن أنه عند عقد اتفاق بيننا ستقوم بسحب قواتكم الموجودة إلى الأناضول. ولكن الآن أدركت جيدا أنك على معرفة بما يدور هناك، وبأنك تريد البقاء في تراقيا مثل ابنك. أوف، كنت قد انطلقت على هذا الطريق قائلا لنتصالح ولنحل هذا الأمر، ولكنني أغلقت هذا المجال بسبب عدم مجيئك. والآن أبتعد عن أمل السلام الموجود بداخلي مثل قلعة أنتيجون وبحيرة أسكانيا اللتين تبتعدان. الآن نحن مضطرون إلى عقد اتفاق مع الذين لا يريدون وجودك هناك". ثم قال بصوت عال أثناء تقدم العربة على الطريق الذي ينيره الضياء وإن كان بدرجة بسيطة بعد ابتعاد الأشجار عن بعضها بعضا من جديد قائلا" إن لم أحقق شيئا من هذه الرحلة وعدت خالي الوفاض، فسأكون أنا المتهم في هذا الأمر على أقل تقدير. إن لم يرض هذا غرور آل باليولوج المغرورين سأكون مستريحا لأنني قمت بعمل ما ينبغي لي القيام به". وفي الحقيقة كان قد قام بذلك لأنه يعلم أن التفكير بصوت مسموع هو أفضل السبل للقضاء على الضيق

الموجود بداخله. وبينما كان على وشك أن يصيح قائلا " الغرور اليوناني" خطر بباله آلهة أوليمبوس. فكر في نيكايا كذلك هو يفكر في الآلهة. ولم يكد يفكر فيها حتى خطر بباله ركوع ديانيسوس وتوسله أمام نيكايا. في الوقت الذي كان يحاول أن يبتسم ابتسامة خبيثة لا تتناسب إطلاقا مع شفتيه الغليظتين وتشوش فكره تماما. ثم تحدث داخل العربة بصوت عال قائلا "أتى راهب كنيسة آيا صوفيا الصغيرة الذي لم يحصل على أية كنيسة والذي حضر اجتماعات مجلس الحكم أمامي وبعدما قال (نحن راضون عن العثمانيين، نستطيع تأدية عباداتنا وطقوسنا الدينية كما نريد، ونتحدث أيضا بلغتنا، ماذا يمكن أن نطلب منهم أكثر من ذلك، إذا كان إخوتنا في الدين الموجودون بجانبنا في بورصه، والموجودون في المناطق الأخرى، وكذلك رجال ديننا يتمتعون بالحرية مثلنا ويمكنهم الحديث بلغتهم. الإشاعات التي تتردد عن العثمانيين شيء وما يفعلونه شيء آخر مختلف تماما. عندما كنا تابعين لبيزنطة كان يبقى للشعب من دخله ما يمكن أن يسد به رمقه فقط. ولكن الآن يعطي الضرائب عن رضا قلب العثمانيين، أما صورة العوز الباقي من زمن اليونانيين فمازالت معلقة على جداران القلعة حتى الآن.) غلى الدم في عروقي". انفجر من الغضب. حاول النظر إلى الطبيعة حتى يتخلص من هذه الأفكار المزعجة بيد أنه لم يفلح في ذلك. أفاق عقله. وشبه إحدى أشجار الدلب العجوزة الموجودة على الطريق بنفسه. غضب على نفسه بعدما حدث نفسه بما يشعر به وهو ينظر إلى شجرة الدلب قائلا " بعدما يبلغ كل شيء الكبر يكثر ظله وتتعاظم هيبته" ثم حدث نفسه بسرعة قائلا : "وآل باليولوج هم الظل الموجود فوق القسطنطينية". هز يده عدة مرات وكأنه

يقول "اذهبي بعيدا" بعد أن تنفس عدة مرات في إثر بعضها وكأنه يطرد الفكرة التي قالها من أجل نفسه. إلا أنه لم يستطع أن ينعم بالراحة والسكينة. أخذ عصاه التي تقف مستندة على باب العربة. وأمسكها من مقبضها بكلتا يديه. وضع ذقنه فوق يديه ثم قرأ كل أدعية الحفظ والوقاية التي يحفظها. وعندما شعر بقليل من الراحة حدث نفسه قائلا " ينجح الرجال مع الموجودين في الأماكن التي يذهبون إليها في الإمساك معا بما أحضروه. ربما هذا هو سبب استمرارهم.". أُرهق الجسد العجوز للإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي تعب من كثرة الشد والجذب الموجود في عقله لفترة طويلة. غشيه النعاس. تمدد على الأريكة واستغرق في سبات عميق بعد أن استمع لصوت عجلات العربة التي تدور على الأوراق الجافة. قال الإمبراطور الذي استيقظ عندما وصلوا إلى مكان الاستراحة الأولى الموجود عند السفح الشمالي للجبل، بعدما شاهد خليج سينوس عند المكان الذي انتهي عند الأرض المستوية المزينة بأشجار الفاكهة مرة أخرى بصوت ناعم ولكنه خرج على مضض قائلا:

إذن اجتزنا الجبل.

قال خادمه:

نعم يا صاحب العظمة، سنعطي فترة استراحة بجوار ذاك النبع وسنواصل رحلتنا ثانية بعد أن نريح الجياد قليلا. وفقا لما قاله قائد حرسكم سنكون في برينتوس بعد بضع ساعات.

جعَّد الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس جلد جبهته. نزل من العربة وكأنه مجبر على ذلك. ولم يكد ينزل حتى شعر جسده الذي أصابه بعض العرق الخفيف بالبرد بسبب الريح الباردة التي هبت. لم يكد يدرك خادمه بشعوره بالبرد حتى أحضر معطفه الثقيل من العربة وساعده على ارتدائه. كان هو في الأمام وكبير خدمه في الخلف وذهبوا حتى النبع المحاط بأشجار الدلب. شرب الإمبراطور الماء المقدم له في قدحه الفضي. نظر إلى الخادم وهو يعيد إليه الكأس ثم قال:

يا كرونوس القوي والعظيم قدر عظمة اسمه، الجو أبرد من البرودة ولكن لا يمكن أن ننطلق على الطريق دون تناول بعض المأكولات عند رأس هذا النبع.

كان كرونوس كبير الخدم الموجود في خدمة الإمبراطور منذ سنوات، والذي يقوم بخدمته بيديه في كل الأوقات عدا الأوقات التي يصاب فيها بالمرض لا يريد تناول بعض المأكولات وهو واقف على قدميه بين الحرس كواحد منهم بيد أنه لم يكن يستطيع أن يرفض رغبته. ركض وذهب إلى عربة الخدم. اعتقد الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي تذكر أنه لم يطلب مثل هذا الطلب حتى الآن قط أثناء ابتعاده عنه، بأن يقلل من ولعه بمنصب الإمبراطورية لأول مرة. ومع مرور مثل هذه الفكرة من عقله أصبح غريب الأطوار. وحتى لا يشعر الخدم الموجودون في الخلف أو الحراس الموجودون في الأمام الذي لا يمكن أن يعتمد على بوهن ركبتيه الملتويتين اللتين لا قبل لهما بالتحمل، جثم واستند بظهره على جذع إحدى الأشجار الموجودة حول النبع. وتضاعفت دهشته بعدما انسابت جملة " في

الحقيقة لم يبق شيء من مقام الإمبراطورية" من بين بنات أفكاره وطارت عندما جثم على الأرض. وفي الوقت الذي كان سيحدث فيه نفسه قائلا "ما الذي يحدث لي" أحضر مهروس نيكايا الذي غمسه في العسل الذي طهاه على الجمر قبل قليل من أجل الطريق. ملأ الإمبراطور الذي يتناول باشتهاء كبير المهروس بالعسل المصنوع من خليط الدقيق والفواكه المختلفة الكأس الذي يشرب به من ماء النبع بنفسه وشرب. قال وهو يمد يده بالقدح الفضي إلى خادمه:

يا كرونوس، استدع قائد الحرس فليأت.

ركض كبير الخدم واستدعى قائد الحرس. قال الإمبراطور الذي ينظر إلى قائد الحرس:

قل للمرشدين سوف نستمر في طريقنا دون المرور بالقلاع. أريد العودة إلى القسطنطينية في أسرع وقت ممكن. أخرجوا الطلائع وأخبروا قادة القلاع قائلين لهم بأن يتخذوا التدابير وليعدوا الأشخاص الذي سيرشدوننا قبل وصولنا إلى القلاع.

بدأ قائد حرس الإمبراطور في التنفيذ من فوره. اتفق مع المرشدين وقال لرجاله أثناء إخراج الطلائع نحو القلاع بأنه سيتم مواصلة السير باستمرار مع الحصول على فترات استراحة قصيرة. قال الإمبراطور الذي رأى البسفور الهائج من خلف كيريسوبولس بعد أن بدأت الجياد التي رُبطت في العربات في قطع الطريق بخطوات متناغمة بصوت مُعَايَب مُتْعَب وكأنه يهمس " إذن سوء الطالع بدأ من هنا ".

(٢٥)

كانت الأرض تناجي السماء التي تظلم وجه الأرض منذ أيام، وتطلب منها مساعدتها في إيقاف دموع السحب السوداء التي تسقط كالسيل المنهمر. وكانت الأرض التي تنظر إليها بنظرات حزينة تخفي بداخلها ضحكة ماكرة تتلكأ وتحدث نفسها قائلة " كلما بكوا صار إنتاجي موفورا". كان سليمان باشا الذي لا يحيط خُبْرا بما يدور بينهما، يشبه نفسه بظل مغلول اليدين والقدمين متجولا في قسم الجلوس الواسع الذي يشبه الصالون الموجود داخل الخيمة ممتعضا بسبب عدم خروجه من خيمته منذ أيام. كان منكباه العريضان المنتصبان اللذان يضفيان عليه مهابة ووقارا إلى هيبته ووقاره كل وقت يبدوان وكأنهما متَدَلِّيان من طول هذا الانتظار. كانا وكأنهما يتدليان مع كل خطوة يخطوها. ظن فترة تمزق جسده مع منكبيه المتَدَلِّيين إلى آلاف قطع الظل الذي تصوره وشبه به نفسه. هز رأسه إلى الجانبين مثل النمر الذي وقع في الفخ. وبينما كان على وشك الذهاب بحالة الضيق التي تملكته إلى فراشه والتمدد عليه، دخل الحاج إلباي من باب الخيمة مرتديا معطفه المصنوع من اللباد الذي يحميه من المطر. ثم قال وهو يخلع معطفه:

يا قائدي، أعتقد أن التسامر قليلا يكون مفيدا عندما يفر النوم من العين. لم أستطع أن أخبركم مسبقا بقدومي لأنني قررت ذلك فجأة. ولكن شعرت بالندم لمجيئي دون إخباركم بذلك. انظروا كأن السماء قد ثُقِبَت...

قال سليمان باشا الذي سُرَّ بمجيء الحاج إلباي أثناء تلك اللحظات المملة:

يا حاجي إلباي، كنت بدوري أشعر بالضيق والملل. لم أخرج من الخيمة منذ يومين. لديك كل الحق كأن السماء قد ثُقِبَت. ولكن لو كانت السماء قد ثُقِبَت فقط لكان الأمر هينا، أعتقد أن البحر يفيض هو الآخر...

قال الحاج إلباي:

إن أهالي هذه المنطقة، يقولون على هذه الأيام، إنها الأيام التي ابتلع فيها البحر ابنة إلهة المطر. وكأن البحر الذي أخذ ابنة إلهة المطر، كان يضرب رأسها بالشواطئ من أجل القضاء عليها جراء جرمها الذي ارتكبته. نظر سليمان باشا إلى وجه الحاج إلباي الذي يلمع مثل شمع العسل ويشبه الظل في ضوء القناديل الزيتية وهو جالس على إحدى الوسائد الموجودة في القسم الواسع لخيمته وهو مرتاح لعثوره على شخص يتحدث معه. سمع صوت المطر أثناء نظره إلى القناديل الملونة. وقال بعد أن حرك رموش عينيه عدة مرات:

يا حاج إلباي، هل ستضيء بدخولك هذا المساء المظلم؟ في طفولتي عندما كان والدي يخرج للحرب كانت والدتي تجمعنا في إحدى الغرف وتقص علينا القصص بالتركية والرومية. كان مراد دائما هو أول من يغشاه النعاس أثناء الاستماع للحكايات. ولكن على الرغم من ذلك كان يقص علينا في الصباح القصة التي قصتها والدتنا مع بعض الإضافات البسيطة. على أية حال هي كانت حكايات وما زلنا نتذكرها منذ طفولتنا. لكن الأساطير التي

تقصها أنت وأفرانوس بك، تروقني حتى وإن كنت لا أصدق بأنها حقيقية. وعلى كل فإنها تخلصني من همومي. نظر الحاج إلباي إلى وجه سليمان باشا ثم قال:

لست قصاصا بارعا مثل نيلوفر خاتون ولكن سأكون سعيدا إذا كان ما سأقصه عليكم سينسيكم همومكم. إذا كان الأمر كذلك فلأقص عليكم هذا المساء أسطورة هيللا التي سمعتها في عاصمة السلطان قبل أعوام. وفقا لهذه الأسطورة، كانت هذه الأراضي جنة الآلهة التي خلقت البشر الذين كانوا في الأزمنة الغابرة. تزوج آساموس ابن أيولوس إله الريح أحد تلك الآلهة من نيفيلي ابنة إلهة السحاب. أنجب الزوجان اللذان هما في حماية الآلهة الأخرى ولدا وبنتا. سميا ابنتهما هيللي وابنهما فريكسوس. وذات يوم أثناء قيام هذين الإلهين الشابين بتربية أولادهما في جنة الآلهة طلب ابن إله الريح السباحة في البحر ونزل إلى الشاطئ. لما شاهده البحر شديد الزرقة بدأ يتموج من فرط سعادته ودعا الشاب إلى الغوص في مياهه. ابن إله الريح الذي لم يستطع مقاومة هذه الدعوة خلع ملابسه ودخل المياه الباردة. لما برد جسد الشاب الذي يسبح في الماء البارد طالت أبْواعه. وكلما طالت أبْواعه غاص بين الأمواج وابتعد جدا عن الشاطئ. لما رأت الإلهة إينو إحدى الآلهة التي تراقبه من فوق جوادها منذ دخوله البحر إرهاق وتعب الشاب قادت جوادها فوق الأمواج وجاءت إلى جواره. أخذته الإلَهَة إينو بعدما طلب الشاب الذي رآها أن تساعده، وذهبت به إلى رمالها وكأنها ضمته بين ذراعيها الدافئتين. أدرك الشاب الذي تمدد فترة طويلة على الرمل بعدما استعاد وعيه أنه عاشق للإلهة إينو بسبب قبلاتها التي قبلته إياها. وقال للإلهة إينو: إنه لن يعود إلى

زوجته نيفيلي وأنه يريد الزواج منها. فرحت جدا الإلهة إينو بهذا القرار وتزوجته. وأنجبا طفلين. حزنت نيفيلي إلهة المطر وبكت قدر فرحهم، لم يبق في سحبها أى أمطار حتى إنه لم يبق ولا قطرة ماء واحدة. جدبت الأرض بعدما أصبحت غير قادرة على ذرف دموعها. شعرت الإلهة نيفيلي التي رأت هلاك كل الأحياء الموجودة على ظهر الأرض بالذنب وحزنت حزنا شديدا. وأصبحت لا تهتم كثيرا بأولادها، وهي تتجول حزينة على هذا النحو على سطح الأرض. تحركت الإلهة إينو التي عرفت بعدم اهتمامها بأولادها من فورها وقصت على زوجها الخطة المرعبة التي دبرتها منذ فترة طويلة. وقالت لزوجها أساموس: إنه إذا استمر الجدب والقحل لفترة طويلة سوف تهلك جميع الكائنات الحية الموجودة على الأرض. ثم قالت من فورها بعدما رأته حزينا جدا:

يا أساموس، أعلم أن ذلك صعب جدا بالنسبة لك، ولكن إن لم تقدم ابنك الكبير فريكسوس قربانا فلن تستطيع الأرض الخلاص من الجدب والقحل.

عانى أساموس لأيام، ولم يستطع اتخاذ القرار، بيد أن الإلهة إينو بذلت كل ما في وسعها من أجل إقناع أساموس حتى تتخلص من فركسوس التي تغار منه منذ البداية. في النهاية قرر أساموس الذي لم يستطع تحمل أنين الكائنات الحية، أن يقدم ابنه قربانا وانطلق في طريقه، ولكن نيفيلي التي تراقبهما من فوق السحاب على الرغم من حالة الحزن الشديد التي تعيشها علمت بمساعدة حماها إله الريح بنية أساموس. لم تكد تعلم هذا حتى أرسلت ابنها وابنتها إلى مملكة كولخيس الموجودة شرق البحر المضياف وأركبتهم أحد الكباش ذي الفرو الذهبي. وانطلقت في طريقها حتى تعوق زوجها

السابق أساموس حتى لا يلحق بأولادها. بعدما طلب منها أساموس الذي رآها تقترب من سطح الأرض بغضب شديد أن تعطيه أولاده، بدأت نيفيلي إلهة المطر في البكاء من جديد من فرط حزنها. السحب الأخرى التي لم تستطع تحمل بكائها حولوا الأبخرة التي اقترضوها من الآلهة الأخرى إلى قطرات المطر وشرعوا في البكاء. ابتل الفرو الذهبي للكبش الذي كان يمر من تحت إحدى السحب في تلك اللحظة وبدأت هيللي التي انزلقت من فوق الفرو الذهبي في السقوط نحو الأرض. ركضت الإلهة إينو التي شاهدت انزلاقها بسرعة نحو المكان الذي ستسقط فيه هيللي. قام البحر المضياف وبحر الظلمات اللذين يعلمان بنيتها السيئة وبأنها ستقوم بإلحاق الأذى بهيللي بمد أيديهما بسرعة وأمسكا بيد بحر الجزر. والمضايق الموجودة حاليا كانت أذرعهم الموجودة في ذلك الوقت. كان سبب إمساكهم لأيدي بعضهم بعضا هو إطلاق الماء تحت المكان الذي ستسقط فيه هيللي، وتأخير عثور الإلهة إينو عليها. وهكذا وُجِدَت هذه المضايق منذ ذلك اليوم، وصار اسم البحر المضياف هيللي لأنه حافظ جيدا على هيللي.

قال سليمان باشا الذي شعر بالراحة والسكينة أثناء سماعه الحاج إلباي:

هدأ عقلي بعدما استمعت الأسطورة ولكني غضبت على الإلهة إينو. حسن هل أنقذ الشاب شقيقته التي سقطت في الماء.

قال الحاج إلباي:

ذهب على ظهر الكبش ذي الفرو الذهبي إلى مملكة كولخيس وأخفاه الحاكم المُحْسِن في غابات الظلمات ونجا من مكيدة إينو المرعبة.

قال سليمان باشا بعد أن ابتسم ابتسامة رقيقة:

أرى أن هذه الأسطورة تشبه إلى حد ما قصة إسماعيل عليه السلام...

قال الحاج إلباي بصوته الرقيق جدا:

أعتقد أن هذه الأساطير كانت موجودة هنا قبل إسماعيل. لأن هناك ما يدل عليها في الكتب المقدسة. عندما كنا صغارا كان قراسي أوغلو والد عجلان بك حاكم قراسي يهتم بتعليمنا من كثب ويراقب مشايخنا ويتناقش معنا. لقد تجول عجلان بك كثيرا جدا عندما كان في خدمة السلاجقة، وشارك في الكثير من الحروب، وكان قائدا ذا علم وعلى دراية كبيرة. ذات يوم قص علينا أحد الفقهاء الذي جاء بعد درس الرياضيات قصة سورة إبراهيم، وبعد أن أنصت لما قصه، قال " كنت قد سمعت حكايات أخرى مشابهة لهذه الحكاية عندما ذهبت إلى ولاية بغداد التي طورتها الإمارة السلجوقية. كان أحد الشيوخ الذي سألته عن سبب كثرة الحكايات المتشابهة إلى هذه الدرجة قد أجابني قائلا " إن ذلك ناتج عن أن القبائل الآرية التي كانت تعيش في هذه المناطق من قبلنا بفترات طويلة كانت كل واحدة منها تحكي الأسطورة التي سمعتها وفقا لما تريد" وبعد أن قال هذا متى سمعت أسطورة ما أو حكاية ما أضيف إليها بعض الأشياء من عندى وأجعلها أكبر من حقيقتها. أي أنني أيضا مثل الأمير مراد أضيف إلى ما أسمع بعض الأشياء وأُثْرِيها.

قال سليمان باشا:

إذن أنت تريد أن تقول إننا إن أضفنا بعض الأشياء من عندياتنا لما نَقُصه نجعله يعيش فترة أطول.

قال الحاج إلباي:

نعم هو كذلك. ولكن يجب أن يتوافق ما نضيفه مع الأسطورة...

لمعت أسنان سليمان باشا المتساوية في ضوء القنديل الأصفر بعدما ضحك وجهه ذو البشرة الخمرية الواثق بنفسه. ولما فرغ من ضحكه قال بهدوء وكأن على رأسه الطير:

أشتاق إلى حكايات والدتي ولكن أساطيرك هذه ليست سيئة. فهذه مثل تلك، تعلمني أن الأرض التي أسير واطئا إياها بقدمي ليست عبارة عن الأرض التي تزرع وتحصد فقط. فضلا عن أنني أسعى لتحديد موقعي ومعرفة مكانتي وأنا أقوم بمقارنة الأشياء الجيدة بالأشياء السيئة والخير بالشر الموجود في الأساطير التي قصصتموها. فربما لست مثلهم لا خَيِّر فقط، ولا سيئ فقط. ربما أكون في منزلة بين المنزلتين. وكأنني مثل الشيء الذي كان يمنح الخير لمن ينتظرونه والشر لمن ينتظرونه...

قال الحاج إلباي الذي استمع إلى هذا التوضيح المبسط من سليمان باشا:

يا أميرنا عَرَفتُم بأنفسكم على أجمل وجه. تعرفون دورسون بك أحد أبناء قراسي الذي درس معكم في بورصة. إن طباعه كانت تشبه طباعكم إلى حد كبير. لم يكن أورخان غازي أمد الله في عمره يفرق بينه وبينكم كثيرا في المعاملة. أتم تعليمه وعند عودته كنت في خدمة شقيقه الأكبر دمور في باليكستري عاصمة إمارتنا. كنا قد أبلغنا أورخان غازي فور علمنا بالفخ الذي نصبه دمور خان لدورسون بك بعد مجيئه إلى القلعة مباشرة. ولكن لم نتمكن من إنقاذ دورسون بك لأننا تأخرنا كثيرا. ثم قال إن بُغيتي الوحيدة من الله تعالى هو ألا يجعلني أرى ظلم الأخ لأخيه على هذا النحو مرة أخرى وصمت.

تركه سليمان باشا مع نفسه إلى فترة قصيرة بعدما أدرك شدة تأثره. وفكر جائلا بناظريه على قناديل الزيت في الحاج إلباي الذي كان يحكي له إحدى الأساطير أحيانا، ويشاركه همومه وأحزانه أحيانا، والذي كان يتسابق معه بالجياد أحيانا أخرى. ثم حدث نفسه قائلا " آمل ألا يعيش أي منا هذا الظلم" ثم نظر إلى الحاج إلباي مرة أخرى. عندما التقت عيناهما فُتحَ باب الخيمة جزئيا. في البداية تجولت ريح باردة في الداخل، وبعد ذلك دخل قائد الفدائيين ضخم الجثة الذي يحتمي باللباد. قال بعد أن ألقى التحية على سليمان باشا وبعد أن أحنى رأسه قليلا نحو الحاج إلباي:

يوجد رسولان أرسلهما فاضل بك.

وجه سليمان باشا حديثه نحو الحاج إلباي قائلا:

لا بد أن هناك خبرا مهما جعل فاضل بك يرسل رسوليه في هذا الجو البارد. استدار ونظر إلى قائد الفدائيين ثم قال له أدخلوا الرسولين فورا.

رجع قائد الفدائيين وأخرج رأسه من باب الخيمة مثلث الشكل واستدعى الرسولين إلى الداخل. وكأن المطر الموجود في الخارج قد دخل إلى داخل الخيمة مع الرسولين. انحنى الرسولان وألقيا التحية على من بالداخل. وبينما وقف أحدهما بجانب الفدائي الموجود بجوار الباب تقدم الآخر بضع خطوات نحو سليمان باشا واضعا يديه على رأسه ثم جثا على ركبتيه وقال:

أمرنا قائدنا فاضل بك بإخباركم بأننا قبضنا على اثنين من الرسل البيزنطيين الذاهبين إلى غاليبولي.

قال سليمان باشا بعد أن نظر إلى الرسولين المبتلين جدا:

قل يا حاج إلباي ماذا يتوجب علينا فعله؟...

قال الحاج إلباي:

فليستجوب فاضل بك الرسولين. وبعد أن يتأكد من كل المعلومات التي يمكن أن يحصل عليها منهما يطلب منهما أن يكونا في خدمة رجاله. إذا قبلا بالدخول في خدمته فليضمهما إلى وحدات الخدمة. وإن لم يقبلا بالخدمة متطوعين فليخبرهما بأنهما أسيران. ولكن حذار أن يرسلهما إلى البيزنطيين.

شارك سليمان باشا الحاج إلباي رأيه، وبعد أن قال: إنه من الأفضل أن يتخذ فاضل بك القرار بنفسه، قال لفدائيه ليوفر لبالبان أغا الملابس الجافة للرسولين.

قال رجال فاضل بك إن القادة ينتظرون الخبر وأنهما يريدان الانطلاق على طريق العودة إلا أن سليمان باشا لم يتراجع عن قراره. وقال مرة أخرى لبالبان أغا:

لن يتحرك الرجلان دون ارتداء الملابس الجافة.

لم يكد يخرج الفدائي بالبان أغا ورجال فاضل بك من الخيمة حتى هدأت شدة الريح ولو بدرجة قليلة وبدأ صوت المطر ينخفض شيئا فشيئا. قال الحاج إلباي الذي لاحظ التغير الموجود في الخارج:

يا أميرنا، لقد كان لهذا المطر فائدة كبيرة. فلم يستطع من هم خارج القلعة ولا المقيمون في أحيائها ملاحظة اقتراب وحداتنا من القلعة، كما أن

حافري الألغام اقتربوا كثيرا من أسوار القلعة. إن الموجودين بالقلعة لم يستطيعوا معرفة أي شيء عما حدث بسبب عدم السماح لأي فرد من الذين خرجوا من القلعة الداخلية بالعودة قط. كما تم في هذه الفترة بناء قواعد المناجق.

قال سليمان باشا بصوت مرتفع مملوء بالثقة:

ربما الحظ يحالفنا مثلما قلت بالأمس...

قال الحاج إلباي وهو ينهض واقفا على قدميه:

يا أميرنا الله تعالى معنا أيضا. وألقى التحية برأسه، وبعد أن قال تصبحون على خير، ارتدى معطفه المصنوع من اللباد ثم خرج وذهب.

(٢٦)

وصل الإمبراطور كنتاكوزين السادس ورجاله إلى مشارف كريس في اليوم الثالث من مغادرتهم نيكايا وذلك بفضل خيولهم التى سابقت الريح. الإمبراطور الذي ينظر إلى القسطنطينية الموجودة على الشاطئ المقابل لكريس، وإلى أديم السماء الملبد بالغيوم المعتمة السوداء؛ ثم خاطب كلا من قائد الحرس وقائد العربة بصوت حاد قائلا: الجو يشبه العتمة. لنعبر إلى الجانب الآخر بأول شاحنة بحرية يمكن أن نجدها. أخبروا المسئول عن المرفأ بذلك. ولنلتق على رصيف المرفأ.

قائد الحرس الذي سمع ما قاله الإمبراطور، على الفور أبلغ الرقيب الذي يقوم بمهمة الإرشاد لهم منذ خروجهم من نيكوميديا برغبة الإمبراطور. على الفور قام الرقيب بإرسال اثنين من رجاله إلى مدير مرفأ كريس لإبلاغه بما يريده الإمبراطور. بعد أن انطلق الرسولان الجسوران بعد أن امتطى كل منهما صهوة جواده بفترة وجيزة، ركب الإمبراطور عربته الفخمة مرة أخرى. وبركوبه إياها انطلقت القافلة نحو ميناء كريس. وبعد أن واصلوا انطلاقهم على الطرق لفترة في هدوء، بدأ المطر يهطل بغزارة. الإمبراطور كنتكوزين الذي يشاهد هطول المطر من نافذة عربته المفتوحة، ثم حدث نفسه قائلا: "هذه أيضا ستمر كما مرت سابقاتها". رفع رأسه المهيبة لوجود تاج الإمبراطورية عليها، ولما نظر إلى أعلى رأى التحام السحب المعتمة شديدة السواد ببعضها بعضا. قال بصوت متعجل وكأنه يريد التراجع عما قاله قبل

قليل " في الأغلب يبدو أن هذه ستستمر طويلا!. وأدار رأسه نحو قائد العربة الذي يجلس في المقدمة وسأله قائلا: ألا يمكننا الذهاب بسرعة أكبر؟

رفع قائد العربة رأسه ولما رأى السحب المعتمة الملتحمة ببعضها بعضا في أديم السماء، نزل بسوطه على ظهر الخيل. وبدأت قطرات المطر الكبيرة التي تستمد قوتها من الريح الطليقة التي تتجول في السماء بالارتطام بعربة الإمبراطور، وكأنها كانت تنتظر السوط. الإمبراطور الذي يمسك تاجه بإحدى يديه سحب رأسه إلى الداخل بسرعة. وعلى الفور قام بإغلاق النافذة المفتوحة الموجودة بالقسم العلوي من باب العربة. وما إن جلس على أريكته، حتى بدأ المطر في الهطول وكأنه السيل المنهمر. فجأة اضطربت الخيل التي لم تكن ترى أمامها من شدة المطر. على الفور قام قائد العربة المحنك بإعطاء السوط والمقود الموجود في يده إلى الخادم الذي يجلس إلى جواره، ونزل من العربة وذهب إلى الجوادين الموجودين في مقدمة الجياد التي تجر العربة، وأمسك بمقوديهما وبدأ يمشي بهما بخطوات بطيئة نحو الميناء. عندما وصلوا إلى الميناء كانت السماء والأرض قد اختلطتا ببعضهما من شدة سواد لون السماء. القبطان الذي جاء إلى الميناء قبل قليل من ركب الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس، نظر إلى أمواج البسفور شديدة الارتفاع بفعل الأمطار الغزيرة والرياح العاصفة، ذهب على الفور إلى الإمبراطور بخطوات سريعة، وقال له عن طريق المترجم: يا صاحب العظمة، لا يمكنكم العبور إلى الضفة الأخرى في هذا الطقس. وأنت في ضيافتنا إلى أن تسكن الرياح وتهدأ أمواج البحر. نظر الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين إلى الأمواج الغاضبة من المطر الذي يشبه السيول المنهمرة

وقال: أنت على حق يا رجل. على أية حال علينا الانتظار إلى أن يتوقف هطول المطر. ونعتذر منكم إن كنا سنقلقكم ونزعجكم.

قائد الميناء الذي استمع إلى ما قاله الإمبراطور عن طريق المترجم، أدار جواده نحو أقرب نزل ضيافة للميناء. حزن الإمبراطور الذي جاء إلى أمام نزل الضيافة وقافلته من بعده، لعجزه عن العبور إلى الضفة الأخرى في الحال. دخل الإمبراطور كنتاكوزين السادس الذي دخل إلى الغرفة الكبيرة التي خصصت له في نزل الضيافة مهموما حزينا، لم يخرج من غرفته، كما لم يتحدث مع أي أحد إلى أن توقف هطول المطر. كان على رأس كل ساعة تقريبا يخاطب قسطنطينيته التي يراها من نافذة غرفته، مرددا بصوت عال قائلا: "لقد ابتعدت عنك حتى يومنا هذا. وظننت أنني لن أستطيع العودة إليك مرة أخرى. ولكن وأنا قريب إلى هذا الحد، لم أتصور أن أكون بعيدا عنك إلى هذه الدرجة.". وبخلاف هذه الجمل كان لا ينطق بأية كلمة قط. وأخيرا توقف هطول المطر الذي ظل يهطل بنفس القوة ليل نهار ليومين كاملين دون انقطاع. بيد أن الرياح لم تهدأ أعمدتها، استمرت في ضرب الأمواج الهائجة بالشاطئ ليوم آخر. لما سكنت الرياح تماما، كانت النسائم اللطيفة تهب من ميناء كريس. وكانت الأمواج قد اقتلعت وأطاحت بكل قوارب الميناء، ولم يبق سوى الأوتاد المثبتة بإحكام في الأرض.

مدير ميناء كريس الذي لاحظ مدى حزن الإمبراطور الذي لم يعقب على كل ما حدث، فإنه أمر من فوره بجمع كل النجارين الموجودين في المنطقة وكلفهم بإعادة إنشاء رصيف الميناء. الإمبراطور الذي لم يبتعد عن العمال أثناء عملهم، سعد للغاية بعدما علم بأن أحد الأرصفة الخشبية للميناء

مازال ثابتا في مكان. وقال وهو سعيد أمين الخزانة: لتقدم الهدايا لكل العمال والحرفيين الذين يعملون. بعدما أعطى أمين الخزانة - الذي يحافظ على ثروة الإمبراطور أكثر من الإمبراطور نفسه - أكياسا ممتلئة بالعملة البيزنطية للعاملين على مضض، هتف العاملون جميعا وفي نفس واحد بلغة الإمبراطور قائلين: "يحيا يوحنا كنتاكوزين إمبراطور بيزنطة".

أما الإمبراطور الذي أصابه السرور بسبب هتافهم، فإنه خرج عن صمته وخاطب قائد الحرس قائلا: جهزوا العربات، لنتحرك فورا.

نظر قائد حرس الإمبراطور إلى الإمبراطور مبديا العجز وعدم الحيلة، ثم طأطأ رأسه قائلا: يا صاحب العظمة، من المستحيل أن نتحرك الآن، إن أصحاب الشاحنات البحرية الذين يعرفون بأن العاصفة سوف تهب، سحبوا شاحناتهم إلى الشروم المحصنة. لكن أول موعد يمكن أن ننطلق فيه هو صباح الغد.

صب الإمبراطور الذي استاء جدا واشتاط غضبا لعدم احتراس وعجز قائد الحرس، جام غضبه عليه. وبدأ في الصراخ في وجه قائد الحرس وكأنه قد فقد السيطرة على نفسه. مدير ميناء كريس الذي هب لمساعدة قائد حرس الإمبراطور، وهو ينظر مندهشا إلى العمال الذين أصابتهم الحيرة، لأن الإمبراطور تغير حاله فجأة وأصبح إنسانا آخر، ولم يبق عليه أي أثر للسعادة التي كانت تغمره قبل قليل. وبعدما علم سبب ثورة الإمبراطور، خاطبه قائلا: يا صاحب الجلالة، سأرسل رجالي الآن وسأقوم في أقصر وقت بتأمين الشاحنات البحرية الكبيرة التي يمكن أن تعبر بكم إلى الضفة الأخرى.

شعر الإمبراطور الغاضب الذي شعر بصوته، بالخجل من نفسه بسبب غضبه الشديد الذي ظهر فجأة، ومشى نحو قصر الضيافة وهو ينظر إلى الأرض. أثناء سيره شعر بإرهاق شديد كما في الأوقات التي ينفعل فيها على النحو الذي حدث قبل قليل. وما إن دخل قصر الضيافة حتى ألقى بنفسه في غرفته.

وخاطبه قائد الحرس الذي أيقظه بعد منتصف الليل، قائلا: يا صاحب العظمة، اقتربت الشاحنات البحرية من الميناء. إن أردتم يمكننا أن نتحرك فورا.

أما الإمبراطور الذي لم يتخلص بعد من استيائه، فقد خاطب قائد الحرس بصوت متعب قائلا: نعم، لننطلق فورا.

ولما بدأت عجلات العربات في الدوران على أرض الميدان المرصوف بالحجارة والموجود بين القلعة وميناء بلاطي عند مطلع الفجر، نزل الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس من عربته. وأخذ نفسا عميقا وهو ينظر لبزوغ الفجر. ثم نظر مباشرة إلى باب القلعة. وهو يفكر في النهاية التي تنتظره خلف الباب الذي على وشك أن يُفتح له، ثم حدث نفسه قائلا: "كنت كل يوم تقريبا أقوم بتأليف قصة من أجل عودتي. تري المشهد الأخير لأية قصة سيتحقق؟". وركب عربته مرة أخرى. بينما تتجه الجياد نحو الباب الحديدي الكبير، راغبا في التخلص من كل تلك الحكايات الملفقة التي تسيطر على عقله، قائلا: " كلها عبارة عن الحكايات التي خلقتها وساوسي"، وبينما يحاول جاهدا تقليل المخاوف الموجودة بداخله قائلا: " في الواقع لا يوجد كذلك مشهد أخير لأي منها." وأثناء محاولته خلق الحقائق الملائمة لمواساة نفسه، على أية حال تواردت على فكره بإصرار كل المشاهد الأخيرة لكل تلك الحكايات التي حاول اعتبارها غير موجودة. وكلما حاول عدم الاكتراث

بسلسلة تلك المشاهد الختامية التي تسيطر على تفكيره في تتابع مستمر، قال وهو ينظر بامتعاض إلى الباب الموصد " ثمة حكاية واحدة لها مشهد ختامي فقط." إلا أنه لم يستطع إيقاف تتابع تلك المشاهد الختامية التي تسيطر على تفكيره وكلما حاول ذلك. المشهد الختامي للحكاية الأولى الموجودة في الترتيب " بمجرد دخول الحراس والعربات من الباب المفتوح سيغلق باب القلعة من خلفنا. وبينما يمر حراسي الموجودون في المقدمة رويدا رويدا على ظهور خيولهم من بين حراس باليولوج الخامس المصطفين حول الساحة، سيقوم حراس باليولوج الخامس الذين سينتهزون الفرصة المناسبة للانقضاض على حين غرة وتفريق بعضنا عن بعض، أما قائد حراس باليولوج الذي قطع الاتصال بيننا، فإنه فتح باب عربتي قائلا: باسم إمبرطورنا يوحنا باليولوج الخامس ابن أندرونيكوس ألقي القبض عليكم. لكن الخدم الموجودون في المؤخرة والذين أدركوا الموقف سيقومون جميعا بالهجوم على حراس باليولوج من أجل تحريري. بيد أنني عندما أضع في الحسبان مدى ولاء وإخلاص رجالي سأتدخل في الموقف من أجل الحيلولة دون إراقة الدماء. ولكن حراس باليولوج الذين لا يكترثون بالكلام سوف يلقون القبض عليَّ وعلى رجالي أيضا. وفي الوقت الذي سيقومون فيه بإعدام رجالي شنقا في القباء الموجودة أسفل الجدران، سيقومون بالزج بي إلى أحد السجون الموجودة في أناباسيس. وبعد الانتظار لعدة أيام ستتم محاكمتي. ولكن لن يختلف الحكم. وبينما ينتظرون وفاتي في أناباسيس لن يأتي لزيارتي سوى ثلاثة أشخاص. في البداية ستأتي الإمبراطورة إيرينا، وأثناء وداعها كانت ستذرف دموع بكائها الصامت على ظلمات القبو وتذهب. الثاني ابنتي

الإمبراطورة إيلينا كانت ستأتي مضيئة للسجن بجمالها وكأنها تتحدى العالم، دون أن تكترث بالقيود التي وضعها زوجها، وكانت ستمنحني القوة والأمل قائلة "إن ما ستراه يا والدي هو أن يوحنا لن يرضى بأن يُقتل والدي" وستذهب. الثالث الإمبراطورة الأم آنّا، ستأتي بكل حقدها وكراهيتها وبينما أنظر لها باحتقار ستقول: "لا تخف لن أقبل بأن يقوم ابني بقتلك". وستقول"لأنني أريدك أن تعايش الموت كل يوم أنت أيضا ، كما عايشته أنا من قبل."، وستنظر إلى وجهي كثيرا وكأنها مشفقة عليّ ثم تستدير فجأة وعند ذهابها ستقول " ولكن لا يكون أملك كبيرا في ذلك، فلربما لن يستمع ابني إليّ". وكأنها كانت تنتظر رحيله عن الدنيا ستقوم بفك إحدى السلاسل من الأحجار الضخمة المعلقة في سقف السرداب، سيبدأ الحجر في السقوط بسرعة على الإمبراطور الغاصب، وبينما تعتقد بوقوع نهايته من ناحية، فإنها من ناحية أخرى ستصرخ قائلة لم أكن أتوقع أن تموت مسحوقا بين حجرين قط.

هذا هو المشهد الختامي لأولى هذه الحكايات، كان يتملكه الموت من شدة الرعب عندما يدور هذا المشهد بخلده. ولم يكد هذا المشهد الأخير يدور بخلده حتى أضاف هذه الجمل " سيحالفني الحظ، ابني مانيوث شريك العرش، حينما تكون الإمبراطورة الأم آنا بالداخل سيقوم بالدخول إلى السراديب وكأن القيامة قد قامت، وسيقوم ورجاله بقتل كل من يقابلهم من حراس السجن وسيأتي إلى الزنزانة التي أُسجن فيها مكبلا بالأغلال، وسيقوم بوضع الإمبراطورة الأم التي تنظر من فتحة المزغل في السلاسل من رسغيها بدلا مني، وبعد أن يقوم بتسليمي لرجاله سيقوم بفك سلسلة الحجر الموجود في

السقف. ولكن مهما حاول ذلك فإنه لم يكن يستطيع تغيير هذا المشهد الختامي لهذه الحكاية، أو نسيان المشاهد الختامية للحكايات الأخرى. كان كل ما يستطيع فعله هو أن يبقى وسط هذا العرق الدامي عندما يحاول النجاة بنفسه من وطأة هذه النهايات المرعبة. ولما كانت الخيل تقترب خطوة خطوة نحو الباب، صاح الإمبراطور الذي يسترجع المشاهد الختامية لكل الحكايات في عقله، وهو غاضب لعدم فتح باب القلعة قائلا: "فليفرج الرب هذا البلاء وليكن ما يكون".

(٢٧)

كانت سماء تلك الليلة قبل هطول الأمطار زرقاء كسماء الليلة التي رأى فيها الحصان الأشهب البحر لأول مرة. وكذلك كان القمر بدرا منيرا في السماء الزرقاء كصينية مستديرة. وأما النجوم فكانت تقف بعيدا عن القمر لسبب ما وكأنها ممتعضة منه. إن الأمواج التي ظلت تضرب الشاطئ بغضب لعدة أيام سابقة أصبحت الآن كرغاوي الصابون المتهدل. والجواد الأشهب الذي بدا ناصع البياض تحت ضوء القمر الباهت والذي يشعر بكل حركات حارسه الموجود على الشاطئ، عندما سُحب برفق لجامه الموجود في فمه وقف مدركا ما يجب عليه القيام به. أدار رأسه بهدوء ناحية البحر. وشاهد رفيف عينيه خفوت وتلألؤ الوميض الناتج عن انكسار ضوء القمر الساقط على سطح البحر ذي الأمواج الخفيفة. رفع رأسه لأعلى ونظر إلى القمر. أسرع في التقاط الأنفاس وهو ينظر إلى القمر. وفي الوقت الذي التقط فيه أنفاسا قصيرة من فتحتي أنفه صهل عدة مرات متتالية. سليمان باشا الذي أصابه الفزع من صهيل حصانه، فقد جمع حزام لجامه الموجود في يده في قبضته. وقال بصوت مرتجف لا يمكن بأية حال أن يكون هذا بشيرًا له له أو لحصانه على حد سواء:

أيها الحصان الأشهب ضربتنا العاصفة لمدة أسبوع عندما صهلت لعدة مرات بالأمس القريب. هل بصهيلك هذه المرة ستتبئنا بمصيبة أعظم؟ هل

تريد أن تقول إن المصيبة الجديدة الآتية أشد وأنكى من السابقة؟ انظر إلى أي درجة هدوء وسكون كل من البحر والسماء.

لهث الحصان الأشهب، مرتين دون حدوث أي اختلال في وقفته وبعد ذلك وعلى نفس النحو صهل مرة أخرى عدة مرات.

رد الحصان الأشهب على سليمان باشا وكأنه قد فهم كل ما قاله. وأما سليمان باشا الذي نظر وهو مندهش إلى حد ما إلى غرة الحصان الحائر لوهلة، أصابه الضيق بسبب هذا الموقف. أحس بأن يدا ما تمس جلده وتمتد لخنقه. فتح بأصابعه السمينة الزر العلوي لقميصه الأسود المصنوع من حرير بولدان حتى يتنفس بسهولة. إن فتح أحد أزرار قميصه لم يساعده على تجاوز أزمته، ولا على التقاط أنفاسه كذلك. قام بفتح الزر الثاني كذلك. اندفعت الرياح الشديدة الباردة من فمه إلى داخل بدنه وكأنها كانت تنتظر فتحه لأزرار ردائه. وأما سليمان باشا الذي شعر بالبرد فإنه سرعان ما أغلق أزرة ردائه التي فتحها قبل قليل. وأدار رأس الحصان الأشهب نحو القلعة لئلا يتذكر أشياء أسوأ من حبسهم عدة أيام في الخيمة، ومن هطول المطر المدرار. وأما الجنود الذين كانوا يتابعونه من بعيد فأداروا رءوس جيادهم نحو القلعة كذلك وانتظروا. وقاموا بهمز جيادهم بعد أن همز سليمان باشا الحصان الأشهب بالمهماز... وبعد مدة، وعلى حين غفلة وصل بهم الطريق الممتد بين الحدائق إلى الحي الموجود خارج القلعة. كان الحي قد غرق في حزن صامت بسبب إخلائه تماما. رغم الصمت الحزين الذي يلف الحي، كانت الجدران العالية والسميكة لحصن جاليبولي المحاصر لثلاثة أيام والمحاصر بأمطار السهام والحجارة لا تزال تقاوم فخورة بعدم اجتيازها. سليمان باشا الذي ينظرإلى القلعة ذات الجدارن العالية بنظرات نسر ثاقبة، قال:

في النهاية سينكسر كبرياؤك العالي والصلب هذا، وستتوسلين إلى ذليلة. فقد غمرت الأنفاق التي حفرها الجنود بالمياه. لتصل إليها ولتغمرها. الأنفاق الجديدة على وشك الانتهاء. إن لم تهدمها قذائف المدفعية والحجارة التي تقذفها آلات المنجنيق التي نستخدمها، سآمر بصنع آلات منجنيق تقوم بقذف حجارة وقذائف أثقل. لو قاومت لأيام ولشهور فلن أتراجع عنك أبدا. عاجلا أم آجلا ستُفتح أبوابك لي. إن تخليت عن العناد لن يسقط ولا حجر واحد من جدرانك، ولكن إن استمر عنادك على هذا النحو أخاف ألا يبقى بك حجر فوق حجر. الأفضل أن تستسلمي طواعية. إن لم تفتح لنا أبوابك طوعا، وإن لم يبق معنا حجر ولا قذيفة نقذفها فسنحاصرك ونستولي عليك. في الحقيقة لا أريد أن يموت المقيمون بداخلك من الجوع والعطش. هل أمامك غير الاستسلام من سبيل، في مواجهة كل ما سأقوم بفعله؟

سليمان باشا الذي نظر لفترة طويلة إلى القلعة التي اتفقت مع قائدها في مواجهته والذي ظل طوال الفترة التي نظر فيها في إلى القلعة يفكر أيضا في جنده المتخصصين في حفر القنوات والأنفاق، وجنده البواسل من الفرسان والمشاة الذين ينتظرون على أهبة الاستعداد منذ أيام للقيام بهجوم كاسح وساحق طوال الفترة التي نظر فيها إلى القلعة، وبينما يحدث نفسه وكأنه كان يحدث قائد القلعة هذه المرة، قائلا: " لماذا لم تتألم حتى الآن . لكنك ستتألم كثيرا فيما بعد ..."، همز الحصان الأشهب بالمهماز مرة أخرى.

الحاج إلباي، كان قد جعل أحد المنازل غير المسكونة مركزا للقيادة. عندما أوقف الحصان الأشهب أمام المنزل الكبير إلى حد ما، والذي صار مركزا للقيادة قفز ونزل من فوق حصانه. دخل بخطوات سريعة إلى حجرة

القيادة المضاءة بالقناديل الزيتية الكبيرة. كان الحاج إلباي الذي ينظر إلى رسومات القلعة الضخمة والتي صُممت على ورق البردي التي تم بسطها على إحدى الطاولات الكبيرة، قد ابتسم بسمة خفيفة عندما رأى دخول الأمير إلى الداخل، وقال وهو يشير إلى رسومات القلعة التي تم بسطها على الطاولة:

قلعة كهذه، محصنة بالجدران من الداخل والخارج. وبين الجدارين لا توجد سوى معابر الشياطين. إنها أكثر تحصينا من قلعة أنتيجون. ومن الممكن أن نستنفد وقتا أكثر مما نأمل. فضلا عن إمكانية مجيء المدد والعون لها من البحر. إن محاولات أفرانوس بك وقوتشا قوجه أغلو فرض حصار بحري عليها وقطع طرق الإمداد البحري عنها بالبوارج والسفن البحرية لن تفيدنا كثيرا.

الأمير سليمان باشا الذي كان يستمع إلى الحاج إلباي من ناحية، وفي الوقت ذاته ينظر إلى الرسوم البيانية للحصن الكبير والمبسوطة على الطاولة، قال بصوت هادئ:

كيف قمتم برسم هذه الرسوم البيانية؟

الحاج إلباي :

واحد من الرسل الذين قام فاضل بك بإلقاء القبض عليهم لديه معلومات مفصلة حول هذا الموضوع... بعد أن أعلن أنه مستعد للتعاون معنا، طلبت منه القيام برسم تلك الرسومات البيانية. قام تقريبا برسمها على هذا الشكل.

آمل ألا يضللنا.

سيدي! الروح أغلى من كل من أموال الإمبراطور ومن حصن جاليبولي أيضا. هذا الرجل ذكي بالدرجة التي تجعله يعلم أنه لو قدر لنا أن ندخل القلعة وأدركنا أنه كان يضللنا سيدفع روحه ثمنا لذلك. ولذا لا يساوركم الشك البتة في الرسومات التي رسمها الرجل.

يا سيدي الحاج، إن رغبتي في السيطرة على هذه القلعة تفوق رغبتي في السيطرة على القلاع التي سيطرنا عليها حتى اليوم. يجب أن نستولي عليها في أقصر وقت مهما كلفنا هذا. لا بد من حصولنا على هذه القلعة حتّى نحكم سيطرتنا على الجزيرة، ومن أجل قطع الإمدادات التي ستأتي عن طريق البحر، وحتّى نتقدم بأمان إلى داخل شبه الجزيرة. إن لم نستول عليها خلال مدة وجيزة، أخشى أن يهب الأسطول البيزنطي لدعمها ومساندتها. في الوقت الراهن لا توجد لدينا هنا القوة الكافية لقهرهم هم وقوات الهوسبتاليين البحرية التابعة لهم. فضلا عن أن هذا المكان هو نقطة ارتباطنا الوحيدة بالجهة الأخرى. وإن اجتمعت قوات الهوسبتاليين البحرية مع قواتهم البرية التي ستأتي من الشمال فسيتم القضاء علينا قبل أن نتمكن من العبور إلى الضفة المقابلة. يلزم علينا ألا نعدل عن خط والدي الذي سار عليه نحو ألمانيا.

الحاج إلباي:

أميرنا المفدى، أنا على يقين من أننا لن نحتاج كثيرا لهذا. إن عبرت بقية قواتنا إلى هذه الضفة ستصبح قوتنا مثل قوة بيزنطة الموجودة في الروملي. يكفينا فقط، ألا يعلم أسطول بيزنطة بعبور بقية قواتنا إلى هذه الضفة. فها هي ذي وحداتنا الهجومية قد بدأت من الآن في القضاء على القوات الموجودة على حدود دوقية أينوس وأدرنة. وفقا للمعلومات المتوفرة

لا توجد قوة كبيرة لبيزنطة هنا. هم في موقف خطير وليست لديهم القدرة على حماية بعضهم بعضا. فقد اتجه فاضل بك نحو الشمال ويتقدم دون توقف. من الواضح، أنه لا توجد قوة بيزنطية تستطيع مقاومته في هذه المناطق. ستراه يوما قد بعث برسالة تفيد بلوغه شاطئ البحر الأسود.

سليمان باشا:

هل سيفعل كما فعل المرحوم أقتشا قوجه عند الاستيلاء على شبه الجزيرة الموجودة على الضفة الأخرى؟

الحاج إلباي :

يجب أن يفعل كما فعل هو بالضبط، يجب أن يكون هناك اتصال بين عاصمة العثمانيين والبحر الأسود. بيد أنه يجب أن نستولي على جاليبولي قبل هذا، لأنه لن يكون هناك ميناء آمن إن اقترب الأسطول البيزنطي من هنا. وبعد جاليبولي يجب أن نحاصر أينوس. لكننا قد لا نستطيع التوقف مليا في مكان هذا الدوق الجديد كثيرا. فوفقا لما بلغنا بأنهم قد يحشدون جنودا مرتزقة لأجل إبعادنا عنها. ولذا فإن الاستيلاء على هذه القلعة مبكرا هو من الأهمية بمكان عظيم. وبعد أن نستولي على هذه المنطقة نحاصرها من كل النواحي كي لا يظل لديهم وقت لحشد جنود مرتزقة، أو حتى لالتقاط الأنفاس.

نظر سليمان باشا إلى الحاج إلباي خاطبه بتؤدة قائلا:

لا توجد لدينا في الوقت الراهن قوة نرسلها للهجوم عليهم. لكن لو تمت حملة أبي على ألمانيا سنطلب مجموعة من السرايا ممن هم تحت إمرته. وعندما يأتون إلى هنا نقوم بإرسالهم برفقة شجعاننا البواسل إلى أينوس.

الحاج إلباي:

على أية حال، عندما يظهر أتباع أورخان غازي في مواجهتهم سيدركون جيدا معنى جلب الجند المرتزقة... نظر ثانية إلى الرسوم البيانية للقلعة الموجودة أمامه. هز رأسه التي تبدو وكأنها غارقة في الظل بتأثير الضوء الضارب للحمرة للقنديل الزيتي للأمام مرة أو مرتين. ثم نظر إلى سليمان باشا وقال، "يجب على الجميع التحرك من كل الجهات مع مطلع الفجر" .

وبعد أن رسم سليمان باشا بسمة خفيفة على شفتيه، قال بنبرة أعلى من نبرة حديثه السابق:

عند مطلع الفجر نبعث برسول آخر. وإن لم يقبلوا التسليم، فسنقوم بالهجوم الشامل عليهم كما قلت ...

لنرسل أيضا راهب قلعة تشمبا بصحبة رسلنا. أعتقد أنه سيقنع من بالقلعة. انظر، الراهب يقوم متطوعا بالدعايا لنا في القرى الموجودة في المنطقة المحيطة بالقلعة. حيث كان يقول في كل مكان يذهب إليه، " إخوتي إن كنتم ترغبون في التخلص من دفع الضرائب للبيزنطيين كل يوم، انضموا إلى العثمانيين، واقبلوا بدفع الضرائب مرة واحدة في العام".

سليمان باشا:

يا حاج، هذا الخبر جيد جدا. رغم وجود شعور بداخلي يشبه فقدان الأمل، فإن سماعي خبرا جميلا كهذا قد أسعدني كثيرا.

ولما كان الحاج إلباي يريد التوضيح الدقيق لكل كلمة، كي يعلم فقدان الأمل الذي يشعر به الأمير قال:

هل يوجد شيء ما يريبك أو يؤرقك يا أميرنا؟

قال سليمان باشا بعد أن هز رأسه إلى الجانبين بما يفيد النفي:

إنني على يقين تام بأننا سنستولي على هذه القلعة. ولا أهتم كثيرا بالأشياء غير الحقيقية بيد أن نظر الحصان الأشهب إلى البحر والتقاطه لأنفاسه بسرعة وصهيله عدة مرات في الهواء جعلني أفكر مع نفسي فترة من الزمان.

هل الحصان الأشهب مريض؟

لا ليس مريضا. إنه حصان إحساسه شديد القوة. دائما ما يقوم بفعل هذا كلما أحس بخطر ما.

الحاج إلباي:

شعور الحيوانات شديد القوة، بيد أن خطأهم متحمل بنفس القدر.

نعم من المحتمل أن يكون مخطئا، بيد أنه تملكني شعور بالخوف بعد صهيل الحصان.

قال الحاج إلباي:

فليأتنا الصباح بالخير. أتمنى أن يكون الخطر الذي حاول أن ينبهنا إليه في هذه الليلة فقط.

ربما أبلغنا الحصان الأشهب بخبر نصر الغد كذلك. الآن وقت الراحة. سنستيقظ بعد عدة ساعات وننطلق. كل شخص سينتظر أوامركم في موقعه المكلف به. عيون رجالات إيجه بك الموثوق بهم ترقب الأبواب. نبهنا عليهم

مرارا وتكرارا بعدم السماح حتى للطيور بالطيران من الداخل إلى الخارج. سيبدأ التحرك مع إشعال النيران في الأنفاق التي حفرها حافرو الأنفاق.

استدار سليمان باشا للخلف وبينما يمشي من أجل الخروج من القاعة حاول الحاج إلباي القضاء على القلق الموجود بداخله فخاطبه قائلا:

يمكن أن يكون مع الاحتمال الأسوأ عملية خروج من القلعة. وكما ترون فقد اتخذنا التدابير اللازمة لمواجهة هذا. ليطمئن قلبك سيدي.

أما سليمان باشا الذي خرج من القاعة، وبينما هو سائر إلى حجرته بين المنازل الخاوية وهو يفكر في صهيل الحصان الأشهب الذي جاء به السائس. وكان يهز رأسه إلى الجانبين ويحدث نفسه قائلا: "لم يخطئ في صهيله حتى الآن قط ... بالتأكيد سيحل بنا شيء لا نتوقعه".

(٢٨)

قام اثنان من طليعة حراس كنتاكوزين السادس بقيادة الخيل حتى وصلا أمام الباب المفتوح. وشدا لجام الخيل وأثناء وقوفهما، دققا النظر في المدخل المقنطر الذي يشبه أحد الأنفاق. ولما لم يلاحظا شيئا يثير الريبة استدارا إلى الخلف ونظرا إلى القادة القادمين من خلفهم على بعد عدة أذرع. وقادا جيادهما نحو النفق المقنطر بعدما أعطاهم القادة الإشارة بالاستمرار في المسير للأمام. ولفترة لم يسمع سوى صدى صوت النعال التي تصطدم بالأرض الحجرية للنفق المقنطر الواسع. وعندما وصلا إلى الساحة الموجودة على الطرف الآخر للنفق المقنطر، أرسل قائد حرس الإمبراطور من خلفهم أربعة آخرين من خيرة رجالاته. وبينما يستمع الحراس إلى وقع أقدام الخيل قام بإرسال اثنين من الفرسان كي يتفقدا الدرج الذي يصعد إلى الجدار. وبعد أن أشار كل من ذهب وكأنه يقول " لا يوجد أي شيء يستدعي القلق" قام قائد حرس الإمبراطور برفقة فرسانه بقيادة الجياد إلى المدخل المقنطر. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي ينتظر الخبر القادم منهم، تابع بنظراته المضطربة الاحمرار التدريجي للأفق الأزرق الموجود خلف كريس. وضاق صدره لزيادة ما بداخله من ضيق وضجر. أدار رأسه وبينما ينظر إلى النفق المقنطر من فوق كتف قائد عربة الخيل جال بخاطره توبيخه لقائد الحرس بالأمس، حدث نفسه قائلا: " إن لم يرجع هو الآخر". وكأنه قد ندم

على توبيخه لقائد حرسه فكر قائلا " على الأرجح لم أكن على صواب حينما فعلت ذلك". وعندما رأي عودة قائد حراسه نسي كل شيء، والتفت إلى فقع سوط قائد عربة الخيل. وما إن دخلت الخيل الموجودة في مقدمة الخيول التي تجرالعربة إلى الساحة الموجودة داخل القلعة، حتى سمع صوت الضوضاء الكبيرة التي صاحبت غلق باب القلعة الكبير. وسرعان ما استدار ونظر إلى الخلف من خلال فتحة في الستارة الخلفية. وعندما شاهد تقدم العربة التي تقل الخدم ومن يتبعها من القوات في النفق المقنطر، اطمأن قلبه ونظر إلى الأمام. كانت الساحة الداخلية المفتوحة على المدخل المقنطر لباب القلعة يكتنفها الهدوء والسكون بنفس درجة هدوء وسكون ساحة المرفأ الموجود بالخارج. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي لم يدرك معني هذا السكون، ردد عبارة " هذا السكون والصمت ليس دليلا على الخير أبدا" عدة مرات. فكر مليا في الصوت الغريب الذي صدر نتيجة غلق الباب الضخم من خلفهم. وبينما تقشعر شعيراته حدث نفسه قائلا: " لماذا لا يرُى الحراس؟" ونظر بنظراته الزائغة إلى الساحة مرة أخرى. وبينما يحاول الإنصات إلى الصمت المطبق، نزل من العربة وورد بذهنه لفترة الهروب سيكون من أي الشوارع الضيقة. وفي الوقت الذي حاول فيه مد يده إلى مقبض الباب تراجع عن ذلك. وجذب شعيرات لحيته الكثة بأصابعه الضخمة. ورفع رأسه شيئا فشيئا ونظر إلى شجرة الصنوبر العجوز المتعبة التي تقف منذ عدة قرون وسط الساحة. وضع رأسه بين كفيه محاولا التغلب على مخاوفه وشكوكه. قدح زناد فكره من أجل إعطاء معنى لدفن كل شيء في القسطنطينية التي وصل إليها بعد شوق لمدة أسبوع في هذا الصمت المطبق. وبينما يتفحص الميدان

بنظراته مرة أخرى، قال بصوت عال: "ألا يُرى عبد واحد من عباد الله؟". وبينما يرقب التقدم البطيء للحراس البارعين والفرسان المدرعين نحو الشارع المقابل، تنظر عيناه اللتان اعتادتا رؤية الخضرة المترامية لأيام بخوف يغلفه الحزن إلى البيوت ذات الجدران الحجرية التي تحيط الشوارع الضيقة، لم يكن يصدر من بين شفتيه المتلعثمتين سوى كلمة " غريب". ولهذا السبب كان من المدهش رؤية القسطنطينية أجمل وأغنى بلاد العالم كما يقول غارقة في هذا الصمت والفقر لهذه الدرجة. وكأن هذا لم يكن كافيا، فقد كان خوف الصمت الذي قضى على جسده منذ أن ولج من الباب بمثابة لفح لبرودة ريح لا تتحملها بشرته. وفي اللحظة التي تصلبت فيها شعيرات لحيته المتشابكة ببعضها، صدرت منه إحدى الجمل التي تسيطر على عقله حيث قال: "ما هذا الصمت الذي رعب أكثر من الخوف؟ هذه هي الفقرة التي لم أضفها للمشاهد الختامية القادمة". ضاق صدره مرة أخرى. وتخيل وهو ينظر إلى الشوارع الضيقة، مسير جدران البيوت واقترابها من بعضها وإطباقها على حراسه الموجودين في الأمام، وكذلك هو، وأيضا عرباته وسحقهم كالفاكهة المجففة. ومع تزايد الخوف الموجود بداخله صاح قائلا لقائد عربته: قد الخيل أسرع قليلا.

وكأن صراخه كان قد سيطر على الخوف الموجود بداخله. أما قائد العربة وخادمه الذي يجلس إلى جانبه فإنهما نظرا إليه باستغراب واندهاش. بيد أنه لم يكترث بنظراتهما. وصاح مرة أخرى بصوت أسرع من صوته الذي كان يعتريه الخوف قبل قليل، قائلا: "بسرعة أكثر". وبينما يحاول التغلب على الخوف والانزعاج الناتج عن هذا الصمت، فإن الجياد التي تجر

العربة بين الجدران قد قطعت الطريق ووصلت إلى إحدى الساحات الصغيرة الموجودة بالقرب من القصر. وأما الإمبراطور يوحنا كنتكوزين السادس الذي شاهد قطع عربته للطريق الموجود بين الجدران وخروجها إلى إحدى الساحات الموجودة بالقرب من القصر، فقد أخذ نفسا عميقا؛ ثم حدث نفسه قائلا: "بل لم يطل عبدا من عباد الله برأسه من نافذة بيته". بعد أن دارت الجياد نصف دورة حول شجرة الصنوبر الشابة الموجودة في الميدان الصغير، وبعد أن انطلقت من جديد في الشارع الأكثر اتساعا من سابقه بدأ صدر الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس يضيق مرة أخرى. وكان قد شاهد سقف القصر الموجود على جانب التل إلا أنه لم يكن بمقدوره تخيل إمكانية وصوله إلى هناك مرة أخرى. وبينما يتصور تحقق المشهد الختامي لإحدى حكاياته التي نسجها خياله، ورأى رأي العين اقتراب جدران البيتين المواجهين لبعضهما بعضا على حافة الطريق. أما الجياد التي تجر العربة والتي رأت اقترابها نحو الجدران فقد بدأت في الركض بسرعة من خوفها متناسية الشخصية الموجودة على العربة التي تجرها. ليست الجياد التي تجر عربة الإمبراطور فقط، بل وجياد الحراس الموجودين في المقدمة الأقوى من بعضها البعض، وكذلك البغال التي تجر عربة الخدم التي تأتي خلفهم، وكذلك جياد الحراس الموجودين في الخلف كانت تركض وتصهل في الوقت ذاته. إن الجياد التي كانت تركض على هذا النحو كانت عجلات العربات وكأنها لا تلامس الأرض من فرط السرعة... اندهش الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين لما تعرض له، وكان وجهه قد صار أبيض كالجير. وكان كل ما استطاع أن يفكر فيه هو الإمساك بالأريكة التي يجلس عليها فقط. تأرجحت عربة

الإمبراطور كالمهد المعلق عندما وصلت الجياد إلى طريق المرتفع المؤدي إلى القصر عندما جاءت الأصوات القوية والهائلة من جهة الشارع الضيق الذي مروا منه قبل قليل. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي يرتعد من شدة الخوف، أثناء وقوفه مندهشا لما تعرض له، وصدرت أصوات الجدران المنهارة في الشارع الخلفي. وفي الوقت الذي اختلطت فيه أصوات انهيار الجدران بصراخ البشر، ارتعدت يده التي امتدت لملامسة ذراعه. وقال نيكميدس كبير خدمه الذي انتابه شعور الخوف بسبب رعشة يده، وهو يجهش بالبكاء:

يا مولاي!

أدار الإمبراطور كنتاكوزين السادس رأسه ببطء ونظر إلى كبير خدمه مذهولا. كبير خدمه الذي شاهد الخوف يتجول في عينيه، فتح باب الخزانة الموجودة في النصف الأمامي من العربة وقدم الماء للإمبراطور في كأس فضي. نيكميدس الذي لاحظ أن الإمبراطور لم يتخلص بعد من خوفه وسقاه الماء بيده. أما الإمبراطور الذي استعاد وعيه بعد أن شرب الماء البارد، فسأل قائلا: ماذا حدث يا نيكميدس؟ قال بخجل طفل يكتم شعوره بالندم وكأنه هو المذنب فيما حدث وهو يلهث:

"وقع زلزال يا صاحب العظمة".

أما الإمبراطور كنتاكوزين السادس الذي نزل من العربة بروية متكئا على كتف كبير خدمه، ثم نظر إلى باب حديقة القصر المفتوح. وفجأة ودون أن يتمكن من إدراك ما حدث في البداية رشحت أنفه، وبعد ذلك انهمرت

الدموع من عينيه. ووطأت قدماه الأرض وقال وهو منكب على قدميه: "هذه هي النهاية المناسبة للرحلة الشبيهة بالزلزال".

نظر إلى نيكميدس وقال: أسرع وأخبر من بالقصر ليخرجوا إلى الخارج.

وبينما يركض الخدم والحراس نحو القصر، قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس وكأن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس واقف أمامه: يا ابن أندرونيكوس! قبل الخروج للسفر كنت قد توقعت أن هذه الرحلة لن تأتي لنا بالخير. ولكن إن لم أذهب بعدما ظهر أمامي مظهرك الحزين هذا، كانوا سيقولون بأنك ستتهمني. لذا ذهبت أنا. ماذا حدث؟ وكما لم أستطع تحقيق أي شيء، وحلت على قسطنطينيتنا تلك الفاجعة. ولكن بمجرد أن فرغ من كلامه، شعر باهتزاز الأرض التي يجلس عليها. ثم صرخ وهو يحاول النهوض بخوفه على قدميه قائلا: " ليساعدني أحدكم". إلا أنه لم يكن هناك أي أحد إلى جانبه. وبينما ينظر حوله مذهولا، انهمرت من عينيه الدموع التي انهمرت منذ قليل، وكأنها لم تكن قد أكملت انهمارها. وبينما كان على تلك الحال، فإن الإمبراطورة إيرينا التي أيقظها الخدم خرجت من القصر إلى الحديقة مهرولة تعتريها الحيرة والاندهاش لا تدري ماذا تفعل. وما إن رأت الإمبراطور كنتاكوزين السادس حتى ركضت إلى جواره. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي حاول استيعاب حيرتهم، ابتسمت شفتاه ابتسامة عريضة. ومسح دموعه ونهض على قدميه وأخذ الإمبراطورة إيرينا بين ذراعيه. وفي لحظة العناق هذه، انهمرت كل دموعهما التي أخفياها باعتزاز وتكبر طوال عمرهما. وأما الخدم الذين شاهدوا بكاءهما وقد احتضن كل منهما الآخر

نظروا إليهما وكأنهم ينظرون إلى مخلوق غريب نزل من السماء. وبعد أن بكى الإمبراطور من قلبه وانفرجت أساريره وهو يشعر بنفسه وكأنه خفيف كالطير، وراض بأن يكون وقوع الزلزال هو إنذار له، أثناء سيره نحو القصر ثم حدث نفسه قائلا: " ليست هناك حاجة لمزيد من التفكير"، وخاطب رئيس خدمه الذي جاء إلى جانبه قائلا:

يا نيكيميدس! أولا خذ رجالك وطف بهم حول القصر، وتفحص القصر حتى نعلم ما هو وضعه بعد الزلزال. بعد ذلك جوبوا شوارع القسطنطينية شارعا شارعا. استدار إلى رئيس حرسه. قال لقائد حرس القلعة، لتذهب كل الوحدات الموجودة بالقلعة لمساعدة كل من هو في ضائقة. استدار لزوجته إيرينا. وقال لها: " تم تشييد القصر بأيدي أفضل معماريي الباليولوجيين، لا أظن أنه سيحدث شيء، ولكن لنحترس ولنأخذ حذرنا، ولنجلس لفترة تحت السقيفة".

قالت الإمبراطورة إيرينا وهي تنظر حذرنا إلى وجه زوجها:

منذ أيام وأنا أنظر إلى باب الحديقة دون أن أذوق طعم النوم. كما جافني النوم ليلة البارحة كذلك. غفوت قليلا قبيل الفجر. صمتت لفترة طويلة. حاولت الحديث عدة مرات ولكن في كل مرة من تلك المرات كان يغلبها البكاء وكأن قبضة يد تغلق حلقها وبعد أن توقف الكلام في حلقها تراجعت عما كانت ستقوله.

قال الإمبراطور كنتاكوزين السادس الذي يجلس على الفراش الموجود في العريشة، وهو يعتقد أن النصف ساعة الأخيرة أطول من عمره الذي تجاوز نصف قرن من الزمان:

يا إيرينا! لم يكن يخطر ببالي قط أن يكون الإنسان عاجزا لهذه الدرجة في مواجهة الطبيعة. في أي وقت الأرض التي جلست عليها تبدأ في الدوران ولكن في ذلك الوقت أدركت هذا. آه لو كنت أدركت ذلك من قبل!. وبعد أن توقف فترة، فجأة امتلأت سماء القسطنطينية بالغبار والدخان...

قالت الإمبراطورة إيرينا التي لاحظت أن زوجها متعب جدا:

يا يوحنا تبدو متعبا للغاية.

قال الإمبراطور كنتاكوزين السادس:

نعم أنا مُتعب بالفعل كما أنني أتصبب عرقا.

انتظرا فترة تحت السقيفة الأخبار القادمة من المدينة. ووفقا للأخبار الأولية التي جاءت لم تكن هناك خسائر كبيرة. وعندما فرح الإمبراطور بهذا الخبر، فإن الإمبراطورة إيرينا التي لاحظت أنه على وشك النهوض من مقعده أرسلت للخدم وأمرتهم بتجهيز الحمام. وما إن تلقت خبر أن الحمام جاهز، أحاطت الإمبراطور المتعب بذراعيها وذهبت به إلى الداخل.

(٢٩)

أما سليمان باشا الذي خرج من خيمته قبل بزوغ الشمس في الأفق أمام القمر في كبد السماء مبددة ظلام الليل، فامتطى صهوة الحصان الأشهب الذي أحضره السائس. تلقى الحصان همزة خفيفة بالمهماز في بطنه، ثم مر بين البيوت الصامتة للأحياء الموجودة خارج القلعة، وبدأ في العدو على طول الجهة التي تحيط بالقلعة من جهة اليسار. كان هذا هو التفتيش الأخير للجبهة قبل قرع طبول الحرب. وما إن ينتهي التفتيش كانت ستقرع طبول الحرب وسيبدأ الجميع في الهجوم الشامل والكاسح. في البداية كان حافرو الأنفاق سيقومون بإزالة الأنفاق التي حفروها، ثم سيتم إشعال القلعة بالقذائف المشتعلة والسهام النارية المقذوفة ببعض المناجق، وكان سيتم هدم أسقف المنازل عن طريق قذفها بالحجارة وكرات الصلب بواسطة آلات المناجق. قبل أن يذهب الرعب الذي أحدثته هول المفاجأة الأولى سيقوم رماة السهام بشد أقواسهم القوية، وسيمطرون من في الحصن بالموت. وبينما سيحاول من في القلعة حماية أنفسهم من لحظة الموت غير المتوقعة هذه يكون المتسلقون والفدائيون والشباب قد تسلقوا الجدران و صعدوها.

أما سليمان باشا الذي جعل حصانه الأشهب يسابق الريح التي بدأت تهب من البحر، فأنهى تفتيشه وعندما رجع إلى البناية التي يوجد بها مقر القيادة كان الحاج إلباي ينتظره أمامها. عندما شاهد قدوم الأمير امتطى هو الآخر صهوة حصانه الأدهم الأشد سوادا من أحلك الليالي المظلمة. في

البداية نظر إلى الجبال التي تحجب الشمس التي بدأت تضفي على الأفق اللون الأورجواني شيئا فشيئا، ثم نظر إلى جنود البحرية الذين يقرعون طبول الحرب. رفع سوطه الذي يشبه جديلة شعر مصنوعة من شعيرات رقيقة من صنع يد سروجي موطن الأمير. ونظر ثانية إلى سليمان باشا. ولما شاهد الإصرار الموجود على وجهه المستدير المشرق المواجه للأفق، أنزل سوطه بسرعة إلى الأسفل. وعند بزوغ الفجر في الأفق على الجبال البعيدة بدأت طبول الحرب تدوي بصوت عال. ولأن كل شخص يعرف جيدًا ما سيقوم به في مثل هذا الهجوم الشامل، فإن الشيء الوحيد الذي سيفعله هو إطلاق الصرخات من أجل تحفيز الوحدات التي ستقوم بالهجوم من خلال تشجيعهم عبر ترديد " هيا يا أبطالنا، هيا يا أبطالنا". كانت الوحدات التي تحت قيادة كل من أقجه قوجه أغلو وأفرانوس بك المرابطة على البحر ناحية الميناء قد بدأت في نفس الوقت مع القوات المرابطة في الجبهة الشمالية في الهجوم من ناحية رصيف الميناء. وكانت الحجارة والسهام والرماح تنهال كالمطر على قلعة جاليبولى من كل صوب وحدب. كان قد تم حصار أبواب القلعة المفتوحة على البحر. اشتدت وطأة الهجوم شيئا فشيئا. كان قائد القلعة وجنوده يدافعون عن القلعة ببسالة منقطعة النظير. وعندما يصاب أحد الحراس الموجودين في الأبراج بسهم كان يحل مكانه حارس آخر على الفور، وكانوا يمطرون جند سليمان باشا بالسهام بنفس مهارة زملائهم المصابين. وأثناء تبادل إطلاق السهام بين الرماة من الجانبين، فإن المتسلقين لم يقفوا مكتوفي الأيدي، بل كانوا يصعدون فوق الجدران دون توقف. ولقد كان من الطبيعي عند صعودهم أن يحاول الحراس الموجودون على جدران

القلعة الإطاحة بهم من فوق الجدران. لما بدأت سيوف أوائل المتسلقين تعكس ضوء الشمس التي سطعت من فورها في أبراج القلعة عمت فرحة عارمة بين الجند الموجودين في الخنادق. قارعو الطبول الذين غمرتهم الفرحة فقد بدءوا في قرع طبولهم بقوة أكبر. بعد هذه الفرحة العارمة تسلق عشرات المتسلقين الجدران خلف طلائع المتسلقين. ومن بعدهم أيضا تسلق الفدائيون المشاة الجدران. ومن بعدهم صعد المتطوعون على جدران القلعة. الهجوم الذي زادت وتيرته تدريجيا مع مطلع الفجر حتى شروق الشمس ظهر تأثيره جليا على الموجودين فوق القلعة. السهام التي تنصب كالمطر كانت قد قضت على من يلقون القطران والزيت المغلي من فوق الأبواب على من كانوا موجودين على الباب الرئيسي. كانت قد اقتربت آلات اقتحام القلاع التابعة لوحدات المشاة من الباب. وكأن كل عمليات الهجوم هذه لم تكن كافية، بدأت الأنفاق التي تشتعل فيها النيران منذ بداية الهجوم في الانهيار واحدا تلو الآخر.

أما سليمان باشا الذي تنتصب قامته فوق صهوة جواده، فكان يقود جواده الأشهب على طول الجبهة، وكان يطلق الصرخات من أجل تحفيز جنوده وتشجيعهم، وكان يلوح بسيفه باستمرار نحو القلعة. وعندما رأى آلات اقتحام القلاع والتي على شكل رءوس الكباش تضرب الأبواب قام هو أيضا بقيادة جواده نحو الباب الرئيسي للقلعة، الذي لم يتم بعد القضاء على من يسكبون القطران والزيت المغلى من فوقه. المشاة الذين يحملون رءوس الكباش الذين رأوا مجيئه من بعيد، وبينما كانوا يحمون أنفسهم من الزيت المغلي الذي يصب فوقهم بوضع دروعهم فوق رءوسهم بنشوة غمرتهم من جديد، فإنهم من ناحية أخرى بدءوا في ضرب الباب برءوس الكباش بسرعة

أكبر. وبهذا النهج كان الباب لن يستطيع الصمود بشكل أكبر بيد أن صب القطران أو الماء المغلى أو الزيت المغلى من الفتحات الموجودة فوق الباب باستمرار على الرجال من مستخدمي رعوس الكباش كان يجعلهم لا يؤدون عملهم براحة ويسر، كان المصابون بالحروق ينسحبون، وكانوا يحل محلهم مشاة غيرهم ويستمرون في ضرب الباب بآلاتهم التي هي على هيئة رعوس الكباش. وفي الوقت الذي اقترب فيه سليمان باشا بشكل كبير من رجالات رعوس الكباش الموجودين عند الباب الرئيسي، والذين هم في وضع صعب، وقع صخب مرعب بدرجة لم تألفها الكرة الأرضية. الأمير سليمان باشا الذي يمتطي صهوة جواده، وهو ينظر حوله من أجل معرفة من أين يأتي هذا الصخب، رأى انشقاق الأرض الموجودة أمامه على بعد عدة أمتار، صارت وكأنها خرقة بالية. وشعر بأن هذا الصوت المرعب نتج عن تداخل طبقات الأرض ببعضها في الأماكن التي انشقت. نظر سليمان باشا مندهشا إلى المشاة الذين يفرون إلى المواقع وهم يصرخون من هول الموقف خائفين من الموت. وبينما ينظر للمشاة وعندما توقف الحصان الأشهب فجأة انقلب من فوقه. إن لم يحتضن رقبة حصانه أثناء سقوطه على الأرض، فإنه كان سيسقط في الشق العميق الذي يوجد على بعد عدة أمتار من أمامه؛ وكان سيختفي داخل باطن الأرض الذي يفور من الغليان. وأما الحصان الأشهب الذي احتضن سليمان باشا رقبته فقد تراجع بحرص خطوة خطوة للخلف، سليمان باشا الذي تنفس الصعداء بعدما ابتعد الحصان الأشهب عن الشق الموجود أمامه؛ داعب رأس حصانه وكأنه يقدم له الشكر على ما فعل. واحتضن بقوة رقبة الحصان الأشهب الذي صهل متألما. وقف لفترة مذهولا

غير مصدق لما حدث. وعندما تمالك نفسه أدرك شدة ارتعاد ساقيه، وعدم سيطرته على ركبتيه. نظر وكأنه لا يصدق ابتلاع الأرض المنشقة لعشرات المشاة الذين هم في ريعان الشباب والذين كانوا يسيرون أمامه على بعد عدة أمتار قبل قليل. مهما فكر! أدرك أن الإنسان عديم الحيلة في مواجهة الطبيعة. انتظر إلى أن سيطر على ركبتيه قليلا. وعندما شعر بأن ركبتيه قد تحسن حالهما بشكل بسيط جثم بهدوء وجلس. وبينما هو جالس نظر أيضا نحو القلعة. كان الصدع المشقوق في الأرض قد مر من أسفل جدار القلعة، وذهب إلى داخل القلعة محطما كل من الجدار الخارجي العريض والجدار الداخلي للقلعة. سليمان باشا الذي لم يستطع أن يبعد نظراته عن جدران القلعة المنهارة، أفاق لنفسه بشكل أكثر عندما شاهد حصانه يمس كتفه بأنفه. وشاهد أحد الفدائيين الذين نجوا من الدفن في الأرض والموجود إلى جواره يمد له يده بقربته الممتلئة بالماء، نظر إلى فدائيّه هذا بنظرات مليئة بالامتنان والتقدير. أخذ القربة وتجرع عدة جرعات من الماء. انشقت الأرض مرة أخرى. وبينما صدى أصوات مشاة جنده الذين ابتلعتهم الأرض قبل قليل ما زال يطن في أذنه حتى الآن، أحس بتنامي رغبة البكاء التي تقف في حلقه وتحرق أنفه شيئا فشيئا. وعندما شعر أنه لن يتمكن من السيطرة على نفسه أكثر من ذلك نهض واقفا على قدميه واحتضن عنق حصان وأخذ يجهش في البكاء بصوت عال. وبكاؤه مرتعد على هذا النحو كان جيدا له. سحب يداه ببطء من على عنق الحصان وجثم ثانية على الأرض. وبينما كان ينظر نحو القلعة أدار وجهه نحو الشمس التي ارتفعت في الأفق. وحدث نفسه بصوت يرتفع شيئا فشيئا قائلا: " إلهي! فتحت لنا القلعة التي نحاول فتح بابها منذ أيام

من كل الجهات. والآن هل هذا رحمة لنا، أم غضب علينا؟ من المستحيل أن أدرك ذلك، لأنني في الأغلب لن أستطيع طوال حياتي نسيان ذلك الصراخ الذي سمعته قبل قليل. لا يمكن أن أنسى هذه الإحسان الذي جاء مع تلك الصرخات التي ستشد من عضدي.

وضع وجهه بين كفيه وبقي على هذه الحال مدة. وبعد أن ذرف آخر العبرات من عينيه نهض واقفا. وبعد أن شعر بتحسن حاله قليلا أدرك أفضلية الزمان والمكان الذي يوجد به. سليمان باشا الذي حدث نفسه قائلا: " في الوقت الذي بدأنا فيه الهجوم مبكرا وقلنا قبل أن يستيقظ أهل القلعة ليقع الضرر على المحصنين خلف الأبراج وعلى الذين وضعوهم في مواجهتنا. ولكن الآن انقلبت القلعة رأسا على عقب. ما علينا فعله الآن هو مساعدة هؤلاء الذين يعيشون ظروفا صعبة على تجاوز الكارثة التي ألمت بهم"، ثم صمت؛ جاء الحاج إلباي إلى جواره. انتابه القلق عندما شاهده ينظر لما حوله بعينين شاخصتين ويحدث نفسه على هذا النحو. وما إن نزل من فوق حصانه حتى ربت على كتفيه برفق إلا أن سليمان باشا استدار واثبا.

الحاج إلباي: إنه أنا يا سيدي.

بعد أن نظر سليمان باشا بعينين شاخصتين لما حوله وكأنه لم يسمعه لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك وعانق الحاج إلباي، وبدأ يجهش ببكاء عميق وهادئ وكأنه لم يكمل بكاءه الذي حدث قبل قليل.

لاحظ الحاج إلباي الذي احتضن سليمان باشا بذراعيه القويين بينما يستمع للبكاء الصامت لسليمان باشا الذي يحبه بشوق طفل، وجود تأثر

وانفعال مختلف في شخصيته. وقف صامتا على هذا النحو دون أن يتعجب من بكاء هذا الرجل الذي يتحدى الموت في ساحات الوغى على هؤلاء الناس الأبرياء الذين لقوا حتفهم دون جريرة. وبينما هو واقف على هذا النحو فكر في إيجاد وسيلة تخرجه من هذه الحال الشعورية التي يمر بها وتجعله يعود لنفسه. أمسك بيدى سليمان باشا. تراجع قليلا للخلف ونظر إلى وجهه. أغمض عينيه وهز رأسه للأمام وللخلف عدة مرات وكأنه يقول له إنه يشاركه أحزانه. وعندما شاهد هدوء سليمان باشا تماما، قال:

يا سيدي! حزنك عليهم لن يفيد أحدا ولن يجدي شيئا. إن ما علينا فعله الآن ليس هو البكاء على من قضوا نحبهم، بل مساعدة من بقي على قيد الحياة. بعد أن صمت مدة أدار رأسه يمنة ويسرة، خاطب الفدائيين وجند المشاة الموجودين بالقرب منه قائلا: هيا أيها الشجعان فلنسرع لإنقاذ ما يمكننا إنقاذه ممن تحاول الأرض ابتلاعهم ويصارعون الموت من أصحابنا، ولنهب لنجدة من هم بداخل القلعة ممن يحتاجون إلى مساعدتنا. خفض نبرة صوته قليلا وقال: " إنه من الأفضل قيامنا بإخلاء الأحياء الخارجية، وإلا سيظل الكثير منهم تحت الأسوار المنهارة."

هدأ سليمان باشا الذي سمع حديثه. ونحى بكاءه وكذلك مشاعره جانبا وقام بالمساعدة في إخراج بعض المشاة من التراب الذي غمرهم حتى خواصرهم. وقال لينسحب تماما الفرسان الذين ينتظرون فتح الأبواب وليسلموا خيولهم إلى السائسين وليأتوا لمساعدة المشاة. وبعد أن أصدر تعليماته لقادة المشاة بإنقاذ كل من يمكن إنقاذه من الجند ومن خلفه اجتاز الحاج إلباي مع مجموعة وحدات المشاة جدار القلعة المنهار من خلال عدة

أماكن. تسلق أحد الأبراج السليمة ونظر إلى داخل القلعة وخاطب المشاة الذين يتبعونه وينتظرون أوامره قائلا:

أيها الأبطال! قبل قليل كان كل واحد منكم جنديا مقاتلا. وكنت قد أصدرت لكم التعليمات بقتل كل من يقاومكم ويقف في وجهكم. والآن وبفضل من الله تعالى لا يوجد من يقاومكم أو يقف في وجهكم. لذا ضعوا سيوفكم في أغمادها، ولتساعدوا الذين ينتظرون مساعدتكم تحت الأنقاض. ليبق البعض منكم بسيوفهم في نوبات الحراسة. ربما يراكم المهاجمون فينتابهم الذعر. فلا تضحوا بأنفسكم وأنتم تسعون لإنقاذ من هم تحت الأنقاض. لا تنسوا لا سلب ولا أسر لأحد... إلا نقل الجرحى إلى حيث يوجد الأطباء وجمع غير المصابين. في ميدان آخر.

أنهى حديثه هذا ولما صمت دخل المشاة في مجموعات بين الأنقاض. وقال الحاج إلباي الذي ينظر من خلفهم بصوت حزين وهادئ:

كنا قد قمنا بالإغارة على إحدى الجزر الموجودة في بحر الجزر بأسطول أهالي قراسي الصغير. وكأن الجزيرة كانت تنتظر إغارتنا فما إن وطأت أقدامنا الشاطئ بدأت أرضها في الانشقاق على النحو الذي حدث اليوم بالضبط. تجمدنا جميعا كل في مكانه من الخوف. وبمجرد أن سيطرنا على أنفسنا اعتبرنا هذه الجزيرة جزيرة مشئومة وتجمعنا وركبنا قواربنا وذهبنا. وفي الواقع لم يتم التمكن من الإغارة على أي من الجزر حتى الآن.

قال سليمان باشا الذي لم يستطع الإنصات إلى حديثه بدقة:

كلما كنت أنهض من سريري كل صباح كنت أقول لنفسي لا توجد أقوى من هذه الأرض التي تطؤها قدماي، بيد أنني اليوم أدركت أنني كنت مخطئا بشكل كبير.

حاول الحاج إلباي إخفاء معرفته ومعتقدا بأن دفع سليمان باشا للعمل دون الحديث كثيرا قد يكون أكثر نفعا له، فقال:

يا سيدي! الوقت ليس وقت الحديث، بل هو وقت إنقاذ من دفنوا أحياء تحت الأرض. سنقوم بإنجاز هذه المهمة بالمشاة الموجودين معنا دون انتظار من سيأتون للمساعدة. أذهب أنا على رأس المشاة، وأنتم أيضا ضعوا الحراس المناوبين على المداخل؛ واجمعوا الجرحى الموجودين في الشوارع في الساحات والميادين. هيا بالتوفيق. وسار أمام المشاة الذين أخذهم معه.

كان سليمان باشا الذي كان مع جواده الأشهب أشبه بعاصفة هبت على سطح الأرض وهو يحاول تنفيذ ما قاله الحاج إلباي من ناحية، ولكن من ناحية أخرى كان لا يغيب عن مخيلته أيضا صور جنده الذين دفنوا في باطن الأرض مع الحجارة أثناء انهيار جدران القلعة.

(٣٠)

عندما استيقظ الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس بدأ يشعر بنفسه وكأنه سحلية غطت في سبات الموت منذ سنوات. وهو يدفع اللحاف الموجود فوقه برجله جانبا ، وحدث نفسه قائلا: " لماذا إحدى السلاحف؟ ولِمَ ليست أفعى أو إحدى السحالي؟." وبينما كان يجلس على فراشه على هذا النحو، واصل حديثه لنفسه قائلا: " في الأغلب أنا في عمري هذا أشبه بدرجة كبيرة إحدى السلاحف التي تحاول نقل الحمل الثقيل الموجود فوق ظهرها" وبعد هذه الجملة واصل حديثه، قائلا: " حتى وإن كنت مسنا فلست ثقيلا لهذه الدرجة."، في الحقيقة أنا أزحف مثل الثعبان"... عندما أنصاع لمطامعي أشبهه لدرجة كبيرة، لأنني أقوم بتسميم كل من يقف في وجهي. حسن، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا شعرت بأنني أشبه الحيوان الذي لا يوجد أي شبه بيني وبينه قط؟ ربما يوجد في الماء الذي شربناه من النبع الموجود بالقرب من برانتوس أشياء تضفي الحيوية على الإنسان. ولهذا أيضا فمن المحتمل أن أكون قد قمت بتشبيه نفسي بأسرع الزواحف... ولربما لأنه يشبه ... الذي رأيته قبل أن أنام". وقبل أن ينهي جملته هذه، وبينما يهز رأسه يمنة ويسرة وهو يبتسم، ومن أجل تغيير الموضوع، قال: " إنني طوال الطريق لم أفعل شيئا مرهقا أو متعبا، ولكن عندما نزلت من العربة كنت شديد الإرهاق للغاية. أعتقد أن ذلك كان تعب الخوف الموجود بداخلي والذي تسرب لبدني." توقف فجأة. ولما تذكر الزلزال الذي نسيه حين غفلته، قال: " كيف نسيت

ذلك؟ بالقطع لقد كان إرهاق الخوف الذي أحدثه الزلزال". وفي الصباح حاول لفترة تذكر تفاصيل كل ما حدث. حرك شفتيه. وكأنه يتمتم، حدث نفسه قائلا: " إن اهتزاز تلك الأرض التي كنت أقف عليها كالمهد، ذكرني بأن كل شيء لا قيمة له. كنت أظن أن الإمبراطور هو كل شيء. بيد أن الأمر ليس كذلك". وبينما ينظر من جديد إلى مكان الاستحمام المغلق بالستائر وكأنه لا يتخلى عن التفلسف، وبعد أن قال: "أعتقد أن طمعنا فضيلة، وفي الأغلب لا توجد أي صلة بين الاثنين" استغرق في التفكير فيما سيقوله عن الحياة من خلال المعلومات الموجودة في عقله، في الواقع كان لا يستطيع تذكر الكثير من الأشياء من أقوال الفلاسفة الذين كان شغوفا بهم في شبابه بيد أنه كان يستحسن التنقل بين (ذكر) جملهم التافهة. وبعد أن أدرك الإمبراطور يوحنا كنتا كوزين السادس الذي استعاد وعيه أنه يجلس على فراشه شبه عار، تجاوز تلك اللحظة بخجل مختلط بالابتسام، وبعد أن تجاوز حالة الابتسام تلك نهض واقفا على قدميه.

الإمبراطورة إيرينا التي أصابها القلق بسبب نوم زوجها الذي عاد من السفر صباحا بمجرد دخوله إلى الفراش، أمرت باستدعاء الأطباء، بعد أن علمت أن زوجها ليس به أية علة سوى الغط في سبات عميق تركته في الفراش، كانت قد خرجت في جولة استكشافية في القصر مع خدمها لتفقد ما إذا كان القصر قد لحقت به أية أضرار من جراء الزلزال أم لا. وعادت بعد فترة أخري بعد أن علمت أن القصر لم يلحق به أية أضرار مؤثرة، وبينما تنتظر استيقاظ الإمبراطور الذي ينام في الغرفة المجاورة، كانت قد بدأت في الحديث مع الجواري اللواتي هن في ريعان الشباب واللائي اشتراهن دوق

أينوس من سوق أهالي جنوة وقام بإهدائهن إلى القصر حديثا. الجواري الشابات اللواتي يجتهدن من أجل الوصول إلى إجابة عن الأسئلة التي سألتها الإمبرطورة إيرينا، ما إن سمعن وقع أقدامه في الغرفة المجاورة، حتى نظرن إلى عينى الإمبراطورة إيرينا. ولما أشارت الإمبراطورة لهن بالدخول إلى الداخل قام أربع منهن بالدخول فورا إلى الداخل. ومن بعدهن دخلت الإمبراطورة إيرينا إلى غرفة النوم. وما إن دخلت الإمبراطورة حتى خاطبت الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي يسير نحو حوض الاستحمام الصيني المصنوع في البندقية قائلة:

يا يوحنا إن الرسل الذين أرسلهم صهرك والإمبراطورة الأم ينتظرونك منذ عدة أيام.

أما الإمبراطور الذي يغمس بدنه في الماء الفاتر المخلوط بماء الورد المتعدد الأنواع الموجود في حوض الاستحمام، فإنه لم يجب على الإمبراطورة على الفور. بينما يحاول ترك نفسه لأطراف أصابع الجواري الحسان المفعمة بالحيوية والنشاط أحس بتأثر مشاعره التي غطت في سبات عميق لعدة أيام. ارتعد وكأن الإبر قد وخزت لحم مؤخرته كبيرة الحجم. وبينما ينظر إلى الكيس الذي يدلك به أحد قدميه، قال: "لماذا على لحمي الكبير الموجود في مؤخرتي؟". وقبل أن ينهي جملته حائرا مندهشا، حدث نفسه قائلا: " كان بإمكاني قول شيء آخر. الآن من أين خرجت مؤخرتي؟...". ثم ترك نفسه مرة أخري لأصابع الجواري الحسان لتدليك جسده. وبعد أن ظل على هذا الحال فترة من الزمن ودون أن ينبس ببنت شفة، وبعد أن توقف عن التفكير نظر إلى الإمبراطورة ايرينا وقال:

سألتقي بهم بعد الاستحمام.

الإمبراطورة إيرينا وهي تنظر إلى الجواري الحسان: وكأنها تلومهن:

لا أظن أنه سيخرج اليوم من الحمام، إن أردت فلتلتق بهم غدا...

صار الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين وكأنه يشعر مرة أخرى بوخز الإبر الذي كان قد شعر به في لحمه الضخم قبل قليل. وبينما يبتسم همهم قائلا " يلا للعجب". ثم قالت الإمبراطورة إيرينا التي سمعته أثناء سيرها نحو الباب:

لا يوجد أي شيء يستدعي الحيرة والعجب يا حياتي... إن دوقية أيونس أرسلت جواري مثل القمر. أنا أيضا كنت قد اشتريت اثنتين ماهرتين مثلهن وكأني لم أكتف بهن.

فكر الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين لفترة قصيرة لماذ قال الكلمة التي خرجت من بين شفتيه قبل قليل؟ وفي كيفية فهمه لمعنى الكلمة التي قالتها زوجته. وبينما كانت الإمبراطورة على وشك الخروج من الباب كرر جملته التي قالها قبل قليل مرة أخرى:

إن طال وقت الاستحمام قليلا، فسيكون لقائي بهم؛ هو أول عمل أقوم به بعد الخروج من الحمام.

لم تسمع الإمبراطورة إيرينا أثناء قيامها بغلق الباب الكلمات الأخيرة للجملة التي قالها، ولكنه اهتم بهذا الموضوع المهم جدا لزوجته، حتى أنه أوقف تدليك الأصابع الماهرة الخبيرة للجواري الشابات لجسده، وكان قد أيقن أنه سيلتقي في ذلك اليوم الرسل الذين جاءوا.... وها قد حدث ذلك.

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين الذي فكر كثيرا طوال رحلة الذهاب إلى نكاية والعودة منها، معتقدا بأن الذين يطلقون عليه لقب "الإمبراطور الغاصب" لن يستطيعوا أن يكونوا مخلصين له في أي وقت، وأن الإمبراطورية لن تكون دون أفراد عائلة باليولوج. وكان قد توصل إلى قرار مفاده: أن يقوم في أقرب وقت بإحضار يوحنا باليولوج الخامس من تندوس إلى القسطنطينية، وعمل اتفاق يضمن مصالح العائلتين معا، وأن تُدار الإمبراطورية بشكل مشترك.". ولهذا رأى أن خبر مجيء الرسل الذي زفته إليه الإمبراطورة إيرينا هو إحدى الفرص المواتية لذلك، حتى أنه ترك أصابع الجواري الرقيقة الدافئة التي تتجول على جسده، والتي تسحبه نحو بئر الشهوة عند رأس حوض الاستحمام، وارتدى ملابسه على وجه السرعة، وذهب إلى قاعة العمل من أجل الالتقاء بالرسل الذين أرسلتهم عائلة باليولوج. وفي القاعة كان ينتظره الرسولان مع كبير الخدم وأمين أسرار نيكيدس. لما رأوا دخول الإمبراطور هبوا واقفين ومالوا برءوسهم إلى الأمام وألقوا التحية عليه. أما نيكيدس الذي لم يصطبر من أجل تقديم الأخبار الخاصة بالزلزال، بمجرد أن جلس الإمبراطور على كرسي عرشه الموجود خلف طاولة عمل الإمبراطور، خاطبه قائلا:

يا صاحب الجلالة! وفقا للمعلومات التي قدمها رجالاتنا الذين طافوا قسطنطينيتنا الحبيبة شارعا شارعا، فلله الحمد لم توجد أية حالة وفاة في قسطنطينيتنا. ولقد نجا بعض مواطنينا الذين انهارت منازلهم بعد إصابتهم بجروح خفيفة. وعلى الفور سيقوم أصدقاؤكم المخلصون بأمر تابعيهم بترميم بيوت مواطنينا التي انهارت. وتلقينا خبر انهيار الكثير من البيوت الرومانية

الموجودة في منطقة سيكوديس وكذلك كل بيوت اليهود المنتشرة على قمم بيرا تقريبا...

وسرعان أن قال الإمبراطور كنتاكوزين السادس:

هل تم إرسال من يقوم بتقديم الدعم والمعاونة لهم؟

تجمد لسان نيكيدس في فمه وكأنه قد قال شيئا غير صحيح. مرة أخرى تجمد لسانه في فمه وابتلع ريقه. وظن الإمبراطور الذي ينظر إليه، أنه قد ابتلع لسانه. ولكن بعد فترة قام نيكيدس بتحريك لسانه داخل فمه فجأة وبعد أن ابتلع ريقه، ثم قال:

يا صاحب العظمة! أُرسلت المساعدات على الفور إلى سيكوديس، لكن تعلمون جلالتكم أننا لم نستطع إرسال أي شخص لمساعدة الموجودين على قمم بيرا لأنكم تعتبرون من هم داخل القلعة من الملاعين منذ عهد الرومانيين وحتى الآن... وبأوامركم أنتم وحسب يمكن أن يقدم أهالي جنوة الموجودون في غلاطة الدعم والمساندة لهم. بدا الغضب على وجه الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس. وامتدت شفتاه إلى الأمام. وبعد أن حرك رأسه على يمينا ويسارا، قال:

انتبه يا نيكيديس! إذا كنا مازلنا ندعى أننا أباطرة، فنحن مجبرون على تقديم الدعم لهم فورا. لأنهم هم أيضا جزء من هذه الإمبراطورية. وكونهم يهودا لا يسلب منهم هذا الحق. وهل علينا أن نتصرف تجاه هؤلاء مثل اليونانيين الذين يحرمون عليهم حتى شراءهم للخيل التي تجر عرباتهم من داخل القلعة إلى قمم بيرا؟ وهل علينا أن نتركهم مع أنفسهم في هذه الأوقات

العصيبة؟ كلا ليس من حقنا فعل هذا. لتبلغ قائد القلعة فورا، ليشكل وحدة إنقاذ من حراسنا ويرسلها إلى قمم بيرا... وأنا كذلك سأقوم فورا بكتابة رسالة إلى رئيس حي أهالي جنوة من أجل قيامه بتقديم المساعدة ومن أجل إعادة بناء كل البيوت التي انهارت، اذهب أنت على الفور إلى رجلنا قائد القلعة، وأبلغه بأوامري. وأنا فور انتهاء عملي سأكتب رسالتي وأرسلها إلى رئيس الحي. والآن أريد الاستماع إلى الرسل الذين أرسلتهم عائلة باليولوج. آمل أن تكون لديهم الرغبة في إنهاء هذه المسرحية الموجودة بيننا وبينهم. في الواقع لقد سئمت أنا أيضا من استمرار هذه المسرحية.

قبل أن يخرج نيكيدس للخارج اقترب من رسل عائلة باليولوج الذين ينتظرون بجانب الباب. وأخذ الرسالة المكتوبة على ورق البردي والتي هي على شكل لفافة من يد أحد الرسل الذي يمسك بها في يده. نظر عن يمينه ثم نظر عن يساره. وضع طرف لسانه بشكل خفيف على الرسالة وابتلع لعابه. وبعدما تيقن من عدم وجود أي أثر للسموم مد يده بالرسالة إلى الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس. وخرج من القاعة فور إعطاء الرسالة للإمبراطور. ثم خرج إلى خارج القاعة وأثناء إرساله مساعده إلى الداخل من أجل توفير الحماية، فتح الإمبراطور الرسالة وبدأ في قراءتها بروية. وبعد أن تأمل الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي فرغ من قراءة الرسالة، فكر وتدبر الأمر في عقله نظر إلى الرسل بعينيه اللتين اغرورقتا بالدموع. وكما يفعل باستمرار عند اتخاذ القرارات المهمة، شخص بعينيه لفترة إلى الرسل الذين ينتظرون عند الباب. يقول الإمبراطور دائما بأن نيكيدس " مجتهد جدا". وبينما ينظر إلى مساعد نيكيدس الذي لا يحبه قط قال للرسل بشفتيه المتلعثمتين:

أعتقد أنكم حصلتم على القدر الكافي من الراحة عندما كنتم تنتظرون قدومي. تستطيعون السفر فورا. عليكم أن تعودوا إلى الجزيرة بسرعة الريح، وما إن تصلوا إلى الجزيرة أبلغوا صهري ابن أندرونيكوس يوحنا باليولوج الخامس شريك عرش الإمبراطورية بأن يقوم بعمل الاستعدادات من أجل العودة إلى القسطنطينية. فور انطلاقكم للسفر سوف أرسل إلى قائد الأسطول ليأتي بنفسه ليأخذهم ويأتي بهم. هيا لتكن رحلتكم ميسرة وموفقة...

ولم يكد الرسل يخرجون من غرفة الإمبراطور الغاصب وهم مسرورون لحملهم بشرى هذا الخبر الجيد للإمبراطور الشاب حتى انطلقوا فورا إلى الإسطبل الذي توجد به جيادهم. الإمبراطور الذي ينظر نحو الباب الذي تم غلقه بعد خروجهم فحدث نفسه قائلا:

كما يرضى قلب كل أب، ليرضى قلبي على حال ابننا هذا. سيتهمني ماتيوس بالجبن ولكن ليكن وليتهمني. وقال بصوت عال وهو ينظر إلى الرسالة التي أرسلتها أسرة باليولوج والموجودة على الطاولة: فكما هو ابني فهي ابنتي هي الأخرى.

(٣١)

كان لم يعد هناك أي فرق بين سليمان باشا الذي يرتدي ملابس الأمير والذي هب لمساعدة من هم تحت المباني المنهارة وبين من هم بجانبه من المشاة. وكان قد نسى نفسه وكذلك كونه ابن السلطان وهو يقدم المساعدة للمحاصرين المحبوسين في الفراغات الموجودة تحت الأسقف المنهارة والجدران المتهدمة، للذين فقدوا أطرافهم بين الحجارة والأخشاب ويحاولون إنقاذ ما بقي سليما من أجسادهم، إلى الذين يحاولون إزاحة وبعثرة تراب الموت الموجود فوق رءوسهم بأصابعهم، للجثامين التي سُحقت تحت الكتل الخشبية الضخمة، وللجرحى الذين خرجت عظامهم من لحومهم. وبينما كان يضع أحد الأشخاص الذين أخرجهم من تحت تلك الأنقاض ويضعه على الأرض ويركض من أجل تقديم المساعدة لشخص آخر، كان من تم إنقاذهم رجالا كانوا أو نساء، طفلا كان أو مسنا يبكون بعويل من شدة الألم. وكان هذا البكاء يمزق قلب سليمان باشا، وكان يجلس إلى جوار من يبكون وهو يرغب في البكاء معهم. ولكن عندما يرى شخصا آخر ينتظر الخلاص والنجاة كان ينسى بكاء الباكين، وكان يركض من جديد لمساعدة شخص آخر. ونظرا لكثرة عدد الجرحى الذين تم نقلهم إلى الساحات الموجودة بجوار جدران القلعة المتينة التي لم تتضرر من الزلزال، لم يكن هناك مكان لوضع الجرحى الذين يتم إنقاذهم.

أما سليمان باشا الذي واصل قيامه بأعمال الإنقاذ دون الحصول على أي قسط من الراحة، فإنه قال بعد أن خاطب الفرسان الذين جاءوا لمساعدة المشاة في أعمال الإنقاذ:

افتحوا ساحات جديدة من أجل الجرحى، عاد مرة أخرى لمواصلة عمله الذي يقوم به. سليمان باشا الذي يتابع حافري الألغام الذين جاءوا بعد الفرسان والذين يقومون بعمليات الإنقاذ بمهارة بالغة، ثم حدث نفسه قائلا: إن المثل الذي يقول: " إعطوا العيش لخبازه، حتى وإن كنت ستعطي ضعف الخبز الذي ستحصل عليه حتى يقوم بخبزه على نحو جيد" لم يكن من فراغ. وحدث نفسه وهو ينظر لأحد حراس القلعة الذي يرتدي الدروع من من رأسه حتى أخمص قدميه والذي تم إخراجه من تحت الأنقاض، قائلا: " كانوا يقولون بالأمس إنه ومن أنقذوه أعداء لبعضهم بعضا". ونظر نحو البيوت والجدران الداخلية للقلعة التي انهار نصفها تقريبا. رفع رأسه ولما نظر إلى الشمس، خاطب الفدائي الموجود إلى جواره قائلا:

لم نستطع أن ندرك أننا في وقت الظهيرة... ولما شاهد كبير خدمه الموجود إلى جانبه مباشرة والذي يحمل أحد الجرحى، قال له: أعلنوا بأننا بعد تسليم الجرحى للأطباء سنعطى فسحة من الوقت من أجل تناول بعض الطعام. وقدم المساعدة لمن هم بجواره لفترة. وبعد أن أعلن خادمه ما قاله له بصوت عال، بدأ هو أيضا في تناول بعض المأكولات التي أحضرها. وما إن تناول بعض اللقيمات، حتى شعر بوقفها في حلقه. وحدث نفسه قائلا: " من الغريب جدا! أن أفكر في تناول بعض الأشياء بين رائحة هذه الدماء والصراخات المليئة بالآلام". نهض على الفور وأراد الذهاب والسير إلى

الذين ينتظرون المساعدة، ولكن عندما شعر بشدة الجوع أجبر نفسه على تناول بعض اللقيمات. ولم يفكر في أي شيء قط حتى انتهى من تناول كل الطعام الذي قُدم له. وفور فراغه من التهام طعامه وكأن شيئا لم يكن، نهض وبدأ في السير بين الأنقاض. وبينما كان يمشي بجوار بعض الجدر المنهارة سمع صوت صراخ وأنين جماعي. وبينما يحاول التوصل ومعرفة الجهة التي يأتي منها هذا الأنين وتلك الصراخات، رأى كنيسة القلعة التي انهار نصفها. وعندما بدأ في الاقتراب من المبنى المنهار، ولما سمع ازدياد صوت الأنين وصراخ الاستغاثات، قال لنفسه:" في الأغلب أن من بالداخل يرونني". وبينما يدقق النظر إلى المبنى المنهار، صاح قائلا:

ليأتى حافرو الأنفاق إلى هنا. وأما الفدائيون الذين سمعوا صوته فاستدعوا حافري الأنفاق على الفور. ولما جاء حافرو الأنفاق إلى جانبه وهم يركضون، قال:

ليس لدينا ما نضيعه من الوقت. لتأخذوا حذركم أولا، ثم أنقذوهم جميعا.

وما إن دفع سليمان باشا بحافري الأنفاق للمهمة الجديدة، حتى جاء أفرانوس بك إلى جانبه وهو يهز عنقه. وقال بصوت حزين:

لا بأس عليك يا أميرنا...

ولما رآه سليمان باشا شعر فجأة بالقوة... وقال:

لا بأس عليكم أنتم أيضا يا أفرانوس بك... وبعد أن نظر برهة لوجهه الأسمر البسيط، قال: لأول مرة، أرى ظمأ التراب الذي وطأته أقدامنا لدمائنا أكثر من كل أعدائنا. لو لم يكن الحصان الأشهب الذي وضعت رأسي على

عنقه لابتلعتنى هذه الأرض أنا أيضا. من هول الصدمة كنا لا ندري ما يتوجب علينا القيام به، هل نشكر الله على ما ألم بنا، هل نترحم على من هم تحت الأنقاض، وهل نقوم بتقديم المساعدة لمن هم يحتاجون إليها؟ وبعد ذلك ودون أن أفكر في أي شيء قط أتيت لنجدة من يحتاجون المساعدة. كيف نجوتم من هذه الكارثة؟

نحن في ذلك الوقت كنا ناحية رصيف الميناء. والموقع هناك شديد المتانة. لم يصبه الانهيار رغم تأرجحه كثيرا. بيد أن الأمواج التي ارتفعت على نحو غير مسبوق، واعتقدت لفترة بأن الماء سوف يبتلعنا، ويبتلع الدنيا كلها. وبعد عدة ثوان وبعد أن رأيت الجثامين بدأت تتقاذفها الأمواج على سطح الماء تملكنى الرعب والفزع. كان من الممكن أن أكون أنا أحد هذه الجثامين. بعد أن انحسرت الأمواج تملكتني الصدمة والذهول مثلكم، ولم أدر ما يتوجب علي فعله، ومكثت فترة أحدث نفسي قائلا: هل أشكر الله على ما ألم بي، أم أتحسر على ما رأيته؟. وبينما كنت أتجول كالمجنون على هذا النحو، جاء الأطباء لمساعدتي وأنقذوني من حالة فقدان الوعي التي كنت أعيشها...

أما الطبيب الذي لم يفارق أفرانوس بك قط أثناء ذلك، فجاء معه هو الآخر. وبعد أن نظر مبتسما إلى الأمير الذي يغطيه التراب، قال:

لا بأس عليكم يا أميرنا. وسار نحو الساحة التي نظفها حافرو الأنفاق الموجودة على مقربة منهم. وعندما جاء إلى الساحة قال لمساعديه الموجودين خلفه، لنقم نحن أيضا بفحص الجرحى الذين خرجوا من الكنيسة.

انهمرت الدموع من عيني سليمان باشا الذي يشاهد كل ذلك من فوق كومة الحجارة التي يقف عليها بعد أن شاهد وصول حافري الأنفاق إلى المحاصرين في الكنيسة من خلال الممر الذي فتحوه بمهارة شديدة. وبينما كان ينظر بامتنان إلى حافري الأنفاق، رأى انسحاب كل المشاة الذين يرفعون حجارة الجدران المنهارة مرة واحدة وهم يصرخون قائلين آه. سليمان باشا الذي أصابه الفزع من صياحهم على هذا النحو، وبينما كان يقول: " يا ترى ماذا حدث؟"، فإن أفرانوس بك رابط الجأش؛ كان قد تقدم عدة خطوات نحو المشاة ووصل إلى جانبهم. إلا أنه أصيب بالدهشة عندما وصل قبالة ما شاهدوه، وصرخ قائلا آه على النحو الذي فعله المشاة. وأما سليمان باشا الذي أصابه القلق بدرجة كبيرة فركض هو الآخر وجاء إلى جانب المشاة. وأفرانوس بك وهو ينظر وكأنه لم يصدق ما يراه، قال:

لا بد أن هذه هي البناية التي يقيم بها حراس القلعة. لقد سحقتهم الحجارة التي سقطت عليهم.

سليمان باشا الذي لم يستطع أن يتذكر أية كلمة يمكن أن يقولها، وكأن كل الأفكار الموجودة في عقله قد مُحيت تماما. وبينما ينتظر علىٰ هذا النحو وكأنه قد ابتلع لسانه، فإن طبيب أفرانوس بك الذي جاء إلى جواره طلب من مساعديه إحضار الماء بسرعة. لما أحضر مساعدوه الماء غسل به وجه الأمير. سليمان باشا الذي استرد وعيه قليلا بتأثير الماء البارد، حرك رأسه إلى الجانبين، وكان ينظر إلى أفرانوس بك ويقول: كان نصرا من أي نوع؟ لم نلطخ سيوفنا بالدماء ولكن تلطخنا بالدماء حتى مرافقنا، صاحت مجموعة من المشاة صيحة آلَمَتْ الأرض والسماء قائلين:

جميعهم أحياء! بعض الرجال الذين عانقوا بعضهم بعد صياحهم ركضوا معًا إلى حيث يوجد الطبيب.

في تلك الأثناء كان أفرانوس بك الذي شاهد قيام حافري الأنفاق بإزالة الأحجار الخطرة الموجودة حول الكنيسة ومحاولاتهم فتح بابها المحشور بوضع دعائم وسنادات للعوارض الخشبية التي يمكن أن تسقط عليهم، ثم ركض ووصل إلى جوارهم. قائلا لحافري الأنفاق:

من الممكن أن تنهار الجدران إن كسرتم الباب. وبعد أن طالبهم بالانسحاب للخلف، طرق الباب عدة مرات وصاح بأعلى صوته حتى يسمعه من بالداخل قائلا باللغة الرومية:

هل تسمعونني؟

جاء من الداخل صوت جماعي يشبه الجلبة. ثم قال أفرانوس بك قال مرة أخرى:

هل تسمعونني؟

في هذه المرة جاء صوت مجلجل من الداخل يقول:

نعم نسمعك.

أفرانوس بك قرب فمه أكثر إلى الباب، وقال:

لقد انحشر الباب ولا يفتح. وإن كسرناه فمن الممكن أن تنهار الجدران. ولذا سنفتح فتحة في السقف وسننقذكم. فاصبروا قليلا...

بدأ حافرو الأنفاق في العمل على الفور. وأحضر المتسلقون بعض سلالمهم ووضعوها على جدران الكنيسة التي بقيت على حالتها ولم تتعرض للأضرار. وفي لحظة واحدة صعد العشرات من حافري الأنفاق إلى سطح الكنيسة. وبعد فترة وجيزة وصلوا إلى البرج الذي يوجد به الأجراس عن طريق سحب أحبال قرع الأجراس من خلال الثقوب التي فتحوها في السقف. أفرانوس بك الذي صعد إلى أعلى السطح، جاء إلى بداية السلم الحجري، وصاح وهو ينزل نحو الأسفل قائلا:

قداسة البابا! هل أنتم هنا يا قداسة البابا؟

الصوت الحاد المجلجل الذي جاء قبل قليل، قال:

نحن هنا، نحن هنا يا ولدي.

قال أفرانوس بك:

لتصعدوا أنتم أولا إلى الأعلى عبر الدرج.

قال الصوت القادم من الداخل:

ليصعد الأطفال أولا، وأنا أصعد من بعدهم.

أصر أفرانوسبك على أن يخرج هو أولا. أما الراهب الذي لم يعترض على إصراره فصعد الدرج بتؤدة وروية. قام أفرانوس بك الذي شاهده، بمد يده إليه وساعده على الصعود إلى فوق الجدار. الراهب الذي صعد إلى فوق الجدار نظر إلى أفرانوس بك الذي لم يشاهده من قبل في القلعة. استدار ونظر إلى البيوت المنهارة داخل القلعة وإلى عشرات الجرحى الممددين أسفل

الجدار. اغرورقت عيناه بالدموع. وبينما تنسال العبرات من عينيه على لحيته البيضاء الطويلة، أخرج الصليب وقال وهو ينظر إلى أديم السماء:

نحن بني البشر يجب أن نصبر وأن نرضى بما قسم لنا ربنا. نظر إلى أفرانوس بك. وكأنه يشعر بأنه لن يحتمل الصبر من أجل صعود من هم بالداخل للدرج، وبسرعة، نادى من بالأسفل قائلا:

ليصعد الأطفال الدرج أولا. نظر إلى أفرانوس بك الذي مال برأسه للأمام وقال بعد أن ألقى التحية على الراهب:

قداسة البابا! أنا أفرانوس بك من كبار قادة أورخان غازي العثماني. كنا قد حاصرنا قلعتكم قبل الزلزال. والآن أنتم وجميع شعب القلعة تحت حماية أورخان غازي. سوف يبرأ الجرحى خلال مدة وجيزة، والموتى سيتم دفنهم بالمراسم التي ستقومون بعملها. وسيتم ترميم جدران القلعة التي انهارت في أسرع وقت، وسيتم إعادتها إلى حالتها التي كانت عليها قبل الزلزال. والآن لننزل إلى الأسفل ولننتظر في مكان آمن. سيقوم جنودنا بإخراج كل من هم بداخل الكنيسة إلى الخارج.

لما أدرك الراهب حقيقة الوضع بعد فترة، قال:

في الوقت الذي كنا نظن فيه أن مجيء العثمانيين كان من أجل القضاء علينا، فإذا بالعثمانيين هم من ينقذوننا الآن. لا بد أن هذا هو أحد ألطاف الرب بنا. ونزل من على السلم الذي وضع على جدار الكنيسة إلى المكان الذي ينتظر فيه سليمان باشا. وعندما وصل إلى الدرج الأخير من السلم مد له سليمان باشا يده وساعده على النزول إلى الأرض. وألقى عليه التحية

بالكلمات الرومية البسيطة التي تعلمها من والدته. وأما الراهب الذي أدرك من عمامته المفتولة عكسا والموجودة فوق رأسه بأنه أحد الرجالات المهمين قام بإلقاء التحية بأدب وكياسة على سليمان باشا. الذي ينظر إلى أفرانوس بك الذي جاء إلى جواره قائلا:

يا أفرانوس بك! قل للبابا من الآن فصاعدا إن أرواحهم وأموالهم وأملاكهم أمانة في أعناقنا. وأنه خلال أقصر فترة زمنية سيتم إعادة كل من الكنيسة والقلعة إلى حالتيهما اللتين كانتا عليها قبل الزلزال. وسيتم رفع الأنقاض التي تعرقل السير من هذه الشوارع وسيأتي الناس إلى الكنيسة من جديد من أجل التعبد وممارسة شعائرهم الدينية. عرف أفرانوس بك الراهب على سليمان باشا. ثم ترجم كل ما قاله كلمة كلمة. وبينما كان يتحدث كان الراهب ينظر إلى سليمان باشا. وكان مع مرور كل دقيقة يزداد إدراكه للحقيقة، وكان يشعر مع الزلزال ببقائه، وما عايشه سابقا تحت الأنقاض. وهو يعتقد بأن أي شيء لن يكون كما كان في الماضي ثم قال:

إلهي! يا من يهب الحياة للإنسان وينجيه من الكوارث، كل رجائي منك ألا تجعل الإنسان عدوا لأخيه الانسان واغسل عقول الذين يعرفون البشر على أنهم أعداؤنا واملأ عقولهم من جديد بالأفكار الجميلة. وسأل أفرانوس بك وهو ينظر إليه، قائلا: هل سنستطيع الحفاظ على كنيستنا مفتوحة، وهل سيسمح لنا العثمانيون بممارسة عباداتنا وشعائرنا؟ وكأنه قد اقتنع بما قاله سليمان باشا.

نظر أفرانوس بك إلى الراهب الطاعن في السن. وبعد أن ضحك بأجمل ضحكة لأسنانه ناصعة البياض، قال:

أيها الأب! من الآن فصاعدا ستؤدون عباداتكم في كنيستكم بكل أريحية. قال سليمان باشا بن أورخان غازي قبل قليل بأنه يمكنكم أداء عبادتكم وأنتم مطمئنون آمنون. ولكن من الآن، فإن شعب القلعة سيكون تابعا للعثمانيين وليس تابعا لبيزنطة. هذا هو المطلوب فقط.

وعندما نظر الراهب إلى سليمان باشا بنظرات غير مصدقة، كان سليمان باشا قد أدرك الهوة التي سقط فيها الراهب. وبعد أن بلل شفتيه بلسانه خاطب الراهب قائلا:

قداسة الأب! حتى الآن لم يتم التدخل في عبادة أي شخص موجود تحت حماية إمارة العثمانيين. وأنتم أيضا من الآن فصاعدا ستمارسون عبادتكم وفقا لعقيدتكم. والآن هو وقت قيامنا جميعا بمساعدة البشر الذين يعانون الآلام تحت هذه الأنقاض. ولكن اجلسوا أنتم هنا واستريحوا. إذا كنتم تعانون من شيء فليساعدكم أطباؤنا الموجودون هنا، أما نحن فلنساعد من هم داخل الكنيسة ومن هم تحت الأنقاض.

(٣٢)

كان الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي حل مشكلة أسرة الباليولوج المعقدة التي أرقت ذهنه لأيام بقرار "شراكة عرش الإمبراطورية"، قد أحضر صهره يوحنا باليولوج الخامس من تندوس الذي نفاه إليها حتى يستريح ويكبر، بمراسم واحتفالات مهيبة. وكانت الأمور تسير في القسطنطينية على نحو أفضل مما يأمل. إلا أنه ولسبب غير معلوم لم يكن مرتاح البال وكان بداخله شيء ما يؤرقه. ومن أجل القضاء على القلق الموجود بداخله فإنه في الوقت الذي كان يرسل فيه الرسائل التي تحمل النصائح من أجل تهدئة ابنه ماتيوس كنتاكوزين الذي أرسل له الرسائل التي يلومه فيها على قراره، والتي يقول فيها " إن كنت تريد أن تصبح إمبراطورا شريكا للعرش من بعدي، عليك أن تقبل الآن بشراكة عرش الإمبراطورية الذي منحته لك."، كما كان لا يفوت طقوس الأحد التي يطلق عليها " العلاج النفسي للشيخوخة".

شارك في آخر الطقوس التي أقيمت في آيا صوفيا، وركب عربته بعد أن قدم المساعدات للفقراء والمحتاجين بواسطة رجاله؛ وعندما انطلق في طريقه نحو القصر تذكر ما قاله البابا البطريرك الذي قام بالوعظ. وظن أن ما ورد في عظة الراهب ما هو إلا عبارة عن نقد شامل وجامع له. وبينما يحاول نسيان ذلك وهو يسترجع في عقله في البداية عبارة "عرش

الإمبراطورية المشترك"، وبعد ذلك الأقوال التي تقول بأنه شؤم والتي تُتداول على ألسنة الناس في المدينة منذ مجيئه من نيكايه، ثم حدث نفسه قائلا: " لو كان الأمر بيدى لقلبت الدنيا رأسا على عقب من أجل القضاء على هذه الشائعات، ولكني أعلم أنه لا يوجد لدى البشر القدرة، ليس على قلب الدنيا رأسا على عقب فحسب بل حتى قلب حفنة من التراب. نظر إلى القصر الذي اقتربت منه العربة الإمبراطورية. وبينما تتقدم الجياد التي تجر العربة على الطريق الذي يصعد نحو الربوة التي يوجد بها القصر أحس بتملك قلبه شعور بالخوف الذي طالما عايشه... وحتى يستطيع التغلب على مخاوفه نظر إلى غلاطه. ابتعدت نظراته الحزينة وكأنها تريد الهروب من النظر إلى هناك، وجالت لفترة على حي أهالي جنوة الموجود على الشاطئ المقابل. قال وكأن أهالي جنوة هم مصدر كل ألامه ومشاكله،" لتذهب أرواح أهالي جنوة إلى الجحيم. لأن كل سحب الغم والحزن حلت على قسطنطينيتنا مع مجيئهم المشئوم". ظل صامتا لفترة. وعندما اقترب من القصر، قال: "لأنهم لم يظهروا وجههم الحقيقي عند مجيئهم لأول مرة، فإن الأباطرة في تلك الآونة لم يعلموا أنهم سيأخذون عشرة أضعاف ما سيعطونه. ولكنهم في تلك الأزمنة لم يظهروا وجوههم السوداء كما هو الحال عليه الآن. في البداية أقاموا أحد الأبراج قائلين بأنه برج للمراقبة، وبعد ذلك أقاموا الأسوار والجدران فيما بينهم. بيد أنهم لن يستطيعوا أبدا فهم الحيلة التي سأحتال بها عليهم. ستكون حيلة تليق باسم مدينة الظلم الذي أطلقه العرب على حي أهالي جنوة". نظر أمامه وكأنه قد ندم على ما قاله. وبعدما ملت روحه من النظر أمامه عاد وجال بنظراته على تلال أبوستولون. وبينما يجول بناظريه على التلال دون

هدف، أو سبب ما، عندما تذكر جمل " يبست الشجرة كما لم ينتبه إلى سقوط الشجرة الضخمة، إلى أن تسقط الشجرة بفعل ريح عاتية. هو أيضا يعرف كل ما فعل، لقد أساء لنفسه هو الآخر كذلك. لقد ظهر كل شيء وصار جليا كضوء النهار." التي قالها ممثل البطريرك أثناء العظة لوح بيده وكأنه يريد أن يطرد صوت الراهب الجهوري من عقله ولم يتوقف عن التلويح بيده حتى نهاية حديث الكاهن الذي يدور في عقله. وقال وكأنه أمام كل من البطريرك والكاهن" نيافة الكاهن! لا تقلق أبدا، إن السم الزعاف الذي أجهزه، سوف أقهر به كل من تجرأ وكل من فكر في التجرؤ على شجرتنا الضخمة". استدار وبينما ينظر نحو البيوت ذات الحدائق الموجودة على سفوح الهضاب المقابلة، ثم حدث نفسه قائلا: " كل هذه الأقوال هي أقوال نيافة البطريرك. حتى وإن رددها غيره، فإنني أعلم أن هذه الأقوال هي أقوال البطريرك" زاد أيضا القلق الموجود بداخله. ضاقت العربة الفخمة عليه. وعلى الفور نزل من العربة التي تتقدم ببطء شديد حتى دون أن ينظر إلى الإمبراطورة إيرينا التي تجلس إلى جواره. أما خدمه الذين شاهدوا نزوله من العربة بسرعة وانزعاج على هذا النحو فنزلوا بدورهم من العربة الموجودة في الخلف. الإمبراطورة إيرينا التي شاهدت شرود الإمبراطور ونزوله من العربة مسرعا، قامت بالدعاء من أجل ألا تكون المخاوف التي تتملكه في الآونة الأخيرة حقيقية. ونظرا لقربهم الشديد من القصر نزلت هي الأخرى من العربة. وبينما تحاول اللحاق بالإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس، قالت: "عندما تضاف المشاكل أيضا إلى التقدم في العمر...". ولم تكمل تتمة جملتها. ومشت في صمت حتى القصر. وإلى أن بدلت ملابسها في غرفة النوم لم

تتبس ببنت شفة قط. بدلت ملابسها وخرجت إلى زوجها. ونظرت إلى الإمبراطور الشارد وقالت: " لا يجب أن تكون شديد التأثر إلى هذه الدرجة... لقد تقدم بنا العمر وصرنا مسنين. كل ما فعلته حتى الآن كان من أجل بيزنطة والأولاد. على أية حال لن تنتهي الدنيا إذا تركت لهم كل شيء من الآن فصاعدا... إما أن تقهر شكوكك ومخاوفك وإما أن تتنحى جانبا وتركن إلى الهدوء وراحة البال. نيافة الكاهن ربما كان يحاول التلميح إلى ذلك. لا يوجد في هذا أي شيء يثير التوتر والحساسية. أعتقد أنه يتوجب عليه التفكير والانشغال ببيزنطتنا بقدر تفكيرك وانشغالك بها...

هذه الكلمات التي قالتها زوجته التي لم تعترض قط على أي شيء قام بفعله لسنوات لدماثة خلقها، والذي كان بسبب تجاهلها للأمور في الوقت الذي كانت تعي فيه حقيقة الكثير من الأشياء، والتي لم تتدخل في أي وقت قط في الخلافات التي لا جدوى منها، والتي فرضت نفسها على حياتهم؛ كان بمثابة تلخيص لحياتهم المزعجة والمملة في السنوات الأخيرة، وكانت بمثابة الصفعة القوية التي هوت على وجه يوحنا كنتاكوزين السادس. وتحت التأثير الذي أحدثته هذه الصفعة على أفكاره قال: "هذا وقت مناقشة كل الأمور". واتخذ قراره بلقاء الإمبراطور شريك عرش الإمبراطورية في أقرب فرصة. وقفت العربة التي تقل رسول الإمبراطور شريك العرش يوحنا باليولوج الخامس الذي عاد على الفور من تندوس أمام القصر. المراسل الذي جاء بخطى سريعة إلى جناب الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس، خاطب الإمبراطور قائلا:

يا صاحب العظمة! إن الإمبراطور شريك العرش صهركم المعظم أمرني بإبلاغ عظمتكم بأنه يريد أن يلتقي بكم في قصر الحكم إن لم يكن في ذلك ما يؤرقكم. وإن وافقتم عظمتكم على إجراء المقابلة فإنه سينتظركم في قصر الحكم. وانحنى على نحو محترم وألقى التحية وبدأ في الانتظار. في الوقت الذي احتسى فيه الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين قدحه من خمر نيكايه، ووضعه على المنضدة المصنوعة من خشب الجوز، نهض على قدميه من مجلسه، وقال للرسول:

إنها صدفة جميلة، أنا أيضا كنت أرغب في اللقاء به. أخبروا الإمبراطور شريك عرشنا المعظم، بأنني سأكون في القصر بعد قليل.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي ينظر إلى الإمبراطورة إيرينا التي دخلت إلى الداخل بعد خروج الرسول من الغرفة بوقت قليل:

صهرنا العزيز أرسل رسالة من أجل الحديث معنا. في الواقع أنا أيضا كنت أرغب في الحديث معه.

آمل ألا يكون راغبا في الحديث في أحد الموضوعات التي تؤذي مشاعري وتجرحني. لقد أصبحت شديد الحساسية في الآونة الأخيرة، وأتأثر بسرعة بالغة. حتى وإن لم تكن هذه الدعوة تحمل الخير فإنني سوف أذهب وأستمع إليه. إن عاجلا أم آجلا ونحن مجبرون على اتخاذ قرارنا.

قالت الإمبراطورة إيرينا وهي تحاول عدم إيذاء مشاعر زوجها:

يا يوحنا! في الحقيقة أنت صرت مهموما ومرتابا بدرجة كبيرة جدا في الآونة الأخيرة. والشائعات التي ظهرت أفقدتك صوابك. أنت أحد الذين

خدموا الإمبراطورية لفترة طويلة. ومما لا شك فيه أن الإمبراطور الشاب سيكون في حاجة ماسة للاستفادة من خبراتك وتجاربك. بالتأكيد سوف يلجأ إليك طلبا لعلمك وتجربتك في هذا الشأن. أرى أنه لا مبرر لقلقك من كل شيء على هذا النحو.

إن الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي خرج بخطوات سريعة بعد أن استمع لما قالته الإمبراطورة وركب العربة التي كانت تنتظر على أهبة الاستعداد للانطلاق، ولم تكد الخيل التي تجر العربة تبدأ في سيرها حتى تراجع عن قراره بالذهاب، كان قد رغب في النزول من العربة على الفور إلا أنه جلس على مقعده الموجود داخل العربة وردد جملة " ليكن ما يكون" التي نبعت من داخله. بعد أن قال لنفسه " عند النزول من العربة أقول لكبير الحراس يجب أن يكون يقظا، إن لم يأته خبر مني بعد ساعة فليأتين إلى باب القصر" ثم استغرق في الصمت المطبق لفترة طويلة. وعندما اقترب من القصر وبينما يسمع دبيب حوافر الخيل بدأ يسترجع في عقله جمل أنتيفون التي تقول: "يا عزيزي! إن الحياة مليئة بالحرمان بالدرجة التي تثير الحيرة: لا يوجد شيء مثير وعظيم ومقدس قط. كل شيء تافه وضعيف وزائل ومرتبط بالأحزان والآلام الكبيرة." في عقله، تذكر الصراع الكبير الذي كان بين أهالي إسبرطة واليونانيين. وبينما يبتسم بسمة يملؤها الأسى والحزن قال: " كان جميعها من أجل السيطرة والهيمنة، كما هو حاصل معنا". وعض شفته العليا بأسنانه السفلى وكأن كلامه لم ينته. وبعد أن قال بصوت عال: "من يعلم أن الناس تسكن في المنطقة الممتدة من أسفل بحر الجزر حتى الكثبان الرملية الموجودة جنوب بحر إيجه. "والتي خطرت بعقله، رغم أنه لم

يكن لها أي صلة بالموضوع الذي يفكر فيه، وكأن عقله قد توقف عن التفكير بعد أن حدث نفسه قائلا " فأي معنى لذلك سواء شارك يوحنا أو لم يشاركه". وأصبح غير قادر على التفكير. فضلا عن هذا غلبه النعاس على الرغم من أنه لم تبق سوى مسافة قليلة من الطريق. وكان هذا حاله دائما منذ مجيئه من أنتيجون. وما إن حدث ذلك أخذته سنة من النوم وهو جالس في مكانه. ولذا كان لا يذهب إلى قصر الحكم حتى وإن كان بشكل قليل. كان كثيرا ما يلتقي برئيس الوزراء الذي كان يرسله صهره في مكتبه الموجود في القصر والذي كان يبلغ الإمبراطور شريك العرش بقراراته. وكان يخصص بقية أوقاته للقاء ابنته الحامل التي كانت تأتي لزيارته باستمرار. وكان قد اكتشف تغيرا في نظراتها خلال زيارتها الأخيرة له، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفهم بشكل جيد ما حدث. ولكن نظرا لثقته بابنته، حدث نفسه قائلا: "لو كان هناك خبر سيئ فمن المؤكد أن عزيزتي إيلينا سوف تخبرني به" ولم يكن قد سأل ابنته عن أي شيء قط. وعندما وصل إلى قصر حكم الإمبراطورية الذي ينتظره فيه الإمبراطور شريك العرش يوحنا باليولوج الخامس مر من باحة القصر ناسيا كل شيء حدث نفسه به، وأثناء دخوله إلى الداخل من باب القاعة التي ينتظره فيها صهره؛ كما يفعل باستمرار في الآونة الأخيرة لم يكمل جملته التي تقول " ليكن ما يكون... بعد هذا العمر أنا أيضا...". الإمبراطور المسن الذي رأي القلق الذي يبدو على وجه الإمبراطور شريك العرش الذي استقبله وهو واقف على قدميه وخاطبه قائلا:

أنت قلق جدا يا ابن أندرونيكوس...

قال الإمبراطور شريك العرش يوحنا باليولوج الخامس بصوت يبدو عليه الامتعاض بعض الشيء:

إن عدم براعة وقدرات شريك سلطنتك ماتيوس كنتاكوزين عندما يخاطب كلا من الكنيسة، أو من هم في الحكومة، أو أنصاري الذين توارو؛ فضلا عن حماي العزيز يدعو إلى القلق والانزعاج.

قال الإمبراطور شريك العرش يوحنا كنتاكوزين السادس الذي لم يستطع هو نفسه أيضا التفاهم مع ابنه ماتيوس، إلا أنه كان لا يسمح لأحد بالحديث عنه وكأنه يدافع عنه:

إن ولدي ماتيوس لا يفعل أي شيء يضر بصهرنا الحبيب. وإن كان هناك شيء لم يستطع فعله فبكل تأكيد لأنه لم يقدر على فعله.

قال باليولوج الخامس شريك العرش، بنضوج ورجاحة عقل لم يتوقعها يوحنا كنتاكوزين السادس شريك عرش الإمبراطورية، قال:

شريك عرش إمبراطوريتنا المحترم وحماي العزيز، يجب ألا نشغل تفكيرنا بهذا؛ إن سليمان ابن صهرك، وعديلي أورخان ينتوى فرض سيطرته على شبه جزيرتنا. لفترات طويلة ولم يفعل لا ماتيوس ولا دوق أينوس أي شيء من أجل الحيلولة دون فرض سيطرتهما هناك. لقد حذرتهما حتى يقوموا بفعل ما في وسعهم من أجل إيقاف العثمانيين. ولكن تعال وانظر، فكلاهما لم يوقف العثمانيين، وأفادا بأنهما لن يستطيعا إخراجهم من قلاعهم. أما العثمانيون، فكما قاموا بترميم جدران قلعة جاليبولي التي انهارت من جراء الزلزال فإنهم أيضا كانوا يقولون للشعب " من الآن فصاعدا لا تدفعوا

الضرائب إلى بيزنطة". فضلا عن ذلك قاموا بتهجير الكثير من أهالي القلعة الذين انهارت بيوتهم وأصبحوا بلا بيوت تأويهم إلى الضفة الأخرى. والآن تتقدم القوات المغيرة نحو المورة. وهذا مخالف لكل الاتفاقيات التي أبرموها معنا ورأى أن هذا كان سببا كافيا لاندلاع الحرب.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك عرش الإمبراطورية بعد أن تردد قليلا:

نعم هذا سبب للحرب. وكذلك كل ما قلته يا ابن أندرونيكوس صحيح. ولكن هل نحن أقوياء بالدرجة التي تمكننا من محاربتهم؟ انظر في غمضة عين نقلوا آلاف الخيالة والمشاة من قواتهم إلى شبه جزيرتنا. ومن الواضح أن مجيء كل هؤلاء هو من أجل أن يقيموا ويبقوا هنا بشكل دائم. إنهم يقومون بهذه الحملات والغارات حتى يستفزونا لخوض الحرب. وأعتقد أن ما يرغبون فيه هو حَمْلنا على إعلان الحرب عليهم؛ لأننا لو أعلناها، سنكون قد أبعدنا عنهم وضع وصفة الاحتلال. وسيتخذون هذا ذريعة ويهجمون علينا من كل جانب. آه لو كنا نمتلك القوة التي تمكننا من محاربتهم على كل الجبهات، كنت آنذاك سأقول كما قلت أنت بأنه ينبغي لنا إعلان الحرب عليهم فورا. ولكن أنت تعلم وضعنا الذي نحن عليه الآن أكثر مني. كما أنه لا يوجد من يدعمنا أو يقف بجانبنا. ومن هم بالغرب لا يقدمون أي شيء قبل أن يقبضوا. إن تقل بونتوس، فإنها أيضا مشغولة بمواجهة المشاكل الموجودة داخلها. كما أنه يجب عدم انتظار الخير أيضا من بعض القلاع الموجودة على شواطئ المورة والتي ستساعدنا وتقدم الدعم لنا. لأنهم في حال توافق وتآلف مع الإمارات المجاورة لهم من أجل إمكانية الحفاظ على استمرار

وجودهم. لا يجوز طلب الدعم منهم والدفع بهم أيضا إلى قلب النار. والآن لم يبق أمامنا سوى شيء واحد نفعله، هو بالقطع، لقاء أورخان والقبول بمطالبه وأن نَحمله على قبول السلام. وبعد ذلك الاتفاق مع الجيران من وراء ظهره، وإيجاد سبيل لطرد العثمانيين من تراقيا.

لم أستطع أن أفهم ما قلته عن أي الجيران تتحدث؟...

أريد الحديث عن الموجودين شمال وجنوب ديموطيقا. حتى أنه يمكن أن يكون عن بعض الأماكن الأخري أيضا.

فهمت الموجودين شمالها، وهل تقصد بالموجودين جنوبها الإسبان الذين يسكنون في المناطق الممتدة حتى أثينا؟

وعندما سمع الإمبراطور شريك العرش يوحنا كنتاكوزين اسم الإسبان قطب وجهه، وقال:

كلا كلا، لتذهب أرواح الإسبان إلى الجحيم... وأعني بهم أولئك الإقطاعيين المحليين الذين يقيمون هناك. ونخبرهم بأنهم إن لم يقدموا الدعم لنا فإن الدور سيأتي عليهم إن عاجلا أو أجلا.

ومن هم الآخرون؟

الصرب، المقدونيون والكروات. حتى من الممكن أن يمتد الموضوع حتى الفاتيكان وأفيجنون...

قيامنا بفعل كل هذا، وضمان مساعدة هؤلاء لنا يتطلب الكثير من الوقت... ولا يوجد لدينا أي وقت قط.

قلت منذ قليل، أنهم يسعون لإجبارنا على إعلان الحرب. لنتصرف على وجه السرعة، ولكن إن استطعنا وضع العراقيل أمام مخططاتهم فسيكون أمرا جيدا. الشتاء قادم. وفي الحقيقة فإنهم لن يستطيعوا التقدم بسهوله في تراقيا في الشتاء. حتى وإن استطاعوا التقدم قليلا حتى حلول الشتاء فإن الأمطار والبرد القارس سوف يجبرهم على أن يعودوا أدراجهم. وفي الوقت الذي سيعانون فيه من برد الشتاء، فإننا من ناحية نسعى لإحلال السلام، ومن ناحية أخرى نكمل استعداداتنا لعملياتنا الكبيرة التي سنقوم بها في الربيع. وفي تلك الفترة نكون قد قمنا بتجديد الأسطول بشكل كامل ويكون بمقدورنا عدم السماح لأي طائر بالطيران على شواطئ إيجه والدردنيل.

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس شريك عرش الإمبراطورية الذي يحك وجهه وكأنه يخدش وجهه محلوق اللحية بأطراف أصابعه:

لأناقش أنا هذا مع الكنيسة وأعضاء الحكومة. وخلال ذلك يجب على القيام ببعض الأشياء من أجل القضاء على الشائعات التي ظهرت بحقكم. إن أردتم فلألتقين أنا بقداسة البطريرك. وأنتم أيضا التقوا بأنصاركم ومؤيديكم. لندع كلا من القادة الروحانيين والفرسان والكونتات وأعضاء حكومتنا إلى الاجتماع ولنناقش معًا هذا الموضوع ولنقض أيضا على هذه الثنائية. وإلا فإن الوقت سيكون وقت اشتعال النيران في القسطنطينية.

نظر الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش إلى وجه صهره وهز رأسه إلى الجانبين. واقتنع بأن ما قاله صهره لم يقله بسوء نية أو من أجل وضعه في موقف صعب، وبعد أن حدث نفسه قائلا " لو فكر في الشر ما قال هذا"، قال:

أنا أيضا سئمت من سماع هذه الشائعات. لو التقينا بكل من يجب مقابلته ووضعنا نهاية لهذا الوضع سيكون أمرا جيدا جدا. لا بد أن يدرك كل شخص المعضلة، وألا يتنصل أحد منا من هذه المشكلة قائلا إنها ليست مشكلته وأن يرى أن هذه المشكلة مشكلتنا جميعا. وإن لم ننجح في ذلك فإننا لن نستطيع إقامة سلام مع أي شخص وتقوية أنفسنا بالدرجة التي تمكننا من خوض الحرب. والآن لننجز جزءا من العمل. والآن لنكتب الرسائل إلى كل من الصرب والبلغار والمجر ولنوضح لهم فيها عظم الخطر الموجود في تراقيا. فضلا عن ذلك لنوضح لكل من قادة قلاعنا والكونتات والإقطاعيين، ولنشرح لهم بإسهاب أدق تفاصيل هذا الوضع. وسأحذر ماتيوس من الإقدام على فعل أي شيء بمفرده.

قال يوحنا باليولوج الخامس شريك العرش بصوت خفيض وهو ينظر إلى الأرض:

لنرسل أيضا خطابا إلى بورصه، نوضح فيه رغبتنا في عقد اتفاقية جديدة مع أورخان. ولنلمح فيها أيضا بأننا يمكن أن نقدم له كل ما يطلب لقاء الانسحاب من تراقيا.

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين شريك العرش:

فكرة جيدة ولكن إذا ما طلب شيئا فليس في مقدورنا إعطاؤه له...

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بعد أن ضحك ضحكة خبيثة:

ليكن القسط الأول مقدارا نستطيع القيام بدفعه، أما الأقساط التالية فلن يكون هناك ما يدعو لنفكر فيها من الأساس.

(٣٣)

وقف أقجه قوجه أوغلو بجسمانه الضخم المهيب الذي ورثه عن أبيه في الميناء، وأثناء نظره خلف آخر السفن والشاحنات البحرية التي غادرت الميناء، كان يبتسم بسعادة انجازه المهمة التي كُلف بها على أكمل وجه. أما سليمان باشا الذي يقف أمام باب القلعة المطل على البحر فقال لكل من السيد أفرانوس والحاج إلباي اللذين يقفان إلى جواره وهو ينظر إليه:

أيها القادة! بينما كنا نفكر في كيفية إقناع أهالي جاليبولي بما عزمنا فعله، فإن تنفيذ اقتراح أبي كان قد يسر علينا بشكل كبير جدا عملية نقل الذين تهدمت بيوتهم وأصبحوا بلا ماوى برغبتهم إلى الضفة الأخرى. إن أقجه قوجه أوغلو الذي جاء من أجل المساعدة كان يدير عملية النقل هذه بشكل ممتاز. والآن يجب علينا قبل أن يأتي من سيأتون من الضفة الأخرى إعادة بيوت الذين ذهبوا إلى سيرتها الأولى، حتى تصبح جاهزة لاستقبالهم قبل أن يأتوا إلى هنا. ولإنجاز ذلك فنحن في حاجة إلى العمال المهرة الذين سيقومون بإنجاز هذا العمل. لنبعث برسالة إلى فاضل بك حتى يرسل لنا كل العمال المهرة الموجودين بين الأسرى. ولنكتب لوالدي أيضا ليرسل لنا العمال المهرة سواء من المهاجرين أو من الذين لديهم خبرة في هذا العمل.

وبينما يتحدث القادة الثلاثة فيما بينهم بلغة لا يعرفها، فإن راهب قلعة جاليبولي الذي يرافق القادة الثلاثة منذ أيام إلى أي مكان يذهبون إليه، كان

ينظر من خلف المهاجرين الذين هاجروا برغبتهم إلى الضفة الأخرى بالمراكب. ولما ابتعد المهاجرون كثيرا عن ميناء جاليبولي واقتربوا من ميناء لامبساكوس توقف عن النظر إليهم ومتابعتهم، وكأنه قد فهم ما قاله سليمان باشا قبل قليل. استدار نحو أفرانوس بك وسأله قائلا:

هل سيستطيعون العودة إلى هنا مرة أخرى وقتما يريدون؟

قال أفرانوس بك بعد أن فكر لبرهة في كيفية الإجابة عن هذا السؤال:

قداسة الأب! ليقضوا هذا الشتاء في الأماكن التي ذهبوا إليها وعندما يأتي الربيع سوف يسئلون عن هذا الأمر. من سيرغب منهم بالعودة سيعود بدون شك، ولكن الذين سيرغبون في البقاء هناك سيمنحون أراضي هناك. أما الراهب الطاعن في السن فاستغرق في التفكير لفترة، ودون أن يخفي مخاوفه سأل قائلا:

أفرانوس يا ولدي! هل ستكون هناك كنيسة يستطيعون أن يقيموا فيها طقوسهم وشعائرهم الديني؟

نظر أفرانوس بك نظرة رقيقة إلى الراهب المسن. وبنفس رقة نظرته قال له بصوت رقيق، إن العثمانيين لم يتعرضوا لأية كنيسة قط في أي من القلاع التي استولوا عليها حتى الآن، وإن كل شخص يستطيع أن يؤدي عباداته في دور العبادة الخاصة به. وعلى الرغم من حديثه المقنع هذا، فإن الراهب الطاعن في السن والذي بدا عليه وكأنه لم يقتنع بما قيل، لم يسأل أي سؤال في هذا الموضوع بعد ذلك اليوم البتة.

ومع توالى مرور الأيام بسرعة، وعندما اقترب حلول الشتاء فإن سليمان باشا، الذي ترك إدارة القلاع الموجودة في جنوب غرب شبه جزيرة جاليبولي، والتي تم الاستيلاء عليها مؤخرا إلى الحاج إلباي، كان يحاول الدفع بالوحدات الهجومية ووحدات المشاة التي أرسلها أورخان غازي. وفي نفس الوقت كان فاضل بك الذي يتقدم شمال شرق تراقيا يرسل بدوره الأسرى الذين أسرهم إلى بورصه. وفي الأغلب كان الذين يتعاونون مع القوات الهجومية في القلاع التي تم الاستيلاء عليها يبقون في قلاعهم، حتى أنه في كثير من الأحيان كانوا يصبحون الحكام الجدد للقلعة. أما فاضل بك الذي طور هذا النهج، فكان ممتنا جدا من هذا الوضع. فاضل بك الذي فتح بهذه الطريقة الكثير من القلاع الصغيرة من الداخل في فترة وجيزة، فكأنه اقترب من القلاع الموجودة على شواطئ البحر الأسود دون أية خسائر تذكر.

وبينما كان يستولي فاضل بك على هذه القلاع الصغيرة واحدة تلو الأخرى بهذه الطريقة السهلة، كان القادة الآخرون الذين يقومون بالهجوم بوحدات غازيينوروم وباجييانيروم وأخييانيروم الهجومية التابعة لهم، والذين يواصلون ضم أراضي القرى الموجودة خارج القلاع إلى أراضي الإمارة العثمانية. أما الفقراء الذين يجيدون اللغة فكان يتم تسكينهم مع القرويين أصحاب المساحات الزراعية البسيطة، وكان يتم وعدهم بمنحهم مساحات كبيرة من الأراضي إذا قبلوا بالهجرة طواعية، وكان يتم إرسالهم إلى بورصه. وبعد تسكين الواحدات العسكرية كان يتم كذلك تسكين مجموعات البدو التركمانيين المهاجرين في بيوت هؤلاء المهاجرين الخالية، وكان هذا يضمن استقرارهم الدائم في الأراضي التي تم الاستيلاء عليها. أما المهاجرون الذين هاجروا طواعية إلى بورصه فكان يتم توطينهم في الأراضي الخصبة

الموجودة في الأناضول، وكانوا يعلمون التركمان الذين سبق توطينهم في هذه الأراضي أساليب وطرق الزراعة. وعلى هذا النحو كان يتم ضمان نوع من التوازن وكذلك عدم ظلم أي شخص.

عندما اقترب حلول الشتاء، فإن سليمان باشا الذي كان يتقدم خطوة خطوة في تراقيا، بوحداته الهجومية بهذه الأساليب التي تطورت من تلقاء نفسها، قد أمر ببناء خيمته المزينة على مسافة قريبة جدا من قلعة الشواطئ الصغيرة والذي يطلق عليه " أجمل مكان لغروب الشمس". إن سليمان الذي كان يتابع عملية الدفع بالوحدات العسكرية التي وصلت حديثا وهو على صهوة جواده، كان في كثير من الأيام المشمسة يرجع قبل موعده إلى أعلى قمم الشواطئ الرملية التي أسس فيها خيمته من أجل مشاهـدة غروب الشمس. مستغرقا في مشاهدة غروبها في الأفق لدقائق أحيانا دون أن ينزل من فوق صهوة الحصان الأشهب، وأحيانا أخري كان ينزل من فوق حصانه ويستند بظهره على إحدى الأشجار. وكانت الشمس وكأنها تقوم بإظهار مهارتها له، فكانت تصبغ الأفق باللون الأحمر القاني قبل الغروب، وكانت تتحول إلى كرة نار كبيرة مع الأفق الذي صبغته باللون الأحمر القاني وكانت تتقدم وهي تبتلع تموجات اللهيب الأزرق التي كونتها في محيطها. وكان سليمان باشا الذي ينظر إليها بقمة الإعجاب وهي تتقدم على هذا النحو، وبينما يسأل نفسه قائلا " هل هناك من سبقوني في مشاهدة هذا الجمال من فوق هذه التلال؟"، كان أفق السماء الزرقاء الذي يغار من هذا العرض الرائع للشمس قد صار داكنا، وابتلع فجأة كل من هذه التموجات الحمراء والشمس على السواء.

وفي الوقت الذي كان يطلق السكان المحليون على هذه القلعة اسم بلاجياري، فإن سليمان باشا والقادة كانوا يطلقون عليها اسما سهلا هو بلاجار. سليمان باشا الذي كان ينظر للأفق من فوق ربى بلاجار، والذي كان يتابع كل يوم بشغف جديد لعبة الأضواء هذه التي تقوم شمس المساء بعرضها في الأفق وقت الغروب، في يوم من الأيام حدث نفسه قائلا " الوقت وقت المشاهدة" وخرج من خيمته، مشى بخطى هادئة وذهب إلى الشجرة ذات الأغصان المتشابكة الموجودة بالقرب منه. جلس وأسند ظهره على جذع الشجرة الضخم. حسر بصره قليلا وبدأ متابعة الشمس التي بدأت تميل نحو الغروب. كان يوجد في الأفق كذلك السحب البيضاء الثابتة في أماكنها والتي كانت تبدو كأنها أماكن أخرى مقطوعة من الشمس بالسكين. وبسبب قيام السحب البيضاء بعكس ضيائها كانت الشمس تبدو ناصعة البياض. وبينما تتقدم الشمس بسرعة نحوها وكأنها غاضبة على قطع السحب تلك التي أضرت باحمرار لونها، كانت السحب هي الأخري تقترب من الشمس مثل المقاتلين الشجعان. أهدافها لم تكن واضحة أو معروفة، هل كانت تريد ابتلاع الشمس، أم كانت تريد خدش وجهها؟. لكن سليمان باشا الذي ينظر اليها حدث نفسه وهو يبتسم قائلا" لو كنت مكانكم لابتعدتُ عنها بنفس السرعة". بالتأكيد فإن السحب التي لم تسمعه حاولت خدش وجه الشمس دون أن تأبه بأنها ستزول عندما تلمسها، وابتلعت التموجات الحمراء للأفق. إن سليمان باشا الَذي أدار رأسه أثناء حدوث ذلك، نظر إلى قلعة تشمبا التي تُرى من فوق برج المراقبة الصغير الموجود جنوب القلعة. وامتدت نظراته نحو المياه الزرقاء لبحر إيجه. وبعدما شعر بعدم الراحة من منظر شواطئ الضفة الأخرى غير المنظمة والتي تبدو كشريط، استدار بوجهه نحو الشمال. هذه

المرة التقت نظراته بمياه بحر الجزر التي تقترب بدهاء نحو تراقيا. إن حزمة الضياء التي صعدت من المياه إلى الأعلى كانت قد اخترقت قطع السحب تلك واقتربت من الشمس. وأخذت نظراته تتابع امتداد حزمة الضياء هذه الممتدة من الأرض إلى السماء ذهابا وإيابا بين الأرض والسماء. السحب التي تغار من نظراته التي تبحث عن الشمس على الفور ركضت بصعوبة كالأطفال وحجبت الشمس. التي بدت صورتها على السحب التي تقف أمامها لتحجبها. سليمان باشا الذي مازال يسند ظهره على جذع الشجرة وكأنه مستاء من السحب قال " لن تخلوا بيننا وبين راحتنا هذا المساء". وعندما شاهد السحب التي تحسد الشمس تبدو كأنها حيوانات مختلفة بألعاب وحركات ضياء الشمس الذي ظهر، خطر بباله أنه لم يخرج للصيد منذ فترة طويلة. وبينما ينظر إلى الشمس التي تخلصت من السحب، قال: " إن إيجه بك محق في قوله إن هذه المنطقة هي الخصر الدقيق لشبه الجزيرة". وفي الوقت الذي كان تستعد فيه لمشاهدة انزلاق الشمس إلى خلف الجبال الموجودة في الأفق من جديد، سمع وقع الأقدام القادمة من مسافة قريبة. والتفت بناظريه ونظر نحو الجهة التي يأتي منها وقع الأقدام. ولما شاهد مجيء كل من إيجه بك وأفرانوس بك نحوه، حدث نفسه قائلا: "يعلمون أن هذا الوقت، هو الوقت الذي أختلي فيه بنفسي. لو لم يكن هناك أمر مهما يريدان الإخبار به ما كانا قد قدما الآن". نهض على قدميه. وحدث نفسه قائلا وهو ينظر إلى إيجه بك الذي شابت لحيته تماما، "عزيزي إيجه بك يا من تذكرني بوالدي، يبدو أن إيجه بك قد تقدم به العمر أكثر في هذه المناطق..." وعندما التقت نظراته أفرانوس بك طويل القامة، قال مرة أخرى:" لا بد أن هناك سببا مهما لمجيئهما".

(٣٤)

لم يكد يخرج الخادم من الغرفة الرئيسية حتى اندفع الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس من فراشه غاضبا ودفع ببيجامته الحريرية في الهواء وبدأ في السير داخل الغرفة. وأثناء سيره داخلها كان ينظر إلى السجاد الموجود على جدران غرفة نومه الواسعة التي تشبه حجرة الصالون والمطلية باللون البنفسجي الداكن، وإلى الحمام ذي الستائر الموجود في إحدى زوايا الغرفة، وإلى السرير الضخم الموجود وسط الغرفة والذي يشبه حصان المكر والخديعة. وبعد أن مشى لفترة غير آبه بتعبه أو إرهاقه توقف فجأة، ووضع يديه إلى جوار بعضهما، وشبك أصابعه ببعضها بعضا وجعل من كلتا يديه قبضة واحدة وبدأ في لكم الوسادة المصنوعة من ريش النعام التي يضع عليها رأسه كل مساء. وعندما توقف بعد أن أصاب الإعياء يديه، فكر في وحشية وغرابة هذه اللكمات التي لم يقم بها من قبل. نظر إلى إحدى لكماته، وإلى إحدى الوسائد. ابتسم وهو يهز رأسه. وبعد أن ضحك، صاح بصوت يشبه الصراخ قائلا، " ترك أعماله ويتفرغ لي". لدرجة أنه أصابه الرعب من صيحته التي أطلقها، وظل واقفا في مكانه. بعد فترة نظر لقبضته مرة ثانية بنظرات يملؤها الخجل. وعلى الفور فصل أصابعه عن بعضها. وبسرعة وضع يديه التي تحررت كل منهما عن الأخرى في جيوب بيجامته. بالقطع اعتقد أن صوته سمعه من بالخارج والخدم الذين يتجولون بالداخل، حتى خادم الغرفة الرئيسية الذي خرج منها والذي ظن أنه ارتكب خطأ ما في

حقه، بأنهم سوف يقومون بمساءلته ومحاسبته. ربما كانوا يستطيعون أيضا السيطرة على غضبنا غير المبرر. ولكن نظرا لأن جدران الغرفة الواسعة مبطنة بالسجاد المزركش المصنوع في إيران وفلادلفيا ومدينة فلك (مدينة السماء) ربما يكون السجاد قد امتص الصوت، وكان الذين على الجانب الآخر من الجدار لا يستطيعون سماع أي شيء. ولذا لم يتحقق أي شيء من تلك التوقعات الغريبة. ومهما كان فقد كان ذلك سببا لظهور نوع من الملل والضيق بداخله. هذا الملل والضيق تحول بعد فترة إلى تعب وإرهاق. وبعدما انتهت حالة الحيوية والنشاط التي اعترته، دخل إلى الفراش مرة أخرى وكأنه يجر جسده الذي أصابه الهرم. وبينما يتذمر لعدم وجود زوجته التي أرسلها لتكون إلى جوار ابنتها إيلينا التي تعاني من آلام الحمل يوما بعد يوم إلى جواره في ذلك اليوم، حدث نفسه قائلا: "هل أنادي على الخدم وأستحم مرة أخرى ". وعلى العكس من حالة الإرهاق التي أصابت بدنه كان عقله يفكر بسرعة على هذا النحو، وفي الوقت الذي كانت أفكاره تغير المكان والشكل على هذا النحو، كان يصاب هو الآخر بالحيرة. وضع كفيه على وجهه، وفي الوقت الذي ترك نفسه لحركة أفكاره السريعة تلك، حدث نفسه قائلا:" لتذهب جميعها إلى الجحيم... أذهب إلى ديموطيقا بعد أن أضم حفيدي إلى حضني. وبينما أستجم هناك أتخذ قراري بشأن ما سأفعل. وليعرف ابن أندرونيكوس مدى صعوبة إدارة الإمبراطورية بمفرده في حالة عدم وجودي. إن أصعب شيء يضايقني على الرغم من كل هذه الخدمات وكل أعمال المعروف التي قمت بها، هو قيام البطريرك كلاكاس بترك عمله وتفرغه لمضايقتي. بعدما صرت رئيسا للوزراء كنت أطالب دائما بتخصيص قصر

لإقامته، ولكم حاولت وبذلت الكثير من الجهد مع عائلة الباليولوج حتى تم بناء القصر الذي يقيم به حاليا. بيد أنه يشعر بعدم الراحة لوجودي، وكأنه قد نسي كل ما فعلت من أجله. ليتني كنت قد توافقت وتفاهمت مع أندرونيكوس وكنت قد قمت بتوحيد الكنائس. كنت الآن أذهب إلى روما وأفيجنون وكنت أطلب دعم ومساعدة البابوات. كان البابوات - في الأغلب - غير موافقين على إنهاء وجودي في إحدى قلاعي والإطاحة بي. لم أكن أثق في رئيس الوزراء لقربه وولائه لعائلة الباليولوج، ولكن ماذا فعلت للسيد البطريرك؟". وبينما ينظر إلى السريرالواسع وكأنه قد خجل مما قاله جال ببدنه خوف ما يشبه الريح الباردة. وشعر ببرودة أصابت قلبه كذلك مع البرودة التي شعر بها بدنه. وحينما ارتعد كل بدنه بسبب تلك البرودة التي شعر بها صاح بصوت عال قائلا " آه". ولما كان صوته حادا جدا هذه المرة فإن الجواري الموجودات في الغرفة المجاورة أتين إليه. الإمبراطور كنتاكوزين السادس الذي رآهم، قال لهن:

املئن حوض الاستحمام بالماء الدافئ مرة أخرى. وإلى أن يمتلئ حوض الاستحمام قمن بتجهيزى للاستحمام. وكرر بصوت عال" ليكن الماء ساخنا بدرجة جيدة". لما سمع الجواري اللواتي قمن بعمل حمام الصباح ما قاله الإمبراطور نظرن لبعضهن وهن تنتابهن حالة من الدهشة والحيرة وبدأن على الفور في إنجاز العمل الذي تم تكليفهن به.

وبينما تقوم الجواري بتجهيز الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس لوضعه في حوض الاستحمام النحاسي المصنوع في البندقية والمملوء بالماء الدافئ، كان الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس شريك العرش هو الآخر

يتملكه الكسل في فراشه وكأنه يستمتع بقضاء يوم عطلة في قصره. وفي الوقت الذي يغط فيه في سبات عميق، بدأ يشاهد في منامه نفسه خلال سيره في إحدى الممرات الكثيرة التي كان يمشي فيها على الشاطئ خلال إقامته في تندوس. خلال سيره هذا كان يمشي في الأمام ومن خلفه كان يمشي رئيس الوزراء. ولكن كان يتحدث باستمرار. الإمبراطور الشاب يوحنا باليولوج الخامس الذي أصابه الضيق من حديث رئيس الوزراء، توقف فجأة ونظر خلفه وصاح قائلا: " جميعكم تركتم أعمالكم ومسئولياتكم وتريدون الدم". وبعد أن صمت لبرهة من الزمن، قال: " لترغبوا فيما تصبون إليه كما تشاءون، أنا من الآن لا أرغب في إراقة الدماء في القسطنطينية". عندما أعود إلى القصر لا أستطيع أن أقول لحبيبتي إيلينا بضرورة إصدار أمري بقتل والدها...أو أنني أمرت بقتل والدها. ليذهب البطريرك بصحبة واحد منكم وليتحدث معه... ربما يقبل ويرضى ولا يراق الدم في قسطنطينيتنا. وألا تغرق الشوارع بدماء مؤيدي كل من الباليولوج وكنتاكوزين. نحن أباطرة لم نأت لا من روما ولا من مجلس أثينا ولا من مجلس شيوخ إسبرطة. نحن لم نكن من اليونانيين قط. نحن أبناء بيزنطة. لا نستطيع أن يأمر كل منا بقتل مؤيدي الآخر. عليكم جميعا أن تضعوا عقولكم في رؤوسكم، وعندما تصل إلى القسطنطينية أبلغ البطريرك بذلك.".

أما رئيس الوزراء صلب الرأي الذي لم يكن قد تعب لا من الحديث لفترة طويلة، ولا من السير خلف الإمبراطور. فقال من أجل تجربة آخر فرصة له:

يا صاحب العظمة! لتعلموا عظمتكم، أن عائلة الباليولوج هم الذين حموا سكان بيزنطة الأصليين من اليونانيين. وأن هذا هو الميراث الذي بقي لكم عن عائلتكم. وأن هذا الصراع الموجود بينكم وبين والد زوجتكم لا يشبه البتة صراعكم مع اليونانيين وأهالي إسبرطة. إن معركتهم كانت معركة الرغبة في تفوق كلتا المدينتين على الأخرى. ولكن صراعكم مع كنتاكوزين والد زوجتكم صراع من نوع آخر مختلف تماما. نعم يا يوحنا! إن كنتاكوزين أفنى عمرا طويلا من أجل بيزنطة، وتربطه صلة قرابة بأسرة الباليولوج من جهة والدته ولكن هذا ليس مبررا أبدا لمطالبته بعرش الإمبراطورية... لأن هناك الكثير ممن سبقوه ومن سيأتون من بعده الذين بذلوا الغالي والنفيس من أجل الإمبراطورية، كما فعل بالضبط، ولم يطلب أي منهم قط بأن يكون شريكا لعرش الإمبراطورية لقاء ما قدم من خدمات. وهذا هو ميراث أخلاقي لنا منذ القدم وحتى اليوم. ويجب على أسرة كنتاكوزين عدم مخالفة ذلك. لو حدث شيء كهذا، لا أريد حتى مجرد التفكير فيمن سيحكمون بيزنطتنا فيما بعد.

توقف عن الكلام حتى يعرف مدى تأثير حديثه على الإمبراطور الشاب. مسح عرقه الذي تصبب حتى طرف أنفه الذي احمر لونه بمنديله المصنوع من خليط حرير ليوديكيا والمورة. ولما أحس بارتعاد بدنه الموجود داخل ملابسه السوداء، واستمرار صمت الإمبراطور طويلا، واعتباره ذلك بمثابة شكل من أشكال الرفض لما قاله، وبكل جسارته من أجل قول كلمته الأخيرة التي يمكن أن تؤثر فيه قال بصوت بارد ومستفز " يا سيدي! يجب أن تفعلوا بعض الأشياء من أجل قسطنطينيتنا، ومن أجل مستقبل أمرائنا الذين ستنجبونهم ومن أجل سعادة شعبنا. وإلا سوف تقبلون برغبات

كنتاكوزين الغاصب وستصبحون نصف إمبراطور. وإما سوف تمضون بقية عمركم على هذه الجزيرة المهجورة.".

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس كان شابا، وكان أحيانا يناقش بعض الأمور في عقله بطموح الشباب الذي منحه إياه شبابه، ولكن نظرا لأنه نضج بشكل كبير منذ مجيئه إلى الجزيرة، فلم يعر أدنى اهتمام لكل ما قاله رئيس الوزراء، وقال:

يا رئيس وزرائي المخلص، منذ مجيئي إلى هنا قلتم ومن معكم من المسنين الآخرين قلتم وحكيتم لي مرات ومرات دون سأم أو ملل... أنا مدين لكم لأنكم عززتم أفكاري ولكن في الأغلب أنا مجبر على انتظار اشتداد ساعدي بالدرجة الكافية. والآن كل ما أطلبه منكم هو أن تخبروا أنصاري، بألا يفسدوا جو الأمن والأمان في قسطنطينيتنا. أليس إن أفسد مناصرونا جو الأمن والأمان الموجود في القسطنطينية نكون نحن أيضا مثل آل كنتاكوزين؟ وأين سيكون عراقة وأصل آل باليولوج؟

وما إن انتهى من جملته، تشوشت رؤيته. وأصبح ضوء الجو من حوله مليئا بالغبار الخفيف. واختلطت صورة رئيس وزرائه بهذا الضوء المعبأ بالغبار وبدأ المصارعون الذين يرتدون الدروع اللامعة على كل مكان في أجسادهم في الركض نحوه. وما إن لمس حد سيف أول المصارعين لجسده حتى صرخ بأعلى صوت قائلا " أواه" من تأثير الألم الذي شعر به ووثب من فراشه".

استيقظت الإمبراطورة إيلينا التي كانت تغط في سبات عميق من تأثير حملها على صرخة زوجها. كما أنها لم تصب بالدهشة نظرا لأنها تعلم أن زوجها يشاهد الكوابيس في نومه منذ أيام. وقالت للجارية التي سمعت صوتها ودلفت إلى الداخل بأن تضيء كل قناديل الزيت الموجودة في الغرفة شبه المظلمة. وبينما تقوم الجارية بتجديد فتيل قناديل الزيت المزركشة الموجودة في أركان الحجرة، قامت هي بالمسح بيدها الناعمة على ظهر زوجها. ولما شعرت بأن جسد الإمبراطور الشاب ما زال يرتجف أمسكت بيده ووضعتها على بطنها. يوحنا باليولوج الخامس المرتجف تخلص من تأثير الكابوس الذي ألم به في منامه عندما أحس بالرفسة التي قام بها ابنه الموجود في بطن زوجته التي لمسها بأصابعه المرتجفة. داعب بنظراته أيدى الإمبراطورة الموجودة فوق يديه. وقالت الإمبراطورة إيلينا التي رأت السعادة الموجودة في عينيه وهي تداعب يديه:

انظر، أبي سوف يبعث بوالدتي إلى هنا اليوم. نظرا لاقتراب موعد وضعي، كان والدي يطلب منها أن تقيم معنا لفترة. ربما تكون قد أتت. سيكون من الأفضل أن تنسى ما تفكر به بشأن أبي. ترى، نحن الآن في قسطنطينيتنا. وسوف أضع ابني هنا في القصر الإمبراطوري. لا يفكر أبي هذه الأيام في أي شيء غير رؤية حفيده فقط. عليك أن تتحمل قليلا، وأن تتحلى بالصبر والحكمة في مواجهة الشائعات. كما أن أبي لا يرى أن ما فعله أخي ماتيوس صواب، ولكن لكونه ابنه فإنه لن ينحيه جانبا الآن. أرجوك يا يوحنا، تغلب على هذه الكوابيس التي تلاحقك في نومك، عليك أن تأمر بكتابة بيان ليقرأ في كل الكنائس. وأوضح في هذا البيان بأن عائلتي

الباليولوج وكنتاكوزين تحكمان الإمبراطورية بشكل مشترك، وأن الأمر سوف يستمر لفترة على هذا النحو، وأنه ليس من حق أيٍ شخص كائنا من كان أن يتدخل في شئون حكم الإمبراطورية. وليقرأ الرهبان هذا الخطاب الذي ستكتبه وليقم المنادون الذين سيقومون بإذاعته وإعلانه على الجميع، بالقول بأنه من الآن لا يقتل أحد منكم الآخر.

سأل الإمبراطور الشاب الجواري الموجودات في الغرفة عن الوقت. أجابت إحداهن بأن الوقت قد صار بعد الظهيرة. نهض الإمبراطور من فراشه، وقال وهو يدخل حوض الاستحمام:

إيلينا لقد تأخرت جدا، سوف أذهب إلى قصر الحكم دون تناول طعام الفطور.

قامت الجواري بمساعدة الإمبراطورة إيلينا أثناء نهوضها بصعوبة. وكانت تنظر إلى زوجها الذي يستحم بمساعدة الفتيات اليافعات، ثم قالت:

أنت محق لقد صار الوقت متأخرا جدا. ربما تكون والدتي قد جاءت أو على وشك المجيء. في الأغلب سوف نتناول طعام الفطور معًا عندما تأتي.

لقد كان الحمام الفاتر مفيدا جدا للإمبراطور الشاب يوحنا باليولوج الخامس الذي استيقظ من نومه وهو يتصبب عرقا من رؤيته التي شاهدها أثناء نومه. بينما يلعب بالماء مثل الأطفال لاحظ استعادته لحيويته شيئا فشيئا بأطراف الأصابع التي تدلك جسده اليافع. قال للإمبراطورة إيلينا عند خروجها من باب غرف النوم:

اليوم سوف أحل كل شيء يا عزيزتي إيلينا...

(٣٥)

إن ما قاله الرسل الذين أرسلهم فاضل بك كان قد فرج أسارير سليمان باشا والسادة الذين معه وكان سببا لأن يقوموا ببحث الأمر واستقصائه من كل جوانبه. قال سليمان باشا وهو ينظر إلى وجهي كل من الحاج إلباي والسيد إيجه بك اللذين ابيضا وصار مثل لون شعرهما الأبيض:

أيها القادة.... إن الله تعالى، وكذلك الناس الذين يعيشون على شبه الجزيرة يريدون بقاءنا على هذه الجزيرة. وفي الحقيقة فإننا كنا نريد ذلك من اليوم الأول الذي وطأت فيه أقدامنا هذه الأراضي. والآن فإن الخطط التي سنقوم بوضعها يجب أن تكون وفقا لهذه الديمومة والاستمرار. صمت لبرهة، وهو ينظر إلى الأرض، بعد أن تصرف وكأنه كان يقوم خفية بجولة في عالم آخر، لأقل إنه يجب علينا أن نخصص وقتا كافيا للتفكير فيه مليا، ويجب علينا أن نضع خطة على أفضل نحو لهذا العمل الذي لا رجعة فيه. ولكن حتى تكون هذه الخطة خطة دائمة ومستمرة فإنه ينبغي لنا أن نناقش ونتدبر هذا الأمر مع والدي.

الحاج إلباي الذي يضغط بإحدى يديه على العمامة التي يضعها على رأسه في الوقت الذي لا يخوض فيه الحروب، بعد أن دلك عارضه بأطراف أصابع يده التي ضغط بها على عمامته قبل قليل وكأنه قد ورد شيء ما إلى خاطره، قال بصوت هادئ:

يا سيدي، أليس ما تريدون قوله، هو أنه يلزمنا أن نثقب اللؤلؤ بدقة متناهية من أجل العمل على زيادة قيمته؟

نظر سليمان باشا وهو يبتسم نظر بناظريه اللذين سئلا السؤال في البداية إلى الحاج إلباي، ومن بعده إلى أفرانوس. السيد أفرانوس بك وكأنه فهم السؤال المخفي في نظرات سليمان باشا، قال بصوت متحذلق:

يا سيدي، إن اللؤلؤ المثقوب دفعة واحدة لا يعد مقبولا جدا.

نظر سليمان باشا إلى الرجلين وهز منكبيه العريضين وضحك وهو في حبور وسرور شديد. وقال بالقوة التي منحها إياه قلبه الذي ابتهج فجأة:

آه نحن أيضا نثقب اللؤلؤ الذي يقدم لنا في مرة واحدة، ليكن ذا قيمة كبيرة. ولكن أرى أنه قبل ثقب هذه اللؤلؤة الجميلة يجب علينا أن ننظم رحلة صيد للحصول على تلك اللؤلؤة. لا سيما وأننا لم نخرج للصيد الذي نعشقه لفترة تربو على العامين.

قال الحاج إلباي، بتلك الثقة التي منحتها له خبرته التي اكتسبها طوال سنوات عمره:

يا سيدي، أرى أنه يلزمنا أولا أن ننقل زوجاتنا وإماءنا إلى هذه الضفة، وبعد ذلك لنخرج إلى ذلك الصيد الكبير. قال أفرانوس بك:

يا قائدنا، إن الحاج إلباي على حق، أنا أيضا أرى أنه حان وقت نقل نسائنا إلى هذه الضفة.

قال سليمان باشا الذي ينظر مبتسما إلى وجه الرجلين:

لو كانا يقولان بأن هذا هو وقت تذكري لأجدادي ما كان لنا أن نقول كلمة واحدة. وبعد حل هذه القضية نخرج للصيد أيضا. على أية حال لا يوجد أحد غيرنا يمكن أن يرعب الحيوانات الوحشية التي تسكن في الغابة الموجودة أمامنا. وبعد أن استمع لقول القادة، " بارك الله في عمرك" قال، يجب علينا ألا نتخذ قراراتنا ونحن واقفون على أقدامنا. أرى أنه من الأفضل أن نذهب إلى الخيمة ونناقش الأمر مع الآخرين. أظن أن إيجه بك إما أن يكون قد جاء أو أنه على وشك المجيء. وساروا نحو المكان المقام به خيمة القيادة.

نهض كل من أقجه قوجه أغلو وإيجه بك الذي وصل من فوره من جاليبولي وقرا حسن أغلو الذي جاء من بورصه مع كتائب المشاة عندما رأوا دخولهم إلى داخل خيمة القيادة، وبعد أن حيوا القادمين، جلسوا على وسائدهم مرة أخرى بعد أن أشار لهم الأمير بذلك. أما إيجه بك وقرا حسن أوغلو وكأنهما يريدان استكمال حديثهما الذي لم يكملاه، فقالا:

إن رغبة أورخان غازي هي إتمام عملية تسكين قوات المشاة التابعة لنا في القلاع قبل حلول الشتاء.

الحاج إلباي المفعم بالنشاط، والذي أرسل المشاة الذين سبقوهم إلى الجهة التي ذهبت إليها وحدات القوات الهجومية، والذي حدد سابقا الأماكن التي سيذهب إليها المشاة الذين جاءوا من فورهم، نظر إلى قرا حسن أغلو، وقال:

لا تقلق يا قرا حسن أغلو، توجد في تراقيا الكبيرة قلاع كافية لاستيعاب كل من فرساننا وقوات المشاة التابعة لك أيضا. لقد فكرنا في ذلك قبل مجيئكم، وليقم المشاة في أقرب مكان من وحدات القوات الهجومية، حتى

يستطيعوا الوصول إليهم بأسرع وقت إذا لزم الأمر لمساعدتهم. كنا قد أرسلنا قوات مشاتنا الذين جاءوا قبلهم حتى يكونوا سندا ودعما للوحدات الهجومية التابعة لبلابانجيق أغلو. ووحدات المشاة التابعة لكم ستذهب هي الأخرى إلى أقرب مكان من الوحدات الهجومية التابعة لفاضل بك التي تتقدم نحو شواطئ البحر الأسود. ستسكنون وتقضون الشتاء في القلاع التي استوليتم عليها هناك.

ابتسم قرا حسن أغلو وأظهر أسنانه ناصعة البياض. وبعد أن توقفت ضحكته التي امتدت من لحيته التي أصابها الشيب حتى وجنتيه، قال:

حسن، نشكركم سيدي على نصيبنا المخصص لنا. ونحن أيضا سنأخذ القلاع المخصصة لنا، وسنفعل كل ما نستطيع حتى لا تدركنا برودة الشتاء ونحن في الخيام.

نظر إيجه بك إلى سليمان باشا، وقال:

إذا ما وافق سيدي، أنا أفكر في قضاء الشتاء بالقرب من أينوس مع أقجه قوجه أغلو. وصلتنا أخبار تقول بأن دوقية أينوس تقوم بعمل استعداداتها في السر. سنحاصر منطقة دوقية أينوس، كما سنسيطر على شبه الجزيرة كذلك. حتى نستطيع البقاء في وضع قوي إذا ما بادر ابن الوغد الذي صار دوقا مؤخرا لمساعدة الإمبراطور. هو ليس في وضع الهجوم الآن، ولكن يجب علينا اتخاذ كافة التدابير في مثل هذه المواقف، أرى أن أفضل شيء لهذا هو أن نبقى دائما في حالة اليقظة.

الحاج إلباي الذي بحث هذا الموضوع مع كل من سليمان باشا وأفرانوس بك ليلة الأمس، كان قد طلب بأن يعسكر أفرانوس بك في تلك المنطقة. قال سليمان باشا: " ليكن ذلك" ولكن كان قد قال بضرورة مناقشة ذلك في مجلس الحكم. ولذا أصابه الضيق قليلا عندما سمع اقتراح إيجه بك. وقطب وجهه. وبعد أن صمت حتى يتم القبول بأنه وأفكاره التي قالها هي الصواب، قال:

كنا قد بحثنا هذا الموضوع بالأمس. أنت على صواب يا إيجه بك. أرى أنه لا يجب أن نترك تلك المنطقة خالية من القوات. فكما قلتم إنه لا يمكن التنبؤ بما سيقوم به أحد الذين تولوا منصبا حديثا. لا سيما إذا ما وضعنا نصب أعيننا ثراء هذا الدوق الجديد الذي صار حكاية تتناقلها الألسن، فإنه من الممكن أن يقوم أيضا بجمع الجنود المرتزقة من الجزر والهجوم علينا. لو لم ينشغل ابن كنتاكوزين الموجود في الشمال بمتاعبه ومشاكله لكان الاثنان قد هجما علينا معا منذ زمن بعيد. ولكن نظرا لتقدم فرق قواتنا الهجومية حتى مشارف أدرنه، فهذا يعني أن ابن كنتاكوزين لا يوجد لديه الوقت والقوة التي يمكن أن يحاربنا بها. وإذا ما وضعنا ذلك في الحسبان، فيجب علينا أن نقتنع بأن الدوق الجديد هو الآخر لن يهاجمنا الآن أيضا...

بعد أن أنهى كلامه قال أفرانوس بك:

ليس بوسعنا أن نقول بأن كلاكما على حق. لا بد أن نتخذ التدابير اللازمة واضعين الاحتمالين نصب أعيننا. من وجهة نظري أرى أن أول ما يجب أن نسيطر عليه هي قلاع الشواطئ الموجودة على الضفتين. إن الأسطول البيزنطي في الوقت الحالي هو أقوى الأساطيل سواء في بحر

الجزر أو في البحر الأبيض. ولذا يجب علينا أن نسيطر على كل الموانئ التي يمكن أن يقوم الأسطول البيزنطي بعمليات الإنزال فيها. إن استولينا على القلاع الشاطئية ووضعنا عملية خروجه من البحر تحت سيطرتنا، من وجهة نظري سيكون ذلك هو أفضل السبل للتقدم وتوسيع حدودنا الموجودة في تراقيا شيئا فشيئا بالواحدات الهجومية. أنا أؤيد رأي إيجه بك بشأن حماية موانئ كل من مايدوس وجاليبولي. كما أنني أدعم أيضا فكرة أقجه قوجه أوغلو بالهجوم على القلاع الشاطئية الموجودة في شمال بلاجار. وسأقوم بالتقدم بقواتي الهجومية بين أدرنه وأينوس. إلى جانب ذلك إن استطعنا شراء الشاحنات والغليونات الملائمة لنا من أهالي جنوة أو من أهالي البندقية يكون شيئا جيدا.

قال سليمان باشا الذي جال بناظريه على وجوه القادة وشاهد قيام الخدم الذين دخلوا إلى الداخل مع حلول الظلام بإشعال المصابيح الزيتية المعلقة في أعمدة الخيمة. بعدما أنهى الخدم عملهم وخرجوا من الخيمة:

أنا كذلك أؤيد ما قاله أفرانوس بك. يجب أن تستمر عمليات الدفع بقواتنا الهجومية إلى كل من الشمال والشرق والغرب. ويجب أيضا أن تدعمهم وحدات المشاة. وأفضل فكرة هي السيطرة على الموانئ الموجودة على الشواطئ. ولنشتر بالغنائم التي حصلنا عليها من الحروب الشاحنات البحرية والغليونات. ولكن علينا أن نخبر والدي أورخان غازي بكل ذلك، بإرسال كتاب إليه بذلك... إن كان لديه اقتراح بهذا الشأن فلنعلمه.

كبير رسل خيمة القيادة الذي دخل من فترة وينتظر بجوار باب الخيمة، عندما شاهد سليمان باشا قد فرغ من كلامه انحنى وبعد أن ألقى التحية، قال:

يا سيدي، لقد جاء الرسول الخاص الذي أرسله أورخان غازي...

لما نظر سليمان باشا إلى الحاج إلباي، قال له الحاج إلباي المسئول عن الإدارة في رد فعل سريع:

لا تجعله ينتظر أدخله.

(٣٦)

إن الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش الذي سئم من الأقوال والشائعات التي تملأ القسطنطينية، والذي ترك لصهره الكثير من المسئوليات، كان قد انزوى في القصر الذي يطلق عليه المبنى الرسمي الموجود في فناري. وكان لا يلتقي أي شخص سوى رئيس الوزراء الذي كان يرسله الإمبراطور يوحنا باليولوج عند الضرورة، وبينما كان يتصور مولد حفيده الثالث الذي سيأخذه بين أحضانه، كان يشغل نفسه قائلا:" سيتغير كل شيء بعد أن تضع ابنتي إيلينا". ولكن الشائعات التي كانت تشيع في حقه باستمرار في القسطنطينية لا تتوقف ولا تنقطع. وكانت هذه الشائعات تقول: إن الشوارع قد بدأت تشم رائحة الدم بشكل كبير. إن أنصار باليولوج من ناحية، وكذلك أتباع البطريرك الذين يحرضهم باستمرار من ناحية أخرى، وحتى أتباعه هو من مؤيدي كنتاكوزين من ناحية ثالثة كانوا يؤججون أوار الصراع المحتمل باختلاق كل ما استطاعوا اختلاقه من الشائعات. كان يوحنا كنتاكوزين الذي ابتعد خياله عن اللحظة التي سيضم فيها حفيده إلى حضنه، يحدث نفسه قائلا" سيتغير كل شيء بعد ميلاد حفيدي. حتى الآن لم أتدخل في أي شيء قط. ولكن بعد مولده سوف أتحدث باللغة التي يفهمونها. وإن لم أفعل أنا، فإن ماتيوس الذي لن يتنازل عن شراكة العرش لن ينصت لأي أحد عندما تصل إلى مسامعه هذه الأخبار. أتمنى ألا تصل إلى مسامعه هذه

الشائعات والأقاويل الآن. إن وصلت إلى مسامعه سيأتي إلى هنا على الفور، الدماء ليست مراقة في الشوارع. سيقتل حتى الجنين الموجود في بطن أخته ويغرق القصر بالدماء. أنا لا أريد ذلك. إن ما أريده هو أن يتشارك الخال وابن الأخت حكم بيزنطة في المستقبل، مثلما أدير الحكم أنا وابن أندرونيكوس اليوم. لا سيما وأن الطوق العثماني الموجود حول القسطنطينية يضيق كل يوم. إن وصل إلى مسامع أورخان بوجود نزاع وخلاف بيننا، سيدخل أورخان القلعة على الفور بزعم تقديم المساعدة ولن يخرج منها ثانية... فلا ابني يستطيع تدبر هذا، ولا البطريك يفكر في هذا، ولا حتى صهري باليولوج يمكن أن يتوقع هذا...على أية حال كم عمرا يكفي لمعرفة كل شيء...". وفي الوقت الذي كان قد زاد فيه حديثه لنفسه في الأيام الأخيرة إلى هذه الدرجة، فإن الجواري اللواتي يدخلن غرفته كن يجدنه يحدث نفسه على هذا النحو في الكثير من الأحيان. وكن لا يعجبن بحديث الإمبراطور المعسول هذا، وإن لم يستطعن الاعتراض فقد استجمعن شجاعتهن وكن يقلن معا، "يا صاحب العظمة! نحن أيضا على الحق بنفس قدر الخضر التابعين لجوستيان... إن أتباعك ومؤيديك سيتحركون بكلمة واحدة منكم. لا يمكن أن تنعم القسطنطينية بالهدوء دون اجتثاث جذور الزرق".

كنتاكوزين السادس كان لا يغضب على أي شخص يتحث قط، بل كان يقول بصوت خفيض وهو يتنهد:

عندما أُصاب بالملل من قصري لدرجة أنني كنت أظن أنني أرى حتى هؤلاء الموجودين في حي أهالي جنوة. غير أنني لم يكن لدي أي علم حتى عن هؤلاء الموجودين في قصري أنا. وبعد أن كان يتحدث على هذا النحو

نهض واقفا على قدميه، وذهب إلى غرفة نومه ممتعضا مستاء، وبعد أن يمضى بعضا من الوقت كان يدخل إلى الحمام الذي جهزته الجواري للاستحمام بالماء الفاتر.

قال أراكوس أحد رجاله المخلصين، والطاعن في السن مثله، بعد أن حكى في إحدى اللحظات كل الشائعات والأقاويل التي سمعها:

يا صاحب العظمة! يجب عليكم أن تقولوا لأنصاركم بعض الأشياء.

أما الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش هذة المرة لم ينبس ببنت شفة قط. ولكن نظر بامتعاض شديد لم يشاهد عليه من قبل إلى كل من أراكوس وإلى كل الموجودين هناك في تلك اللحظة، واتخذ طريقه إلى غرفة نومه. عندما سمعت الجواري الموجودات في الغرفة المجاورة قيامه بغلق باب غرفة نومه جئن على الفور وقمن بتجهيز حوض الاستحمام المملوء بالماء الدافئ. الإمبراطور المتكاسل بعض الشيء تجرد من ملابسه على الفور ودخل إلى حوض الاستحمام. وفي الوقت الذي كان قد ترك فيه جسده الذي وضعه في الماء الدافئ من فوره لأنامل الجواري الناعمة، دخل أراكوس الذي يعد الرجل الوحيد المسموح له بالدخول إلى غرفة نومه إلى الداخل بسرعة. وسأله الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي شاهده من بين ستائر الحمام شبه المفتوحة قائلا:

أراكوس هل نسيت شيئا عندما كنت تتحدث قبل قليل؟

قال أراكوس وهو ينظر إلى السقف:

يا سيدنا، لم أنس شيئا. أنا كأحد الذين يعايشون معكم كل شيء أعلم أنكم على صواب. ولكني مضطر إلى أن أقول لكم أحد الأخبار التي وردت حالا.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين وهو ينظر وكأنه شغوف بعض الشيء لمعرفة الخبر:

أعتقد أن الخبر الذي تود إخباري به هو أحد الأقاويل و الشائعات الجديدة.

قال أراكوس الذي لا يحب لحيته قط، وهو يحك وجهه الحليق من شدة الضجر:

لا يمكن أن أجزم بصحة الخبر من عدمه ولكن من أرسل الخبر هو واحد من رجالكم الذين تثقون بهم ثقة شديدة. وفقا لما سمع، فإنكم إن تظلوا صامتين على هذا النحو، أو إن تتمطوا جوادكم وتتركوا القسطنطينية، فإن أنصار الباليولوج كانوا سيطردوننا مثل اليهود الذين أبعدهم الشعب عن القلعة قائلين ومرددين ومدعين بأننا ساعدنا اليونانيين. وعندما سمع رجالكم ذلك قاموا بعمل كل الاستعدادات وكانوا يتعاهدون جميعا قائلين علينا أن نطردهم نحن قبل أن يهموا بطردنا.

كنتاكوزين السادس الذي أيقن بأن الوضع جد خطير. قال قبل أن يخرج من حوض الاستحمام المملوء بالماء الدافئ:

حسن يا أراكوس، إذهب الآن. واجمع كل العاملين بالقصر في قاعة الاستقبال. هذا هو الوقت المناسب للحديث مع كل الأشخاص بعد الخروج من الحمام.

أراكوس العجوز انسحب إلى الخلف لخطوات دون أن يرفع رأسه وخرج إلى الخارج. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش وهو ينظر من خلفه، بينما يتمدد في الماء الدافئ ويسلم جسده لأنامل الجواري الناعمة حدث نفسه قائلا: "كما أن لكل شيء نهاية، يجب أن تكون هناك نهاية لهذا الأمر".

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش الذي ظل لفترة طويلة في الحمام، ارتدى ملابسه بمساعدة الجواري. أمسك بيد الجارية التي تمشط لحيته داخل قبضته لفترة. وعلى الرغم من الابتسامة العريضة التي ملأت فم الجارية، فإنه رد عليها بعينيه مبتسما. نظر إلى الجواري الأخريات لبرهة. وذهب إلى غرفة الاستقبال مصطحبا الجواري. ولما رآه كل العاملين بالقصر انحنوا حتى الأرض وقدموا له التحية. قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس بصوت خفيض:

وفقا للأخبار التي وردت من الإمبراطورة إيرينا فإن آلام المخاض بدأت تداهم ابنتنا الإمبراطورة إيلينا. إن لم يكن هذا المساء فإن ميلاد حفيدنا سيكون قبل حلول صباح الغد. وسيكون هذا إحدى المسرات التي يظهرها الله لنا. قبل ذلك سررت لمرات عديدة. حتى أنني عشت السعادة الغامرة الكبيرة عندما أصبحت نائبا للإمبراطور بعد وفاة أندرونيكوس. لو لم يكن طمع الإمبراطورة الأم ما كان ليفسد أي شيء قط. ولكن نائب رئيس الوزراء ألكسيس الذي تربى في كنفنا والبطريرك كلاكاس حالا دون تعقل طمع الإمبراطورة الأم التي تختلق الفساد باستمرار ودون توقف. عندما لم تستطع هي الأخري أيضا التوصل إلى فهم الحقائق بدأت هذه الخلافات التى تستمر

منذ سنوات. شاء القدر، وصرت إمبراطورا شريكا للعرش بمساعدة صهري أورخان. مضت الأمور على ما يرام فترة من الزمن، ولكن في تلك الأيام اشتعلت نار الفتنة كما هو حاصل هذه الأيام. وأنا أيضا أرسلتهم إلى تندوس وظننت أنني سوف أنجح في تجاوز كل شيء. بيد أنني كنت مخطئا في حساباتي. لأنه إذا تم إشعال النيران مرة ثانية تحت وعاء الفتنة سوف يحترق إن لم يكن هناك ماء بداخله. لقد هرمت وتعبت. وابن أندرونيكوس هو الآخر اعتبارا من اليوم لا يريد أن يذبح الأخ أخاه في القسطنطينية. وأنا على ثقة تامه بأنه سوف ينجح في ذلك. ولذا.....

غلبته مشاعر البكاء عند هذه النقطة في حديثه ولم يستطع إخراج صوته. أطبق الصمت على الآذان فترة من الزمان. وقال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين وهو ينظر مرة أخرى إلى العاملين في القصر الذين شكلوا حلقة من حوله:

لقد قررت عدم مغادرة هذا المكان حتى تنطفئ نار هذه الفتنة التي تشتعل في القسطنطينية. ولقد قررت الذهاب إلى ديموطيقا (غرب تراقيا) بعد أن آخذ حفيدي في حضني بعد تعميده. وقال كل من يرغب بإمكانه أن يأتي معنا إلى ديموطيقا وسار نحو قاعة العمل الموجودة في القصر. توقف أمام باب قاعة العمل وقال لأراكوس الذي يتبعه، يا أراكوس أرسل إلى قائد الحرس وليأت إلى هنا فورا.

(٣٧)

فاضل بك الذي يشعر بالبرد بفعل رياح البحر التي اجتازت جبل جنوش الذي يبدو في الأفق وكأنه قطعة سحاب معتمة عند غروب الشمس، استدار للخلف وهو على صهوة جواده ونظر إلى فرسانه الذين يأتون على شكل صفين من خلفه، وإلى المؤخرة التي تتبعهم مع المشاة. ألقى نظرة متمحصة على الوادى الذي شغلوا أنفسهم به منذ أيام. استدار للأمام وهو ينظر من خلف المغاوير المهاجمين، ثم حدث نفسه قائلا " هذا الوادي الذي شغلنا جميعا كثيرا جدا، لم نأمل أن يكون على هذه الحال قط. يبدو ضعيفا عديم القوة مثل بيزنطة الضعيفة. بيد أنه يجب عدم الانخداع بالصورة. القلاع الصغيرة تسلم طواعية إلا أن الحراس الذين كانوا في قلعة بريستاسي دافعوا عن قلعتهم حتى آخر نفس". تدثر بقفطانه السميك المصنوع بطانته من جلد الحمل، وهو ينظر إلى السحب المتجمدة والتي تبدو وكأنها عالقة بقمة جبل جنوش. بعد أن صحح وضع عمامته الحمراء التي جعلهم يلفونها خصيصا له، ومن أجل عدم التأثر بشكل أكبر من الرياح القاسية انحنى للأمام على صهوة جواده الذي يسابق الريح من أجل اللحاق بالمهاجمين الذين يغيرون ناحية الشرق.

بعد أن استولت القوات التابعة لفاضل بك على قلعة بريستاسي كانت تتقدم أثناء قيامها بعملية تطهير وادى أوغراش من فرسان بيزنطه الذين فروا من القلعة نحو الشمال الشرقي من شبه الجزيرة. وفي نفس الوقت فإن

سليمان باشا والحاج إلباي اللذين لم يصلهما خبر الاستيلاء على القلعة كانا قد انطلقا نحو قلعة بريستاسي من مقر القيادة الموجود في بلاجار برفقة القوات التي جاءت من بورصة مؤخرا. سليمان باشا الذي يمتطي صهوة جواده الأشهب خلف الفدائيين الذين يسيرون في المقدمة كان قد شعر بالبرد بسبب ريح الصباح شديدة البرودة مثل فاضل بك. سليمان باشا الذي لم يواجه ريحا شديدة البرودة على هذا النحو منذ حرب أنيرا التي سبقت عبور الدردنيل، كان وهو على صهوة جواده لا يستطيع أن يفكر في أي شيء قط غير البرودة التي تصيب جسده بالكامل وتصل إلى نخاع عظامه. ترك لجام جواده ومسح بيده عارضه النَمِلْ لفترة. أدخل يديه تحت المقعد ومال بجسده إلى الأمام قليلا. ونظر مدة إلى الهواء الذي يخرج من مَنْخِري جواده الأشهب الذي ينطلق على الطريق بسرعة الريح. وعندما أجبر عقله على التفكير كانت الجملة الأولى التي وردت إلى عقله هي "تقول الريح لا تهتموا بالأشياء عديمة النفع، فأنا المالك الحقيقي لهذه الجبال". ومال نحو عنق حصانة بشكل أكثر. وضغط على عمامة الأمراء الموجودة فوق رأسه نحو أذنيه، وفي الوقت الذي وضع يديه تحت المقعد مرة أخرى، تدفقت أفكاره وذهب بفكره إلى أيام الطفولة التي كانت في بورصه. وتذكر الأيام التي كانت والدته نيلوفر خاتون تترك شقيقه الصغير خليل في القصر وتذهب بهم إلى الحدائق الغناء الموجودة على ضفاف غدير نيلوفر. وكان يتذكر أن أكثر من لعب معه هو شقيقه مراد. ورغم تفاهمه بشكل جيد مع شقيقه قاسم فإنه كان قد نسيه تماما بعد وفاته. وأغرب ما في هذا الأمر كان عدم قدرته على تذكر صورة وجه شقيقه أمام ناظريه. وكأن صورة وجه قاسم كانت قد انفصلت من بين صور شقيقاته وشقيقه مراد والصغير خليل وطارت إلى

السماء. أما والدتهم التي كانت تشاهدهم وهم يلعبون ويمرحون في الحدائق فلم تكن تتحدث كثيرا، ولكنها كانت تعبر عن كل شيء ببسمتها التي كانت ترسمها على شفتيها وبنظراتها التي كانت تعبر عن كل شيء بحركات أهداب عينيها. ولكن عند الضرورة كانت تُجلس كل منهم على حدة على حجرها وتقول له ما كانت تريد قوله له. وبينما كانت تقوم بذلك بأسلوب يجمع بين الشدة واللين، فإن من كان يخطئ منهم كان لا يعاود ارتكاب هذا الخطأ مرة أخرى. عندما كان يعود بخاطره لذكرياته تلك كان أول ما يخطر بباله باستمرار هو ذكريات لعبه في الحدائق ومن بعدها كان يتذكر زهور شقائق النعمان الموجودة بين أشجار الفاكهة الموجودة في الحديقة، وكذلك خروجه في رحلات طويلة بصحبة مساعديه وحراسه الذين جعلوهم برفقته. هذه المرة كان على هذا النحو. سليمان باشا الذي مال نحو الأمام على ظهر جواده الأشهب الذي ينطلق بسرعة الريح على الطريق من بين إحدي ذكرياته التي بدأها بوالدته ذهب بخياله إلى رحلة طويلة مع زهور شقائق النعمان. كان يتقدم على الطريق وهو ينظر إلى الزهور متعددة الألوان الموجودة بين أشجار الفاكهة الموجودة على ضفاف غدير نيلوفر. وفجأة ولسبب غير معلوم، بدأت زهرة شقائق النعمان التي يعجب بها الحديث مع بقية الزهور. جميع الزهور مع بعضها، وقالوا:

نحن أجمل زهور الدنيا.

وقالت زهرة شقائق النعمان تنظر اليهم وهي تبتسم:

لا يوجد أي مبرر حتى تغتروا بأنفسكم على هذا النحو. انظروا إلى تلك الجبال التي تحيط ببورصه هل ترونها؟

كل الزهور متعددة الألوان الموجودة بين أشجار الفاكهة في نفس واحد:

نعم نرى، وبعدما قالوا هذا، قالت لهم زهرة شقائق النعمان وهي تنظر إليهم مبتسمة بمرارة:

نعم ترون ولكن ترون وجهكم المقلوب. وإن رأيتم وجهكم الآخر فلن تستطيعوا أن تسموا أنفسكم زهورا ثم صمتت.

عندما صمتت الزهور مع صمت زهرة شقائق النعمان التي يعجب بها، رجع سليمان باشا مرة أخرى إلى أوقات ذهابه إلى الحدائق برفقة والدته وأشقائه. وبينما يحاول التغلب على الابتسامة الموجودة في عقله، حاول تذكر الألعاب التي كان يلعبها مع أشقائه. تجسد أمام عينيه سقوط شقيقه قاسم من فوق الشجرة التي صعد إليها حتى يختبئ بها عند ممارستهم إحدى الألعاب. وبينما كان يمسك نفسه بصعوبة عن الضحك، فإن رياح البحر الباردة والتي هبت من قمم جبل جنوش فجأة اخترقت ملابسه وتجولت على جسده. وبينما كان يرتعد جسده كله مع قشعريرة جلده، حدث نفسه قائلا " أثناء العودة من أنيرا لم تكن باردة إلى هذه الدرجة". تدثر بدرجة أكبر بالرداء عديم الأكمام الذي يرتديه والمصنوع من جلود الحملان ذات الصوف المجعد. وبينما يحاول السيطرة على ارتعاد جسده، نظر إلى شعر لبدة الحصان الأشهب التي تتطاير في الهواء وكأنها تداعب الريح الباردة وابتسم بشفتيه. وبينما يداعب رقبة حصانه بإحدى يديه، زرر بيده الأخرى الزر الأعلى المصنوع من

الصدف والموجود في ردائه الذي حاكه خياطو الروم الموجودون في بورصه من قماش بولدان. مال مرة أخرى إلى الأمام واستمع إلى أنفاس حصانه المتقطعة. وبينما يحاول العودة بسرعة إلى ذكرياته مرة أخرى، مُحيت ذكرياته من عقله وبدأ صوته الداخلي في الحديث، قائلا: " ذات يوم وبعد تناول طعام الفطور كنا قد انهلنا بالأسئلة على والدتي حول إحدى الحكايات التي تتناقلها الألسن، والتي تقول إن كيكلي بابا (الشيخ الذي يركب الأيل) أهدى والدي إحدى شتلات شجر الدلب. وبينما ننتظر الإجابة عن أسئلتنا، قالت والدتي: " هيا لأذهب بكم إلى شاطئ الجدول... ولكن لا تنسوا أسئلتكم، لأنكم سوف تجدون الإجابات عنها وأنتم تمشون بين أشجار الفاكهة الموجودة في الحديقة.". ولكن بعد إلحاحي على الرد، بعد أن ظننت أن والدتي تماطلنا لعدم معرفتها الإجابة عن سؤالي، فإن والدتي المسكينة التي نفد صبرها، قالت بصوت هادئ: "سليمان يا ولدي، لا علم لي بأن الشيخ الذي يمتطي الأيل قد جاء إلى والدك، ولا بأنه قد أهداه أي شتلة شجرة دلب. ولكن كما ترون فإن هناك عشرات من أشجار الدلب سواء في حدائق قصورنا أو في حدائق قصور الحريم الخاصة بنا. من الممكن أن تكون شتلات إحدى هذه الأشجار قد أحضرها الشيخ الذي يمتطي الأيل. ولكن كل أشجار الدلب تقف باسقة إلى جوار بعضها. ولا تخرج أي منها قط للتنزه ليلا من أجل الحديث مع الأشجار الأخرى الموجودة في الحديقة كما يقال. إن ما أريد أن تعرفه، هو أن الناس أحيانا ترغب في تحقيق شيء ما في خيالهم لعدم قدرتهم على تحقيقه في واقعهم الملموس. يجب أن تكون الحكاية التي تقول بسير شجرة الدلب التي أحضرها الشيخ الذي يمتطي الأيل في الحديقة

ليلا، وبأنها تتحدث مع بقية الأشجار الأخرى، هي إحدى الحكايات التي نسجها خيال الذين يصدقون هذا. وتصديقك لهذه الحكاية لفترة هي حقيقة واقعة. يمكنك أن تسأل والدك عندما يعود. ربما يستطيع هو أن يشرح لكم هذا الموضوع بشكل أفضل.". ركبنا عربتنا المزينة الجديدة وعندما انطلقنا على الطريق نحو الحدائق التي تروى بمياه غدير نيلوفر وحينما رأيت والدتي تنظر إلى وهي حزينة منكسرة الخاطر، أدركت أنني قد تجاوزت كثيرا. عندما نظرت إلى وجهها وكأنني أستميحها العذر مدت يدها وأمسكت بيدي. ولم تتركها إلى أن وصلنا إلى الحدائق الموجودة على شاطئ الغدير. وصلنا إلى الحدائق وأثناء نزولنا من عربتنا قالت: " انظر يا سليمان يا ولدى، ها هي الحقيقة تقف واضحة جلية أمامك وكانت قد أشارت إلى قلعة تيكه الموجودة على التل الموجود على الضفة الأخرى. وبينما أنظر إلى قلعة تيكه وبعد أن قلت إنني لم أفهم أي شيء، قالت والدتي " آه يا ولدي، يجب أن تكبر، لتحاول أن تثبت لى بأنك صرت كبيرا". ومرة أخرى لم أستطع فهم أي شيء مما قالته. قالت لي أمي وهي غاضبة بعض الشيء، "سيعود والدك من الحرب غدا أو بعد غد، سيقول لك اتشح بسيفك، وأثبت نفسك. وأنت أيضا سيتوجب عليك القيام ببعض الأشياء حتى تثبت له نفسك. إن لم تستطع القيام بعمل بعض الأشياء التي تجمع فيها بين قوتك وعقلك فلن تستطيع أن تقنع أحدا بأنك كبرت.". ودون أن أنظر إلى وجه والدتي عندما صمتت ولسبب غير معروف ورد إلى ذهني جملة تقول " وإن لم يرجع أبي من الحرب؟". وبعدما فكرت بشكل سريع فيما تريد والدتي أن تقوله، وصلت إلى اقتناع يقول " حينئذ سيتوجب عليّ أن أكبر قبل الأوان" .

ابتعدت ذكرياته الموجودة في عقلة كما جاءت. وعندما وجد يديه في السرج الموجود على ظهر حصانه أمسك نفسه عن الضحك بصعوبة. وقال بصوت عال" الأن أفهم ما كانت أمي تريد أن تقوله وهي تنظر إلى بعينيها الزرقاوين اللتين تشبهان اللازورد. ولكن في ذلك اليوم كنت قد أحسست بأنني كبير. ولم يكن قد بقيت هناك أي لذة للعبة التي كنت ألعبها مع إخوتي. وكنت أسير وأنا أفكر قائلا " على أية حال أن هذا هو البلوغ والنضوج". وبعد ذلك كنت لا أذهب إلى المكان الذي تجلس فيه الجواري مع والدتي. في تلك الأثناء كانت أمي تنشد مع جواريها معًا الأنشودة التي نغمتها على هذا النحو " هي أودريسَس أودريسَس". عندما نأتي إلى قسم النغمة لهذه الأغنية التي تغنيها والدتي باللغة اليونانية فقد كنت أردد قائلا "هي أودريسَس أودريسَس". وأنا أصفق بيدي. وبعد ذلك لم تأخذني والدتي للعب مع إخوتي مرة أخري.

في ذلك اليوم كانت الذكريات تتوالى كالمطر على عقل سليمان باشا الذي جلس منتصب القامة على سرج حصانه. وبينما ينظر إلى الشمس التي بدأت تشرق شيئا فشيئا من خلف جبل جنوش، تذكر كذلك عودة والده من الحرب وكان يخاطب نفسه في خياله قائلا: " ما أروع مراسم الاستقبال التي كانت تتم عملها، عندما كان أبي يدخل من الباب الشمالي للقلعة كانت تعم القلعة صيحات الفرح والابتهاج، المشعوذون يقومون بحركات بهلوانية أمام الخيل، والسيافة يتبارزون بسيوفهم، والبهلوانات يسيرون ويؤدون حركاتهم الأكروباتية". فجأة يصل إلى جالّيانا، وقال "دهــه" بصوت عال. ولكن الحصان الأشهب الأصيل الذي دائما ما يقوم بالتحذير توقف في مكانه وكأنه

سينطلق إلى الأمام. سليمان باشا الذي لم يهتم بوقوف الحصان نظر إلى الأمام. ولما شاهد جدران قلعة بريستاسي العريضة تقف بكل عظمتها أمامه، حدث نفسه قائلا: " لقد سرحت بخيالي كثيرا" واستدار إلى الخلف. ونظر إلى الحاج إلباي الذي يتبعه على مسافة ما. وبينما يقول وهو في ذهول عظيم " سرعان ما قطعنا هذا الطريق الطويل" شاهد الخيل القادمة نحوهم من جهة القلعة وهي تخلط الغبار بالدخان. عاد للخلف مرة ثانية ونظر إلى الحاج إلباي.

(٣٨)

إن يوحنا كنتاكوزين الذي يطلق عليه البطريرك الإمبراطور الغاصب كان قد ظل لساعات يخلل لحيته بأصابعه الضخمة. وكانت زوجته الإمبراطورة إيرينا لم ترجع بعد من قصر صهره. يوحنا كنتاكوزين السادس كان مصرا على الانتظار إلى أن تضع ابنته حتى وإن كان وقته ضيقا جدا. كان لا يفكر في ترك القصر إلى أن تعود إليه زوجته بالخبر السار. لأنه كان يعتقد أن مطر الخير سوف يهطل على القسطنطينية مع ميلاد حفيده، وكان يأمل بأن يوقف البطريرك حملته الدعائية التي يقوم بها ضده حتى حفل تعميد الطفل على الأقل. ولذا انزوى في غرفة الصالون وكان لا يتحدث مع أحد قط، كما كان لا يريد الإنصات إلى أي شخص كذلك. ولكن حتى وإن لم يرد هو، فإن من تجرءوا على الكلام أمامه الذين جاءوا إلى غرفة الصالون، كانوا يرددون بأنه إن لم يتحرك فورا سوف يكون قد فات الأوان. الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش الذي فعل كل ما بوسعه من أجل عدم الإنصات لهم وكان آخر ما فعله أنه عندما دخل أحدهم الغرفة قام بإعطائه ظهره ونظر من النافذة الواسعة لغرفة الصالون الكبيرة نحو أبوستليون. ظلمة المساء التي بدأت تعم الغرفة شيئا فشيئا، وكأنه قد أصابته الحيرة عندما شاهدها تبتلع صورة الأحياء الموجودة أمامه، قال" كنت أظن أن هذا اليوم لن يكون له مساء". وبعد أن انتظر صامتا مدة، قال" لا يستطيع أي شخص إنجاز أي عمل في هذه الليلة الظلماء". قائد القلعة الذي دخل إلى

الغرفة من فوره، والذي سمع حديثه لنفسه هذا، وهو ينظر إلى نائب رئيس الوزراء الموجود خلفه، انحنى للأمام وقال:

يا صاحب العظمة هل تريدون شيئا، أم أن هناك أوامركم التي تريدون تنفيذها؟

الإمبراطور يوحنا السادس كنتاكوزين شريك العرش، لم يلتفت نحوهم وبوجل الإرهاق من الانتظار داخل صمت خبيث، قال:

لا شيء، أي أمر يمكن أن أصدره بعد ذلك. إن ما أقوله، إنه في أي حال من الأحوال، لا يخرج أي شخص إلى الخارج في هذا الظلام الدامس الذي سيعم المكان بعد قليل. وهذا يعني أيضا، أن قسطنطينيتنا سوف تلتقط أنفاسها هذه الليلة...

بعد أن ظل يشاهد لفترة ابتلاع الظلام لبيوت الأحياء الموجودة على التلال المقابلة استدار ونظر إلى قائد القلعة الذي يقف أمام الباب، وبصحبته نائب رئيس الوزراء الذي عينه بنفسه لمساعدة رئيس الوزراء أليكسيس. نائب رئيس الوزراء الذي شاهده في ضوء القناديل المضاءة فهم ماذا تريد أن تقوله هذه النظرات التي يعرفها جيدا. تملكه الضيق، وقال بصوت حزين منكسر:

يا صاحب العظمة! إن آخر من أرسلنا من رسلنا إلى الأحياء على وشك المجيء. أما الرسل الذين أرسلناهم إلى قصر باليولوج فلا يوجد خبر عنهم. وفقا لما ورد إلى مسامعنا، فإن أنصار باليولوج الذين يعرفون مدى إخلاصكم لزوجتكم الإمبراطورة قد ضاعفوا الحراسة حول فلاكارنه. ولكن ليطمئن قلبكم، فإن الإمبراطورة إيرينا بجوار ابنتكم. الإمبراطور يوحنا

باليولوج الخامس شريك العرش، كان قد أعطى أمرا يقول " بأنه لو حدث أي ضرر لطرف ثوب حماتي سيكون فإن كل الحراس الموجودين حول قصري سيكونون مسئولين عن ذلك.". وفي الواقع كنا قد أرسلنا جاريتيها إلى جوارها في زي الراهبات بعد الظهر.

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش كان حزينا جدا خلال اليومين الأخيرين بسبب الأحداث التي وقعت في القسطنطينية، وكان يشعر بأن يديه وقدميه مغلولتان بسبب عجزه عن القيام بفعل أي شيء في مواجهة كل ما يواجهه. وكان لا يستطيع أن يصدق كلام أي شخص بسبب التغير اللحظي للأخبار القادمة وكان يخشى أن يتم الهجوم على القصر في أي وقت والقبض عليه والزج به إلى أحد السجون الموجودة في أنيماس. في الحقيقة سواء هو أو باليولوج الخامس شريك العرش كانا قد اتخذا قرارا مشتركا وأرسلا بيانا مشتركا قاطعا إلى كل الأحياء وإلى كل الوحدات يقول: " ليس من حق أي شخص أن يصدر قرارا باسم الإمبراطور أو أن يزهق روح أي شخص آخر. إن أي شخص سوف يتصرف باسم الإمبراطورين دون أن يحصل على أمر مكتوب منهما، أو يحرض المناصرين من كلا الطرفين، ويسفر ذلك عن موت البعض منهم وعلم الإمبراطورين بهذا الأمر، يكون بذلك قد أصدر أمر موته بنفسه". إلا أن هذا البيان لم يستطع أن يخمد النار الموجودة تحت وعاء الشائعات. الفتنة التي تشعلها الإمبراطورة الأم ورجال البطريرك باستمرار كانت قد استمرت في التفشي في البيوت الموجودة في الأحياء. ولذا كان الإمبراطوران يفعلان كل ما في وسعهما من أجل عدم إراقة الدماء في المدينة من جديد، ولكن الخطر الداهم المحدق كان

يكبر باستمرار. الإمبراطور كنتاكوزين السادس شريك العرش الذي يبدو وكأنه كان سيختنق داخل غرفته بعد أن تنفس نفسا عميقا، أصدر إحدى الآهات التي تعبر عن كل الأحزان الموجودة بداخله. قائد حرس القلعة ونائب رئيس الوزراء الموجودين في غرفته واللذان يعدهما أخلص رجاله له، آلمهما بشكل كبير نبرة الحزن التي تعتري صوته. وشعرا بأنهما مذنبان وكأنهما ارتكبا كل جرائمه. وبينما ينظران لبعضهما وقد نكّسا رأسيهما ، خاطبهما الإمبراطور الغاصب يوحنا كنتاكوزين السادس الذي شَذَّر لحيته بأصابع إحدى يديه منذ فترة طويلة بينما يُشَذِرْ لحيته قائلا:

أعزائي، أعتقد بأنه يجب وضع نهاية لهذا الأمر الآن. سعدت بالعمل معكما لسنوات، ولكن لا أريد أن تعاني قسطنطينيتنا المتاعب مرة ثانية. لقد حان وقت التنحي. الأسبوع الماضي كنت قد قلت للموجودين في قصري بأن من يرغب منهم يمكنه المجيء معنا إلى ديموطيقا، وكنت قد طالبتهم بعمل الترتيبات اللازمة لذلك. وأعتقد أنهم أعدوا أنفسهم لذلك وهم غير راضين. أنا لن أطلب منكما المجيء معي. ستبقيان ممثلين لي في القسطنطينية، وستقومان بتهدئة أنصاري. لقد تحدثت في هذا الأمر أيضا مع صهري يوحنا باليولوج الخامس شريك عرش إمبراطوريتنا. هو كذلك يثق بكما. كنت أفكر في البقاء حتى آخذ حفيدي في حضني ولكن ما أراه الآن، هو أن الأمور تزداد سوءا كل ساعة. لقد اخترت أن أكون أنا فداء لهذا الأمر وسوف أغادر القسطنطينية قبل حلول الصباح. وكل ما أطلبه منكما الآن، هو أن يذهب أحدكما إلى صهري شريك عرش الإمبراطورية، ويذهب الآخر إلى البطريرك مَجْمَع الشائعات ومصدرها وأن تبلغوهما بقراري هذا. إن حصلتم على أخبار

سارة من قصر عائلة الباليوليوج أبلغوني بها. وعليكما أن تخرجا الإمبراطورة إيرينا سالمة إلى خارج الأسوار....

قال نائب رئيس الوزراء الذي خدم الإمبراطور كنتاكوزين السادس في أصعب الأوقات لسنوات عندما شاهده مصرا على ترك القسطنطينية:

على الأغلب، هذا قرار عابر، اتخذتموه عظمتكم من أجل تهدئة الأوضاع.

قال الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس الذي يصفه البطريرك بالإمبراطور الغاصب:

هذا لا يعني أنني تخليت عن شراكة العرش البتة. لكن لا أريد أن يلوث العرش الذي سيجلس عليه أحد أحفادي في المستقبل بدماء عائلة كنتاكوزين.

قال قائد حرس القلعة الذي يرى امتثال نائب رئيس الوزراء لهذا القرار:

يا سيدي هل سيقبل ابنكم شريك عرش الإمبراطورية بهذا؟ وإذا ما نظر إلى هذه المسألة على أنها إحدى القضايا التى تمس شرف عائلة كنتاكوزين ماذا سيحدث حينئذ؟

ولما كان الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين شريك العرش لم يفكر في الأمر من هذا الجانب قط، شعر بأن حملا ثقيلا لا يمكن حمله قد جثم على كتفيه اللذين حاول أن يبقى عليهما منتصبين. وهنا أدرك الإمبراطور من هذا الحديث أن رجليه على علاقة وثيقة مع ابنه ماتيوس الذي عينه شريكا للعرش بنفس درجة علاقتهم وارتباطهم به. وبعد أن فكر لبرهة في مجيء ولده إلى القسطنطينية ارتعدت فرائصه. تملكته همومه من جديد ونظر إلى

أحياء أهالي جنوة التي تُرى في ضوء مصابيح الزيت الموجودة في نوافذ غرفته. وكان لا يوجد أي شيء يبدو وكأنه غير طبيعي في حي أهالي جنوة الهادئ الذي يعيش في عالم آخر. وفي الواقع فإن حياة الذين يعيشون داخل القلعة الموجودة على هذه الضفة من القرن الذهبي لا تؤثر فيهم بشكل كبير وتجعلهم لا يأبهون بما يحدث في القلعة. وبينما ينظر إلى الحياة الهادئة الموجودة على الضفة المقابلة، تذكر ذهابه إلى خمارات بودروم الموجودة خلف الميناء، قبل أن يكون كبير مستشاري أندرونيكوس بفترة طويلة. وبينما كان يهز رأسه يمنة ويسرى، قال وهو يرسم على شفتيه ابتسامة حزينة: "كان يوجد لكل منها باب سري للخروج ... حتى أن البعض منها كان له بابان سريّان ... الباب الأول كان عندما يفتحه أحد الذين يكتشفونه كان يجد أمامه جدارا عريضا جدا، وكان الكثير من الأشخاص لا يعرفون الباب الآخر المدفون داخل الجدار بشكل جيد. نظر خلفه دون أن ينظر إلى رجليه اللذين ينتظران منه أن يقول أي شيء، إلا أنه استمر في طريقه نحو ذكرياته في ذلك الوقت وكأنه كان يلجأ إليها ويحتمي بها، ظل طويلا مع حديثه الداخلى لإحدى ذكرياته الطويلة قائلا: في إحدى تلك المرات بينما كنت أنتظر أن أغوص في أحلام وخيالات الشباب في إحدى الزوايا الموجودة في الجو شبه المظلم، كنت قد شاهدت تلك الجميلة السلافية التي كانت تجلس أمامي. في البداية تبادلنا النظرات. بعد ذلك جلسنا إلى جوار بعضنا... وكنت قد أمسكت بيدها ونحن نحتسي شرابنا الأحمر. وبينما كانت يدها تنبض بحرارة داخل قبضتي، حدث صراخ عند الباب. ونظرا لأن آذان الذين اعتادوا الذهاب إلى هناك قد اعتادت على تلك الأصوات فلم يعيروا الموضوع أي اهتمام، ولكن

تعالت الأصوات بشكل كبير، التفت إلى الجهة التي يأتي منها الصراخ. لما اقترب الصراخ من باب الخمارة وبينما يبحث كل شخص عن مكان للهروب قامت الجميلة السلافية بسحبي من ذراعي، وفي الوقت الذي كانت قد مررتني فيه من الباب السري الأول، ظهرأمامنا ذلك الجدار المشهور. وبينما كنت أعتقد بأننا حوصرنا بين الجدار والباب انشق الجدار، وسحبتنا إحدى الأيدي التي لا نراها إلى ظلمات الغرفة الثانية الأخرى. وعندما أُغلق الباب الموجود في الجدار كانت قد تعالت في الخمارة الصراخات المروعة الكثيرة. وعندما خرجنا إلى أحد الشوارع الخلفية قلت للجميلة السلافية:

إن الآخرين ظلوا داخل الخمارة.

قالت الجميلة السلافية التي يتناسب طول قدها مع قامتي للغاية:

لنشكر الرب على نجاتنا، ليبحث كل منهم عن سبيل للنجاة بنفسه.

كنت لا أرى وجهها المختفي في ظلمات الشارع ولكن كنت أيضا أنظر إليها قائلا علني أرى بعض الأشياء، وبعد التقاط الأنفاس المتقطعة:

ولكن صرخاتهم!

الكثير من تلك الصرخات لإرهاب وتخويف الذين يفرون كذلك.

من هؤلاء، هل هم من القلعة أم أنهم من مكان آخر؟

هؤلاء بقايا إسبان بيجالي. يأتون أحيانا... يقومون بسلب ونهب الموجودين بالداخل، ويصطحبون معهم النساء اللواتي يمسكون بهن.

وبعد ذلك؟

لا قبل ولا بعد. سيأخذون كل ما يمكنهم الاستيلاء عليه وكل ما يستطيعون الإمساك به وسيحضرونه مرة أخري ويبيعونه لصاحب الخمارة...

حديثنا كان قد انتهى عند ذلك. وكنت لا أجرؤ على الذهاب إلى الخمارة بعد ذلك. ونظرا لغلق أبواب القلعة كنت مضطرا إلى البقاء في الشارع حتى الصباح. واصطحبتني المرأة السلافية وذهبت بي. كنت أتذكر هذا باستمرار في السنوات الأولى لتبوئي عرش الإمبراطورية ولكن بعد ذلك نسيت هذا الأمر. لأن الآلام كانت تبقى مع من يعانونها". بعدما انفصل عن ذكرياته، حدث نفسه قائلا: "إن حقيقة ماتيوس تقف أمامي وكأنها أحد الجبال. لو قال هو الآخر مرة "نعم" لطمع في الحكم والسلطة مثلي. آه حتى لو لم يتدخل في هذه الأمور والآن سيتم فعل كل الموبقات التي سترتكب فيما بعد باسمه". وأصبح وكأن بعضهم يضغط على حلقه. وفي الوقت الذي نهض فيه من أجل أن يقوم بضرب قدمه بأرض الحجرة من شدة غضبه قال لعقله " لا يستطيع ماتيوس أن يترك أدرنه ويأتي إلى هنا الآن. بمجرد أن يعلم العثمانيون بمغادرته القلعة سيحتلونها على الفور. وماتيوس لا يجازف بهذا، لأنه يعلم أنه لو ضاعت أدرنه فلن يسلم من اتهامات أنصار أسرة الباليولوج له بأنه السبب في ضياعها" وانفرجت أساريره بعض الشيء. ومع انفراجة أساريره تلك، حدث نفسه قائلا: "هل أستطيع أن أذهب إليه قبل أن يأتي هو إلى هنا وأقوم بإقناعه". وبينما ينظر إلى رجليه الواقفين عند الباب، قال:

كنت قد قلت لكما بأن يذهب أحدكما إلى البطريرك ويذهب الآخر إلى قصر عائلة الباليولوج، لماذا مازلتما واقفين هنا؟ أعرف بمدى ثقتكما بماتيوس، بيد أنه من المستحيل أن يترك ماتيوس أدرنه الآن. إن ترك قلعته

في الوقت الذي يقترب فيه ابن أورخان منها دون توقف ستكون هي الشيء الذي سيضيع من بين أيدينا. لذا لا يراودكما أي أمل في مجيء ماتيوس إلى هنا. تناقشت مع صهري وشريك عرشي باليولوج في كل هذا. هو أيضا مثلي لا يريد أن يرى إراقة الأخ لدماء أخيه في شوارع القسطنطينية. لاسيما وأنه في الوقت الذي يعمل فيه العثمانيون على تقوية أنفسهم يوما بعد يوم في مواجهتنا، والذين يغيرون على حدودنا، فإن بيزنطتنا لا ترغب أبدا في تعرضها لأي صراع داخلي. ولكن ليس بوسعه أن يفعل أي شيء أكثر مما أفعله الآن. بيد أنه يوجد الكثير من الأشياء التي يمكن أن ننجزها معا. حتى وإن كان أورخان صهري هو الآخر، فلن أسمح له أبدا بأن يتقدم خطوة خطوة داخل أراضينا على هذا النحو. إن لزم الأمر سوف أذهب إلى الفاتيكان وأطلب المساعدة من أجل إبعاد العثمانيين عن تراقيا. لأن وجودهم في تراقيا يسبب المشاكل لقسطنطينيتنا كل وقت.

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش الذي أنهى كلمته بصوت بارد، ارتعدت فرائصه عندما شاهد النظرات الباردة مثل برودة صوته لكل من قائد حرس القلعة ونائب رئيس الوزراء اللذين يقفان أمام الباب.

•

(٣٩)

سليمان باشا والحاج إلباي اللذان قدما إلى قلعة بريستاس التي تم الاستيلاء عليها حديثا، التقيا كلا من بلابانجيق أوغلو الذي تركه فاضل بك من أجل حفظ الأمن والنظام داخل القلعة وقائد الميناء الذي عينه. قاما بزيارة راهب الكنيسة الموجودة في القلعة، وبعد الاجتماعات التي عقداها مع وجهاء القلعة تركا قوات المشاة التي كانا قد أحضراها معهما في القلعة بعد أن قسمها إلى كتيبتين وانطلقا إلى طريق معاكس تماما لطريق فاضل بك الذي يواصل تقدمه الهجومي نحو شمال شرق تراقيا. اجتازا الوديان والتلال التي يعد كل واحد منها وكأنه مانع طبيعي، وكذلك الأراضي المنبسطة الشاسعة، وعندما وصلا أمام القلعة التي يطلق عليها البيزنطيون اسم "ديما" شاهدا وحدات الفرسان والمشاة التي أرسلها فورا إيجه بك والتي كانا ينتظرانها.

وبينما ينتظر سليمان باشا إقامة خيمته الكبيرة المزخرفة المتنقلة، وكذلك الخيمة التي تستخدم مقرا للقيادة غطت وجهه بسمة عريضة حينما علم بأن هذا المكان هو أنيرالي. شرب بعض الأشياء الباردة حتى يرطب جوفه قبل الذهاب إلى الاجتماع الذي سيعقد في خيمة مقر القيادة، وذهب للحصول على قسط من الراحة في خيمته المتنقلة. تمدد على فراشه السميك المفروش على اللباد ولم يكد يضع رأسه على وسادته حتى تذكر حرب أنيرا التي كانت آخر الحروب التي خاضها قبل العبور إلى تراقيا. وبينما كان

يحدث نفسه وهو على وشك إغماض عينيه المرهقتين، قائلا: "بينما كانوا يتقدمون نحو الشرق من أراضي أشراف جرَدا (مدينة بولو حاليا) كان أعضاء جماعة الإخوة يراقبوننا من بعيد. وكنا لا نقوم بمهاجمتهم لأنهم لم يقوموا بالاعتداء علينا. وبينما كنا نتقدم باستمرار نحو الشرق على هذا النحو، فإن الحرارة كانت تجعل رءوسنا تغلي نهارا وكان البرودة القارسة تصل حتى نخاع عظامنا ليلا. وكان من المستحيل فهم حكمة التغيير هذه التي تحدث خلال عدة ساعات. وكنا نتخذ كافة التدابير لمواجهة هذه التغيرات المناخية، وفي أول صباح للمساء الذي وصلنا فيه إلى أطراف أنيرا، وبينما كنا نتوقع أن تهطل الثلوج، كنا نخلع ملابسنا العلوية ونتدرب بالسيف في الصباح، وظهرا كنا لا نستطيع الإمساك بمقابض السيوف من شدة البرودة. تشكيل الإخوة الذي لم يعتد علينا حتى ذلك الوقت، عندما تيقنوا من أننا لا يمكننا فعل أي شيء من شدة البرودة بدءوا الهجوم علينا. ولما فروا من شدة الهجوم المضاد الذي قمنا بشنه عليهم حتى دون أن نقوم بتشكيل جبهة للتصدي لهم أصابتنا الدهشة لما حل بنا. وبينما كنا نسعد بمشاركة أشراف جردا العثمانيين، فإن هجوم تشكيلات الإخوة هذا الذي لم نتوقعه كان قد أضر بمعنوياتنا. وبينما كنا نفكر في كيفية التدابير اللازم علينا اتخاذها، هب أشراف قراسي بإمدادنا بالفخاخ المصنوعة من الحرير. وقبضنا على كل الذين خرجوا من القلعة تقريبا بالفخاخ التي نصبناها في إحدى الليالي. وعندما قطعنا رءوس زعماء تشكيل الإخوة الذين ألقينا القبض عليهم أمام القلعة قامت القلعة بالاستسلام من تلقاء نفسها. ولكن تنظيم الإخوة الذي تمرد بتحريض من قرامان أوغلو الذي علم بعبورنا إلى هذه الضفة من

الدردنيل قاموا بفعل كل ما استطاعوا فعله بمن تركناهم داخل القلعة. لو لم أكن قد عبرت إلى هذه الضفة كنت أذهب إلى أنيرا مرة أخرى وأخضعت كلا من تنظيم الإخوة و قرامان أوغلو، ولكن لدي الكثير من الأعمال التي يجب إنجازها على هذه الضفة. إن شاء الله وقدر لنا الاستيلاء على هذه الضفة من الدردنيل وحتى شواطئ البحر الأسود سيكون أول ما أقوم به هو الذهاب إلى أنيرا، وسأجعل قراهان بك يجعل منتسبي تنظيم الإخوة يدفعون مقابل هذه الأرواح". فر النوم من عينيه. عندما ثَبَّتَ نظراته على سقف الخيمة المصنوعة من الشعر، تجسد أمام ناظريه وجه قراهان بك الذي حرقته الشمس أول من علمه كيفية القتال بالسيف. وبينما كنت أنظر إليه نظروا هم وقرهان بك لبعضهم فترة من الوقت. سليمان باشا الذي أعياه النظر إليه قال وهو غاضب بعض الشيء، " يا قراهان بك قل أي شيء بدلا من النظر إليّ على هذا النحو. تمدد على فراشه وهو مستلق على ظهره وبينما ينظر إليه بنظرات لا تحمل أي شيء فإن قراهان بك الذي أحزنه غضب سليمان باشا الذي تحدث إليه وهو غاضب بعض الشيء أخذ جثته الضخمة وسيفه الكبير وصورة وجهه الذي أحرقته الشمس الذي مثل أمام سليمان باشا قبل قليل واختفى في عالم الخيال فجأة. سليمان باشا الذي تملكته الحيرة لاختفائه فجأة كما ظهر له فجأة، وبينما كان يهز رأسه على الجانبين وكأنه نادم على ما قاله، سمع صوت الحاج إلباي الذي يأتي من أمام خيمته المتنقلة. نهض على الفور وخرج من خيمته إلى الخارج. ولما رآه الحاج إلباي لدى خروجه إلى الخارج قال بصوت هادئ:

يا أميرنا، إن غالبية الفرسان الذين قدموا هم من أفضل الفرسان الذين أعدهم الأشراف في جردا. وكذلك المشاة الذين قمنا بأسرهم هم من تنظيم الإخوة في أنيرا. من الواضح أن أورخان غازي الذي سافر إلى أراضي جردا، قد أقنع سلطان شاه بك بشكل جيد. وفقا لما قاله الشريف فإن سلطان شاه بك وسادة جردا الآخرين كانوا سيأخذون مكانهم إلى جانب سيدنا. ووفقا لما قاله سادة جردا فإن تقدمكم خطوة خطوة في تراقيا على هذا النحو قد أوجد نوعا من السعادة الكبيرة بين أشراف الأناضول. الإمارات الكبيرة تخاف من انضمام الإمارات الصغيرة التابعة لها في القريب العاجل إلى إمارتنا التي تحقق العدل والمساواة، إن الإمارات الصغيرة كانت ستطلب "العدالة العثمانية" وستنعم بها. يا سيدي، إن حدوث تضارب واختلاف على هذا النحو، لدليل قاطع على حسن إدارة النظام الذي أرساه عمكم نور الدين بك - طيب الله ثراه - ووزراؤه وكذلك تطبيق الكثيرين لهذا النظام قبل مرور فترة طويلة. صدقوني، إن هذه الرؤيا هي رؤياي التي شاهدتها عندما كنت في قراسي. انظروا أورخان غازي أطال الله عمره، أبلغ أقصى الإمارات الموجودة في الأناضول بتقدمنا المستمر في تراقيا بأسلوب معسول. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع حتى وإن أصاب قرامان أغلو بالضيق، فإنها فرصة لا يمكن تفويتها بالنسبة لآل عثمان.

قال سليمان باشا وكأنه كان يقرأ ما بداخل رجله، نظر إلى الحاج إلباي الذي يتحدث وهو يبتسم:

يا حاج إلباي أنا أيضا كنت أفكر في ضرورة جعل تنظيم الإخوة يدفعون ثمن عصيانهم بعد ذهابنا، وقيامهم بذبح شجعاننا الذين تركناهم هناك

مثل القطيع، ولكن لم يخطر ببالي أحد أحاديثي مع والدي. في هذا الحديث، كان قد حدثني قائلا: " يا ولدي كما أن تناول كل ثمرة من ثمار الفاكهة قبل نضجها غير مفيد لجسم الإنسان، فإنها تقف في الحلق كذلك. ولذا سوف تنتظر وأنت تتحلى بالصبر نضوج ثمار الفاكهة. من الطبيعي، أنه ليس من السهل الانتظار حتى تنضج الثمرة تماما وأن ترى تغير لونها أمام ناظريك وإيثارتها للعابك كل يوم، ولكن يجب أن تكبح لجام نفسك وأن تنتظر. إن كنت تفكر في وضع إحدى الإمارات تحت إدارتك يجب عليك أن تبدي نفس الصبر الذي أبديته وأنت تنتظر نضوج الفاكهة، حتى تنضج بالدرجة التي تجعلهم يطلبون الدخول تحت سلطتك، وحتى لا يكونوا كذلك شوكة في حلقك بعد دخولهم تحت إمرتك.". إن دخول سلطان شاه بك تحت حكم والدي برهن على صحة قوله. فضلا على عدم إراقة نقطة دم واحدة، كما أنهم الآن يحاربون بجانبنا ويقفون معنا كتفا بكتف. تذكري لهذه الأشياء جلب إحدى ذكرياتي إلى عقلي. ذات يوم عندما ذهبت إلى جوار أبي كان يتحدث مع عمي علاء الدين بك. وبينما كنت سأخرج من الغرفة حتى لا أقطع عليهما حديثيهما طلب عمي أن أبقى إلى جانبهما، وبعد أن طلب مني الاستماع إلى حديثهما، استمر في حديثه قائلا:

يا أخي إن سر الدولة هو تميمة الأسرار الأخرى. إن لم تستطع الحفاظ عليه بشكل جيد ينفك السحر. ولذلك من أجل عزة إمارتك واستمرارها يجب أن تكون لديك أسرارك التي تخفيها حتى عن نفسك. هذا لا يكفي بل يجب أيضا أن تكون أفواه الرجال الموجودين من حولك كتومة مثلك على الأقل. عليك أن تعلم، أن الشخص الذي لا يكتم الأسرار تكون قبضته رخوة، وسيفه

لا يمكن الاعتماد عليه كذلك. مثل هؤلاء يتخلون عنك، ولا يحمونك ولا يدافعون عنك.

والدي الذي استمع له بدقة متناهية، لما صمت عمي استدار نحوي، وسألني قائلا:

يا سليمان يا ولدي هل استمعت لما قاله عمك؟

أنا لم أستطع أن أدرك جيدا ماذا يريد أن يقول، وكأنني أمارس إحدى الألعاب قلت:

استمعت يا والدي. وبإشارة يده كنت قد انسحبت إلى الخلف، وخرجت بعيدا عنهما، وقمت بالركض حتى وصلت إلى جانب أمي الموجودة في جناح الحريم. والدتي التي شاهدت القلق الذي يبدو من مجيئي ركضا، لاحظت بسرعة القلق الموجود على وجهي. وكأنها لم تلاحظ أي شيء أجلستني على حجرها. وبينما تداعب رأسي التي وضعتها على ركبتها، سألتني أولا عما فعلت منذ الصباح. بعد أن قصصت عليها كل ما قمت بفعله في ذلك اليوم شيئا شيئا، انفرجت أساريري، وتخلصت من مخاوفي التي انتابتني قبل قليل. وكأن والدتي كانت تنتظر تلك اللحظة. في البداية قامت بسحب يدها التي تداعب رأسي، ثم طلبت مني أن أجلس أمامها. لم أفهم ما حدث عندما جلست أمام والدتي، كانت قد حدثتني بصوت هادئ ولكنه بأسلوب الأمر قائلة:

لا تقلق، كان يبدو على وجهك منذ قليل حيرة يملؤها القلق. تعلم أن القلق هو دليل على عدم المعرفة. إن تكن ذا علم فلا تقلق، فأنا لم أفهم ما قيل.

بعدما تحدثت والدتي وكأنها كانت تقرأ ما يدور في عقلي:

قلت آه يا والدتي العزيزة! بعدما لم أستطع فهم ما قالوه.

والدتي، بعد أن رفت أهداب عينيها الرقيقة الطويلة تجولت بنظراتها الناعمة على وجهي لبرهة. ولما رأتني أنظر نحو الأرض، قالت:

إن هروبك بنظراتك وأنت تتحدث ليس بالتصرف الجيد على الإطلاق. لا تفعل ذلك ثانية. وكأنها قد نسيت جملتها التي قد قالتها قبل قليل، وكأنها تكمل جملتها السابقة، قالت: من المستحيل أن يعرف الانسان كل شيء وعدم فهم الانسان لشيء يسمعه لأول مرة ليس عيبا. ولكن إن سمع نفس الشيء للمرة الثانية، ولم يستطع أن يفهمه حينئذ يكون عيبا. في البداية سوف تعلم سبب عدم استطاعتك فهم ما سمعته، وبعد ذلك سوف تتعلم كيفية فهم ما سمعت. هل تعرف؟، لما جئت إلى بورصة تعلمت كل شيء من جديد تقريبا.

قلت لها وأنا أنظر إلى وجهها:

وماذا حدث للذي تعلمتيه قبل ذلك؟

قالت والدتي التي رسمت شبه ضحكة على شفتيها وهي تبتسم:

ما عرفته قبل ذلك كان محدودا بجدران قلعة يارحصار. لما خرجت خارج تلك الأسوار، أدركت أن المعرفة لا حدود لها. أما الآن فأنا على علم بكل ما هو موجود داخل حدود إمارتنا فقط. ولكن يجب زيادة هذه المعرفة وتلك المعلومات، ويجب أن تجتاز حدود إمارتنا إلى الآخرين. ويجب أن يكون ذلك لك أنت أيضا. لأن الحياة ليست بقدر ما يعلمه لك لا والدك ولا أنا ولا زهور شقائق النعمان... وبعد ذلك كانت قد طلبت مني الذهاب إلى غرفتي.

سليمان باشا الذي صمت بعد أن حكى هذه الأشياء، قال للحاج إلباي الموجود أمامه:

ليجزيك الله خيرا يا حاج. بكلمتيك أبعدتني عن نفسي. ولكن بينما كنت أنصت لأمي في ذلك اليوم في البداية حدث شيء غريب. اعتقدت بأنني لا يمكن أن أخفي حتى أفكاري عن والدتي، وكأنني سأذكر أولى الأفكار التي وردت على ذهني وضعت ذراعي حول عنقها قائلا "أمي أمي يا أمي السلطانة". وبعد ذلك جثوت على ركبتيَّ أمامها، وقلت لها سأطلب من والدي أن يسمح لي بأن أكون بين القادة غدا. ولكن قبل ذلك أود أن أنال رضاكِ. والدتي، وهي تنظر إلى وجهي بنظراتها الحزينة، وكأنها قد نسيت كل ما قالته فتحت ذراعيها لأنطلق.

سليمان باشا، كان يذهب إلى ذكرياته الهادئة الصامتة كلما بقي وحيدا بمفرده، وعندما كان يذهب إلى أي مكان على صهوة جواده، و يأتي أمام كل قلعة جديدة، وحينما كان ينظر إلى القلعة الموجودة أمامه. ولكن هذه المرة وبينما كان يتحدث مع الحاج إلباي استغرق في الصمت وذهب إلى ذكرياته. وبدأ في الضحك بعدما لاحظ ذلك متأخرا جدا. وبعدما فرغ من ضحكه قال للحاج إلباي:

بكلمتيك جعلتني أغوص في ذكرياتي. لم أكن أتحدث على هذا النحو قط. وهذا يعني أنني اشتقت جدا لوالدتي.

الحاج إلباي:

أميرنا يشتاق لأشياء عزيزة. كنت أرى رحلاتكم إلى ذكرياتكم حتى وإن لم تحكوا حتى اليوم. في الأغلب كنتم تذهبون بمفردكم بيد أننا ذهبنا سويا اليوم إلى هذه الرحلة. يجب أن نسعد لوجود ذكرياتنا التي نتقاسمها.

قرا حسن أوغلو الذي جاء إلى جوارهما متبخترا في مشيته وهما يتبادلان أطراف الحديث، بعد أن ألقى عليهما التحية، قال:

يا أميرنا إن الرماة والمتسلقين والمشاة والفرسان قد أخذوا أماكنهم.

قال سليمان باشا:

أطال الله عمركم يا قرا حسن أوغلو. لقد نسقتم النظام بسرعة فائقة.

قرا حسن أوغلو:

يا سيدي إن أشراف جردا كانوا قد قاموا بعمل الكثير من التجهيزات قبل مجيئنا. واكتمل الأمر بعد أن قمت بتسكين كتائب فرساننا في أماكنهم.

نظر سليمان باشا إلى القلعة التي تقف أمامه صامتة وإلى جبل جنوش الموجود خلفها. وبينما يتجه بناظريه نحو الشمس التي تقف مثل قنديل بنفسجي معلق في كبد السماء، قال: "هل تنيرنا لنا أم تنير للموجودين بالقلعة". بعد أن صمت لبرهة قال وهو ينظر إلى قرا حسن أوغلو الموجود أمامه، لا يلزم انتظارنا للمشاة الذين يأتون من خلفنا. لنجرب شجاعة تنظيم الإخوة إلى أن يأتوا.

ما إن سمع قرا حسن أوغلو الذي يقف على بعد خطوتين أمامه ما قاله، حتى استدار إلى الخلف. وأمر كبير المراسلين الذي استدعاه إلى جواره أن يقوم على الفور بإبلاغ كل من أقجه قوجه أوغلو الذي يتمركز بقواته في شمال القلعة وقول أوغلو حسن بك المتمركز في غربها وعيسى بك المتمركز في جنوبها بأن يكونوا مستعدين للهجوم. كبير المراسلين تركهم على الفور وذهب. ثلاثة من ناقلي الأخبار الذين ينتظرونه من الأمام منه قليلا، بمجرد

أن تلقوا الأمر أحضروا جيادهم على الفور وانطلقوا إلى الجهة التي سيذهبون إليها. وبعد أن انتظر الحاج لفترة تساوي الفترة التي يستغرقها إبلاغ ناقلي الأخبار إلى القادة، صاح وهو ينظر إلى قارعي طبول الحرب قائلا

اقرعوا الطبول.

وما إن قرع قارعوا طبول الحرب الطبول بمجرد سماعهم لما قاله، بدأت سهام اللهب تهطل من كل صوب على قلعة ديمنا التي تقف ساكنة. بعد الوابل الثاني للسهام الحارقة انسحب رماة السهام. وأخذ مكانهم رماة السهام الأبعد مدى. السهام التي ألقاها رماة السهام بعيدة المدى بينما تمزق أديم السماء الذي صار لونه بنفسجيا بآخر أشعة للشمس وقت الغروب، فإن المشاة المشكلين من تنظيم الإخوة في أنيرا ركضوا إلى أحد المواقع الأمامية. أما سليمان باشا والحاج إلباي اللذان اعتقدا بأنه لا توجد في القلعة قوة يمكنها مواجهتهما بعدما جاء رد نادر وبسيط على وابل السهام الثاني من خلف أبراج القلعة حتى يتمكنا من أخذ مواقعهما بسهولة، فأصدرا أوامرهما بتقدم المشاة المدرعين وحاملي رءوس الكباش نحو أبواب القلعة. ولكن مع بداية سير المشاة المدرعين انهال عليهم من خلف أبراج القلعة وابل من السهام لم يكونوا يتوقعونه قط. سليمان باشا الذي شاهد ذلك، قال وهو يمتطي صهوة جواده:

أمطروا القلعة بوابل من السهام باستمرار ودون توقف.

وفي تلك اللحظة انهمرت سهام اللهب والسهام البعيدة المدى على القلعة. الحاج إلباي الذي ينظر إلى وابل السهام، سأل سليمان باشا الذي لم يقد حصانه إلى الجبهات الأمامية حتى الآن، قائلا:

يا أميرنا هل ترون ابتسام الشمس لكم؟

(٤٠)

الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس شريك العرش الذي قام بدراسة الأخبار التي وردت طوال اليوم بشكل مستفيض، خرج من القصر بعد أن اتخذ قراره الأخير. خرج من قصره وهو ممتن للظلام التي يعد أفضل هدية يمكن أن يقدمها له الليل. وركب العربة الإمبراطورية المزركشة التي تقف في انتظاره على الدوام. ولآخر مرة ألقى نظرة على القصر الصغير الذي استضافه لسنوات. وعندما لم ير أي شيء بوضوح في الظلمات أعطى أمره لقائد عربته بالتحرك. عندما انطلقت الجياد القوية التي تجر العربة، حدث نفسه قائلا: " كنت قد دخلت القلعة قبل سنوات مستغلا ظلمات إحدى الليالي.". لم يكن واضحا هل هو فخور، أم أنه حزين لما يقوله. استنشق نفسا عميقا، وبينما يخرج زفيره قال بصوت يختلط بصوت أنفاسه: " الاحتماء بالظلمات مرة ثانية..." وكما لم يكمل جملته جلس على المقعد الذي هو على شكل الأريكة الموجود داخل عربته دون أن ينظر إلى الشوارع الخالية من الناس. وبينما يجلس ممتعضا مستاء على ذلك النحو فإن قائد الحرس الموجود في العربة التي أمامه، وكذلك الفرسان الذين يتبعونه من الخلف، وكل خدمه الذين ركبوا عربة الخدم في آخر لحظة، كانوا يحدوهم الأمل قائلين: " إن الإمبراطور سيندم قبل خروجه من القلعة. وأنه يعلم جيدا بأنه لا يمكنه العيش منفردا بعيدا عن القسطنطينية.". بيد أن الإمبراطور العجوز شريك العرش كان مصمما على قراره. عندما خرجت العربة من بوابة خريسيوس انقطع أمل ورجاء كل المناصرين. أدركوا جميعا ابتعاد الإمبراطور

العجوز شريك العرش عن القسطنطينية وبأنه لن يعود مرة أخرى. ولما ابتعدوا قليلا عن الأسوار، قال قائد الحرس في البداية:

يا صاحب العظمة! إن رجالي الذين سأتركهم معكم سوف يرافقونكم حتى أدرنه. وسأنتظر عودتكم إلى القسطنطينية، وأنا في خدمة قائد حرس القلعة. بعض من الفرسان ابتعدوا من جانب عربة الإمبراطور العجوز ورجعوا إلى القلعة قبل أن يُغلق باب القلعة. ومن خلفهم طلب بعض الخدم من الإمبراطور إعفاءهم من وظائفهم. وكأن الإمبراطور شريك العرش كان يتوقع كل هذا، وبينما ينظر إليهم بهدوء، فكر في الإمبراطورة إيرينا الموجودة بجوار ابنتها. حدث نفسه قائلا: " ليتها أتت قبل ذلك وكنا سافرنا معًا". وبعد الظهيرة تذكر الرسالة التي أرسلها له صهره وشريك عرشه الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس ظهرا. اعترض في ذاكرته على السطور التي كتبها يوحنا باليولوج الخامس والتي تقول: " يا صاحب العضمة أدركت جيدا أن أنصاري الذين يتملكهم الشر والغضب، والذين يحيطون بقصري كما يملأون الشوارع كذلك، من المحتمل أن يكون خروج الإمبراطورة من القصر الآن أمرا شديد الخطورة، لذا لن أتمكن من إرسال الإمبراطورة إيرينا إليكم. ما دمتم قد اتخذتم قراركم بالذهاب إلى ديموطيقا، اخرجوا منتصف هذه الليلة من بوابة خريسيوس وانتظروني هناك. وسأحضر الإمبراطورة إيرينا إليكم بعربتي. الإمبراطور يوحنا باليولوج شريك العرش.". دون أن يرى المخلص أتنتوس الذي أتى أمام الباب المفتوح للعربة التي تنتظر في الساحة الصغيرة الموجودة أمام باب القلعة، حدث نفسه قائلا: "سوف يهدأون إذا علموا بأنني تركت القسطنطينية". أتنتوس الذي ينتظر أمام الباب في الظلام، عندما سمع ما قاله، سرعان ما سأله بآخر أمل قائلا:

هل قلتم شيئا يا سيدنا؟

قال كنتاكوزين السادس بصوت كالهمهمة يشبه صوت النفس:

هل ترى أنه قد بقي شيء نقوله يا أنتنوس؟ بينما كنا نقول منذ دخولنا القلعة، بأنه علينا عدم إيذاء أو إيلام أحد، لم نتمكن حتى من التوصل إلى ملاحظة أننا لم نتمكن من كسب ود الناس. إن أكثر ما يؤلمني في الأمر، تصرفات البطريرك الذي لم يستطع أن يتصرف كقائد روحي. مع أنه كان مطاحا به إلى الشارع منذ زمن اليونانيين، لو لم أكن قد فعلت أي شيء فإن هذا الدير الذي أعطيته له قد أنقذه من البقاء في الشوارع... ولكن هذا المكان المقدس الذي منحته البطريرك من أجل الحفاظ على مقامه، أثناء قيامه بغفران الذنوب لم يتوان قط عن قدح أسرة كنتاكوزين.

قال أنتنوس:

يا سيدنا أرى أنه كان لا يجب عليكم ترك قسطنطينيتنا وذهابكم على هذا النحو. صهركم الإمبراطور شريك العرش، ربما تفكرون بأنه لن يأتي منه أذى، ولكن انظروا لم يرسل الإمبراطورة إيرينا. هناك سبب واحد لعدم إرسالها، ربما يكون إحضاره الإمبراطورة بنفسه إلى هنا، ليرى بأم عينيه خروجكم خارج أسوار القلعة. في الحقيقة لو علم بأن الإمبراطورة الأم آنّا سوف تجعله يتقيؤ الدم من الآن فصاعدا، ما كان ليرضى بذهابكم بعيدا عن القسطنطينية.

الإمبراطور كنتاكوزين السادس شريك العرش وكأنه يقول آخر كلماته:

من أين تأتي بهذا يا أنتنوس؟

أنتتوس بعد أن تأوه بشكل خفيف:

يا سيدنا ألم تلاحظوا سيطرة الإمبراطورة على غضب تيودورا؟

كنتاكوزين السادس الذي سمع ما قاله:

غضب تيودورا، كان ضد الرومان الذين لم يقبلونها منذ البداية. بعد وفاة جوستانيوس شفت غليلها بحقد. غضب الإمبراطورة الأم غير مفهوم. هل ستأخذ ثأرها من ولدها؟

أنتتوس وهو يهز كتفيه في الظلام:

في الأغلب حقدها أيضا على أسرة كنتاكوزين...

أعتقد أنه بعد خروجي من القسطنطينية لم يعد هناك مبرر لحقدها...

بمجرد مجيء الإمبراطورة إيرينا وبعد ذهابنا من هنا لن يكون لى أي مبتغى... انظر رأيت الذين يريدون البقاء هنا كيف تركونا وذهبوا قبل قليل.

أظن أن لديهم آمالهم ومرتجاهم.

ماذا يكون ذلك المرتجى؟

أرى أنهم ينتظرون ابنكم ماتيوس.

ربما... ربما يكون لهم اتصالتهم مع ماتيوس.

أنتتوس عن عدم معرفة كما كان قبل قليل:

وكأنه يقلد كنتاكوزين قال ربما. وهو ينظر إليه في الظلام فكر في ذهنه قائلا: " كل شخص انتظر منك ضوءا واحدا. الآن لا تستطيع اتهام

الشخص. أنا أيضا سأذهب معك حتى أدرنه، ولا شيء بعد ذلك. إشارة واحدة من ماتيوس شريك العرش، تكفي من أجل رجوعي عن وعد ما".

يوحنا كنتاكوزين السادس الذي لم يكن يفكر في أي شيء قط إلا في زوجته ايرينا أثناء انتظاره داخل عربته، وكأن شيئا قد خطر بباله قال لأتنتوس الصامت الذي ينظر إليه من باب العربة المفتوح:

أتنتوس، أثناء مجيئنا إلى هنا مررنا من حي مناصرينا، ولكني رأيت أنه لا وجود لأي شخص في الخارج. إنهم معزولون في بيوتهم وكأنهم يقولون " لقد حلت بنا كل هذه الأحداث من تحت رأسك. وبمجيئك أحضرت معك الشؤم والنحس، والآن تتركنا في هذا الشؤم وتذهب.". أين وعودهم بأنهم سيضحون بأنفسهم جميعا من أجلنا؟

أتنتوس:

لم يكن أحد يعلم بالقرار الذي اتخذتموه. كل الناس كانوا في الشوارع حتى حلول الظلام.

كنتاكوزين السادس:

أنا لست إمبراطورا لمن هم في القسطنطينية فحسب، بل أنا إمبراطور بيزنطة. لو كان من يعيشون هنا هم من سيعانون فقط من الأحداث التي ستحدث هنا، كنت أبقى هنا وأكافح حتى النهاية، ولكن تعلمون أن الآلام المؤلمة والمعاناة لن تبقى هنا.

قال أتنتوس، الذي أدرك تخاذل الإمبراطور العجوز بشكل كبير رافعا صوته بعض الشيء:

لو بقيتم في القسطنطينية حتى مجيء ابنكم على الأقل. وصله الخبر منذ فترة بأن والدته في قبضته.

كنتاكوزين وهو فاقد لأعصابه نزل إلى جانب أنتنوس. وسال مغاضبا:

كيف فعلتم ذلك دون أن تأخذوا رأيي؟

قال أنتنوس بصوت أجش:

عندما جاء بريد الإمبراطور كنتم تخلدون للراحة...

كنتاكوزين السادس الذي أدرك في ذلك الوقت بأنه أصبح أحد الأباطرة المخلوعين بدلا من كونه أحد الأباطرة الذين تركوا القسطنطينية برضاهم:

آه أيها الأغبياء المخادعون، هل تعلمون ماذا سيحدث بعد ذلك؟

قال أنتنوس مستجمعا كل شجاعته، ليس باعتباره كبيرا للخدم بل كأحد القادة الذي يعطي الأوامر قال:

يا صاحب العظمة، لا توجد أي فائدة من ندمكم وحزنكم الآن. سيبدأ من الآن عصر ماتيوس كنتاكوزين.

كنتاكوزين الذي يحاول رؤية وجه أنتنوس الذي أخفاه في الظلام:

إذن جازفتم بكل شيء وأبلغتم الأخبار إلى ولدي. لقد ذهب كل ما فعلته منذ المساء سدى. ولكن لا تنسوا فإن ابني لن يرضى عن عدم طاعتكم لي. ادعوا أن أصل إلى أدرنه قبل انطلاق ماتيوس.

(٤١)

كان سليمان باشا بعد الاستيلاء على قلعة ديما، قد جاء إلى بورصه تلبية لدعوة والده للمشاركة في اجتماع مجلس القادة إلا أنه لم يكن قد تعافى من تأثير الريح الباردة التي نفخها جبل جنوش. حتى أنه كان قد أمضى يوميه في جناح الحريم الذي ملأته والدته بالجواري الجدد، ولكنه لم يكن قد برأ بعد من ذلك البرد. وبينما كان يمشي سعيدا في طريقه إلى القاعة الكبيرة التي سيجتمع فيها مجلس الحكم فإنه كان يشعر بالبرد حتى ذلك الوقت. عندما وضع قدمه داخل القاعة لم يستطع أن يدرك جيدا سبب الرعدة التي تُرجف بدنه، هل كان بسبب فرحته وسعادته، أم كان بسبب البرد الذي أصابه. دخل القاعة ونظر إلى الناحية التي يجلس فيها والده استدار وبعد أن ألقى التحية، أسرع المحاربون الأبطال المسنون الذي عاصروا جده، والقادة التابعون لوالده عندما شاهدوه واندفعوا للأمام من أجل الوقوف. أما أورخان غازي الذي شاهد ذلك، ومن أجل الحيلولة دون قيام المحاربين البواسل المسنين الذين عاصروا طفولته هو وولده كما حرك ذراعيه اللذين يقفان وكأنهما مزروعتان على منكبيه العريضين ورفع يديه. ولم يكن ليقبل بأن ينهضوا واقفين على أقدامهم من أجل ابنه مهما كان الأمر. وعندما فكر في عدم قيامه بمثل هذا التصرف حتى الآن، وكأنه يقول هذا حتى لا ينصرف فكر القادة إلى أي شيء وقال بصوت متقطع يخرج من حنجرته:

أبطالنا المحاربون الفرسان الذين يذكرونني بأبي وقادة قواتي الذين هم أكبر مني سنا، أشارككم الاحترام للديوان والمشاركين في اجتماع مجلس الحكم، بيد أنني لا أقبل لكم أن تقفوا على أقدامكم من أجل الأمير سليمان الذي كبر على أيديكم. إن وجودكم في الديوان وتقديمكم المشورة والإرشاد لنا لمن أكبر دواعي سرورنا. لا تحملونا ما لا نطيق بوقوفكم على أقدامكم.

بعد أن أنهي أورخان غازي كلمته ساد القاعة الصمت لبرهة. الحاج إلباي المستشار الخبير الواعي، الذي خدم الإمارة لسنوات طويلة في إمارة حكام قراسي، عندما أدرك بأنه لا يوجد أي شخص من البواسل أو من الوزراء يريد التحدث وقف على ركبتيه، وقال:

يا سيدي أطال الله عمركم. أستغفر الله أن نكون نحن المرشدين والموجهين، لكننا جزء من إمارتنا. احترامنا وتقديرنا ليس لسيدنا وحاكمنا فقط ولا لأميرنا كذلك. بل إن احترامنا احترام أبدي لنظام وحكم الإمارة العثمانية. ولذلك، فإننا وإن هرمت أجسادنا فإن احترامنا وتقديرنا سيظل ويبقى قويا باستمرار...

وقال أورخان غازي، وهو ينظر بارتياح إلى الحاج إلباي، الذي قدم كل خبراته ومعلوماته دون أن يحتفظ بداخله بأي شيء منها في تلك الأيام الصعبة التي بقي فيها وحيدا في مواجهة دمير بك الوجه الأسود لقراسي، قال:

أنت على حق يا حاج إلباي، إن احترامنا لنظام إمارتنا... بيد أنني لم أمزح عندما تحدثت عن تقدمنا في العمر...

ضحك سامس شاوش و أق تيمور أكبر أعضاء مجلس الحكم سنا على تلك الكلمات لأورخان غازي الذي لم يتحدث على هذا النحو في اجتماعات مجلس الحكم قط.

بعد الضحك وتبادل الكلمات، قال أق تيمور:

بارك الله في عمركم يا أورخان غازي لأنكم أضحكتمونا. حتى وإن لم تذكروننا سواء أنتم أو الحاج إلباي فإن الشيخوخة تجيد جيدا التذكير بنفسها.

بعد تبادل الأحاديث لفترة وجيزة عن الشيخوخة والتقدم في العمر، فإن أورخان غازي الذي أدرك حلول وقت بدء أعمال الاجتماع، في البداية قال "دستور"، وبعد ذلك خاطب سليمان باشا الذي ينظر إليه وهو يجلس جاثيا على ركبتيه في الطرف الآخر من القاعة، قائلا:

إن إمارتنا وكذلك مجلس الحكم شاكران لك ولرجالك على الخدمات التي قدمتموها لإمارتنا ولعدم خروجكم عن مسار العقل والحكمة في سبيل تحقيق الهدف الذي خرجتم من أجله. نعرف أن عبورنا إلى الضفة الأخرى للدردنيل تم بفضلكم. توسعت مساحة إمارتنا وكذلك استقرارها بفضل الحروب التي خضتموها من أجلها. كنا نرغب في مكافأتكم، ولكن لا يوجد لدينا أي جائزة تقابل ما فعلتموه لنمنحها لكم، لأن أكبر جوائز إمارتنا تمنحوها أنتم لأنفسكم، وهي التقدم خطوة خطوة على الصفة الأخرى. ربما الآن هناك البعض الذين لا يرون أن الاستيلاء على بعض القلاع الموجودة على الصفة الأخرى من الأهمية بمكان، ولكن لتعلموا أنكم تفتحون لإمارتنا أبواب البلقان الكبرى. إن العبور إليها كانت أمنية قلم بك، ثم كانت حلمي أنا

بعد ذلك. سلمكم الله وبارك فيكم لأنكم حققتم أمانينا وأحلامنا هذه. من الآن فصاعدا سنستضيف هنا القادمين من القارة العجوز، وسنرسل من هنا من سيذهبون إلى هناك.

صمت أورخان غازي وكأنه قد أنهي كلامه. وجال بنظراته على صالتوك آلب وسلطان شاه الذي ضم إمارة جردا الموجودة على الأراضي التابعة لبيتينيا إلى الامارة العثمانية دون استخدام السلاح، وكذلك فرسانه البواسل. كما نظر كذلك إلى ولده سليمان باشا ورجاله الذين يجلسون من خلفه:

بينما كنتم على الضفة الأخرى فإن رجالنا ذهبوا مرة أخرى حتى مشارف أنيرا والتابعين لتنظيم الآخية الذين أدركوا أننا سنثأر لقراهان بك دخلوا تحت ولايتنا من جديد ولكن من الملاحظ أن، القرمانيين وبعض القوى الأخرى غير المعروفة تقوم بتحريض عناصر تنظيم الإخوة باستمرار. إن رجالنا الذين ذهبوا نحو أنيرا في الوقت الذين وصلوا فيه إلى بورصه، قام تنظيم الإخوة بإعلان العصيان في أنيرا وقاموا بإعمال السيوف في ثلاثة من قادتنا، وفي المقاتلين الذين تركناهم هناك. وهذه هي أكبر جريمة ارتكبت في حقنا. والآن حان وقت عقابهم على ذلك. هناك خياران لأعضاء تنظيم الإخوة الموجودين في أنيرا. إما أن يكونوا معنا أو مع أولاد قرامان. وإن يختاروا وقوفهم إلى جانب القرمانيين، فإنهم سيكونون مجبرين هم والقرمانيون كذلك على الخضوع لسيطرة إمارتنا عندما يحين ذلك.

إن المعاهدات التي عقدناها مع الكرميانيين قد ساعدت في إحلال الأمن والسلام على حدود إمارتنا في الجنوب. كما أن الرومان وأهالي جنوة الموجودين في جزر مرمرون يبدون في كل وقت ولاءهم وإخلاصهم

لإمارتنا. والآن وقبل أن يبدأ موسم الحرب، يجب الإسراع في إعمار القلاع التي تم الاستيلاء عليها... مهما تم من إعمار للقلاع الموجودة على الضفة الأخرى للدردنيل والتي تضررت من جراء الزلزال فإن هناك ما لم يتم إنجازه. آمل أن يتم الإسراع في أعمال الإعمار والترميم سواء على هذه الضفة أو على الضفة الأخرى في هذا الشتاء.

بعد أن ختم أورخان غازي حديثه بتلك الكلمات، أراد المحاربون البواسل والقادة الذين لديهم ما يقولونه أخذ الكلمة. الحاج إلباي، كما اتفقا سابقا جاء في مواجهة سليمان باشا قبل أن يتحدث عن الضفة الأخرى. الحاج إلباي الذي أدرك أن هناك ما يريد سليمان باشا أن يقوله، فشجع سيده بنظراته. أما سليمان باشا الذي حياه بنظراته، فقال:

أمد الله في عمرك يا والدي، إن مدحكم وثناءكم شجعني أنا ورجالي بدرجة كبيرة. إن حرب الضفة الأخرى التي بدأناها بمئة من الأبطال، سوف تستمر وتنتقل من ضفة الدردنيل إلى الضفاف الأخرى. لينتهي الشتاء وما إن تبدأ شهور الحرب ربما تصل حدودنا إلى شواطئ البحر الأسود. وهذا لكن يكون سهلا بالقدر الذي نتوقعه، ولكن عمليات الإعمار والمساعدات التي قمنا بها في قلعة جاليبولي بعد الزلزال الذي ضربها انتشرت وذاعت في كل القلاع الموجودة في تراقيا. من الآن فصاعدا لن تقام الجدران خلف أبواب القلاع فور العلم بقدومنا كما كان في الماضي. حتى أن بعض حكام القلاع البزنطيين كانوا يرسلون الأخبار سرا وكانوا يدعون قوات فاضل بك إلى قلاعهم. ولم تكن هناك قوة تقوم بمقاومتنا عند الاستيلاء على القلاع الجديدة،

بيد أن برودة تراقيا، برودة كهذه البرودة التي هي بمثابة الشيء الذي لا يمكن تحمله ليس للخروج للحرب في موسم الشتاء بل حتى للخروج للخارج.

ضحك كل القادة الموجودين في قاعة اجتماع مجلس الحكم ضحكة بسيطة. ومثل كل الحاضرين شوهدت ضحكات سليمان باشا. وكأنه بهذه الضحكات كان يريد أن يقول "أنه مازال يشعر بالبرد". لما انتهت الضحكات، قال سليمان باشا مرة أخرى:

كلماتي الأخيرة أضحكتكم ولكن برودة الضفة الأخرى للدردنيل لا تشبه أبدا البرودة الموجودة هنا.

قال الحاج إلباي، بعد أن فرغ سليمان باشا الذي يوجز في الحديث من كلامه:

أميرنا محق في رأيه. إن البرودة القادمة من مناطق البلقان لا تشبه أبدا البرودة القادمة من أولمبيا. حتى أن قوات مشاتنا الذين يستحمون بالثلج خلال عمليات التدريب في مراكز التدريب الموجودة في بورصه يشتكون من البرودة الموجودة هناك...

القادة الذين استمعوا لهذه الكلمات تحولت ضحكاتهم التي كانت قبل قليل إلى ابتسامات. وفي الوقت الذي كانوا سيقترحون فيه تغيير الموضوع وهم ينظرون لبعضهم بعضا، تحدث آق تيمور الذي يجلس بجوار صالتوق آلب، قائلا:

الموسم تحول للبرودة. نحن أيضا كنا قد أصبنا بالبرد عندما كنا على مشارف قلعة أنيرا...

قال أورخان غازي وهو يحاول أن يبقى منكبيه العريضين منتصبين:

في تلك الحال فإن ما سيتم فعله حتى حلول الربيع هو الدفع بالمشاة والفرسان إلى القرب من الحدود من خلال الرحلات القصيرة والمستمرة. ويتم القيام بأعمال الإعمار البسيطة في القلاع عندما تصبح أجواء الشتاء ملائمة لذلك. كما أن تنظيم رحلات الصيد والمسابقات مع الموجودين في القلاع المجاورة لنا سيكون شيئا جيدا.

أورخان غازي الذي حصل على موافقة المحاربين البواسل والوزراء والقادة على هذه الاقتراحات الأخيرة، استمر في حديثه وهو ينظر نحو سليمان باشا، قائلا:

وفقا للأخبار القادمة من القسطنطينية، فإن ديموطيقا قد ضاقت بحماي كنتاكوزين الذي ترك الإمبراطورية وذهب إلى ديموطيقا. والآن فإن حمانا كان سيذهب إلى مانويل كنتاكوزين الذي استبد بحكم الموره. بيد أن ما أراه أنا، أن طريق حماي سوف يمتد حتى روما وأفيجنون. أعتقد أنه ترك القسطنطينية من أجل هذا. ووفقا لما ورد إلى مسامعنا كذلك، فإن شقيق زوجتنا ماتيوس شريك عرش الإمبراطورية الموجود في أدرنه، كان يريد طلب حقه في عرش الإمبراطورية من صهره باليولوج مدعيا شراكته له في عرش الإمبراطورية، وكان يريد أن يأخذ مكان والده في شراكة العرش. بيد أن يوحنا باليولوج الخامس لم يكن يوافق على ذلك. ما توصلنا إليه هو أن الصراع والنزاع بينهما على وشك الحدوث. أعتقد أن صراعهما مع بعضهما سيكون في صالحنا.

وتحدث سليمان باشا الذي شاهد أن والده ينظر إليه، قائلا:

والدي على حق. إن تصفيتهم لحساباتهم سيكون مفيدا لنا. لأن شعوب القلاع قد سئموا من هذه الإمبراطورية ذات الحكم الثنائي. إذا أدوا ضرائبهم لأي منهما فإن الآخر يأتي ويطالبهم بدفعها له مرة أخرى، وهذا يربك سكان القلاع. ومن الطبيعي أن هذا الارتباك سيكون في صالحنا. لنرسل الأخبار إلى القلاع وإذا تم إبلاغهم بأنهم إن اعترفوا بحكم إمارة آل عثمان فلن يكون هناك أي شخص مجبر على دفع أية ضرائب وسوف يغمر سيل الفرحة كل الأشخاص بدءا من حكام القلاع البيزنطيين وحتى الرهبان. وهذا أيضا سوف ييسر عملنا. لكن، يجب علينا أن نعطيهم ضمانا لبقائنا واستمرارنا هناك. وذلك سيحدث فقط مع القوى الجديدة التي ستظهر.

لما أنهى سليمان باشا حديثه وانسحب كثيرا للخلف، قال أورخان غازي: نظرا لأنه تم تعيينه شريكا للعرش من قبل والده فإنه من الطبيعي أن يقول إنه شريك عرش الإمبراطورية. ولكن هذه المرة نحن لسنا في صف عائلة كنتاكوزين. نحن إلى جانب الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي قدم لنا الوعود. والآن لنرسل له الهدايا تعبيرا عن الصداقة، ولنذكره بأن يوحنا كنتاكوزين السادس شريك عرش الإمبراطورية في طريقه إلى المورة، ومن هناك إلى روما، وبأننا نتابع من كثب التطورات الموجودة في بيزنطة، وبأننا لا نوافق على ما يقوم به صهري كنتاكوزين العجوز، الذي هو صهر كل منا. ولنذكره بأننا جيران، وبأنه يوجد بيننا حدود مشتركة، وسأستفسر منه إن كان لديه علم عن اللعبة التي يقوم بها كنتاكوزين، ورأيه في ذلك. وسيكون من الواجب علينا أن نشرح في الرسالة التي سنكتبها حتى وإن كان

بشكل غير مباشر، إن هذا الوضع من الممكن أن يكون سببا لنشوب حرب بيننا في المستقبل. من المحتمل عدم موافقة الإمارات على دخولنا لأراضيهم فجأة إن لم يكن لدينا ما يدعو لذلك...

لا سيما وأن اجتماع مجلس الحكم الذي ناقش الحرب على بيزنطة والآراء التي تقول إنهم يتحملون تكاليف هذه الحروب، والتصديق على الآراء والاقتراحات التي تمت مناقشتها قد بلغ نهايته قبيل المساء. المحاربون البواسل الذي حاولوا إخفاء إرهاقهم وهم يسيرون نحو مقار إقامتهم بمجرد أن انتهى الاجتماع، قال سليمان باشا الذي لم يغادر قاعة الاجتماع هو ورجاله بعد أن شرح لوالده باختصار الأعمال التي سيقوم بها خلال فصل الشتاء على الضفة الأخرى للدردنيل:

لو أذنتم لي يا والدي، إن رجالي بصحبة حريمهم سينتقلون إلى تراقيا في أقرب فرصة. ونحن أيضا نريد أن نقوم بزيارة قلعة يار حصار بصحبة والدتي وأشقائي الذين لم أرهم منذ فترة طويلة وأن أسترجع ذكرياتي هناك.

عندما نظر أروخان غازي إلى ابنه وكأنه يسأل من أين جاء موضوع الزيارة هذا الذي لم تتحدث عنه نيلوفر خاتون قط. قال سليمان باشا:

عندما كنت أتحدث مع والدتي بالأمس تحدثت كثيرا عن طفولتها وعن يار حصار. وظننا مني أن والدتي من الممكن أن تكون قد اشتاقت لذكريات طفولتها، رأيت أن رحلة كهذه ستكون جيدة لها. وإن أذنتم لي فإني أريد رؤية حال البنايات التي بنيت باسمي واسمها في ازنيكوم...

حزن أورخان غازي لعدم تفكيره هو في ايجاد فرصة كهذه لزوجته التي يحبها كثيرا منذ سنوات. بينما ينظر إلى ابنه بامتنان، أراد أن يقترب ابنه منه بشكل أكبر، فقال للوزراء والقادة الموجودين في القاعة يمكنهم الذهاب. عندما اقترب سليمان باشا من والده بشكل كبير، وقال بدوره:

سررت لتفكيرك في شيء كهذا من أجل والدتك. إن قضاءك لبعض أيامك مع والدتك وأشقائك سيكون جيدا بالنسبة لك. ليتني كنت قد فكرت في ذلك قبلكم، وأيضا لو كنت قمت بصحبتكم بزيارة يارحصار كذلك. ولكن ماذا عسانا أن نفعل، ليس لدينا أي وقت للقيام بهذا. إن زيارتكم لأزنيكوم، ورؤياكم إلى أي درجة وصلت عملية بناء كلياتكم سيكون أمرا جيدا. يا ليت خليل الذي أرسلناه مؤخرا إلى نيكوميديا كان باستطاعته مشاركتكم هذه الرحلة. إن أرسلتم خبرا قبل ذهابكم فإنه من المرجح أن يأتي إلى أزنيكوم. أنا أيضا أتوق لمشاهدة عمليات الإعمار التي تتم في أزنيكوم. بعدما تعودون نعلم منكم الحال التي وصلت إليها. ولكن مهما كانت الحال التي وصلت إليها، قل للمسئولين عن عمليات البناء إنني بالقطع سآتي إلى هناك بعد أول حملة أقوم بها في الربيع. وإن لم يتم الانتهاء من إنجاز كل البنايات حتى ذلك التاريخ سوف أحاسبهم حسابا عسيرا. ونهض على قدميه من أجل مغادرة قاعة الديوان التي هي في حجم إحدى القاعات الكبيرة. وأثناء نظره إلى ابنه مراد الذي لم يتحدث تقريبا، وإلى سليمان باشا أيضا، قال سوف أستودعك مراد في الربيع. إن تتحدث معه ولو قليلا عن الضفة الأخرى من الدردنيل أثناء ذهابكم إلى يارحصار يكون شيئا جيدا.

سليمان باشا وهو ينظر إلى شقيقه مراد، قال:

يوجد مكان لأمانتكم فوق رأسي. ولا جرم أنني سوف أحكي له كل ما أعرف. وانحنى احتراما لوالده، واتجه نحو الباب من خلف والده أورخان غازي الذي كان على وشك الخروج من باب القاعة في تلك الأثناء، ثم قال:

من يدرى متى يمكن أن نلتقى مرة أخرى وجها لوجه على هذا النحو في الديوان، ودون أن ينظر إليهما...

(٤٢)

عندما وصل الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس المخلوع بعد رحلته البحرية والبرية إلى مسترا كان منهكا جدا، ولم يكد يصل إلى القصر المنيف المحاط بالأسوار الداخلية الذي يقيم به ابنه الأوسط مانويل كنتاكوزين مستبد المورة حتى انزوى للحصول على قسط من الراحة. إن القادمين معه كانوا غير منهكين من التعب على هذا النحو الذي ألم به لأنهم أصغر منه سنا، وكانوا قد تراصوا حول مائدة الطعام الكبيرة التي أعدت من أجلهم في باحة القصر المنيف المحمي داخل القلعة وكأنه يتحدى التاريخ. إن هذه القلعة كانت القلعة الوحيدة لدولة باللوبونس التي صمدت في وجه أثينا لعشرات السنين بسبب الأسوار المحيطة بهذه الباحة. لم يكن لمسترا ساحاتها العامة كما في أثينا ولكن كان يوجد بها من الداخل ميادينها وقصورها المنيفة المرتبطة ببعضها بالطرق الداخلية. كانوا عند الضرورة ينتقلون من قصر إلى آخر عبر الأبواب المفتوحة على الميادين وكان العدو الذي يأتي من الخلف ينسحب إلى الساحات الصغيرة وتغلق الأبواب، وكان العدو الذي يبقى بين الأسوار العالية الموجودة بين الميادين الصغيرة يتم القضاء على آخر واحد منهم على هذا النحو. ولذا فإن القادة اليونانيين الذي عرفوا شهرة مسترا هذه التي يطلق عليها "مسترا قلعة أسبرطة التي لا يمكن الاستيلاء عليها" كانوا يكتفون بحصار هذه القلعة من الخارج.

وقال أجيسيليوس المستشار والعقل المدبر لمانويل كنتاكوزين مستبد الموره الحاضر على شرف الجالسين حول هذه المائدة الطويلة المقامة في إحدى الساحات الداخلية المحاطة بالأسوار العالية في محيط على هذا النحو وهو يرفع أول أقداحه المليئة بشراب التوت الذي تشتهر به الموره:

أيها الأحباب لنرفع أقداحنا على شرف ضيوفنا وكبار وجهاء مسترا، وبعد أن تجرع جرعة كبيرة من شراب التوت الأسود الموجود في الأقداح المزينة برسومات مينوس، مرة أخرى، أيها الأصدقاء على شرف أحد أجدادي القائد الأسبرطي المشهور والذي أعيش على ذكراه أحد قادة مسترا المشهورين أجيسليوس. كان أحد حكام إسبرطة الذين اجتمعوا في هذه الساحة في ذلك اليوم الذي جاء فيه رسل الإغريق الذين تم الإتيان بهم إلى هذه الساحة، كانوا قبل مجيئهم إلى الساحة قد اختاروا واحدا منهم للحديث نيابة عنهم. عند إدخال الرسل إلى الداخل، ظهر المتحدث أمام حكام إسبرطة وأعضاء مجلس الشعب وبدأ في الحديث بصوت يشبه صوت زيبيوس الذي هو أقوى من رعد السماء، والذي يشبه الصواعق التي تخرج من بين البرق أثناء هطول المطر. وقال: "أهالي إسبرطة! أيها الشعب يا من أوقفتم أهالي أثينا. يا حكام إسبرطة أنت وجه إسبرطة المشرق. يا أعضاء مجلس شعب إسبرطة يا من تنشرون العدل. نحن رسل الإغريق الذين ترتبطون بهم بوحدة القدر والمصير. نحن نتحدث هنا اليوم باسم الإغريق. إن شعب الإغريق في موقف شديد الصعوبة. كما تعلمون نحن تحت أمركم في كل وقت، وشاركناكم كل الحروب التي قمتم بها. وكنا معكم أينما كنتم تدفعون بقواتكم ومقاتليكم. ولكنكم لا تهتمون بوضعنا هذا على الرغم من وضعنا تحت

الحصار على يد الأكرانيين وحلفائهم أهالي أثينا وأهالي بيوتيا. ولا توجد لدينا أي قدرة على المقاومة في ظل هذه الظروف. ولذا، إما أن نقطع صلتنا بالحرب (البيلوبونيسية) المستمرة في بيلوبونيسة وعبور كل قواتنا إلى الضفة الأخرى للخليج والمجازفة بالحرب مع الأكرانيين وحلفائهم، وإما سنعقد اتفاقا للصلح بأي شرط من الشروط. ولما كان كلامه هذا يلمح إلى أنهم سيقومون بإلغاء معاهداتهم مع إسبرطة، حتى وإن كانت قليلة، فإن حكام إسبرطة وإن كانوا قد اعترضوا على ذلك في البداية، فإنهم قد فكروا في ذلك الأمر بهدوء وروية، وقرروا مساعدة الإغريق (أهالي أخيا). وهكذا، بعد ذلك القرار فإن المتحدث باسم المجلس الذي ينظر خلف الشمس التي تميل إلى الغروب، قال " يا ابن أجيسيليوس العظيم تم إسناد هذه المهمة إليك. إن جيش إسبرطة وحلفاءها تحت قيادتكم، سوف يهزم جيوش الأكرانيين وحلفائهم أهالي أثينا وأهالي بيوتيا. فإن القرار الذي اتخذه حكام إسبرطة والمجلس قد تم إبلاغه إلى جدي الأكبر الذي سميت باسمه. وبمجرد أن تولى هذا القائد مهمته خرج من هذه الساحة بالمراسم، وذهب إلى مقر جيش إسبرطة الذي ينتظر خارج الأسوار. سواء الجند الذين شموا رائحة الغنائم الجديدة، وسواء قادتهم استقبلوه بحفاوة بالغة. وبدأوا جميعا يهنئون أنفسهم بالنصر قبل أن يتحركوا، لأنه في ذلك الوقت لم تكن هناك أية قوة يمكن أن تجابه مقاتلي إسبرطة. لا سيما وأنه بعد اتحاد حفيد حكام إسبرطة المقاتلين مع الأكرانيين، قد جعل قوات إسبرطة قوة لا يمكن هزيمتها. ورغم كل هذه السعادة، فإن أجيسيليوس لم ينس سقوط كتيبة ليخيا في الفـخ قبل فتـرة. ولذا كان يتصرف بعقل وحكمة كما كان يعرف كيفـية تحفيز جنوده من أجـل الانتقام للكتيبة. اجتاز

الجيش دولة الأكرانيين وعندما وصل إلى الخليج، ومع انضمام قوات الأكرانيين والحلفاء الآخرين وكذلك مقاتلي الهوبليتيين، وبعدما تضاعف عدد الفرسان، لم يكن هناك من هو في سعادة أجيسيليوس. بينما يتجه على صهوة جواده نحو الخليج متقدما جيشه، وخلفه هذا العدد المهول من الجند، كان يُظن أن جبال بيلليبون تسير بصحبة أشجارها المثمرة. لا سيما وأن الأرض والسماء كانتا تئنان عندما كان مقاتلو إسبرطة الذين كانوا يعيشون حالة من النشوة والبهجة يضربون دروعهم الثقيلة تلك ببعضها من أجل إثارة كل من رفقائهم والفرسان كذلك. وكذلك الصيحات التي كان يطلقها الفرسان عندما كانت تلتقي بما يفعلونه، فإن كل القادة كانوا يشعرون بارتعاد السماء. وهكذا عبر هذا الجيش الجرار الخليج، وعندما وطأت أقدامه أراضي أكارنانيا على الضفة المقابلة فإن قروي أكارنانيا تركوا مازرعوه في حقولهم، والمسنون منهم في قراهم، ومرضاهم على أسرتهم، وأخذوا قطعانهم وحيواناتهم القوية وفروا نحو الشمال. بيد أن مقاتلي إسبرطة والفرسان الذين يفكرون منذ أيام في الغنائم التي سيحصلون عليها من الأكرانيين اقتفوا أثرهم مساء من ناحية، ومن ناحية أخرى بدءوا في الاستيلاء على دولة أكرانيا. وبينما كانوا يقومون بذلك، فكيفما عانى حلفاؤهم الإغريق الألام جعلوهم يذيقون الأكرانيين نفس المرارة التي تجرعوها، وكانوا يستولون على كل ما يقابلهم حيا كان أو ميتا. وكانوا لا يتركون شيئا سوى المرضى المقعدين والمصابين بالأمراض المعدية، و كانوا يحرقونهم وفراشهم الذي يرقدون عليه.

إن هذا التقدم للفرسان ومقاتلي إسبرطة الذي خلق حالة من الرعب والفزع في المناطق التي لم يتم الذهاب إليها من دولة أكرانيا، فإن الأكرانيين

الموجودين في تلك المناطق تركوا بيوتهم وفروا نحو الجبال غير المعروفة وهم يدعون على اليونانيين وأهالي بيوتيا الجبناء بأسوأ الدعاء. شجعان إسبرطة الذين استمعوا لهذا تعقبوا هؤلاء الفارين. ولكن نظرا لأن الفارين يعرفون هذه الجبال جيدا فقد تمكنوا من الاختفاء لعدة أيام. أما شجعان إسبرطة الذين نفد صبرهم في النهاية فحاصروا الفارين بينما كانوا يقومون برعي حيواناتهم على شاطئ إحدى البحيرات الموجودة بين الجبال. وأما أهالي إسبرطة النبلاء الذين أخذوهم وحيواناتهم غنيمة لهم، في طريق عودتهم فاستولوا على كل القلاع التي قابلتهم وأخذوا سكانها أسرى وأموالهم غنائم. وأضرموا النيران في منتجات الزراعات التي لم يكن قد حان وقت حصادها.

وبسبب هذا النجاح الرائع للأسبرطيين، فإن حلفاءهم لم يكن منهم من يقول إن ذلك تم وفقا لرغبة الفينيقيين، لأنهم إلى جانب ضمان حرية واستقلال قلاعهم، فإنهم كانوا يرجعون إلى بيوتهم بالغنائم التي تكفيهم لسنوات. وهكذا فإن جدي الأكبر أجيليسيوس القائد المظفر للإسبرطيين في هذه الحرب، كما كان يناقش مجريات أحداث الحروب ويجتمع باستمرار مع قادة الجيوش ورفقاء الخيمة على ثلاث مجموعات متساوية طوال فترة الحروب، ومن أجل إبقاء شعور ارتباط المحارب بجيشه، كان بعد كل حرب يظهر أمام الفرسان ومقاتلي إسبرطة وجند الحلفاء كل منهم على حدة، وكان يشجعهم ويحفزهم باستمرار مخاطبا إياهم قائلا: "شجعاني الأبطال ها نحن نأخذ بثأرنا من كل من اليونانيين وحلفائهم الذين قتلوا مئات من رفقاء السلاح عندما أسقطوا كتيبة لخين في الشرك الحقير قبل عام. إن لم يكن قد أخذتهم

أية رحمة برفقائنا، فنحن أيضا طوال فترة حربنا هذه لن تأخذنا بهم رحمة ولا شفقة وحتى نأخذ ثأرنا تماما لن نوافق على طلباتهم للصلح... إن عقدنا الصلح الآن هل سيعيدون إلينا رفقاءنا الذين فقدناهم؟ كلا! مادام الأمر كذلك لندفن الذين قتلوا رفقاءنا إلى جوارهم، حتى تسعد أرواح رفقائنا الشجاعة والطاهرة. من الآن فصاعدا علينا أن نقوم بتوزيع قسم كبير من الغنائم على أيتامهم، حتى لا يعيشوا فقراء. أخذت آخر الغنائم التي تم الحصول عليها، وفي الوقت الذي خرجوا بها على الطريق المتجه نحو جنوب الدولة، تعرضوا فجأة لهجوم إحدى الوحدات الأكارنانية إلى تحمل التروس. كان مكان الهجوم أحد الممرات الضيقة ولكن مقاتلي أجيليسيوس الشجعان قاموا بالهجوم المضاد عليهم وطاردوهم حتى قمة جبل المتترسين. ولكن مقاتلي اليونانيين والأكارنانيّن وفرسانهم الحقيقيين كانوا على قمة الجبل. وعندما هجم مقاتلو إسبرطة من الأمام فرح الأكارانيين المتمركزين على قمة الجبل ولكن عندما شاهدوا بعد قليل قوات أجيليسيوس تأتي من خلفهم وتحاصرهم من كل الجهات بقيت أفراحهم في حواصلهم. وهكذا تم أسر فلول اليونانيين الأكارانيين المهزومين والذين حُوصروا بين القوتين في فترة وجيزة. وبينما كان يتم إرسال الكثير من الأسرى، وكذلك الكثير من الغنائم إلى إسبرطة، فإن أجيليسيوس خصص نسبة عشرة في المائة من هذه الغنائم لإقامة نصب تذكاري على قمة الجبل يخلد ذكرى الأموات. بعد ذلك استمر في مواصلة حربه، إلا أنه لم يستول على أية قلعة من القلاع. أما الإغريق الذين أدركوا خطورة فإنهم طالبوه بأن يستولي على بعض القلاع على الأقل. ولما قال إجيليسيوس إن فصل الشتاء على الأبواب وأنه لن يقوم بمهاجمة أي من

القلاع فإن الإغريق قالوا: " على الأقل لنشعل النار في عنابر بعض القلاع، ولنحل بينهم وبين زراعة المحاصيل في حقولهم ولنذهب بعد ذلك". أما أجيليسيوس الحكيم فوقف أمامهم وخاطبهم قائلا: "يا معشر الإغريق، اتركوهم لتبقى البذور في مخازنهم. لنتركهم، ليزرعوا محاصيلهم. عندما نأتي إلى هنا معًا في الربيع لتكن زراعاتهم قد اخضرت وترعرت. لتكن الأعشاب قد نمت وزهزهت في مروجهم ومراتعهم. لتلد الحيوانات التي فرت منا، لتلد نساؤهم صغارا أقوياء أصحاء، وليرتبطوا بالأرض من جديد. ثم نأتي إلى هنا وعندما نبدأ في حرق حقولهم لن تبقى بذور ينثرونها في أراضيهم، ولن يجدوا عشبا لإطعامه لحيواناتهم التي ولدت وستصبح الأمهات عديمة الحيلة مغلوبة على أمرها وجواري لكم من أجل إنقاذ صغارهم الأصحاء. وفي ذلك الوقت سوف يقبل الأكارانيون بشروط الصلح التي نمليها عليهم. "وعبر الخليج من أجل العودة هو وجيشه إلى إسبرطة.

لم يصدق الإغريق جيدا هذه الوعود التي قيلت لهم، ولكن إجيليسيوس الشجاع حقق وعده؛ اخضوضرت زراعاتهم وعندما صارت بطول ركبة الإنسان عبر الخليج وهجم على الأكارانيين الذين لملموا شتاتهم. أما الأكارنانيون الذين شاهدوا تقدم الجيش وقيامه بهدم وحرق كل القرى التي يجدها في طريقه، وبعدما شاهدوا قيامه بحرق محصول آخر البذور التي كانت بأيديهم وأنه صار رمادا طلبوا الصلح قائلين بأنهم سيعطون أجيليسيوس كل ما يريد، وعلاوة على ذلك صاروا من حلفاء إسبرطة. وهكذا لم تكن هناك بعد ذلك أية حروب لا في جنوب بيللوبون، ولا في سماء الخليج لفترة

طويلة." عندما أنهى كلامه نظر إليه مستبد الموره مانويل كنتاكوزين برضا وامتنان، وقال:

أيها العالم أجيسيولوس حفيد أجيسيولوس القائد العظيم، أعتقد أن الوقت هو وقت رؤية الحقيقة. والآن فلا يوجد لا مجلس القادة الأعلى، ولا القائد أجيسيولوس، ولا حتى هذه المناطق المسماه بيلوبونسيه. عرضتم الرحلة التي كانت قبل مئات السنين، سيكون من الأفضل لو تتحدث عما يحدث هذه الأيام. انظر ماذا حدث لبيزنطتنا التي يجلس على عرشها إمبراطوران. إذا أتي العثمانيون من تراقيا إلى هنا فماذا نحن فاعلون، ألا ترى أن هذا الوقت هو وقت التفكير في هذا الأمر؟

أجيسيولوس الذي مازال يصر على الحديث على نصر جده المشهور هذا الذي وقع في العصر القديم، فأخذ ينظر إلى مستبد القسطنطينية وكأنه يحتقره، ثم قال:

قائدنا العزيز مانويل كنتاكوزين لا تخف. إن جبالنا ترغب على الدوام بأن تذكر وتسمى بيبلوبنسيه. ولهذا السبب يوجد في كل وقت قواتها التي ستحميها لمدة قرن من الزمان.

في تلك الأثناء استيقظ الإمبراطور المعزول يوحنا كنتاكوزين السادس، الذي حصل على قسط كبير من الراحة وكان قد أخذ مكانه المخصص له على المائدة من أجل تناول الطعام. في البداية نظر إلى ابنه مانويل ثم إلى باحة القصر المنيف المحاطة بالأسوار. ولأنه استمع فقط إلى الجمل الأخيرة من الحديث، قال:

عزيزي أجيسيولوس، إن ما يهمك معرفته، هو أنني أيضا قبل بضعة شهور كنت أفكر في التنازل عن عرش الإمبراطورية. ولكن انظر الآن أنا هنا. إن صهري الذي أعطاني الضمانات من أجل تركي القسطنطينية، يبدو الآن وكأنه قد نسي كل ما وعد به. ولكن ليس لهذا قدر كبير من الأهمية. أنا مصمم على فعل كل ما يجب فعله من أجل الحفاظ على بقاء بيزنطتنا إلى الأبد...

(٤٣)

أما أفرانوس بك والحاج إلباي اللذان كانا قد بقيا في بورصه فترة قصيره عبرا مع زوجاتهم الدردنيل، وكانا قد استقرا في مقراتهم الموجودة في شمال جاليبولي. وكذلك سليمان باشا الذي ظل في بورصه، كان سيعبر إلى الضفة الأخرى بعد مشاركته في اجتماع مجلس الحكم من أجل الحصول على معلومات بخصوص النظام الجديد للإمارة. إن الأمير سليمان كان قد استراح في جناح زوجته بعد الرحلة التي قام بها مع والدته خلال الأيام الأولى التي قضاها في بورصه، وبينما كان يخصص أوقاتا كبيرة من أيامه لاجتماعات الديوان، فإنه كان كذلك يقضي بقية وقته في مقر التدريب الموجود بالقرب من قلعة لبلوجه. وفي الوقت الذي كان يقوم فيه بالتدريب مع بعض الرجال أحيانا، كان أحيانا أخرى يتابع السباقات التي كانت تتم في ميدان الأبطال، كما كان يشارك القادة في اختيار الرقباء ورؤساء الرقباء. كما أن أورخان غازي، كان قد عهد إليه كذلك تسيير أمور مقر القيادة طوال المدة التي قضاها في بورصه.

سليمان باشا الذي لم يستطع أن يدرك أن الوقت كان قد مر بسرعة في بورصه وسط كثرة الأعمال هذه، ولا كيف مر فصل الشتاء الطويل كذلك، لم يكن يدرك أيضا متى ارتفعت حرارة النفس البارد للجبل الشاهق الذي يسميه السكان المحليون بأوليمبوس والذي يطلق عليه التركمان جبل الراهب. ولذا

اندهش بدرجة كبيرة عندما علم بأن كتائب المشاة والفرسان جاهزة للعبور إلى الضفة الأخرى. وعلى الرغم من حالة الاندهاش التي اعترته فإنه فرح جدا لقدوم أيام الحرب الكبيرة تلك. على الفور أخبر الحريم بعمل كل استعداداتهن. في اليوم الذي علم باستعداد جناح الحريم الذي زينته والدته بالجواري الحسان اللواتي أحضرتهم مؤخرا للسفر، في البداية ودع والدته، وبعد خروج حريمه للسفر ذهب كذلك إلى والده أورخان غازي الذي رأى استعداد ابنه للسفر، نهض على قدميه. وقال هو ينظر بفخر إلى ابنه:

هيا يا ولدي لنذهب معًا إلى مقر القيادة ولنودع بعضنا هناك.

وبينما يتهيئان لامتطاء جواديهما اللذين تم تجهيزهما انضم إليهما الأمير مراد. كان الأدهم حصان أورخان غازي في الأمام، ومن خلفه الأشهب حصان سليمان باشا والكُمَيْت (كستنائي اللون) حصان الأمير مراد في الخلف. كتائب المشاة وصفوف الفرسان الذين شاهدوا دخولهم إلى مقر القيادة، صاحوا قائلين: " ماشاء الله" وأرعبوا الأرض والسماء. ثم أتى يخشي بك إلى جوارهما.

إن أورخان غازي الذي أدرك أن قد حان زمن الوداع عندما سمعه يقول: يا سيدي، إن فرساننا وكذلك مشاتنا جاهزة للانطلاق، ثم نزل من فوق حصانه. وبعد أن قبل جبين ابنه الذي جاء إلى جانبه، قال:

لتكن خيلكم منطلقة كالريح، ولتكن غزوتكم غزوة مباركة يا ولدي.

قال سليمان باشا بعد أن قبل يد والده:

آمل أن أرسل لكم في القريب العاجل أخبار النصر الجديد يا والدي.
وبينما كان يعانق شقيقه مراد الذي يقف خلف أورخان غازي مباشرة، قال:
سأكون في حاجة كبيرة لك يا أخي على الضفة الأخرى من الدردنيل. بمجرد أن تنتهي أعمالك هنا سأنتظرك على الضفة الأخرى يا أخي.

قال أورخان غازي الذي استمع لما قاله:

فور العودة من حرب كرميان سوف أرسل شقيقك. أنتم هناك وأنا هنا نكفي للحفاظ على انتعاش وقوة إمارتنا... وما إن قال هذه الكلمات حتى امتطى صهوة جواده. وأما سليمان باشا الذي أدرك أنه قد حان وقت الوداع فامتطى هو الآخر صهوة جواده الأشهب واتجه به نحو الشمال. أورخان غازي والأمير مراد اللذان ينتظران تحرك وحدات الفرسان التي تتبعه ومن خلفها وحدات المشاة، امتطيا صهوة جواديهما بعد أن تحركت المشاة واتجها نحو بورصه. بعد أن انطلق الرجال ووحداتهم، تحولت في لحظة الساحة المستوية لمقر القيادة الموجود على مشارف لوملوجه إلى أحد الأماكن غير المأهولة. يخشي بك الذي ظل في هذا المكان الخالي مع رجاله بعد أن ظل فترة ينظر من خلف الرجال الذين ذهبوا، مشى نحو الوحدات غير المدربة الموجوة عند الطرف الجنوبي للساحه المنبسطة والذين تم الإتيان بهم لتدريبهم.

سليمان باشا الذي وصل بقواته الجديدة إلى بلاجار بعد رحلة سفر استمرت ثلاثة أيام، قام بتسليم الفرسان والمشاة للقادة الموجودين في مقر القيادة، وانزوى للحصول على الراحة لعدة أيام خلالها خلد للراحة وكان يأتي كل يوم تقريبا ويجلس تحت مجموعه الأشجار الموجودة على سفح التل لمشاهدة الغروب الذي يتوق دوما لمشاهدته. ونظر كثيرا إلى منظر الغروب.

وبينما كان يشاهده ، كان يتذكر كل يوم تقريبا أيامه تلك التي كان يتحدث فيها مع والدته طوال فصل الشتاء. وبينما كان يسترجع إحدى ذكرياته ضحك كثيرا من تلقاء نفسه، عندما تذكر أيامهم التي ذهبوا فيها إلى نيكايا التي تسميها والدته أزنيكوم بعد أن أقام لفترة قصيرة في يارحصار التي وصفتها والدته قائلة "لم تبق أشياء كثيرة من طفولتنا". وبعد ضحكه استغرق في ذكرياته التي حدثت هناك، "إن قول والدتي إنه لم يبق الشيء الكثير من طفولتها وفي اليوم الأول الذي ذهبنا فيه من يارحصار إلى ازنيكوم اختفت والدتي. عندما أمرنا بالاستفسار والسؤال عن المكان الذي ذهبت إليه، علمت أنها خرجت في جولات التنزه على شاطئ البحيرة بصحبة مربياتي. وهكذا وجدتها فرصة للتنزه أنا أيضا، ذهبت إلى الربوة الموجودة بالقرب منا، وبدأت في مشاهدة الشمس التي تمايلت على البحيرة. كنت لا أستطيع ملاحظة حلول المساء، بعدما أخذتني مداعبة الشمس للبحيرة وقت الغروب. ولو لم ينبهني أحد الفدائيين كنت سأجلس متخيلا مداعبة الشمس للبحيرة في ذلك الظلام. رجعت إلى القلعة وعندما وصلت إلى قصر الضيافة الذي جهزة المسئول عن الأمن استقبلتني أمي وهي تبتسم. كان يوجد في عينيها بريق سعادة لم أشاهده في عينيها حتى ذلك اليوم. وكنت قد صرت سعيدا جدا أنا أيضا عندما رأيتها سعيدة على هذا النحو. وعلى الفور ذهبت بي إلى غرفة الضيافة الخاصة بها. جلست أمامي، وقالت:

سليمان يا ولدي، رأيت اليوم أجمل فتيات نيكايا... رأيت أن تكون ابنة قرا على بك أحد رجال والدك الجميلة جديرة بأن تكون من زوجاتك.

أنا أيضا ومن أجل عدم كسر خاطر والدتي، قلت:

مادمت قد رأيت أنها تليق بحريمنا، ليكن إن كان هناك نصيب، لا أدري لِمَ قلت ذلك دون أن أفكر في الأمر، ولكن عندما قلت ذلك كنت قد أحسست بحركة خفيفة في قلبي لم أكن قد شعرت بها حتى ذلك اليوم. كانت تبحث عن سيدة تأخذ مكانها الآن، وكأن الجواري اللواتي قامت بإلحاقهن بجناح الحريم الخاص بي لم تكن تكفي. نعم، كانت إحدى الرغبات البريئة التي لا يمكن رفضها. أنا لم أرفضها، ولكن قلت لها أرغب أولا في الاستيلاء على قلعة أدرنه، و يمكن أن أتزوج بها وفقا لرغبتها بعد العودة من حرب الخريف.

سليمان باشا، غاص بنظراته في الأفق من جديد، وكأنه لا يريد أن يمحو ذكرياته شيئا فشيئا من عقله. وبينما يقوم بهز رأسه يمنة ويسرة وكأن روحه قد ملت لابتعاده عن ذكرياته الموجودة في عقله، أمسك بقطعة من غصن مكسور. وبينما كان يقلب التراب بقطعة الغضن وهو ينظر إلى الشمس التي تميل نحو الغروب، أصابه الفزع من صوته عندما قال بصوت مسموع "تتسللين إلى خلف الجبال ثانية بنفس الشكل كما تركتك في الخريف. عندما أخرج غدا وبعد الغد للحرب ربما لن أتمكن من مشاهدتك حتى أشبع على هذا النحو، ولكنك في نفس الساعة سوف تركضين بنفس القوة إلى خلف الجبال. لن أكون هنا، ولكن لتعلمي، بأنني سأصعد إلى أعلى أبراج كل قلعة جديدة أستولي عليها، وسوف أشاهد من هناك ميلك نحو الغروب. ربما لن يكون غروبك هناك جميلا على هذا النحو الموجود هنا، ولكن وأنا أنظر إليك من هناك سأشاهد غروبك الموجود هنا. ولا تنسي أيضا أنكِ مهما حاولت الهروب مني سوف أطاردك دون ملل حتى آخر العمر. لا أدري كيف

ستغربين في الأماكن الأخري، ولكن غروبك في بلاجار مختلف تماما. ولذلك قلت للحاج إلباي، إن قضيت نحبي في الحرب فلا يذهبوا بجثماني إلى بورصه، وليواروني الثرى في هذا المكان الذي أجلس عليه. لأنني من هنا يمكنني مشاهدتك أبد الدهر". عندما تذكر حدوث مثل هذه الرجفة عندما كان يقف على شاطئ بحيرة أسانينا ويشاهد مداعبة الأسماك لبعضها في الأيام التي ذهب فيها إلى نيكايا مع والدته"، وبينما كان يسأل نفسه قائلا: "ماذا بحق الجحيم؟" انطلق مسرعا يتملكه الخوف. وبينما انتصبت شعيراته وكأنها تشعر بعرقه البارد الذي يتصبب حتى أسفل ظهره، كان قد وصل إلى جانب الخيمة التي هي مقر القيادة دون أن يدري وهو يحدث نفسه قائلا: أعتقد أن هذه هي المرة الأولى في حياتي التي شعرت فيها بالخوف على هذا النحو. هل كان الشيء الذي أخافني هو الموت؟ ولكن ماذا يمكن أن يكون أكثر من الإحساس بالخوف منه؟ لكن تعال، وقل للقلب من ذا الذي لا يهاب الموت. آه لو يكون لكل شخص الفرصة بأن يكون كيكلي بابا (الشيخ الذي يمتطي الآيل) وأن يعيش لمئة عام. لما سمعت كل ذلك عنه، وعندما قلت لوالدتي أريد الذهاب إلى كيكلي بابا، قال والدي:

لا تذهب ولا تقم بفك لغز حياته، ولا تبحث عن أيِ سر من أسرارها. على أية حال إن ذهبت لرؤيته لن تتمكن من ذلك. ويمكنك أن ترسل له خبرا ربما ينتظرك. ولكن أرى أنه إن ظهر يوما ما وجاء إلى بورصه، فستلتقي به أيضا كما التقيت بالدراويش الآخرين.

وعندما سألت والدي قائلا هل يأتي إلى بورصه؟

رد عليَّ قائلا:

انتظر إلى أن يأتي. من يقدره إلى هذه الدرجة يكون في انتظاره على الأغلب. وليقل الآخرون ما يقولون، ليس مهما على الإطلاق، المهم هو حكمك عليه وأفكارك واعتقاداتك عنه. لا تنس إن نختلق أي من الأوصاف والصفات فلنختلقها، فلا يوجد أي إنسان له أية أفضلية على غيره عند الله تعالى.

بعد أن تحدثت مع والدي في ذلك اليوم استطعت أن أميز بشكل كبير حقيقة الأشياء غير المنطقية المتداولة في الحياة اليومية. انتظرت لفترة نزوله إلى بورصه. بيد أنه لم ينزل. نسيته كذلك بعد مرور فترة من الزمن. وعندما نظر إلى باب الخيمة رأى أن الحاج إلباي ينتظره. حيث وضع يده على صدره وألقى عليه التحية. كان مضطرا إلى الكلام فقال:

ياسيدي إن كلا من فاضل بك، وأفرانوس بك كانا يتقدمان دون توقف. وأرسل كل منهما يقول، " أرسلوا لنا قواة مشاة جديدة حتى يمكن أن نتركها في القلاع التي نستولي عليها".

أما سليمان باشا الذي دخل إلى قاعة خيمة القيادة الواسعة المضاءة بالقناديل، وهو يجلس على فراشه الموجود في الزاوية الرئيسة للخيمة، فسأل قائلا:

هل هناك سبب لهذا التقدم السريع على هذا النحو؟ وبعد أن قام الحاج إلباي بحك عنقه بأطراف أصابعه، قال:

حقا يوجد يا أميرنا. وفقا لما وصل إلى مسامعنا فإنه بعد أن تنازل كنتاكوزين شريك العرش عن عرش الإمبراطورية، فإن ابنه ماتيوس كنتاكوزين شريك الإمبراطور، أخبر الإمبراطور باليولوج الموجود في

القسطنطينية بأن يعلنه شريكا له في عرش الإمبراطورية، وإن لم يفعل فليأت إلى القطسطنطينية ويعلن تبوأه منصب الإمبراطور.

حسن وهل تنازل الإمبراطور كنتاكوزين عن عرش الإمبراطورية صحيح؟

الأخبار والأقاويل الواردة تقول بذلك. وتقول إنه منزو في عزلته في أحد الأديرة في ديموطيقا.

سليمان باشا جلس القرفصاء أمامه مبتسما وقال وهو ينظر إلى الحاج إلباي:

كنت قد حللت ضيفا على كنتاكوزين في القسطنطينية لمدة أسبوع في السنوات الأولى التي تولى فيها عرش الإمبراطورية. في كل مرة كنت أراه فيها كنت أشاهد تعبيرًا مختلفًا على وجهه. هو ليس ذلك الشخص الذي يخضع لتقدمه في السن وينسحب للانزواء بعيدا. من يدري ماذا يدبر الآن؟ الآن ليس وقت التفكير فيه. علينا أن نسرع بخوض حروبنا في الوقت الذي يتصارعون فيه مع بعضهم. لنقم في البداية بتطهير وادي أوغراش من الفرسان الذين أعلنوا عصيانهم لكلا الإمبراطورين. ولنذهب بعد ذلك بالقوات التي تحت إمرتنا حتى رودوستايا، ونستولي على كل القلاع الموجودة على طول الشاطئ الموجود جنوب جنوش. وبذلك نمنع سواء الدعم الذي سيذهب إلى القسطنطينية عبر الطرق البرية، والدعم الذي يصل إلى القلاع من القسطنطينية عبر البحر.

قال الحاج إلباي وكأنه يكمل شيئا ناقصا:

وفي تلك الآونة يجب عدم نسيان أينوس. وفقا للأخبار التي وردت فإن قسمًا كبيرًا من الأسطول البيزنطي كان ينتظر هناك باستمرار. إن كان ماتيوس كنتاكوزين، سيتجه نحو القسطنطينية فإن الهوسبتاليين الموجودين على ظهر الأسطول سينطلقون نحو أدرنه.

قال سليمان باشا نظر نظرة نحو الحاج إلباي:

ربما تكون هذه فرصة لنا. في الوقت الذي ينظرون فيه على ذلك النحو، ويراقبون بعضهم بعضا، أرى أنه علينا أن نسرع بخوض حروبنا.

قال الحاج إلباي وهو متضايق بعض الشيء:

ولكن يا أميرنا نحن في حاجة إلى رجال الأمن الذين سيديرون هذه القلاع، وإلى السكان الذين سنقوم بتوطينهم فيها، وإلى القضاة الذين سيقومون بإحلال العدل وتطبيق النظام فيها. رجال الأمن التابعون لفاضل بك وأقجه قوجه أوغلو لن يستطيعوا وحدهم إنجاز ذلك على الوجه الأمثل. كان أورخان غازي أطال الله عمره قد قال إن أحفاد قلم بك الموجودين في إمارة يخشي سينجحون في ذلك، ووعد بأنه سيقوم بإرسالهم إلى هنا، ولكن لم يأتوا بعد. أرى أنه لو نرسل قسما من البدو المتطوعين من القلاع التي استولينا عليها مؤخرا إلى إمارة يخشي سيكون أمرا جيدا. يستوطنون أراضي السادة الذين سيأتون من هناك، وبذلك لن تترك تلك الأراضي خالية من السكان، وسيقوم القادة القادمون بتسكين بدوهم الرحل الذين أحضروهم معهم من هناك بسهولة في القلاع. وبذلك يكون قد حصل نوع من التوازن سواء هنا أو هناك.

قال سليمان باشا:

ولكن قبل كل شيء فلنحاصر قلعة ديما التي تقف في طريقنا الشمالي مثل رأس الدمل مرة ثانية. فور عودة مؤخرة قواتنا لنستعيد القلعة مرة أخرى، لنظهر لهم ماذا يعني رفع السيف في وجه العثمانيين.

قال الحاج إلباي:

أرى من وجهة نظري أن نقوم أولا بمعاقبة الفارين الموجودين في وادي أوغرش، ولنحول وجهتنا نحو ديما بعد الاستيلاء على القلاع الموجودة على ساحل إيجه.

بعد أن وافق سليمان باشا على هذا بهز رأسه، قال الحاج إلباي:

إذن سأدعو قادة الكتائب والقادة الآخرين إلى الاجتماع بعد قليل، وأخبرهم بالقرارات التي اتخذناها. ونتحرك بعد أن يكملوا استعداداتهم.

قال سليمان باشا وهو ينهض واقفا على قدميه:

لتكن غزوتنا غزوة مباركة يا حاج إلباي، وخرج ومشى من خيمة مقر القيادة. حتى وصل خيمة الحريم المقامة بين القلعة الصغيرة ومقر القيادة العسكرية بخطى سريعة وهو يحرك منكبيه العريضين.

(٤٤)

يوحنا كنتاكوزين السادس الذي مل من انتظار عبور الرياح الباردة التي تهب نحو مسترا متجمعة في غابات الموره قادمة من بحر الجزر الموجود في الشرق ومن الخليج الموجود في الشمال، وكأنها كانت ستخرج من بين شفتي مارد ضخم، على الرغم من إصرار ابنه مانويل كنتاكوزين مستبد الموره، قال لرجاله بأن يبدءوا في اتخاذ استعدادات السفر. على الرغم من بدء رجاله عمل استعدادات السفر بهمة ونشاط، كان كنتاكوزين لا يستطيع اتخاذ أي قرار قاطع بترك زوجته إيرينا في المورة والذهاب بمفرده. كانت زوجته ستكون أكثر أمانا بجوار ابنها، ولكن قلبه لم يكن يقبل بأي شكل من الأشكال بأن يذهب ويترك إيرينا زوجته التي خلصها مؤخرا من يد صهره الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بتنازله عن عرش الإمبراطورية. وبينما كان ينتظر مترددا على هذا النحو، كان يحاول توقع ما يمكن أن ينتظره في روما، وكان يضع في حسبانه أسوأ الاحتمالات وأفضلها ويزنها في عقله، وبعد التفكير في ذلك مليا، كان يبدو وكأنه قد اتخذ قرارًا بعد أن درس الموضوع جيدا، ولكن بعد فترة وجيزة عدل عن قراره ذلك مرة ثانية، وبدأ يتدبر الأمور في عقله من جديد كما كان قبل قليل. لا يتذكر أنه تعرض لموقف ما كان مترددا فيه على هذا النحو طوال حياته، وكان يردد دائما : "ربما كان ذلك أصعب وآخر قرار سأتخذه في حياتي".

وفي المساء الذي أنهى فيه رجاله استعداداتهم، وأخبروه بأنهم جاهزون للسفر، صعد الإمبراطور المعزول قبل حلول الظلام إلى جدار القلعة الذي يفصل الساحة الداخلية لمنسترا عن الأحياء الخارجية. مشى على الجدار لفترة بلا أي هدف، قام بجولة فوق الجدار، وجاء إلى المكان الذي صعد فيه فوق الجدار. وقف على أعلى درجات السلم الذي تسلقه من أجل الصعود إلى جدار القلعة، وبينما ينظر نحو الشمال شاهد مجيء إحدى السحب السوداء نحو منسترا. وفي الوقت الذي كان يحاول فيه أن يفرج عن نفسه قائلا وهو ينظر نحو السحابة الحزينة "رسول آخر أيام الشتاء"، أحس بسيطرة مشاعر البكاء الرقيقة والتي تسخر منه تسيطر عليه. هذه المشاعر المؤلمة التي تتسلق من جوف البطن إلى الأعلى، تقترب شيئا فشيئا من قلبه، كانت كلما تقترب تزداد أكثر فأكثر. كانت تتقدم وكأنها أفعى تزحف مسرعة من أسفل بطنه إلى الأعلى، في البداية من الأمعاء الغليظة ثم إلى الأمعاء الدقيقة وهكذا. وفي الوقت الذي تملكته فيه الحيرة بدرجة كبيرة على هذا النحو، بدأ في الصراخ بأعلى صوته على الحارس الموجود في أقرب برج للمراقبة، وهو ينظر بنظرات وجلة. كان يشعر بأنه يصيح بأعلى صوته، ولكن الحارس الذي كان ينظر بعيدا لم يكن يسمعه. بدأ كنتاكوزين السادس يرسل إشارات نحو الحارس الذي لا يسمع صياحه ملوحا بعصاه المطلية بالذهب التي يمسكها في يده. لم ير الحارس الإشارات التي أرسلها كذلك. ولما شعر الإمبراطور المعزول بأن الحارس الذي لم يستطع أن يُسمعه صوته، لم يعره أي اهتمام قط، اتكأ على عصاه وهو في مكانه وجلس على أعلى درجة من درج السلم الحجري. في تلك الأثناء سمع الصفير الذي أطلقه الحارس.

كنتاكوزين الذي أخذ نفسا عميقا وهو جالس في مكانه، ارتجف وهو يسأل مع نفسه قائلا " أنا أسمع صفيره، لماذا لا يسمع صياحي؟" نظر مرة ثانية نحو الحارس. وعلى الرغم من المظهر القوي جدا للحارس الذي يقف منتصب القامة، وكأنه يستعرض الدروع الموجودة على ظهره وعلى ذراعيه، فإنه كان يبدو وكأنه دون رأس. ظن كنتاكوزين أن عينيه تخدعانه، بعد أن مسح بظهر كفه عينيه المبتلتين، دقق النظر إلى الحارس مرة أخـــرى. كان يظن أن نغمة اللحن الذي بقي في أذنه منذ صغره قد خرج من بين شفتي الحارس، بيد أنه لم يكن يشاهد رأس الحارس بأي شكل من الأشكال. في الوقت الذي ظن فيه أن عينيه تخدعانه للمرة الثانية، رأى الحارس مقطوع الرأس يقترب نحوه بسرعة، وأنه يصوب حربته إليه. كنتاكوزين الذي تملكه الخوف، دون أن ينتظر اقتراب الحارس منه أكثر من ذلك أطلق لنفسه العنان، وبدأ في النزول إلى الأسفل متدحرجا على الدرج حتى أرض المكان الذي يبدأ منه الدرج. عاد لوعيه بعد فترة بعد أن ارتطم بالأرض. نهض على الفور وفكر في الابتعاد عن هناك، ولكنه لم ينصع لتفكيره هذا. جثا على ركبتيه وبدأ في انتظار الحارس مقطوع الرأس الذي سينزل من الدرج. وأثناء انتظاره قال: " قبل أن يغرس حربته، سوف أسأله قائلا: هل كلفك مانويل بهذا؟ أريد أن أعلم وأنا ألتقط آخر أنفاسي هل يتهمني مانويل هو الآخر بالجبن مثل شقيقه الأكبر أم لا؟". لم يكن يعلم لماذا كانت هذه الجملة هي أول الجمل التي وردت في عقله في تلك اللحظة العصيبة، ولكنه كان يعلم أن معرفة هذا سيمنحه الأمان ويكون مطمئنا له. بينما ينظر نحو الدرج بعينيه المسحورتين من الخوف، ولم يلاحظ عدم وجود الحارس مقطوع

الرأس الذي سينزل من الدرج فقط، بل عدم وجود أي شخص في المكان قط. وفي الوقت الذي كان سيتحدث فيه مجبرا شفتيه على ذلك، فإن بؤبؤ عينيه المتورمتين بدأتا في ذرف الدموع كالمطر. الدموع التي لم يستطع إيقافها بأي شكل من الأشكال، استمرت إلى أن جفت ينابيع عينيه. ثم مسح وجهه الملطخ بدموعه بظهر يده ونهض على قدميه على الفور. أدار رأسه يمنه ويسرة، في البداية إلى الساحة أولا، وبعد ذلك نظر إلى الدرج مرة ثانية. نظراته التي تسلقت درج السلم كانت قد تثبتت من وجود الخوذة على رأس الحارس المناوب الموجود في أعلى أبراج القلعة. كان هذا الحارس حتى الآن يصفر كما كان قبل قليل، وكان ينظر إلى السحابة السوداء الموجودة في أديم السماء. نظر مرة إلى الحارس، ومرة إلى السحاب، ثم استدار ونظر إلى الساحة الداخلية الواسعة. نظرات عينيه التي تستحي من نفسها توارت خلف أهداب عينيه. وبينما يسير نحو القصر الصغير الذي يتخذه ابنه بيتا ومقرا وهو يتوكأ على العصاة المصنوعة في بغداد والمطلية بالذهب، حدث نفسه قائلا: " اغتر ماتيوس بالقوة، وصار لا يصدقني، ولكن ابني مانويل كما أنه لم يقصر في خدمتي منذ بضعة أيام، يقول باستمرار إنه سيكون إلى جانبي في كل الأحوال. إذا شككت أشك في إخلاصه أكون مخطئا خطأ جسيما". وقف لفترة في مكانه. والتقت عيناه بالكتابة الموجودة على أحد الأحجار المستوية الكبيرة الذي وطأته قدماه. الحفر الذي يكون حروفا كانت قد فقد شكله تقريبا، ولكن كان من الواضح أن هذا النقش تم عمله من أجل الإشارة لإحدى الحروب، أو من أجل تزيين بعض الأماكن على مر الزمان. جثم وحاول قراءة الكتابة. النقوش التي بليت واختلطت ببعضها مع مرور الزمن

كانت لا تُقرأ بوضوح. حاول قراءة النص من خلال تجميعه للحروف التي توصل إلى قراءتها، إلا أنه لم ينجح في ذلك. بينما ينظر إلى الحروف، ويأخذ نفسا عميقا، حدث نفسه قائلا: " كنت أظن أني عالم، ولكن هناك الكثير من الأشياء التي لا أعلمها. إن تدحرجي على الدرج قبل قليل، وعدم معرفتي لسبب عدم رؤيتي لرأس الحارس قوي البنية سليم الجسد، هي في الأغلب من الأشياء التي لا أعلمها. من يدري أي خوف كدر ذهني حتى هذه الدرجة؟ ترى هل هي الأشياء التي عايشناها في مارا أثناء القدوم إلى هنا، أم المخاوف التي عايشناها في القسطنطينية بعد أندرينيكوس؟ "عندما اقترب من القصر الصغير، وبعدما أحس بالقوة والحيوية تسري في جسده من جديد وهو يلوح بالعصاة المصنوعة في بغداد في الهواء، قال: " كل هذه الأشياء جرم أندرينيكوس" وبينما يسعى إلى تخفيف الأفكار المؤلمة الموجودة في عقله، حدث نفسه وكأنه يقف أمام عائلة أندرونيكوس باليولوج قائلا: " لتعلم أن إيونيالي بروتاجوراس يقول؛ إن الإنسان هو الذي يحدد الأشياء ويتخذ القرارات بشأنها. الإنسانية موجودة في الأشياء التي تدخل في مجال الحواس فقط. كما علمت فحتى وفاتك أنت كان لا يوجد من بين شهواتي الطمع في الحكم. ذلك الشيء، أي وفاتك، كدرت حياتي، وبقيت مضطرا إلى الحياة من بعدك وأنا أعاني الكثير من المشاكل طوال حياتي. إنك ستقول لماذا تشغل نفسك بهذه النتيجة التي توصل إليها بروتاجوراس؟ فلتنس كل شيء ولا تفكر فيه. قول هذا سهل، ولكن الآن أنا أحد الذين صاروا كل شيء في حياتك، هل من الممكن أن أنسى بسهولة. لن أنسى أي شيء قط حتى نهاية عمري. ولكن الآن لزام علي تنحية الأشياء التي لن أنساها جانبا، وسأفعل

كل ما أستطيع فعله من أجل بيزنطتنا. بعدما تصل بيزنطتنا إلى الطريق الصحيح، سوف أحاسبهما عما ارتكباه. آمل ألا أعود خاوي الوفاض من رحلتي هذه... إن يلزم الأمر سوف أقبل أيضا توحيد الكنائس". أثناء تنقله من جدار إلى آخر من جدران القصر عبر دخوله من الأبواب المفتوحة، ورد إلى ذهنه تلك النقوش التي ظن أنه نسيها. قال، وكأنه مستاء من نفسه، " لم نستطع قراءتها". مشى عدة خطوات نحو الغرف الداخلية. وفي الوقت الذي لم يكن قد توجه فيه بعد إلى الغرفة التي يقيم فيها مع زوجته إيرينا، قال "بعض حروف الأيونيين تشبه حروفنا، ولكن لم أستطع قراءة الحروف التي لا تشبه حروفنا. على الأرجح يبدو أنها حروف بقيت لهم من الذين عاشوا قبلهم..." وبعد أن خطا عدة خطوات أخرى، دخل إلى الغرفة الداخلية وهو يقول: " من يدري كم لغة عاشت هنا قبل اللغة الأيونية؟".

(٤٥)

لم يكن فاضل بك قادرا على الوقوف في مكانه، كان يلتفت وينظر نحو الشرق تارة، ونحو الغرب تارة أخرى. وحتى شاهد كل الأشياء الموجودة على الأرض عيانا بيانا مع ظهور أول ضوء للشمس بدد الظلام كان يسير وينظر أيضا نحو الغرب تارة ونحو الشرق تارة أخرى. عندما شاهد أول ضوء للشمس ركض ممتطيا جواده وذهب به مسرعا إلى جانب قوات المشاة الذين اقتربوا جدا من أسوار القلعة. وبث فيهم الحماس صائحا بأعلى صوته قائلا: "هيا يا أسودي، هيا يا أسودي". وسمع الأصوات المرتفعة لرعوس الكباش التي يستخدمها حاملو رؤوس الكباش وهي تضرب أبواب القلعة. غير موقعة ونظر إلى قوات المشاة التي تقترب هي الأخرى بشكل أكثر من القلعة. عندما شاهد قوات المشاة المدرعين يقتربون شيئا فشيئا من حاملي رعوس الكباش تحت السواتر التي كونوها بدروعهم، صاح بأعلى صوته قائلا: " هيا يا أسودي ما بقي إلا القليل!" المشاة الذين سمعوا صيحته، اتخذوا موقعا جديدا غير عابئين بالسهام التي تنهال عليهم من القلعة. أما فاضل بك الذي شاهد السهام المنهمرة على المشاة، بينما يقود حصانه حتى الموقع الذي يوجد فيه رماة السهام التابعون له من ناحية، فإنه من ناحية أخرى، صاح قائلا: أرسلوا كل الرماة الموجودين مع الخيالة إلى الجبهة. وبينما يقود المراسلون الموجودون خلفه جيادهم من أجل توصيل ما قاله إلى قادة قوات

الخيالة، قال هو الآخر لرماة سهام اللهب الذين جاءوا إلى جواره، أشعلوا كل سهامكم وصوبوها نحو الموجودين فوق القلعة.

رماة سهام النار الذين ينتظرون الأمر بذلك، بدءوا في إطلاق سهامهم التي أشعلوها في غمضة عين على الحراس البيزنطيين الموجودين فوق أسوار القلعة دون توقف. وفي لحظة حجبت سهام اللهب المتطايرة أديم السماء. وكأن سهام اللهب التي يطلقها الرماة لم تكن كافية، فمن خلفها بدأت آلات المناجق التي نُصبت مؤخرا في قذف كرات اللهب على الحراس البيزنطيين الموجودين على أسوار القلعة. بعد استمرار تبادل إطلاق سهام اللهب لفترة، توقفت السهام التي تطلق من القلعة تقريبا. وبينما بدأ المشاة الذين شاهدوا ذلك بعملية الهجوم على القلعة، ركض كل من حاملي السلالم والمتسلقين والفدائيين والمجاذيب العفاريت الموجودين أمامهم إلى النقاط التي سيتم منها تسلق جدران القلعة. بمجرد وضع أول سلم على الجدار صعد المتسلقون على الجدران وكأنهم كانوا يسيرون على الطريق الممهد. وبدأ الفدائيون في الصعود فوق الأسوار بواسطة الحبال التي قاموا بتدليتها. تسلق المجاذيب العفاريت كذلك أسوار القلعة حتى يبرهنوا بأنهم ليسوا أقل من الفدائيين. وبينما يستمر الصراع والقتال الذي بدأ على أسوار القلعة، فإن رماة سهام اللهب كانوا يمطرون وسط القلعة بوابل من سهامهم غير المشتعلة.

قال فاضل بك – الذي يقوم– بحفز رماة السهام الذين قاموا بتطويق القلعة من فوق صهوة جواده بمجرد أن وصلت وحدة الفرسان التابعة له إلى جانبه:

اقتربوا من الأبواب، وقاد جواده نحو الباب الرئيسي للقلعة. وما إن اقترب من موقع تمركز المشاة حتى نزل عن صهوة جواده. وفي الوقت الذي خطا فيه عدة خطوات نحو وحدات المشاة، خُيِّل إليه وكأن الأرض التي يقف عليها تهتز من تحت قدميه. تثبت في مكانه. ونظر حوله. ولما شاهد الأرض ثابتة في مكانها قال وهو يبتسم بأطراف شفتيه، "هذه الأرض أرعدت الشجعان الأشاوس، من تكون أنت يا فاضل حتى ترعد الأرض!". نهض المشاة الموجودون في مواقعهم ولما شاهدهم يركضون نحو باب القلعة، دون أن يفكر في أي شيء قط نظر من خلفهم. ولما شاهد دخول أولى طلائع المشاة من باب القلعة، امتطى صهوة جواده مرة أخرى. عندما بدأ الحصان المدرب الاقتراب من الباب متتبعا المشاة، فإن فاضل بك المنفعل كان يصيح باستمرار قائلا:" هيا يا يا أبطالي، هيا يا أسودي".

وفي الوقت الذي بدأت فيه قوات المشاة العثمانية في الدخول إلى الداخل بسرعة من خلال الأبواب المحطمة، فإن حاكم مجالجارة البيزنطي الذي ينظر إلى حراس القلعة المصاب أكثر من نصفهم بالحروق، كان يقول: "سنقاوم قدر ما نستطيع. أرسلنا الأخبار إلى كلا الإمبراطورين، يوشك أن يأتينا الدعم". وكان يقول لقائد القلعة " افعل كل ما تستطيع فعله وقاوم قدر ما تستطيع" ولكن قائد الحراس المصاب بإصابة بسيطة كان يرد عليه قائلا : " لم تعد لدينا القدرة على المقاومة. الحاكم البيزنطي الذي انقطع أمله من قائد القلعة، أصيب بالجنون. ركض وصعد فوق أسوار القلعة. وبعد أن قام لفترة بتشجيع الحراس الذين يقاتلون فوق الجدران ذهب إلى الحراس الموجودين على رأس غلايات القطران والزيت المغلي الموجودة فوق الباب الرئيسي.

وما إن أدرك كسر الباب الموجود أسفل الكمر الذي يقف عليه حتى صاح على الحراس قائلا:

لا تتوقفوا، اسكبوا الغلايات على الأحواض. وفي الوقت الذي كان سيبدأ فيه الحراس العمالقة الواقفون على رأس الغلايات الذين استمعوا لكلامه في ذلك العمل فورا، سقطت إحدى كرات اللهب الضخمة المقذوفة من أحد المجانق داخل أحد براميل الزيت المغلي. الحراس الذين تناثر عليهم الزيت المغلي كانوا قد اندهشوا لما أصابهم. وحاصرهم العفاريت المغيرون الذين لم يعرفوا من أين خرجوا لهم. الحاكم البيزنطي الذي شاهد تمزيق العفاريت لحراسه، رفع يده من شدة الخوف، وأثناء استسلامه طلب من الحراس الموجودين بجوار براميل الزيت المغلى الاستسلام.

انسحبت قوات الخيالة للخلف، بعدما تم رفع الراية البيضاء على أعلى أبراج القلعة قبل حلول الظهر. ودخل فاضل بك إلى القلعة مع عدد قليل من فرسان وحداته خلف قوات المشاة. لما وصل إلى الميدان الموجود بين الباب الرئيسي والكنيسة قال للمشاة الموجودين في الأمام:

ليخرج الجميع من بيوتهم، اجمعوا الجميع في هذا الميدان.

وفي الوقت الذي انطلق فيه قادة المشاة الذين سمعوا كلام فاضل بك إلى الشوارع الضيقة مع مشاتهم الذين قسموهم إلى مجموعات، كلف فاضل بك فدائييه بالبحث عن الحاكم البيزنطي وقائد حراس القلعة. بعد فترة وجيزة من البحث أحضر الفدائيون الذين يجيدون اللغة الرومية قائد القلعة المصاب. بينما يطلب فاضل بك الذي شاهد المعاناة الشديدة لقائد حراس القلعة الذي

يتألم بسبب إصابته بالحروق من الأطباء معالجة القائد، أحضر الفدائيون الحاكم البيزنطي الذي قام العفاريت بأسره فوق جدران القلعة صباحا.

فاضل بك الذي ينظر إلى الحاكم البيزنطي الأسير، سأل قائد العفاريت لماذا أُسر الحاكم البيزنطي؟ انحنى قائد العفاريت إلى الأمام وبعد أن ألقى التحية على فاضل بك، قال:

يا سيدي لقد أُلقي القبض عليه وهو يأمر الحراس بصب براميل الزيت المغلى. جريمته ثابتة عليه.

فاضل بك لم يجد ما يقوله لفترة، وبعد فترة قصيرة من الصمت، قال:

الأسير أسيركم، ليتم إحضار بقية الأسرى إلى جواره، لم يبق لنا شيء معه. استدعى إلى جواره أحد المسنين الذين أحضرهم المشاة إلى الميدان، وطلب منه أن يذهب به إلى حيث يوجد راهب الكنيسة.

كان رجال فاضل بك الذي ترجل عن حصانه يسيرون من خلفه أثناء سيره خلف الرجل الطاعن في السن. أما راهب الكنيسة الذي شاهد الجمع الذي وصل إلى كنيسة قلعة مجالجالا، وهو ينظر مندهشا إلى عمامة فاضل بك، فألقى عليه فاضل بك التحية عبر الإشارة برأسه، استدار نحو مترجمه الموجود خلفه، وقال:

قل لقداسة الأب أنه لا يوجد ما يدعو لقلقه وخوفه. لأنه لن يتغير أي شيء في القلعة. سيؤدي كل شخص عبادته وطقوسه الدينية بالشكل الذي يعتقده على النحو الذي يريده. الآن رجالي يجمعون شعب القلعة في الميدان الكبير. سنذهب نحن مع قداسة الراهب معًا إلى هناك. وسنقول لأهالي القلعة

الموجودين هناك بأنه لا يوجد ما يدعوهم للخوف والقلق. وليعلموا أن القلعة من الآن صارت إحدى القلاع التابعة لإمارة آل عثمان، وأرجو ألا ينسوا أنهم صاروا تحت حماية الإمارة العثمانية.

بعدما قام المترجم بترجمة ما قاله إلى الراهب، عادت الحيوية إلى وجه الراهب الشاحب من جديد. انحنى قليلا إلى الأمام محييا فاضل بك. وأثناء سيره من خلفه نحو الباب قال:

سأفعل كل ما تطلبونه باسم الرب، ولكن أرجو ألا يعاني أحد الآلام.

لما قام إسكندر بك الذي يقوم بالترجمة، بترجمة ما قاله الراهب لفاضل بك، فإن فاضل بك الذي ابتسم بسمة بسيطة، قال باللغة الرومية:

نحن أيضا لا نريد أن يعاني أي شخص يا قداسة الأب...

ووصلا إلى الميدان دون يتحدثا في أي شيء آخر طوال الشارع القصير. فاضل بك الذي صعد بصحبة الراهب فوق الكمر الموجود أعلى الباب الرئيسي، في البداية نظر إلى براميل الزيت المغلي الموجودة أعلى الباب، ثم توجه إلى الموجودين في الميدان، قائلا:

أهالي مجانجالا... اليوم فتحت قوات الإمارة العثمانية قلعتكم. من الآن أنتم وقلعتكم تحت حماية الإمارة العثمانية. لن يتم معاقبة أي شخص، إلا من قاموا برمينا بالسهام، أو رفعوا في وجهنا السيوف. إذا وُجد واحد منهم ويقوم من تلقاء نفسه بتسليم نفسه لقواتنا سوف يلقى معاملة الأسرى. إن لم يقم بتسليم نفسه سيتم حينئذ معاقبته بأشد العقاب. إن كان هناك من يعرفون هؤلاء ولم يخبرونا بهم سيكون عقابهم أشد وأنكى.

نظر إسكندر بك أولا إلى الراهب، وبعد ذلك قام بترجمة ما قاله فاضل بك إلى الموجودين في الميدان. فاضل بك الذي رآه قد فرغ من حديثه، قال وهو ينظر إلى الراهب:

قداسة الأب، إن العثمانيين لم يغيروا أي نظام أي شخص موجود داخل أي من القلاع التي استولوا عليها حتى الآن. وسيطبق هذا على مجانجالا كذلك. أي أنكم ستواصلون حياتكم غدا بالشكل الذي كنتم عليه بالأمس، يكفي أن تقوموا بالتعاون معنا فحسب، وأن تقبلوا من الآن بحكم أورخان غازي العثماني، وأن تدعو في احتفالاتكم وصلواتكم بالنصر للعثمانيين. إذا كان هناك من يرغبون في الهجرة من القلعة رغم كل هذا، سوف نساعدهم في الوصول بأمان إلى الأماكن التي يريدون الذهاب إليها. وإذا كان هناك من يرغب في الانتقال إلى الأناضول، سيقوم قائدنا العادل أورخان غازي بمنحهم هناك الأراضي التي تكفيهم لمواصلة حياتهم التي كانوا يعيشونها هنا. من الآن ستدفعون الضرائب مرة واحدة في السنة لإمارة آل عثمان. وستتحدثون في كل هذا بالتفصيل مع مديري الأمن التابعين لنا الذين سيتم تعيينهم في قلعتكم.

الراهب الذي لا يصدق ما حدث، وهو يستمع إلى ترجمة ما قاله فاضل بك، حدث نفسه قائلا: " هل ما ورد في الخطاب الذي أرسله راهب قلعة جاليبولي صحيح؟"، وبينما يحاول التغلب على مخاوفه سأل إسكندر بك وهو ينظر نحو فاضل بك قائلا:

هل سيكون في مقدورنا إقامة طقوسنا وشعائرنا الدينية في قلعتنا كما كنا نفعل في الماضي؟

أما فاضل بك الذي فهم سؤاله، فأجابه وهو يبتسم باللغة الرومية التي يعرفها قائلا:

بالقطع من الآن فصاعدا سوف تمارسون طقوسكم وشعائركم الدينية في دور عبادتكم... إن جاء آخرون واستقروا في قلعتكم سيقومون هم الآخرون بممارسة عباداتهم في دور عباداتهم الخاصة بهم.

إسكندر بك الذي أعاد ما قيل ثانية، قال للراهب الذي مازال ينظر إليه باندهاش حتى الآن:

أيها الأب، لا يوجد شيء غير مفهوم فيما قاله سيدنا... من الآن سوف يستمر نظامكم على النحو الذي اعتدتم عليه آنفا. وسيأتي أيضا الجيران الجدد إلى قلعتكم.

عندما رأي فاضل بك إسكندر بك الذي أنهى كلامه ينظر إليه، استدار واتجه نحو المجتمعين في الميدان، وقال:

الآن عودوا إلى منازلكم واذهبوا إلى ممارسة أعمالكم.

شعب القلعة الذي استمع إلى ترجمة كلامه بعد أن ظلوا صامتين لفترة بدعوا في العودة إلى بيوتهم مثنى وفرادى. فاضل بك قال لإسكندر بك الموجود بجانبه:

أرسلوا المراسلين، ليخبر الرسل الذين ينتظرون في مقر القيادة قائدنا بأن قلعة مجانجالا أصبحت ضمن أراضي الإمارة العثمانية.

أثناء خروج المراسلين إلى الطريق، فإن فاضل بك الذي جف حلقه من كثرة الكلام، في الوقت الذي كان يرتشف فيه الماء الذي أحضروه له، جاء كبير الرسل الذي لم يفارق مقر القيادة طوال هذه الفترة بسرعة الريح إلى جانب فاضل بك. إن كبير الرسل الذي قال أثناء إعطاء فاضل بك القدح الفضي الموجود في يده لخادمه، توجد رسالة من أورخان غازي يا سيدي، أخرج الرسالة من بين حزامه وأعطاها لفاضل بك.

فتح فاضل بك طيات الرسالة الموجودة داخل المظروف المغلف بشمع العسل بسرعة. ولما قرأ الرسالة القصيرة المكتوبة في نفس واحد، حدث نفسه قائلا: " إذا أوقف تقدمنا الحالي في تراقيا كان يجب عليهم عدم القيام بهذا. إن فعلوا ذلك ظنا منهم بأن ذلك في مصلحة تراقيا ربما سوف يدركون فيما بعد بأنهم ارتكبوا أكبر الجرائم في حقها" وهو يعطي الرسالة لإسكندر بك...

(٤٦)

الإمبراطور المعزول يوحنا كنتاكوزين السادس الذي أجل سفره إلى روما لعدة مرات بسبب سوء الأحوال الجوية، كان يقضي معظم وقته طوال فترة إقامته التي قضاها في قصر ابنه مانويل كنتاكوزين مستبد المورة الصغير الموجود في مسترا طوال فصل الشتاء مع أحفاده، وكان يحكي لهم عن بللوبون وبيزنطة، ولكنه ولسبب غير معلوم، لم يكن يحكي لهم أي شيء عن كل من أثينا واليونانيين على حد سواء. الإمبراطور المعزول الذي أمضى طوال فصل الشتاء في قصر ابنه وفي كنيسة أسترا، بمجرد أن ارتفعت درجات حرارة الجو قرر أن يترك زوجته إيرينا بجوار ابنه وعندما خرج للسفر كان صبره قد نفد. ولذا قال لرجاله إنه لن تُمنح فترة طويلة للاستراحة على أراضي بللوبون التي يطلق عليها أراضي مِسّينه. أما الحراس والخدم وقائدو العربات الذين قطعوا الطريق لعدة أيام فلم يحصلوا خلالها إلا على بعض فترات الاستراحة القصيرة، فكانوا منهكين للغاية عندما وصلوا إلى ميناء بيلوس الرائع. ولو كان الإمبراطور المعزول تركهم ربما كانوا سينامون لأسابيع دون أن يستيقظوا. ولكن كنتاكوزين السادس الذي نام في عربته الإمبراطورية بما فيه الكفاية، قال لهم إنهم يمكنهم التخلص من إرهاقهم على السفينة، وطلب منهم البحث في الميناء عن إحدى السفن التي يمكن أن تذهب إلى روما فورا.

قائد حرس الإمبراطور المعزول المخلص واثنان من رجاله بدعوا في البحث على الفور. وخلال فترة وجيزة التقوا مع قبطان إحدى سفن الشحن الكبيرة التابعة لأهالي جنوة من أجل الذهاب إلى روما واتفقوا معه وعادوا. الإمبراطور المخلوع يوحنا كنتاكوزين السادس الذي أقام في قلعة بيلوس حتى اليوم الذي ستبحر فيه السفينة، عندما ركب سفينة أهالي جنوة الشراعية التي تقف مثل أحد الأحواض المستديرة على سطح البحر وقف مندهشا أمام كبر حجم السفينة الشراعية. عندما دخل إلى القُمرة الواسعة المخصصة له، حدث نفسه قائلا، " إن أهالي جنوة كانوا يخافون من الإبحار بهذه السفن الكبيرة إلى هذه الدرجة في بحر الجزر". أمضى فترة من الوقت في قمرته عندما صعد إلى سطح السفينة، وبعدما رأى أن السفينة قد ابتعدت كثيرا جدا عن الميناء، لم يكن بوسعه إلا أن يقول "هذه المسافة في فترة قصيرة" وفي الوقت الذي كان قد استمع فيه الصيحات التي أطلقها المُجَدِّفُون الموجودون في الأدوار السفلى، والذين لم يتمكنوا من رؤيته أثناء قيامهم بعملية التجديف، لاحظ ابتعادهم جدا عن الشاطئ، وبأن ميناء بلليوس لم يعد في مرمى البصر. وبينما ينظر إلى الشاطئ الذي يبتعد شيئا فشيئا، وإلى المياه الزرقاء الصافية للبحر الذي يبدو وكأنه سيبتلع السفينة شيئا فشيئا، ويتذكر مياه البسفور المُزْبِدة بين حين وآخر، والتي تشاهد من نافذة قصره الموجود في القسطنطينية، قال: "ربما أن هذه المياه كانت قد انطلقت في رحلتها من البسفور في اليوم الذي غادرت فيه القسطنطينية". وهو يحاول استحضار صورة قسطنطينيته التي لم يستطع إخراجها من عقله ولو ليوم واحد منذ شهور أمام ناظريه، شعر برعدة قوية بسبب برودة الريح الخفيفة التي تداعب

وجهه. تجولت الرعشة على جسده وعندما بدأت تأخذ طريقها إلى أعماق جسده، ترك التفكير في القسطنطينية، ونظر إلى الشاطئ الذي يبتعد شيئا فشيئا. وتملكته الدهشة لافتقار الشواطئ التي بدأت لوجود الأشجار، تلك الشواطئ التي بدأت مع الانتهاء المفاجئ لسلاسل الجبال. وبينما ينظر بنظراته الحائرة تلك إلى مجموعات الأشجار الخضراء الموجودة على قمم الجبال التي ترى بالعين المجردة بصعوبة، حدث نفسه قائلا: " تقف وكأنها مستاءة من بعضها بعضا". بعد أن أخذ نفسا عميقا لعدة مرات، حدث نفسه قائلا: " هذه الشوطئ لا تشبه شواطئ إيجه، كما أن هذه الأشجار هي الأخرى لا تشبه الأشجار التي شاهدتها أثناء الذهاب إلى أنتيجون... كما أن أراضي الأماكن القاحلة الموجودة على أراضي مسِينا التي مررت بها أثناء المجيء من ماستيرا ليست مثل الأراضي الخصبة الموجودة هناك. وكأنها ليست أراضي، وكأنها حجارة نُثر عليها الرماد الأحمر". وبينما يضحك على هذا التشبيه الذي قام به دون التفكير فيه مليا، قال: "هل من أجل هذه الأراضي التي لا تشبه الأراضي والتي لا تنبت أية أشجار مثمرة غير أشجار التوت، أثار اليونانيون هذه الضجة الكبيرة جدا مع الإسبرطيين؟ إن أهالي مدن مارغا ومانتينيا وآرغوس الأبرياء لقوا حتفهم من أجل مكان قفر. هذا الأراضي التي جعلتهم يضحون بهذا القدر من الدماء مازالت في مكانها، ولكن لا يوجد بريكلس الذي قضى عليه الوباء، ولا أي قائد آخر. والآن نحن أيضا نبحث عن سبل كيفية مواجهة العثمانيين، دون أن نضع في الحسبان ما الذي سيجلبه لنا أو ما الذي سيذهب بنا إليه الدهر.". بدت علامات الارتياح على وجهه، وكأن إحدى الأفكار قد اكتملت في ذهنه. لما ذهب بنظراته مرة

أخرى إلى الشواطئ التي تبتعد شيئا فشيئا، بدا وكأن الحياة كانت تبتعد ليس بهم فحسب، بل بالشواطئ كذلك، بتباعد سفينتهم الشراعية والشواطئ. أحس بضعفه الشديد أمام تلك الحياة المتباعدة. وبينما يجول بناظريه من أجل الاحتماء أو اللجوء إلى بعض الأشياء، نظر إلى الحارس المناوب شبه المدرع الموجود بجانبه. استدار وبينما ينظر إلى المياه الزرقاء الصافية مرة أخرى، خطر بباله زوجته إيرينا التي يقول لها " يا إمبراطورتي الحقيقية ". وكان قد تركها في ميسترا، هي وكل حريمه، وكل ثروته تقريبا. لما فكر في الحديث إلى ابنه الذي ترك زوجته إلى جواره لفترة عن ثروة الإمبراطورية، شعر بضيق صدره. ومع حالة الضيق تلك اقشعرت شعيرات لحيته الطويلة، التي تقف وكأنها الشَذَر الذي يغطي وجهه المستدير. عمت حالة من الدفء جسده الذي شعر بالبرد قبل قليل. فتح أزرة البالطو الذي يرتديه. أدار وجهه نحو النسيم اللطيف الذي يأتي من جهة الأمام. وبينما يعطي لحيته للريح، حتى يداعبها النسيم اللطيف كما يحلو له، وبينما يريد التخلص من حالة الضيق التي يشعر بها، تحدث قائلا: "يا إلهي هل الحياة تجعل الإنسان وحيدا إلى هذه الدرجة؟" حدث شيء لا يمكن تصديقه. شعر بالاشتياق الشديد لأراضي المورة، التي تحدث عن كراهيته لها قبل قليل. بينما ينظر بشغف وحب إلى الشواطئ التي تقف وكأنها أحد الحدود الذي لا يمكن الوصول إليها. قال: "آه! لو كانت قدماي تستطيعان أن تقفا على سطح هذه الأراضي". وهو ينظر إلى الشواطئ باشتياق، بدأت الإمبراطورة الأم آنا التي لا يستطيع أن يعرف من أين أتت في التجول بخطوات هادئة في خياله. تجولها لم يكن شيئا مهما، ولكن إطلاقها الضحكات وهي تسير، بعد أن

كررت على مسامعه قائلة: " ما زال يعتقد بأنه إمبراطور حتى الآن، تذهب إلى روما ممثلا للإمبراطورية. وعلى الأرجح ستذهب من هناك إلى أفيجنون. تعتقد بأنهم سيردون الجميل إلى بيزنطة. لكن دَيْنُك كبير أيضا قدر جرمك. مهما تفعل لن نستطيع أن تنقص منهما أي شيء". وأطلقت الضحكات بعد أن كررت عدة مرات قائلة، "لو تعلم إلى أي مدى سعادة القسطنطينية بعد خلاصها منك، عليك أن تتنحي جانبا حتى لا تعكر عليهم صفو سعادتهم." ويحرك كنتاكوزين السادس يده للخلف، بعدما ردد قائلا: "إذهبي أيتها الأنا! جرمي ليس أكبر من جرمك! إن من عليه التنحي جانبا هو أنت، وعليك كذلك الخروج من حياة ابنك، حتى نخلص بيزنطتنا وأنفسنا منك" ثم سأله الحارس المناوب شبه المدرع الذي يقف بجانبه، قائلا له:

يا صاحب العظمة هل ترغبون في شيء؟

أفاق الإمبراطور المخلوع كنتاكوزين السادس لنفسه وسمع ما قاله الحارس، ثم قال هو ينظر إليه مبتسما:

سيكون من الأفضل إن توصلت إلى قراري دون أن أشعر بالبرد، وذهب نحو باب قُمْرَتِهِ. وكان قد تم إعطاؤه أوسع غرف السفينة الشراعية التي تتقدم على الماء الأزرق كأحد الأحواض. وكان يقيم في الغرف المجاورة كذلك خدمه وحراسه وبعض رجالاته المخلصين الذين لم يتخلوا عنه. يوحنا كنتاكوزين الذي دخل إلى غرفته الواسعة، جلس على الكرسي الذي هو على شكل الأريكة المثبتة في أرض السفينة لفترة، كان يريد التفكير، ولكنه لم يكد يجلس على الكرسي حتى شعر بأن السرير الواسع الموجود أمامه يناديه. نظر إلى الحذاء الموجود في قدميه. أراد النداء على

الحارس ولكنه تراجع عن ذلك. نهض وتمدد على الفراش دون أن يخلع حذاءه. بمجرد أن تمدد على الفراش أحس بألم مفاصله. وما إن بدأ في التفكير في هذا الألم، حتى شعر بأن الألم يزداد شيئا فشيئا. أما كنتاكوزين الذي يخاف من زيادة الألم، وكأنه يشعر بأن الخوف من الموت يتملكه، فقد خرج أمام غرفته، وكأنه قد انطلق من فراشه. لما رأى الحارس الذي يقف أمام بابه انفرجت أساريره قليلا. ولكنه عاد أدراجه ناسيا ما حدث. الحارس الذي لم يأبه كثيرا بخروجه أمام الباب، وإلقائه نظرة على الممر ومعاودة أدراجه إلى غرفته، رفع الحربة الموجودة في يده مرة أو مرتين. انتظر قليلا. ساوره نوع من الشك. وقرر أن ينظر إلى الداخل من خلال النافذة المستديرة الموجودة في باب الغرفة. ولما اقترب من الباب تراجع قائلا: "طيلة حياتي لم أنظر من نافذتي، ولا أنظر كذلك إلى نافذة أي شخص آخر.". قال وهو يستدير بوجهه نحو الشـــاطئ " لو كان هناك ما يؤرقه أو كان يريد شيئا لكان قد أخبرني بذلك" وكما يفعل في كل وقت أمسك حربته وبدأ في الانتظار في مكان حراسته من جديد. لما ضعفت بدرجة كبيرة مقاومة جسد كنتاكوزين الذي عاد إلى غرفته لارتفاع درجة حرارته تدريجيا، بينما يتردد فيما يمكن أن يفعله، تفتق ذهنه في سحب اللحاف على جسده فقط. دار في عقله الخوف من أنه إن أغمض عينيه فلن يفتحها ثانية. وبدأ ينظر إلى السقف دون أن يغمض عينيه، ولكن بعض الأيدي غير المرئية قد أحضرت إحدى المرايا العملاقة وكانت قد ألصقتها فوق سريرة مباشرة، وكأنها كانت تنتظر نظرة إلى السقف. في البداية كانت تظهر صورته في المرآة، وبعد ذلك صورة صهره يوحنا باليولوج الخامس. كما كان ينظر إلى

صورة يوحنا باليولوج الموجودة في المرآة كانت صورة باليولوج الموجودة في المرآة تنظر إليه كذلك. نظرا لبعضهما لفترة. وفي الوقت الذي فتح فيه صهره باليولوج فمه من أجل قول شيء ما، رأى أورخان غازي الذي يقف أمام صورته مباشرة. كان يقف خلف أروخان غازي الذي يحك مارن أنفه بظهر يده كل أفراد عائلة كنتاكوزين فيما عدا ابنته تيودورا التي يطلق عليها " ابنتي العاقلة". وهو يحرك شفتيه اللتين جفتا بسبب ارتفاع حرارته سأل أورخان غازي قائلا: "أين ابنتي تيودورا؟". لما استمر أورخان غازي في حك مارن أنفه، قال كنتاكوزين بصوت يملؤه الشوق والحنين" يا ابنتي العاقلة! يا تيودورا ترى هل أستطيع أن أراك مرة أخرى قبل أن أموت؟ خطواتها المتهادية تلك لا تفارق خيالي قط"، بعد أن قال ذلك ابتسم وقال:،"هل صحيح أن نيلوفر خاتون تغار من جمالك؟ إن كان هذا صحيحا فلا تندهشي يا ابنتي الجميلة، لأن كل امرأة تغار ممن هي أجمل منها. ربما إن رجعت إلى القسطنطينية هذه المرة سوف آتي إلى بورصه كي أراك. يا ليت أورخان كان قد أحضرك إلى نيكايا...". دون أن يستطيع الحديث أكثر من ذلك، شعر بعدم إحساسه بجميع أعضاء جسده فيما عدا عقله وعينيه. وبينما يحاول التشبث بالحياة بنظراته، شاهد هذه المرة عربته الملكية في المرآة. والتي كانت يجرها ستة جياد. ولم يكن موجودا لا الحرس الأمامي الموجود أمام عربته ولا قادتهم. كما كانت ملابس قائد العربة التي لا تليق بمقام الإمبراطورية رثة ومهلهلة كذلك. وهو ينظر إلى العربة وقائدها اللذين يدللان على الفقر، حدث نفسه قائلا: " لا يمكن أن أذهب لزيارة البابا بهذه العربة". في هذه المرة ظهر له الوجه المشرق للبابا بهيئته الخاصة في

المرآة، وكأنه كان ينتظر منه أن يقول مثل هذا الكلام. البابا الذي ينظر إلى كنتاكوزين الذي يجلس في عربته غير اللائقة، تحدث بصوت فظ لا يتناسب مع تقدمه في السن قط قائلا " أهلا برئيس الوزراء يوحنا كنتاكوزين الذي يعارض فكرة توحيد كنائس أندرونيكوس!". نزل كنتاكوزين من عربته يتملكه الخجل. وقف أمام البابا وقال وهو ينظر إلى أعمال الفسيفساء الموجودة في السقف " نعم قداسة البابا. أرجوكم أن تسامحوني على الأخطاء التي ارتكبتها في تلك الآونة". البابا الذي يدقق النظر إلى وجه وعيني كنتاكوزين قال: "غفراني لك لن يفيدك. ليغفر لك الرب يا ولدي." بعد أن نظر بعينيه المتلألئتين تلك إلى داخل عينى كنتاكوزين مرة أخرى سأله قائلا: " إني أسمعك. قل ما الذي يمكن أن نفعله من أجلك؟" وسرعان ما قال كنتاكوزين السادس " ليس من أجلي يا قداسة البابا بل من أجل بيزنطة، نطلب مساعدتكم من أجل القسطنطينية. وفي مقابل مساعدتكم، سأبذل أنا وشريك عرشي يوحنا باليولوج الخامس ابن أندرونيكوس كل ما نملك من جهد من أجل توحيد الكنائس." اتكأ طيف البابا الذي يبتسم بشفتيه على عصاه المقدسة. ثم تفوه هذه المرة بصوت وجل متأثرا بشيخوخته، قائلا: "كنا ننتظر منذ سنوات هذه اللحظة يا ولدي العزيز. ستهتز الفاتيكان لهذه البشرى التي قدمتها. لا ندري ماذا سيكون رأي الموجودين في أفيجنون في هذا الأمر، ولكن لتعلموا، أن الفاتيكان معكم قلبا وقالبا. ولتعلموا أن كل الكاثوليك، والأرثونكس لن ينسوا لقرون معروفكم هذا. ابني العزيز! الآن اذهب واخلد للراحة. سنقوم بإعداد الرسائل التي سنكتبها للملوك والأمراء ونعلمك بهذا. تطهر أنت، وبعد أن تنعم بالراحة والطمأنينة، نرسل الرسائل إلى الملوك والأمراء.". بدأت أهداب

عينى كنتاكوزين السادس الذي تملكته الحرارة المرتفعة على هذا النحو، وتصبب عرقا في فترة قصيرة، وسمع صوت البابا الهادئ المطمئن وبدأت عيناه تغمض شيئا فشيئا. ولم يكد ينتبه لصوت رجاله حتى نظر إلى السقف، وعندما لم يشاهد وجود مرآة أو شبه ذلك قال: "الشكر للرب". و كانت أول كلمة جاءت إلى عقله وهو ينظر إلى ما حوله وكأنه قد خجل من صوته ثم صاح قائلا: "أيها الحارس".

(٤٧)

في الوقت الذي يحاول فيه الأمير سليمان والقادة المجتمعون داخل خيمة مقر القيادة أن يتحدثوا فيه لبعضهم بعضا بنظراتهم بسبب الجو الذي يشبه الثلج الموجود بالداخل، جلس سليمان باشا القرفصاء في المكان الذي يجلس فيه، وبسط ظهره وأسنده جيدا على المسند الموجود خلفه. لما شاهد أن الرجال الذين ينظرون لبعضهم بعضا ينتظرون حديثه بفارغ الصبر، أخذ نفسا ملأ به صدره بالهواء قبل أن يبدأ في الحديث كما يفعل في كل الأوقات. وما إن أطلق الهواء الذي حبسه في صدره حتى بدأ في الحديث بأرق نبرات صوته.

قادتي الأعزاء! نقوم بفتح وراء فتح على هذه الضفة من الدردنيل، ونستولي على القلاع البيزنطية الكبيرة منها والصغيرة واحدة تلو أخرى. ولكن، لم نفرض سيطرتنا بعد على البحار. وفقًا لآخر الأخبار التي حصلنا عليها فإن والدي أطال الله عمره، قد خرج بجيشه من أنتيجون إلى القسطنطينية. إن عجز الإمبراطور البيزنطي أغضب والدي أشد الغضب، وكأنه هو الذي خطف شقيقي خليل. تخيلوا أحد الأباطرة كلمته ليست نافذة على جنده الذين سلمهم سفنه. نظر إلى القادة وكأنه قد فرغ من حديثه.

قال الحاج إلباي وهو يبسط ظهره قليلا وهو جالس على ركبتيه في المكان الذي يجلس فيه:

أيها القادة، لقد شاركت مرة أو مرتين في الحروب البحرية مع الأسطول الصغير لإمارة قراسي من أجل فتح أراضي طرق وأوروم. وفي تلك الأثناء عرفت أن البحر ليس كالبر. لتعلموا، أن البحر والبر ليسا شيئا واحدا بالنسبة للإنسان. لأن التراب يملأ كل فراغ، أما الماء فيقوم بتفريغ الأماكن الممتلئة. ما أردت قوله هو، إن البر راسخ ورصين، فعندما يضع الإنسان قدمه على البر يكون قد وضع قدمه على المكان الرصين الثابت، ولكن إذا وضع قدمه على موضع خض مثل الماء فإنه لا يحتفظ بتوازنه. ولذلك فإنه علينا ألا نفكر مجرد التفكير في الانفتاح على البحر دون أن يكون لدينا جند مدربون يشعرون بأنهم أقوياء على سطح الماء مثل قراصنة فوتشه. الآن لا توجد لدينا القدرة على الانطلاق من هنا وتحرير خليل بك الموجود في قبضة قراصنة فوتشه. يجب ألا نصدق بأقوال الإمبراطور التي تقول إن فوتشه تابعة لبيزنطة، لأنه لا يوجد أي شخص يعرف في أي الجزر يخفي قراصنة فوتشه خليل بك. إن السبيل الوحيد لتحرير خليل بك الآن هو إعطاء قراصنة فوتشه الإتاوة التي يطلبونها. ولا أظن أن بيزنطة يمكن أن تدفع الاتاوة.

قال أفرانوس بك الذي أخذ الكلمة بعد أن أنهى حديثه:

الحاج إلباي على صواب. لقد بذل البزنطيون جهدا كثيرا من أجل التخلص من اليونانيين. أثناء صراعهم مع اليونانيين لم يعترضوا على اقتسام القراصنة السيطرة على بحر الجزر... إن قراصنة فوتشه في الوقت الراهن تعد كذلك أقوى مجموعات القراصنة بعد أهالي جنوة. ويعلمون جيدا أن

الإمبراطورية البيزنطية التي يجلس على عرشها إمبراطوران لن تسطيع أن تفعل لهم أي شيء. وسكت.

قال طوبال حسن بك أحد قادة ولاية يخشي مساعد الحاج إلباي، الذي انضم إلى مجلس القادة مؤخرا:

أيها القادة، إن تعريفكم ووصفكم للبحر، وكذلك ما قلتموه عن قراصنة فونشه صحيح تماما. ولكن ما علينا ألا نغفله، هو أن قراصنة فونشه ليسوا كأهالي جنوة ولا كأهالي البندقية. إنهم يعتقدون بأن كل شيء في البحر هو ملك لهم وبأن لهم الحق في السطو على كل ما هو موجود على الشواطئ. بخلاف دفع فدية كبيرة كما قال الحاج إلباي فلا يوجد أي مخرج آخر الآن. لأن قلعة فونشه ليست إحدى القلاع التي يمكن الهجوم عليها من البر. لقد حاصر اليونانيون وكذلك الإسبان هذه المنطقة مرات عديدة على مر الزمن، بيد أنهم لم يستطيعوا حتى الوصول إلى القلعة. لأنه بالإضافة إلى كون هذه القلعة شديدة التحصين فإن سفن القراصنة الكثيرة جدا تنطلق في البحر بسرعة الشيطان. وفقا لما يتردد فإن أومور بك أحكم الحصار على أهالي فونشه، وفي الوقت الذي كان يظن الجميع أن نهايتهم قد حانت تمكنوا من الفرار منه. كما أن جيرانهم آل آيدين يمكنهم فعل بعض الأشياء كذلك.

كان سليمان باشا يعيش حالة من الحيرة والانبهار لمعرفة بعض الأشياء الجديدة عن البحر، وعن أهالي فونشه وهو يستمع إلى القادة الذين هم أكثر منه تجربة وخبرة. رأى استعداد قوجه أقجه أوغلو المتحفز والملقب بفاتح بيتنيا، والمعروف باسم أقجه قوجه بك للحديث. وبينما ينتظر دوره في الحديث التقت نظراته بنظرات فاضل بك الذي ينظر بنظرات قلقة نحو الباب

باستمرار. وبينما يفكر في الشيء الذي يثير قلق فاضل بك سمع صوت أقجه قوجه أوغلو الأجش يقول:

وفقا لما سمعناه فإن الإمبراطور باليولوج الخامس مشغول الآن بأطماع صهره ماتيوس في عرش الإمبراطورية أكثر من اهتمامه بحياة الأمير خليل. أرى أن السبب الوحيد الذي يجعله لا يترك القسطنطينية ويذهب إلى فوتشه، هو خوفه من من استيلاء صهرة ماتيوس كنتاكوزين شريك العرش على القسطنطينية. وهو على حق في مخاوفه. إن القسطنطينية تغلى مثل إناء البرغل. عندما نصل بسرعة إلى شاطئ البحر الأسود، نكون قد قطعنا كل الطرق التي سيذهب منها ماتيوس كنتاكوزين إلى القسطنطينية. وهكذا يستطيع الإمبراطور الذي سيتنفس الصعداء الخروج من القسطنطينية.

أما سليمان باشا الذي كان ينظر بنظرات الإعجاب إلى كل من قوجه أقجه أوغلو والقادة كبار السن الذين انشغلوا بأمور الدولة لسنوات، فما لبث أن وجه حديثه إلى الحاج إلباي قائلا له:

أقجه قوجه أوغلو على حق. الإمبراطور لا يريد أن يُخلع من عرشه مرة ثانية. عندما يرى أنه تم القضاء على خطورة مانويل كنتاكوزين، سوف يلتقط أنفاسه في قلعة القراصنة. بيزنطة لا يوجد لديها القوة القوية على البر خارج القسطنطينية ولكن لديهم في البحار القوة الكبيرة...

قال أفرانوس بك بعد أن ابتسم ابتسامة ساخرة:

عندما أفضنا في الحديث عن خصوبة أراضي تراقيا، تحدثنا بكلمات أجمل من بعضها بعضا. أرى أن أفضل شيء هو قطع الطريق أمام ذهاب

ماتيوس كنتاكوزين شريك عرش الإمبراطورية إلى القسطنطينية كما قال أقجه قوجه أغلو.

طوبال حسن بك قال:

أنتم على صواب أيها القادة. في الوقت الذي نقطع الطريق أمام ماتيوس كنتاكوزين يقوم أورخان غازي بإرسال الإمبراطور بسرعة إلى فوتشه.

وبينما كان سليمان باشا ينصت بهدوء إلى كلمات القادة الذي قدموا آراء متقاربة في هذا الأمر من خلال كلمات بسيطة ومقتضبة، أحس بالإرهاق لأول مرة. نظر إلى وجوه القادة واحدا واحدا، ثم قال:

أيها القادة، لقد استطعنا أن نحافظ جيدا على القلاع التي استولينا عليها خلال فصلي الربيع والصيف حتى الآن. الآن علينا الاستعداد للشتاء، علينا أن نجمع كل قواتنا ونصل إلى شواطئ البحر الأسود من أجل قطع الطريق على ماتيوس ابن كنتاكوزين قبل حلول فصل الشتاء. غدا سيخرج فرسان أقجه قوجه أوغلو وحسن بك خلف الوحدات الهجومية باستمرار نحو الشمال وفاضل بك وبلابنجيق أوغلو نحو الشمال الشرقي وكذلك قوات أفرانوس بك وقادة جردا نحو الغرب. وكذلك وحدات فرساننا التي ستأتي من بورصه، سيتم إرسالها أيضا إلى هناك من أجل السيطرة على شمال أينوس. وبعد أن تفرض سيطرتها على المنطقة ستنضم إلى قوات أفرانوس بك. أنا والحاج إلباي سننطلق بقواتنا صوب أدرنه التي يوجد فيها ماتيوس كنتاكوزين الآن. سيدير رجال الأمن الذين أرسلهم يخشي بك مؤخرا من بورصه شئون القلاع التي تم الاستيلاء عليها أخيرا، فضلا عن بقية القلاع الأخرى التي تحت

سيطرتنا. كل ما آمله، أن يتم تسكين قوات أقجه قوجه أوغلو وحسن بك في القلاع البيزنطية الموجودة على شواطئ البحر الأسود، وكذلك القوات التابعة لفاضل بك في القلاع القريبة من القسطنطينية قبل حلول الشتاء. ونحن أيضا سنطوق أدرنه للحيلولة دون قيام ماتيوس بأي عمل مجنون. وإذا ما أُتيحت لنا إحدى الفرص المواتية سنقوم بمحاصرته داخل القلعة. وإذا ما استلزم الأمر سنطلب منكم الدعم والمساعدة. هيا على بركة الله ولتكن غزوتكم غزوة مباركة. ونهض واقفا على قدميه.

كان فاضل بك أقل القادة حديثا ذلك المساء، والذي يراقب باب الخيمة باستمرار في الوقت الذي لا يتحدث فيه، وفي الوقت الذي كان قد انتهى فيه أمله وهو ينهض واقفا قدميه مع الأمير، شاهد دخول كبير رسل سليمان باشا الذي دخل من باب الخيمة. ثم ابتسم عندما التقت عيناه بعينى كبير الرسل.

(٤٨)

بذل الإمبراطور الشاب يوحنا باليولوج الخامس، جهودا مضنية للحيلولة دون قيام أنصاره وأنصار حماه يوحنا كنتاكوزين السادس الذي يطلق عليه الإمبراطور الغاصب الموجودين في القسطنطينية بذبح بعضهم بعضا دون أية رحمة، كما فعل الزرق والخضر الذين عاشوا في فترة حكم جستنيان إمبراطور روما الشرقية. عندما نعمت القسطنطينية بالهدوء، كان قد علم باختطاف الأمير خليل أمير نيكوميديا ابن خالته أسبورجه خاتون الزوجة الثانية للقائد أورخان، من خلال الخطاب الذي وصله من أورخان غازي. الذي كان قد طلب منه في الخطاب الذي أرسله إليه أن يساعده في العثور على ابنه الأمير خليل وتحريره. ولكن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس لم يستطع الرد في الحال على خطاب أورخان غازي بسبب اشتعال نار الاضطرابات الداخلية الموجودة في القسطنطينية، وبسبب الشائعات التي تقول بتحرك صهره ماتيوس كنتاكوزين شريك عرش الإمبراطورية من أدرنه في طريقه إلى القسطنطينية. وفي الحقيقة أنه لو قام بالرد فإن تركه للقسطنطينية في مثل هذا الوقت وقيامه بالبحث عن الأمير خليل في البحر شرما شرما وخليجا خليجا كان دربا من المستحيل. ولكنه كان قد تحدث في رده الذي جاء متأخرا للغاية عن كل ما حدث، موضحا أنه كان من المستحيل ترك القسطنطينية في تلك الآونة وأنه كلف قائد الأسطول بالبحث عن الأمير خليل والعثور عليه فورا.

في الأيام التي وصل فيها هذا الخطاب الذي كتبه الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس حتى وإن كان متأخرا للغاية إلى أورخان غازي، فإن الأسطول البيزنطي الذي زار قلعة بيجاسي، كان قد انطلق إلى بحر الجزر، بعدما تيقن من أن الإسبان الذين استولوا على الجزيرة بشكل غير قانوني منذ سنوات ليسوا هم من اختطفوا الأمير العثماني. اجتازت سفن الأسطول الدردنيل، وقام بسؤال كل حكام الجزر الموجودة على شاطئ بحر الجزر المشتبه بهم، وبينما يقطع طريقه نحو الجنوب وهو يبحث في كل الجزر الموجودة في بحر الجزر الكبيرة منها والصغيرة واحدة واحدة، فإنه في وقت الظهيرة في أحد الأيام أُخبر قائد الأسطول بأن الرسل الذين جاءوا من فوتشه يرغبون في مقابلته بشأن موضوع الأمير خليل المختطف. وعلى الفور أمر قائد الأسطول بأن يأتوا بالرسل على سطح سفينة القيادة. قال المتحدث باسم الرسل الذين صعدوا على ظهر السفينة، بأن الأمير خليل موجود في فوتشه وبأن حكام فوتشه يطلبون فدية كبيرة مقابل إطلاق سراح الأمير خليل. قائد الأسطول الذي تملكه الغضب لضخامة الفدية المطلوبة، وبحالة الغضب تلك التي تسيطر عليه أمر قائد سفينة القيادة بتوجيه دفة السفينة نحو جزيرة فوتشه. وفي الوقت الذي لم يكن قد مر فيه وقت طويل على إعطاء القائد الأمر بتغير وجهة السفينة نحو فوتشه، حدث تمرد على سفينة المهاجع التي يوجد بها صفان من المجاديف، والتي تعد ثاني أكبر سفن الأسطول عندما علموا بالخبر. أما المتمردون الذين قالوا بأنهم أنصار ماتيوس كنتاكوزين، كانوا يقولون بأنهم لن يذهبوا للقضاء على قراصنة فوتشه. قائد الأسطول الذي حاول لفترة تهدئة البحارة والتصدي للتمرد، أمر بحرق السفينة ببحارتها

ومقاتليها، بعدما أدرك أنه لن يستطيع القضاء على التمرد. وما إن سمعت كل شاحنات وسفن الأسطول بأمره حتى أمطروا سفينة المهاجع بالنيران الرومية وسهام اللهب من كل الجهات. عندما قام المقاتلون الموجودون على متن سفينة المهاجع والذين أدركوا أنهم هالكون لا محالة بالرد على النيران والسهام التي تسقط عليهم كالمطر بنفس القوة، اشتعلت النيران في كل سفن الأسطول تقريبا. وبينما كانت تحاول السفن إخماد النيران التي اشتعلت على متنها في فترة وجيزة تزايد اشتعال الحريق في سفينة المهاجع. وفي فترة وجيزة انتشرت النيران في كل أجزاء السفينة. البحارة الذين بقوا وسط النيران أطلقوا آخر ما لديهم من سهام اللهب وبينما كانوا يغوصون والنيران ممسكة بهم إلى أعماق مياه البحر الباردة فإن مئات البحارة الموجودين على متن السفن الأخرى قاموا بالإمساك بهم واقتادوهم إلى متن السفن الأخرى. أرخيدوس قائد الأسطول الذي رأى غرق سفينة المهاجع وتضرر بقية سفن الأسطول من الحريق جثم على ركبيته، وهو ينظر إلى إمارة خالخيديكي التي تمتد أراضيها على الشواطئ المقابلة، وقال:

يا إلهي! لمَ كتبت عليَّ أن أتعرض لهذا الظلم؟ انظر هنالك! لقد قدمت ضحايا أكثر من تالوتياس الذي سافر إلى إمارة خاليديكي من أجل القضاء على التمرد الذي ظهر على متن أسطولي...

أرخيدوس قائد الأسطول الذي طنت أذناه لفترة، لم يستمع صيحات البحارة الذين يحاولون إطفاء النيران التي اندلعت في السفن نتيجة سهمام اللهب التي أطلقها المتمردون، كما لم يستمع كذلك لصوت الجلبة الذي أحدثه إلقاء الجثث التي أُلقي بها في مياه البحر. أفاق لنفسه بعد فترة طويلة، ولما

نهض على قدميه كان الدخان البسيط الذي مازال يتصاعد، من سفن الأسطول حتى ذلك الوقت، هو أول شيء رآه. ثم قال بصوت حزين لمساعده الذي ينظر إليه من خلفه:

حددوا مكان الحريق فورا. وقوموا بدعم السفن الذي يوجد لديها نقص في المُجَدِّفين، بالمُجَدِّفين الموجودين على متن سفينة القيادة. يتحتم علينا ألا نذهب إلى قلعة فوتشه بحالتنا التي نحن عليها الآن، يمكننا الذهاب بالأسطول إلى القسطنطينية فقط. هيا لا تتوانوا أعدوا العدة للعودة، وليعلم المخبرون السفن بأن تكون على أهبة الاستعداد، وتخبر كل القلاع التي سنمر بالقرب منها بأن الأمير العثماني موجود في قلعة فوتشه.

إن عودة الأسطول البيزنطي إلى القسطنطينية خالي الوفاض بعد التمرد الذي الذي ظهر على متنه، كان قد أحزن الإمبراطور البيزنطي حزنا شديدا. وقبل أن يتجاوز هذا الحزن والألم، عرف بخروج أورخان غازي الذي يدعي بأنه لم يساعده على النحو الأمثل من أجل العثور على ابنه غاضبا من بورصه، في طريقه إلى القسطنطينية. الإمبراطور الشاب الذي أدرك جيدا أن هذا القدوم لن يكون قدوم خير على الإطلاق، نسي كل أحزانه، وكذلك المشاكل الصحية التي يعاني منها ابنه الذي جاء إلى الدنيا مؤخرا، فضلا عن زوجته الإمبراطورة إيلينا التي يحبها جدا، وبدأ في البحث عن مخرج من أجل تهدئة غضب أورخان غازي. وبينما كان يبحث عن مخرج من أجل تهدئة غضبه من ناحية، فإنه من ناحية أخرى منع عبور كل أنواع السفن القادمة من المضايق سواء القادمة من بحر الجزر أو من بحر الموره، للحيلولة دون عبور أورخان غازي إلى القسطنطينية والاستيلاء

عليها. وأمر بسحب السفن الموجودة في المياه المفتوحة لموانئ أهالي جنوة من أجل تحميل أو تفريغ حمولاتها إلى الشروم الآمنة لخيلج خاريسوكراس. بعد أن اتخذ كل هذه التدابير بدأ في التفكير في كيفية إكمال مبلغ الفدية التي يطلبها قراصنة فوتشه. أخذ كل ما تركه كنتاكوزين السادس في خزانته، والتي أخذها لنفسه، ولكن كل ذلك لم يكن ليكفي لسداد الفدية التي يطلبها قراصنة فوتشه، ولا حتى نصفها.

أما أورخان غازي الذي لم يكن لديه علم بهذه الأشياء، فقد جاء في البداية إلى نيكوميديا برفقة قوات الفرسان الموجودة تحت قيادته بالإضافة إلى قوات المشاة التي يقودها يخشي بك، وبعد ذلك انطلق نحو القسطنطينية. وقبل التحرك من نيكوميديا كان قد أرسل أيضا الحاكم البيزنطي للقلعة التي يطلق عليها أحيانا أنتيجون وأحيانا أخرى نيكايا والتي يطلق عليها التركمان الذين استقروا فيها بعد الفتح اسم ازنيك برفقة قاضيه كرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يوحنا باليولوج الخامس عن طريق البحر. وفي منتصف ليل اليوم الذي وصل فيه رسولاه إلى القسطنطينية بواسطة سفينة أهالي جنوة ذات الأربعين جدًافا، وصل أورخان غازي وطلائع فرسانه إلى خاليكيدون الموجودة على الشواطئ المقابلة للقسطنطينية.

في الصباح جاء أورخان غازي إلى خاليكيدون، وأمر بنصب خيمته، وفي الوقت الذي خلد فيه للراحة كان الإمبراطور الشاب يلتقي الرسولين. وبينما جعل الحراس الخمسة المرافقين لهما ينتظرون في باحة القصر، كان قد تم اصطحاب حاكم نيكايا البيزنطي وقاضي أورخان غازي للاجتماع بالإمبراطور. وكان الحاكم البيزنطي الذي يتحدث لغة كل منهما هو رئيس

الرسولين. عندما وصلا إلى الاجتماع وخلافا للمعتاد قام بتقديم الرسالة شديدة اللهجة التي أرسلها أورخان غازي قبل تقديمه الهدايا التي سيقدمها إلى رئيس الوزراء أليكسيوس أبوكافوس الذي يقف بجوار الإمبراطور مباشرة. أخذ أبوكافوس الرسالة وقام بفتحها ووضعها على الطاولة الموجودة أمام الإمبراطور. كانت قد تزايدت علامات الاضطراب والضيق الموجود على وجه الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس، الذي يجلس على مقعده الذي يشبه كرسي العرش الموجود خلف منضدة العمل، وهو يقرأ بروية الرسالة المكتوبة بلغته. أما حاكم قلعة نيكايا الذي مل من صمته وعدم حديثه بأي شيء قط على هذا النحو، قال:

يا صاحب العظمة، إن أمنية أورخان غازي هو تحرير الأمير خليل قبل أن يصاب بمكروه. يجب تفهم الحال التي عليها أي أب عندما يتم اختطاف ابنه، إذا عثرتم على الأمير خليل وتساعدون في عملية تحريره فإني أعتقد أنه سوف يتغلب على غضبه وسيعود إلى بورصه. ثم صمت.

بعد أن تحرك الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس إلى الخلف وإلى الأمام مرة أو مرتين على مقعده الذي يشبه كرسي العرش، بعد أن نظر إلى رئيس الوزراء وإلى البطريرك الذي لم يفارقه في كل المقابلات التي يقوم بها في تلك الأوقات تقريبا، نظر إلى كبير أساقفة آيا صوفيا الذي يعد صاحب أقوى كلمة مسموعة في القسطنطينية. بعد أن جال بنظراته التي لا تحمل أي معنى في داخل القاعة خرج عن صمته وقال بصوت هادئ:

أرى أن طلب عديلي زوج تيودورا شقيقة زوجتي وعمتي أسبورجه خاتون، وقائد العثمانيين الذي لا مثيل له أورخان غازي معقول. وأتفهم عدم

صبره وغضبه. إنه يفعل كما يفعل كل أب ويريد إنقاذ ابنه. أفعل كل ما أستطيع فعله من أجل إنقاذ ابن عمتي الأميرخليل ولكن لم أستطع إخبار أورخان غازي نظرا لعدم تمكننا من الوصول إلى نتيجة حتى الآن. لا جرم أنني أنا حزين جدا لعدم استطاعتي الوفاء بالعهد الذي قطعته وكأنني لم أوف بالعهد لوالدي كما يذكر في رسالته. لو لم تكن هذه الكارثة قد حلت بأسطولنا، ربما كان قد تم تحرير الأمير خليل من أيدي قراصنة فوتشه الآن. آه لو أستطيع تدبير مبلغ الفدية التي يطلبونها كنت سأذهب بنفسي وأخذ ابن عمتي من قلعة فوتشه وآتي به.

ولما سمع حاكم أزنيك البيزنطي كبير الرسولين جملة الإمبراطور الأخيرة، فكر وهو يبتسم قائلا "هو أحد الأخبار السارة التي سنزفها إلى أورخان غازي" لكن تجمدت بسمته على شفتيه عندما سمع قول الإمبراطور في جملته الأخيرة، "لو أستطيع تدبير مبلغ الفدية" ثم نظر إلى قاضي أزنيك وقال على استحياء:

لتقر عيوننا يا سيدي القاضي، إن الإمبراطور عرف بأن الأمير خليل موجود في فوتشه...

القاضي العجوز الذي تم تكليفه ليقوم بدور الرسول الذي يقوم به لأول مرة بعد أن ظل لفترة يفكر هل يسعد بما سمعه أم لا، قال وهو مسرور:

لا جرم أن أورخان غازي سيقوم بتحرير ابنه بعد معرفة القلعة التي يوجد بها. الإمبراطور الذي طلب ترجمة ما قاله، استغرق في التفكير قليلا بعدما سمع ترجمة ما قاله. قال وهو ينظر إلى رئيس الوزراء الذي يقف على الجانب الآخر:

أعلم أن أورخان غازي لو يعلم بمكانه سيذهب وسيقوم بتحرير ابنه. بيد أن قراصنة فوتشه غير الآخرين تماما. ما إن يعرفوا بأنهم لن يستطيعوا الحصول على الفدية التي يريدونها سوف يأخذون الأمير خليل ويخفونه في إحدى القلاع الموجودة في بحر الجزر والتي لا يمكننا الوصول إليها. وإذا ما قمنا نحن أيضا بالهجوم عليهم، وحاصرناهم بالأسطول وقطعنا عليهم كل سبل الهروب حينئذ سيقتلون الأمير خليل. السبيل الوحيد لإنقاذه حيا هو أن ندفع لهم الفدية التي يطلبونها.

لما قام كبير الرسولين بترجمة ما قاله الإمبراطور إلى قاضي أزنيك اختفت آثار الابتسامة الموجودة على وجنتيه، وارتسمت على وجهه علامات الحزن العميق. رئيس الوزراء أليكسيوس الذي استمع إلى كل ما قيل حتى ذلك الوقت، بدأ في الحديث وكأن عقله قد توصل إلى شيء ما من أجل حل هذه المسألة، فقال:

يا سيدي، أرى أنه يجب إبلاغ أورخان غازي بحقيقة الوضع، والأفضل هو طلب المساعدة في كل الأحوال.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس، عندما نظر إلى الرسل بنظراته الواثقة التي تخفي خلفها النظرات التائهة التي لا تحمل أي أمل، قال حاكم نيكايا البيزنطي الذي أدرك عجزه وقلة حيلته:

يا صاحب العظمة، أشارك رئيس وزرائكم الرأي. وإذا ما أخبرتم أورخان غازي الذي سيعلم بأن ولده سليم معافى بحقيقة الوضع سيقوم بمساعدتكم في كل الأحوال.

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي داعبه الأمل من الكلمات التي قالها كبير الرسل:

سوف نشرح كل شيء في الرسالة التي سنكتبها لأورخان غازي. إن كان سيقدم لنا المساعدة سوف ننطلق فور الانتهاء من ترميم سفننا. وأن بيزنطتنا سنبقى ممتنة لأهالي أنيتجون مرة أخرى بسبب الجهد الذي ستبذلونه من أجل تقديم هذه المساعدة.

قال حاكم نيكايا البيزنطي الذي يبتسم ابتسامة خفيفة، قال وهو ينصت إلى الكلام الذي وضعهم في موقف صعب:

يا صاحب العظمة، إن أنتيجون هي إحدى القلاع التي تحقق سلامها بنفسها كل وقت. إن تكن لي مساهمة بسيطة لتحقيق سلام ما، بوجودي هنا، سأشعر بسعادة بالغة من هذا بصفتي ممثلا لشعب نيكايا. ما إن تفرغوا من كتابة رسالتكم سوف نأخذها ونذهب بها فورا إلى أورخان غازي الذي ينتظرنا في خاليكيدون، وأعتقد أنه ستستقيم كل الأمور بعد أن يسعد قلبه ويفرج همه...

قال الإمبراطور الذي لم يتخلص من كل القلق والهموم الموجودة بداخله على الرغم من كلمات الحاكم البيزنطي التي تبعث على التفاؤل، بعد أن صمت لبرهة بصوت رقيق للغاية:

اذهبا كي تستريحا حتى ننتهي من كتابة رسالتنا التي سنوضح فيها الوضع بشكل جيد لأورخان غازي، دون أن نجعلكم تنتظرون كثيرا.

بعدما ترك حاكم نكايا وقاضيها الاجتماع، فإن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي لخص الوضع باختصار ، قال بصوت حزين وهو ينظر إلى رئيس الوزراء وكبير أساقفة آيا صوفيا:

لقد فعلتم الكثير من الأشياء من أجل بيزنطتنا حتى اليوم. إمبراطوريتنا ممتنة لكما. والآن أريد منكما أن تفعلا شيئا آخر من أجل إمبراطوريتنا. من فضلكما اجلسا واكتبا الرسالة التي يفهم منها أورخان غازي أنه لا يوجد أي مخرج آخر أمامه سوى تقديم المساعدة لنا.

(٤٩)

جاء أقجه قوجه أوغلو إلى جانب فاضل بك مهمهما بسعادته الصبيانية تلك الموجودة في قلبه الذي لا يتلاءم مع جسده الضخم. في البداية فتح ذراعيه الطويلتين اللتين تشبهان أفرع إحدى الأشجارالضخمة على الجانبين، ثم احتضن جسد فاضل بك ربُع القامة. فاضل بك احتضنه هو الآخر بالقدر الذي يستطيع أن يلف ذراعيه حول جسده. وظلا على هذا النحو لفترة دون أن يتحدثا. وبينما ينظرالحاج إلباي إليهما وهو يبتسم، قال فاضل بك:

يا حاج إلباي، في الوقت الذي ربانا فيه الزمن على هذا النحو، جعل قلوبنا رقيقة مثل الورقة. في الماضي عند كل فراق كنا نفترق وكأننا كنا سنلتقي في المساء، لم يكن يخطر ببالنا عدم إمكانية عودتنا البتة. أما الآن فإننا نقوم بوداع بعضنا بعضا قبل الذهاب...

قال الحاج إلباي وهو يحك لحيته الصغيرة المستديرة:

هل تتذكر يا فاضل بك أيامنا قبل المجيء إلى بورصة. لا أدري هل تقصد بكلماتك هذه أن تتساءل عن كيفية مرور الزمن سريعا، أم تريد أن تقول بينما يتقدم بنا الزمن في العمر فإنه جعل مشاعرنا أكثر رهفا ورقة. ولكن ما عليك أن تعلمه، أنه قُدر لنا رؤية الكثير من الرجال الأبطال. لقد وارينا الثرى بأيدينا الكثير من قادتنا وكذلك المئات من أبطالنا. عندما نقول فترة طويلة من الزمن، فإننا رأينا وعايشنا وتقدم بنا العمر، وهل سئمنا كذلك

لأن شكل الزمن لم يتقدم به العمر قط. إن كان هناك من تقدم به العمر فهي قلوبنا نحن. في الماضي كنا نجتاز جبال تكفور، وعندما كنا نصل إلى وادي أوغراش، بينما كنا ننظر إلى الحصوات الحجرية البيضاء المستديرة الموجودة في قاع الجدول الذي نقصت مياهه في المكان الذي كنا نستريح فيه، تبادر إلى ذهني سؤال يقول: "هل نحن أيضا مثل هذه الحصوات الحجرية؟"، في البداية سألت نفسي قائلا: من أين أتى هذا السؤال. بعد ذلك كنت أنظر إلى الحصوات وبينما كنت أفكر قائلا، "مع مرور الزمن فإن هذه الحصوات الحجرية كانت قطعة من إحدى الصخرات الكبيرة التي كانت موجودة على إحدى قمم جبل تكفور. والذين شاهدوها وهي صخرة كبيرة على سيرتها الأولى كانوا لا يتخيلون أن تتفت الصخرة الكبيرة قط. جاء اليوم وتحرك التراب الذي كان موجودا تحت الصخرة وانحدرت نحو الهوة السحيقة. بدأت الصخرة الضخمة التي تحرك التراب من تحتها في التدحرج. وأثناء تدحرجها اصطدمت بالصخور الأخرى وتفتت إلى قطع. وبعد ذلك تفتتت هذه القطع إلى قطع أخرى وصارت قطعا أصغر. عندما صارت قطعا صغيرة على هذا النحو، بدأت مياه الأمطار التي هطلت في جرفها. الأحجار التي جرفتها المياه، تآكلت زواياها أثناء تقدمها وهي تصدم بعضها بعضا بسبب عدم رؤيتها لبعضها داخل المياه العكرة المتدفقة، تغيرت أشكالها وتحولت إلى الحصوات الحجرية مستديرة التي استدارت كل زواياها على هذا النحو. إن التقدم في العمر والنضوج والإحساس بمراحل الحياة هو شيء من هذا القبيل. في الحقيقة فإن الذهاب والعودة ليسا بالأمر الهين واليسير، بعد أن صمت لبرهة قال؛ وأنا أسرد هذه الأشياء، ورد إلى ذهني شيء ما.

كنت قد تحدثت إليكم بالأمس عن المراكب الشراعية والشاحنات البحرية التي تتبعها والتي شاهدتها وأنا أنظر من جنوش نحو بحر مرمرة الكبير. هذا الصباح حدثت سليمان باشا عنها أيضا. بعد أن استمع إليّ، قال " في الأغلب أن كلينا شاهد نفس الرؤيا ليلة أمس..." وصمت. عندما صمت أنا أيضا لم ألح عليه. ولكنه بعد فترة بدأ هو من تلقاء نفسه في الحديث.

وبعد أن مسح فاضل بك بيده مرة أو مرتين لحيته الصفراء القصيرة التي تقف وكأنها ملصوقة على ذقنه والتي تجعلها تبدو طويلة أيضا نظر لطول وجهه، وسأله قائلا:

ماذا قال؟...

في البداية الحديث مع إيجه بك، بعد ذلك يريد أن يشرح فكرته لأورخان غازي.

من وجهة نظري أن هذا هو الصواب. إيجه بك كان يعرف البحر. حيث اكتسب خبرة عن شئون الإبحار في غاليبولي. أنا على ثقة بأنه سيقدم المعلومات الصحيحة عن البحر للأمير، وسيوضح له ما يمكن أن يكون وكذلك الأشياء التي لا يمكن حدوثها. من أجل البداية فإن ميناء إيجه أباد هو الأفضل.

الحاج إلباي، دون أي مبرر عندما وجد أصدقاءه تعمهم درجة كبيرة من السعادة، دقق النظر في وجوههم. ثم قال:

لقد سررتم أنتم أيضا مثلي، ولكن علينا ألا ينسى القادة أن الدجاجات عديمة الصبر تبيض كل مرة بيضتين من أجل الرقود على البيض ليفقس بسرعة. ولكن عندما يحين وقت الفقس لا يخرج من أي من ذلك البيض الذي

باضه الدجاج اثنتين اثنتين أي كتكوت قط. علينا نحن كذلك ألا نرتكب هذا الخطأ الذي وقع فيه الدجاج. تعلمون أن أهالي قراسي فعلوا مثل هذا الشيء، قد نزلوا إلى البحر بمراكب صغيرة لا قيمة لها في مواجهة الغليونات والقوادس ولذلك كانوا لا يستطيعون تحقيق أية مكاسب من البحار. ونحن في ذلك الوقت كنا قد عرفنا أن البحر لا يحب المزاح وأن هذا هو المقصود من مقولة قلم بك " يجب أن يكون أخيلوس هو الوحيد الذي لا يعرف سر المزاح مع البحر".

قال فاضل بك بعد أن فكر فيما قاله في عقله لفترة:

يا حاج إلباي، لو لم يعرف سر أخيلوس، ترى من وجهة نظرك هل كان سيخرج من قلعة هيكتور.

لا أعلم!

من وجهة نظري أقول أنه كان لن يخرج. وحينئذ من المتعذر أن يكون أخيلوس بطلا أسطوريا على هذا النحو.

أفرانوس بك الذي انضم اليهم قبل فترة وجيزة، بينما يستمع إليهم تذكر أسطورة طروادة التي سمع عن حدوثها في عصر البطولة الأول. في البداية حاول أن يتذكر من أول من قص عليه هذه الأسطورة. إلا أنه تراجع عن إرهاق عقله بذلك لمرور ردح طويل من الزمن، وابتسم في وجه رفاقه. وعندما فرغ من بسمته قال بصوت هادئ:

أيها القادة، أنتم محقون في آرائكم وأفكاركم، ولكن من وجهة نظرى فلا معرفة باريس لسر أخيلوس ولا خروج هكتور في مواجهته كذلك هو من

جعل من أخيلوس أسطورة. أرى أن الذي جعل من أخيلوس أسطورة على هذا النحو هو أنه بعد مواجهته لأكبر طاغية في عصره ومخاطبته له قائلا "هل تحب زوجات أحد أبناء أتريوس؟ كل إنسان عاقل لديه مشاعر يحب زوجته ويحافظ عليها." وإن قدرته على الانصراف والذهاب وجلوسه في مواجهة بيراموس العجوز الذي قتل ابنه، وبكاءه وشدوه أنشودة الصوت بعد أن قال له " لينم وليهنأ وليترك الآلام في القلب".

قال الحاج إلباي وهو ينظر مبتسما إلى أفرانوس بك وهو شديد الانبهار من حكمته:

إن حكاية كل من أخيلوس وهكتور كانت في الماضي على الضفة المقابلة. والآن إن أردتم لنتحدث عما يمكن أن يفعله الشغوفون والمحبون لكل من أخيلوس وهكتور الموجودين على هذه الضفة.

وعلى الرغم من رغبة الحاج إلباي تغيير موضوع الحديث، فإن قريحة أفرانوس بك كانت شغوفة بالرغبة في الحديث عن أشياء متصلة بالماضي. قال بصوته الخفيض بعد أن نظر إلى الحاج إلباي وكأنه يقول له: " لا تحاول تغيير موضوع الحديث":

نعم نحن عشاق أخيلوس في هذه المنطقة، ولكن لم يأت في أي وقت إلى هذه الأراضى أبطال محبون لأخيلوس مثلنا. كما جاء كذلك محبو أخيلوس أصحاب القلوب التي تحمل الحقد والكراهية الذين طردوا أحفاد تراقيون من القلاع مثل اليونانيين والإسبان.

قال الحاج إلباي:

يا أفرانوس بك، لتقل بأن هذه الضفة مليئة بالحكايات والأساطير مثل الضفة الأخري للدردنيل. ولكن قبل الاستماع إلى بعض الأشياء الجديدة أريد أن أسأل سؤالا. لأننا جئنا من البراري والقفار فبينما يتوجب علينا التوافق والتماثل مع أخيلوس كيف يكون قلبنا معلقا بهكتور يا أفرانوس بك؟

رد أفرانوس بك وهو يبتسم قائلا:

إن مجيئنا من البراري وخوضنا لحروبنا بالعقل والحكمة يجعلنا متطابقين مع أخيللوس، وإن قلوبنا كذلك إلى جانب هكتور الذي قضى على قلعته تماما من خلال إحدى الحروب الظالمة.

هز الحاج إلباي، وهو يعض على شفتيه لاقتناعه بالجواب الذي حصل عليه، رأسه للأمام وللخلف مصدقا على ما قاله أفرانوس بك. وبينما ينظر كل منهما للآخر، فإن فاضل بك الذي يستعجل من أجل سماع بعض الأشياء الجديدة نظر إلى أفرانوس بك وقال:

نحن لم نصادف هكتور في أي من القلاع التي استولينا عليها حتى الآن. ولذا فلا أنا ولا أقجه قوجه أوغلو لم نستطع أن نشعر بأنفسنا وكأننا أخيلوس. الذي ستفهمونه بأن عملنا سهلا. حسن من هم هؤلاء اليونانيون والإسبان الذين سبقونا إلى هنا، والذين أخذوا أتباع هكتور وذهبوا بهم والذين سهلوا مهمتنا هنا؟

قال أفرانوس بك:

كان هناك من سبقوهم أيضا. لو أمعنت النظر ستجد آثار أقدام كل من الأخيوس والقوط والكمريون والهون وكذلك المقدونيون والفرس.

قال فاضل بك وهو ينظر بنظراته المفتونة إلى أفرانوس بك:

آمل أن نكون نحن آخر من تطأ أقدامهم هذه الأرض.

قال الحاج إلباي:

يا فاضل بك! لو تتذكر فإنني قبل قليل كنت قد قلت بأن الزمن هو من يحكمنا جميعا...

صمت الجميع لبرهة. ونظروا إلى الأمير سليمان باشا الذي يشاهد غروب الشمس وهو يسند ظهره على شجرة الدلب الضخمة الموجودة على بعد عدة مئات من الأمتار. ولم يستطيعوا أن يتوقعوا هل هو يفكر في شقيقه الأمير خليل أم أنه يفكر في فتح المناطق التي غربت عندها الشمس. قال أقجه قوجه أوغلو الذي شارك قليلا في الحوار الذي توقع ما يفكر فيه القادة:

أرى أنه يفكر في الأماكن الأخرى التي غربت عندها الشمس بقدر تفكيره في شقيقه الأمير خليل.

قال فاضل بك دون أن ينتظر الإجابة عن السؤال الذي سأله:

في الحقيقة أنا لم أكن يساورني أدنى شك في القراصنة. كنت أظن أنها لعبة وخدعة يقوم بها البيزنطيون بالاشتراك مع حكام إمارة القرامانيين. بيد أنني لم أكن على صواب.

الحاج إلباي:

في البداية اعتقدت بأنه حادث، ولكن بعد ذلك كنت أشك في أنها خدعة قام بها آل كنتاكوزين من أجل الوقيعة بين أورخان غازي وآل باليولوج.

أفرانوس بك:

أنا في البداية كنت قد قلت إن كانت بفعل فاعل فإن من ارتكبها سيكون من مقاتلي رودس أو من أهالي فوتشه. ولكن كان يساورني بعض الشك بأن إسبان بيجاسي يمكن أن يكونوا قد قاموا باختطافه. ولكن بعد تحديد مكانه فإن تحريره سيكون أمرا يسيرا... في الحقيقة فإن باليولوج الذي أصابه الرعب بدرجة كبيرة بسبب مجيء أورخان غازي إلى خالكيدون، انطلق دون أن ينتظر إصلاح كل سفنه المحترقة. حتى أن ماتيوس كنتاكوزين كان قد أرسل إلى أورخان غازي يخبره بأنه يمكنه تقديم المساعدة من أجل تحرير الأمير خليل سالما.

قال الحاج إلباي بعد أن نظر إلى اختفاء الشمس من الأفق:

ها هو قد حل مساء هذا اليوم. سننطلق مع الشفق. ليذهب كل منا إلى خيمته ولنقم بعمل بعض الاستعدادات لذلك. ولنلتق في الديوان بعد تناول طعام العشاء، وسار نحو خيمته التي تعد أكبر من كثير من بيوت قلعة بلاجار والتي يوجد بها حريمه.

إن قول الحاج إلباي لأفكاره دون اكتراث، كان سببا لهبوب ريح بارده داخل الآخرين. إن الذين تجرئوا بسبب مشيه وذهابه، ساروا هم الآخرون بهدوء نحو خيامهم. سليمان باشا الذي فسد حبل أفكاره مع غروب الشمس أدار رأسه وبنظرة هادئة نظر خلف القادة الذين يسيرون نحو خيامهم. وبينما ينظر وعلى نحو لم يفعله من قبل قط وقال بصوت يسمعونه، " نلتقي في الديوان". السادة الذين لم يسمعوا حتى هذا الوقت مثل هذه الصيحة قط، ولما

استمعوا إلى صيحة سليمان باشا وقفوا في مكانهم ثم استداروا وبدلا من أن يردوا عليه استمروا في طريقهم.

أما سليمان باشا الذي نهض على قدميه حينما كان السادة يقتربون من خيامهم، شاهد آخر حمرة موجودة في الأفق وقت الغروب وهي تمتزج بزرقة السماء. استدار ونظر نحو خيمته. وشعر باشتياقه لجسد جميلة الروم الذي هو أنعم من القطيفة، تلك الحسناء فارعة الطويل، طويلة الأصابع والتي تزداد جمالا يوما بعد يوم منذ أن أخذها من قلعة تشمبا وألحقها بخدمته. وبينما يسير بخطوات مسرعة نحو خيمته، حدث نفسه قائلا: " المرأة التي تجمع جمالها مع عقلها من يوم ليوم..." أمسك عن الكلمة الأخيرة التي تعد تتمة الجملة. وفي لحظة اختلطت الأفكار الموجودة في عقلة وخطواته المسرعة بعضها ببعض. ولكي يتغلب على النشوة والاشتياق الموجودين في قلبه، حدث نفسه قائلا: "هذا المساء سنناقش أمورا كثيرة في الديوان ولكن هذه المرة سأحتفظ بآخر ما سأقوله حتى نصل إلى المكان الذي سنفترق فيه غدا..." ولما وجد نفسه فجأة أمام باب خيمته، اندهش لمجيئه بسرعة لهذه الدرجة. وابتسم ونظر حوله، ولما أدرك أن أحدا لم يلحظ قدومه بسرعة شعر بالراحة ودخل خيمته. وعندما اتجه نحو جناح الحريم الموجود في خيمته اتجهت أقدامه نحو جميلة تراقيا التي هي من قلعة تشمبا.

(٥٠)

الرسل الذين ذهبوا إلى خالكيدون عادوا عند حلول المساء. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي ينتظرهم مع رئيس الوزراء أليكسيوس وراهب أيا صوفيا في قصر الحكم، قال بصوت متعب وحزين وخجول أنه علم بوصول الرسل. أما كل من حاكم نيكايا البيزنطي وقاضي نيكايا اللذين دخلا إلى قاعة عمل الإمبراطور فقد انحنيا معا وألقيا التحية على كل من الإمبراطور والموجودين بالداخل. وأما حاكم نيكايا البيزنطي الذي استدار بشكل بسيط نحو قائد حرس الإمبراطور الذي يقف خلفهم، فقال:

يا صاحب العظمة! إن أورخان غازي يشكركم لمعرفتكم الذين يوجد ابنه بأيديهم. وحزن كثيرا للحادث الذي تعرض له الأسطول البيزنطي العظيم الذي يسيطر على بحري إيجه والجزر. ولذلك السبب يرى أن الأسطول البيزنطي الذي يسيطر على البحار متهم هو الآخر بنفس درجة قراصنة فونشه الذين يختطفون ولده. إلا أنه يأمل أن يتم تجاوز هذا الوضع وتحرير ابنه وتسليمه له سالما في أقرب وقت.

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس وهو شغوف لمعرفة ما الذي سينتهي إليه حديثه:

سنفعل كل ما بوسعنا حتى لا يخيب رجاؤه.

ولما أدرك حاكم نيكايا البيزنطي الذي توقف عن الحديث ليستمع لما يقوله الإمبراطور، أن الإمبراطور قد فرغ من كلامه استمر في حديثه من حيث توقف قائلا:

يا صاحب العظمة! إن أورخان غازي أراد أن يخبركم بأنه وضع في الاعتبار وضعكم الذي أوضحتموه في رسالتكم، ومن أجل مساعدتكم سيقوم بدفع نصف الفدية المطلوبة من خزانته، وبأنه قبل مقترحكم لاجتماع الهيئات العثمانية والبيزنطية من أجل إعادة صياغة الاتفاقيات الموجودة بين الجانبين بعد تسليم الأمير خليل. ولكن يجب عليكم التحرك نحو فوتشه قبل شروق شمس الغد من أجل إنقاذ الأمير خليل فورا.

كان الإمبراطور وهو يحاول جاهدا التخلص من حالة الحزن التي كانت تسيطر عليه قبل قليل وكأنه لم يستمع الجملة الأخيرة التي قيلت، ثم سار حتى حاكم نيكايا البيزنطي. وقف أمامه قائلا:

أشكركم كثيرا على مساعدتكم. وأقدر غضب ومعاناة أورخان غازي. الفرصة الزمنية الممنوحة لنا ضيقة جدا ولكن سأقوم بعمل جميع استعداداتي هذه الليلة، وسأكون على متن سفينتي الموجودة في الأسطول قبل فجر الغد. بمجرد أن تصل السفن التي سيرسلها أورخان غازي سوف ننطلق فورا، ثم عاد وجلس على كرسيه.

وبعدما جلس الإمبراطور على كرسيه الذي يشبه كرسي العرش، تحدث حاكم نيكايا وهو واثق بنفسه قائلا:

يا صاحب العظمة، إن السفن التي وعد بها أورخان غازي سيتم تسليمها لكم بمجرد وصولها إلى جانب سفنكم.

ثم قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس دون إبطاء، قال:

حينئذ سأنطلق مع مطلع الفجر وأنا مطمئن القلب.

الرسولان اللذان أتما مهمتهما هناك بعدما خرجا من القاعة من أجل العبور إلى الضفة الأخرى، فإن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس انتظر لفترة عودة قائد الحرس الذي خرج من القاعة لتوديع الرسولين. وعندما عاد قائد الحرس طلب منه الإمبراطور أن يذهب بنفسه فورا إلى قائد الإسطول، وأن يبلغه بأن تكون كل السفن السليمة والسفن التي تم إصلاحها جاهزة للإبحار قبل شروق الشمس. وفي الوقت الذي خرج فيه قائد الحرس من القاعة من أجل إبلاغ قائد الأسطول بما قاله الإمبراطور، فإن الإمبراطور هو الآخر طلب من كبير مراسليه الذي ينتظر أمام باب القاعة أن يستدعي قائد القلعة ونائب رئيس الوزراء المسئول عن الخزانة على وجه السرعة. وبعد أن خرج كبير مراسليه من القاعة بفترة وجيزة دخل إلى القاعة نائب رئيس الوزراء للشئون المالية. قال الإمبراطور الذي شاهده ناظرا إلى وجهه:

أريد أن أعرف كل ما ادخرته من الأموال من أجل مواجهة الأيام الصعبة، لأن ببيزنطة لن تواجه أياما أصعب من هذه الأيام التي نمر بها.

قال نائب رئيس الوزراء ووزير الخزانة، بعد أن جال في عقله لفترة قصيرة، وبالخبرة التي منحتها له السنوات وبعد أن نحى جانبا بعض الأموال المطلوبة لإدارة القصر لبضعة أشهر:

يا صاحب العظمة! آسف جدا ولكني مضطر إلى إخباركم بأنه لا توجد سوى عشرة آلاف قطعة ذهبية...

قال الإمبراطور بعد أن ابتسم ممتعضا:

يا سيميرسيوس، إن قرصنة فونشه يطلبون مئة ألف قطعة ذهبية... وأورخان العثماني يقول في كلمة واحدة سأرسل خمسين ألف قطعة ذهبية، وأنت تقول بأنه لا يوجد في خزانة بيزنطة العظمى سوى عشرة آلاف قطعة ذهبية. وبعد أن صمت لفترة، قال بصوت ممتعض احسب ما هو موجود في خزانتي الخاصة وقم بإضافته فوق العشرة آلاف.

اكتفى سيميرسيوس مسئول الخزانة هذه المرة، بالنظر إلى الأرض. أما الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي فهم ماذا يعني صمته على هذا النحو فقال بصوت هادئ:

إذن لا شيء قط! أليس كذلك؟

قال مسئول الخزانة وهو يشعر بالذنب:

آسف سيدي... إن أردتم يمكنني فإنني أضيف إلى الخزانة بعض مئات القطع الذهبية الموجودة في خزانتي الخاصة.

نظر الإمبراطور إلى سيميرسيوس مدير الخزانة. وقال بصوت يؤمن بإخلاصه وصدقه:

إن اضطررنا إلى ذلك سوف نضمها إلى أموال الخزانة... دبر من الأموال ما يمكن تدبيره. والآن لننتظر الخبر الذي سيأتي من أهالي جنوة. وإن لم يرسلوا إلينا المبلغ الذي طلبناه حينئذ سنضطر إلى الاستدانة من الخزائن الخاصة... ولكن لنبحث بسرعة عن الأشخاص الذين يوجد في خزائنهم الأموال التي يمكن أن تساعدنا في هذا الأمر...

قام سيميرسيوس مدير الخزانة بعد أن ترك الإمبراطور، بعد العشرة آلاف قطعة ذهبية التي يمكن أن تدفعها خزانة الإمبراطورية، ووضعها في أحد الصناديق، كما أعد قائمة بأسماء الأشخاص الذين يمكن أن يتم الاستفادة من خزائنهم الشخصية. كان الاسم الأول في القائمة هو اسم الإمبراطورة الأم آنا والدة الإمبراطور. أما الاسم الثاني فكان اسم قائد الأسطول. والاسمان الثالث والرابع كانا اسمي رئيس الوزراء، وراهب كنيسة آيا صوفيا على الترتيب. وبعد هذه الأسماء جاء اسم البطريرك كلاكاس، أما بقية الأسماء فلم يكن بخزائنهم الشخصية المبالغ الكبيرة. وبعد أن انتهى مدير الخزانة من أعمال العد التي قام بها أخذ معه القائمة التي قام أعدها والصناديق الممتلئة بالذهبيات البيزنطية وذهب إلى قاعة استقبال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس. في تلك الأثناء كان قد وصل إلى هناك كذلك قائد قلعة القسطنطينية ونائب راهب آيا صوفيا الذي عاد من حي أهالي جنوة. دخل مدير الخزانة إلى داخل قاعة الاستقبال، وبعد أن ألقى التحية على الإمبراطور أعطاه الأوراق التي سجل فيها الذهبيات التي تم عدها وقائمة الأشخاص الذين يمكن الاستفادة من خزائنهم الشخصية. بعد أن ألقى الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس نظرة على قائمة الأسماء التي أعدها مدير الخزانة، قال:

سلمت يا سيميرسيوس...

وقف سيميرسيوس بأحد الأماكن القريبة من الباب وعندما نظر إلى الإمبراطور تلبية لرغبة نائب كبير أساقفة آيا صوفيا لاستكمال حديثه الذي توقف قبل قليل، قال:

يا صاحب العظمة، كما قلت فإن أهالي جنوة قالوا إنهم سيمكنهم توفير هذا المبلغ خلال شهرين مدعين بأن مكاسبهم قد انخفضت كثيرا بسبب تنازلهم عن الكثير من الامتيازات لأهالي البندقية في الآونة الأخيرة.

فقد الإمبراطور يوحنا باليلوج الخامس الذي ينظر إلى نائب كبير الأساقفة السيطرة على مفاصله وكأنه أحد المتسولين الذي تمت سرقة حلمه نظرا لعدم تمكنه من الحصول على الصدقة التي طلبها. وارتعدت ساقاه. وأخذته سنة من النوم. خُيِّل إليه بأنه سيسقط من فوق الكرسي، أسند صدره بشكل بسيط على الطاولة دون أن يشعر من هم داخل القاعة. أما نائب كبير أساقفة آيا صوفيا الذي لاحظ اهتزاز الإمبراطور بسبب الكلمات التي قالها، فاندهش قليلا هو الآخر، لما نظر إلى كبير الأساقفة، الذي قال له:

يا صاحب العظمة، لا يوجد أي جانب من الصحة لما يقوله أهالي جنوة بخصوص مواجهتهم صعوبة في القيام بتدبير المبلغ. الواضح أنهم لم يستطيعوا إدراك خطورة الموقف. ولكن أظن أنهم قد قالوا هذا نظرا لعدم استيعابهم لتدلل أهالي البندقية الذين انضموا تحت عرش العثمانين. أعتقد أنهم لو وعدوا بحصة مماثلة للحصة التي يحصل عليها أهالي البندقية من جماركنا فلسوف يدبرون المبلغ على وجه السرعة...

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس، الذي ابتسم بمرارة. قائلا وهو ينظر إلى القائمة الموجودة أمامه:

قداسة البابا! أنتم تعلمون مثلي كيف كانت مرارة الأيام التي مرت بها بيزنطتنا وقسطنطينيتنا في السنوات والأيام الماضية... ولكن أهالي جنوة

وأنتم كذلك لا تستطيعون إدراك خطورة الوضع الحالي... رجع رسل أورخان غازي قبل عدة ساعات. وقالوا إنهم سيدفعون نصف الفدية المطلوبة قبل حلول الصباح وطلبوا مني أن أخرج فورا من أجل تحرير الأمير خليل. وحتى أنطلق صباح الغد فقد أرسلت إلى قائد الأسطول أطالبه بتجهيز كل سفن الأسطول السليمة الجاهزة للإبحار. والآن تأتون وتحدثونني عن الخطة التي أعدها نسور أهالي جنوة للاستفادة من هذا الموقف، ثم صمت.

وأثناء صمته تجول جو صامت وبارد مثل الثلج داخل القاعة. أما الإمبراطور الذي انتعشت نظراته من جديد، فقد نظر مرة أخرى إلى القائمة الموجودة أمامه. ثبتت نظراته لفترة على اسم والدته الموجود على رأس القائمة. قال من داخله "مستحيل". وأخذ يقرأ بقية الأسماء. حدث نفسه قائلا: "اسم البطريرك غير موجود...". توقف قليلا. حدث نفسه قائلا: "قد تم نسيانه" واستدعى مدير الخزانة إلى جانبه. وعندما همس إليه في أذنه قائلا " اسم البطريرك غير موجود" همس إليه أيضا مدير الخزانة قائلا " ما هو موجود في خزانة البطريرك قليل بالدرجة التي لا يجعلنا ندونه هنا". توجد خزانة البطريركية المباركة، ولم أدونها هي الأخرى في القائمة...".

بينما يأخذ مدير الخزانة الذي قال هذا مكانه الموجود بالقرب من الباب فإن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس، نظر إلى كل من كبير أساقفة آيا صوفيا ورئيس الوزراء وقائد القلعة وقال:

أيها السادة، لا أريد تأجيل رحلتي هذه. إذا ما تم دراسة الوضع جيدا فإن أهالي جنوة لن يستطيعوا إقراضنا في هذه المدة الوجيزة. إن العشرة آلاف ذهبية التي ادخرناها في خزانتنا لمواجهة الأيام السوداء لا تكفي أي

شيء، نحن مضطرون إلى اقتراض بقية المبلغ المطلوب من خزانتكم أنتم والإمبراطورة الأم.

احمر وجوه الموجودين بالداخل وصارت مثل لون البنجر. على وجه السرعة قال كبير أساقفة آيا صوفيا:

يا صاحب العظمة، إن أردتم أذهب مرة أخرى إلى أهالي جنوة وأشرح لهم بأن الموضوع عاجل جدا. ربما يجدون مخرجا. وبينما ينظر نحو رئيس الوزراء، قال قائد القلعة:

يا صاحب العظمة، لو تريدون أذهب أنا الآخر إلى أهالي جنوة. وأقول لهم إن لم يكن المبلغ المطلوب بحوزتهم فليقترضوا من تجار الميناء...

ابتسم الإمبراطور يوحنا باليولوج بسمة ساخرة للرجال المسنين الثلاثة الذين يتعاملون معه على أنه مازال طفلا حتى الآن. استند بظهره على ظهر كرسي العرش. مد يده نحو عصاة الجرس الصغير الموجود على المنضدة. ولم يكد يدق الجرس حتى دخل إلى داخل القاعة مساعد حامل الرسائل الموجود منذ زمن كنتاكوزين، ولم يكد يدخل حتى قال له:

يا أتنتوس، استدع فورا كل من هو موجود من حراسنا وليذهبوا بصحبة سيميرسيوس إلى حي أهالي جنوة... وما إن خرج الإمبراطور الشاب إلى الخارج، نظر إلى مدير الخزانة الموجود بجوار الباب وقال يا سيميرسيوس ستذهب إلى حي أهالي جنوة، وأنهم إن لم يدفعوا فورا المبلغ الذي يمكن أن يدفعوه لمدير الخزانة سيتم إلقاء القبض عليهم، وإن لم يرغبوا في إلقاء القبض عليهم ستأخذ المبلغ الذي يستطيعون دفعه فورا وتأتي. وما

إن ترجع من هناك سوف تقوم باستكمال المبلغ الباقى من الخزائن الشخصية الخاصة بالأسماء الموجودة في القائمة. وفي الوقت الذي ستنجز فيه هذه الأعمال سأذهب أنا أيضا وأقوم بتوديع الإمبراطورة إيلينا والأولاد.

سيميرسيوس مدير الخزانة وهو يخرج إلى الخارج في الحال وهو تغمره السعادة لحيازته على ثقة الإمبراطور الشاب، كان الموجودون بالداخل قد بدأ يتغير لون وجوههم إلى اللون الأحمر والبنفسجي. وقال راهب آيا صوفيا، "ليتني ما كنت قد صدقت على ما قاله رئيس الوزراء. "رئيس الوزراء أليكسيوس كان يتهمني أيضا قائلا "أنستا الذي لا يملأ عينه سوى التراب.". قائد قلعة القسطنطينية الذي لم يكن لديه أي علم بالاتفاق السري الموجود بين نظراتهم، كان يحدث نفسه قائلا "تخلصنا من آل كنتاكوزين ولكن الآن سيأخذ آل باليولوج". الإمبراطور الشاب الذي استطاع أن يستنتج الكثير من المعاني من وقوفهم على هذا النحو دون أن يتحدثوا، قال وكأنه يثير دهشتهم، وسألهم قائلا:

أصدقائي الأعزاء إن بيزنطة لن تنسى لكم أبدا وقوفكم إلى جانبها في هذا الموقف العصيب. وسيتم إعادة الأموال التي ستأخذ من خزائنكم الخاصة إليكم في أقرب وقت. هذه الريح الباردة للغاية التي هبت في الداخل صارت أشد برودة مع دخول قائد القلعة أنتنوس بمفرده إلى الداخل. أنتنوس الذي لم يكترث بالنظرات الحائرة للموجودين بالداخل، قال:

يا سيدي، نظرا لعدم عثورنا على قائد الأسطول رغم كل عمليات البحث التي قمنا بها، فقد تم إبلاغ أوامركم إلى القائد المناوب، ولقد بدأ القائد المناوب في الحال بعمل الاستعدادات. وبمجرد العثور على قائد الأسطول سيتم الإتيان به إليكم، وانسحب نحو الباب.

غضب الإمبراطور كما يتوقع أنتتوس وكل الموجودين بالداخل، وفار دمه وابتسم بسمة خبيثة. نظر إلى القائمة الموجودة أمامه. وقال بنبرة صوت لم تسمع منه حتى الآن:

يا أنتتوس، ستأخذ معك كل ما تستطيع أن تأخذه من الحراس وستذهب فورا إلى قصر قائد الأسطول. مادام هو غير موجود سنستولي نحن بأنفسنا على خزانته.

وعند خروج أنتتوس للخارج من أجل تنفيذ الأوامر التي صدرت إليه لم يلحظ أن وجوه الموجودين بالداخل قد تحولت إلى اللون الرمادي.

(٥١)

كانت القوات العثمانية التي حصلت على راحة طوال أشهر الشتاء تواصل فتوحاتها التي استمرات طوال فصلي الربيع والصيف خلال أشهر الخريف بنفس السرعة ودون أن تفقد أي شيء من بركتها. ففي الوقت الذي كانت تقوم فيه من وحدات أخيياني روم وباجيياني روم الهجومية تسرع بالهجوم على القلاع الجديدة، كان القضاة يعملون على حفظ النظام وتحقيق الأمن بشكل مؤقت في القلاع التي تم الاستيلاء عليها مؤخرا. بعد ذلك كانوا يقومون بتسليم مهماتهم إلى مديري الأمن الذين جاءوا إلى القلاع، وكانوا يواصلون طريقهم خلف الوحدات الهجومية الأخرى. وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه الوحدات الهجومية التي تواصل تقدمها قد وصلت إلى القلاع البيزنطية الموجودة على شواطئ البحر الأسود، كانت الفرسان على مرمى البصر من أسوار القسطنطينية. أما المهاجمون الذين جاءوا للمرة الثانية أمام قلعة تريستاسيس الموجودة في جنوب شرق شبه الجزيرة بعد قلعتى مجالقارا وفيسا فقد شكلوا مجموعة من الأطواق حول القلعة من أجل الحيلولة دون وصول المساعدات التي يمكن إرسالها إلى القلعة برا، كما قاموا كذلك بمحاصرة الميناء. وفي الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه اليوم الذي سيحاصرون فيه الميناء منذ فترة طويلة بفارغ الصبر وصل المبعوث الخاص الذي أرسله سليمان باشا. عندما أُبلغ القادة المهاجمون الموجودون في خيمة الاجتماعات بخبر وصول الرسول صاحوا قائلين:

عاش أميرنا، كما هو الحال على الدوام توقع أميرنا أن الصبر قد أوشك على النفاد. وصاحوا مرددين عدة مرات قائلين عاش، عاش سليمان باشا أطال الله عمره...

أما رسول سليمان باشا الذي تم اصطحابه إلى الخيمة المتنقلة التي هي مقر القيادة للقوات المهاجمة التي تقف وكأنها ستذهب وتأخذها الرياح الخفيفة، ففتح الرسالة الملفوفة بالجلد التي أخرجها من حزامه وبدأ في قراءتها بصوت مرتفع:

قادة إمارتنا المحاربون الشجعان والمرابطون،

أعلم أنكم لا تحبون التوقف في مكان ما كثيرا بهذا القدر، وبأنكم تريدون النظر إلى آفاق جديدة كلما استيقظتم كل صباح. كان السبب الأهم الذي جعلني أترككم تنتظرون أمام قلعة تريستاسيس لهذه المدة الطويلة هو انتظاري لوحدات المشاة القادمة من بورصه. فكما تعلمون فقدنا المئات من شهدائنا في قلعة تريستاسيس التي تراجعنا عنها مرتين. كل ما أرجوه الآن ألا نفقد روحا واحدة بعد هذا، وألا نترك تلك القلعة إلى أبد الأبدين. الحمد لله يتواصل قدوم الجنود الذين انتظرناهم من بورصه إلى بلاجار. وفي الوقت التي خرج فيه رسولي الذي أحضر لكم هذه الرسالة أنطلق أنا أيضا على رأس الجند الذين قدموا. إن شاء الله سأكون معكم بعد عدة أيام. حتى ذلك الوقت أريدكم أن تختبروا صبر من في القلعة وتنتظرونني بصبر.

قائد الجند سليمان باشا

أما قادة المحاربين الذين استمعوا إلى كلمات سليمان باشا التي قرأها الرسول على مسامعهم فصاحوا معا قائلين:

يعيش سليمان باشا يعيش سليمان باشا...

استقبلت أمطار غزيرة كالسيل المنهمر سليمان باشا ورجاله الذين وصلوا إلى مشارف قلعة تريستاسيس قبيل مساء أحد الأيام بعد ثلاثة أيام من مجيء هذا الخطاب وأمرائه قبل استقبال المقاتلين المهاجمين لهم. المطر الذي انهمر مع حلول المساء جعلهم لا يرى بعضهم بعضا. القادة الذين تم دعوتهم إلى خيمة مقر القيادة المتنقلة الخاصة بسليمان باشا التي تم إقامتها على وجه السرعة، كانوا قد استطاعوا أن يأتوا مرتدين لبدا بلا أكمام. عندما شاهد سليمان باشا الذي ينتظرهم، قدوم كل القادة وقادة وحدات المشاة وقادة سرايا المهاجمين وجلوسهم على الوسائد المقابلة له جثا على ركبيته وألقى عليهم التحية. لما شاهد عيون القادة التي تبرق في ضوء قناديل الزيت شديدة الصفرة المصنوعة في ليكيا، والمرسلة له من قبل الأمير تكا، بسبب انتصاراته التي حققها في الروملي خرجت ابتسامة من داخله. لاحظ التزام القادة بالأدب رغم الضيق الذي يتملكهم والذي يبدو جليا من خلال نظرات الاستعجال الموجودة على وجوههم الهادئة. وحين رأى استعجالهم تذكر استعجاله في شبابه. وتذكر كيف تغلب على عدم الصبر بعد أن تزود بعلم الحاج إلباي. وبينما يستمع إلى أصوات قطرات المطر الكبيرة التي تضرب الخيمة، ورد بخاطره ازدياد وارتفاع منسوب مياة جدول نيلوفر. بينما كان يسير مع والده ذات يوم على شاطئ النهر، أمسكه أبوه من ذراعه فجأة وأوقفه، وبينما كان يشير إليه بالنظر إلى زنابق الماء التي سقطت أوراقها للتو في المياه وكأنه يسمع مقولته التي تقول "يا بني لكي تستطيع رؤية الجمال الخفي عليك أن تتجاوز صمت الصبر أحيانا". قال وهو ينظر ثانية إلى وجوه القادة وقادة المشاة والرقباء الموجودين في الخيمة "هؤلاء كذلك

تجاوز صمتهم الصبر منذ مدة طويلة." وبينما كان يتأهب للحديث وردت في ذهنه جملة والده التي تقول: " لم يقولوا على هذه زهرة فرعون دون مبرر". ثم تجاوزها. بعد أن ابتسم ابتسامة غامضة برزت على شفتيه، قال:

أيها القادة، انطلق قادتنا الآخرون الذين غادروا بلاجار منذ فترة نحو شرق وغرب وشمال الروملي.

أنتم كذلك كنتم تنتظرون منذ مدة طويلة أمام شواطئ تريستاسيس. كنت قد كتبت لكم في رسالتي التي أرسلتها إليكم الأسباب التي جعلتني أتركك تنتظرون طويلا إلى هذا الحد. صبرتم وانتظرتموني. سلمتم وأمد الله في أعماركم. إن ما كنت آمله وأنتم تنتظرون أن يقوم الموجودون في القلعة الذين يرونكم بتعقب الأمر جيدا وأن يقوموا بفتح أبواب القلعة لكم من تلقاء أنفسهم. ولكن هذا لم يحدث. فضلا عن أن أبي أطال الله عمره كان قد أبلغنا ألا نغدر بالإمبراطور البيزنطي باليولوج الذي ذهب لإنقاذ أخي خليل بك. وهذا أيضا هو أحد أسباب الانتظار الذي لم أوضحه في رسالتي. لقد أوفيت بالوعد الذي قطعته على نفسي لأبي. لقد أجبرتكم على الصبر طويلا، ولكن الآن لم يعد لدي أو لديكم مزيد من الصبر. إن كانت الأخبار التي حصلنا عليها صحيحة فلم يعد هناك أي سبب لانتظارنا. أريد أن أتحدث معكم عن كيفية الهجوم على القلعة وتوقيته هذا المساء. إن قلتم كلكم أفكاركم سنضع أفضل خطة للهجوم.

ساري يومني بك الذي شارك في الحملة بدلا من طوبال حسن بك أحد قادة إقليم يخشي الذي انضم إلى قوات سليمان باشا بسبب مرضه بعد أن انحنى بجسده النحيل والطويل للأمام مرة أو مرتين وبعد أن ألقى التحية، قال:

سيدي، أنتم تعلمون أفضل منا أنسب الأوقات للهجوم لكني أرى أن أنسب وقت للهجوم هو الوقت المقرر.

الحاج إلباي الذي لم يُظْهِر وجوده حتى ذلك الوقت، نظر إلى ساري يومني بك الذي يطلق عليه فتى إقليم يخشي الوسيم. وفكر في أن هناك هدفا ما لاختيار طوبال حسن باشا له من بين رجالته ليكون في خدمة سليمان باشا. دقق النظر إلى عيني الشاب ذي الأنف الدقيقة والوجه المستدير الذي أفصح عن رغبته بسرعة وعرض فكره بشجاعة، وقال:

لم أستطع أن أفهم جيدا اقتراح يومني بك.

فهم يومني بك المطلوب منه. مال برأسه قليلا للأمام ونظر إلى السجادة المطرزة بنقوش نيكوميديا المبسوطة أسفل الوسادة التي يجلس فوقها منذ يوم استقباله برفقة أميره في الديوان. وبينما يجول بناظريه على النقوش والرسوم الملونة التي تبدو باهتة جدا لوجودها تحت اللون الأصفر للقناديل، جذب انتباهه نقوش الورد الأحمر القاني المجدولة ذات اللون الزاهي، ثم حدث نفسه قائلا: "إذا وجد شيء لامع فإنك مهما اختفيت بداخله يكون من غير ذي جدوى". ثم قال دون أن يبتعد بنظراته عن نقوش الورد القانية:

سيدي، أعلم أن الظلام حالك جدا في الخارج بدرجة لا يمكن أن ترى العين شيئا. لكن كنت قد أردت القول بأنني أعتقد بأن هذه الأوقات هي من أنسب الأوقات للهجوم. لأن من بالقلعة لن يستطيعوا أن يلاحظوا قيامنا بالهجوم عليهم نظرا لأنهم لن يستطيعوا الخروج من بيوتهم في مثل هذا الجو، أرى أنه يجب أن يقوم المتسلقون بتسلق الأسوار دون الانتظار لتوقف هطول الأمطار.

لاحظ سليمان باشا وهو ينظر مندهشا إلى ساري يومني بك وجود ابتسامة رقيقة على شفتي الحاج إلباي الرقيقتين. وفي الوقت الذي كان يفكر فيه هل يسأل الحاج إلباي أم لا عن الهدف الذي من أجله توجه بسؤاله لساري يومني بك، شاهد القادة الآخرين ينظرون إلى بعضهم بعضا بنظرات يملؤها الاندهاش مثله تماما. وبينما كان ينظر إلى القادة فإن الحاج إلباي بعد أن سعل لفترة قصيرة وكأنه حصل على أحد الأجوبة كما يريد، دعم اقتراح ساري يومني بك قائلا:

أرى أن أفضل وقت هو هذه الليلة.

قال سليمان باشا بعد أن مد منكبيه العريضين:

حسب علمي فإننا لم نقم بعمل أى استعدادات للقيام بالهجوم هذه الليلة.

قال الحاج إلباي:

سيدي، لو اتخذت وحدات قواتنا الهجومية مقرا أمام القلعة، فإن هذا يعني أنهم سيكونون مستعدين للهجوم في أي وقت...

قال ساري علاء الدين بك أحد قادة القوات الهجومية:

نحن مستعدون للهجوم على القلعة لكن البحر يتأرجح مثل المهد. فوق هذا المهد تتجول سفينة نقل مع سفينتين من سفن الأسطول. لكن لا أعلم إن كان بإمكاننا السيطرة عليهم بالقوارب التي نمتلكها؟

قال سليمان باشا وهو في دهشة بالغة للغاية:

لم أستطع أن أفهم يا علاء الدين بك؟

قال الحاج إلباي:

أميرنا، لم ينتظر قادتنا المحاربون هنا عبثا، اتخذوا كل التدابير اللازمة من أجل حصار القلعة... وسيطروا على كل القوارب التي وضعوا أيديهم عليها عند الشاطئ، وتم سحبها إلى الشروم الآمنة، حيث يؤمنون بضرورة محاصرة القلعة برا وبحرا. وأسروا أيضا الجدافين الموجودين على القوارب... جنود البحرية التابعين لساري يومني بك يجيدون ركوب البحر. لو أمكن توصيلهم بهذه القوارب في هدوء ودون جلبة إلى السفن سيقومون بالسيطرة عليها خلال بضع ساعات. في الحقيقة إن السفن لا تستطيع التحرك من أماكنها في هذا الجو ولكن سيكون الأمر أفضل إذا قمنا بتحييد هذه السفن وجعلناها بعيدة عن المشاركة في المعركة. وهكذا ستصبح سفينتانا الحربيتان ثوويتين في مينائنا... وإذا ما تم حل الأمر من جهة البحر فلن يبق سوى محاصرة القلعة برا. أما المشاة ومتسلقو طوروس الذين جاءوا للتو فإنهم قادرون تماما على القيام بهذا للعمل.

قال جوندوزاي بك أحد قادة الجنود المغيرين:

سيدي، اتضح أن قائد القلعة كان شديد الحيطة والحذر. لدرجة أنه لم يسمح للمزارعين الذين خرجوا من القلعة إلى حقولهم في الصباح بالدخول إلى القلعة في المساء. لهذا السبب لم نستطع الزج بالطلائع التي غيرنا مظهرها الخارجي ولا حتى بالمتطوعين الذين يجيدون لغة أهل القلعة إلى داخل القلعة.

قال سليمان باشا وهو يهز رأسه على الجانبين:

مادام أنهم لم يسمحوا بدخول ولو حتى عدة أشخاص منا، إذن سندخل إلى القلعة جميعا معا هذه الليلة.

هبت نسائم النشوة الدافئة داخل خيمة القيادة الباردة بعد إعلان سليمان باشا القرار بنفسه بقوله هذا الكلام. ظهرت ابتسامة واضحة في نظرات سليمان باشا الذي رأى نسيم الفرحة على وجوه قادة الجند. أما الحاج إلباي الذي رأى ابتسامة سليمان باشا تلك فصاح قائلا:

أيها القادة ليجعل الله غزوتكم غزوة مباركة.

قادة الجند وقادة المشاة ورقباء المهاجمين الذين هبوا واقفين جميعا بعد سماع كلمات الحاج إلباي، وضعوا أياديهم اليمنى على قلوبهم و قالوا جميعا معا:

ليبارك الله غزوتنا يا سيدي! ثم خرجوا من خيمة القيادة وذهبوا وفقا للترتيب الذي جاءوا به.

اكتملت كل الاستعدادات للهجوم الذي بدأ مع ذهاب القادة إلى وحداتهم قبل حلول منتصف الليل. كان المتسلقون الطورسيون في طليعة الهجوم الذي بدأ بأمر سليمان باشا. وكان يأتي من خلفهم مباشرة الشباب والفدائيون المهاجمون. أما المشاة فقد كانوا كالمعتاد وراء حاملي رؤوس الكباش الذين يرتدون الدروع والذين يتقدمون خطوة خطوة نحو الأبواب.

جاء المتسلقون الطوروسيون الذين استغلوا صوت المطر فجأة إلى أسفل الأسوار العريضة للقلعة. وفي اللحظة التي وضعوا فيها سلالمهم على الجدران، في لمح البصر صعد الفدائيون والمجاذيب الموجودون خلفهم فوق الأسوار. وفي الوقت الذي صعد فيه أيضا المتسلقون فوق الأسوار بعد أن

أتموا مهمتهم بنجاح، بدأ سماع تلك الأصوات الضخمة المدوية لحاملي رءوس الكباش الذين يضربون الأبواب. عندما تم أسر الحراس المناوبين الموجودين في أبراج القلعة، والذين اندهشوا لما أصابهم على يد الفدائيين الذين دخلوا إلى الأبراج دون أن يتمكنوا من الإمساك بحرابهم التي وضعوها على الجدران، تعالت صيحات البوم الآتية من فوق جدران القلعة. أما الحاج إلباي الذي سمع أصوات البوم، فحدث نفسه قائلا: "أنهى أحفاد جالاطا عملهم بسرعة مذهلة، ويستحقون لقبهم الذي يحملونه". وبعد أن تنفس مرتين أمر رماة المسافات الموجودين إلى جواره قائلا:

أطلقوا السهام!

عندما أطلق الرماة الذين سمعوا صوت الحاج إلباي العالي سهامهم جميعا دفعة واحدة، علت أصوات السهام على صوت المطر. المشاة الذين سمعوا أصوات السهام قاموا بتضييق أطواقهم واقتربوا أكثر فأكثر من القلعة. في الوقت الذي أعلن فيه الفدائيون قيامهم بأسر جميع الحراس المناوبين في الأبراج، وصل خبر إبحار ساري يومني بك وبحارته. في تلك الأثناء كان سليمان باشا الذي ترجل من فوق حصانه الأشهب قد وصل مع فدائييه الذين يتبعونه إلى جوار حاملي رءوس الكباش الذين يقتربون ببطء تحت دروعهم نحو الباب عندما رأوا قادتهم إلى جوارهم دب فيهم الحماس، وأسرعوا في التقدم دون أن يتخلوا عن حذرهم. أما سليمان باشا الذي بث فيهم الحماس، فنظر بدقة إلى الكمر الموجود فوق الباب. وعندما لم يستطع رؤية أي شخص فوق الكمر صرخ بكل ما أوتي من قوة قائلا:

هيا يا أسودنا حطموا الأبواب.

المشاة الذين رأوا هجومه على الباب تملكتهم الحماسة، وبدءوا في ضرب الباب الخشبي الضخم برعوس الكباش. في الوقت الذي ضربوا فيه الباب برعوس الكباش مرات عديدة، بدأوا في سماع أصوات مبحوحة تأتي من خلف الباب الضخم. بينما كان سليمان باشا يقترب من الباب لمعرفة سبب الأصوات الصادرة فُتح الباب على مصراعيه. وعلى الفور قام الفدائيون بتكوين جدار بشري حول سليمان باشا. ولما تراجع حاملو رعوس الكباش إلى جانبي الباب وهم مرتبكون حتى هجم المشاة القادمون من خلفهم على الذين يخرجون من الباب المفتوح. سليمان باشا الذي غضب لعدم احتراسهم والذي تراجع إلى الخلف قليلا مع فدائييه، توقف فجأة. استل سيفه وبدأ يسير نحو الباب مع المشاة المارين بجواره مطلقا الصيحات. استل الفدائيون الذين ثارت ثائرتهم بصيحاته سيوفهم وهاجموا حراس القلعة الممسكين بجانبي الباب. وما لبثت الأجساد أن تراكمت فوق بعضها في الساحات الموجودة أمام باب القلعة.

ومع بزوغ الفجر كان سليمان باشا الذي يقف فوق الكمر الموجود فوق باب مدخل القلعة، قال للحاج إلباي الذي أتى إلى جانبه وهو يشير إلى الجثامين الملقاة فوق بعضها:

حشدوا كل قواتهم عند الباب الرئيسي.

قال الحاج إلباي وهو ينظر إلى جثامين القتلى الملقاة فوق بعضها والذين ينظر إليهم الأمير سليمان باشا:

ربما كانوا قد اعتقدوا أن الخروج هو الخلاص الوحيد.

(٥٢)

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي كان يتنقل بين قمرته وكابينة القبطان كان قد مل كثيرا من الذهاب والعودة، ومن قراءة مخطوطاته التي أخذها معه، ومن كثرة الاستراحة. بعد أن تناول فطوره وبينما يفكر في بعض الأشياء التي يمكن أن يسلي بها نفسه من أجل تخفيف ذلك الملل الذي أصابه، وقف أمام إحدى النوافذ المستديزة الموجودة في قمرته الكبيرة المقسمة إلى عدة أقسام. ونظر إلى الأمواج التي تطارد بعضها بعضا في بحر الجزر. حينما شاهد الكتلة ذات اللون الأخضر الداكن تملكه الفضول لمعرفة ماذا تكون هذه الكتلة. حسر بصره ونظر. لم يستطع أن يشبه الكتلة الموجودة على مسافة بعيدة بأي شيء. خرج من قُمرته وصعد إلى سطح المركب حتى يرى الكتلة جيدا. وبعد أن استمع لفترة لصوت المركب الشراعي الذي يهتز بشكل خفيف بسبب فعل الرياح الموسمية، أسند صدره على الجدار الخشبي العريض لسطح السفينة ونظر إلى الكتلة الخضراء داكنة اللون التي اقتربت كثيرا من سفن الأسطول. ولما رأي كتلة الطحلب التي تتخذ أشكالا متعددة وتتغير من شكل إلى آخر فوق الأمواج التي ركبتها قال : "كان طحلبا". وظل ينظر لفترة إلى كتلة الطحالب التي يتغير شكلها من شكل إلى آخر، وبينما يهز رأسه على الجانبين وكأن شيئا مضحكا قد خطر بباله، حدث نفسه قائلا: " هل تحتال الأمواج، هل تحتال الطحالب؟"، ولما زالت الابتسامة المرسومة على شفتيه، قال وكأنه كان سيسمع صوته لكتلة الطحالب

التي اقتربت جدا من سفينة القيادة " لقد احتلتم حتى انهزمتم، والآن الأمواج تستهزئ بكم..."؟. ثم قال وهو يضحك مرة أخرى " من الواضح أنها قد أنهكتكم مثل بيزنطتنا ليتم اقتلاعكم من جذوركم". لما شاهد تفتت كتلة الطحالب التي اصطدمت بمقدمة سفينة القيادة، نظر إلى شبه الجزيرة التي تمتد مثل اليد التي تمتد نحو منتصف الصدر، وإلى قلعة فونتشه الموجودة على الجزيرة وهو يحاول أن يهدئ من روعه وأن يتجاوز حالة الضيق التي تسيطر عليه قائلا: "أتمنى ألا تكون نهاية بيزنطة كنهايتكم!". صاح بصوت غاضب إلى حد ما وكأنه كان سيسمع من بالجزيرة، قائلا:

يا أهالي فونتشه، مهما قدمتم من عروض اليوم سأدخل شرمكم (خليجكم) بالغليونات مهما كان الثمن". بيد أن أحدا لم يسمع ما قاله لأن الرياح السريعة أخذت صوته المتداخل مع صوت السفن وذهبت به بعيدا.

وبينما تمشط عيناه الكسولتان اللتان تملكهما الملل سطح البحر مرة أخرى، فجأة لم يستطع أن يمسك نفسه عن الضحك بعدما شاهد الطحالب التي اصطدمت بسفينة القيادة وتفتت قبل قليل وركوبها الأمواج وذهابها إلى الشاطئ. لما فرغ من ضحكه قال: " إنها مثل موكب دينوسوس الذي ذهب لتحذير أرسو". وبعد أن ظل ينظر إلى الطحالب حتى صارت لا يمكن رؤيتها مشى ودخل قمرته المقسمة إلى العديد من الأقسام.

ظل يمشي بين النافذتين في صمت إلى أن تعبت قدماه. رجع واتجه نحو غرفة الاستراحة. فُتح باب الغرفة من تلقاء نفسه. وتمدد على فراشه وهو ينظر شبه مبتسم إلى جواري ومحظيات لسبوس اللائي يقفن خلف الباب. وأغلق عينيه على الفور حتى ينام. ولكن أثناء قيام الجواري بخلع

حذائه من قدميه، فُتحت عيناه من تلقاء نفسها. وبينما تتزايد سرعة خفقان قلبه جال بخاطره أفكار الفساد الإنسانية. وتقلب من جانب إلى آخر عدة مرات على الفراش وكأنه يطرد أفكاره ومهما حاول أن ينام لم ينجح في ذلك أيضا. نام على ظهره ونظر أولا إلى الجواري ثم إلى السقف. وبينما تقترب الجواري بهدوء نحو سريره، تذكر فراقه للقسطنطينية التي لم تفارق عقله منذ أيام. وبينما يحاول عدم النظر إلى الجواري اللواتي يمسكن بيديه، حدث نفسه قائلا: " لقد نفذت رأي أليكسيوس الملعون، وسلمت على الحاكم العثماني الموجود في خالكيدون وكأنني أبحرت بسفن الأسطول إلى إيجه. في اللحظات الأولى لم أستطع فهم أي شيء ولكنني أحسست بالذل والهوان عندما تركت السفينة قبالة أيسطفانوس واقتربت من الشاطئ. وكأن هذا لم يكن كافيا، فعلى الرغم من أنني الإمبراطور ودخلت القلعة متخفيا وكأنني أحد اللصوص.". لما تحدث بصوت مرتفع دون أن ينظر إلى الجواري اللواتي يدلكن يديه قائلا: " كان إيمانويل الصغير هو سلوتي الوحيدة في تلك الأيام التي أخفيت فيها خجلي حتى عن نفسي. وكنت أحاول نسيان أي شيء وأنا أنظر إلى تحريكه لأصابع قدمه الصغيرة جدا. كان لا يمكن أن أنسى العُدة والاستعداد، كما كان لا يمكن كذلك أن أواسي نفسي، ولكن كنت قد مددت يدي للحصول على الأموال من أهالي جنوة. لو كانوا قد أرسلوا المساعدة التي وعدوا بها في الوقت الذي حددوه كنت سأكون أنا الآخر قد انطلقت للسفر في ذلك الوقت. بعدما أدركت بأن الأمل الذي وعدوا به ليس إلا سرابا وقمت بتنفيذ الأمر الأخير الذي فكرت فيه واستطعت الانطلاق للسفر. لقد أغضبت أمي وأليكسيوس اللذين عجزا عن إنقاذ خزانتيهما ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟" نهضت الجواري واقفات على أقدامهن خائفات

مذعورات وحدقن بأعينهن باهتمام كبير إلى وجه الإمبراطور. رفع الإمبراطور صوته بدرجة أكبر وكأن أحدا لم يكن موجودا بالغرفة وقال بصوت حزين: "إنهم يرون أن كل القرارات التي اتخذتها قرارات خاطئة. إنهم في الحقيقة لا يوافقون كذلك على القرار الذي اتخذته من أجل ابنتي التي لم تبلغ الرشد بعد...". زاد همه وحزنه بدرجة كبيرة وامتلأت عيناه بالدموع. واستمر لفترة غير قادر على البكاء أو التخلص من حالة شبه البكاء التي تسيطر عليه. سدت رغبة البكاء حلقه لفترة طويلة وكأنها قبضة يد وقفت في حلقه. بعدما اضطر إلى التقاط أنفاسه على هذا النحو انقلب بهمه وحزنه على جانبه الآخر. ودون أن ينظر إلى جواريه وأثناء قوله" لقد تزوجت إيلينا وأنا صغير أيضا. وهذا ما فعلته كل من العمة أسبورجه، والخالة تيودورا من أجل بيزنطتنا. وأنا على ثقة بأن إرينا ابنتي سوف تفهم ذلك عندما تكبر..."، حاول استحضار صورة ابن أخته الأمير خليل أمام ناظريه. قائلا: " إن يكن ابن أختي عاقل..." إلا أنه لم يستطع أن يكمل جملته. لأن صورة ابن أخته الأمير خليل التي تجسدت أمامه كانت صورة حزينة وتعيسة وفي حالة يُرثى لها. ملابسه ممزقة، محيط عينه شديد الزرقة وكأن جسده شبه العاري قد نهشه مخلب أسد. ولما تجسدت صورة الشاب أمام ناظريه على هذه الصورة كبرت تلك القبضة التي تسد حلقه بدرجة كبيرة. توقفت أنفاس الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس. وانغلقت جفون عينيه المرهقتين واحدة تلو الأخرى. وضع كفيه في أيدى الجواري وسقط على السرير. هؤلاء الجواري اللواتي أصابهن الفزع لفترة والتقطن أنفاسهن بعد أن سمعن أصوات أنفاس الإمبراطور. ثم بسطن عليه اللحاف وذهبن بهدوء إلى المكان المخصص لهن.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي سقط مغشيا عليه من الانتظار وإضاعة الوقت، غط في سبات عميق إلى ما بعد الظهر. وما كان ليوقظه كبير الحرس أتاندروس لولا تنبيهه عليه بذلك، كان قائد الحرس قد التقط أنفاسه في قمرة الإمبراطور الواسعة فور وصول رسل فونتشه نظرا لأن الإمبراطور قد نبه عليه بشده قائلا: "أخبرني في أي وقت وفي أي مكان فور مجيء خبر أو أحد الرسل من فونتشه". وبمجيء أتاندروس إلى القمرة كان كبير خدم الإمبراطور قد أيقظ الإمبراطور الذي استراح على سريره الواسع بما فيه الكفاية ثم نهض من فراشه فور علمه بقدوم أحد الوفود من فونتشه. وبينما ينتظر قيام الجواري بوضع حذائه في قدميه، تثاءب مرة أو مرتين. فتح ذراعيه وقال وكأنه يخاطب الجواري أثناء ارتداء ملابسه قائلا " يقول أنتيفون؛ إن العقل هو الذي يرشد أبدان البشر في الصحة، أو في المرض أو في كل الأشياء الأخرى" وبينما تنظر جاريات لسبوس لبعضهن بعضا وهن في دهشة وحيرة من الأمر، نهض الإمبراطور واقفا على قدميه وهو يحدث نفسه قائلا: " من أين ستعلمن وتعرفن العصر القديم وأنتيفون القديم؟". انحنى برأسه قليلا وساعدهم في وضع التاج على رأسه. وبعد أن ألقى نظرة على ملابسه التي نسق ونظم الجواري تداخلها ببعضها بعضا خرج من القاعة الداخلية. حينما شاهد أتاندروس الذي ينتظره في الصالون، سأله قائلا:

هل أخبرتم أليكسيوس كذلك؟

أما أتاندروس صديق طفولة الإمبراطور والذي يثق به قدر ثقته بنفسه، والذي يرتدي ملابس شبه مدرعه أجاب منحنيا للأمام قائلا " يا سيدي، إن رئيس وزرائنا موجود الآن مع الوفد.

رئيس الوزراء أليكسيوس الذي شاهد دخول الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس إلى قاعة الاستقبال الموجودة أعلى القسم الذي يوجد به المُجَدِّفون في الطابق الأسفل، لما خاطب الإمبراطور قائلا:

يا صاحب العظمة، انحنى نبلاء دوقة فوتشه الذين ينتظرون بالداخل واقفين على أقدامهم وألقوا التحية على الإمبراطور. ولما جلس الإمبراطور على كرسيه الذي يشبه كرسي العرش الموجود في قاعة الاستقبال الواسعة الموجودة على ظهر السفينة الشراعية التابعة لأسطول الإمبراطور، قال رئيس الوزراء أليكسيوس:

إن المتحدث باسم الوفد الذي أرسله دوق فوتشه لديه ما يريد أن يقوله لكم. وانحنى قليلا إلى الأمام وانتظر.

الإمبراطور يوحنا باليولوج، قال وهو ينظر غاضبا بعض الشيء إلى النبيل العجوز المتحدث باسم الوفد والذي يجلس في المقدمة:

إنني أستمع إليكم.

حاول المتحدث العجوز المحنك أن يرسم بسمة ماكرة على شفتيه، وتكلم بلطف بعدما أدرك أن الغضب الموجود في عيني الإمبراطور يزداد شيئا فشيئا، وكما فعل في الأيام السابقة قام بعرض طلبات الدوق الجديدة واحدا تلو الآخر. وقال الإمبراطور الذي لم يستمع من شدة غضبه لتلك الكلمات الأخيرة التي قالها الرجل:

. أيها الفوتشيون أيها الفوتشيون! لو لم تكونوا رسلا لأمرت بتمزيقكم هنا إربا إربا... اذهبوا الآن من فوركم إلى دوقكم، وأبلغوه بأنه إن لم يسلم الأمير

حتى المساء سوف أحرق قلعتكم عن بكرة أبيها بالنيران الرومية قبل غروب الشمس، ومن سيبقى فيها على قيد الحياة سوف ألقي القبض عليه وأقوم بتسليمه بيدي إلى القائد العثماني. ثم خرج من القاعة.

الرسل الذين أدركوا أن غضب الإمبراطور لا يمكن تهدئته وحينما نظروا وهم خائفون إلى رئيس الوزراء، قال لهم:

نبلاء فوتشه المحترمون، لقد أغضبتم إمبراطورنا بسبب مماطلاتكم المستمرة منذ أيام. وإن إمبراطورنا على حق من الأرض إلى السماء في غضبه. إن ما أرجوه منكم الآن، هو أن تذهبوا فورا إلى دوقكم، وأن تسلموا لنا الأمير العثماني وفقا للشروط الأولى التي تم عرضها وتوضيحها. وإن لم تنجحوا في ذلك سوف تحترقون أنتم أيضا داخل قلعتكم الحبيبة.

وأثناء سير الرسل نحو سلالم السفينة لركوب قواربهم المستديرة الشكل قال لهم أيضا بصوت يرتفع شيئا فشيئا:

لتعلموا أنه لو أصاب الأمير خليل أي مكروه فسوف يحاسبنا العثمانيون وإياكم على ذلك وسيكون الثمن غاليا.

فجأة اختفت عن الأنظار قوارب وفد فوتشه الذين أعطوا انطباعا وكأنهم كانوا يذهبون عائدين على سطح البحر بقواربهم المستديرة الشكل دون أن ينظروا خلفهم بمجرد دخولها من فم الخليج. الإمبراطور الذي شك في اختفائهم فجأة على هذا النحو، استدعى قائد الأسطول الذي عينه قبل الخروج للسفر، وطلب منه بأن تغلق السفن فم الخليج على الفور. أبلغ قائد الأسطول ما قيل له على الفور إلى السفن الأخرى. تقدمت السفن على شكل

صف منظم وسيطروا على فم الخليج. وما إن رسوا، حتى شاهدوا اقتراب إحدى المراكب الكبيرة الرائعة والتي تحمل راية دوقية أهالي جنوة المقيمين في فونشه. فرح الإمبراطور معتقدا أنهم أحضروا الأمير خليل ولكنه أصيب بخيبة أمل لما شاهد المتحدث باسم الرسل الذي يقف على قدميه على مقدمة المركب المهيبة التي تقترب من سفينة القيادة. صعد المتحدث الموجود في المركب التي اقتربت من سفينة القيادة السلم في نفس واحد وما إن جاء إلى جوار الإمبراطور انحنى وبعد أن ألقى التحية قال:

يا صاحب العظمة! أنا مكلف من دوقنا ومن مجلس فونشه المحترم بإبلاغكم بالقرار النهائي.

بعد أن فكر الإمبراطور لفترة في كيفية التصرف حيال هذا الأمر، قال بصوت غاضب بعض الشيء:

حسن قل ما هو القرار النهائي لدوقكم ولمجلسكم المحترم.

قال المتحدث بصوت أشد جسارة:

إن آخر طلب لدوقنا ومجلسنا الموقر، هو أن يقوم إمبراطورنا بزيارة قلعتنا وأن تحضروا معكم عند مجيئكم الفدية التي سيتم دفعها من أجل تحرير الأمير...

اشتد غضب الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس وفار الدم في عروقه، ولكنه أيقن أن الحفاظ على هدوء أعصابه سيكون أفضل الأشياء حصافة، وبصوت هادئ قبل الطلب، وقال إنه سيتحرك على الفور. طلب المتحدث باسم الوفد الذي فرح بالقرار الذي اتخذه الإمبراطور الإذن من أجل إبلاغ

الخبر للموجودين بالقلعة وترك المكان وسار نحو المركب الفخم الرائع. وما إن نزل الدرج وبمجرد أن وضع قدمه على المركب، أمر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بتجهيز مركب الإنزال الكبيرة التي صنعها عمال بونتوس من صلب البندقية والتي تحمل شعار الإمبراطورية والتي تعد السفينة الاحتياطية لسفينة القيادة، ثم نقل صناديق الفدية المختومة بخاتم الإمبراطورية ووضعها على السفينة. وما إن انتهت الاستعدادات حتى ركب سفينته بصحبة حراسة المدرعين وشبه المدرعين. وما إن بدأت السفينة التى يحمل شعار الإمبراطورية في الإبحار نحو الميناء الموجود شرق قلعة فوتشه، حتى شكلت الشاحنات البحرية الصغيرة التي تحمل الذخيرة وقوارب الإنقاذ الموجودة احتياطيا في السفن الأخرى سلسلة طويلة جدا خلف المركب. الإمبراطور الموجود داخل المركب الإمبراطوري الذي يقترب بسرعة نحو الميناء وهو ينظر نحو القلعة حدث نفسه قائلا " يا أنتيفون، هل ترى أن العقل لا يمكن أن يرشد الإنسان إلى الطريق الصحيح في كل وقت؟" نظر إلى القبطان الذي يصدر الكثير من الأوامر باستمرار لمجدفي المركب الذي يحمل شعار الإمبراطورية والذي يتقدم راسما شكل قوس نحو جنوب منطقة القلعة. استدار ونظر إلى سفن الأسطول الموجودة عند فم الخليج وإلى الزوارق التي تشكل سلسلة من خلفها. نظر إلى حراسه الذين يحيطون به من كل جانب. قال وهو ينظر إلى أثانتوس أفوكافوس قائد الحرس " كنت قد فكرت في إرسال أليكسيوس بالخزائن، ولكن ما دام من بالقلعة..." ولكن قبل أن يكمل جملته بدأت كل الأجراس الموجودة في القلعة في الدق وكأنها تنذر بوقوع هجوم ما. الإمبراطور الذي ارتعدت فرائصه من أصوات الأجراس احتار لفترة فيما

يتوجب عليه فعله. التقت عيناه بعيني أتاندروس. وفي اللحظة التي كان سيعطي فيها الأمر بالعودة، شاهد الناس شبه العراة الذين يركضون نحو الميناء وكأنهم يدوس بعضهم بعضا عند باب القلعة المفتوح على الميناء. وأثناء نظره إليهم همس قائلا " كأنهم قد جاءوا من الناحية الأخرى للدنيا". في الواقع كان غالبية الذين يركضون من القلعة نحو الميناء وكأنهم قد خرجوا من الناحية الأخرى للدنيا التي لا تُرى. لا سيما وأن الأصوات الغريبة التي كانوا يصدرونها أثناء ركضهم كانت بمثابة دليل على أنهم لا ينتمون إلى أية دنيا. وأثناء اقتراب المركب الذي يحمل شعار الإمبراطورية من رصيف الميناء المصنوع من الخشب الغليظ كان الإمبراطور ينظر إلى سفن قراصنة أهالي جنوة المقيمين في فوتشه التي تختبئ بين الشاطئ وجنوب الجزيرة الصغيرة. ثم قال وهو ينظر إلى السفن " هم أس كل شيء. لو ..." ولم يستطع أن يكمل جملته إذ تمايل حينئذ وكاد يقع عندما اصطدمت المركب الإمبراطورية برصيف الميناء. وأثناء ربط حبال المركب بالرصيف ولم يكمل جملة " لو هم..." هذه المرة عندما أشار قائد الحرس إلى السلم النقال الصغير الذي وُضع على رصيف الميناء. وعندما لم يتمكن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يسير ببطء نحو السلم، من مشاهدة الوفد الذي سيستقبله بين جموع البشر شبه العراة الموجودين على رصيف الميناء وبينما يتردد هل يصعد إلى رصيف الميناء أم لا بعدما ساورته الشكوك، صعد قائد الحرس إلى الميناء بسرعة وانتظر صعود الإمبراطور الذي ينظر إليه ثم فكر قائلا: " في الأغلب لم يتوقعوا مجيئي بهذه السرعة". تسلق درج السلم الخشبي الذي أمسك به مجموعة من الجدافين حتى يصعد

إلى رصيف الميناء المرتفع وصعد إلى جانب أتاندروس الموجود على رصيف الميناء. عندما وطأت قدماه رصيف الميناء حدث اختلاط في الصفوف الأمامية للبشر المزدحمين الموجودين على الرصيف. وبينما ينظر الإمبراطور وكذلك الحراس إلى موضع الزحام، قامت مجموعة القراصنة التي انسلت من وسط الزحام بالالتفاف حول الإمبراطور وقائد الحرس أتاندروس. وقال المتحدث باسم مجموعة القراصنة الذين وضعوا سهامهم على أقواسهم:

لا يخرج أي أحد آخر إلى رصيف الميناء. وإذا خرج أي شخص ستكون روحه ثمنا لذلك.

(٥٣)

قرر القادة الذين اجتمعوا في مقر القيادة المتنقل فور الاستيلاء على قلعة تريستاسيس بالمواجهات المباشرة والقتال وجها لوجه، إرسال الحراس الذين تم أسرهم إلى بورصه فور الانتهاء من إعداد قائمة بأسمائهم حتى يتم الحيلولة دون فقدان القلعة مرة أخرى وسيطرة الآخرين عليها، وكذلك خروج من يرغب من المهاجرين الذين يريدون مغادرة القلعة مع القوات الأساسية التي انسحبت إلى المعسكر الموجود بالقرب من بلاجار، وكذلك إيواء التركمان المهاجرين القادمين من عند السلطان في القلعة التي أُخليت من سكانها، وتنصيب أول من دخل إلى القلعة من القادة الستة قائدا عليها. أما سليمان باشا والحاج إلباي اللذان شاهدا استقرار النظام استتباب الأمن في القلعة بعد عدة أيام من الاجتماع، وبعد أن رأيا أنه لم يعد هناك ما يفعلانه انطلقا بالقوات الرئيسية إلى قلعة بلاجار. وبمجرد الوصول إلى المعسكر الشتوي الموجود بالقرب من بلاجار بدأوا في الاستعداد للشتاء. بينما كانوا يقومون بعمل استعداداتهم لمواجهة فصل الشتاء في مقراتهم من ناحية، فإنهم من ناحية أخرى أرسلوا إلى قادة الحرب المنتشرين في تراقيا بإنهاء فترة الحرب وكذلك الانسحاب إلى القلاع المحددة للإقامة فيها.

وفي الوقت الذي أُنهت فيه الوحدات القتالية التي انسحبت إلى المعسكرات الشتوية للجيش بوصول هذا الخبر الذي أرسله سليمان باشا

والحاج إلباي من استعداداتها لمواجهة فصل الشتاء في القلاع التي انسحبوا إليها، في البداية بدأ البرد القارس الجاف في تراقيا وأعقبه كذلك هطول الثلوج التي استمرت لعدة أيام دون انقطاع وكأنها لن تتوقف أبدا. أما سليمان باشا الذي لم يستطع حتى تدريب قواته الموجودة في مقر الجيش أثناء هطول الثلوج التي استمرت فترة طويلة، في الأيام التي توقف فيها هطول الثلوج لفترة فاصطحب الحاج إلباي واستطاع الذهاب لزيارة إيجه بك الموجود في قلعة غانيبولي، ولم يكن يستطيع القيام بشيء آخر غير هذا. وكان قادة الحرب الذين ظلوا قابعين في القلاع التي اتخذوها مقرات لهم على نفس الحال. وبينما كان القلق مسيطرا عليهم عندما ينظرون إلى أقواتهم التي تتناقص كانوا جميعا يدعون أن تحل شهور الحرب في أسرع وقت. استمر هذا الانتظار الخانق حتى ارتفعت حرارة الجو. ومع ارتفاع حرارة الجو بدأت الاستعدادات للحرب في المعسكرات. أما سليمان باشا الذي رأى الأبخرة الرفيعة تخرج من بعض الأماكن مع ارتفاع درجة حرارة الأرض، فقد أرسل الرسل الذين يذهبون إلى الأماكن البعيدة إلى كل الجهات، ودعا قادة القوات إلى الحضور إلى المكان الذي حدده في الوقت الذي عينه لهم قائلا: " حان وقت الحرب ". وانطلق بصحبة الحاج إلباي إلى مكان اللقاء بعد خروج الرسل بثلاثة أيام.

سليمان باشا المولع بالانطلاق إلى السفر في ساعات الصباح الأولى، في الصباح الباكر لذلك اليوم كان قد امتطى جواده الأشهب وانطلق إلى الطريق ببهجة الربيع والحرب. الحصان الأشهب الذي أدرك سعادة ونشوة الأمير بمجرد أن امتطى ظهره، بينما يركض وغرته تتطاير في الهواء أخذ

يزيد من سرعته دون أن يُشعر الأمير الموجود على ظهره. كان هناك اتصال حسي عجيب بين سليمان باشا وجواده الأشهب ناصع البياض. وكان هذا الاتصال المتعلق بالمشاعر قويا إلى حد ما، حتى أن كلا الاثنين كانا يقومان بنفس العمل في نفس اللحظة دون علم أي منهما. وبينما كانا على أهبة الاستعداد للانطلاق إلى هذه الرحلة، استدار الاثنان و نظرا بنظرات مليئة بالحزن إلى خيمة الأمير.

لم يكن عدو الجواد الأشهب صاحب هذا الاتصال العاطفي مع سليمان باشا يشبه عدو الجياد الأخرى على الإطلاق. فبينما كانت الجياد الأخرى تسرع في العدو إذا ما ضُرب حزام سرجها إلا أنه عندما كان يضرب حزام سرج الحصان الأشهب كان يشاكس ويبطئ من سرعته، حتى إنه كان يتوقف. ولكي يعدو الأشهب بسرعة كان على سليمان باشا أن يضرب بمقدمة قدميه التي على الركب بطنه من الناحيتين في نفس اللحظة. كان الحصان الأشهب الذي يعجبه مداعبة يد الفارس الذي يمتطيه والذي يميل نحو عنقه ينهض فزعا أو يعدو صاهلا وفقا لكون الربتة الحانية سريعة أو بطيئة. عندما كان يعدو كان يمد عنقه للأمام مثل نسور تهبط محلقة فوق فريستها. إلا أنه في ساحة الوغى كان يعدو باسطا صدره الواسع ورافعا رأسه. لأنه كان بفعله هذا يساعد في الحفاظ على توازن فارسه من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يمكنه حماية نفسه بسهولة.

أما في ساحة المعركة فالحصان الأشهب يكون جوادا مختلفا تماما. فعندما كان سليمان باشا يصارع منافسه كان يراقب حصان المنافس وعندما يكون في أضعف لحظاته كان يقوم بالدوران العكسي ودفعه بصدره، وكان

الحصان المسكين وكذلك الفارس الذي يمتطيه يسقطان على الأرض دون أن يدركا ما حل بهما.

الحصان الأشهب الذي يكون شيئا مختلفا تماما في ساحات الوغى عنه حين يسير على الطريق ففي سباقات العدو لمسافات بعيدة كان لا يريد حصانا يعدو أمامه. وإذا وجد حصاناً يعدو أمامه كان يزيد من سرعته حتى يتجاوزه. لكنه مع عدوه بسرعة مذهلة في هذه الأوقات كان يقف في فترة وجيزة بضربة خفيفة لسليمان باشا على ركابه كأنما يحمل فرملة سحرية.

كان سائسو الجواد الأشهب الذين يعرفون هذا الاتصال العاطفي الموجود بين الأمير وجواده يرتعدون فوق الجواد الأشهب، وكانوا لا يؤخرون وقت طعامه أو شرابه ثانية واحدة. وكان سليمان باشا شديد الولع بحصانه لا يتأخر مطلقا عن زيارته التي كان يقوم بها كل يوم تقريبا لحصانه. وإذا اضطر إلى عدم الذهاب كان يرسل مياهه بكأسه الفضي الذي يقدم له فيه المياه كل يوم.

إن هذا الاتصال العاطفي بين الفارس والحصان كان مستمرا وفي اضطراد متصل منذ سنوات.عندما انطلقوا هذا الصباح فإن الحصان الأشهب الذي انطلق على الطريق بعد أن نظر إلى خيمة الأمير بذل جهدا كثيرا من أجل اللحاق بالمتقدمين الذين يرون عن بعد، لكن نظرا لبعد المسافة بينه وبين الوحدات المتقدمة لم يتمكن من اللحاق بهم بأي شكل من الأشكال. الحصان الأشهب الذي نظر إلى وادي أوغراش الذي يرى عن بعد عند حلول المساء، وبينما كان يبذل أقصى جهده من أجل اللحاق بالوحدات المتقدمة من ناحية فإنه من ناحية أخرى صهل عدة مرات على نحو متقطع وكأنه كان يريد أن

يقول شيئا. صار عصبيا حاد المزاج بسبب تلك الرياح الباردة والقوية التي تدخل عينيه أثناء صعوده التل. ولما رأى سليمان باشا عصبيته ومشاكسته استقرت ابتسامة مرة على شفتيه. ثم حدث نفسه قائلا " أعتقد أنك تريد تذكيرنا بمعركتنا الأولى التي خضناها هنا...". قال وهو ينظر إلى التلال التي تشبه الفخاخ التي تقف متراصة ومتسلسلة ومتماسكة ببعضها " مات صانصو أوغلو من أجل إنقاذي". عندما سمع صهيل الحصان من جديد وهو ينظر إلى مكان المعركة الأولى، كرر عتابه للوادي مرة أخرى و قال وهو يتملكه الغضب: "أعلم يا أيها الأشهب، أن وادي أوغراش قد كلفنا ثمنا باهظا".

في تلك الأثناء قال الحاج إلباي الذي لحق به من خلفه:

إذا أردتم يا أميرنا أن نعطي فرصة للاستراحة فلنتذكر أبطالنا وندعو لهم.

قال الأمير سليمان باشا:

لقد اضطررنا إلى نسيان من فقدناهم من أجل تحقيق الانتصارات الجديدة يا حاج إلباي.

قال الحاج إلباي بانفعال، وكأنه كان يعيش من جديد جو معركة وادي أوغراش الأولى التي خسروا فيها الكثير:

فكرت كثيرا لماذا كان الذين يحاربوننا في ذلك اليوم شجعانا إلى هذه الدرجة. بيد أنني لم أستطع الإجابة عن أي سؤال من الأسئلة التي سألتها لنفسي. إلى أن التقيت براهب فريس. وبينما كنت أحكي له عن حربنا التي التي خضناها في هذا الوادي، قلت له، إن الذين كانوا يحاربوننا هناك لم يكونوا ليقبلوا بالهزيمة قط. ففي الوقت الذي كنا نقول فيه بأننا حققنا النصر

تماما، فإن ما كنا نراه هو أنهم يحملون علينا بإصرار كبير. وقال الراهب العجوز الذي أنصت إلى بهدوء بعد أن أمسك يدي بيده الناعمة قدر نعومة صوته:

لأنهم أحفاد إسوريال الذين لا يعرفون الهزيمة.

قال سليمان باشا وهو يلوي شفتيه:

أيها القائد، من هؤلاء يا تُرى؟

أنا أيضا عندما سمعت من الراهب سألته مثلكم من هؤلاء.

ثم سأل سليمان باشا العجول، وهو يهدئ من سرعة حصانه قائلا:

ماذا قال؟

هؤلاء أيضا عبروا من الأناضول إلى هنا لكنهم مثلنا لم يعبروا من تلقاء أنفسهم. كانوا أحد الأقوام التي تعيش في الكهوف الموجودة في الهضاب التي لا يحلق بها طير ولا تعبر منها قافلة في الجبال الشاهقة التي تقع في منطقة قرامان حاليا. لكنهم لم يشبهوا الأقوام الأخرى. وكانوا يغيرون أماكنهم دون أن يتفوهوا بكلمات مثل الليل والنهار، الثلج والمطر، المطر والوحل وغيرها، ويخرجون من أي مكان وكأنما تنشق عنهم الأرض في الأوقات غير المتوقعة يدمرون ويحرقون القرى والقلاع التي تقع في طريقهم ويعملون السيف في سكانها وقاطنيها، ولم يكونوا يتركون منزلا دون أن يقوموا بنهبه. وفضلا عن ذلك لم يهابوا أحدا ولا يخشون أحدا حتى الإمبراطور. كانوا لا يدفعون الجزية لأحد أيضا ولا يتبعون أحدا. وكأنما امتلكوا الجبال في تلك الآونة. وكانوا بمثابة الجماعة الوحيدة التي تمزق

الروم وأخيرا كانوا يرهبون القوط الذين يعبرون إلى الأناضول. ولكن في النهاية جار عليهم الزمان ولعب معهم القدر لعبته. فقد حاصر جيش الروم الذي ازدادت قوته بتقدمه في الشرق القبيلة بأكملها. قُتل من رفض الخضوع. وأُسر من قَبِل الخضوع. أُحضر كل من تم أسره إلى القسطنطينية. حيث تم ربط كل الرجال في الجياد التي تعدو في الاتجاهات المضادة لبعضها وتم تمزيقهم. وتم تسكين الأطفال الصغار مع النساء في هذه الأودية. ولهذا فإنه من المحتمل أن يكون من يحاربوننا هم أحفاد أحفاد إسوريال الذين لا يهابون الموت.

قال سليمان باشا الذي ينصت إليه باهتمام كبير:

إذن، يا حاج إلباي إن قولنا بأن كل من التقينا بهم على هذه الأراضي إما من أهالي تراقيا أو من الرومان ليس صحيحا. فهذه الأنحاء رأت أكثر مما اعتقدنا، وأراضي مر عليها الكثير. وكنت أتصور أن هناك من سبقونا إلى الضفة الأخرى أيضا. في البداية بدا لي الأمر كذلك. لكنني كنت أظن أن تلك القلاع كانت ملكا لنا. لكن بعد العبور إلى هذه الضفة أدركت أن القلاع التي أخذناها ملكا لنا أو لمن يحاربوننا كذلك. فتارة تكون لهم وتارة تكون لنا أيضا، أحيانا لنا، أحيانا لهم، أحيانا أخرى لا هي لهم ولا لنا أيضا.

نعم سيدي قلت الحقيقة لكنى أراها ناقصة شيئا ما.

قال سليمان باشا المتواضع بعد أن ابتسم:

بالتأكيد من المحتمل أن يكون كذلك. معاذ الله من نحن حتى يكون ما نقوله منزهًا عن النقصان؟ حسب رأيك ما هو الشيء الناقص؟

أرى أنه كان باستطاعتكم أن تقولوا؛ فأحيانا كانت لهم بقدر ما كانت لنا وكانت لنا بقدر ما كانت لهم، وأحيانا أخرى كانت للذين من قبلنا بقدر ما هي لنا... وسيصبح لمن بعدنا بقدر ما ستكون لنا.

مجال حديثكم هذا واسع. من الممكن أن يتسع بقدر ما يتطلب...

على أية حال فلكل شيء ما يميزه ولكن خرير وادي أوغراش هذا مختلف. كأنه مثل أنين قلوب المحبوسين المهترأة دون ظهورهم على جانب التل...

قال سليمان باشا الذي ظل صامتا لمدة قصيرة تحت تأثير ما قاله الحاج إلباي، حتى يغير موضوع الحديث قليلا:

هل سنتمكن من الوصول قبل حلول الظلام؟

سنصل مع الفرسان لكن المشاة الآتين من خلفنا يمكن أن يصلوا صباح الغد... لكن لا يمكن الوثوق كثيرا بهذا الوادي... لكن يجب التنبيه على الطلائع الموجودة في المقدمة والمراقبين كذلك بأن يكونوا شديدي اليقظة حتى لا يحل شيء ما بالمشاة بعد أن نذهب.

أوقفوا جواديهما فترة وانتظرا. وأبلغا قادة الفرسان بواسطة مراسليهما اللذين أتيا إلى جوارهما بأن يقوموا باتخاذ كافة التدابير اللازمة من أجل تأمين الطرق التي سيسكلها المشاة، وأن يضعوا الحراسات المناوبة على طول الطريق. قال سليمان باشا الذي ترك العنان لجواده بعدما ترك كلا الرسولين مكانهما لمساعديهما وبعدما خرجا لإبلاغ قادة الفرسان:

إذا قمنا بتطهير تراقيا حتى حلول الشتاء فإننا في الأغلب سنقوم بنقل مقر القيادة إلى الشمال أكثر...

قال الحاج إلباي الذي ينصت إليه وهو شارد الذهن:

يجب نقل مقر القيادة وكذلك الحريم... يجب أن نتخذ من إحدى القلاع الجديدة نزلا للحريم لأن الشمال سيكون شديد البرودة...

قال سليمان باشا الذي ضغط على شفتيه وكأنه مجبر على فعل شيء لا يريده:

أنت محق يا حاج إلباي، لكن لا أفكر في نقل زوجتي من الشاطئ قبل الاستيلاء على قلعة أدرنه. إن شاء الله ننقلهم إلى هناك إن استولينا عليها. وقال:

في البداية فلتستطلع القوات الهجومية التابعة لأفرانوس بك أدرنه. وليقترب فاضل بك من الشرق. خلال هذا يقوم الرحالة بتمثيل دور وكأنهم يهربون منا ويلجئون إلى أدرنه... وسنتحرك وفقا للأخبار القادمة منهم.

عندما كانا يتقدمان وهما يتحدثان على هذ النحو توقف الحصان الأشهب أولا، ثم حصان الحاج إلباي الكميت. وبينما كان السيدان اللذان لم يعيرا اهتماما لتوقف جواديهما وبينما ينظران لبعضهما بدأ الأشهب في الإنصات لما حوله خافضا أذنيه. وعندما فعل حصان الحاج إلباي الكميت نفس الشيء، فإن الحاج إلباي الذي ينظر إلى سليمان باشا، بعد أن أصغى جيدا لفترة ليحدد الجهة التي يأتي منها الصوت، قال:

ألم أقل يا سيدي أن هذا الوادي ليس خاليا تماما؟ وترجل عن حصانه كما فعل سليمان باشا الذي سبقه بالنزول بسرعة من فوق صهوة جواده.

(٥٤)

خرج ديونسي كونت قلعة فونشه الذي كان يمشي في خيلاء، من باب القلعة الضيق، وكان يعمل على أن يبدو شخصا مهيبا ومخيفا أثناء سيره نحو الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يقف وسط ميدان الميناء. وأثناء سيره على إيقاع طبول الضخمة التي علقها قارعو الطبول الذين جاءوا من خلفه في أعناقهم كان يلتفت وراءه باستمرار ولم يتوان أيضا عن النظر إلى كل من الراهب ذي اللحية البيضاء وإلى حراسه الذين كانوا يرتدون الدروع من رأسهم حتى أخمص أقدامهم الموجودين وراءه.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الموجود في ميدان الميناء الذي ينتظر مجيء الكونت ديونسي الذي يمشي نحوه ببطء في إطار تلك المراسم، كان قد شعر بالارتعاد للحظة بسبب الخوف الذي شعر به، ولم يتأخر في إدراك أن الهدف من إقامة عرض المراسم هو إحساسهم بالرعب والخوف. وشعر بالراحة بعدما أدرك أن الغرض من عدم السماح لحراسه بالخروج إلى الميناء كان بسبب هذا الخوف الذي يتملكهم. نظر إلى حيث توجد سفن أسطوله المجهز أفضل تجهيز والمصطفة على شكل نصف دائرة عند فم الخليج المفتوح على بحر الجزر. وعندما لم يستطع رؤية أي شيء سوى أعمدة وصواري الشراع للسفن والقوادس التفت مرة أخرى نحو الكونت. فكر في أن يخطو عدة خطوات نحو الكونت الذي يقترب بخطى بطيئة، لكنه

تراجع بسرعة عن فكرته تلك حتى لا يجعله يبدو أقوى منه. نظر إلى أعمدة رصيف الميناء غير المنظمة. وبينما يستعرض في عقله تجوله خائفا في كل مكان مر به على جزيرة فوتشه، أبدى رأيه قائلا "إذا تم الاعتناء بحال الميناء التي يرثى لها، فلن يكون كل ما يقال صحيحا". التفت مرة أخرى وعندما نظر إلى القادمين جاءت إحدى الأمواج الكبيرة التي تخلط مياه الأعماق مثل البريمة من بحر الجزر وارتطمت برصيف الميناء محدثة صوت " شرآنق". صوت " شرآنق" الذي أصدرته الموجة امتزج مع الرياح في البداية وبعد ذلك دخل مع الريح من الباب الضيق إلى داخل القلعة. أثناء دخوله من باب القلعة الضيق تحول إلى صوت يشبه صوت عواء الذئب. وبينما يفكر الإمبراطور في سبب هذا التغير الذي حدث للصوت، قام الكونت ديونسي الذي اقترب منه بالانحناء للأمام قليلا وبعد أن ألقى التحية، قال:

أيها الإمبراطور يوحنا باليولوج ابن أندرونيكوس حاكم بيزنطة العظيم! لقد شرفتم قلعتنا. ولقد عم الشعب الفرح والسرور بسبب مجيئكم إلى قلعتنا.

نظر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس إلى الكونت ديونسي وكأنه متردد فيما يجب عليه القيام به، نظرا لعدم استقباله قبل ذلك بمثل هذه المراسم. وابتسم ابتسامة خفيفة عندما شاهد الوجه الصبوح للراهب الذي يرتدي الثياب السوداء الموجود خلفه. وحتى يظهر نفسه بأنه أقوى من الكونت ديونسي استقام بكتفيه. وقال مغاضبا:

أنا أيضا سعيد للغاية بسبب زيارتي لقلعتكم. ولكن لا يمكن أن أقول بأنني سعيد جدا بالسبب الذي جئت من أجله إلى قلعتكم. أريد أن أخبركم بأنكم وضعتم بيزنطتنا في موقف صعب أمام العثمانيين.

لما سمع الحراس الذين لم تطأ أقدامهم أرض الميناء من المركب ذي العشرين زوجا من المجاديف والذي يشبه إحدى السفن الصغيرة التي تذكر بكل عظمة الإمبراطورية والتي تحمل شارتها، الحديث الجرىء الذي قاله الإمبراطور، ومن أجل تشجيعه صاحوا معا قائلين "يحيا الإمبراطور يوحنا باليولوج!".اقترب ديونسي كونت قلعة فوتشه المشهور بجهله، والذي نظر إليهم مبتسما بسمة مريبة وغامضة خطوة أو خطوتين من الإمبراطور. اندهش الإمبراطور بعدما شاهد الكونت الذي دنا منه كثيرا وهو يضع إحدى يديه على سيفه وينظر إلى البحر وهو يعطي ظهره له، وابتسم بعدما أدرك أن الكونت مصاب بالحول الشديد في عينيه. وظن أنه لا استعراضه لقوته، ولا كذلك رفع صوته سيفيدان في أي شيء أثناء الحديث معه. وقال بصوت أهدأ من الصوت الذي تحدث به قبل قليل:

كنت أرغب في المجيء إلى قلعتكم قبل ذلك وفي ظروف أخرى، ولكن كما علمتم فإن آل كنتاكوزين قد جلبوا الكثير من المصائب على رأس بيزنطتنا. لكن الحمد لله، الآن تخلصت بيزنطتنا من مساوئهم. ولكننا الآن مجبرون على التعايش السلمي مع جيراننا الموجودين من حولنا حتى نعمل على تقوية إمبراطوريتنا. ولهذا السبب وعدنا بتسليم الأمير العثماني لوالده أورخان غازي في أقرب وقت. وأنا على ثقة تامة بأنكم سوف تساعدوننا على الوفاء بوعدنا الذي قطعناه على أنفسنا ثم صمت. حاول لفترة معرفة مدى تأثير كلامه على الكونت ديونسي وعلى أهالي فوتشه الموجودين في ساحة الميناء. وأصابه القلق بعد عدم استطاعته فهم أي شيء مفيد من صمت الموجودين الذين يقفون صامتين مثله في ساحة الميناء. قال وبينما ينظر إلى

الأرض قلقا مهموما على هذا النحو، فإن الراهب العجوز - الذي تقدم للأمام عدة خطوات على الرغم من منع القراصنة المسلحين له - انحنى للأمام قليلا وبعد أن ألقى التحية على الإمبراطور قال:

أيها الإمبراطور البيزنطي العظيم أهلا ومرحبا بكم في قلعتنا... وعرض طلباته قائلا : نحن المؤمنون في هذه القلعة، بذلنا كل ما في وسعنا من أجل استضافة الأمير على أفضل شكل تحت رعاية جناب الكونت. نرجو ألا تضنوا على كنيستنا بمقابل هذه الخدمات، الضرائب التي ندفعها لجناب الكونت باسمكم إن لن تعفونا من أدائها كلها فعلى الأقل نطلب أن تعفونا من دفع جزء منها...

نظر الكونت ديونسي بعينيه المصابتين بالحول الشديد إلى الراهب بيد أنه خُيِّلَ للإمبراطور أنه ينظر إليه. الإمبراطور الذي أدرك أن ذلك نتيجة الغضب المخفي الموجود في عيني الكونت المصابتين بالحول الشديد واللتين لا يعرف إلى أين تنظران، أثناء نظره إلى الحفرة العميقة الموجودة في جبهته، فكر بشغف غريب قائلا " ترى! ما هو اسمه الحقيقي". قال الكونت الذي التفت بوجهه نحو البحر:

يا صاحب العظمة! لقد تحدث السيد الراهب عن طلبات كنيستنا. أنا أيضا أؤيد عدم أخذ هذه الضرائب التي تُدفع للبطريركية. فضلا عن أن مجلس قلعتنا يطلب تأجيل دفع ضرائب الخزانة التي تؤخذ من قلعتنا لفترة. كما نطالب بأن يكون الصيادون الذين ألقينا القبض عليهم على شواطئ قلعتنا أسرى لنا.

نظر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذى أصابه الفزع من الرؤيا التي شاهدها، إلى الكونت ديونسي بحال الخوف والرعب التي تتملك الشخص الذي استيقظ بعد مشاهدة رؤية مرعبة. وبينما يمسك نفسه بصعوبة حتى لا يشتاط غضبا حاول أن ينظر باستمرار إلى الراهب، وقال:

يا قداسة الأب، إن الإمبراطورية البيزنطية لن تأخذ الضرائب من كنيستكم مثلما لا تأخذها من بقية الكنائس الموجودة في القلاع الأخرى. سأتحدث في هذا الأمر مع قداسة البطريرك. ثم التفت إلى الكونت ديونسي وقال:

يا جناب الكونت، مهما كان الموقف الصعب الذي وضعنا فيه رجالكم الذين اختطفوا الأمير العثماني، فإن قلعتكم ستظل تحظى برعاية إمبراطوريتنا العظيمة. وسيتم إعفاؤكم من الضرائب التي تدفعونها لبيزنطة لمدة عامين، ولكن الصيادين الذين أسرتموهم سيكونون من الآن تحت حماية إمبراطوريتنا كما كانوا قبل ذلك...

بعد أن نظر الكونت ديونسي إلى سفن الأسطول البيزنطي التي لا يبدو منها سوى صواريها فقط، اتجه بنظراته إلى الإمبراطور وقال مغاضبا:

يا صاحب العظمة، وفقا للقرار النهائي الذي اتخذه مجلس قلعتنا فإنه إلى جانب مبلغ الفدية المطلوب مقابل الأمير العثماني نطالب أيضا أن يُدفع لقلعتنا فدية مقابل الصيادين الأسري الذين أسرناهم في مياهنا.

لما أدرك الإمبراطور أنه لن تكون أمامه فرصة للمساومة قال:

يمكن أن أقبل طلبكم شريطة عمل اتفاقية جديدة في القسطنطينية بعد ستة أشهر.

قال الكونت ديونسي، دون أن يتخلى عن أسلوبه الغاضب:

يا صاحب العظمة، نحن نقبل باتفاقية تعقد بعد سنة...

الراهب الذي شاهد نظرات الإمبراطور الجادة ويعلم عناد الكونت ديونسي تدخل في الحديث حتى لا تتعقد الأمور، وقال:

من أجل الرب يا سيدنا، لا تكسر خاطر جناب الكونت. ترون بؤس قلعتنا. ثم نظر باحترام ممزوج بالخوف نحو الكونت. لما رأت عينا الإمبراطور عيني الكونت شديدة الحول تتقلب وتتحول بسرعة كبيرة شعر بأن الضحكة المازحة التي حدثت قبل قليل تريد أن تخرج مرة أخرى. ولكنه لاحظ في نفس الوقت حركة الدوران والتحول السريع المخيف والمرعب الموجود في نظرات الكونت. نظر إلى الراهب بعطف وشفقة وقال:

قداسة الأب، أقبل بطلب الكونت. سنجلس بعد عام ونعقد اتفاقية جديدة بشأن موضوع الصيادين.

بعد أن قال ذلك أشار الكونت ديونسي إلى كل الرماة الذين اصطفوا على طول رصيف الميناء بنزع السهام التي وضعوها في أقواسهم. وجه الرماة أقواسهم نحو الأرض وبعدما أرخوا حبال أقواسهم، صاح كل أهالي فونتشه الموجودون على رصيف الميناء بصوت واحد مرددين لعدة مرات:

يحيا إمبراطورنا العظيم، يحيا كونت قلعتنا. لما صمتوا نظر الإمبراطور إلى الكونت ديونسي وقال:

يا جناب الكونت ستدخل هذه الاتفاقية حيز التنفيذ اعتبارا من اللحظة التي ستسلموننا فيها الأمير العثماني، وحياه على نحو يليق به.

الكونت ديونسي، سعد كثيرا بسبب تحية الإمبراطور له. وانحنى هو الآخر إلى الأمام وبعد أن حيا الإمبراطور برقة ولطف غير متوقع منه أمر بانسحاب الرماة إلى الخلف وصعود حرس الإمبراطور إلى رصيف الميناء. وبينما يشاهد صعود حرس الإمبراطور الذين هم أكثر منه هيبة واحتراما رويدا رويدا إلى الميناء توجه إلى الإمبراطور قائلا:

يا صاحب العظمة، ألا ترغبون في شرب كأس من شراب قلعتنا إلى أن ينتهي أمين خزانتنا من عملية عد مبلغ الفدية وتسلم مبلغ الفدية التي طلبناها مقابل الأمير العثماني؟

وافق الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يريد تسلم الأمير خليل ومغادرة المكان في أسرع وقت، عندما أيقن أنه لا مناص من تلبية كل مطالب القراصنة نظر إلى الكونت ديونسي وقال:

لا جرم أريد أن أتذوق طعم شراب فوتشه المشهور ونحن ننتظر قدوم الأمير. ونظر إلى حراسه المدرعين الذين يقفون خلفه على شكل نصف دائرة.

(٥٥)

تبادل سليمان باشا والحاج إلباي اللذان يجلسان فوق ركاب جواديهما اللذين انحرفا بفعل الريح الباردة القادمة من الشمال التي لا تتناسب مع جو هذه الأيام، النظرات باندهاش وهما يحاولان تحديد الجهة التي تأتي منها تلك الأصوات غير المفهومة والتي تتزايد تدريجيا. أرهفا السمع جيدا ولما أنصتا جيدا نحو المنطقة المحيطة أدركا أن الأصوات تأتي من بطن الوادي الموجود بالقرب منهما. وعندما أدار كل منهما رأس جواده نحو الوادي في نفس اللحظة بدأ الجوادان في الهبوط إلى بطن الوادي وهما يرسمان خطوطا متعرجة واسعة على المنحدر المستقيم. ارتبك الفدائيون الذين ينتظرون على الطريق والذين لم يستطيعوا إيجاد أي تفسير لصعودهما التل بقرار مفاجئ واختفائهم وراء التل فجأة. اختنق جنودهما للحظة بغبار تراب منحدر التل الذي تحوطة الرياح الباردة عندما قاد الاثنان جواديهما في اللحظة ذاتها. أما جوادا سليمان باشا والحاج إلباي الموجودان على المنحدر الآخر للتل واللذان لا يعلمان بقلق جنودهما عندما هبطا إلى قاع الوادي من بين الأشجار القليلة الموجودة على المنحدر نظر كل منهما للآخر وكأنهما لا يصدقان ما يريانه. ظلت نظرات الحاج إلباي والأمير تتنقل مدة بين الفقهاء والدراويش الذين يرددون الأناشيد الدينية في قعر الوادي. سأل سليمان باشا الذي أصابته الدهشة مثله ونظر إليه، قائلا:

متى جاء هؤلاء إلى هنا؟

سليمان باشا الذي سمع سؤال الحاج إلباي وهو يقود الحصان الأشهب نحو مقدمة القافلة أجاب قائلا:

أنا أيضا لا علم لدي. أما الذي يثير تفكيري هو أنه بينما تُسمع هنا هذه الأناشيد والترانيم في وضوح تام فلماذا تُسمع عند قمة التل وكأنها ولولة ونحيب؟

قال الحاج إلباي:

أنا لست رياضيا. لكن الصوت الذي أسمعه من هؤلاء ربما يكون قد تشتت وتبعثر بفعل سرعة الرياح على المرتفعات.

نظر سليمان باشا الذي كان يعلم جيدا ما سيقوله وكيف سيقوله وهو يبتسم إلى الحاج إلباي. لما لاحظ عدم اكتراثه به أسرع خطى حصانه قليلا ووصل إلى مقدمة الركب قبل أن يسأله سؤالا آخر. قادة القافلة غير المرئيين كانوا وسط القافلة. وكانوا يسيرون في مقدمة الركب على هيئة مجموعات بزيهم المزركش. لكن كان لكل مجموعة منهم زي خاص بهم. سليمان باشا كان قد رأى مجموعات الدراويش التي تتكون من خمسة أو عشرة أشخاص الذين جاءوا إلى بورصه، إلا أنه لم يكن قد شاهد مجموعات الدراويش المتنوعة التي تسير إلى جانب بعضها بعضا على هيئة مجموعات على هذا النحو قط. ولما كان الدراويش قد تعرفوا عليه من عمامته فقد كانوا ينحنون ويلقون عليه التحية وفقا للنظام المتعارف عليه بينهم. وهم مستمرون في تلاوتهم لأناشيدهم وترانيمهم الدينية. وكانوا بعد نهاية كل أنشودة يكررون أبياتهم الشعرية التي تقول: "السيوف دامية؛ أبطالها المحاربون الذين هم مثل الطيور المحلقة، أبطالها صائدون". سأل الحاج إلباي الذي شاهد لفترة

استمرارهم في طريقهم داخل نظامهم هذا الخاص بهم، سأل رئيس القافلة المسن الذي يشبه تجار الهند قائلا:

من أين يأتى الشيوخ والأولياء وإلى أين أنتم ذاهبون؟

بعد أن ألقى قائد القافلة الذي يخرج شعره من عمامته التحية عليهم من فوق حصانه، أجاب بصوت هادئ قائلا:

نحن ذاهبون بعناية أورخان غازي إلى رعاية أفرانوس بك.

هنالك أدرك سليمان باشا أنه لم يعد هناك أية جدوى للكلام. لم يكن يرغب فى السؤال عن شيء إلا أنه عندما لم يستطع التغلب على فضوله، قال:

أثار انتباهي القفطان الملون الذي يرتديه أولياؤكم و دراويشكم.

ولما أدرك رئيس القافلة الذي يمتطي جواده، من عمامته بأنه الأمير قال مبتسما:

يا أميرنا، تكية كل مجموعة مختلفة وفقا للقلعة التي تأتي منها. الجميع يريدون أن يعرفوا بزيهم الخاص بهم. انظروا إلى هؤلاء الدراويش الذين يرتدون السراويل ذات اللونين الأسود والأحمر الذين يمشون أمامنا من تيرميز، والدراويش ذوي السراويل ذات اللونين الأخضر والأصفر الذين أمامهم من هيراة، والمجموعة الكبيرة الموجودة خلفنا والتي ترتدي القفاطين الحمراء من قلعة الخليفة، وتلك التي ترتدي السراويل السوداء من تبريز، وتلك التي ترتدي الملابس البيضاء من قرامان إنهم الدراويش الذين أسسوا وحدة وتآلفا عاطفيا ودخلوا تحت رعاية أورخان غازي. إن أمنيتنا جميعا هي قدوم أورخان غازي الذي استضافنا طوال الشتاء من أجل أن ننضم إلى جنودنا البواسل الموجودين على هذه الضفة عندما ترتفع درجة حرارة الجو:

إنه أرسلنا إلى هذه الضفة قائلا مادام هدفكم واحدًا انطلقوا جميعا في سبيل غايتكم. ونحن كذلك عندما سمعنا بخروجكم لحملة جاليبولي انطلقنا على الفور من أجل اللحاق بكم. الأماكن والطرق التي أتينا منها مختلفة. إن تُلحقونا بالوحدات الهجومية التي ترون أنها مناسبة لنا، ستكون الجهات التي سنذهب منها مختلفة هي الأخرى.

نظر سليمان باشا إلى الدرويش العجوز الذي كان كل ما قاله في موضعه تماما وابتسم. وعندما كان ينظر إلى الحاج إلباي وكأن كلماته قد نفدت، اقترب منهما أحد الرسل. وبينما ينظران إلى الرسول ترجل الرسول من فوق حصانه وبعد أن ألقى التحية على الأمير، قال:

يا أميرنا، أراد القادة أن أبلغكم بأن المسافة بيننا وبين الخيالة هي مسيرة نصف يوم.

أدرك سليمان باشا والحاج إلباي اللذان ينظران من خلف الدراويش والفقهاء الذين يسيرون وهم يرتدون قفاطينهم الملونة، أنهما أضاعا وقتا كثيرا بنزولهما إلى قاع الوادي. قبل أن يقول شيئا للرسول رددا مع مجموعة الفقهاء والدراويش التي تمر من جوارهما أبياتهم الشعرية التي تقول: "السيوف دامية؛ أبطالها الغزاة مثل الطيور المحلقة، أبطالها صائدون". وهمزا جواديهما بالمهماز...

إن الخيالة الموجودين تحت قيادة سليمان باشا والذين واصلوا رحلتهم بحصولهم على فترات استراحة قصيرة في ذلك اليوم، وصلوا مكان اللقاء حينما كان نصف قرص الشمس الذي اختفى في الأفق يسحب النصف الآخر

إلى خلف الجبال بهدوء وروية. ولما دخل سليمان باشا والحاج إلباي إلى خيمة مقر القيادة المؤقت الذي أقامته الوحدات الأمامية، كان الكثير من الأبطال وقادة الحرب هناك. بعد أن قاموا بالعناق وتبادل التحية والحديث لفترة، جلس أبطال الديوان على الأرائك الموجودة على اليمين و جلس قادة الحرب على الأرائك الموجودة على اليسار.

عندما نظر سليمان باشا إلى صف القادة وكأنه يبحث عن أحدهم:

قال أفرانوس بك:

هل تبحث عن إيجه بك يا أميرنا؟

أجاب سليمان باشا بطمأنينته التي يفهمها جيدا قادة هذه الغزوة الذين يشاركون بعضهم وحدة المصير منذ سنوات، قائلا:

نعم أفرانوس بك، ألم يأت بعد؟

يا أميرنا، إن رسله أبلغونا بأنه سيتأخر من أجل إحضار بشرى لنا...

قال الأمير سليمان باشا:

ليكن خيرا إن شاء الله يا أفرانوس بك.

بينما كان السيدان يتبادلان الابتسامات بنظراتهما الممتلئة بالسرور والدهاء، سأل أقتشا قوجه أوغلو الذي بدا كطفل ضخم لا يستطيع أن يخفي ما بداخله، قائلا:

يا سيدي لقد نفد صبري. أريد أن أوضح ما أردت توضيحه قبل قليل؟

كأن النظرات السعيدة التي تندفع من عيني أقتشا قوجه أوغلو المبتهج مثل طفل ضخم سقطت على الأرض خجلا عندما اتجه سليمان باشا نحوه بنظراته. وبينما كان مترددا في رفع نظراته الخجولة تلك من على الأرض، جاء صوت أفرانوس بك لنجدته.

يا ترى ماذا كان الخبر المفرح الذي يفيض من قلب أقتشا قوجه أوغلو الكبير؟

عندما نظر إلى أقتشا قوجه أوغلو بأسلوب يؤكد ويدعم سؤال الأمير سليمان باشا وأفرانوس بك:

يا سيدي، لقد أخبرت كل الأمراء قبل مجيئكم مباشرة بسروري الذي يفيض من داخلي.

قال أفرانوس بك عندما شاهد سعادته الطفولية هذه، بعد أن قال، "مثل والده":

أنا كنت إلى جوار أقتشا قوجه في المساء الذي بعث فيه رحماني إلى قلعة أيدوس. في ذلك المساء كان والدك سعيدا جدا مثل سعادتك الآن.

لا تبدو مقارنة جيدة لسعادتنا نحن الاثنين يا أفرانوس بك.

قال أفرانوس بك الذي ازداد فضوله بعض الشيء:

لا تشوقنا أكثر من ذلك قل، ما الذي كان أعظم من حب ابنة الحاكم البيزنطي لرحماني؟

نظر أقجه قوجه أوغلو إلى سليمان باشا قائلا:

يا سيدي الأسبوع الماضي دخلت قواتنا الهجومية القلاع الثلاث الموجودة على شواطئ البحر الأسود في ذات اليوم... القلاع قلاع صغيرة لكن الشواطئ التي تطل عليها مهمة لنا.

قال أفرانوس بك الذي انتهز فرصة صمته بعد قول سليمان باشا " إلى العلا " :

كنت محقا في سرورك يا أقتشا قوجه أوغلو. في الحقيقة كنت أريد أن أتحدث في البداية عن لجوء أول قوافلنا الغازية إلى قلعة ديموطيقا لاجئين فارين منا، بيد أن ما قلته أنت كان أهم مما كنت سأقوله أنا.

قال سليمان باشا وهو ينظر إلى كل من أقتشا قوجه أوغلو وأفرانوس بك:

- لقد أسعدتمونا بالأخبار التي قلتموها، ليسعدكما الله كذلك. ثم نظر إلى الحاج إلباي حتى يبلغه بالموضوعات التي ستناقش في مقر قيادة الحرب في ذلك اليوم.

استمر الاجتماع كذلك بعد استراحة تناول طعام العشاء. وبينما كان الاجتماع على وشك الانتهاء قرابة منتصف الليل، دخل كبير رسل سليمان باشا داخل مقر الاجتماع. بعد أن انحنى وألقى التحية على الحاضرين قال بصوت أجش:

يا سيدي، إن إيجه بك الذي وصل إلى مقر القيادة قبل قليل، أخبرنا بأنه سينضم إلى الاجتماع بعد قليل.

(٥٦)

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس كان قد عاد من فوتشه قبل عدة أشهر إلا أنه حتى الآن لم يكن قد استطاع التخلص من تأثير تلك الأيام التي ما زالت تمثل له كابوسا مزعجا. كلما خطرت بباله هذه الأيام كان يفقد السيطرة على أعصابه من الخوف ولا يستطيع كذلك التحكم في يديه وقدميه. وفي أحد الأيام التي ارتفعت فيه درجات الحرارة وبدأت رياح الربيع في التجول في قلعة القسطنطينية فإن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يتذكر تلك الأيام العصيبة، خرج من قاعته الموجودة في قصر الحكم وذهب بخطى سريعة إلى عربته الإمبراطورية. وأثناء ركوبه العربة أمر قائدها قائلا:

إلى القصر.

لما بدأت الخيل تسير بخطواتها المعتادة بمجرد أن فقع قائد العربة سوطه في شق طريقها نحو قصر الإمبراطوري الذي يطلق عليه قصر الإمبراطورة إلين، تمدد الإمبراطور على الأريكة الموجودة في القسم المغلق من العربة وانتظر مجيء تلك النوبة. ولكن عندما لم تأت هذه المرة نوبة الكابوس الذي انتظره، غمر قلبه سعادة غامرة لا يعرف سببها. وبينما يسبح وسط هذه السعادة، ولسبب غير معلوم تجسد أمام ناظريه قدوم الأمير خليل نحوه بمشيته وهيئته التي يرثى لها. وشاهد مشيته بخطواته الضعيفة كالحالة التي كان عليها في ميناء فوتشه. وبينما يحاول استرجاع المشاهد والصور

التي غابت بسبب صوت قائد العربة الحاد، جدد ذكرياته مرة أخرى، وبدأ صوته الداخلي في الحديث قائلا: لما شاهدت هذه المناظر القذرة، اعتقدت أن مرضا خبيثا قد أصاب كل سكان القلعة وعندما خطر ببالي قول والدتي: "منذ طفولتك وأنت تجذب الأمراض مثل المغناطيس...". تملكني الضيق والضجر. وحتى لا ألتقط المرض فإنني بعد أن صافحت الأمير خليل للمرة الأولى حاولت عدم الوقوف بالقرب منه حتى الوصول إلى السفينة. وبمجرد أن تركت الأمير في غرفته مع الأطباء ألقيت بنفسي في تلك الغرفة الصغيرة جدا وكأنني أحتمي من مخاوفي. كنت أريد أن ألقى بنفسي على الفراش بمجرد الدخول من باب الغرفة كما كنت أفعل في الكثير من الأوقات ولكن خلعت تاجي ووضعته على الفراش، وما إن خلعت ملابسي الخارجية الفضفاضة حتى دخلت حوض الاستحمام المثبت بأرض الحجرة والذي يشبه أحد البراميل المصنوعة من الخشب المعشق المحفور جدارنه. جواري لسبوس اللواتي شاهدن دخولي إلى حوض الاستحمام بملابسي على هذا النحو ركضن وأتين إلى جواري. بينما ينظرن إليَّ مندهشات حائرات، وأنا أنظر إليهن على ذات النحو، سألت كبيرة الجواري قائلة:

هل تسمح لنا يا صاحب العظمة لنقوم بخلع ملابسك، استحييت وقمت وخرجت من حوض الاستحمام الذي هو على شكل برميل. قامت الجواري بخلع ملابسي وحذائي. وجددن مياه حوض الاستحمام. وأضفن إلى الماء الدافئ خلاصة زهرة البرجمون ثم طلبن مني دخول حوض الاستحمام مرة أخرى. وبعدما التقطت أنفاسي وبدأت أفيق شيئا فشيئا مع لمسات أطراف أصابع الجواري الناعمة لجسدي داخل الماء، وبينما ألتقط أنفاسا عميقة حتى

أملأ رئتيَّ برائحة زهور البرجمون، قلت" ليس كل الرومان سيئين". لما نظرت جواري لسبوس إلى وجهي دون أن يفهمن هذا الأمر، قمت بالشرح المفصل لهن قائلا " هذا يعني أن أقول، أن أنتالوس ملك البرجمون لو لم يترك أراضيه لروما، فإن الرومان كانوا سيأتون وكانوا لن يستحموا في الماء المخلوط بالبرجمون، ولما كانت زهور البرجمون التي تلقى في ماء الاستحمام ستصبح دواء للأمراض أيضا. ولكنا حتى الآن سنعتقد أن الزهور خلقت ليشمها أوروس فقط.". ولما استعدت قدرتي بشكل جيد بسبب تدليك أنامل الجواري الناعمة لجسدي أخبرتهم بأنني سأخرج من حوض الاستحمام. كبيرة جواريىّ الماهرة في عملها أخرجتني بمساعدة الجواري الموجودات بجوارها وجففوني بمناشف فلاديلفيا الكبيرة. ألبسوني بيجامتي الجريرية وأثناء ذهابهم بي رويدا رويدا إلى سريري لمست يدي بيجامتي الحريرية. ومع لمس يدي لبجامتي الحريرية، قلت " على الأرجح أنا محق في موضوع الرومان. في الواقع لم يكونوا سيئين لهذه الدرجة. وقلت، لو أن جوستنيانوس الماكر لم يقل أثناء إعطاء العصي المحفورة من الداخل إلى رهبان برس الشغوفين والمولعين بالمال والثروة؛ "ستأخذون ذهبا أحمر وزن شرانق الحرير التي ستحضرونها" لكنا سننتظر حتى الآن الحرير الصيني الذي سيحضره تجار صوغديوت.". لما نظرت الجواري اللواتي شبهتهن بالدلافين إلى وجهي ببلاهة في ضوء القناديل الملونة، وفي الوقت الذي كنت قررت فيه أن أحكي لهن عن الدلافين، تجسد أمام ناظري مرة أخرى ذلك الوجه الشاحب للأمير خليل الذي كان موجودا على الميناء. أثناء قدومه نحوي بالخطى المتثاقلة على رصيف الميناء، كنت قد فكرت قائلا: " في الأغلب

أصابه مرض السل". ولكن لما ورد ببالي أنه لم ير الشمس وأنه يقيم في الدهاليز كما أنه لم يقم بالاستحمام منذ أشهر نهضت واقفا على قدماي مرة أخرى وأمرتهن بأن يلبسنني ملابسي. ارتديت ملابسي وأثناء خروجي إلى الغرفة الخارجية للقمرة قلت أيضا لرئيسة الجواري:

جهزن حوض الاستحمام كما قمتن بتجهيزه لي قبل قليل.

لما نظرت كبيرة الجواري التي لم تستطع فهم أي شيء مما قلته إلى وجهي:

كانت قد غطت الابتسامة وجه الجواري عندما قلت، يا عزيزتي بيرومنوس، أقول جهزن الحمام كما قمتن بتجهيزه لي وقمن كذلك بعمل حمام جميل للأمير. ولكن بعدما أدركن بأنني جاد فيما أقوله تجمدت ابتساماتهن على وجوههن. اغتسل الأمير الشاب جيدا وعندما ارتدى الملابس التي وضعتها خالته إيلينا قد خرج الأمير خليل بهيئة مختلفة تماما عن الهيئة التي كان عليها قبل ساعات. أثناء النظر إلى وجهه الذي اكتسب اللون الوردي وفكرت قائلا " ابنتي ايرينا أصغر منه ببضع سنين ولكن سيكبر هو أيضا بعد بضع سنين". جسد الأمير الذي هدأ وارتاح بالحمام الذي حصل عليه الأمير بعد عدة شهور كان وكأنه قد تذكر تعبه وعناءه. لما أدركت أنه على وشك أن يغمض عينيه اللتين يغشاهما النعاس، قلت له اذهب واحصل على قسط من الراحة في غرفتك. ألقى عليّ التحية باحترام ومضى بخطى سعيدة منتشية نحو غرفته. بعد أن خرج من غرفتي صعدت بدوري إلى سطح المركب من أجل مشاهدة غروب الشمس التي تصبغ بحر الجزر باللون الأحمر. نظراتي التي تتابع الومضات استغرقت وذهبت إلى مكان بعيد.

وكأن فلاسفة مدرسة علوم أثينا ماثلين أمامي وتحدث بصوت عال قائلا " أيها الفلاسفة الذين دمرتم أثينا بأنوار الحكمة، هل كان من اللازم أن تأخذوا معرفتكم وتذهبوا بها. ألم يكن من الممكن أن تتركوا بعضا منها على وجه الأرض؟ وأنت يا أنتيفون، تقول؛ إن البشر يدعون بأنهم يشبهون الرب أكثر من الحيوانات. فهل هذا الكلام ينطبق أيضا على ديونسي مصيبة فوتشه؟ إذا كان ينطبق عليه، لتعلم أنك مخطئ ولست على صواب...". حدثت بعض الأشياء بداخلي. رقص قلبي من الفرح والسعادة. في الوقت الذي كنت على وشك أن أخطو خطوات على سطح السفينة فرحا مسرورا، حدث شيء لا يمكن حدوثه. أصبحت وكأنني أسمع أنتيفون يقول لي من بين تلألؤ الوميض الموجود على مسافة بعيدة " يا ابن باليولوج؛ إن الشيء الذي يتوجب عليك ألا تنساه، هو أن الحزن ليس بعيدا عن المكان الذي توجد فيه السعادة والسرور، حيث إن السرور والمرح لا يأتيان بمفرديهما...". وبينما كنت أنظر مندهشا على هذا النحو إلى الآفاق البعيدة، سمعت وقع أقدام تأتي من خلفي. استدرت ولما نظرت وجدت أمامي قائد الأسطول الذي عينته أثناء الخروج إلى فوتشه. كان يريد قول بعض الأشياء ولكن وكأنه لم يكن يستطيع أن يقول... لما دقق النظر إلى وجهي هربت نظراته من نظراتي ثم قال:

يا سيدي، كنا سنصل إلى مضيق الدردنيل قبل منتصف الليل، ولكن الربان يقول إن العاصفة سوف تلحق بنا قبل وصولنا إلى هناك...

لما سألت قائد الأسطول وأنا أشير إلى أديم السماء الأزرق، قائلا:

هل يمكنك أن ترى العاصفة في أديم السماء الأزرق هذا؟

قال قائد الأسطول وهو يلقي التحية:

يا سيدي أنا أيضا لا أرى، ولكن الربان يعرف كذلك أديم السماء الأزرق قدر معرفته المياة الزرقاء. لكن كنت قد أردت إبلاغكم بما قاله فقط.

كنت قد قلت لقائد الأسطول ليطمئن قلبه وألا يبالي، وبأن لا يسمح لأي شيء بما فيها العاصفة بإيقافنا حتى نصل إلى القسطنطينية. بعد ذلك دخلت إلى غرفتي وأمسكت القلم لأكتب رسالتي أزف فيها البشرى السعيدة لأورخان غازي العثماني. بعد المقدمة الطويلة كنت قد خاطبته قائلا "*... ليكن معلوما لدى أورخان غازي حاكم إمارة آل عثمان، أن الأمير خليل معنا سليما معافا. من الآن فهو يُعد ابنا لنا، لأننا كنا قد قررنا مع خالته ايلينا بعقد خطبته على ابنتنا الأميرة ايرينا. ولذا فعندما نصل إلى القسطنطينية سيحل الأمير ضيفا علينا في قصرنا لفترة. وبعد ذلك سأقوم بنفسي بتوصيله وابنتي إلى قلعة نيكوميديا التي يحكمها الأمير خليل. ولا يسعنا سوى تمني السعادة لهما... آيا أورخان غازيبا أيها القائد العظيم لإمارة آل عثمان، آمل أن نجد الفرصة لتبادل الحديث في نيكوميديا.*

إمبراطور بيزنطة

يوحنا باليولوج الخامس

وبمجرد الانتهاء من كتابة رسالتي، وفي الوقت الذي كنت أفكر فيه بتناول الطعام مع الأمير خليل، صدق ما توقعه الربان. وبدأت أمواج البحر الذي غضب فجأة تأرجح مراكبنا الكبيرة مثل مهد الرضيع.

ولما توقفت العربة التي جاءت أمام القصر الصغير سكت الصوت الداخلي للإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس.

(٥٧)

لم يكد يصل إيجه بك إلى مقر اجتماع القادة حتى ترجل عن جواده. ثم خلع جواربه الصوفية المنقوشة المنسوجة من الحرير الرقيق الجافة والتي كانت تبدو كأنها متصلة بالنعلين ذوى اللبدة البيضاء اللذين ارتداهما أثناء رحلته الطويلة التي قطعها على ظهرحصانه. ثم ارتدى جوربيه وحذاءه قصير الساق. ولم يكد يستريح قليلا في خيمة مقر الضيافة المؤقت ويحتسي بعض المشروبات الباردة حتى صعد مباشرة بخطوات واسعة منحدر التبة الصغيرة المقام عليها خيمة القيادة التي يجتمع فيها القادة. عدّل سرواله القطني الأزرق وسترته المطرزة بخيوط الحرير قبل أن يدخل من باب خيمة مقر القيادة، وحينما حدث نفسه قائلا: " حتى لا يقولوا بلغه الكبر وغير مهندم"، ضحك على ما قاله. لما دخل إلى الداخل بوجهه الباسم البشوش اعتدل سليمان باشا واقفا على ركبتيه احتراما لكبر سنه وقال وهو يرد عليه التحية: أهلا وسهلا إيجه بك.

إيجه بك انحنى قليلا للأمام مبديا الاحترام ثم قال:

أهلا بك يا أميرنا، مشى ثم جلس على المقعد الشاغر الموجود بين أقتشا قوجه أوغلو وأفرانوس بك الذي يجلس عن يمين الأمير سليمان باشا ثم نظر إلى سليمان باشا من مقعده.

قال سليمان باشا:

ننتظر جميعا بفارغ الصبر ما ستخبرنا به يا إيجه بك.

اعتدل إيجه بك واقفا على ركبتيه منحنيًا قليلا للأمام ثم قال:

معذرة يا أميرنا إن كنت قد جعلتكم تنتظرون، فإنني كنت مجبرا على التأخير. لقد أغرقت إحدى السفن الحربية أثناء مرور أسطول الإمبراطور باليولوج الخامس من أمام جاليبولي عن غير قصد إحدى شاحناتنا التي كانت تعبر إلى الضفة الأخرى أثناء مرورها من أمامها. من حسن الحظ أن البحارة في السفن الأخرى هبوا لمساعدتنا ولم يمت أحد. وأيضا...

لم يكمل جملته، ثم تفحص بنظراته كل من حوله. وطاردته نظرات عيونهم. ولما شعر بنفاد صبرهم، قال:

وأيضا انتظرنا الهدية التذكارية للمرحوم علاء الدين بك المهداة لإمارتنا، وعبور قافلة المشاة الجديدة التي ترتدي زيا غريبا من الضفة الأخرى وانطلاقها من جاليبولي.

قال الأمير سليمان باشا إنه سعيد بالأخبار التي ساقها إيجه بك. وبعد أن صمت برهة تحدث قائلا: إن النظام يسير بشكل رائع من إيجه أباد حتى شواطئ تريستاسيس بفضلك يا إيجه بك. وقد أضفتم سعادة إلى سعادتنا بالأخبار التي سقتموها إلينا. إن المشاة الجُدُد الذين أتوا من بورصة جاءوا في موعدهم. إننا كنا في أمس الحاجة إليهم في القلاع الموجودة داخل حدودنا التي وسعها كل من فاضل بك وأقتشا قوجه أوغلو. وفي مقابل أخبارك هذه، لدينا كذلك أخبار سعيدة نبلغك إياها، فلتعلم أن الخنجر العثماني المغروس في

قرن البحر الأسود على الشواطئ المقابلة سيُغرس هنا في كتف البحر الأسود أيضا بفضل قواتنا الهجومية. حَيًّا إيجه بك كلا من أقجه قوجه أوغلو وفاضل بك ملتفتا برأسه نحوهما، وبعد أن ألقى التحية على قادته أطبق الصمت على المكان. كان هذا الصمت يعني أنه لم يعد هناك أي موضوع سيتم مناقشته. الأبطال الشجعان المسنون الذين أدركوا أنه لم يعد هناك ما سيناقشونه طلبوا الإذن لهم بالانصراف وغادروا الديوان. إلا أن القادة الذين استولوا على القلاع الجديدة ظلوا حتى بعد منتصف الليل وتشاطروا ذكرياتهم مع القادة الآخرين. ولم يكن سليمان باشا قد غادر خيمة القيادة لسعادته بمثل هذه الأحاديث. لكن الحاج إلباي تحدث بعد انتصاف الليل بفترة كبيرة قائلا:

عندما وطأت أقدامنا هذه الضفة من الدردنيل كنت قد خططت لاستقرارنا على هذه الضفة. لكن ما جرى حتى الآن ليس مُخططا له، طالما استمرت سماحتنا سنضم المزيد من القلاع لإمارتنا بعد ذلك دون أن نفقد الأرواح والمال كما حدث حتى الآن في القلاع التي استولينا عليها. لتستمر سماحتنا وغزواتنا دون إراقة الدماء ولتكن عدالتكم منصفة.

انتهى الاجتماع الموجود في خيمة القيادة بحديثه هذا. بعد أن انحنى جميع القادة وألقوا التحية ثم غادروا الخيمة، قام سليمان باشا هو الآخر واتجه نحو خيمته المتنقلة. تناهى إلى سمعه قبل وُلُوجه خيمته بفترة أصوات تشبه صوت إنسان مبحوح يمتزج بأصوات البوم التي حاولت كسر صمت الليل. ولما دخل خيمته المتنقلة أصابته الدهشة. نشر الرائحة التي انتشرت في المدخل الذي ينفصل عن الأقسام الداخلية بطبقات الستائر، حاول أن يفهم السر الذي يكتنفه الغموض المختفي وراء الظلام الدامس المضاء بالقناديل

الملونة الموجودة بالداخل. لما دخل إلى الداخل وارب الستائر التي تفصل فيما بين الغرف الصغيرة المُنفصلة عن بعضها بالستائر عن الفراغ الموجود بعد المدخل التقت عيناه بأنيتيوبا جميلة تشيمبا التي كانت في انتظاره. سليمان باشا كان قد أحضر أنيتيوبا إلى بورصه في العام الماضي، وكانت نيلوفر خاتون قد قامت بتنشئتها وتربيتها مثل بقية الجواري الأخريات حتى تكون ضمن حريم ابنها. إن أنيتيوبا كانت قد أقامت ليلة وداع لسليمان باشا الذي خرج لأولى غزواته هذا العام كما تعلمت من رئيسة جواري نيلوفر خاتون مع بقية الجواري الأخريات. لم يكن سليمان باشا شديد الوله بها ولكنه كان يشعر بامتنان لا محدود نحو هذه الجارية التي استطاعت مواساته في أيامه الصعبة غير المُحتملة التي كانت في جاليبولي. ولذا جعلها رئيسة حريمه المتنقل معه. أنيتيوبا التي اعتادت الحياة المستقرة، لم تكن في البداية قد اعتادت على حياة الترحال التي يعيشها سليمان باشا ولكنها عرفت شيئا فشيئا أن هذا هو السبيل الوحيد الذي يجعلها قريبة منه. حتى أنها بدأت تشعر وكأنها مهملة عندما كانت تقيم في القلاع، وحتى لا تبتعد عن سليمان باشا نذرت حياتها لإكمال حياته. كانت سعيدة جدا بهذا، بيد أن هذه السعادة لم تستطع أن تُنسيها زوجها الذي أسره الكتالونيون ولا أباها وأمها اللذين أُلقيا من نوافذ بيتهما إلى الشارع واحدا تلو الآخر كالخرقة الدامية وتهشمهما. وحتى تتذكرهم باستمرار كانت تحمل في حزامها منديلا حاكته بنفسها من الحرير الأحمر. وكانت بين الفينة والأخرى تبسط هذا المنديل على وجهها وكانت تشعر بسعادة بالغة عندما تتذكر عائلتها من جديد. في الحقيقة كانت تريد التعود على فقدانهم إلا أنها كانت كمن احتفظ بثعبان كاذب داخل هذا

المنديل يستفز حواء، كان يدعوها باستمرار لتذوق هذه السعادة الغريبة. في الوقت الذي أوشكت فيه أن تدرك أنها لا يوجد لها أي هدف آخر غير الحياة بهذه السعادة الغريبة، وبينما كانت تسلي نفسها قائلة: " ليست أفاعي الكذب، إن نقاء قلبي هو الذي يخدعني" وكانت تستغرق في التفكير قائلة " لست سعيدة مثل أنتيوبا التي سُميت باسمها حتى أنجب توأمين. لكن آه لو يريد سليمان ويكون لي ولو طفل واحد". كانت قد راودتها هذه الفكرة مثل إحدى النسائم الرقيقة بينما كانت تستقبله خلف ستارة باب خيمة الديوان. أمسكت بيد سليمان باشا الذي ينظر إليها. وذهبت به إلى الغرفة الصغيرة التي يوجد بها حوض الاستحمام الذي يشبه الكأس الضخم المصنوع على طريقة عمال فخار مينوس المهرة في عصر القصور.

كانت غرفة أنتيوبا الصغيرة التي تنفصل عن باقي الحجرات بالستائر القطيفة السميكة تضاء بالقناديل متعددة الألوان المصنوعة جزيرة كريت، وكانت تعبق الغرفة روائح عطر متنوعة تنبعث من المباخر. سليمان باشا الذي بدأ يستنشق شيئا فشيئا الروائح الطيبة التي تحرق منخاره، كان قد سلم نفسه لأيدي أنتيوبا وهو خائف كعصفور نجا من براثن البوم الذي شق ظلام الليل. بينما كانت أنتيوبا تساعده على خلع ملابسه، كان يستنشق روائح زيت الورد التي يُطلق عليها "رائحة أمي" التي تنتشر من الماء الفاتر الموجود في حوض الاستحمام المصنوع من الفخار. لم يكد سليمان باشا يدخل الماء الفاتر الموجود في حوض الاستحمام حتى تم مواربة الأبواب الستائرية الموجودة على جانبي الغرفة ذات الجدران الستائرية ودخلت جاريتان جميلتان أطول

من أنتيوبا. قالت أنتيوبا التي تبتسم إلى سليمان باشا الذي ينظر مندهشا بعض الشيء إلى الجاريتين الجميلتين اللتين لم يرهما من قبل:

أما الخادمتان اللتان أمر بشرائهما أفرانوس بك من أينوس لجعلهما ضمن حريمكم، ومن المعروف أن أفرانوس بك لديه الكثير من الحريم.

بعد أن أخبرته بهذا أشارت للجاريتين بالبدء في القيام بعملهما. كانت الجاريتان تقومان بعملهما على أكمل وجه متبعتين كل التوجيهات التي تصدرها أنتيوبا باستمرار واضعتين نصب أعينهما الجملة التي لقنتهما إياها الجواري والتي تقول " إن أطعتم أوامر السيدات اللواتي قدمن قبلكما ستكون حياتكما ميسرة وتعيشان سعيدتين"، وكانتا تمران برفق بالليف الموجود في أيديهما على جسد سليمان باشا المجروح بالسيوف والرماح وكأنهما تداعبانه. لما ظهرت علامات الإرهاق الموجودة على وجه الجاريتين اللتين أعياهما الإرهاق والتعب من الحركة المستمرة والحرارة الموجودة بالداخل، وبينما يحدث سليمان باشا نفسه قائلا: " الجميلتان اللتان أرسلهما أفرانوس بك"، خرجتا من خلف الستائر الجانبية وجاء إلى حوض الاستحمام بدلا منهما الجاريتان اللتان أرسلتهما والدته نيلوفر خاتون قبل فترة. أنتيوبا التي عرفت الأمير بهما، فركت إبهامها بإصبعها الوسطى وأصدرت صوت "شرنك". بعد أن صدر هذا الصوت مباشرة تم خلع الأكلمة التي تفصل الغرف الصغيرة عن غرفة الجلوس من الكلابات الموجودة أعلى جدران الغرف. ولما تم إزالة الجدران المصنوعة من الكليم تم إضافة الماء الساخن إلى الماء الموجود في حوض الاستحمام حتى لا يبرد. سليمان باشا الذي لم ير أي شيء عندما صعد بخار الماء الذي غطى المكان سمع أصوات عزف الآلات

دون أن يدري ماذا حدث. حينما انقشع بخار الماء بعض الشيء ابتسم سليمان باشا الذي شاهد العازفات المصطفات في الصالون، ثم قالت أنتيوبا:

كنت قد أحضرتهن من سوق جاليبولي في الخريف الماضي لبراعتهن. كن رائعات كذلك عندما كن يعزفن خلال أيام الشتاء الطويلة. هذه واحدة مما علمتني إياه والدتكم نيلوفر خاتون عندما كنا نتأهب لمغادرة بورصه. عندما علمت بأننا سنغادر بورصه أخذتني إلى هذه الزاوية، وقالت لي: " بيت الحريم الذي لا يوجد به عازفات الرباب لا يعد حرملك مكتملا ". ودون الاستئذان منكم قمت بعمل هذا حتى أكمل قسم حريمكم. ليتنا استطعنا استعادة عادتنا هذه قبل سنوات طويلة.

سليمان باشا الذي خرج من الماء الفاتر وتجفف بالمناشف ارتدى رداءه الخاص بالمساء وجلس على الفراش المقابل لعازفات الرباب. وبينما كان يستند بظهره على الوسادة العريضة أشار لأنتيوبا بأن تجلس إلى جواره. كانت أنتيوبا التي تنظر إلى الأمير بنظرات عينيها الزرقاوين اللتين تميلان إلى اللون الأخضر قد ابتسمت بشفتيها ووجنتيها حتى تظهر سعادتها عندما رأته سعيدا. وبينما ينظر سليمان باشا إلى صينية الطعام التي وضعتها الخادمات أمامه مد يده وأمسك بيد أجمل نساء تشمبا. نظر إلى الجوارى الجالسات مقابل عازفات الرباب من أجل الغناء وقال:

سلمت لأنك جملتِ هذه اللحظات التي نعيشها. آمل أن تحظى أمنيتك بالقبول وأن نعـــيش معًا لسنوات طويلة الأوقات الجميلة هذه التي نعيشها الآن.

(٥٨)

تملك الحزن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس، بعدما نزل من العربة أمام القصر الصغير لأنه لم يستغرق في خواطره، ولكن كان قد فرح شديدا لأنه لم يعش أوقات تلك الكوابيس العصبية مرة أخرى. ألقى التحية على خدمه الذين استقبلوه عند باب الحديقة وارتعد فجأة عندما وصل إلى باب قاعة الصالون المفتوح. وكأن واحدة من تلك الأمواج العاتية التي ضربت السفن والقوادس قد ضربت جدران القصر الصغير. ولم يكد يخطو نحو الداخل حتى توقف عن السير واستدار ونظر. إلا أنه لم يكن هناك أية موجة قد ضربت الجدران أو أي شيء من هذا القبيل. خشي عودة الخوف الذي أصابه في قصر الحكم ومشى بخطى سريعة إلى قاعة الصالون. فكر في اللجوء إلى الإمبراطورة إيلينا حتى يتخلص من الخوف الذي ألم به كما كان يحدث في كل الأوقات، إلا أنه تراجع عن ذلك وذهب إلى غرفة النوم كي يخلو بنفسه. كان قد رغب في أن يبقى بمفرده في هذه الغرفة. ولكن كبيرة الجواري والجواري الموجودات في الغرف المجاورة اللائي شعرن بدخوله إلى غرفة نومه دخلن إلى غرفته. بعدما أدرك الإمبراطور الذي شاهد الجواري يقمن بخلع نعليه من قدميه، أن لن يمكنه أن يبقى بمفرده، ظن أنه لن يمكنه الخلاص من الضيق الموجود بداخله بسهولة ويسر. واستخدم الحل الأول الذي ورد إلى ذهنه وأمر كبيرة الخدم قائلا:

استدعي الإمبراطورة إيلينا.

لم يكد الإمبراطور ينهي جملته، حتى ذهبت بقية الجواري الأخريات إلى غرفهن من الباب الجانبي بهدوء كما أتين أثناء ذهاب كبيرة الخدم لاستدعاء الإمبراطورة إيلينا. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي ازدادت مخاوفه مع لحظات الصمت التي سيطرت على غرفة نومه، أشار إلى الإمبراطورة إيلينا بأن تتمدد إلى جواره على السرير وبدأ يشاركها كل الأشياء التي يحتفظ بها بداخله وكان يتحدث بسرعة كما لو كان يريد الخلاص من شيء ما قائلا:

يا إيلينا، أثناء العودة من فوتشه وعند دخولنا الدردنيل من بحر الجزر أصابنا الهلع والرعب بسبب تلاعب الأمواج بالسفن التي كنا على متنها حتى وصلنا إلى مشارف جاليبولي. اعتقدت بأننا جميعا سنغرق وسنموت. وما إن هدأ البحر وبمجرد أن تمالكت نفسي كان أول عمل قمت به، أنني أرسلت قائد قلعة جاليبولي إلى إيجه بك لتوصيل الرسالة التي كتبتها إلى أورخان غازي. من يدري، فلربما بعدما وصلت الرسالة إلى القائد العثماني(أورخان غازي) العجوز، قد امتطى صهوة جواده بفرحة هذا الخبر الذي ينتظره منذ عدة شهور وجاء حتى شواطئ كيوس وصاح بأعلى صـــوته نحو القسطنطينية الموجودة على هذه الضفة لبحر إيجه قائلا "يا ابن بالـــيولوج، أشكرك لأنك أرسلت لنا الخبر السعيد حتى وإن كان متأخرا. سأنفذ كل ما وعدتك به. وأول هذه الأمور هو أنني سأرسل إلى ولدي سليمان وأطلب منه أن يلقن ماتيوس كنتاكوزين درسا قاسيا، الأمر الذي لن يجعله يحلم ثانية بتولي عرش الإمبراطورية، بل لن يمكنه حتى من الإقامة في القسطنطينية.".

ثم أخذ الرسالة وذهب بها إلى شقيقتك الكبرى تيودورا. ترى إلى أي مدى سعدت وفرحت شقيقتك بعدما قرأت الرسالة؟

قالت الإمبراطورة إيلينا التي سيطر الحزن على قلبها بعدما سمعت اسم شقيقتها الكبرى، وهي تنظر بهدوء إلى وجه الإمبراطور الذي يمسك بيدها بصوت هامس:

من يدري؟

الإمبراطور الذي لاحظ تسلل الحزن من قلب الإمبراطورة إلى وجهها أصابه الحزن هو الآخر. وحتى يخفي نظراته عن الإمبراطورة التفت برأسه إلى جدار القاعة في البداية، ومن ثم إلى الباب الخشبي لغرفة نومه المفتوح على قاعة الاستقبال. لما سمع وقع الأقدام القادمة من قاعة الاستقبال أنصت وأرهف السمع جيدا. اعتدل ولملم نفسه على سريره. استند بظهره على الوسادة وبعدما ابتعد وقع الأقدام التي سمعها لفترة، قال وهو ينظر باهتمام وكأنه كان يرى من فوره الإمبراطورة إيلينا الموجودة بجانبه:

يا إيلينا لا يجب علينا الإطالة في هذا الأمر. أريد إتمام كل الاستعدادات في أقصر وقت ممكن. سألتقي بمؤيدي والدك وسنخرج للسفر فور إبرام الاتفاق الذي سيجعل القسطنطينية تنعم بالأمن والأمان. أعلم أنه سيكون من الصعب عليك خطبة ابنتنا إيرينا التي أطلقت عليها اسم والدتك وهي في هذا السن الصغير، ولكن نحن مجبرون على هذه التضحيات من أجل بيزنطتنا. تعلمين أن هذا الأمر لم يحل بنا فقط ، فكما تعلمين فإن عمتي أسبورجه وكذلك شقيقتك الكبرى تيودورا كانتا قد قبلتا الزواج من القائد

أورخان الذي يكبرهما كثيرا في العمر من أجل بيزنطتنا. كما أن العشرات من أميرات الرومان قد تزوجن في سن صغيرة من أمراء الولايات الأخرى من أجل مصلحة روما. لا جرم أن ابنتنا إيرينا صغيرة جدا. بعد إجراء الخطبة سنطلب أن تبقى معنا لفترة. إن أهم ما في الموضوع هو أن تكون ابنتنا أولى خطيبات الأمير خليل.

اقتربت الإمبراطورة إيلينا أكثر من الإمبراطور الذي استمعت إليه في صمت، ثم قالت:

هي ما زالت صغيرة! وبعد أن أخذت نفسا عميقا، قالت أتمنى يا يوحنا أن يوافقوا هم أيضا على بقاء ابنتنا معنا فترة من الزمان.

قال الإمبراطور الذي استمع إلى صوت الإمبراطورة المرتعد، وهو يضع يده على خصر زوجته:

حتى وإن لم يوافقوا، ابنتنا ستذهب عروسا إلى شقيقتك الكبرى، وهي على أقل تقدير ستحافظ على ابنة أختها قدر حفاظنا عليها... فضلا عن وجود عمتي أسبورجه ... كما أن والدتي تقول إن هوليفيرا خاتون لها تأثير كبير على كل من زوجها وأولادها. على أقل تقدير نترك ابنتنا أمانة لديها إلى أن تكبر وتنضج وتبلغ سن الزواج.

شعرت الإمبراطورة إيلينا التي لا تفارق عيناها صورة ابنتها الصغيرة بالحزن الشديد وكأن مسمارا من الألم في قلبها، جالت ابتسامة مصطنعة على وجه الإمبراطور الذي يقول إنه يفهمها ويتفهم موقفها ومشاعرها. بعد أن أخذ نفسا عميقا قال بصوت هادئ:

نظرا لأننا كنا قد قررنا ذلك معًا قبل الذهاب إلى فوتشه فإنني كتبت عن ذلك بصراحة وضوح إلى أورخان غازي في الرسالة التي أرسلتها إليه. وهو يعلم الآن بأن ابنتنا سيتم خطبتها لابنه. أعتقد أنه لا يمكن الرجوع في هذا الأمر يا إيلينا. الشيء الوحيد الذي يمكن أن نفعله هو أن نأخذ ابنتنا وأن نذهب معًا مع الأمير. الإمبراطور الذي نهض فجأة وخرج من القاعة، قال بصوت منخفض جدا لا يمكن أن يسمعه أحد غيره وهو ينظر من خلف الإمبراطورة إيلينا، أنت محقة في حزنك.

الإمبراطورة التي لم تتحدث في هذا الموضوع مع الإمبراطور بعد ذلك اليوم، أثناء قيامهما بعمل الاستعدادات دون أن يشعر كل منهما الآخر، وصلت إلى القسطنطينية الرسالة التي تفيد بأن أورخان غازي يريد أن يرى ابنه في أقرب فرصة وأنه ينتظر الإمبراطور في أنتيجون وليس في نيكوميديا. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي قرأ الرسالة عدة مرات باهتمام شديد، ففي الوقت الذي أمر فيه بإنهاء استعدادات السفر في أسرع وقت، فإنه من ناحية أخرى كان يقوم بإجراء مفاوضات مع وجهاء وقادة مؤيدي آل كنتاكوزين الموجودين في القسطنطينية حتى لا تحدث أي فوضى أو شغب في حال عدم وجوده، وكان يصطحب قداسة البطريرك وكبير رهبان آيا صوفيا معه ويتنقل باستمرار بين الكنائس والأديرة و يقول إن آل باليولوج هم الورثة الشرعيون لعرش الإمبراطورية. ولكن كان مهما بذل من جهد ومهما حاول في هذا الاتجاه كان لا يمكن أن يحول دون إلقاء الجثامين التي مُزقت ليلا في أعماق البسفور. حتى وإن كان قد حاول التستر على هذا الأمر، فإن صيادي سيكايا جمعوا أشلاء البشر الملقاة على الشواطئ،

واستمرت عمليات قتل البشر طوال هذه الليلة. الإمبراطور الذي فكر مليا حتى يكون تأثير هذه الأحداث بسيطا على الشعب، توصل إلى حيلة ذكية، حيث بدأ ينشر بين رجاله إشاعة تقول إن الأشلاء الآدمية التي عُثر عليها "هي أشلاء جثث أشخاص من بلاد المغرب العربي لا يجيدون السباحة ". وبينما يحاول الحد من رد فعل الشعب بإطلاقه تلك الإشاعة على الجثامين التي عُثر عليها، فإنه من ناحية أخرى كان يأمر بإلقاء القبض على كل أنصار ماتيوس كنتاكوزين الموجودين داخل وخارج القلعة فردا فردا. وحتى اليوم الذي أفاد فيه قائد الأسطول بإتمام الاستعدادات فإن الكثير من أتباع ماتيوس كنتاكوزين الذين قدموا من أدرنة كان قد تم الزج بهم إلى السجن أو إبعادهم عن القسطنطينية. الإمبراطور الذي رأى أن أيام الأمن والاستقرار قد بدأت تعود شيئا فشيئا كان قد أبلغ قائد الأسطول بأنهم مستعدون للسفر. وبينما ينتظر الشاحنات والزورق الذي يحمل شعار الإمبراطورية الذي أرسلهم قائد الأسطول إلى مرفأ بلاطي، فإنه قال لابن رئيس الوزراء الذي يتبوأ منصب قائد حرس القلعة الذي استدعاه إلى قصره:

لقد دعوت غالبية الذين يثيرون الفتنة في القسطنطينية للمشاركة في حفل الخطبة. وسوف آخذهم معي. وبعد أن نبه عليه قائلا: أنت كذلك لا تجعل عينيك تغيبان عن الموجودين هنا، اصطحب الإمبراطورة إيلينا وابنتها إيرينا والأمير أندرينيكوس الرابع والأمير إيمانويل الثاني والأمير خليل وذهب إلى مرفأ بلاطي. أثناء ركوب الإمبراطور والمرافقين له المركب الكبير الذي يحمل شعار الإمبراطورية، كان المدعوون للرحلة يركبون الشاحنات البحرية واحدا واحدا مع عرباتهم. الإمبراطور الذي شعر بالسعادة

الذاتية بسبب وقوف أولاده مع الأمير خليل والذين ينظرون معا وهم بجوار بعضهم بعضا إلى مركب رئيس بلدية حي أهالي جنوة التي تعد أجمل مركب بعد المركب الإمبراطوري، استدار ونظر إلى الشمس التي تشرق من خلف القمم التي تظلل كريسوبولس. ثم التفت نحو الإمبراطورة إيلينا الموجودة بجواره وقال:

يا إيلينا إن الشمس التي أشرقت تزف بشرى السعادة لنا ولأولادنا.

عندما رسى المركب الإمبراطوري بالقرب من شاطئ ميناء أدرنه الذي يطلق عليه العثمانيون اسم (يلاق أباد) كان كل أهالي القلعة قد تجمعوا على رصيف الميناء. كانت فرحة عارمة قد غمرت أهالي القلعة المجتمعين على رصيف الميناء عندما اقتربت الشاحنات البحرية التي تحمل العربات والقوارب الكبيرة التي تحمل شعار الإمبراطورية التي ابتعدت عن القوادس واحدة تلو الأخرى إلى الميناء. ولم يكد الإمبراطور يضع قدمه على رصيف الميناء حتى قامت القيامة. ولما تحركت العربات الرائعة الفخمة التي تركبها عائلة الإمبراطور معا زاد الفرح والسعادة بدرجة أكبر. لم يكن الإمبراطور يتوقع استقبالا بهيجا مغمورا بالسرور إلى هذه الدرجة، ولم يتمالك نفسه وأشار إلى أمين الخزانة الموجود في العربة الموجـودة أمامه بأن يكافئ أهالي القلعة الذين خرجوا لاستقباله. وبناء على إشارته قام أمين الخزانة ومساعدوه بنثر العملات الذهبية والفضية على الناس الفرحين. كان المرشدون العثمانيون يسيرون أمام قافلة الإمبراطور، وكان من خلفها أيضا فرسان الحراسة الذين كانوا أكثر من حراس الإمبراطور المهيبين، وكانت خوذاتهم متلألئة ولامعة مثل الفرسان البزنطيين، وكانوا يرتدون الدروع ويمتطون جيادهم القوية. لما شاهد الإمبراطور العظام المدببة المعلقة بدلا من

الرءوس الحديدية المدببة على سنان الحراب الموجودة في أيدي بعض الفرسان العثمانيين أثناء نظره إلى العربة التي تركبها الإمبراطورة إيلينا وأولادها وبينما يحدث نفسه قائلا: "لابد أن تكون هناك حكمة ما للسنان المصنوعة من العظم"، خطر بباله الاحترام والتقدير الذي أبداه مدير أمن أدرنة للأمير خليل. حتى وإن رأي أن تقديم هذا القدر من التقدير والاحترام لشخص في سن الطفولة نوع من الفكاهة وقال: "ربما ذلك التقدير والاحترام الذي لم نعهده ولم نعتد عليه هو الذي منح العثمانيين النجاح والتفوق إلى هذه الدرجة". وظل يفكر بعقله لفترة في هذه الأمور غير المجدية. وفجأة غلبه النعاس، هل كان هذا ناتجا عن سرعة تفكيره، أم عن أرجحة العربة له. وعلى الرغم من محاولته النظر إلى المكان المحيط به بنظرات تائهـــة فإنه لم يستطع مقاومة النوم الذي هجم عليه، تمدد على الأريكة الموجودة في عربته واستغرق في سبات عميق. ولم يكد يستغرق في النوم حتى أطبق عليه أحد الكوابيس. كان على قمة أحد الجبال الذي يخرج النار واللهيب من فوهته. وكان يمشي متخبطا متعثرا في الرماد الملتهب، ولسبب غير معلوم كان الرماد الملتهب لا يحرق قدميه العاريتين. ولكن مع استمراره في السير شعر بالارتفاع التدريجي لدرجة حرارة الحمم. قال " في الأغلب ستذوب قدماي بعد قليل". وما إن انتهى من كلامه بدأت أصابع قدميه في الذوبان. لما وصل الذوبان إلى كعبيه صاح الإمبراطور الخائف، قائلا : "سأنجو إن استطعت الدحرجة من القمة إلى الأسفل قبل أن تنصهر ركبتاي". ولكن الصوت القادم من الأعماق، قال: "لن تستطيع النجاة بالتدحرج، لن تنجوا إلا إذا ألقيت نفسك وسط فوهة البركان.". لم يصدق الإمبراطور ذلك الصوت ولكن لما جاء إلى أنسب مكان ألقى بنفسه إلى قلب فوهة البركان. ومع إلقاء نفسه استيقظ على صوت خوزته التي اصطدمت بأرض العربة.

(٥٩)

كان سليمان باشا سعيدا جدا بسبب سيطرته على القلاع الصغيرة والكبيرة الواحدة تلو الأخرى في شبه جزيرة تراقيا التي أخذت اسمها من التراقوذ، لكنه حين وصل أمام قلعة أدرنة الرائعة على ظهر الحصان الأشهب، بدأ قلبه المضطرب يخفق منقبضا مع صهيل حصانه. بعد أن نظر إلى القلعة لفترة بهذا السرور التفت وقال لسونجو ألب الموجود خلفه والذي يدربه على استخدام السيف وفنون القتال:

ستكون أكبر قلعة حاصرناها على هذه الضفة حتى الآن.

قال سنجو ألب:

هي أكبر قلاع البيزنطيين بعد القسطنطينية...

قال سليمان باشا:

إذا كان قد تم قطع الشريان الرئيسي الذي يربط بيزنطة بالأناضول بالاستيلاء على نيكوميديا، فسيتم قطع الشريان الرئيسي الذي يصلها بأوروبا أيضا بعد السيطرة على أدرنة.

قال سونجو ألب بعد أن رفع خوذته من على رأسه و استبدل لثامه الذي ينضح عرقا والموجود أسفل الخوذة:

أورخان غازي، أطال الله عمره، أرسل قوات إمارة أمور التي تعرف القلعة جيدا في وقتها بالضبط.

قال سليمان باشا وهو ينظر إلى وجه سونجو ألب الهادئ:

آمل أن نستولى عليها دون أن نقدم الكثير من الضحايا.

قال سونجو ألب:

يا أميرنا، إن الحفاظ على قلعة أدرنة التي تتحكم في جميع الطرق المتجهة إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب، تحت سيطرتنا أكثر أهمية من الاستيلاء عليها؛ لأنه وفقا لما علمته من أفرانوس فإن هذه القلعة إحدى القلاع التي تغير حكامها منذ زمن شعب أوريستيا أول من استوطنوا تراقيا.

سأل سليمان باشا وهو ينظر إلى سونجو ألب جليس كل من أفرانوس بك والحاج إلباي قائلا:

هل تقول إن العمال الذين بنوا أوريتسيا، قد دعوا ألا يستقر حكم أي قلعة بنوها في هذه المنطقة فى يد أحد؟

قال سونجو ألب:

أي معنى يمكن استنتاجه من كلام أفرانوس بك الذي على علم واسع بهذه المنطقة وقساوستها!

قال سليمان باشا:

إن رئيس وزرائى بدأ في الاهتمام بالاستيلاء على قلاع تراقيا بعد الاستيلاء على قلعة جاليبولي.

قال سونجو ألب:

إن المعلومات التي توصل إليها تفيد عملنا كثيرا يا سيدي. إنني وكذلك الحاج إلباي نسعد كثيرا بقضاء وقتنا برفقته كلما سنحت الفرصة لذلك.

بينما كان سليمان باشا يحسر نظره وينظر إلى الأبراج المحيطة بالقلعة، بعد أن قام بعد الأبراج الموجودة بين الأبراج العالية دون أن يحرك شفتيه، قال بهدوء:

يبلغ عدد الأبراج الموجودة بين كل برجين مرتفعين اثنى عشر برجا...

وسأله سونجو ألب الذي سمع قوله بعض الأمور إلا أنه لم يستطع فهم أي منها، قائلا:

هل قلت شيئا يا أميرنا؟

أدرك سليمان باشا أنه عبر بالحديث عن أفكاره، وقال:

لقد عددت الأبراج الموجودة بين الأبراج العالية. جميعها متساوية مع بعضها. لم أكن أتصور أن القلعة كبيرة ومحصنة بهذا القدر. والآن تقف أدرنه هادريان اليوناني التي تغيرت وزادت مساحتها عدة مرات منذ أن تم بناؤها لأول مرة. توجد قنوات وأنفاق متصلة ببعضها حول القلعة، وكأن سُمك وارتفاع جدران القلعة ليس كافيا. لو قدر الله لنا أن نفتح هذا المكان فهذا يعني أن تراقيا حتى أسوار القسطنطينية قد صارت ملكا لنا.

ابتسم سونجو ألب ابتسامة خفيفة وكأنه يوجد شيء ما بداخله لم يستطع قوله. بعد أن عدل خوذته مرة أو مرتين كما يفعل حينما لا يكون قابضا على السيف بيده، قال:

يا أميرنا لا تنظر إلى الجانب الشرقي من القلعة فقط ، فللقلعة جانب غربي أيضا. ربما تبدأ رحلتنا إلى ديار روما القديمة من هنا؟

قال سليمان باشا:

لن تكون رحلة سهلة أبدا.

قال سونجو ألب:

نعم يا سيدي لن تكون الرحلة التي ستبدأ سهلة للغاية، لكن علينا أولا أن ننظر إلى القلعة الموجودة أمامنا. إن عشرات القادة الذين جاءوا أمام القلعة أثناء استطلاعهم لها مثلنا قالوا إن الأمر لن يكون سهلا. إلا أن البرج الضعيف اكتُشف بعد ذلك في الأغلب.

سليمان باشا الذي تحدث كثيرا مع سونجو ألب لأول مرة خارج اجتماعات الديوان منذ مدة طويلة، تساءل مع نفسه قائلا: "لو لم يقتنع الحاج إلباي بتفكيره هل كان سيتخذه خلا له؟" دون أن ينظر إلى سونجو ألب سأله قائلا:

أي الأبراج هو الأنسب من وجهة نظركم؟

قال سنجو ألب بعد أن أنهى الحسابات التي قام بها في ذهنه:

البرجان الموجودان في الجهة الشمالية قريبان جدا من بعضهما، والقنوات المحفورة أمامهما أضيق كذلك. لو أقمنا الليلة جسورا خشبية فوق القنوات، واستطعنا أن ننقل قوات المشاة ووحدات التسلق إلى أسفل السور وأمام الباب سيصبح عملنا شديد السهولة...

قال سليمان باشا:

نعم يبدو من أول نظرة وكأن العبور من هناك بات ممكنا لكن من المحتمل أيضا أن يكون فخا منصوبا...

نعم يا سيدي لابد أن هناك سببا ما لاقتراب البرجين من بعضهما بعضا.

نظر سليمان باشا إلى الحاج إلباي الذي اقترب منهما على حصانه الكُميت وقال:

تجولتم قبلنا حول القلعة يا حاج إلباي، هل لديكم رأي ما بشأن مسألة الحصار؟ إن جدران كل القلاع التي شاهدتها حتى الآن كانت إما دائرية أو مربعة متساوية الأضلاع تقريبا. ولم أرَ قلعة تشبه شكل المعين على هذا النحو قط.

الحاج إلباي الذي رأى أن سونجو ألب ينظر إليه، فك أزرة صدريته المصنوعة من اللبدة الرقيقة والتي يرتديها فوق سرواله. وقال وهو ينظر إلى كل من سونجو ألب وسليمان باشا:

يا أميرنا القلعة التي تطوقها قواتنا من كل الجهات مهما بدت وكأنها لن تسقط إلا أنها ستسقط في النهاية. أرى أنه يجب علينا في البداية مراقبتهم عن بعد بالرماة وأن نحدد الجانب الضعيف في دفاعاتهم. ثم نهجم عليها ونقتحمها. لكن ما أخشاه هو أن يأتي من بعدنا من يخرجنا منها بعد أن نستولي عليها...

قال سليمان باشا:

يا حاج إلباي، حتى الآن لم أحاصر قلعة كبيرة على هذا النحو قط. لم أستطع حضور خِطبة ولد وفتاة وقلعة أدرنة في انتظارنا. أو نشارك في حفلات العرس بإرسال هدايانا.

قال الحاج إلباي:

لكن من المحتمل أن يستاء والدكم من هذا يا أميرنا؟

قال سليمان باشا:

والدي يقدر مشاعري التي تمنعني من الذهاب لحفل الخطبة. كما أنها لن تمثل أية مشكلة عند الإمبراطور باليولوج لأنه يريد ماتيوس كانتاكوزين. لاسيما أن الاثنين سوف يسعدان كذلك إذا أرسلنا ماتيوس كنتاكوزين إلى بورصه مع الرسل الذين سيذهبون بهدايانا.

قال الحاج إلباي:

لكن الحلم الأكبر للإمبراطور هو إيقافنا على الشواطئ المقابلة.

قال سليمان باشا:

يا حاج إلباي، ليذهب هو وليشاهد أحلامه، ولنستول نحن على قلعتنا... إن استيلاءنا على قلعة أدرنة سيكون في صالحه هو الآخر. لأنه في الوقت التي ستخرج فيه هذه القلعة من تحت سيطرته لن يجد ماتيوس كنتاكوزين أي مكان يلجأ إليه. وهذا أيضا سيكون في صالح الإمبراطور... دعنا من التفكير فيه الآن ولنفكر في طريقة للاستيلاء على القلعة. تُرى ما سبب قِصَر المسافة لهذه الدرجة بين هذين البرجين؟

أجاب الحاج إلباي مدعيا العلم والمعرفة قائلا:

من المحتمل أن يكون هناك سببان، الأول أن يكون قد تم بناء الجدران في فترات زمنية مختلفة ومن قبل معماريين مختلفين، والآخر حالة وطبيعة

الأرض التي تم بناء الأبراج عليها. وإن الجزم برأي قاطع حول هذا الموضوع قبل الاستيلاء على القلعة شديد الصعوبة. ربما بسبب المكان الذي التقت فيه القافلتان اللتان قدمتا من قارتين مختلفتين قد أضفيا شكلا مختلفا على هذا النحو لبناء أدرنة.

هل من المحتمل أن يكون لهذا علاقة بعملية الدفاع عن القلعة؟

حتى لو أن له علاقة بالدفاع فليس له أية أهمية. لأنه لم يكن هناك حافرو القنوات وقت بناء هذه القلعة يا أميرنا.

مهما كان الهدف الذي بنيت من أجله على هذا النحو ولكن هذه القلعة هي إحدى القلاع قوية التحصين...

ليست قوة القلعة بمدى تحصينها يا سيدي ولكن قوتها بمقدار قوة من يدافع عنها. تعلمون أن المتسلقين تسلقوا جدران قلعة بريستاس في لحظة لكننا استولينا على الحصن بصعوبة شديدة بسبب قوة الدفاع عنها.

حسن ولكن من وجهة نظرك ترى ما هو الأسلوب الأمثل للهجوم الذي يمكن أن نشنه عليها؟

قال الحاج إلباي:

يتم نصب خيمة القيادة يا أميرنا، ويجتمع مجلسنا الحربي بعد قليل. وسيتضح شكل هجومنا بعد أن نحصل على آراء قادة كل القوات. يبدو أن عبور هذه الخنادق ليس شديد السهولة، لكن قادتنا استولوا قبل ذلك على القلاع المحاطة بالخنادق المتتالية الضيقة. هم يعرفون جيدا كيف يمكن اجتيازنا هذه الخنادق.

قال سليمان باشا الذي كان يستطلع الأنحاء بنظراته وهو يستمع إلى كلامه الأخير:

اذهب يا حاج إلباي، وابدءوا الاجتماع بعد نصب الخيمة. أنا أيضا سآتي مع سونجو ألب.

قال الحاج إلباي:

حددت بعض الأماكن، لكن الأفضل أن تحددوا أنتم الأماكن المناسبة التي يمكننا إقامة المجانق فيها، ربما أيضا...

ربما ماذا؟

ربما هذا يا أميرنا، ربما يبدأ العمل قبل أن ينتهي ماتيوس كانتاكوزين الذي عاد مؤخرا من أطراف ديموطيقا من استعداداته و...

سليمان باشا الذي قطع حديث الحاج إلباي سأل قائلا:

وهل يوجد هناك ما لا أعرفه؟

نظر الحاج إلباي سليمان باشا نظرة متفحصة. وبينما كان يمد نظراته الشاردة إلى ما وراء جدران قلعة أدرنه العريضة التي تختفي خلف عظمة روما وبيزنطة، قال بصوت هادئ يشبه الابتسامة:

يا أميرنا، العمر قصير بالقدر الذي يجعلنا لا نستطيع معرفة كل الأمور. كان الأودرياس التراقوة رياح البلقان، وتنظيم الإخوة الذين خربوا الضفتين، والفرس الذين ما زالت خدعتهم قائمة، والمقدونيون الحانقون على اليونانيين، والغلاطيون الذين يهبون مثل الرياح الموسمية، والقوط المتوهمون

المعرفة في تقديم رماد الإنسان إلى الرياح من فوق جدران القلعة، والروم الذين قتلوا قادتهم، والإسبان أتباع روجر وفلور الذين دخلوا القلعة سالمين وخرجوا قتلى، قد نظروا قبلنا إلى جدران القلعة التي مررنا ونظرنا إليها؛ ولم يعرفوا أشياء كثيرة مثلنا...

نظر سليمان باشا إلى سونجو آلب وظن أن جملة الحاج إلباي الطويلة لن تنتهي أبدا، ومع ذلك أنصت إليه بصبر وقال:

ما الذي نعرفه يا حاج إلباي؟

قال الحاج إلباي وهو ينظر إلى سونجو ألب الذي لا يفضل الحديث بوجه عام:

إن الذي تعلمناه خلال بضع سنوات قضيناها في تراقيا، هو أنه لم يعد في هذه الأنحاء أية قلعة تستعصى علينا مهما بلغت مقاومتها.

قال سليمان باشا وهو يهمز جواده بالمهماز:

لم ندخل بعد إلى أدرنة يا حاج إلباي... دعنا ندخلها أولا ونقول حينئذ ما سنقوله.

(٦٠)

جاءت العربة الإمبراطورية المهيبة التي قل الإمبراطور يوحنا باليوج الخامس وأفراد عائلته إلى نكايا، بعد أن استقروا في القصر العتيق الموجود على شاطئ بحيرة أسكانيا (إزنيك) المخصص لاستضافتهم قال لرئيس وزرائه بأنه سيقوم برد الزيارة لأورخان غازي الذي استقبله عند باب قلعة القسطنطينية هو والقافلة المرافقة له وقدم له واجب الضيافة. على الفور أرسل رئيس الوزراء المراسلين وأبلغ رغبة الإمبراطور لرجال أورخان غازي. لما وصل الخبر إلى أورخان غازي الذي كان يراجع برنامج الحفل الذي سيقام صباح اليوم التالي مع رجاله في قاعة الصالون الكبيرة الموجودة بالمجمع الخيري لنيلوفر خاتون، قال:

الله الله! إن كان جناب الإمبراطور ليس متعبا فليتفضلوا، أنا الآن ذاهب إلى سنتوس، أنتظره هناك.

جلس الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس تحت السقيفة الموجودة في الفناء الواسع للقصر العتيق الذي يقيم به ينتظر الخبر القادم من أورخان غازي، كان يشاهد الورود والزهور التي تزين الفناء. أثناء نظره لبرهة إلى البراعم التي لم تتفتح بعد الموجودة أسفل الجدار تذكر الوجه الطفولي لابنته. وقال بصوت خرج من بين شفيته على مضض وهو يقطب وجهه حـــزينا "هي مثل تلك البراعم التي لم تتفتح بعد". وقال وهو ينظر إلى وجه ابنته

الحزين الذي لا يفارق خياله: " الأباطرة لا يبكون يا عزيزتي إيرينا" .
أدركت الإمبراطورة التي جاءت إلى جواره في تلك اللحظات أن الإمبراطور لم يلاحظ أن الدم ينزف من إصبعه بسبب شروده، أشارت إلى إصبعه الذي ينزف وقالت:

يا يوحنا إن إصبعك ينزف دما!

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس دون أن ينظر إلى زوجته قال وهو ينظر إلى إصبعه الذي ينزف:

عندما قلت قبل قليل لأمسك البرعم الموجود أسفل ذاك الجدار. وأشار إلى الورود الموجودة أسفل الجدار العالي.

الإمبراطور أخذت يد الإمبراطور برفق بين يديها. ونظرت إلى المكان وقالت:

لو نطيل فترة خطوبة ابنتنا، حتى نمنحها الفرصة لتكبر. إنه من الأفضل أن تقبل بأننا لن يمكننا تغيير أي شيء. وفقا لما قاله الحاكم البيزنطي الذي يقوم بالترجمة، فإنه تم عمل الإستعدادات لهذه الخطوبة بإضاءة القناديل على المساجد والكنائس من أيام.

أنا أيضا أحاول القبول والرضا بذلك، بيد أنني لم أفلح في ذلك بأي شكل من الأشكال. حتى أنني كنت أريد أن أفرح بخطوبة ابنتنا في هذه القلعة التي تحمل اسم نيكايا التي عشقها دينوسيوس وفقا لما تقوله إحدى الروايات، ولكن لم أستطع أن أفرح بذلك. كون ابنتنا ما زالت طفلة يجعلني أشعر بألم غريب يصيب بدني.

الإمبراطورة إيلينا بعد أن تنهدت تنهيدة تشبه الألم قالت:

يا يوحنا، لا تنسى أننا أثناء زواجنا، كنت أنت أيضا في عمر الطفولة. وأنا كنت شببت عن طوق الطفولة منذ فترة قصيرة جدا... مهما كان السن الذي ستتزوج فيه ابنتنا ستظل في نظرنا طفلة صغيرة. تعلم أن هناك المئات من الفتيات اللائي يرغبن في الزواج من أحد الأمراء. زواجها من الأمير خليل سوف يسعدها أيضا. كما أن المسافة بين نيقوميديا التي يحكمها الأمير خليل وبين القسطنطينية هي مسافة يوم واحد من السفر على الأكثر. إن اشتقت لابنتك تستطيع أن تذهب كل وقت وتستطيع أن تراها... كما أن شقيقتي الكبرى تيودورا سوف تحافظ عليها وترعاها.

قال الإمبراطور الذي ينظر إلى الورود الموجودة أسفل الجدار:

يا إيلينا لقد فكرت في كل ذلك، أريد أن أستريح وأطمئن، ولكن ليس بمقدوري السيطرة على قلبي ومشاعري. بالقطع ليس بوسعنا فعل أي شيء.

يا يوحنا، لا تستطيع أن تعلم أن كل ما أرجوه هو أن يتغلب كل من أخي ووالدي على طمعهما، وأن نلتقي جميعا ولو مرة واحدة في القسطنطينية. ولكن أعلم أيضا أن هذا ليس ممكنا. ولأننا لن نستطيع مشاركتهما هذه السعادة، على الأقل لنفكر في سعادة أبنائنا.

يا إيلينا، تعلمين أن قلبينا يخفقان معًا في نفس الاتجاه منذ سنوات، وأن عقولنا تفكر في الأغلب في نفس الأشياء. أملي أن أقبل وأرضى أنا أيضا بكل ما تقولين مع مرور الأيام. أرى أن انتظار أورخان غازي لنا عند باب القلعة إشارة جيدة. لأنه لم يأت حتى لرؤية والدك الذي جاء إلى أنتيجون العام الماضي.

يا يوحنا، لا تنسى أن أنتيجون من المحتمل أن تكون تابعة لحكام الفرس، ولكن هنا نيكايا التابعة للبيزنطيين.

نظر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس إلى الوجه الجميل أبيض البشرة للإمبراطورة إيلينا - التي هي أكثر منه علما حيث إن ما لديها من معلومات على أقل تقدير يبلغ ضعف معلوماته بشأن الموضوع السابق - الذي يزينه أنفها المفلطح قليلا وإلى عينيها الزرقاوين. أثناء مداعبته لأصابع الإمبراطورة الطويلة لوث الدم الذي ينزف من إصبعه أصابع الإمبراطورة الطويلة المعتنية بهم، وفي محاولة منه لتغيير مجال الحديث إلى موضوع آخر، قال:

لنقم بزيارة مقابر أجدادنا الموجودة في هذه القلعة المقدسة التي اتخذوها عاصمة لبيزنطتنا لسنوات عديدة عند قيامنا بالاستعداد لحفل الخطوبة، وقبر الإمبراطورة التي كانت ترعى رسامي نيكايا والتي تحملين اسمها... وكذلك لنرى الأفران التي تقوم بعمل الخزف الأحمر الذي يصنع هنا فقط.

أثناء حديث الإمبراطورة إيلينا قائلة:

لا يوجد أي سبب يمنعنا من رؤيتها جميعا، دخل إلى الفناء المراسلون بخطى سريعة من الباب الخارجي المفتوح على الداخل. رئيس الوزراء الذي خرج من إحدى الغرف الموجودة بجوار الباب واستبقلهم بمجرد أن تحدث معهم سار نحو السقيفة التي يجلس تحتها الإمبراطور والإمبراطورة إلى جوار بعضهما. رئيس الوزراء القادم نحوهما مال قليلا إلى الأمام وبعد أن ألقى عليهما التحية قال:

يا صاحب العظمة، إن أورخان غازي ينتظركم في قصرسناتوس.

أثناء سير الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس نحو البناية الداخلية المخصصة لهم في القصر العتيق من أجل ارتداء ملابسه الرسمية من فوره، قالت الإمبراطورة إيلينا التي تذهب خلفه بصوت مرتفع:

لو تبلغ أورخان غازي خلال لقائك معه برغبتنا في التجول في القلعة يكون أمرا جيدا...

أثناء قيام رئيس الوزراء ورجاله بتحميل صناديق الهدايا التي ستقدم إلى القائد أورخان غازي والد العريس، والسيدة نيلوفر خاتون بصفتها سيدة الإمارة الأولى، والسيدة تيودورا بصفتها والدة العريس، والسيدة إسبورجه بصفتها عمة العروس على العربات، ارتدى الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس ملابسه الرسمية ونزل إلى الفناء. وسار نحو عربته الإمبراطورية الموجودة أمام الباب بعد أن قال للإمبراطورة إيلينا "إلى اللقاء". ولم يكد يخرج إلى خارج الفناء حتى بدأت فرقة الأبواق في العزف. حدث حراك داخل القلعة عندما صدحت الأبواق التي تصدر صوتا مثل صوت مزامير أفرسياب. ترك كل الأشخاص تقريبا الأعمال التي يقومون بها، وخرجوا إلى الشوارع. أما الذين لم يخرجوا إلى الشوارع فركضوا أمام النوافذ.

وبينما كانت العربة الإمبراطورية التي يجرها ثمانية من الجياد القوية، والتي يوجد من أمامها ومن خلفها الحراس الذين يمتطون الخيل تتقدم ببطء داخل الشوارع الضيقة الموجودة داخل القلعة، كان أهالي نيكايا الذين خرجوا أمام بيوتهم يصفقون بسعادة للإمبراطور. هذا الاستقبال الحار للإمبراطور

والهتافات المدوية باللغة الرومية جعل الإمبراطور يظن لبرهة أنه في شوارع القسطنطينية. لما شاهد السعادة الموجودة على وجوه الرهبان الذين يلوحون له بأيديهم أثناء المرور من أمام كنيسة آيا صوفيا الصغيرة، فكر قائلا : "إنهم سعداء كما قال قداسة البطريرك". نظر إلى الجياد القوية التي تضيف هيبة إلى هيبة العربة الإمبراطورية بخطواتها الواثقة. أثناء مرور عربته من جوار نصب كاسسيوس التذكاري ثلاثي الأبعاد الذي تم تشييده بوضع خمسة أحجار عملاقة فوق بعضها بعضا، حدث نفسه قائلا "هل القول بأن كل شيء مدمر ومحترق هو كذب وافتراء؟". نهض على قدميه داخل عربته وألقى التحية على الجنود ضخام الجثة الذين حيوه برفع حرابهم على كمر الباب الجنوبي للقلعة. عربته التي خرجت من الباب الجنوبي للقلعة شقت الطريق بين الحدائق الموجودة خارج الأسوار لفترة. لما بدت أسوار قصر سيناتوس المطل على شاطئ بحيرة أسكانيا، غردت من جديد أبواق المراسم التي أقامت الدنيا ولم تقعدها. الإمبراطور الذي نزل من عربته الإمبراطورية التي وقفت أمام مدخل قصر سيناتوس خلال عزف الأبواق، حدث نفسه وهو ينظر نظرة خاطفة على عربة أورخان غازي التي يجرها الخيل والتي تقف إلى الأمام قليلا قائلا "تبدو متواضعة للغاية ولكن تعمر أكثر من عربتنا يعني لا شيء". أثناء سيره نحو بوابة قصر سناتوس الذي اجتمع فيه مجلسا الحكم الخامس والسابع التقت عيناه عينى حاكم نيكايا البيزنطي واللتان تقولان الكثير من الأشياء.

(٦١)

كانت السهام والأحجار المقذوقة على قلعة أدرنة ذات الأبراج الأربعة، والتي تم محاصرتها لعدة أيام قد صارت أكواما في الشوارع. بيد أن من بداخل القلعة كانوا يدافعون عنها بنفس قوة دفاعهم عنها في اليوم الأول للهجوم عليها، ولم يرفعوا رايات الاستسلام البيضاء على أي برج من أبراجها. وذلك نظرا لأن قائد القلعة وماتيوس كانتاكوزين شريك الإمبراطور اللذين علما بالاستيلاء على القلاع الصغيرة المحيطة بقلعة أدرنة واحدة تلو الأخرى كانا قد أسسًا نظاما دفاعيا رائعا وقويا للدفاع عنها. فعندما تهجم لتشرع في وضع جسور فوق الخنادق المغمورة بالمياه كانوا يصدون الهجوم فورا بالنيران الرومية، كما كان الذين ينجون من النار يصيرون هدفا لأسهم الرماة القناصة. كان سليمان باشا الذي قدم كثيرا من الضحايا في الأيام الأولى قد تراجع عن بناء الجسور فوق القنوات بعد ذلك. ولكن كان وابل السهام الذي يبدأ مع فجر كل يوم والذي يستمر حتى الغروب مستمرا دون انقطاع. وكان كل ليلة تقريبا يتم استبدال المناجق المشتعلة بنيران الروم طوال النهار بمناجق أخرى جديدة.

كان قائد الحصن وماتيوس كنتاكوزين شريك عرش الإمبراطورية اللذان دافعا بقوة عن القلعة في تلك الأيام، يعلمان جيدا بتضاؤل أملهما مع كل يوم يمر. ونظرا لعدم وجود أي شيء تحت سيطرته غير هذه القلعة فلم

يكن يخطر بباله حتى مجرد التفكير في تسليم القلعة. ففي الوقت الذي كان ينتظر فيه المساعدة القادمة من أخيه مانويل كانتاكوزين حاكم مورا المستبد الذي يمثل له الأمل الوحيد، فإنه من جهة أخرى كان يطلب الدعم والمساعدة من كل من ملك البلغار وأمراء الصرب جيرانه الغربيين عبر الرسل الذين أرسلهم من خلال الدهاليز المفتوحة على النهر. ومن ناحية أخرى كان يساعد شعب القلعة الذين أغلقوا منازلهم. بيد أن حال شعب القلعة الذي كان يخشى الخروج من منازلهم خوفا من السهام والأحجار التي تقذف على القلعة كان يزداد سوءا يوما بعد يوم، وكانت تنتشر في كل أرجاء القلعة الرئحة الكريهة للحيوانات التي نفقت في حظائرهم من الجوع والعطش. الحاكم البيزنطي والراهب والقائد ماتيوس كانتاكوزين الذين عقدوا عدة اجتماعات من أجل إيجاد حل لهذا الوضع قرروا توفير ممر للعبور بين المنازل عن طريق تحطيم جدران المنازل المتصلة ببعضها. وبدأوا في تنفيذ هذا القرار في ذات الليلة التي اتخذوا فيها القرار. انتقل قسم من الناس المحبوسين في منازلهم إلى الكنيسة عبر تلك الأبواب التي فتحت في الجدران، وانتقل القسم الآخر إلى السراديب الواسعة الموجودة تحت الأرض. وفي الوقت الذي تم فيه ذبح الحيوانات الحية التي لا صاحب لها وتم تخزين لحومها في مخازن الشراب جُمعت جثث الحيوانات النافقة التي انتشرت رائحتها الكريهة وحُرقت. هذا العمل رفع الروح المعنوية لشعب القلعة وإن كان بدرجة بسيطة، بيد أزمة مياه بدأت في القلعة بعدما قام حافرو الأنفاق العثمانيون الذين علموا أن القلعة لم تعان من العطش رغم قطع المياه التي تذهب إليها منذ عدة أيام بالحفر حول القلعة واكتشافهم لبعض الأنفاق المفتوحة على النهر وإغلاقها. لما شاهد

ماتيوس كنتاكوزين شريك العرش نقص المياه الموجودة في الخزانات بدرجة كبيرة شعر أنه قد وقع في مأزق، في البداية حظر الاستحمام، ثم جمع جميع المرضى مع بعضهم وأعمل فيهم السيف حتى يعيش الأشخاص الأصحاء أطول فترة ممكنة. ثارت ثائرة راهب أدرنة الذي يعد أكثر الرهبان مكانة واحتراما في البلقان بعد راهب آيا صوفيا الذي علم بهذا فذهب إلى ماتيوس كانتاكوزين وصرخ فيه قائلا:

إن ما فعلته، جُرم لن يغفره الرب أبدا.

تدخل حاكم القلعة البيزنطي بين الراهب وماتيوس كانتاكوزين، قال الراهب الذي تمالك أعصابه بصعوبة بالغة:

لتُرفع الرايات البيضاء على الأبراج فورا.

تحدث ماتيوس كانتاكوزين الذي عارض الراهب قائلا:

البلغار والصرب لن يتركونا وحدنا. سترون لن تمضي عدة أيام حتى يصبح العثمانيون بين نارين. هدأ الراهب قليلا بعدما سمع كلماته التي تبعث على الاطمئنان، قال بأنه سيصبر عدة أيام واتجه نحو الكنيسة. غير أنه رغم مرور عدة أيام على هذا اللقاء لم يصل أي دعم ولا أية أخبار من البلغار والصرب. ماتيوس كانتاكوزين كان شديد القلق من الوضع، ضمن مساعدة ودعم شعب القلعة له هذه المرة من خلال إصدار إشاعة تقول بأن:

القوات التي أرسلها أخوه مانويل كانتاكوزين حاكم المورا المستبد ستصل إلى القلعة في القريب العاجل.

مانيوس كانتاكوزين شريك الإمبراطور وقائد القلعة اللذان لم يفقدا الأمل لأيام، تجولا ذات مساء فوق الأسوار حتى منتصف الليل وبعد أن قاما بتشجيع حراسهما ورفعا روحهم المعنوية شعرا بأنهما متعبان وفي الوقت الذي ذهبا فيه إلى غرفتيهما الموجودتين في البناء الحجري الذي يعلو السراديب المطلة على شاطئ النهر، وصل إلى سليمان باشا خبر فتح الباب التاسع لقلعة أدرنه الذي بناه الروم. وعلى الفور تحرك المتسلقون عندما أمرهم سليمان باشا والحاج إلباي بالذهاب واستطلاع ما إذا كانت هذه خدعة أم لا. بعض المتطوعين الذين ذهبوا بسلالم العبور الموجودة بحوزتهم تقدموا بسرعة عبر الطريق الحجري ولما وصلوا أمام الباب قاموا بفرد أحد السلالم على القناة الأولى والثاني على القناة الثانية والثالث كذلك على القناة الثالثة. الفدائيون والمجاذيب الذين عبروا من فوق السلالم التى مدوها فوق القنوات في سرعة البرق وصلوا إلى الخوازيق المدببة التي تعد العائق الأخير للوصول إلى الباب التاسع. قوات المشاة الذين ينظرون عبروهم من بين الخوازيق الكثيفة ووصولهم إلى الباب بمجرد أن سمعوا أول نعيق للبوم ركضوا وعبروا من فوق المعابر التي وضعت فوق القنوات ووصلوا إلى الباب التاسع. وبينما كانوا يثبتون الجسور الخشبية التي رفعت من على القنوات بأمر مانيوس كانتاكوزين في أماكنها، قاموا من ناحية أخرى بخلع الخوازيق المدببة الحادة التي تمثل العائق الأخير. وأقاموا الجسور الموجودة أمام الباب التاسع ولما بدأت قوات المشاة بالدخول إلى الداخل قاد سليمان باشا و الحاج إلباي جواديهما نحو الباب التاسع.

كان الجو صحوا، بيد أن ضوء القمر الذي كان هلالا صغيرا لم يكن كافيا لتبديد كل ظلمات الأرض. لذا فإن الحراس الموجودين فوق الأبراج الأخرى لم يشاهدوا فتح الباب التاسع، كما لم يشاهدوا كذلك عملية مد الجسور

الخشبية التي تمت في هدوء تام، ولا السيوف المسلولة والفدائيين والدراويش المهاجمين والمشاة الذين دخلوا القلعة من الباب التاسع كذلك. في الحقيقة كانوا ينامون في مواقع حراستهم نتيجة الإرهاق والتعب الكبير بسبب الحصار الطويل. وكذلك أفراد الدوريات المتجولة كانوا قد ذهبوا إلى ملاجئ الحراس الموجودة في الأبراج بعد منتصف الليل معتقدين بأن القنوات المملوءة بالمياه التي لم يتم التمكن من اجتيازها نهارا لن يتم اجتيازها ليلا أبدا.

استفاد الفدائيون الذين يتقدمون في هدوء وصمت من غفلتهم هذه وفي لمح البصر أحاطوا بالأبراج الأربعة من كافة الجهات. عندما وصل إلى الدراويش المسلحين بالسيوف المسلولة خبر حصار الفدائيين لأبراج الحراسة، بدأوا في قتل كل من هم فوق الكمر الموجود فوق الأبواب. وانتشر المشاة الذين وصلهم خبر ما قاموا به كذلك في الشوارع على شكل مجموعات. لكن السير في الشوارع كان شديد الصعوبة، لأن الكثير من الشوارع الضيقة كانت بسبب الحجارة الكثيرة التي أُلقيت عليها قد وصلت إلى حالة لا يمكن السير فيها.

وبينما كان سكان القلعة يقضون آخر لحظات نومهم العميق في الصباح كان القادمون من خارج القلعة قد فتحوا الأبواب الثمانية فيماعدا الباب الشمالي، وأقاموا كل جسورهم فوق القنوات الموجودة أمام الأبواب. وعند بزوغ الشمس لم يكن قد بقى فوق الأبراج ولا على جدران القلعة ولا حارس بيزنطي واحد. بيد أن وحدات الحرس المتمركزة في البنايتين الحجريتين الكبيرتين الموجودتين على جانبي الباب الشمالي لم تكن قد استسلمت بعد.

ولما كان الحراس المدرعون قد احتموا بالأبواب الحديدية للبنايتين الحجريتّين فقد كانوا يمزقون من يدخل من المشاة إلى الداخل إربا إربا

ويلقون أشلاءهم على رفقائهم الموجودين وراءهم. وفي الوقت الذي كانت تنهار فيه عزيمة قوات المشاة الذين رأوا تمزيق أصدقائهم، تقدم الحاج إلباي وجاء إلى الباب. وانتابه ذعر عندما رأى الأجساد مقطوعة الأذرع والسيقان. في البداية فكر في إلقاء الجمر المشتعل إلى الداخل عبر الأبواب المفتوحة لكنه تراجع عن هذا وأمر حافرو الأنفاق بالقيام فورا بعمل فتحات في أسقف البنايتين. بعدما قام حافري الأنفاق بعمل فتحات في سطح البنايتين عند الضحى وألقوا العشب الجاف المشتعل والسجاد المبتل المنبعث منه دخان كثيف إلى الداخل قامت القيامة في الداخل. وسُمعت لفترة أصوات الحديد المطروق ببعضه في الداخل، ثم عم الصمت كل شيء بعد ذلك. أمر الحاج إلباي الذي جرد بعض الحراس الذين خرجوا سالمين من الداخل من دروعهم قوات المشاة بتقطيعهم إربا كما قطعوا أفراد المشاة الذين دخلوا إليهم.

عندما دخل المشاة والحاج إلباي الذين انتظروا انحصار الدخان الكثيف داخل المباني ذات الجدران الحجرية المفتوحة على بعضها من خلال أبوابها الداخلية انتابتهم الدهشة. فقد كانوا يعتقدون أنهم سيجدون في الداخل جثامين الحراس الذين خنقهم الدخان أكواما فوق بعضهم بعضا، إلا أنه لم يكن هناك أي أحد بالداخل. الحاج إلباي الذي اندهش كثيرا لعدم وجود أشخاص داخل البناية التي صدر منها صوت ضخم قبل قليل، وفي الوقت الذي طلب فيه من قادة المشاة أن يمحصوا النظر في الجدران، شاهد أن المبنى ملاصق لجدران القلعة وأبواب المزاغل المفتوحة على جدران القلعة. وعندما أدرك أنه لا يمكن فتح أبواب المزاغل المغلقة والموصدة من الداخل بسهولة أمر باستدعاء حاملي رءوس الكباش وأمرهم بتحطيمها.

في الوقت الذي كان يسعى فيه الحاج إلباي لجعلهم يحطمون أبواب المزاغل، كان سليمان باشا وأفرانوس بك قد ترجلا من فوق جواديهما في ساحة الكنيسة وينظران إلى المشاة الذين يتفقدون المنازل المفتوحة على الشوارع شديدة الضيق. التفت أفرانوس بك الذي لم ير أحدا حوله إلى الخلف ونظر إلى باب الكنيسة. وقال: "لندخل ولنلق نظرة سيدي، فلربما لجأوا إلى هناك". أفرانوس بك الذي استطاع الدخول بسهولة إلى الداخل من الباب الخارجي شبه المفتوح، دفع الباب المفتوح على قاعة الشعائر وأراد فتحه. بيد أن الباب لم يُفتح، تراجع للوراء وأتاح المجال للجنود الذين حاولوا فتحه عَنوة إلا أن الباب لم يُفتح أيضا. أفرانوس بك الذي ينظر إلى سليمان باشا أمر الجنود أن يتنحوا جانبا واقترب من الباب بهدوء وحذر، وضع فمه على فتحة الباب وقال باليونانية:

ألا تفتحون الباب؟ إن لم تفتحوه سنضطر إلى كسره.

انتظر مدة، لم يأت أي صوت من الداخل، هذه المرة ضرب الباب عدة مرات بمقبض السيف الموجود في يده. وبعد أن انتظر لبرهة، رفع صوته قائلا:

قداسة الأب، إن ماتيوس كانتاكوزين ترك قلعة أدرنة. من الآن فصاعدا أنتم تحت حماية أورخان غازي قائد العثمانيين. وإذا فتحتم الباب لن يلحق بأي منكم أي ضرر.

أخيرا صدرت جلبة غير مفهومة من وراء الباب في البداية، ثم صدرت أصوت يُمكن فهمها. لما فُتح الباب الثقيل المصنوع من خشب الجوز محدثا صريرا انتشرت رائحة شديدة الكراهة للغاية. تراجع الجميع وراء بعضهم إلى الخلف وخرجوا من الباب الخارجي. قال الراهب ذو اللحية البيضاء الذي أدرك سبب خروجهم مسرعين:

يا أبنائي، نحن نقيم مع موتانا منذ أيام، وهذا هو سبب هذه الرائحة الكريهة.

(٦٢)

وقف أورخان غازي بجوار إحدى شجيرات الورد الموجودة في فناء المجمع الخيري الذي أمر بإنشائه ابنه سليمان باشا والذي مازال العمل جاريا في البنايات الملحقة به، وكان ينظر إلى الورود شبه البنفسجية التي لونها بين اللونين الأحمر القاني والوردي. بعد أن أدي صلاة الصبح في الجامع، ولسبب ما لم يرغب في الذهاب إلى قصر الحاكم البيزنطي الجديد الذي خُصص له ولحريمه. وبينما يحدث نفسه وهو ينظر إلى الورود قائلا " ليتني تناولت طعام الفطور هنا بين الورود "، أصابه القلق بعدما شعر بالألم البسيط الذي بدأ من عند خصره يسري في جسده شيئا فشيئا. ولكي يطرد الضيق الذي يحاول أن يستقر في عقله حدث نفسه قائلا " هذه الورود غرسها سليمان ولدي بيده في اليوم الذي وضع فيه حجر الأساس". ثم قال وهو يدلك بأطراف أصابعه موضع الألم الذي ازدادت حدته واتسع موضعه: " لم تمض فترة طويلة منذ ذلك اليوم ولكن لِمَ تبد شجيرة الورد تلك عجوزة إلى هذه الدرجة؟". ازدادت حدة الألم الذي بدأ من عند خصره. ومع ازدياد شدة الألم تبعثرت وتشتت أفكاره، ونسي من أين سيبدأ حديثه، ولكن بمجرد أن هدأت حدة الألم بعض الشيء عاد تدفق الأفكار الموجودة في عقله مرة أخرى.

نفح شدقيه وبعد أن أخرج الهواء الموجود في رئتيه عدة مرات غير وجهته وسار نحو الجدار المنخفض الموجود بين الحديقة والفناء. بعد أن

حركت الريح التي أحدثها قفطانه الزهور الموجودة على العشب يمنة ويسرة صارت الزهور وكأنها هي الأخرى تسير من خلفه. وعندما جلس على الجدار المنخفض تذكر قول نيلوفر خاتون الليلة الماضية " اشتقت لأولادي، ليتهم كانوا جميعهم هنا". وقال وهو يجول بناظريه على الزهور متعددة الألوان المنتشرة على عشب الفناء: " أنا أيضا تملكني الشوق لهم". لما تذكر هدايا الخطوبة التي أرسلها سليمان باشا، قال" لم يستطع ولدي سليمان المجيء... إن كان قد استولى علي أدرنة فإنه في الأغلب يعمل على إرساء الأمن والنظام فيها. لا جرم هي ليست مثل القلاع الصغيرة. أعلم ذلك من نيكوميديا، كما أن الفرحة والسعادة بالاستيلاء على القلاع الكبيرة تكون كبيرة هي الأخرى. شيء مثل اللقمة الكبيرة، يريد الإنسان أن يفتح فمه كلما حاول ابتلاعها. ولكن الانخداع في عظمة الكبار يجب ألا يُنسي من هم أكبر منهم...". و كان يزداد قلقه والضيق الموجود بداخله كلما استغرق في رحلته الموجودة في خياله. ولسبب لا يمكن فهمه، نهض فجأة من مكانة بسرعة لا يمكن توقعها من شخص في مثل سنه. والتفت نحو الجبال الموجودة في الشمال الشرقي التي يطلق عليها السكان المحليون أرجنتهون والتي يسميها هو جبل الريح حتى لا يفكر في ذلك الضيق والملل. بعد أن فتح كل أزرة قفطانه، قال: " يا جبل الريح! انظر لقد تملكني الضيق مرة أخرى. أرسل من رياحك الشافية لتثلج صدري قليلا". وبينما يتنفس بعمق، لم يستطع أن يصدق لفترة هل خرجت هذه الجمل التي بدت وكأنها قد غاصت في عواطفه وأحاسيسه من بين شفتيه أم لا. وحدث نفسه وهو يبتسم لوقوعه تحت سيطرة مثل هذه الأفكار الغريبة قائلا: " إن لساني هو قطعة من جسدي، لمَ لا يتحدث بأشياء غريبة؟".

أرسل جبل الريح وكأنه قد سمع حديثه رياحه التي مسحت وبردت وجه سانجاريوس الذي اغتسل عاريا تماما حتى يبرد نيكايا في بعض الأوقات. أورخان غازي الذي برد صدره بهذه الرياح، أثناء تزريره لأزرة قفطانه التي فتحها قبل قليل، شاهد الشمس التي ابتلعت حمرتها السماء الزرقاء شيئا فشيئا، تطل برأسها من خلف جبل الريح. أدرك أن سر تحول اللون الضارب إلى اللون البنفسجي للأدغال مثل أوراق شجيرات بخور مريم الموجودة وسط الخضرة الداكنة الموجودة على التلال إلى اللون الأصفر، ما هو إلا إحدى اللعب التي سحرت الأعين، والتي قامت بها الأدغال بالاتفاق مع الشمس. وأثناء ابتسامه، سمع صوت بوق أحد الحراس يأتي من ناحية الباب الشمالي للقلعة. انطلقت الأفكار والهموم التي تحركت في عقله عند سماع ذلك الصوت المجلجل للبوق في رحلتها مرة أخرى نحو أغوارها. فكر في بعض الأشخاص الذين ينتظرهم. هز رأسه للأمام، وحدث نفسه قائلا "ربما يكون سادة آل إسفنديار، وربما يكونون سادة آل جرميان، وربما يكون أحد قادتنا القادمين من بورصه...". بعدما تذكر تجهيزه للخيام ودور الضيافة التي تستوعب كل القادمين شاهد تسلل الشمس وارتفاعها عن حضن جبل الريح. وفي اللحظة التي كان سينطلق فيها نحو قصرالحاكم البيزنطي السابق الذي جهزه ليكون مقرا له ولنسائه، بدأت الأبواق التي تخبر بقدوم الزوار في العزف من ناحية باب القلعة الذي يطلق عليه باب القسطنطينية. ولما سكتت أصوات الأبواق سُمعت أصوات الأبواق التي تخبر بالضيوف الذين دخلوا القلعة من باب " لفكه " الموجود في شرق القلعة. ومن بعده صدر صوت أحد الأبواق المجلجلة التي تفيد بمجيء القافلة من الباب ذاته.

تحررت الشمس تماما من حضن جبل الريح، وفور ارتفاعها كانت قد بدأت حركة دؤوبة ونشاطًا لا يمكن تصديقه في القلعة. رغب أورخان غازي في معرفة القادمين وتراجع عن الذهاب إلى القصر. وفي الوقت الذي انتظر فيه قدوم الأخبار إليه في المكان الموجود به، فإن الإمبراطورة إيلينا زوجة إمبراطور بيزنطة يوحنا باليولوج الخامس الذي يحل ضيفا في القصر العتيق، والذي لم يعر اهتماما كبيرا لأصوات الأبواق، قفزت من سريرها وجاءت أمام النافذة الكبيرة، كانت قد هرعت من أجل إسكات ابنها ايمانويل الذي استيقظ على أصوات الأبواق، والذي يبكي في الغرفة المجاورة. كانت ترتدي الملابس الليلية المصنوعة من حرير المورة ذات اللون الأصفر الفاتح المشغول بالنقوش التركمانية التي أهدتها إليها هوليفيرا خاتون. وعندما رأت مربية الطفل الموجودة إلى جواره دخولها قالت وهي تتنحى جانبا:

يا إمبرطورتي إن الأمير لا يستيقظ في مثل هذه الأوقات، ولكن على الأرجح أنه خاف من أصوات هذه الأبواق. الإمبراطورة إيلينا التي سمعت صوتها الناعم الرقيق، بعد أن قالت:

إن أصوات الأبواق أخافتني أنا الأخرى يا ماريا، جثت على ركبتيها بجوار المهد التركماني الذي أمرت أسبورجه خاتون بصناعته وقدمته هدية لإبنها، أخذت يديه الصغيرتين جدا ووضعتهما بين يديها، وبعدما داعبته ولاطافته سكت الصبي الذي شعر بأنه في أمان. أثناء خروج مربيته وتركها الصبي ووالته في الغرفة، سمعت صوت سعال الإمبراطور يأتي من قريب. الإمبراطور الذي أيقظته أصوات الأبواق كان قد خرج للبحث عن الإمبراطورة عندما لم يرها على السرير. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي شاهد خروج المربية من غرفة ابنه، سأل الإمبراطورة إيلينا قائلا:

أين ماريا يا إيلينا؟

ماريا مينوسيا التي تخدم في القصور الإمبراطورية منذ أن عرفتها، ولكونها أكثر الخادمات المؤتمنات والموثوق بهن والمكلفة من قبل الإمبراطورة الأم أنّا بخدمة أولاد ابنها كانت قد اتحدت مع العائلة الإمبراطورية وصارت وكأنها فرد من أفراد هذه العائلة. إن معرفتها الكثيرة عن الإمبراطورية، وكذلك قدرتها على ايجاد بعض الأشياء المضحكة، حتى في أصعب الظروف، كان يجعلها مميزة في كل الأوقات. ولكن حقيقة مميزاتها كان في درايتها بشئون الأطفال بدرجة تجعلها طبيبة للطفل. كما كانت قدرتها أيضا على شم الروائح تجعلها أكثر تميزا. وكما كانت تقوم بمهنة تربية الأطفال بكل التفاني والحب، فإنها كانت تقوم بشكل تطوعي بالعمل رئيسة لطباخي الإمبراطور. وبدلا من الرد على سؤال الإمبراطور شفاهة، أشارت بيدها إلى غرفة الأطفال.

أخذت الإمبراطورة والإمبراطور أطفالهما الصغار وأثناء توجههما إلى غرف نومهم، صدرت أصوات الأبواق من مكان بالقرب من قصر سناتوس المقابل للقصر العتيق الذي يقيمون به. نظر الإمبراطور إلى الشارع الذي يُرى من نافذة القصر الذي يقيمون به والذي يطلق عليه القصر العتيق، والذي لا يشك في أنه أكبر قصور عصره. على الرغم من أن الشمس كانت قد أشرقت من فورها، فإن الطرق الموجودة بين كنيسة آيا صوفيا الصغيرة التي يُرى برج جرسها والجامع الأوزبكي الذي تُرى مئذنته كانت تعج بالبشر. كما كان يوجد كذلك الطبالون الذين كانوا يسيرون في الشارع نحو بوابة لفكه. كان الطبالون يقفون فجأة أثناء قرعهم لطبولهم وكانوا بعد قول

بعض الأشياء يسيرون ويبدءون في قرع طبولهم من جديد. قال الإمبراطور وهو يأخذ ابنه الصغير الموجود على ذراع الإمبراطورة التي جاءت إلى جواره إلى حضنه ثم قال:

لنستعد ولننزل لتناول طعام الفطور...

قالت الإمبراطورة إيلينا:

يجب علينا الإستعداد في أسرع وقت.

أزعج أورخان غازي ورجاله قدوم الكثير من الضيوف الذين توالى مجيئهم خلف بعضهم بعضا أثناء استعدادهم لتناول طعام الفطور. ولكن استراح وهدأ الجميع عندما علموا أن أغلب القادمين جاءوا من الولايات التابعة لهم. لأن غالبية القادمين من الولايات التابعة لهم كانوا قد جاءوا بخيامهم التي سيقيمون فيها. ولم تكن هناك أية مشكلة تقريبا بعد إرشادهم إلى الأماكن التي سيقيمون فيها خيامهم. أما رسل وممثلو الحكام القادمين من أماكن بعيدة فتم تسكينهم في القصور المعدة جيدا لذلك. كان الرسول الذي أرسله القرامانيون هو أكثر من حظي بأكبر قدر من الإهتمام. ولكن وسط هذا القدر من الصخب لم يكن قد نسيت صواني إفطار الضيوف الموجودين في القصر العتيق. لأنه في أيام هذا الاحتفال كان الحاكم يتكفل بتقديم كل المأكولات بدءا من طعام الفطور وحتى طعام العشاء للضيوف. لا أحد يعلم منذ متى كان قد بدأ هذا التقليد، ولكنها كانت عادة عثمانية مستقرة منذ أزمنة طويلة. الإمبراطور الذي اندهش جدا بعدما جاءت صينية الإفطار إلى القصر العتيق، بعد أن أمر بإرسال طعام الإفطار الذي أعده طهاته إلى مائدة الحاكم

أورخان أشار إلى ماريا مينوسيا كبيرة الطهاة من أجل تذوق المأكولات التي جاءت. كانت الأطعمة الموجودة على الصينية كثيرة جدا، لدرجة أن كبيرة الطهاة ماريا مينوسيا كانت قد شعرت بالشبع على الرغم من تذوقها لقمة واحدة من كل المأكولات الموجودة على الصينية. في الوقت الذي جلس فيه الإمبراطور والإمبراطورة لتناول طعام الفطور، كان أورخان غازي الذي يستضيفه في قصر الحاكم البيزنطي الجديد، قد جلس مع أبنائه مراد وابراهيم وقاسم الذين جاءوا بالأمس من الأقاليم التابعة للإمارة، وخليل الذي يطلق عليه " الرجل الصغير" ونيلوفر خاتون التي يناديها "نور العين" حول إحدى الصواني يتناولون طعام الفطور. وكان يجلس أيضا حول الصينية الموجودة بجوارهم كل من أسبورجه خاتون وتيودورا خاتون وبناتها. في الحقيقة كان هذا اجتماعًا ولقاء يشتاقون إليه جميعا منذ سنوات. إن أورخان غازي الذي شعر بالسعادة لتجمع العائلة كلها فيما عدا سليمان باشا والذي أحس بنوع من عدم الراحة بسبب الشفقة والرحمة التي تبديها مشاعره الرقيقة الموجودة بداخله، فكر قائلا: "إن هؤلاء ليسوا كل الأسرة، الغائبون أولادي مثل الموجودين تماما". اختفت البسمة الرقيقة التي كانت موجودة قبل قليل واستمر في تناول فطوره. حينئذ حاول قدر الإمكان أن يهرب بنظراته عن نظرات نيلوفر خاتون التي تملؤها سعادة حقيقية. لأنه كان يعلم بأنه بمجرد أن ينظر إلى نظراتها الرقيقة تلك لن يبقى أي أثر قط من قسوة السلطة الموجودة في قلبه. وبينما يحاول لفترة تناول طعام فطوره، فإنه من ناحية أخرى استمر في مقاومة نفسه وقال: "هذه هي ضريبة الإمارة، وضريبة كون الإنسان حاكما". وبعد ذلك تناول فطوره دون أن يفكر في أي شيء قط. بعد أن فرغ من

تناول فطوره ذهب مرة أخرى إلى حديقة مجمع سليمان باشا الخيري. بعد أن أمضى بعض الوقت هناك مشى حتى الميدان الموجود أمام بوابة لفكه الذي أقيمت فيه خيام التسلية والمهرجانات التي يشاهد فيها الضيوف الذين جاءوا إلى القلعة للاستمتاع بالعروض. كان المشعوذون، والبهلوانات، ومروضو الحيوانات، وعروض الخيالة، وعازفو المندولين بحركاتهم وتهريجيهم يجعلون القادمين إلى الاحتفال في الخيام والساحات الموجودة في ميدان التسلية ينفجرون من الضحك.

(٦٣)

سليمان باشا الذي يبدو ضخما بسبب شعره المنسدل على منكبيه العريضين والذي مال برأسه ونظر إلى الجرح الموجود في صدر جواده، أُفتتن عندما أدار وجهه نحو الشمس التي تميل للغروب. ودون أن يبتعد ببصره عن مدفع إطلاق النار المستدير الذي يشبه اللهب البنفسجي تحدث قائلاً: " أيتها الشمس! هل تغربين بهذا الجمال في كل أرجاء تراقيا ؟". وعندما أطبق الصمت عليه، سمع صوتًا رقيقا قادمًا من الأعماق وكأنه يأتى من الطرف الآخر للكرة الأرضية. لم يكن من الواضح تماما هل كان الصوت يحاول أن يقول له بعض الأشياء أم أنه كان يريد إخافته فقط. بيد أن الأنين الموجود في الصوت كان يدمي قلب الإنسان، ويجعل جسده يرتعد. اعتقد لفترة أن هذا الصوت يخرج من أثر الجرح الموجود فى صدر الحصان العريض. اقترب مرة أخرى من جواده الأشهب. وضع أذنه على الجرح الموجود فى صدره. وأصغى لفترة طويلة، ولكنه لم يسمع أى صوت ولا أى شيء آخر. ولما استقام مرة أخرى نظر إلى الحقول الغناء الموجودة على جوانب التلال المواجهة لأغصان الأشجار التى ترفرف وتهتز شيئا فشيئا بأنسام المساء.

وبينما ينظر إلى أزهار عباد الشمس غير المتفتحة، حاول أن يفهم لفترة من أين يأتي الصوت ولمن يعود؟ قائلاً: "لا يأتى من صدر الحصان،

كما أن الأشجار لا تتكلم وكذلك زهور عباد الشمس، كما أنه لا يظهر أحد فى الحقول!". ولكن دون جدوى لم يتوصل إلى أية نتيجة. وبعد فترة أخذ الصوت المتكرر فى الانخفاض من تلقاء نفسه، ثم سكت. وبعد أن صمت الصوت لفترة وبخشخشة خرج من بين أغصان الشجر الموجود بالقرب منه ونظر إلى ضفدعين أحدهما صغير السن والآخر عجوز يتجهان نحو الحقول الموجودة ناحية غروب الشمس. وعندما جذب انتباهه صرخات الغراب الأسود الذي التقط أحد الأغصان الملقى جانبًا، وهو ينظر إلى الضفدعين قال: "تستدعى أصدقاءك لأنك لا يمكنك حمله بمفردك" بالتأكيد تريدنى أن أذهب أنا أيضا من هنا، لتنقض على الضفدع الصغير. ولكن حتى لو ذهبت من هنا فلن يكون هذا الصغير طعاما لك. لن تتمكن من التقاطه، ولو تمكنت من التقاطه فحينما تلقيه على الأرض لن يتمزق إربا مثل صغار الحيوانات الأخرى. لأن رداءه من العظم، ولا جرم أننا لن تتمكن من فعل شيء له. إن كنت تظن أن منقارك الحاد والمدبب سوف يفيدك في فعل شيء، فأنت تخدع نفسك". وقال بصوت حزين وهو ينظر إلى زرقة أديم السماء "يكفى أن صغير الضفدع لن يقع على ظهره". وبينما يطير الغراب ويبتعد عن المكان وكأنه قد فهم ما قاله، وبينما ينظر خلفه شاهد مجيء كتلة من السحاب تشبه كرات مسرعة نحو القلعة الموجودة فى الشمال. سليمان باشا الذي ينظر إلى السحب وهو يبتسم حدث نفسه قائلا: "أينما يرى حاجى إلباى مجموعة السحب السوداء كهذه يقول هذه سحب ممطرة". أحس بأنه يريد أن يلوح بيده للسحب وللغراب كذلك. ابتسم من تلقاء نفسه وبقفزة واحدة امتطى صهوة جواده الأشهب وهمزه بالمهماز. قال وكأنه يُسمع جواده" علينا أن نذهب إلى أدرنه قبل السحب".

وعندما اقترب الجواد الأشهب الذي شق طريقه في فترة وجيزة وكأنه اجتاز عدة تلال في ثلاث خطوات من الباب الشمالي للقلعة، شاهد سليمان الحشد الكبير الذي يخرج من الباب. الأصح أنهم لم يكونوا يخرجون بل كانوا وكأنهم يُطردون. المجموعة التي تخرج من الباب كانوا جميعهم يمتطون الجياد تقريبا. سليمان باشا الذي ينظر إليهم وبينما كان يحدث نفسه قائلا: "كان قد تم الاستيلاء على كل الجياد الموجودة في القلعة بعد الأحداث الأخيرة، والآن من أين خرج هؤلاء؟ ولكن هل تنتهي خبايا وأسرار هذه القلعة؟ والأبواب المفتوحة بين المنازل وبعضها، والمعابر السرية الموجودة بين الأبراج والأنفاق الأرضية التي تربط السراديب بعضها...". رأى هذه المرة الفرسان يقودون خيولهم خلف المجموعة التي ذهبت بسرعة قبل قليل. وجه رأس الحصان الأشهب نحوهم. قائد الفرسان الذي شاهد مجيئه نحوهم قاد جواده وجاء إلى جوار سليمان باشا. لما تعرف سليمان باشا على قائد فرقة باجيياني روم أق تيمور أوغلو سأله قائلا:

" خيرا يا أق تيمور أوغلو إلى أين؟"

قال أق تيمور أوغلو قائد فرقة باجيياني الروم:

يا أميرنا! لم يبق لنا ما نقوم به من عمل فى أدرنة. أخذنا الإذن من قائدنا أفرانوس بك. والآن نتجه نحو ديموطيقا.

قال سليمان باشا: "هل ستذهبون أنتم فقط؟"

قال أق تيمور أوغلو:

لا يا أميرنا، تنطلق أيضا بعد قليل تشكيلات الغزاة والأبدال والآخية... ولكن نحن الطليعة سنذهب أولا ونحدد أماكن إقامتنا.

سأل الأمير سليمان باشا بعد أن توقف قليلا قائلا: هل سينطلق اليوم أفرونوس بك هو الآخر؟

قال تيمور أوغلو بعد أن تدبر كلماته في عقله لفترة حتى لا يقول شيئا غير صحيح: سيأتى أفرونوس بك خلال عدة أيام وسينطلق مع الرُماة الجدد.

قال سليمان باشا: أيها المحاربون! فلتصحبكم السلامة، ولتركض جيادكم بسرعة البرق، ولتحصلوا على الكثير من الغنائم. وبعد أن حياهم برأسه، لامس بقدمه بطن الجواد الأشهب برفق. لما وصل الجواد الأشهب إلى باب القلعة استدار ونظر من خلف تشكيل أخياني الروم. لما شاهد ابتعادهم كثيرا عن القلعة، حدث جواده الأشهب قائلا:

أيها الجواد الأشهب متى سنلتقي الأفق مثلهم؟

(٦٤)

إن أورخان غازي الذي كان قد ذهب إلى قصر الحاكم البيزنطي الجديد المخصص لإقامته بعد زيارة المهرجان قام بتغير ملابسه وجاء إلى المجمع الخيري لنليوفر خاتون الذي سيقام فيه حفلة الخطوبة، وكذلك الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يقيم في القصر العتيق وكانا قد ارتديا أفخم ملابسهما. عبر الاثنان بوابة الدخول وأثناء سيرهما إلى جوار بعضهما في الفناء نحو البناية صامتين، كانا يدعوان من أجل تنفيذ كل الأمور التي ناقشاها بالأمس في قصر سناتوس العتيق. وحتى لا يحدث أي شيء سلبي يمكن أن يكون سببا لإفساد سحر هذه اللحظة الجميلة فإنهما أثناء سيرهما كانا يتصرفان بلطف وباحترام شديد تجاه بعضهما قدر ما استطاعا إلى ذلك سبيلا. على الرغم من التزام كل من أورخان غازي والإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس اللذين يسيران إلى جوار بعضهما في المقدمة بالرسميات، فإن الإمبراطورة إيلينا وتيودورا خاتون اللتن تسيران على بعد مسافة بسيطة من خلفهما كانتا قد أمسكتا بيد بعضهما وكأنهما قد قلبتا كل القواعد رأسا على عقب. نيلوفر خاتون التي شاهدت إمساك كل منهما بيد الأخرى بحرارة واشتياق الشقيقات لبعضهن راق لها ذلك للغاية، وتمتمت قائلة وهي تبتسم لهما "ليت كل شخص يستطيع أن يعيش سعادة الأمومة والأخوة معا مثلهن". وهي تنظر إلى الأمام ولسبب غير معلوم عادت بأفكارها إلى ماضيها. وشعرت بحزن على عدم قدرتها على عيش حب كهذا

مع أشقائها. ولكي تتخلص من هذا الحزن، قالت بصوت لا يمكن أن يسمعه أحد غيرها "لم أســتطع أن أحب أخي كثيرا ولكن أحب هوليفير ونيلوفر بعض الشيء". وكأنها تريد أن تخمد شوقها لشقيقها الذي كبر بداخلها، أضافت قائلة "وبخلافهما توجد أيضا عزيزتي تيودورا والأخريات من صويحباتي". ولكن هذا الحزن الذي نتج عن الاشتياق لذلك الأخ لم يترك تلابيبها. أثناء سيرها بضيق وألم هذا الحزن الموجود بداخلها نظرت إلى المجمع الخيري الذي يحمل اسمها والذي اقتربوا منه. وهي تبتسم ابتسامة حزينة حدثت نفسها قائلة "سيذكر اسمي بعد ذلك مثل اسم نيكايا على هذه الأراضي التي جالت عليها أفروديت ". لما أسعدت هذه الجملة التي خطرت ببالها قلبها لم يبق أي أثر للحزن الذي شعرت به قبل قليل. استدارت برغبة مجنونة وفكرت في معانقة الشقيقتين اللتين تمسكان بيد بعضهما. استدارت نحوهما تماما وفي اللحظة التي كانت ستفتح ذراعيها، رأت أورخان غازي الذي يسير في المقدمة جنبا إلى جنب مع الإمبراطور يشير لها حتى تقترب منه. أسرعت الخطى قليلا، ولما اقتربت منه، لاحظت أن أورخان غازي ذو الأنف المستديرة التي تلائم تماما وجهه العريض يراوح بين الضحك والابتسام. اندهشت بعض الشيء لأنها تعلم أنه في الأوقات التي يكون فيها على هذا النحو يكون قد تذكر بداخله مزحة ما. قالت " على الأرجح، إنه لن يمزح مع الإمبراطور". أبطأت خطاها. قال أورخان غازي الذي شعر بأنها أبطأت الخطى:

يا عزيزتي نيلوفر مهما كنا مثل حاكمين متصاهرين إلى هذه الدرجة، فإن هناك حاكما آخر لم يتركنا وحدنا...

إذا كانت نيلوفر خاتون لم تفهم جيدا معنى مما قيل، فإنها ترجمت ما قاله أورخان غازي حرفيا إلى الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي ينتظر الترجمة بشغف. ولما كان الإمبراطور البيزنطي يوحنا باليولوج الخامس، حصيفا جدا فإنه نظر أولا إلى أورخان غازي، ثم استدار ونظر إلى شقيقة زوجته تيودورا وزوجته إيلينا وشقيقتها تيودورا وقال:

هما الآن ليستا من آل كنتاكوزين منذ اليوم الذي قدما فيه إلى باب آل عثمان وإلى قصر آل باليولوج.

أورخان غازي الذي سمع ترجمة هذه الجملة، حدث نفسه وهو ينظر بمكر ودهاء إلى الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس قائلا: " شاب ولكنه ليس غرا أبدا". بعد أن استنشق أنفاسه لفترة، قال:

آه يا عزيزتي نيلوفر أنت لم تستطيعي أن تفهمي جيدا ما أردت قوله، ولكن انظري كيف أدرك الفاهم. في الحقيقة كان يجب أن يكون هذا هو الجواب الذي سيجيب به الإمبراطور. ولكن مهما يكن الأمر فإنهن وإن صرن زوجاتنا فإنهن أيضا بنات حمانا كنتاكوزين الكبير. ولذا فإن حكمه وسيطرته ستكون في بيوتنا في كل وقت.

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يسمع ترجمة نيلوفر خاتون، بعد أن شكر أورخان غازي على وصفه له بالذكي:

لا جرم، هناك دور كبير لكنتاكوزين الكبير سواء في تربيتي وتنشئتي، أو في استمرار حياتي. كما أنني أتذكر كل وقت حكمه وكذلك سلطانه كوالد لإيلينا. ولكنه ارتكب الكثير من الأخطاء في السنوات الأخيرة. إن إعلانه ابنه

شريكا لعرش الإمبراطورية، كان أكبر أخطائه التي إرتكبها. أورخان غازي الذي يسمع ترجمة نيلوفر خاتون بإعجاب وصبر، قال:

أشارك الإمبراطور الرأي، كل حجر لابد وأن يتناسب مع مكانه... وإذا وضعته في مكان آخر، فإما أن يكون صغيرا أو كبيرا على المكان ... إن كان صغيرا يكون سببا لسقوط الجدار مع مرور الوقت. استقامت نيلوفر خاتون بجسدها الجميل الذي يتقدم نحو الشيخوخة، ولما ترجمت بدقة كل لفظة خرجت من بين شفتي أورخان غازي، قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس:

أورخان غازي على حق... منصب الإمبراطور كبير على ماتيوس.

أورخان غازي الذي سمع ترجمة ما قيل، أثناء نظره وكأنه قد دُهش لفهم الإمبراطور الشاب لما قيل بهذه السرعة الكبيرة، قلب لحيته البيضاء بأصابعه السمينة. ونظر إلى الإمبراطور الشاب وقال:

لو كان أجدادكم قد عملوا على استمرار الصداقه بين آل لسكاريس وكيخسرو التي بدأت قبل المجيء إلى نيكايا من أجل تجنب خطر اليونانيين، لربما كانت بيزنطة لن تشهد حتى صراع الأخوة الموجود حاليا. وكان آل كنتاكوزين لن يلهثوا وراء أحد أحلامهم القديمة. ثم سكت وكأنه قد ندم على ما قاله. أثناء سماعه لترجمة نيلوفر خاتون لما قاله إلى الإمبراطور، فكر قائلا: "بيزنطة المستقرة لن تكون في صالحنا". نظر إلى قورقوت تكين العجوز الموجود أمام الباب. قورقوت تكين آلب الذي يفهم معنى نظراته جيدا جاء إلى جواره وقال:

يا سيدي بمجرد أن تأخذوا أماكنكم، سوف نبدأ احتفالنا.

وبينما يفكر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس في كيفية الرد على ما قالته نيلوفر خاتون، ونظرا لأن أورخان غازي سار ودخل من الباب الذي يدخل منه الجميع، دخل هو الآخر في إثره دون أن يفكر كثيرا. ولكنه بينما كان يمشي من ناحية، فإنه من ناحية أخرى كان يفكر في الرد المناسب الذي سيقوله تعقيبا على ما قاله أورخان غازي. سار بهذا التردد الموجود بداخله ولما دخل من الباب الداخلي ذي الدرفتين اللتين يمسكهما الخدم غير المرئيين شعر بأن القاعة المزينة بخزف نيكايا الذي يغلب عليه اللون الأحمر قد سحره. قالت نيلوفر خاتون التي رأته ينظر مفتونا إلى خزف الجدران:

يا صاحب العظمة، إن خزف هذا البناء الذي أُنشئ باسمي تم عمله في أفران نيكايا وقام أمهر عمال الخزف في نيكايا بتثبيته على الجدران.

فجأة بدأ الإمبراطور يتصبب عرقا وكأن الماء المغلي ينصب من رأسه. كان سبب تصببه عرقا هو طيران جملة " أنا حتى الآن لم أضع حجرا على حجر من أجل إيلينا التي أنجبت لي ثلاثة أبناء"، من عقله بسرعة. رجع بعد أن خطا عدة خطوات نحو منتصف قاعة استقبال المجمع الخيري المضاءة بالقناديل الزيتية الملونة الكبيرة الموجودة في الأركان، نظر أولا إلى الإمبراطورة إيلينا، ثم إلى إيرينا الصغيرة والأمير خليل الموجودين خلف الجزء المفصول بستارة من النسيج الرقيق. كانت إيرينا تقف وكأنها تلعب، أما الأمير خليل فكان يقف خجولا. كان يجلس إلى جانب العريس شاب يافع يبدو أنه أكبر منه ببضع سنين، كما كان يجلس إلى جوار العروس سيدة ترتدي ملابس مثل ملابس تيودورا خاتون. شغف لمعرفة من هما. بحث

عن نيلوفر خاتون حتى يسألها عن هذين الشخصين. بيد أن نيلوفر خاتون في ذلك الوقت، لم تكن ترى حتى نظر الإمبراطور إليها بسبب فرحتها بسبب الميزة التي منحتها إياها لغتها الأم التي لم تستخدمها حتى الآن في هذا اليوم، وسعادتها بسماعها من أورخان غازي الكثير من الموضوعات التاريخية التي علمها إياها المؤرخون البيزنطيون حينما كانت ابنة حاكم القلعة. أدركت بعد فترة طويلة أن نظراته تبحث عنها ولكن حينما بدأت في السير نحوه، كان أورخان غازي قد جلس على أحد كرسيي العرش اللذين أعدا له وللإمبراطور، وكان يدعو الإمبراطور هو الآخر للجلوس. لما جلسا على مقعديهما أدركت أنه حل الدور عليها هي والإمبراطورة. مرت وجلست على مقعدها الموجود خلف كل من أورخان غازي والإمبراطور. وأجلست الإمبراطورة إيلينا على أحد جانبيها وتيودورا خاتون على الجانب الآخر. وأخذ أبطال أورخان غازي وأمراؤه والقادمون مع الإمبراطور أماكنهم من خلفهم. الإمبراطور وهو ينظر بطرف عينه إلى قادة أورخان غازي الذين يقفون على أقدامهم فكر قائلا " آه لو كانت الصداقة الموجودة بين البيزنطيين الأكريتاس وقبائل التركمان كانت قد بدأت قبل فترة على النحو الذي بدأت عليه في زمن كيخسرو السلجوقي وجدي الأكبر تيودور لسكاريس. ليت تلك الصداقة كانت قد دامت واستمرت. فلربما ما كان هناك داع لحرب ملازجيرت.". التفت قليلا للخلف ونظر بطرف عينه إلى كل من إيلينا وتيودورا خاتون. ثم التفت ونظر إلى ابنته الموجودة خلف الستارة المصنوعة من النسيج الرقيق. كانت نظرات عينه وكأنها ستسقط أمامه لفترة. تحطمت شجاعته. استطاع أن يتجرأ وينظر نظرة قصيرة إلى رئيس وزرائه الذي يجلس مع رجاله في الجهة المقابلة

فقط. نظر أمامه، وبينما كان على وشك الاستغراق في وادي أفكاره العميق الموجود بداخله، قال أورخان غازي:

لا تقلق يا عظمة الإمبراطور، إن الصداقة التي بدأت بين المحاربين التركمان والبيزنطيين الأكريتاس على الحدود الفارسية ستستمر للأبد بهذه الخطوبة.

أورخان غازي الذي أدرك أن الإمبراطور الذي يضعي إليه بكل جوارحه لم يفهم ما قاله، وهو يبتسم إلى الإمبراطور وكأنه يقول له سأحكي لك فيما بعد، أشار بصوت قوي إلى قورقوت تكين آلب الذي يقف قباله بأن يأتي إليه. لما جاء قورقوت تكين آلب إليه، قال له:

ابدءوا الإحتفال يا قورقوت.

لم يكد قورقوت تكين آلب يعود إلى مكانه حتى صدرت من ناحية باب الدخول أصوات الطبول التي هزت الأرض والسماء. لما سكتت أصواتها بدأ في الدخول إلى الداخل الجواري اللواتي يمسكن بأيديهن صواني الهدايا وبرفقتهن رسل حكام الولايات المجاورة في طابور طويل جدا.

بعد أن قدم رسل حكام الولايات المجاورة هدايا الخطوبة جاء الدور على الأمراء العثمانيين. في البداية قدم قرا حسن أوغلو قائد حرس الحاج إلباي هدايا سليمان باشا الابن الأكبر لأورخان غازي ورجاله. أثناء خروج الخدم الذين وضعوا الصندوق المصنوع من خشب الجوز المطلي بالذهب الموجود بداخله الهدايا التي في الخيمة التي تم الإشارة إليها أخذ قرا حسن أغلو مكانه الموجود خلف الأمير مراد الذي يجلس عن يمين أورخان غازي. ومن بعدهم قدم المربي شاهين بك الصندوق الرائع المشغول بالحفر الذي

صنعة عمال جردا المهرة والموجود بداخله هدايا الأمير مراد. وأثناء خروج الخدم ذهب المربي شاهين بك هو الآخر بخطوات بطيئة إلى جوار قرا حسن أوغلو. وبعد هدايا الأمراء والولايات التي قُدمت بالدور وأثناء تقديم هدايا الإمبراطور البيزنطي يوحنا باليولوج الخامس تم الإعلان عن أن هدايا الكثير من حكام القلاع والإقطاعيين البيزنطيين قد أُرسلت إلى نيكوميديا. ومن باب المجاملة في ذلك اليوم كانت هدايا أورخان غازي هي آخر الهدايا المقدمة. بعد أن أفاض أورخان غازي في تقديم شكره الوفير وتقديره العميق للإمبراطور والسفراء بعد انتهاء تقديم الهدايا التفت نحو ابنه خليل، ثم قال:

إن الأمير خليل سوف يستمر في حكمه لقلعة نيكوميديا كما كان الأمر قبل ذلك. وأنهى كلمته قائلا أتمنى أن نقيم حفل الزفاف في نيكوميديا.

انتهى الإحتفال بالكلمة القصيرة التي ألقاها الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بعد حديث أورخان غازي. وأثناء مغادرتهم مكان الاحتفال فإن الإمبراطورة إيلينا التي جذبت الاهتمام برجاحة عقلها التي هي بنفس قدر جمالها، أمسكت بيد نيلوفر خاتون بإحكام، ثم قالت:

إن إيرينا التي سميناها على اسم والدتنا ما زالت طفلة، فهل يمكنني بعد الحفل أن أستأمنكم عليها أكثر مما استأمنتكم على شقيقتي تيودورا؟

اغرورقت عينا نيلوفر خاتون التي سمعت كلامها بالدموع. وهي تمسح دموع الإمبراطورة إيلينا بدفء أكثر من دفء عاطفة الأم، قالت لها بصوت رقيق جدا:

يا إمبراطورتي، الكل ينظر للأميرة على أنها ليست طفلة...

(٦٥)

الأحياء الموجودة خارج القلعة والمتناثرة على هيئة مجموعات من البيوت على التلال الصغيرة الموجودة في محيط قلعة أدرنة ذات الأسوار المنيعة والقنوات المائية المتتابعة كانت تبدو وكأنها تبتسم جميعها لسليمان باشا الذي ينظر إليها من برج مقدونيا. وبينما كان يريد أن يبتسم إليها هو الآخر حدث نفسه قائلاً: " وكأن كل واحد منها عبارة عن أثر لقوم مختلف". أدار وجهه نحو الجنوب وقال: " إنها ملك الأوديستيين". وعندما التفت ناحية الغرب تحدث قائلاً: " وهذه ملك للمقدونيين". وهو ينظر نحو الشمال قال: "وتلك لليونانيين". وبينما كان يحدث نفسه وهو ينهض على قدميه قائلا: "ربما قد أصابنى الهوس بالتاريخ للمُربى العثمانى"، ثم سار نحو قصر ماتيوس كنتاكوزين قائد القلعة السابق الذي جعله الحاج إلباي مقرا للقيادة. خطر بباله وهو يمشى أن القلعة تحت سيطرتهم في النهار أما في ليل الأمس فكانت خاضعة لسيطرة الآخرين.

وصل إلى مقر الحاج إلباي

بعدما أكمل حديثه مع نفسه قائلا: "دخلنا القلعة بسهولة من باب روما بفضل رجال قداسة الراهب. ساعدنا كل من الراهب والشعب. وقمنا معا بتنظيف القلعة من الداخل. أبعدنا الذين رحلوا وأسكنا القادمين الجدد بمنازلهم. يبدو أننا أخطأنا لما قمنا بالسماح لمقاتلينا بمغادرة القلعة ظنا منا أن

الأمور تسير في نصابها الصحيح عندما بدأ مدير الأمن والقاضي والحاكم البيزنطي والراهب بالعمل معًا. خرج الرجال من الأماكن التي اختبئوا فيها لأيام وهجموا وكأنهم كانوا يتحينون فرصة ذهابهم. رددناهم على أعقابهم لكن كان لقاء ذلك أرواح المئات من مقاتلينا. ومنذ ذلك اليوم خُيِّل لي أن القلعة لنا نهارا وللآخرين ليلا.". ثم حدث نفسه وهو ينظر إلى القصر قائلا: "يجب أن يكون على رأسهم ماتيوس كانتاكوزين..."، جاء الحاج إلباي الذي ذهب من أجل القيام بأعمال التفتيش على السراديب أيضا أمام القصر. وفور وصوله، قال: " سيدى! تم تحديد أماكن فتحات بعض السراديب ... نزل المقاتلون واستكشفوا الأنفاق ولكنهم لم يجدوا أى أحد. ووفقا لما قالوه فإنه توجد معابر تربط السراديب ببعضها. عملنا صار سهلا الآن. لنشعل النار عند في فتحات السراديب التي توصلنا إليها، إذا ما قمنا بتسليط الدخان على السراديب فإنه يمكننا بذلك تحديد فتحاتها من الناحية الأخرى، وكذلك نخرج ماتيوس العاثر من جحره.

أمر سليمان باشا الذى اطمأن كثيرا بعد الكلام الذي قاله الحاج إلباي إلى قادة قوات المشاة الموجودين بجواره بالبدء في التنفيذ فورا. عند قيام حافري الأنفاق بخلع ورفع أحجار الغطاء الموجود على فتحات السرداب، اتخذ المشاة جميع احتياطاتهم لمواجهة أي هجوم. وبينما كانوا يقومون باستعداداتهم داخل القلعة على هذا النحو فإن وحدات الفرسان الموجودة خارج القلعة انتشروا كذلك في الأراضي واتخذوا كافة تدابيرهم من أجل الحيلولة دون هروب الحراس البيزنطيين الذين سيخرجون من فتحات السرداب عندما تشعل النيران. وعندما أتم حافرو الأنفاق استعداداتهم أشعلوا

النيران في الحطب الذي سكبوا عليه كميات كبيرة من الزيت وفي الوقت الذي اتخذوا فيه كافة احتياطاتهم من أجل انتشار الدخان في السراديب فإن سليمان باشا الذي صعد مع الحاج إلباي إلى البرج البيزنطي الذي يعد أعلى أبراج القلعة، ركز تماما على ما سيحدث عندما نما إلى علمه بأنه تم إشعال النيران في فتحات السراديب الأربع. ولكن عندما لم يخرج الدخان من أي مكان رغم انتظارهما طويلا نظر لبعضهما بخيبة أمل. قال الحاج إلباي الذي شاهد الأمل يتطاير شيئا فشيئا من عيني سليمان باشا:

لا تقلقوا يا أميرنا! سيجد الدخان طريقه بعد قليل. ماتيوس شخص داهية، ربما يكون قد أمر بغلق المعابر بالجدران. ولكن ليفعل ما شاء بعد قليل سيجد الدخان طريقه وسيخرج وسيصعد إلى سطح الأرض. لا هو ولا رجاله كذلك يمكنهم التحمل أكثر من ذلك تحت الأرض.

بدأت الأدخنة تتصاعد من فتحات السراديب المنشرة في كل أرجاء القلعة حينما كانت أنتيوبا البلاجارية الجميلة على وشك الدخول إلى أفكار سليمان باشا الذى ينصت إلى حديث الحاج إلباي الواثق بنفسه على هذا النحو. قام الفرسان بتطويق وحصار مخارج السراديب نظر سليمان باشا إلى الحاج إلباي وبدأ في الضحك حينما كانوا ينتظرون الذين سيخرجون من السراديب. بعد أن ضحك معه الحاج إلباي لفترة، قال:

يا أميرنا! نحن البشر أقل الكائنات الحية قدرة على مقاومة الدخان. انظر الآن بعد قليل سوف يُظهِر رجال ماتيوس أنوفهم واحدا تلو الآخر.

لم يكد الحاج إلباي يُنهي كلماته حتى تحقق ما قاله. وبدأ حراس أدرنة المختبئون تحت الأرض بالخروج من الأنفاق واحدا تلو الآخر، وبدأ الفرسان في إلقاء القبض عليهم. واستمرت لعبة الاعتقالات هذه على هذا النحو حتى وقت العصر. نزل سليمان باشا الذى كان يشاهدهم من البرج ومشى في الشوارع الحجرية الضيقة ووصل إلى قصر الحاكم البيزنطي الموجود بجوار الكنيسة والمخصص لحريمه. ذهب الأمير للحصول على قسط من الراحة في قاعة قصر الحاكم البزنطي الواسعة وهو يرتدي ملابسه. لما أدرك التغييرات الموجودة داخل الغرفة دقق النظر إلى الحوائط. حدث نفسه قائلا: "لم يضع عمل أنتيوبا هباء ثانية". داعب بأطراف أصابعه وجه القطيفة للوسادة الحريرية السميكة التي يجلس عليها ونظر لفترة إلى الأيل ذي القرون المتشعبة المشغول بكل درجات اللونْ البني على السجادة المصنوعة في تبليسي ذات الأرضية الحمراء والمعلقة على الجدار الموجود في مواجهته. وبعد أن تفحص ببصره الآيل من قرنه حتى أظفاره ومن أظفاره حتى قرنه لعدة مرات قال: "لقد تقدم به العمر". بعد أن قال هذا تذكر القادة والبحارة الذين عبروا معًا إلى تشمبا بعوامات وقوارب الصيادين. ابتعد بنظراته عن الآيل وعندما حدث نفسه قائلا: " بخلاف القادة لا يوجد أي منهم سالما على قيد الحياة" خطر بباله عمه علاء الدين على باشا الذى كان يحبه كثيرا أثناء طفولته. الأمير سليمان باشا الذي لم يستطع بأي شكل من الأشكال معرفة السبب الذي جعله يفكر في عمه على باشا لين الطبع الذي لا يحب ساحات الحرب تذكر أيضا شقيقه قاسم الذى توفى عن عمر صغير. شعر بالضيق من الذكريات التي تتوالى على ذهنه في إثر بعضها بعضا. لما حاول أن

يضغط على نفسه من أجل التخلص من هذا الضيق، ورد إلى ذهنه البحارة الذين أصيبوا فى ساحات الحرب. حدث نفسه قائلا: "تخلصوا من استيائهم من الحياة باستدعائهم مرة أخرى إلى الخدمة بوحدات المشاة التابعة للمرحوم عمى". ولعدم مشاركته لمشاعره تلك والافصاح عنها، فإن من لقوا حتفهم ومن في معيتهم من المصابين لم يكن لديهم أية فكرة عن مشاعره الرقيقة تلك. في الحقيقة كان لا يريدهم. جال بناظريه مرة أخرى على ذلك الآيل ذي القرون المتشعبة لفترة، وعندما استقرت عيناه على صورة الطائر الحالك السواد الموجودة على السجادة المملوكية، حدث نفسه قائلا: "إن عدم حب عمي للصراع كان رحمة بآل عثمان". وبينما يستمر في النظر لفترة إلى صورة الطائر دون أن تتزحزح عيناه، حدث نفسه قائلا: "عليه ألا يجور على حق جاندارلى". كان يعرف جيدا كيف يبجله ويرفع من شأنه، ولكن هذا لم يكن بيده، فكان دائما معه فى كل مكان يظل فيه بمفرده، وكأنه يسمع صوته الذي يقول: "إنك مهما عشت فسيكون قلبك مجروحا، فكن لين القلب". انفرجت أساريره لما سمع صوته وهو ينظر إلى صورة الطائر الأسود الموجودة على السجادة المملوكية. قال بصوت عال، كنت محتاجا لهذا. وقال وهو ينهض من مكانه:" أتمنى أن يكون ماتيوس كانتاكوزين بين من تم إلقاء القبض عليهم. وإذا ما تم إلقاء القبض عليه هو الآخر، لن يكون هناك أي داع لبقائى هنا. مهما كان الأمر فإن الحاج إلباي قادر على إدارة الأمور في القلعة. وحدث نفسه قائلا: "أما أنا فسأذهب إلى بلاجار للتحضير لحملة كبيرة". خرج من غرفته وهو ينظر إلى صورة طائر تراقيا الموجودة على إحدى سجادات جردا المعلقة بالقرب من الباب. وكالعادة ابتهج قلبه كما هو

العادة بعد كل قرار بالسفر. ذهب ناحية الصنبور اليوناني الذي يصب الماء باستمرار من حوضه الموجود في منتصف الفناء تماما. توضأ. كانت توجد بناية صغيرة فى تلك الناحية تُستخدم مسجدا للصلاة. قال للحاج إلباي الذي قدم إلى المسجد من قبله والذى ينتظر حلول وقت الصلاة:

اشتقت كثيرا لوالدتي. اندهش هو الآخر لخروج هذه الجملة من فمه.

وقال الحاج إلباي الذي ينظر إليه ضاحكا:

يا أميرنا! لو انتهينا من تحضيرات الحملة حتى حلول الشتاء، تستطيع أن تقضي الشتاء فى بورصه. نقلنا نساءنا إلى هذه الضفة، ولا ننتوي العبور إلى الضفة الأخرى. أعتقد أن لدينا الكثير من الأعمال التي سنقوم بها في أدرنه. كان أفرونوس بك قد وضع ديموطيقا نصب عينيه، وكذلك كان فاضل بك وأقجه قوجه أوغلو يفكران في قضاء الشتاء على سواحل البحر الأسود. فإذا تخلصنا من ماتيوس كانتاكوزين، فلن يكون هناك خطر حقيقي علينا هنا".

قال سليمان باشا: "إذن حددتم أماكنكم دون حلول الشتاء بعد، وأنا أيضا في هذه الحال أحبذ الذهاب... سأذهب إلى بورصة، ولكن لن أبقى طوال الشتاء هناك، سأعود بسرعة.

أجابه الحاج إلباي قائلاً:

سنقوم بإعداد قصر مناسب لاستقبال حريمكم إلى أن تعودوا مرة أخرى. قصر الحاكم البيزنطي قصر رائع بيد أنه لا يناسب الحريم.

قال سليمان باشا:

أنت محق، حتى أننا لا نستطيع وضع بعض الأشخاص هناك. ياحبذا لو أحضرت إلينا الكثير من المعلومات من جاندرلي بخصوص إداري القلعة بعدما نذهب إلى بورصه. لا سيما لو أحضرتها مكتوبة سيكون ذلك أفضل بكثير. ونحن أيضا سنقوم بنسخها وإرسالها إلى جميع مسئولي الأمن بالقلاع ونحاول دون أن يدير كل مسئول قلعته وفقا لما يرى. بالمناسبة يجب أن أخبرك قبل أن أنسى، عليك ألا تتعرض لمربي الأمير إذا كان هناك...

ولما كان سليمان باشا يؤمن بأن الحاج إلباي عندما يتحدث يتفوه بإحدى الحكم اعتقد بأن هناك معنى لآخر الكلمات التي قالها، قال وهو يبتسم دون أن يسأل عن سببها:

يا حاج إلباي! لدي أمنية منذ زمن بعيد. أريد أن أسافر فى أقرب فرصة وأحقق أمنيتى تلك.

قال الحاج إلباي وهو يعتريه الفضول:

"ليس من حقي أن أقول لكم خيرا، بيد أنكم أقلقتمونى".

قال سليمان باشا:

أريد أن أذهب إلى قلعة جاليبولي التابعة لإيجه بك وأصرخ من أعلى أبراج القلعة نحو الدردنيل وتأبين جميع الملاحين الذين فقدناهم حتى يومنا هذا. كنت قد وعدت نفسى بذلك فى اليوم الأول الذي عبرنا فيه الدردنيل. ولكن إن لم توافق عن طيب نفس منك، فلن أذهب.

قال الحاج إلباي:

أنا راض من كل قلبي يا أميرنا. لتذهب سالما ولْتعد إلينا سالما. وعلى أية حال لم يعد لدينا الكثير من العمل في القلعة. المهمة الوحيدة الباقية هى إلقاء القبض على ماتيوس كانتاكوزين. هذا الوغد ليس من بين الذين ألقينا عليهم القبض اليوم. ولكن إن آجلا أو عاجلا سنلقى القبض عليه وعلى قائد القلعة كذلك. سنعتقل قائد القلعة عاجلا أو آجلا".

"أو ...!".

"أو ماذا ...؟!".

أو أن ماثيوس كاناتكوزين الذي يعشق لعبة هوراتيوس سيعود بأحد الجيوش مجددا.

قال وهو يبتسم:

يا أميرنا! أنتم تعلمون أكثر منى أنه لن يُشعَل الفتيل على أى مكان أصابه الخنجر العثمانى.

نظر إليه سليمان باشا وهو يبتسم أيضا. وبعد تبادلهما النظرات على ذلك النحو لفترة، نهضا معا واستقاما لأداء الصلاة.

(٦٦)

جلس الإمبراطور البيزنطي يوحنا باليولوج الخامس على سطح مركب الأسطول الرائع يشاهد الشواطئ البعيدة، كان ينظر إلى المراكب الشراعية والشاحنات البحرية الأخرى التي تأتي خلفه. ولكنه لم يكن يرى لا البحر الأزرق، ولا المُجَدِّفين الموجودين على المركب، ولا حتى البحارة الذين كانوا يركضون من مكان إلى آخر على الشاحنات البحرية. كان ينظر بنظرات شاردة إلى شواطئ بليكانون (أسكي شهر) فقط. كان يفكر في حفل الخطوبة الذي لم يستطع أن يمحوه من ذاكرته لعدة أيام أثناء نظره إلى الشواطئ. وكان أكثر ما يفكر فيه هو الاحترام الذي يبديه القادة العثمانيون لأورخان غازي. وكان يسترجع في عقله وضعهم أيديهم فوق بعضها وانحناءهم أمام أورخان غازي، وحديثهم بصوت هادئ وهو يميلون برءوسهم قليلا إلى الأمام، وبعدما كانوا ينهون حديثهم لقائدهم كانوا يلتفتون نحوه و يلقون التحية عليه باليونانية. الهدايا التي أحضرها الأمراء والحكام والقادة كانت كثيرة وثمينة جدا، لدرجة أن ابنته إيرينا وزوجها كانا قد صارا يمتلكان ثروة تقارب ثروته التي يمتكلها. أورخان غازي الذي لم يكتف بما أحضروه وقدموه، كان قد منح ابنه إدارة أراضي بيتنيا القديمة التي أحدثت القلاقل والمشاكل التي لم نكن نعيشها عندما فر أجداده من خطر اليونانيين وهاجروا إلى أنتيجون التي يطلق عليها موطن أقجه قوجه وأيقوت آلب. إن كون الأمير خليل جارا لبيزنطة قد أصبح بمثابة ضمان للبيزنطيين. وكأنه قد

راقه ذلك على الرغم من سعادته البالغة وعدم شعوره بأي شيء في قلبه، فبمجرد مغادرته نيكايا جال في قلبه تفكير غريب وانتقل بسرعة إلى عقله. مع أنه، في كل الأوقات عندما تكتمل أفكاره في عقله كانت تذهب إلى قلبه. ولكن هذه الفكرة الغريبة لم تكن كذلك، في البداية ظهر وجل ما في قلبه ثم انتقل إلى عقله، ودون أن يبقى كثيرًا في عقله، عاود أدراجه ثانية إلى قلبه. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي لاحظ هذا الاتجاه العكسي للتفكير والذي لم يعتده، سأل نفسه عدة مرات قائلا " هل هي إحدى مشاكساتك، هل هي بداية صوابك؟". لما لم يستطع التخلص من الأمر، قرر قائلا " أفضل شيء هو الحديث مع إيلينا". ولكن ليس الحديث خلال السفر من نيكايا إلى أدرنه، لأنه لم يتسن له قد استطاع لقاء الإمبراطورة. الإمبراطورة إيلينا التي رأت استغراق الإمبراطور الذي ينظر إلى الشواطئ المقابلة بنظرات شاردة لفترة طويلة من سطح السفينة الشراعية، أمرت الجواري بتجهيز الحمام، وأن يقمن بالرش من زيت خلاصة الزهر الذي أهدته لها نيلوفر خاتون على ماء الحمام. ولما ذهبت الجواري لتجهيز الحمام سارت هي الأخرى وصعدت سطح السفينة. ومشت بخطوات هادئة حتى وصلت إلى جوار الإمبراطور. أمسكت بيد الإمبراطور الشارد الذي لم يلحظ مجيئها وقالت وهي تنظر إلى الشواطئ التي ينظر إليها.

ما هذا الشرود يا يوحنا؟

قال الإمبراطور:

يا إيلينا، لولا هدايا شقيقك مانويل التي جاءت في اللحظة الأخيرة لظللنا في حرج شديد أمام أورخان.

قالت الإمبراطورة إيلينا، وهي تمسك بيد الإمبراطور مسكة معبرة:

كنت أتوقع أن ماتيوس سيرسل هديته إلى إبنة شقيقته. ولكن يا للأسف إن طمعه في الحكم أعمى بصيرته.

قال الإمبراطور وهو ينظر إلى إمبراطورته التي يمدحها برجاحة عقلها في كل وقت:

يا حبيبتي إيلينا، منذ أن تحدث سولومون والحكام في إسبرطة يشبهون إسبرطة...

ولما شعرت الإمبراطورة بتعال ما في كلام الإمبراطور، سألته قائلة:

هل كان من السهل الوقوف في وجه أثينا المتغطرسة في تلك الأوقات؟

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بدلا من أن يجيب عن السؤال، نظر إلى بشرة زوجته إيلينا التي هي أنصع من بياض الثلج والتي يعجب دائما بعلمها ومعرفتها. لما مشت الإمبراطورة التي التقت عيناها بعينيه وهو يذهب بنظراته نحو تخيلاته، دون أن تترك يده التي تمسك بها نحو القمرة مشى خلفها دون أن يفكر في أي شيء. في الوقت الذي دخل فيه الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس والإمبراطورة إيلينا إلى الحمام الذي خُلط ماؤه بخلاصة الزهر الذي أهدي للإمبراطورة، فإن نيلوفر خاتون التي خلدت للراحة بمجرد مجيئهم إلى بورصة كانت تنظر إلى وجه أورخان غازي المتعب. قالت من أعماقها، "الزمان يصيب الإنسان بالهرم، والتعب والإرهاق". التفتت نحوه وقالت:

تبدو متعبا.

قال أورخان غازي:

لا جرم أن قلوبنا شابة وغير متعبة يا خاتون، تعب البدن يذهب بسرعة. لا جرم أنني لم أكن أصاب بالتعب لهذه الدرجة ولكن كل ما أردته، هو أن يذهب ضيوفنا من نيكوميديا راضين سعداء.

قالت نيلوفر خاتون وهي تنظر إلى داخل عينه:

مادام جسدك متعبا، الآن سأجعل الجواري يجهزن الحمام بالماء المضاف إليه خلاصة ألف زهرة وزهرة من زهور جبل الراهب، بعدما تدخل فيه لن يبقى هناك أي أثر للتعب والإرهاق. وسأجعلهن يضعن في حوض الاستحمام أوراق ورود القسطنطينية التي أعطتها لي الإمبراطورة. حان الوقت لنقوم بتجربة الجواري اللواتي أحضرهم الإمبراطور يا عزيزي أورخان. من الأفضل أن تكون تيودورا بصحبتهم. وأثناء سيرها نحو الباب، فكرت قائلة " من حقها أن تعيش فرحة خطوبة ابنها".

قال أورخان غازي الذي يبتسم لحديث نيلوفر خاتون الذي يحمل بعض الكنايات، أثناء سيرها نحو الباب: "عاقلة جــدا". ولكن بعدما وردت هذه الكلمة إلى عقله تذكر أيضا شقيقه علاء الذين. وهو ينظر إلى الباب الذي أغلقته نيلوفر خاتون، وحدث نفسه قائلا "في الحقيقة كان صاحب عقل راجح. كان ماهرا في الحديث بالكلام الجميل للغاية خلال الاحتفالات. كان يحب التناظر مع عاشق باشا كذلك. كنت أغار باستمرار من مناظراتهم تلك. كان يرد على أبيات عاشق باشا مهما كانت بأبيات أحمد يسوي. بعد عاشق

باشا لم أر قيامه بمثل تلك المناظرات مع أي شخص آخر. ولكنه كان يردد دائما بيت أحمد يسوي الذي يقول" كفي العيش حتى عمر الثالثة والستين، لقد تجاوزتها أيها الغافل." وكأنهم يقولون شيئا ما لبعضهما. وبينما كنت أحاول فك أسرار هذا البيت بعد كل مرة يقوله، كان يذهب إلى غرفة قراءته التي يسميها " العتبة" بتلك النشوة الغريبة. كنت أراه منتشيا لهذه الدرجة عند ذهابه إلى تلك الغرفة، وكذلك عند ذهابه إلى جوار الجاندارلي.". في الوقت الذي استعد فيه لصمت طويل، لاحظ أنه في كل مرة يتذكر فيها شقيقه الأكبر كان يحل نوعًا من الهدوء وراحة البال بدلا من ذلك الحزن الذي يستقر بداخله. نهض واقفا على قدميه وبدأ في المشي داخل الغرفة. أثناء سيره، فكر قائلا: "الآن وبعد أن هرمت أدركت سبب ترديدك لتلك الأبيات. الآن وأنا أردد تلك الأبيات، أنادي ولدي سليمان فليأت إليَّ وسأقول له كل ما قلته لي. حيث إنه هو الذي سيتولى الحكم من بعدي. انظر مشغول بالقتال في أنيرا فقط. مهما يكن فإن تنظيم الإخوة صار لا يستطيع الاستقرار على أرضه، ولكن استمرار تأثير الخوف الذي يتملكهم إلى هذه الدرجة إشارة جيدة على تحسن الموقف. سأرسل مراد ولدي لمحاربتهم ولكن الموسم ليس موسم الحرب. كما سأنتظر أيضا ألاعيب القرامانيين. في الحقيقة إن هدفنا ليس تنظيم الإخوة بل القرامانيين. لأنهم لم يستطيـــعوا الخروج للحرب فإنهم يرغبـــون في ألا نخرج نحن كذلك للحرب. ولكن وفقا لما نما إلي من معلومات فإن مقاتلي ولدي سليمان وصلوا منذ فترة طويلة إلى شواطئ البحر الأسود. كما أن انضمام مقاتلي ومحاربي إمارة السلاجقة الآخرين إلى قادة قواتنا، ودخول سلطان شاه بك تحت حمايتنا، مما سمعناه عن تلك الغزوات. أي محارب، أي

فارس، أي مغير، أي إخوان الروم، أي باجييان الروم يستطيع أن يتوقف عن الحرب لفترة طويلة؟". نظر لفترة من النافذة ذات الأسياخ الحديدية إلى الجدار الحجري الطويل للبناية التي يوجد بها غرف الخدم التي تبدو من النافذة. استقر ببصره على الأسطح المنحوتة للأحجار المكعبة الشكل. لما بدأ السير ثانية، حدث نفسه، وكأنه أمام وجه علاء الدين القرماني بلحيته السوداء المستديرة، وعمامته متعددة الألوان التي تخفي حتى جبهة وجهه المستدير، قائلا: " تمت محاصرتك من كلتا الجهتين، كنت تنوي فتح إحدى الجبهات بتحريضك تنظيم إخوة أنيرا. لأنك تعلم جيدا أن قوتك ليست قادرة على مواجهة المماليك الموجودين في الجنوب. ولكن لتعلم جيدا، أن قوتك لم تعد قادرة على مواجهتنا نحن أيضا. إذا سار الأمر كذلك لن يبقى رفقاؤك في الحرب إلى جوارك كذلك. على أية حال فلتتسلَّ الآن بتحريض تنظيم الإخوة. لو أستطيع التحالف مع الكرمانيين والصاروخانيين وآل أيدين لألقنن قراصنة فوتشه أولئك درسا لن ينسوه، وليحل عليك الدور بعد ذلك. في الفترة التى توقف فيها فإن نيلوفر خاتون التي وقفت بجوار باب الغرفة مباشرة والتي استمعت إلى أورخان غازي، قالت:

لا تقبل بأنك قد صرت كبيرا في السن ولكن أنت من قال " عندما يصير الإنسان شيخا يحدث نفسه كثيرا".

نظر أورخان غازي إلى نيلوفر خاتون بنظرة يملؤها الحزن والخجل. لما رأت نيلوفر خاتون نظراته الخجلة ومن أجل تغيير موضوع الحديث، قالت:

أرى أن هذه الخطوبة لم تكن مناسبة أبدا وأبناؤنا الكبار غير موجودين ولكن ربما تكون هذه إحدى البدايات.

اضطرب أورخان غازي بعض الشيء وقال:

ليسلم عقلك ألف مرة... لماذا لم أستطع التفكير في هذا قبل ذلك؟

قالت نيلوفر خاتون:

انس كل هذه الأمور الآن. الجواري جهزن الحمام، ليذهب هذا التعب والإرهاق، ولنتحدث بعد ذلك.

حدث أورخان غازي أثناء خروجه من الغرفة نفسه مرة أخرى قائلا:

لماذا لم أستطع التفكير في هذا قبل ذلك؟

(٦٧)

قال سليمان باشا الذي يحب كثيرًا القيام بالسفر وكأنه يبدد صمت الليل في الوقت الذي تغفو فيه الطيور، بمجرد الخروج من القلعة توضع الحدوات المصنوعة من اللباد في أرجل الخيل حتى لا تحدث وقع أرجلها أي صوت يبدد سكون الليل. ترّجل هو الآخر وساعد السايس في وضع الحدوات على أرجل الحصان الأشهب الذي ينفر من الحدوات المصنوعة من اللباد الموضوعة على أرجله. استعاد الجواد الأشهب هدوءه المعتاد بمجرد أن انطلق مسرعا يسابق الريح بعد أن كان قد نفر من ذلك بعض الشيء. ومع ميل سليمان نحو رقبته بدأ في الخب (الجري) الذي يثير غبار الطريق الترابي. الأبطال والقادة والخيالة الذين يتبعونه سيطروا على خباب خيولهم حتى لا تفعل مثلما يفعل الحصان الأشهب. ولكن نظرا لوضع الحدوات المصنوعة من اللباد في أرجل كل الخيل لم يصدروا أي صوت مزعج حتى وقت السحر. الحصان الأشهب كان يسرع أكثر كلما تسابق مع نسيم السحر الذي تزداد درجة برودته شيئا فشيئا، وكان ينتبه لخطواته وكأنه يرد المعروف لفارسه الذي يعرف حبه للانطلاق كما يحلو له.

وكانت نجوم السحر تشع لمعانا حينما كانت عتمة آخر الليل التي سيبزغ بعدها فجر اليوم الجديد تغطي الأرض. بدأ الجواد الأشهب باللمعان هو الآخر وكأنه نجمة أرضية وعندما وصل اللمعان ذو اللونْ الأصفر الفاقع

الموجود في السماء إلى الأرض. ولما بدأ الحصان الأشهب في اللمعان استيقظت كل طيور الصباح وبدعوا في التغريد وكأنهم يبشرون ببزوغ الصباح. بعد أن تنضم إلى هذه الأصوات أصوات طيور الحقل والبلابل الموجودة فى الأجمات والأدغال التي ستتيقظ بعد قليل، ستتحول إلى حفلات غنائية متصلة ببعضها مع الأفياء الموجودة على تلال تراقيا الممتدة خلف بعضها بعضا والتي تبدو وكأنها لا نهاية لها. في الوقت الذي التقى فيه صهيل الجواد الأشهب بصوت ذلك الكورال ذي الصوت الجميل بدأت السماء التي لم تتحمل أكثر من ذلك بتغير لونها إلى اللون الأزرق.

مد سليمان باشا الذي ينظر إلى السماء الذي بدأ لونها يأخذ اللون الأزرق شيئا فشيئا، نظراته التي تتابع المياه المزبدة للجدول الصغير والموجود بين التلين الموجودين بالقرب منه والذي يتدفق محدثا خريرا قويا. تجاوز أفكاره الحزينة بابتسامة يعتريها الامتعاض وعدم الرضا حينما توقفت نظراته عند حدود وادي أوغراش. نظر أمامه بنظراته الممتعضة تلك. وبينما تعمل أشعة الشمس على إزالة البسمة الموجودة على وجهه، قال وكأنه ينادى الذين تركهم في تلك الآفاق: "أذهب كى أفى بعهدى الذى قطعته لكم ... عندما تشرق شمس اليوم، لن أتمكن من اللحاق بقلعتى تشمبا وجاليبولى ... ولكن عندما تشرق شمس صباح الغد سأناديكم بأعلى صوتى". ترجل عن حصانه ومشى تحت سفح التل عند حافة الجدول الذى لم يتمكن من معرفة منذ متى بدأ شلاله بالتدفق... عندما انتهى سفح التل الذي تزين أشجار الصنوبر وأشجار الفاكهة البرية جوانبه، ولما وصل إلى حافة الجدول التقت عيناه بعيون الظبي والآيل الموجودين على الشاطئ المقابل للجدول واللذين

قدما من أجل شرب ماء الصباح. وفي الوقت الذي كانت قد مالت فيه بعض الأيائل التي لم تشاهده بعد إلى المياه رفعوا أنوفهم إلى أعلى وبدءوا يستنشقون الهواء. فى البداية اتجه بنظراته الخائفة إلى الأيائل، ثم إلى الخيالة الذين يقتربون منه. كانت الأيائل وكأنها ترى الإنسان لأول مرة وكانت نظراتها لا تبتعد عن الخيالة الموجودين على الشاطئ المقابل قط. كانوا يقفون غير خائفين. ويقفزون قفزات قصيرة وكان من الواضح أنهم كانوا سيختبئون بين الأشجار. توقف سليمان باشا ومن معه لفترة من أجل عدم إخافتهم وكأنهم قد تسمروا في أماكنهم. في البداية انسحبت الظباء والأيائل خلف بعضهم بعضا، ثم عادوا فجأة وبدءوا في الركض صعودا بين الأشجار. وتبعتهم كذلك الغزلان الخائفة. وكانت بعض الأرانب هي آخر من غادر شط الجدول.

بعد أن اختفوا بين الأشجار شعر سليمان باشا الذى أوشك على الوصول إلى مصب الجدول بالجوع. وأمرهم بإعطاء استراحة فورا من أجل تناول طعام الفطور. وجد طاقم الخدم منطقة مستوية بسطوا البساط وضعت الأواني وأعدوا الفطور. وملأوا الأباريق الفضية من مياه الجدول الذى شربت منه الغزلان قبل قليل. وبينما كان يتم تجهير طعام الفطور للفرسان، فإنه من ناحية أخرى تم خلع الحدوات المصنوعة من اللباد من أرجل الخيل وتم خلع المقود من رءوسهم و تم إطلاقهم للرعي... جياد الركوب كانوا لا يحسنون الرعي جيدا في الحروب وفي السفر لكن العشب الموجود على شاطئ الجدول كان قد أثار شهيتهم، بدأت كل الجياد تقريبا في الرعي أثناء حصولهم على هذه الاستراحة.

قال سليمان باشا الذي تناول عدة جرعات من مياه الجدول الفضي بحفنتيه بعد انتهائه من تناول طعام الفطور لقادة قواته:

إن كل ما أتمناه، هو أن نكون على سواحل جاليبولي عند شروق شمس الغد. لقد قطعت وعدا على نفسي، وأريد تحقيقه. لكن أعجبتني كثيرا مياه هذا الجدول. دعونا نذهب لمجرى الجدول الصغير ونرى إن كان هناك ثمة قرية ما فى تلك الناحية بعدما ننهض. إن لم يكن هناك أية قرية لنخبر إيجه بك بذلك وليتم توطين أول قافلة من المهاجرين الذين سيأتون من الأناضول في هذا المكان. هذا الوادى مناسب جدا للاستقرار. يمكن تربية الحيوانات وتسمينها وكذلك القيام بالزراعة هنا.

أخرج القادة الذين سمعوا ما قاله سليمان باشا أربعة فرسان لاستطلاع الجهات الأربع للمكان قبل أن يوافقوه على ما قال. وتم غرس شعارات على التلال المحيطة باسم سليمان باشا أميرا لأراضى السلطان بعدما لم يجدوا أي مكان مأهول فى المنطقة. ولم يكد يجتمع كل الفرسان حتى انطلقوا نحو قلعة تشمبا. ولكن على الرغم من حثهم لجيادهم على الإسراع بضربهم لها بالمهماز فإن الجياد كانت تتقدم ببطء. بعد أن تحدث سليمان باشا الذي لم يشارك القادة تفسيرهم لهذا الوضع على أنه ليس نذير خير، قائلا: "يحتمل أن يكون سبب ذلك العشب الأخضر والماء الذي شربوه". وترك الجواد الأشهب يسير كما يحلو له لفترة طويلة. عندما سئم من سير الجواد الأشهب متكاسلا على هذا النحو، لامس بطن الحصان الأشهب بكعب حذائه لكى يسرع الخطى قليلا، عندما لم يعبأ الحصان الأشهب الذي كان يسابق الريح بهذه الاشارة في كل وقت ضربه بالمهماز بقوة. إلا أن الحصان الأشهب لم

يكترث بذلك أيضا. في هذه المرة شد حزام لجامه وضربه بكعبي حذائه على بطنه من الجانبين بقوة. شاكس الحصان الأشهب فى البداية ، وبعدها أسرع خطاه على مضض. وفي الوقت الذي كانت فيه بقية الجياد تفعل كما يفعل الجواد الأشهب خرجت الأيائل بجلبتها من بين الأشجار الموجودة أمامهم وشاهدوا قطيع الأيائل الذي يركض بأقصى سرعة من أجل العبور إلى الجانب الآخر. شدوا لجام جيادهم وأبطأوا سرعتها. بيد أن الأيائل التي شاهدتهم خافت منهم وتراجعت عن العبور إلى الجانب الآخر من الطريق، وأخذوا يركضون أمام الخيالة طوال الطريق. ثارت شهية الصيد لدي سليمان باشا الذي ينظر خلف قطيع الأيائل السمينة. وفي الوقت الذي كان يضع السهم الذي أخرجه من كنانته في قوسه كان من ناحية أخري يضرب بطن جواده بكعبي حذائه ليحثه على الإسراع. بيد أن الجواد أبطأ الخطى بشكل كبير. سليمان باشا الذي لم يأبه بذلك، لم يستطع لفترة أن يعرف ماالذي يمكن أن يفعله بسبب الحيرة التي أصابته. شد لجام جواده وأبطأ سرعته تماما وهو يحدث نفسه قائلاً: "ما دمت لا تسرع الخطى". نزل عن الحصان عندما أبطأ الخطى، وقال وهو يداعب رأس حصانه "ما دامت لا تريد الذهاب إذاً اتبعنى". ثم مشى. وبينما يسير سليمان باشا وهو يضع مقود الحصان فى ذراعه حدث نفسه قائلا: "العشب كان مغريا للغاية، ولكن يحتمل أن هناك ما لم يؤكل بعد". وبينما يواصل السير دون أن ينظر إلى جواده الذي يتبعه حدث نفسه قائلا: "أيها الأشهب هل تريد أن تخبرني بأمر سيئ آخر مرة أخرى؟". وفكر لحظة فى الأرض التي انشقت فى جاليبولى وكأن الانهيار الأرضي يأتي نحوه كما حدث في ذلك المساء. أثناء وقوفه أصابته الدهشة

عندما ردد الأبيات التي تقول: " لو أن الزهرة رأت هذا الذي رآه يونس، لنسي راقصته وكان عوده ". ابتسم من داخله. وهز رأسه وعاد إلى المكان نظر ثم استدار إلى الخلف وخاطب القادة والأبطال قائلا:

"مُحال أن نرى هذا القطيع من الظباء ولا نصطاد منهما. هيا أعدوا حبال الصيد فليكن طعام نسائكم في المساء من لحم الصيد". استدار للأمام ونظر إلى الوادى الذى انطلقت إليه الظباء. استدار للخلف مرة أخرى وقال للقادة والأبطال:

منذ فترة طوية كنت أقول بأن نقوم برحلة صيد جماعي إلا أنه لم يحدث. ولكن على الأقل ستُشبع هذه الفرصة رغبتي.

شيرمند بك الذى سمع ما قاله هو والقادة انتشوا وصاحوا قائلين:

مرحى ! يحيا سليمان باشا.

كانت حبال الصيد معلقة في سروج جياد كل الخيالة تقريبا فيما عدا أفراد الخدم. وعلى الفور تم التقاط حبال الصيد. خلال ذلك قام سليمان باشا الذى يمتطي جواده بفك القيد ووضع حبل الصيد فى رسغه ثم ضرب جواده بالمهماز. هذه المرة انصاع الجواد لأمر قائده وبدأ في الركض مسرعا. ولكن بعد فترة وجيزة توقف بشكلٍ مفاجئ. كاد سليمان باشا يسقط على الأرض، عندما توقف فجأة على هذا النحو. نظر إلى جواده الأشهب بغضب شديد على نحو لم يفعله منذ اليوم الأول الذي امتطاه فيه، ولما أدرك أن الجواد لا يريد السير نظر إلى الطريق الممتد أمامه. ولم يكد يلتفت حتى رأى الثعبان الكبير الذي سحقته حوافر الظباء التي عبرت مسرعة من هنا قبل قليل. تملكه الخوف. داعب غرة جواده وهو ينظر إلى الثعبان. قال وهو

ينظر إلى رأس الجواد التي حركها إلى الأمام، قال:" أيها الأشهب! هل هذا هو سبب امتناعك عن السير؟". نظر شيرمند بك الذي كان بجانبه إلى الثعبان لفترة، ثم ترجل عن حصانه بحركات رشيقة ودفع الثعبان بطرف رمحه الحاد جانبا. وبدأ الجواد الأشهب الذى تلقى عدة ضربات حادة على بطنه في العدو بأقصى سرعة ممكنة ولحق بقطيع الظباء بعد فترة وجيزة.

قال سليمان باشا الذى هدأ من سرعة حصانه بأن ينتشر الخيالة على شكل طوق صيد يطوق الوادى الواسع شيئا فشيئا. نفذ شيرمند بك والقادة الموجودون بجانبه ما قيل لهم من فورهم. وانتشر الفرسان على جانبي الوادي. رفع شيرمند بك الذى تسلق التلال ذات الأشجار المتشابكة تدريجيا وسلك طريقا مستويا عند قاع الجدول سيفه فى الهواء بحيث يستطيع الجميع رؤيته. حبس الجميع أنفاسهم وكانوا ينظرون نحوه. نظر هو الآخر إلى سليمان باشا الذي يمتطى جواده الأشهب. وعندما أعطى سليمان باشا إشارة برأسه أنزل سيفه للأسفل من فوره. وصاح شيرمند بك وهو ينزل سيفه قائلا:

ليكن صيدكم موفورا.

ضرب كل الخيالة المشاركين في الصيد جيادهم بالمهماز حينما تردد صدى صوته فى التلال وسمعه كل من هو موجود على جانبي الوادي. وبدأت حفلة صيد جماعي صغيرة باستعراض مهارات جيادهم. لم يكن هناك ثمة كلب يجرى أمامهم ولكن الحيوانات البرية التي سمعت صوت أقدام الخيل خرجت وانطلقت من بين الأدغـــال التي تختبئ فيها. وبدءوا في الركض نحو أعماق أدغال أخرى للنجاة بأرواحهم عندما شاهدت الجياد تأتي نحوها مسرعة. بعض الخيالة الماهرين بالصيد عندما شاهدوا ابتعاد الصيد عن مرمى حبالهم وضعوا حبال الصيد على أكتافهم، وأطلقوا السهام وكان

جميع الحيوانات التي ظنت بأنه قد نجت ملقاة على الأرض. ولكن كعادتهم أثناء الصيد لم يخفض أى فارس من سرعة حصانه من أجل التقاط الحيوانات التي أصابتها السهام. وظهرت نهاية الوادي الذي لم يستوعب سرعتهم في فترة وجيزة. وخرجوا إلى الأراضى المستوية المزينة ببساتين الفاكهة المثمرة بألذ الثمار. كانت الأرض ناعمة كالرماد، وكانت أرجل الخيل التى تخرج عن الطريق تغوص فى الأرض حتى رسغها. أما على التربة الناعمة فقد كانت الأشجار المُتشابكة الأغصان الجافة المحطمة ملقاة على الأرض بطريقة عشوائية. وكانت الظباء التى لم تدرك ما الذي يحل بها تقفز برشاقة وبسرعة هائلة من فوق هذه الأشجار الجافة على الرغم من صعوبة ذلك. ولكن كان الخيالة الذين يطاردونهم مضطرين للالتفاف حول الأشجار. ولهذا السبب بدأت الظباء في التفرق شيئا فشيئا. سليمان باشا الذى لم يتمكن من صيد ولا ظبي واحد حتى الآن قام بضرب جواده الأشهب بالمهماز وهو غضبان، فقفز الجواد الأصيل قفزات متتابعة من فوق مجموعة من الأشجار ذات الأغصان المتشابكة ليتفادى أن تغرس أرجله حتى رسغه فى التراب. سليمان باشا الذي شاهد أحد الظباء يستعد للقفز من فوق الأدغال الموجودة أمامه، وعندما كان سيلقى عليه حبل صيده الذي أعده للصيد، اختل توازنه عندما غيَّر جواده الذي خاف من صراخ الخنزير البري الذى ظهر من بين الأدغال في الوقت الذي كان سيلقى به على الظبي. وبينما يحاول سليمان باشا أن يحفظ توازنه، وقعت إحدى ساقيه الأماميتين في إحدى الحفر وانقلب على الأرض. سليمان باشا الذي فقد توازنه سقط على إحدى الأشجار متشابكة الأغصان التي قفز من فوقها الجواد قبل قليل. وسقط فوقه الجواد المُنقلب على رقبته هو الآخر.

(٦٨)

إن أورخان غازي الذي قدم الدعم لوالده أندرونيكوس الثالث ضد التمرد الذي قام به البلغار والصرب، كان قد وقف إلى جانب حماه يوحنا كنتاكوزين السادس الذي غض الطرف عن دخول العثمانيين إلى تراقيا. ولكنه في النهاية كان قد أيقن الحقيقة ووعده بأنه سيساعده في كفاحه المستمر ضد ماتيوس كنتاكوزين. ولم يعقدا اتفاقا مكتوبا فيما بينهما ولكن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس كان قد اطمأن لإيمانه بأن أورخان غازي سيفي بالوعود التي قطعها على نفسه. عاد الإمبراطور بتلك الراحة والطمأنينة من نيكايا، وفور عودته إلى القسطنطينية، شمر عن ساعديه من أجل تحسين النظام الموجود في القلعة. على الفور دعا جميع الكونتات والدوقات ورجال الدين والتجار وأصحاب النفوذ والكلمة المسموعة سواء أكانوا من المؤيدين له أو من المؤيدين لآل كنتا كوزين إلى الاجتماع الذي عُقد في قاعة العبادة بآيا صوفيا. أطال وأسهب في الحديث معهم. وناقشوا معًا بالتفصيل كل ما يمكنهم أن يقوموا بفعله شيئا شيئا واتخذوا القرار بذلك. طلب الإمبراطور الذي سر كثيرا بعدما قرر المشاركون في الاجتماع قائلين، "من الآن فصاعدا جميعنا وكذلك كل شيء من أجل قسطنطينيتنا فقط"، إقامة حفلات السمر في الساحة التي ورثوها عن اليونانيين بمناسبة توافق وتوحد شعب القلعة الذي يعيش الفرقة والاختلاف منذ سنوات. أهالي القلعة الفقراء الذي اعتادوا على هذه الألعاب الدموية، نسوا البغضاء والشحناء الموجودة بينهم في فترة وجيزة

تحت تأثير الشراب الذي شربوه. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي شاهد استتباب الأمن والنظام الموجود داخل القلعة يوما بعد يوم، كان الشيء الوحيد الذي يؤرق مضجعه هو كيفية تنفيذه للوعود التي قطعها على نفسه لأورخان مقابل إلقاء القبض على ماتيوس كنتاكوزين الذي يدعي شراكته لعرش الإمبراطورية وتسليمه له. أثناء نظره إلى البسفور سواء من نافذة قصره أو من نافذة غرفته الواسعة الموجودة في قصر الحكم، كان يتذكر باستمرار، الوعد الذي قطعه على نفسه قائلا: " في اليوم الذي ستسلم فيه ماتيوس كنتاكوزين للبيزنطيين، فإن ضرائب الكثير من القلاع منطقة بونتوس الموجودة على شواطئ بحر المورة ستكون لكم، وكان كلما تذكره يشعر بضيق لا يحتمل بداخله. ومن أجل التخفيف من شدة هذا الضيق وتهدئة نفسه كان يحدث نفسه قائلا "إعطاء القليل من أجل تحصيل الكثير. بينما يتسلون بما أخذوه نقوم بعمل استعداداتنا ونأخذ أكثر مما أعطينا". ثم يستمر في حديثه مع نفسه قائلا، "إن أهالي قلاع بونتوس ليسوا أهلا للثقة ولكن..." وبعدما لم يستطع التخلص من الضيق الموجود بداخله بأي شكل من الأشكال، كان يتجه بنظراته نحو حي أهالي جنوة الموجود على الضفة الأخرى وكان يحاول نسيان شواطئ المورة. ولكن في هذه المرة كان يفكر في أهالي جنوة بغضب شديد وبعد أن حدث نفسه قائلا " إن والدي هو سبب كل ذلك وكذلك الامتيازات التي منحها الذين سبقوه... لقد أطلقوا اسم بيرا على أعالي سيكايا وكأنهم لم يكتفوا بالضرائب التي تهربوا منها. ولكنني لست حزينا على ذلك. لأن أي أرض لا تنبت البذور التي لا تعرفها. لو كانوا يزدهرون على هذه الأراضي لازدهر اليونانيون كذلك." يبدأ في الاستغراق في أحلامه التي

يريدها. وفي مساء أحد الأيام، دخل الوزير أراسنيدس الذي يمارس مهام رئيس الوزراء أبوكافوس المريض بالوكالة إلى الداخل بسرعة. قال الإمبراطور الذي قلق من مجيئه دون إخباره بأنه سيأتي للقائه بصوت حاد:

بحق الرب يا أراسنيدس، ما هذا التوتر والاضطراب؟

خجل أراسنيدس لأنه في كل مرة كان لا يدخل إلى غرفة الإمبراطور إلا بعد إخباره والحصول على الإذن. وقال بصوت حزين:

يا صاحب العظمة، الأخبار القادمة، ولم يستطع أن يكمل الكلام.

مشى الإمبراطور الذي نظر إلى هيئة الرجل العجوز الذي تقلد منصب مساعد رئيس الوزراء في عهد والده والذي أصابه المشيب حول الطاولة الكبيرة وجاء إلى جواره. أشار إلى أحد المقاعد الموجودة حول الطاولة وطلب منه الجلوس. ثم قال بعدما جلس أمامه هو الآخر:

آمل ألا تكون تعاني إحدى المشاكل الصحية يا أراسنيدس. لأنني محتاج جدا إلى خبراتك وتجاربك في هذه الأيام.

قال أراسنيدس نائب رئيس الوزراء بعد أن أخذ نفسا عميقا:

يا صاحب العظمة، الشكر للرب صحتي على ما يرام. كما أن الأخبار التي أحضرتها ليست خاصة بي يا سيدي.

إذن، هذه الأخبار بشأن من؟

بشأن سليمان باشا ابن أورخان غازي.

هل احتل إحدى قلاعنا، أم ألقى القبض على ماتيوس كنتاكوزين؟

لا هذا ولا ذاك يا صاحب العظمة.

إذن ما هو الأمر؟

وفقا لما سمعناه فإنه وافته المنية. وأريد القول بأن تراقيا قد نجت، ولكن من بعده...

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي قطع حديث نائب رئيس الوزراء:

كيف حدث ذلك؟ ومتى حدث؟

أظن قبل ثلاثة أيام، أثناء الصيد...

هل أثناء قيامه بالصيد؟ كيف يحدث ذلك؟ إنه أحد الذين أمضوا عمرهم على ظهور الخيل...

كبا الجواد وهو يركض وفقد توازنه...

مثل إحدى المزح، رجل أمضى عمره على ظهور الخيل يكبو جواده ومع فقدان توازنه...

يا صاحب العظمة، لا توجد لدينا معلومات أكثر من ذلك عن وفاته. لكن؟

صار وجه رئيس الوزراء بالوكالة أبيض بدرجة أكثر بعد كلمته الأخيرة. الإمبراطور الذي انتظر حديثه لفترة، لما رأى عدم اتمامه نهاية جملته بعدما سأله وهو غاضب بعض الشيء قائلا:

يا أراسنيدس! ماذا يحدث لك؟ قال أراسنيدس رئيس الوزراء بالوكالة:

يا صاحب العظمة كنت لا أريد إبلاغكم بهذا الخبر ولكن ماتيوس الذي علم بخبر وفاة سليمان دون أن يضيع الوقت بدأ في السير نحو العثمانيين هو ومن معه من البلغار والصرب. كان يقول " سأسترد أدرنه وكذلك تراقيا مرة أخرى"، ولكن الأسوأ من ذلك...

هز الإمبراطور رأسه يمينا ويسارا وانتظر. إذا كان نائب رئيس الوزراء قد تمتم ببعض الأشياء غير المفهومة فإنه أيضا لم يستطع أن يفهمها. قال بصوت أكثر حدة وغضبا عن المرة السابقة:

بحق الرب قل يا أراسنيدس كل ما ستقوله مرة واحدة. ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من هذا؟

الأسوأ من ذلك يا صاحب العظمة...

قال الإمبراطور الذي نفد صبره بعد أن هز رأسه يمنة ويسرة:

هل تريد أن أصاب بالجنون يا أراسنيدس؟

قال نائب رئيس الوزراء الذي أدرك أنه أغضب الإمبراطور عن غير قصد:

يا صاحب العظمة، وكأن ماتيوس كنتاكوزين لم يكتف بإعمال السيف في الوحدات الأمامية للعثمانيين التي وقعت في يده أثناء تقدمه نحو أدرنة...

قال الإمبراطور الذي أدرك أنه مجبر على أن يقول شيئا لا يستطيع لسانه التعبير عنه، هدأ من صوته وكأنه يشجعه:

يا أراسنيدس قل ماذا حدث حتى نتخذ تدابيرنا وفقا لما ستقوله.

قال نائب رئيس الوزراء بعدما سمع صوت الإمبراطور الذي منحه القوة والشجاعة:

أعلن ماتيوس كنتاكوزين نفسه ملكا على تراقيا الجديدة.

نعلم أن ذلك هو ما يصبو إليه. إن ما قلته ليس جديدا علينا يا أراسنيدس.

نعم يا صاحب العظمة، هذا ليس جديدا عليكم ولكن ماتيوس كنتاكوزين كان يقول " أما وأني قد أصبحت ملكا على تراقيا، فإني سأعاقب المحتلين كما فعل الملك ديوميدس".

ماذا يعني هذا يا أراسنيدس؟

يا صاحب العظمة، هذا يعني أن ماتيوس كنتاكوزين هو الآخر، سيمزق أسراه ويفرم أجسادهم ويضيفها إلى علف الخيل.

(٦٩)

القادة الذين تحت إمرة الحاج إلباي الذين التقطوا أنفاسهم قليلا مع تناقص الأحداث الغامضة التي كانت تحدث ليلا في قلعة أدرنه، عندما انتهوا قبل يوم من اجتماعاتهم التي تمت في قاعة الضيافة الواسعة التي يجلس فيها الحاج إلباي مع سليمان باشا، جاء رسولان من قبل أفرانوس بك الذي يتقدم نحو الغرب مع وحداته من خلف قادة الوحدات المتقدمة والوحدات الهجومية. كان أحدهما شكر آغا الرسول المشهور لأفرانوس بك. جاء شكر أغا إلى الحاضرين يتبختر في مشيته وبعد أن توقف لإلقاء التحية باللغة الألبانية وكما هو حاله في كل الأوقات قال بصوته ذي النبرة الحزينة:

أنقل لكم تحية قائدنا أفرانوس بك الذي ضم القلاع الموجودة شمال قلعة ديموطيقا إلى الأراضي العثمانية. وكلفني وأنا أخبركم بقيام قائدنا بالاستيلاء على قلعة ديموطيقا والقلاع الموجودة شمالها بأقل الخسائر الممكنة، أن أخبركم أيضا بأن القبائل التي تتحدث لغتنا والتي سبقتنا بالمجيء إلى هذه الأراضي قد قدموا لنا الدعم والمساعدة. وقال بأن أخبركم أيضا بأنه سيتم توطين هذه القبائل التي تعد الداعم الوحيد لنا الآن في قلاع الروملي. وعقب قوله هذا تراجع للخلف وبينما كان على وشك الخروج من القاعة أوقفه الحاج إلباي بإشارة من يده. وسأله قائلا:

أسعدتنا الأخبار التى أتيتم بها لنا يا شكر آغا. فهل لديكم ما علمتموه من قائدنا أفرانوس بك عن هذه القبائل؟ رد شكور آغا وهو يخرج بعض الأصوات من حلقه متباهيا:

قائدنا أفرانوس بك يعتقد أنه من المحتمل أن يكونوا قبائل آسيا الوسطى التي جاءت إلى هذه المناطق مع آتيلا بك الذي اقترب من روما لدرجة أنه يمكنه مشاهدة أنوارها.

قال الحاج إلباي وهو يداعب لحيته الصغيرة القصيرة:

يقول بأن السيد أفرانوس لديه بعض المعلومات. سيتم نقل الخبر الذي أتيت به كما قلته تماما لأميرنا سليمان باشا في أقرب فرصة. أميرنا سليمان باشا سيقضي الشتاء في بلاجار ونحن سنقضى الشتاء فى أدرنه. من الواضح أن أفرانوس بك سيتخذ من ديموطيقا مقرا له في الشتاء، أبلغه سلامنا. بعد أن قال ذلك قال له يمكنكم الانصراف. لتصحبكم السلامة...

لم يكد الحاج إلباي تنهي جملته، ولم يكد شكر أغا يتجه نحو الباب من جديد، حتى دخل إلى الداخل كبير رسل سليمان باشا. صار لون وجه الحاج إلباي الذي شاهده أصفر مثل شمع العسل. وصاح عندما تعرف على صدرية الصيد الخاصة بسليمان باشا الملطخة بالدماء الموجودة في يد الرسول بصوت يملؤه الحزن قائلا:

وسليماناه! لما دوى صوته هذا في أرجاء القاعة الواسعة، ارتعدت حتى الجدران ذات الأحجار الكبيرة. وبينما تنسال الدموع من عينيه من تلقاء نفسها سأله بصوت عال قائلا:

ما كان يتوجب أن تستهر بكنتاكوزين إلى هذه الدرجة وما كان يتوجب علينا أن نترك أميرنا يذهب في حراسة قوة صغيرة. نظر إلى رسول سليمان باشا وسأله قائلا: "كيف حدث هذا؟.

فى الواقع كانت الصدرية الموجودة في يد الرسول تحكي كل شيء ولكن القادة والأبطال سمعوا ما حدث من الرسول. وما إن انتهى الرسول من حديثه حتى نهض الحاج إلباي واقفا وقال:

هيا لا تقفوا لنذهب على الفور.

انطلق كل من أفرانوس بك وكذلك فاضل بك وأقجه قوجه أغلو الذي وصلهم الخبر بعد فترة وجيزة على الطريق وكان إيجه بك وقرا تيمورطاش باشا أول الواصلين إلى مكان الحادث. عندما شاهد إيجه بك سليمان باشا وسط الدماء، فى غمضة عين اختلط الحزن الموجود على وجهه الشاحب بصوت بكائه ونحيبه. لو كانوا مزقوه فى ساحة الوغى، لاستطاعوا ضرب أعناق كل من كان بجانب سليمان باشا ولاستطاعوا أن يقللوا من غضبه. ولكن في مثل هذا الوضع فلا يمكن الثأر له ولا يمكن كذلك تخفيف ألمه. وبينما تنهمر الدموع من عينيه الذابلتين، أخذ يلوم الحصان الأشهب الذي يرقد بجانب سيده. ولكن عندما لاحظ تمزق بطنه مثل الخرقة البالية بقى عتابه عبارة عن نظرات وحسب.

فى صباح اليوم التالي كان كل القادة الذين تابعوا السير وكأنهم يمزقون أجساد جيادهم قد اجتمعوا فى مكان جثمان سليمان باشا. ولكن إيجه بك كان قد يعمل كل التجهيزات إلى حين قدومهم، وقد جهز الجنازة بالشكل الذي

ستسافر عليه. شد القادة من أزر بعضهم بعضا وبعد أن ذرفوا عليه الدموع لفترة، انطلقت القافلة متجهة إلى بلاجار. وبينما يذهب القادة الذين رافقوا سليمان باشا السلاح لفترة طويلة خلف عربة الخيل التى تحمل نعش سليمان باشا، كانت تجول في خاطر كل منهم ذكرياته معه. ولم تكن من بين تلك الذكريات التى تجول فى عقل كل منهم أي ذكرى تؤلم أو تجرح أي منهم على الإطلاق. فقط استطاعوا أن يعاتبوه قائلين: كنت لن تتركنا وحدنا على هذه الأراضي التي وطأتها أقدامنا معا.

كان الليل قد انتصف عند وصول القافلة إلى القمة التى يطلق عليها "إنها أجمل مكان يُشاهد منه غروب شمس تراقيا والموجود فى بلاجار، والذي أوصى سليمان باشا بأن يدفن فيه والذي يوجد فيه خيمة حريم سليمان باشا". وصل الخبر الأليم إلى أورخان غازى عند أذان الفجر. شعر بأن القصر قد سقط على رأسه عندما سمع الخبر. في البداية شعر بانقطاع أنفاسه. وعندما أدرك بأن بدنه لن يستطيع أن يتحمل الحزن بين الجدران الأربعة وأنها لن تسع الحزن المُستقر بداخله، انتفض وخرج إلى حديقة القصر. وبمجرد أن خروجه إليها وهو يطلق صيحة قوية وكأنه يُفرغ ما بداخله من الألم، تراجع خطوتين جراء خوفه من ظل جبل أوليمبوس الذي تنعكس ظلاله على بورصه. وما إن تغلب على خوفه حتى حاول جاهدا أن يتقدم مرة أخرى بخطواتٍ جبانة مُعتقِدًا بأن الصوت الحزين لن يكون غير صوت الأب الذي يزأر بعجز وقلة حيلة، وتقدم مرة أخرى بخطوات مرتجفة وحاول أن يواسي نفسه بظله. ولكن عندما أدرك أن الأب المكلوم لن يتمكن من مواساة نفسه بسهولة، صرخ على كل الأشجار التى تُزين التلال والقمم

الجبلية قائلا: "أسقطوا كل أوراقكم الخضراء الباقية على أغصانكم". وبمجرد سماع صوته فإن كل الأشجار فيما عدا أشجار الصنوبر المتمردة، أسقطت آخر أوراقها التي بقيت على أغصانها. أما جبل أوليمبوس العاجز عن فعل أى شيء فقد انحنى بظلاله أمام أورخان غازى فقط. وبينما يداعب أشجار الصنوبر المتمردة الموجودة على قمة الجبل الذى يمُد رأسه التي يعكسها الظل بأطراف أصابعه، نسى أورخان غازى الذى شعر برقة ولين قلب ورضا هذا الجبل العظيم آلامه لبرهة وقال: "ليكن اسمك جبل أوليمبوس وإن شئت فليكن اسمك جبل الراهب. أنت من الآن فصاعدا جبلى العظيم". وما إن قال هذا حتى دفن همه مرة أخرى وسط صيحاته التى حاول جاهدًا أن يكتمها بداخله قبل قليل. هذه المرة وبينما تداعب يد أوليمبوس التي مدها من بين ظلاله شعر رأس أورخان غازى الأبيض الناعم الذى يشبه خيوط الحرير قال: "أيها القلب أجهش بالبكاء إن كان ذلك سوف يخفف ألام أورخان غازى الذي هو أعظم مني" وأخذ ظلاله وذهب لتسليمها لشمس الصباح.

أورخان غازى الذي سلم جزءا من آلامه الموجودة في قلبه إلى نسيم الصباح البارد الذي يهب من جبل الراهب، بينما يبحث عن سبل لتقبل موت ابنه الذى أصبح فى عداد الموتى مُتذكرا الموت الذى يعايشه منذ زمن بعيد، علِم أن موكب الإمارة مُستعد للسفر. أما أورخان غازى الذى ركب العربة برفقة نيلوفر خاتون، فقد سارت خلف عربته عربات كل من آق تيمور آلب ودالي رستم آغا وقورقوت تكين آلب.

(٧٠)

كان الاجتماع الذي دعا إليه نائب رئيس الوزراء أراسيندس كلا من، قائد وحدات حرس القلعة، قائد الأسطول الذي لا يفعل أي شيء غير التجول في بحر إيجه، القائد العام الموجود في القلعة، رئيس الوزراء أليكسيوس المريض والبطريك ورهبانه وحينما خيم الظلام على داخل القلعة، قد بدأ من فترة طويلة. ولكن الوقت القصير جعله يختصر حديثه الذي أنهاه قبل مجيء الإمبراطور، وأطبق الصمت على القاعة الصغيرة التي اجتمع فيها رهبان آيا صوفيا. على الرغم من أنه كان قد أنهى حديثه في وقت قصير جدا فإن الذين قدموا من أجل حضور الاجتماع كانوا لا يفتحون أفواههم ولا ينبسون ببنت شفة. لأنه في مثل هذه الأوقات كان كل شخص يبرع في الصمت بدهاء. حتى أن قداسة البطريرك الذي كان لا يتوقف عن الحديث في كل الاجتماعات قال بعض الجمل وصمت. لما صمت وكأن نائب رئيس الوزراء يريد منه أن يتحدث ثانية قال:

من المستحيل أن يكون ما تريدون قوله قصيرا إلى هذا الحد يا قداسة البابا. وفي رد على ما قاله كان البطريرك قد اكتفى بالرد بجملة واحدة من النصوص الموجودة التي يحفظها في ذاكرته قائلا:

إن ما انتويته أثناء مجيئي إلى هنا، هو ألا يتجاوز فمي حده في مثل هذه الأوقات.

وفي الوقت الذي كان يقلب نائب رئيس الوزراء هذه الجملة في رأسه خلال هذه الدقائق التي أطبق فيها الصمت على كل الحاضرين، فإنه من ناحية أخرى كان يفكر فيما يجب أن يبدأ به كلمته عندما يأتي الإمبراطور. لا جرم أنه كان يجب عليه أن يبدأ بالأخبار التي جلبها الرسل الذين جاءوا مؤخرا، إلا أنه لم يكن يستطيع لفترة وبأي شكل من الأشكال لملمة بقية أفكاره الأخرى مع هذه الجملة التي تدور في عقله، ولم يكن يستطيع تحديد أي الأخبار التي يتوجب عليه البدء بها. وبينما ينظر وهو مهموم إلى الغرفة الداخلية التي لا يوجد لها باب، والتي يقوم الرهبان بأداء عبادتهم فيها شاهد أحدهم من بين دعامات العمود المصنوع من الجرانيت المصري الذي يحمل الكمر الموجود في السقف. جال بأفكاره في رأسه لفترة، ولما بدأ في الذهاب تجاه فترة جوستنيانوس، خطر بباله الإمبراطورة تيودورا أثناء حديثه لنفسه قائلا "كان قائدنا بيلساريوس هو الذي اكتشفه. لو كان قد ظل باقيا على رأس قادة الرومان لما كان اللاتين قد نجحوا إلى هذه الدرجة. ربما كان ذلك أيضا أفضل لبيزنطتنا، ولربما كانت هذه الأراضي لن تشهد ظلما إلى هذا الحد. ولكن ما دامت أراضي بيزنطتنا خصبة ومنتجة إلى هذه الدرجة فإنها كانت ستثير لعاب الآخرين باستمرار. لو لم يأت هؤلاء من الغرب، لكان قد أتى غيرهم من الشرق. الأفضل أن نترك الزمن للزمن... على أية حال يستطيع أن يحل كل شيء داخل دورته. كما حلها جوستنيان الصغير الذي أحضر هذا الجرانيت من بلاد الفراعنة. ". كان اسمها يذكر في الكثير من الكتابات التاريخية التي قرأها قبل فترة قصيرة. وفي الوقت الذي كان يقلب ويسترجع في عقله أيضا جملة "في الحقيقة كانت تيودورا هي القوة الحقيقية" التي

استعرضها في عقله أثناء استرجاع تلك المعلومات، أُضيفَت إلى هذه الجملة عبارة " أما الذي دعم هذه القوة فكان هو العشق الموجود بين الاثنين". كان يطرد مثل هذه الأفكار من عقله أثناء تفكيره في السياسة ولكونه قد أطلق العنان لأفكاره هذه المرة، فإنه كان يتذرع قائلا " ربما تأتي فكرة إلى عقلي الذي صار فارغا تماما بفضلهم". حينئذ، تخيل بسرعة أحد الفرسان الذي يقود جواده والذي ألقى بعباءته الحمراء بسرعة على منافسه وتذكر الجمل التي تقول " أطلق عليه جوستنيان أسم جوستانيوس ولكنه لم يستوعب صفة الصغير التي وصفه بها". وبعد هذه الجملة أيضا، جالت في عقله الجملة التي تقول " تصرف بجسارة بالدرجة التي أرغم فيها نفسه على القبول بأنه أكبر من مكانه الذي سيبقى فيه صغيرا."، بين الجمل الأخرى. اندهش من نظر كل الموجودين أمامه إليه لأنه لم يلاحظ قوله لهذه الجملة التي تتجول طليقة في عقله بصوت مسموع. نظر إلى الذين ينظرون إليه وبينما يحاول تنقية ذهنه من أفكاره الموجودة في عقله الباطن، سأله قداسة البطريرك الذي التقط الكلمات الأخيرة من جملته قائلا:

من ذا الذي تصرف بشجاعة؟

قال نائب رئيس الوزراء الذي لم يحاول إخفاء دهشته:

قداسة البابا، خطر ببالي أثناء النظر إلى ذاك العمود الجرانيتي جوستنيان. أطلق عليه الإمبراطور جوستنيان الصغير ولكن من وجهة نظري كان كبيرا جدا.

إن كنت تقصد أمره ببناء آيا صوفيا فأنت محق.

نائب رئيس الوزراء، على الرغم من معرفته البطريرك منذ سنوات، وعلى الرغم من إعجابه بعلمه ومعرفته لم يُعجب أيضا من نغمات الاستصغار الموجودة في نبرات كلماته وكأنه لم يستطع إعطاء أي معنى لتذكره جوستانيوس إلا بآيا صوفيا فقط. وقال من أجل الإعراب عن عدم رضاه:

قداسة الأب، لعلكم تعلمون أيضا بأن، الكثير من الأباطرة الذين فقدوا أرواحهم لمجرد الرغبة في تغيير التقاليد المستقرة والمتأصلة. لكن دعكم من تغيير التقاليد المستقرة، حتى أن جوستانيوس غير الرغبة في تغيير التقاليد.

إذن، أنت تريد الحديث عما فعله من أجل تيودورا...

نعم لو لم يكن قد غير تلك القوانين من أجل تيودورا، لما كانت روما قد استطاعت أن تعيش في الشرق كما حدث في الغرب.

إذن لو لم يكن قد أصدر تلك القوانين لما استطاعت تيودورا أن تصبح إمبراطورة، ولما كانت قد استطاعت أن تقول كلمتها التي أثارت أتباعها. هل تريد القول أن عمر روما التي تم تأسيسها في الشرق كان سيكون قصيرا على هذا النحو؟

نعم يا قداسة البابا، لو لم تكن تيودورا قد أبدت إصرارها قائلة " يجب أن ينطفئ نور حياتي في اليوم الذي لن تحيوني فيه باسم الإمبراطورة. أيها الإمبراطور، لو قررتم الهرب فالخزائن لكم، ها هو البحر وها هي سفنكم." ولو لم تمنح القوة للإمبراطور الذي خارت قواه في مواجهة المتمردين قائلة: "وكما قال القدماء فإنني على ثقة بأن عرشك سيصبح أحد القبور المشهورة."...

صمت دون أن يربط كلمته تلك بأي فعل، وبينما ينتظر إعمال الفكر في عقله، قال البطريرك الذي تنهد تنهيدة خفيفة: ليتها لم تكن منحته تلك القوة، ويا ليت الآلاف من أشقائنا لم يقتل بعضهم بعضا في الساحة. ولم يكد ينهي البطريرك كلامه حتى قال:

يا قداسة البابا، إن أهالي نيكايا كانوا يتحينون الفرصة لقتل بعضهم بعضا، وسُمِعَت جملة تقول "مثل أتباع الشقي كنتاكوزين الذين سيطرنا عليهم هذه الأيام".

لما التفت كل الحاضرين ونظروا إلى الجهة التي جاء منها الصوت شاهدوا الإمبراطور الشاب الذي يسمعهم وهو متكئ على عضادة باب عرش قاعة الرهبان المفتوح الذي أمر جوستنيان بصنعه والذي بقى منذ زمنه حتى اليوم. نهض الجميع على أقدامهم من فورهم فيما عدا البطريرك. تحرك البطريرك العجوز هو بدوره ولكن الإمبراطور الشاب يوحنا باليولوج الخامس أشار بيده حتى لا يقف، ومشى. وقال بعد ما جلس على المقعد الرخامي الموجود بجانب المقعد الرخامي الذي يجلس عليه البطريرك:

معذرة لمشاركتكم نقاشقكم الجميل هذا. يمكنكم استكمال نقاشكم إن كنتم ترغبون في ذلك. قرأت أنا وإيلينا الكثير من الأشياء التي تتحدث عن جوستانيوس في الأيام الأخيرة. أكثر ما لفت انتباهنا هو استمراره لفترة طويلة على عرش الإمبراطورية. ومما لفت انتباهنا أيضا كثرة الخلافات التي كانت موجودة في عصره كما هو حادث في يومنا الحالي.

عدل البطريرك تاجه المزين بالصلبان الذهبية وبعد أن تنهد تنهيدة غاضبة قال:

يا صاحب العظمة، لما كان أباطرة الرومان واللاتينين قد ستروا بستائرهم المذابح الشنيعة التي ارتكبوها في قسطنطينيتنا فلا توجد النماذج الجيدة التي يمكن أن تأخذها منهم. ولكن إن كنت تريد فهم حقبة جوستانيوس جيدا ...

وبينما يفكر البطريرك حائرا هل يكمل جملته أم لا، قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس:

نعم يا قداسة البابا من أجل فهمهم...

لم يكن أي منهم يريد بقاء الجمل ناقصة، ولكن على أية حال كانوا يتركون جملهم وكأنها أنصاف جمل هكذا. قال البطريرك الذي ينظر إلى الإمبراطور:

إن كنتم تريدون فهمهم عليكم أنتم أيضا أن تذهبوا إلى قصور هِرمائيوم الموجودة على الشاطئ المقابل مع حلول الربيع وأن تقيموا هناك فترة مثلهم.

آه، قداسة الأب... تقترحون عليّ ذلك وأنتم تعلمون أن هذا لا يمكن أن يكون... من الواضح أنكم لا تعرفون أصحاب خالكيدون الجدد قط. لما ذهبت إلى نيكايا تعرفت عليهم عن قرب جدا يا قداسة البابا. ففي الوقت الذي لا يطيعنا فيه حكام قلاعنا الثلاث أو الخمس الباقية، فإن قادة القلاع وقادة الجيوش وكذلك رجال الدين الموجودين في المساجد وحتى رهبان الكنائس

الموجودة في القلاع مرتبطون برباط أبدي بأروخان العثماني. لقد رأينا ذلك في نيكايا. إن الشيء الذي جعلني أفكر كثيرا، ليس قوتهم أو كثرتهم، ولكن شدة الاحترام الموجود بينهم يا قداسة الأب. وإلا كنا سنجعلهم يندمون حتى لمجرد مجيئهم إلى هذه الأراضي من خلال القيام بالهجوم عليهم من البحر، لكن هذه الارتباطات والولاءت الوثيقة والبعض منا الذي يقف بجواره بإخلاص شديد يجعلني أفكر كثيرا. وبخلاف ما يجعلني أفكر، يوجد شيء آخر يحول دون اتخاذي لقرار ما.

الإمبراطور كان قد أراد أن يقول باختصار "الذي يُخيفُني" ولكنه أطال في جملته بشكل كبير لأنه لا يمكنه قول ذلك.

قال بعدما صدق نائب رئيس الوزراء على قلق الإمبراطور:

أباطرة بيزنطتنا كانوا قد حلموا بالكثير قبل مجيء الرومان، حتى أن أحلام بعضهم ذهب إلى ما بعد جبال الهند ووصل إلى حرير بلاد الصين، لما أخذ الرومان أحلامهم من بين أيديهم، حاولوا الاكتفاء بأحلامهم الصغيرة في نيكايا. أحلامهم الصغيرة تلك التي استمروا يحلمون بها لسنوات في منامهم، إلا أنهم لم ينسوا أحلامهم الكبرى قط. ولكن هناك شيئا نعلمه الآن، هو أن هذا الحلم الكبير لا يمكن أن يتحقق. لأن هذا الحلم قد تحول إلى خيال لا نهاية له مع ديوجين. أظن أن قداسة البابا ما زال يجري وراء هذا الحلم. ولكن لا توجد لدينا الآن أوقات نضيعها وراء هذا الحلم. الأفضل هو أن نحظى بنومنا الهادئ المريح الذي يمكن أن نرى فيه أحلامنا البسيطة.

قال البطريرك مغاضبا وممتعضا من كلام نائب رئيس الوزراء:

يا أراسينديس إن كل الأشياء التي رأيتها خادعة، مثل هذا المنصب الذي أنت فيه الآن. أما نحن المؤمنون فلم نفقد أبدا أحلامنا في أي وقت لثقتنا بأباطرتنا وببيزنطتنا. جاء الرومان إلى هنا لأننا جعلنا أحلامنا أكبر من اللازم، ولكن الذين جاءوا بأنفسهم لم يستطيعوا أن يتخيلوا بأنهم سيصبحون ناهبين قط. لو كان قادة روما القدامى النبلاء ومقاتلوهم جاءوا لكان أفرسياب قد طرد جيوشنا ليس من بلده فقط بل إلى أبعد من ذلك منذ زمن بعيد؟

قال كرلينادوس قائد قلعة القسطنطينية وقائد قادة كل القلاع الأخرى:

يا قداسة البابا إنكم تعلمون إن مساعي قادة الرومان النبلاء الذين أبهرتهم ثروات الأناضول لم تكن تحقق أي فائدة، ولم تكن تصل إلى هدفها في الكثير من الأحيان. لو لم يكن قائدنا بيليساريوس لما كان الرومان قد استطاعوا أن تطأ أقدامهم الأناضول.

قال نائب رئيس الوزراء الذي رأى أن أسلوب الحديث قد صار حادا بعد حديثه، تصور أنه لم يتصرف دون تدبر على هذا النحو حتى اليوم. ولكن في ضوء النتائج التي استخلصها من الأخبار التي وردت إليه ودون أن يحصل على الكلمة وكأنه يوجه اللوم:

آه يا صديقي العزيز كرلينادوس، لكن لو لدينا مثل هذه القلاع لكان فرسان العثمانيين يسلمون قلعتهم بمجرد مشاهدتهم أمام باب قلعتهم.

قال الإمبراطور الذي شعر بالضيق من معارضة نائب رئيس الوزراء الذي يتولى منصب القائد العام في تلك المرحلة الحرجة للبطريرك ومن أجل تغيير موضوع الحديث قليلا:

يا قداسة البابا، عزيزي كرلينادوس ويا أصدقاء آل باليولوج المخلصين! إن الهدف الرئيسي من دعوتنا لكم للاجتماع هذا المساء ليس من أجل الحديث عن العثمانيين الذين يحتلون سواحلنا الموجودة على الجانب الآخر، إن الموضوع الأساسي الذي أريد أن أبحثه معكم هو الوضع الذي حدث في تراقيا مع موت الأمير سليمان باشا ابن أورخان. بالقطع نريد انسحاب العثمانيين الذين يحتلون أراضينا من تراقيا ولكن وضع ماتيوس كنتاكوزين نفسه مكان ديوميديس ملك التراق وتصرفه على النحو الذي يقوم به يقلقنا. ولو لقى نفس الشدة كرد فعل في حال اتباعه هذ العنف فإننا لن نستطيع أيضا إيقاف العثمانيين في القسطنطينية. لنناقش الآن معًا ما يمكن أن نفعله من أجل إمكانية تقوية عرى الأخوة من جديد في قسطنطينيتنا، وكذلك التدابير التي يمكن أن نتخذها من أجل الحيلولة دون جمع ماتيوس لأنصار جدد. إن لم نقم بفعل بعض الأشياء التي توقف ظلمه هذا، فلنعلم أن حداد العثمانيين سوف ينتهي في أقصر فترة.

قال البطريرك بعد أن جال بناظريه داخل القاعة التي تتلألأ بقناديل الإضاءة التي أضيئت فورا:

يا صاحب العظمة، أنتم على صواب الوضع يبدو شديد السوء. إن تصرف ماتيوس كنتاكوزين بظلم إلى هذا الحد، نراه وضعا لا يمكن قبوله. إن كانوا قد تعاملوا برحمة بعدما استولوا على قلاعنا، فعلينا نحن كذلك أن نكون رحماء معهم. لأنه لم يرد في أي من الكتب السماوية أن الرب كان بجانب الظالم.

تحدث نائب رئيس الوزراء مبديا سعادته لحديثه على هذا النحو قائلا:

يا قداسة البابا، تعلمون أنكم الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يؤثر فيه... وأنتم هو الشخص الوحيد الذي يمكننا إرساله إليه.

قال القائد العام لقوات بيزنطه وهو ينظر خلسة إلى نائب رئيس الوزراء الذي وجه له نقدا لاذعا قبل قليل:

يا قداسة البابا، هذا عمل سياسي. أنا مع إرسال نائب رئيس الوزراء إلى ماتيوس كنتاكوزين. بعد كلمات القائد العام هذه نوقش الموضوع بشكل مطول حتى وقت متأخر. قال الإمبراطور بعدما أصاب الإعياء والإرهاق الحضور الذين يشكل المسنون غالبيتهم:

أنا شاكر لكم جميعا لحضوركم الإجتماع. لم نتوصل اليوم إلى قرار واضح، أقترح عليكم أن نجتمع مرة أخرى مساء الغد ثم نهض على قدميه. مشى رئيس الوزراء العجوز ونائبه وقائد الجيش برفقة حراسهم من طريق الدرج الذي ينزل إلى الطابق الأرضي. ولما دوى وقع أقدامهم في الفناء الموجود في الطابق الأرضي نهض الآخرون كذلك وخرجوا من القاعة واحدا تلو الآخر.

(٧١)

كانت نيلوفر خاتون التي لم تنس ابنها لعدة شهور قط، والتي تذرف دموعها على صدرها قليلة الكلام حتى مع أورخان غازي الذي كان يمسك بيدها ويواسيها أحيانا. وعلى الرغم من حزن أورخان غازي الشديد فإنه كانت يمضي وقته في من الكثير الأحيان مع نيلوفر لمواساتها. نظر إلى نيلوفر خاتون التي تبكي وهي تنظر إلى الجدران في قاعة الصالون وبعد أن مشى لفترة داخل القاعة من جدار إلى جدار ذهب إلى جانب بيلوفر خاتون وكأن شيئا ما قد ورد إلى عقله. طلب منها أن تنهض على قدميها. قال وهو يتطلع لوجه نيلوفر خاتون التي وقفت على قدميها:

فلتعلمين يا عزيزتى نيلوفر أن قلبي ينزف دما. لم يخطر ببالي قط عندما أرسلته وقلت له لتضم الضفة الأخرى لأراضى إمارتنا أنه سيوارى الثرى فى تلك الأراضى. لقد دفنت قطعة من قلبى فى تلك الأراضى معه. ولو كان الأمر بيدي لكنت طلبت أن أُدفن أنا بدلا منه. ولكن ما باليد حيلة، الأقدار لم تقبل شخصًا غيره. علينا الآن أن نتماسك ونُلملم جراحنا ونتمسك بالحياة، ونعمل على نسيان آلامنا، ونتفرغ لإدراة شئون إمارتنا.

قالت نيلوفر خاتون وهى تنظر إلى وجه أورخان غازى الذي اسمر لون وجهه بنظراتها العميقة تلك:

سيدى! بينما أفكر فى ولدى تفكر أنت في إمارتك. ولدي سليمان لن يعيد إليّ أي شيء قط.

قال أورخان غازى:

أعلم الزلزال الكائن بقلبك والذي هز كيانك. أسعى لفهمك لكن عليك ألا تنسى أن الموت هو الحقيقة الوحيدة. الشيء الذى يؤلمنا ويحزننا اليوم سيأتى غدًا ويأخذنا نحن ويذهب بنا كذلك.

نيلوفر خاتون أصابها قليل من الفزع ولما عادت لرشدها فهمت زوجها الذي تضيّق عليه الخناق. ثم قالت بصوتٍ عذِب:

أفهم جيدا ما قلته يا عزيزى أورخان ولكن تعال انظر فأنا ليس لى أية سلطة على التمرد الموجود بداخلي. قال أورخان غازى الذي بدأ في الحديث وهو يمعن النظر إلى نيلوفر خاتون وهو يمسك يدها:

الزمن يداوى كل شيء يا عزيزتى.

قالت نيلوفر خاتون وهي تنظر إلى وجه أورخان غازى وكأنها استعادت رزانتها ورجاحة عقلها:

معذرة يا سيدى! كنت أودعه عند كل فراق وكأنه لن يعود ثانية، إلا أننى لا أتمكن من السيطرة على مشاعرى.

قال أورخان غازي:

أى أم تلك التي تتحمل موت فلذة كبدها، أتتحملين أنت عزيزتى؟ منذ زمن بعيد وأنا أعمل من أجل الحكم والسيادة، ولكن الحقيقة الوحيدة التي تيقنت منها هي أنني فان كالسابقين. ولكن الفرق بيني وبينهم أنني مسئول عن أموال وأرواح كل من هم تحت مسئوليتى حتى آخر نفس في حياتي. انظرى

هناك إلى من يتربصون بنا حتى وقت آلامنا. فقد تحرك سريعا القرمانيون على هذه الضفة وابن كانتاكوزين على الضفة الأخرى. بينما يُحرض الأول أمراء الأناضول ضدنا، أعلن الآخر قيام مملكته ويمزق فرسالننا الذين قبض عليهم أحياء ويقدمهم علفا لخيوله. أنا وأنت مجبورون الآن على نسيان ما آلم بنا. ولنستعد لنكون سندا لولدنا مراد ولنحمى الضعفاء الذين يعيشون على أراضينا.

قالت نيلوفر خاتون بعد أن هدأت من حزنها الموجود على وجهها الجميل ذي البشرة البيضاء الذي لم تتمكن منه التجاعيد رغم كبر سنها حتى وإن كان قليلا:

أعلم أنه يومًا ما سيصيبنا الدور كالذين سبقونا، لكن انحراف الدور هذه المرة أثر في إلى هذه الدرجة. تستطيع أن تهتم بأعمالك من الآن فصاعدا.

مشى أورخان غازى وجاء إلى جانب نيلوفر خاتون. انحنى وطبع قبلة حانية على جبينها ثم قال بعد أن فكر لفترة وكأنه تذكر بعض الأشياء:

"آآه يا عزيزتى نيلوفر! أعلم أن هذا الأمر ليس بالدور منذ وفاة ابني قاسم. وكذلك من مقاتلينا الشباب الذي قضوا نحبهم وهم يلقون بأنفسهم على السيوف التي كانت ستطعنني في ساحات المعارك. لن أنسى أبدا جملة شياط التي تقول: "إن الأجــل يمسك قدحا كبيرا فى يده؛ داخل هذا الكأس مملوء (بما هو مكتوب على الجبين) بالأقدار". إن شئتِ كررى أنت أيضا هذه الكلمات.

اقتربت نيلوفر خاتون بخطوات هادئة وخَجِلة من أورخان غازي وهي تشعر بأنها ستجد من بين كلماته ما يواسيها أكثر من دفء الانسان. أسندت رأسها على صدره وقالت من بين تنهيداتها الخفيفة:

سأحاول تكرارها يا عزيزى أورخان. أتمنى أن تكون سندا لى.

أمسكها أورخان غازى بيديه من كتفيها وعانقها بشدة ثم قال:

هيا يا حبيبتى نيلوفر اجمعى الجوارى واذهبى إلى شاطئ الجدول واسمعن أصوات الطيور والحشرات وأصوات الجواري ذوات الصوت العذب اللواتي ستأمرهن بالغناء الذي يتداخل مع خرير المياه. وأنا أيضا سأنهى أعمالى فى ديوان القادة بسرعة وسأنضم إليكم. وبمجرد أن أنهى كلماته قبَّل نيلوفر خاتون من جبينها، وتوجه ناحية الباب.

خرج أورخان غازي من جناح الحريم وأثناء توجهه نحو البناية التي يوجد بها قاعة الديوان الواسعة وقاعة رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا، جاءت كل من السيدة أسبورجا والسيدة تيدورا إلى نيلوفر خاتون الموجودة في قاعة الجلوس. عانقت نيلوفر خاتون بحرارة بنات جنسها اللائي تحبهن كثيرا وبعد أن بكت فترة، قالت وهي تمسح دموعها:

هيا استدعين جواريكن لنذهبن إلى شاطئ جدول نيلوفر. ربما يكون خرير الماء شافيا لنا. احتضنها آسبورجا لفترة، وخرجت تيدوره من الغرفة مسرعة. وبينما يتبادلن الحديث فيما بينهن سمعن صوت أيدى تيدورا التي تصفق بهما خلف الباب. بعد فترة وجيزة دخلت تيدورا إلى الداخل وأخبرتهن بأن العربات جاهزة. وأثناء ركوب العربات دون عمل الكثير من الاستعدادات كان أورخان غازى الذي يشارك في اجتماع الديوان قد أنهى

كلمته، وكان الوزير العجوز سنان الدين يوسف باشا قد بدأ في حديثه بتأنٍ وتؤدة. إن استخدامه لنبرة صوت مؤثرة للغاية كانت يؤثر على كل الموجودين في الديوان في كل وقت، لكن هذه المرة كانت كل كلمة تخرج من فمه وكأن لها العديد من النغمات. وبسبب شعوره بزيادة الحِمل على الكلمات المُتكلفة، كانت الكلمات فى الغالب تخرج من بين ثنايا شفتيه متباهية من داخل فمه. وهكذا وبينما يُهدئ من نبرة الصوت وهو يتكلم بتؤدة إلى حد ما دون أن يسرع في حديثة، أصغى إليه كل من هو موجود بالديوان السلطاني. سنان الدين يوسف باشا الذي أحس بأنهم ينصتون إليه بكل جوارحهم، رفع صوته فجأة وقال:

"أيها السادة! علينا محو كل المسافات التى بيننا لنستطيع الوقوف فى الموقع الذى وصلنا إليه، وعلينا أيضًا أن نُحسن الوقوف كتفا بكتف إلى جانب بعضنا بعضا. جميعكم محبون لأورخان غازى. اتحدتم تآزرتم وصرتم وحدة واحدة. واريتم الثرى الكثير من فرسانكم البواسل في ساحات الوغى من أجل العمل على زيادة رقعة دولته. ولكن تآزركم وتوحدكم الروحى هذا زاد من منافسينكم وحاسديكم. فبينما تتخذ قواتنا التي عبرت إلى الضفة الأخرى من الدردنيل موطنا جديدا، فإن الإمارات الصديقة التي انضمت إلينا فى الأناضول أضافت قوة إلى قوتنا. ولكن بعض الإمارات التي عهدناها صديقا لنا والتي ترى أنها أضافت قوة إلى قوتنا تنوي حرماننا من العيش حالة الحزن على فقيدنا سليمان. القرمانيون يحرضون تنظيم الإخوة على الهجوم على إماراتنا الموجودة في جردا، وكأن استعادتهم القلعة وتحريض تنظيم إخوة آنيرا لا يكفيهم. فضلا عن سعيهم لتأليب أبناء جرميان الذين يكنون الود لنا. لو لم يقعوا فى هذا الخطأ، لما كنا علمنا عن هذه الأعمال

التحريضية التي يقومون بها. تحدثتُ طوال الطريق مع أورخان غازى فى هذا الموضوع عند عودتنا من مراسم دفن ولدنا سليمان وقلتُ له حان وقت تلقين القرمانيين الذين يطلقون على أنفسهم آخر مُمثلى السلاجقة درسا. وتحدثنا مرة أخرى بالأمس واتخذنا قرارا...فإذا أيدتموه، فستكون أولى غزواتنا التي ستبدأ مع بداية الربيع على القرامانيين. وبقاؤنا على الضفة الأخرى للدردنيل مرتبط بهذه الحرب ثم نظر إلى أورخان غازي.

قد أثرت كلمات وجمل الوزير العجوز كما ينبغي في كل من بالداخل. لم يرغب أي شخص بالتفوه بأية كلمة لفترة، ولما صار الجو خانقا للغاية من جراء الصمت المطبق والجو الخانق الموجود داخل، هز سنان الدين يوسف لحيته البيضاء ثم قال:

لا يوجد أي شيء طبيعي بقدر قلقكم مما سمعتموه. ونحن أيضا قلقون من الموجودين في القبائل الموجودة على الحدود. لكن يجب علينا أن مناقشة الموضوعات واتخاذ القرارات. هيا لا تصمتوا. وليتحدث من يريد التحدث. يقول الشاعر: "... ماذا يمكننى أن أفعل بمفردي؟"... ولئن صمتم، فليس بوسعنا أيها القادة والإخوة والأمراء أن نفعل شيئاً وحدنا.

تحدث قارا خليل الجاندارلى الذي تحمس من كلامه هذا والذي يُؤخذ كلامه مأخذ الجد بكثرة منذ فترة طويلة في الديوان قائلا:

ليس لدىَّ أى شك في أن القرار الذى اتخذتموه هو أحد القرارت الصائبة. يمنحنا أميرنا أورخان غازي الشرف بمشاركتنا في غزوته. إن قادتنا الموجودين في الروملي على الضفة الأخرى من الدردنيل في موقف صعب وأنا أرى أن تخرج قواتنا التي ستذهب لدعمهم فورا قبل خوضنا أية

حرب في الأناضول. إذا كان ما سمعناه صحيحا فإن ابن كانتاكوزين يثير الفزع والرعب هنالك.

بينما يتمعن يوسف سنان الدين باشا أثناء حديث قرا خليل الذي رباه بنفسه وعلمه الدبلوماسية لدرجة وضعه كل كلمة تحدث بها في نصابها الصحيح ومن وزنه لنبرة صوته، قال:

لقد عرض قرا خليل باشا أفكاره بشكل رائع. قبل الخروج للحرب يجب إرسال قوات أخرى لمساعدة الحاج إلباي وأفرونوس بك وفاضل بك وآقجه قوجه أوغلو وإيجه بك، ليوقفوا هجوم ماتيوس كانتاكوزين. إن لم يتم إيقافه، فسيزداد أمله الموجود في القسطنطينية. ولو انجرفوا إلى رغبتهم في طردنا من تراقيا ستكون مهمتنا شديدة الصعوبة.

وما إن أن أطلق المربي شاهين بك مُربي الأمير مراد ضحكة شيطانية من بين شفتيه حتى قال:

أرى أن الحاج إلباي كفيل بكل من ماتيوس كانتاكوزين والإمبراطور. خصوصا وأنه وفقا لما سمعناه قد هدأ وتوقف بعد اعترافه بإثم سوء تدبيره.

كان سنان الدين يوسف باشا هو الشخص الوحيد الذى فهم الغموض الموجود بين ثنايا حديث المربي شاهين بك المملوء بالتلميحات. فولى وجهه تجاه أورخان غازى وقال:

أسعدنا ثقة شاهين بك فى قوة الحاج إلباي، لكن يوحنا كانتاكوزين كان على وشك أن يُقنع الصرب والبلغار بالانضمام لجيش ابنه ماتيوس كانتاكوزين. إذا انضموا إلى قواته، فلن يكون أمامنا أية حيلة إلا أن يكون شاهين بك

مكان الحاج إلباي. ولهذا السبب قد دفع الحاج إلباي بفاضل بك وأقجه قوجه أوغلو إلى القلاع الأمامية دون أن يعطي ماتيوس كنتاكوزين الفرصة لاستجماع قوته. ولكن الفرسان لا تفيد كثيرا في عمليات الحصار. إن واجبنا الآن هو إرسال الكثير من قوات المشاة إليهم. نظر إلى أورخان غازى نظرة ذات مغزى وكأنه يريده أن يتكلم.

عندما أدرك أورخان غازي أنه حان وقت حديثه، وبعد أن ذكر الحديث السابق الذي دار بينه وبين سنان الين يوسف باشا بصوتٍ هادئ قال:

شجعاني وقادة جيوشي ووزرائي وقضاتي وماقانليَّ وحكام القلاع البيزنطيين التابعين سلمتم وأمد الله في عمركم لمحبتكم وودكم لي، ولأنكم جعلتموني صاحب ملك في قارتين ولأنكم لم تهدروا روح من لم يفرط فى أرواحنا، ووقفتم إلى جانبي في السراء والضراء. كما قال يوسف باشا فكلما اتسعت رقعة أراضينا وكلما ازدادت المناطق التابعة لنا زاد أعداؤنا. حتى أن بعض الأمراء الذين حسبناهم إخوة لنا قاموا ببعض الحيل المختلفة تجاهنا. ولكن فليفكر هؤلاء الأمراء كما يريدون ولكننا نعلم، أن كل العشائر في شرقنا وغربنا وشمالنا وجنوبنا قد صاروا تابعين لنا. والكثير منهم ينتظرون إشارة منا لاستدعائنا لهم... ولربما يريد بعض الأمراء الانضمام إلينا. ولكنهم يمتنعون عن ذلك لقوة الأمراء الموجودين حولهم. لنمنحهم في البداية القوة والثقة، ولنضف بعد ذلك قوتهم إلى قوتنا. منذ اليوم لسنا على عجلة من الأمر. ليتم عمل الاستعدادات من أجل الانطلاق نحو القرمانيين. وليتحرك الأمير مراد والمربي شاهين بك بقواتهم فورًا، وليتقدما إلى مشارف قلعة أنيرا، وليسيطرا على هذه القلعة التي حاصرها واستولى عليها سليمان ولدي.

وبينما يتم تدريب المقاتلين الجُدد الذين سيتم إرسالهم من آنيرا ومن القلاع الأخرى في بورصه، لتنطلق على وجه السرعة قوات المُشاة المدربين والموجودين تحت أيدينا للانضمام لقوات الحاج إلباي. وأنا سأنطلق بقواتي في البداية في حملة على الجنوب. خير لنا أن نعقد بعض الاتفاقيات مع إمارات جرميان وصاروخان ومنتشى. وسيكون من الأفضل كذلك عقدنا الاتفاقية للهجوم على أهالي جنوة الذين يسكنون جزيرة فوتشه. إن تمكنا من النجاح في ذلك سوف نستطيع قبل حلول الربيع تطهير جزيرة فوتشي من أهالي جنوة وكذلك تطهير أنيرا من أعضاء تنظيم الإخوة الذين يناصرون القرمانيين. وهكذا نكون قد أصبح لدينا قوة كافية عند القبائل الموجودة على الحدود، ونكون قد اقتربنا من حدود القرمانيين. وعند حلول الربيع نقوم بالهجوم على أراضيهم في الوقت الذي لا يتوقعونه إطلاقا.

فى الوقت الذى كان يفصح فيه سليمان ولدي عن رغبته فى العبور إلى الضفة الأخرى من الدردنيل، كان قد قال لي عن رغبته المُلحة فى الاستيلاء على تلك الأراضي وضمها لأراضينا، ولكن، ياللأسف! لم يجعل له هذا الحادث الأليم نصيبا فى ذلك. الآن فإن ضم هذه الآراضى لأراضينا هي مهمة الأمير مُراد. وبمجرد انتهاء غوزتنا على القرمانيين، سيقوم الأمير مراد وشاهين بك بالعبور إلى الضفة الأخرى من الدردنيل، وسيكملان هذا النصر بالقوات الموجودة هناك وإهداءه لروح سليمان ولدي الذى لم يكن له نصيب فى هذا الفتح. ثم صمت.

نظر الأمير مراد إلى الموجودين في الاجتماع وكأنه مندهش من كل هذه التكليفات التي تم تكليفه بها. وما إن تمالك نفسه حتى تقدم إلى الأمام وجثا على ركبتيه بأدب. وقال بعد أن قبّل يد أورخان غازى:

ولأوفين بعهد أخى الكبير سليمان باشا. ثق بى سأنجز المهام التى كلفتمونى بها حتى لو كانت حياتي ثمنا لذلك. فليعلم أبى أن تنظيم الإخوة بقلعة أنيرا سيخضع فى أقرب وقت لهيمنة الإمارة العثمانية".

اندهش أورخان غازي قليلا أمام حديث ابنه مراد المتواصل والذي ينتج أفكارًا جديدة باستمرار والذي تواصل معه عبر الرُسل الذين واظب على إرسالهم باستمرار من وإلى جبهة القتال. ولما تذكر أنه لسنوات طويلة لم يشرك ابنه مراد في أي شيء من شئون إدارة الإمارة التي كان يتبادلها مع ابنه الأكبر لسنوات لأنه لم يكن يدور بخلده أن ابنه الأكبر سوف يختطفه الموت قط، قال: "بسبب التفكير فى الحروب، تناسينا الحياة ذاتها". وبينما ينظر إلى ولده اعتصر قلبه وهو يحدث نفسه قائلا: "على أية حال كبر دون أن أشعر". بعد أن جال في عقله لفترة وهو يواصل النظر إليه، حدث نفسه قائلا: " لم يفُت الأوان بعد. فليس هناك داع لخروجه مع قواته على الفور. يمكنه الانطلاق بعد عِدة أيام من خروج فرق المُشاة والفرسان والخيّالة. إن بقاءه هنا لعدة أيام سيكون مفيدا لإخراج أمه من محنتها، حتى أنه فى الأيام التى سيبقى فيها هنا سأتمكن من مشاركته الأمور التى لم أستطع مشاركته إياها حتى الآن. وفى هذه الأثناء تُعلم نيلوفر خاتون ابنتنا زهرة الورد عادات وأصول الضيافة الخاصة بنا". نظر إلى ولده وهو يبتسم وكأنه قد فرح بالقرار الذى توصل إليه، ثم قال:

لتكن واسع الأفق والمنال. ليتحرك المربي شاهين بك فى أقرب وقت ولكن لتبق أنت فى بورصه قليلا. فأنا وأمك بحاجة إليك فى هذه الفترة.

قال شاهين بك وهو منحن إلى الأمام انحناءة بسيطة على الوسادة التي يجلس عليها:

يا سيدى! نحتاج لبضعة أيام من أجل تجميع القوات والقادة الآخرين الذين سيأتون معنا. لأرسل غدا وحدات الطليعة. وننطلق من بعدهم ببضعة أيام. ثم يلحق بنا كذلك الأمير مراد".

قال رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا الذى رأى بعينيه الهرميتين تسلل عتمة الليل خلسة شيئا فشيئا من النوافذ بصوت متعب:

لقد تحدثنا بكل ما نريده اليوم، كل شخص يعرف مهمته الآن. قد انتهى اجتماع ديواننا العظيم الذى شارك فيه الأبطال والأمراء. سيتم إخباركم جميعا بالقرارات التى سيتم اتخاذها فى اجتماعات ديواننا المصغرة التي ستعقد فيما بعد والتي سيشارك فيها الوزراء والعلماء. لتكن سواعدكم قوية وغنائمكم موفورة وغزواتكم مباركة.

وبينما يقول أورخان غازى لرجاله: "لتكن غزواتكم مباركة"، خطر بباله الوعد الذي قطعه لنيلوفر خاتون فخرج من الديوان مسرعا. وأثناء انتظاره إحضار جواده، حدث نفسه قائلا: "لم أكن أتوقع أن الاجتماع سيستمر طويلا لهذه الدرجة.

(٧٢)

لم يتحدث الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس ولو بكلمة واحدة مع القادمين من خلفه حتى دخوله قاعة الاستقبال الموجودة في قصر رئاسة الوزراء. كان وجهه قد بدا أكثر وقارا تحت الضوء الأصفر للقناديل. وكان قد جاء إلى هناك بصحبة نائب رئيس الوزراء وقائد القوات البرية للحديث مع رئيس الوزراء المريض الذي أراد الحديث معه بعد الاجتماع لأن قصر رئاسة الوزراء أقرب إلى آيا صوفيا من قصر حكمه. أثناء ذهابه للاجتماع في داخل عربته المغطاة، وكما حدث طوال اليوم، حاول خلال سيره من آيا صوفيا حتى قصر رئاسة الوزراء أن يرتب في عقله الأشياء التي سيناقشها، وكان يفكر قائلا: "فيما عدا الأفكار التي سأحتفظ بها لنفسي سأناقش هذا المساء مع كل من رئيس الوزراء ونائب رئيس الوزراء وقائد القوات البرية كل شيء وسأحصل على آرائهم أيضا. وفي مساء الغد سأستمع كذلك إلى آراء الرهبان وممثلي الشعب، وأعرف مقترحاتهم. وبعد ذلك أتخذ القرار المناسب. هذه هي الفرصة، علينا قهر العثمانيين قبل نزولهم إلى البحر. إن لم نستطع فعل ذلك لن نستطع هزيمتهم بعد ذلك. لو تحركنا على نحو مخطط ومدروس، واستطعت كذلك إقناع آل كنتاكوزين سنظهر تراقيا في أقصر فترة زمنية من القوات العثمانية".

كان العاملون بقصر رئيس الوزراء قد اندهشوا جدا حينما فوجئوا بمجيء الإمبراطور ورئيس الوزراء ونائبه وقائد القوات البرية في وقت لا يتوقعون مجيئهم فيه وأضاءوا القناديل الزيتية التي كانت قد أطفئت من فورها مرة أخرى وكما أضاءوا الممر وقاعة الضيوف بما فيه الكفاية. فضلا عن ذلك ملأوا الأقداح المطلية بالذهب من الشراب الأحمر المصنوع من أعناب تريستاسيس السوداء المحفوظ في الخزانة المصنوعة من الخشب المحفور المدفونة في الجدار العريض لقاعة عمل رئيس الوزراء من أجل الضيوف المهمين وقدموها للضيوف. لما انتهوا من تقديم الشراب انسحبوا في صمت وخرجوا من القاعة. بينما ينظر الإمبراطور والقائد العام اللذان ارتشف كل منهما جرعة من شرابه الموجود في الأقداح الزجاجية المصنوعة في الصين لبعضهما، كان رئيس الوزراء أيضا قد جلس على كرسي المقام الرسمي، وكان نائبه يشاهد عملية إعداد الدواة والريشة من أجل الكتابة. بعد أن تجرع كل منهم جرعاتهم الثانية معا من أقداحهم سأل الإمبراطور الذي ابتلع شرابه الذي أزلقه على لسانه قائلا:

هل لديك أخبار عن وضع أسطولنا يا كريليناندس؟

لم يستطع القائد العام الذي لم يكن يتوقع أن السؤال الأول سيوجه إليه الإجابة على الفور. بعد أن فكر قائلا " لماذا لم يسأل عن كل القوات ولماذا اقتصر سؤاله على القوات البحرية؟" أثناء قيامه بعمل مجموعة من الحسابات وهو ينظر إلى السقف المرتفع، قال:

الآن تم تقسيمه إلى ثلاث مجموعات ولكن إحدى المجموعات التي تتكون من بعض السفن تقوم بزيارة لقلعة بونتوس الموجودة على سواحل

المورة. قوتنا الرئيسية موجودة الآن في الميناء الموجود على القرن الذهبي. قسم آخر في بيجاسي أما القسم الآخر فهو موجود في بحر الجزر.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس كان يعلم أن هذه الإجابات الملتوية ناتجة من عدم معرفته ولكن بدا عليه وكأنه قد اكتفى بالمعلومات التي حصل عليها، وسأله قائلا:

كم يلزم من الوقت حتى تلتقي جميعها عند ثغر هِلْ الموجود على الدردنيل؟ كان القائد قد بدأت تظهر عليه علامات ضعف الذاكرة، على الرغم من أنه يبدو نشيطا بالنسبة لسنه. نظر مرة أخرى إلى السقف وبعد أن أجرى بعض العمليات الحسابية، قال:

يا صاحب العظمة، إن القوادس الشراعية والغليونات تصل إلى هناك خلال يومين ولكن القوادس ذات المجاديف والشاحنات من الممكن أن يستغرق وصولها إلى هناك أكثر من ذلك. وإذا أضفنا إلى ذلك وصول الخبر إليهم وقيامهم بعمل استعداداتهم، فإن كل السفن بخلاف السفن التي يتم عمل إصلاحات بها يمكن أن تتجمع في المكان الذي ذكرتموه خلال أسبوعين.

أما نائب رئيس الوزراء أثناء تسجيله الملاحظات، فسأله قائلا:

كم يبلغ عدد جميع حراس وفرسان قلاعنا الموجودة في بيجاسي؟

القائد العام وهو ينظر إلى رئيس الوزراء وكأنه يقول " هل يلزم أن تعلم هذا؟" أجاب قائلا:

لا أستطيع أن أعطي رقما أكيدا يا سيدي، لأن الكتالونيين لا يطلبون حراسنا في قلاعهم منذ زمن بعيد، ونحن أيضا نرسل في كل مرة أعدادا أقل من سابقاتها للمهمات المؤقتة ثم سأله رئيس الوزراء هذه المرة قائلا:

وماذا عن البحارة؟

من الممكن أن يصل عددهم مع المُجَدِّفين الذين خرجوا إلى البيوت مئتين أو ثلاثمائة. ولكن لم نستطع إحصاءهم منذ فترة طويلة... من المحتمل عدم عودة الكثير من الذين خرجوا إلى المنازل.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس نظر إلى رئيس الوزراء قائلا:

تعلم الفترات التي لم يتسع فيها بحر الجزر لأسطولنا. ولكن انظر الآن نختفي في بحر الجزر. إن وجب الأمر لنقم بزيادة ضرائب الأسطول على أهالي جنوة ولنكمل بسرعة ما ينقص أسطولنا.

وبينما ينتظر الإمبراطور حتى يسجل نائب رئيس الوزراء الملاحظات، فإن القائد العام نظرا لعدم اهتمام الإمبراطور بالحديث عن القوات البرية وقوات الحرس قال بصوت ساخط:

لو يلزم الأمر فإنه يكون من الأفضل الاستيلاء على بعض السفن الشراعية لأهالي جنوة من أجل تقوية أسطولنا يا سيدي.

قال الإمبراطور بعد أن نظر ممتعضا إلى القائد العام:

إن الاستيلاء على سفنهم في هذه الأيام يكون أكبر حماقة يمكن أن ترتكب. تعلم أنهم دائما يمشون مع الريح ويلهثون دائما ليكونوا إلى جانب الأقوى. لو استولينا على سفنهم سوف يرفعون فورا على سفنهم الموجودة في المستعمرات الأخرى رايات العثمانيين، حتى ولو لم تكن تلك السفن الموجودة على الشاطئ الآخر.

قال رئيس الوزراء، وهو متردد بعض الشيء لأنه كان دائم المعارضة للإمبراطور في الأيام الأخيرة:

إن صاحب العظمة يقول الصواب. إن أهالي جنوة يشمون رائحة الرياح قبل كل الناس.

في الواقع فإن القائد العام لم يكن ينتظر الدعم من رئيس الوزراء ولكنه شعر بالقلق حينما قيل ذلك. وجه نظراته التي تتنقل ما بين الإمبراطور ورئيس الوزراء إلى قدحه، وأثناء تناوله بقية شرابه من القدح، حدث نفسه قائلا " آه لو أستطيع الخروج من هنا دون أن أثير شكوكهم!". ولخوفه من أن يقرءوا أفكاره الموجودة داخل عقله ملأ قدحه من الشراب الموجود في الإبريق ثانية دون أن ينظر إليهما. شك في الأمر تماما عندما لاحظ النظرات المتبادلة بين الإمبراطور ورئيس الوزراء حينما كان يرفع كأسه إلى فمه ثانية. ولم يستطع بأي شكل من الأشكال أن يبتلع الشراب الذي أمسك به فوق لسانه. ولعدم قدرته على إخراجه من فمه كان يقوم بتحريك الشراب داخل فمه. في البداية نظر إلى النافذة، ثم نظر بعد ذلك إلى الباب. حاول ابتلاعه مرة أخرى. لكن لم يستطع ابتلاعه وكأن الشراب قد تحجر في فمه. وبينما يقيس بعينيه مسافات وسمك حديد النافذة الواسعة وأثناء تفكيره قائلا" من المستحيل أن يكون من الباب. فبمجرد أن أخطو خطوة من العتبة سيقضى عليَّ الحراس. لو قضيت على أحدهم سوف يجعلون غيره يهجم عليَّ. ولو قضيت على عشرة سوف يجعلون مئة يهجمون عليَّ لا نجاة من الباب ولكن إن خرجت من النافذة فلربما أجد مهربا لنفسي في الحديقة الخلفية. لا، في الواقع لا يمكن الهروب من النافذة ولكن ربما يكون هناك أمل إن استطعت

أن ألقي بنفسي في الحديقة. ليس من السيف الموجود في خصر رئيس والوزراء ولا الموجود في خصر نائب رئيس الوزراء كذلك، بل السيف الموجود في خصر الإمبراطور..." شعر بذوبان الشراب الذي تحجر في فمه. وبسرعة ابتلع شرابه الذي تحجر على لسانه منذ فترة طويلة. كم كان عجيبا أيضا زوال تلك المشاعر الغريبة بالشراب الذي ابتلعه. ابتسم فجأة، وفرج عن نفسه وهو يفكر قائلا: " مهما كبر الإمبراطور فإن قوة قبضته ليست بقوة قبضتي. والمسكين لا يوجد لديه خدعة يقوم بها بالسيف معي. حتى لو استخدم الحيل التي علمته إياها سوف أقهره بسرعة". كما قال جملة غير مكتملة حيث قال " لو لم أستطع فعل...". وكان نظر الإمبراطور إليه بعينيه المتفحصتين هو سبب عدم قدرته على إتمامه لجملته.

كان الإمبراطور شابا يافعا ولكن إحساسه كان قد صار شديد القوة بسبب التجارب الكثيرة التي أكسبتها له الأمور التي عايشها. وكأنه قد فهم ما فكر فيه القائد العام، كان وكأنه كان يتحدث قائلا " لا أريد أن يقوم أي أحد الآن بالهذيان وهو يفكر مع نفسه...يا أليكسيوس أنت وكريليناندس أريد أن تضعا نهاية للخلاف الموجود بينكما منذ سنوات. الوقت هو وقت الاتحاد والقوة. أما وقد تحرك ماتيوس كنتاكوزين مستغلا فرصة موت سليمان باشا فإنه يجب علينا أن نتحرك كذلك، وأن نضغط على العثمانيين ولنجعلهم يرجعون إلى الضفة الأخرى للدردنيل. سيكون هذا مفيدا لنا من ناحيتين. الأولى ليعلم الشعب أننا أيضا ضد العثمانيين الذين يقتربون نحو القسطنطينية خطوة خطوة وسينضم الشعب إلينا ويأخذ مكانه بجانبنا، أما الناحية الأخرى فسنتخلص منهم "العثمانيين" بتقديم المساعدة لماتيوس كنتاكوزين. قائد

الجيوش وهو يرتب هذه الجمل التي لم تخرج من بين شفتي الإمبراطور حسب رأيه، حرك الإمبراطور شفتيه وقال لرئيس الوزراء:

إن كنت تشعر بأن صحتك قد تحسنت فإنني أريدك أن تعود فورا لممارسة مهام عملك وأن تجد الرسل الثلاثة الذين سيذهبون إلى القرمانيين. سنرسل الثاني بعدما يكون الأول في طريقه إليهم، والثالث بعدما يكون الثاني قد انطلق على الطريق هو الآخر. كل واحد منهم سيكون لديه خبر عن الآخر. سيحددون أماكن اللقاء. وسيعلمون من بعضهم بما يحدث وبناءً عليه سينفذون كذلك طلبات القرمانيين. لكن طرق الذهاب شديد الأهمية. من الأفضل ألا يمروا من أراضي العثمانيين. إن تذهب المعدات من هناك فلن يصيبها أي شيء ولكن ليكن طريق آخر رسول عبر أراضي إمارة إسفنديار الحليفة لنا.

لم يكد الإمبراطور ينهي حديثه حتى قال رئيس الوزراء:

إن كان أحد التدابير هو ذهابهم من طرق مختلفة حتى لا يتم إلقاء القبض عليهم فأنا أرى هذا هو أخطر شيء. ولذا أري يا سيدي أن يسلكوا جميعا نفس الطريق. لنكون قافلة تجارية لكل منهم. وليكن التجار الثلاثة الذين يذهبون بالبضائع التي اشتروها من أهالي جنوة إلى بغداد. ليصلوا معًا إلى أنيرا. وليذهب أحدهم إلى القرمانيين بينما يبيع الإثنان بضائعهم هناك. إن لم يرجع، فليجرب هذه المرة الاثنان الباقيان بالدور.

قال الإمبراطور:

حسن تحدث مع رسلك جيدا عن الخطة التي ذكرتها. ثم أحضرهم إليَّ. إن القرمانيين يتحينون الفرصة للانتقام من العثمانيين منذ فترة طويلة ولكن

لا يخاطرون كثيرا بقدراتهم على القيام بذلك. عندما يصل إلى مسامعهم بأننا سنتحرك الآن أرى أنهم سوف يتحركون من فورهم ضد العثمانيين. ولو استطعنا أن نعقد معهم اتفاقا أقوم أنا أيضا بالاتفاق مع ماتيوس كنتاكوزين حتى انسحاب العثمانيين إلى حدودهم القديمة. في البداية أوجد الرسل الذي سيذهبون إلى حاكم القرمانيين، ثم كن مستعدا للانطلاق. ما إن يأت الخبر من حاكم القرمانيين ستذهب أنت إلى ماتيوس. لأنه لا يمكن أن يقنعه أحد غيرك.

القائد العام كان يجلس متضايقا بعض الشيء لعدم تمكنه من التعبير عن أفكاره وآرائه، وكان ينظر بين الحين والآخر مرة إلى كل من نائب رئيس الوزراء الذي يقوم بتسجيل بعض الملاحظات، ومرة أخرى إلى الإمبراطور. قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي أدرك أنه أفسح المجال له جيدا ليعيش حالة الفراغ التي يشعر بها:

أيها القائد العام، عليك أن تنسى ما فعلناه قبل ذلك، إن الوقت هو وقت بذل الجهد حتى تجعل إمبراطوريتنا قوية مرة أخرى. علينا أن نطرد العثمانيين من جاليبولي إلى الضفة الأخرى مثلما جاءوا بالأسطول من جهة، وبقواتنا البرية من جهة أخرى. هيا قم بإعداد خطة الحرب فورا.

لما سمع القائد العام الجملة الأخيرة، توهم أن نحافة عنقه السميك ذلك الذي يقف وكأنه امتداد لخصره. وبينما يمسك بإحدى يديه قدحه تفحص رقبته بيده الأخرى. ولما أدرك أن رقبته كما هي مستقرة في مكانها أصدر "آهة" من أعماقه.

لما فرغت الأقداح من الخمر نهضوا جميعا على أقدامهم. واثناء قيام نائب رئيس الوزراء بتوصيل الإمبراطور والقائد العام إلى عربتيهما الواقفتين أمام الباب، انتظر رئيس الوزراء في غرفته عودة نائبه رغم الخوف الموجود بداخله.

(٧٣)

كانت معظم الأشجار ذات الأوراق الخضراء التى تُزين الجانب الشمالى لجبل أوليمبيا، عندما ينظر إلى سفح الجبل ترى وكأنها قد فقدت لونها الأخضر الزاهي وكانت كلما اقتربت من القلعة تبدو وكأنها قد تركت أماكنها شيئا فشيئا لشجيرات الورد ذات الأوراق التيجانية (البتلات) كثيفة الأوراق. إن أشجار الورود ذات الأوراق التيجانية التي تحيط القلعة من كل الجهات كانت أيضا قد تناثرت على سفح الجبل ونزلت واختلطت بأشجار الفاكهة المثمرة الموجودة في البساتين التي تزين الأرض المنبسطة الواسعة التي تحتضن جدول نيلوفر. أما جانبا الطريق المُمتد حتى حافة الجدول الذى يجري ماؤه ذو اللون الفضي، فكانت تُزينهما إلى جانب أشجار الكستناء الشامخة أشجار الكرز الحلو والحامض التي كسرت ثمارها الحمراء الكثيرة أغصانها في الربيع. فى الحقيقة إن أشجار الكستناء التي تغار من لون ثمار أشجار الكرز ومن أجل التقليل من شأن تلك الأشجار كانت تقول عنها: "إنهم إخوتنا الصغار الذين يذكروننا دائما فى أى زمان وأى مكان نحن". لكن أشجار الكرز الحلو والحامض والتى تعرف أن أشجار الكستناء طيبة القلب، كانت تضحك على كلامهم مثل الفتيات الصغيرات ذوات الأسنان البيضاء لأنها تعلم أن ما قالته نابع من تكبرها.

كان أورخان غازي يشاهد بين الحين والآخر قرص الشمس الذهبية التي تميل للغروب وهو يشق الطريق على ظهر جواده الأدهم الذي يركض

نحو جدول نيلوفرعلى الطريق الذي تنتشر على جانبيه أشجار الكستناء المتكبرة. ولأن جدران القلعة عالية فإن المساء كان يحل بسرعة على البنايات الموجودة داخل القلعة لأن الجدران كانت تحجب أشعة الشمس وقت الغروب عن القلعة. ولكن الشمس خارج القلعة كانت لا تزال تداعب أوراق الأشجار ذات الألوان المتعددة. أورخان غازي الذي ينظر إلى الشمس التي تميل إلى الغروب من على صهوة جوادة بين الفينة والأخرى لما شرد بذهنه لفترة، بدأ في ضرب جواده الأدهم بالمهماز. لم يلاحظ أنه ضرب الجواد لمدة طويلة إلا حين تعثر الجواد الذى أسرع بسبب كثرة الضرب الذي تلقاه على بطنه. وعندما استعاد أورخان غازي وعيه بعدما تعثر الجواد الأدهم، مد يده وداعب غرة الجواد الممشطة. كما أن الأدهم الذي فهم مداعبة فارسه له، هدأ من سرعته.

عندما وصل أورخان غازي الذي يمتطي جواده الأدهم والفدائيون الذين يسيرون من خلفه على بعد مسافة معينة من حمامات الاستشفاء التي شيدها جوستانيوس إمبراطور روما الشرقية العظيم الذي غير قوانين روما من أجل زوجته تيودورا، حتى تأتي من القسطنطينية من آن لآخر للاستجمام فيها، كانت نيلوفر خاتون قد استدعت الجوارى والخادمات إلى جوارها وكانت تصفق بيديها. وبينما تجمعهم إلى جوارها شيئا فشيئا نظرت مندهشة إلى تحول لون المياه الفضية للجدول الذي يسمى باسمها إلى شكل أحد الحبال الحمراء بسبب تسلل الضياء الأحمر للشمس وقت الغروب، وتحوله بعد ذلك إلى لون الزمرد الأخضر الداكن. شاهدت تطاير أحد الأوراق الجافة في الهواء. وضعت يديها ذات الأصابع الطويلة على وجهها وبينما تستمع إلى

سكون الطبيعة حدثت نفسها قائلة: " لقد تأخر أورخان ولكن الإصغاء بمفردي إلى هذا الهدوء جيدًا بالنسبة لي...أعطى عقلى القوة، وقلل تمردى". نظرت إلى الحمامات المعدنية التي شهدت حكايات ألف ليلة وليلة للإمبراطورة تيودورا التي تتحدث عنها الأساطير المكتوبة باللغة اليونانية وكأنها قد شعرت بمجيء أورخان غازي. فى هذه الأثناء سمعت صهيل الأدهم، دق قلبها وشعرت بالفرحة والسعادة. وتحدثت وكأن قلبها سيخرج من صدرها قائلة: " شعور مثل شعوري بالفرح عندما رأيته لأول مرة عند رجوعه من الحرب...". ومن خلفها قال أحدهم بصوت عال:

القائد أورخان قادم.

أما الجوارى والخدم المُحيطون بها والخدم الذين سمعوا ما قاله لما وقفوا فى أماكنهم دون أن أية حركة، كان قد تجمد كل شيء واكتنفه الغموض المغلف باللمعان المتوهج كما هو الحال في الحكايات.

قاد أورخان غازى الذى خرج بجواده من بين الأشجار جواده نحو المكان الذي توجد فيه نيلوفر خاتون. وبينما يقترب الأدهم من الأميرات والجواري وخدم القصر إلى المكان المستوى الموجود على شاطئ جدول نيلوفر مباشرة الذي ينتظرن فيه الأمير، كان الحرس والمراقبون في الخلف قد اختفوا بين الأشجار الضخمة حيثُ مكان إعداد الطعام.

جاء رئيس الطهاة الذى تلقى خبر مجيء أورخان غازى مُسرعا إلى نيلوفر خاتون. وسألها عما إذا كان سيتم تناول الطعام تحت ضوء القمر أم لا. ذهبت نيلوفر خاتون بسرعة إلى جانب أورخان غازي الذي يتحدث مع كل من السيدتين تيودورا وهولوفيرا على بُعد قريب وسألته قائلة.

هل ترغب فى تناول الطعام تحت ضوء القمر هذا المساء أم سنعود إلى القصر؟

أورخان غازي لم يكن قد فكر في ذلك قط أثناء مجيئه، قال وهو يخلل لحيته البيضاء القصيرة بأصابعه الطويلة:

لا أدري افعلي ما ترينه مناسبا يا نيلوفر خاتون، سأخرج للحرب قريبا، لا أدري كيف سيكون الجو عندما أعود... تعال لنتناول طعام هذا المساء هنا...

قالت نيلوفر خاتون: كنا ننتظر مجيئك وإلا كنا قد عدنا منذ فترة. ولكن مادمت ترغب بذلك فلنجلس تحت ضوء القمر هذا المساء. ثم عادت إلى كبير الطهاة وقالت له أعد الصواني وأحضرها إلى هنا. وبينما يذهب الطباخ مسرعا، قال أورخان غازى الذي يجلس على البساط المبسوط على العشب الأخضر:

يا أسبورجه! هذا المساء، لن تحرمينا من صوتك الجميل الذى تحرميننا منه منذ زمن بعيد.

وفي الحقيقة كانت كل من إسبورجه ومن بعدها كذلك تيودورا اللتين قامت نيلوفر خاتون بتربيتهما بشكل جيد، تديران قصرها على أكمل وجه إذا ما ألم بها أي شيء. كانت في البـــداية تعمل على ابعاد أسبورجه فى أول أيام مجيئها، ولكن بعدما اقتربت منها وتعرفت عليها صارت وكأنها قطعة منها. أما تيودورا فكانت تنظر إليها كإحدى بناتها. وكانت قد عاشت أكبر صدمة في حياتها عندما علمت برغبة أورخان في الزواج من تيودورا الشابة

اليافعة الجميلة ابنة يوحنا كنتاكوزين حينما فقد أورخان غازي العجوز صوابه. لكنها كانت مجبرة على القبول بذلك على أساس أن هذا كان شيئا عاديا في حياة الأمراء والملوك في النظام العالمي في ذلك الوقت. في البداية كانت إسبورجه عندما تنظر إلى تيودورا القادمة من القصور البيزنطية مثلها كانت تشبيها بالمنديل الملوث. ولكن مع مرور الوقت تقبلت تيودورا مثلما تقبلت هي الأخرى نيلوفر خاتون. وكانت قد صارت كل منهما فيما بعد صديقتيها الحميمتين.

تعمقت رحلة استغراق نيلوفر خاتون إلى الماضي التي بدأت بإفصاح أورخان غازي عن رغبته في سماع صوت إسبورجه، بدرجة كبيرة مع سماعها غناء أسبورجه. بدأت تسترجع في ذهنها من جديد اليوم الذي جاءت فيه عروسا للعثماني وهي تستمع لعزف الجاريات وإلى الأغنية التي تنشدها إسبورجه. قالت وهي تبتسم: "كان أورخان غازى على جواده الأدهم عندما تم عمل طوق حول موكب العرس. لقد تملكني شعور بالرعب والهلع عندما سمعت صوت الأمير عثمان الذي خرج من منخره وسعدت جدا عندما شاهدت وجه أورخان. وبدأت نظراتى وقلبى بالانجذاب نحوه.". قال عثمان غازى:

يا ولدي! أنت أحق بهذه العروس الجميلة من الحاكم البيزنطي من الحاكم البيزنطي العجوز الذي على وشك الموت. لتكن زوجتك. أما أورخان الذي لم يعص له أمرا فلم يرد كلامه. عندما عدنا إلى خيام الإمارة صارت مال خاتون هي من يحبها حقا. أقيمت ولائم العرس أربعين يوما بلياليها. ثم راحت تستمع من جديد إلى صوت أسبورجه الشجى الحنون. ولكن هذه المرة أيضا، كان جدول نيلوفر وكأنها ينادي. التفت وعندما نظرت إلى الجدول

شعرت وكأن الجدول أيضا يهمس إليها قائلا: " منذ اليوم الذي قمت فيه ببناء ذلك الجسر استبدلت اسمي أُدْرِيسَس الذي استمر لعشرات السنوات باسمك أنت!". عندما سطع ضوء القمر وأضاء المكان، ولما سمعت إحدى أغنيات الشباب التي تنشدها أسبرجه خاتون باللغة اليونانية شاركتها الغناء على الفور. أراد أورخان غازى المبتهج، الذى سمع صوتيهما المتآلفين مع بعضها الانضمام إليهما، إلا أنه تراجع عن ذلك معتقدا أن غلظة صوته سيفسد راحة زوجته الجميلة. لما سكتت أخذ يدى نليوفر خاتون بين يديه وقام بمداعبتها. خرجا من خلف جبل الراهب وهما يمسكان بيد بعضهما واتجها بخطوات مسرعة وهما يتأملان جدول نيلوفر، سحرهما هدوء المساء الذي حقق لهما الانسجام العاطفي وكذلك البدر الذي سطع واستمر في سطوعه وصوت أسبورجه خاتون الجميل الذي تداخل مع خرير مياه الجدول ولم ينفصلا عن بعضهما إلى أن توقف الغناء. توقف الصدح بالأغاني وبينما يواصل البدر طريقه أمسك أورخان غازي بيده الضخمتين يدى نيلوفر خاتون ونهض على قدميه. لما نهضت السيدات والجواري والخدم قال لهم:

اتبعونا جميعًا وسار بين أشجار الفاكهة حتى شاطئ جدول نيلوفر وبعد أن استمعوا لفترة إلى خرير مياه الجدول التي حولها البدر بضيائه الشديد إلى اللون الفضي قال لهم هيا أنشدوا الأغاني مرة أخرى من أجل مياه الجدول ثم جلس على العشب. شرد عقل نيلوفر التي تجلس إلى جواره مرة أخرى إلى الذكريات قائلة: "كنا فى الثلاثينيات من عمرنا. نقود جيادنا ونصل إلى شاطئ الجدول في لمح البصر. كنا نربط الجياد في الأشجار وعند مجيئنا إلى شاطئ الجدول ممسكين بأيدي بعضنا مثلما نحن الآن كانت تفوح رائحة

زهور اللوتس من كل مكان. وكأن زهور اللوتس كانت قد هطلت من السماء على الجدول في ذلك العام. خلع أورخان حذاءه ونزل الماء، قطف زهرة من زهور اللوتس التي تمتد من الشاطئ حتى وسط الجدول من بين الأوراق ورجع. مازحني وهو ينظر إلي قائلا: "لنر أيهما أجمل نيلوفر حبيبتي أم (نيلوفر الجدول) زهرة اللوتس؟". ثم أخذ ينظر إليّ مرة وإلى زهرة زنبقة الماء مرة لعدة دقائق. قال وهو يعطيني زهرة اللوتس: "هذه لكِ، جميلتى نيلوفر أجمل". أنا أيضا أخذت يده ووضعتها على بطنى وملت على أذنيه وحينما أخبرته بأنني حامل طار عقله من السعادة. ومن أجل مشاركته فرحته الجنونية هذه قلت له: "بعد اتمام الوضع أريد أن أقيم جسرًا على هذا الجدول المجنون".

لما غاصت نيلوفر في الصمت على هذا النحو قال أورخان غازي الذي يمسك بيدها: "عندما كنا نسرع بالجياد مع أبي متنقلين من قلعة إلى أخرى في السنوات الأولى، كنت لا أستطيع الابتعاد عن حبيبتي نيلوفر فى ذلك الوقت. ولم يكن هناك ثمة وقت للتعرف عليها أو على الأقل أُعَرِّف نفسى لها. كنت أضيف إلى المهام التي كلفني بها والدي النصائح التي قالها جدي، وبعد ذلك كنت أستخلص منهما الدروس والعبر. ولكن مهما استخلصت منهما من العبر والدروس كانت هي نفس النتائج التي أتوصل إليها. كنت أريد الاستيلاء على القلاع كما يرغب الآخرون تماما فى الحصول على الأموال والملك. كانت الأغنام والخيول والبقر تزيد عن طريق التناسل. بيد أن القلاع لم تكن كذلك، لا تتزايد إلا بالاستيلاء عليها. كنت أستمتع بالاستيلاء عليها ليزداد عددها، لا سيما وأنه لم يكن لدىّ أي خيارُ

آخر. فهم كانوا يضيفون فرحة على فرحتى. لاسيما وأن كل المحيطين بي كانوا يضيفون سعادة إلى سعادتي وهم يقولون بأنه تم اختياري للاستيلاء على القلاع. لا سيما جدي أدب على، الذي كان وكأنه إلى جوارى. وفي الأوقات التي لم أكن أخوض فيها الحروب كانت أوقاتي التي أقضيها إلى جانبه أكثر من أوقاتي التي أقضيها مع نيلوفر. فى السنوات الأولى لم أكن أبتعد عن أمى كذلك. وفى تلك الآونة لم أكن أستطيع أن أعي ما يقوله لى جدى وما تقوله والدتي لنيلوفر بأننا بلغنا وبأنه علينا أن نمارس حياة الأزواج حتى ننجب. أحيانًا عندما كنت أذهب إلى جانب أمي وكانت تقول لى: " لما يبلغ بعد". لم أكن أفهم ما الذى لما يبلغ بعد، ولكن كنت لا أسأل أمى عن أى شيء. ذات يوم أجلستني أمى أمامها ولما قالت لى: " فليكن معظم وقتك من الآن فصاعدا إلى جانب نيلوفر وليس إلى جانبي فهمت ما هو النضوج. واستغرق في أفكاره. ولما أدرك أن نيلوفر بصمتها الرهيب هذا قد تذكرت اليوم الذي أخبرته فيه بأنها حامل في سليمان قام بشدها من يدها التي يمسك بها ونهض. وقال وهو ينظر إلى وجهها:

نشكرك يا ربنا يا من قدرت لنا أن نعيش أكبر الآلام حتى تختبر مدى قدرتنا على الصبر. ثم التفت إلى نيلوفر خاتون وقال هيا لنذهب.

(٧٤)

إن تكاثر السحب يوما بعد يوم فوق القسطنطينية، كان يزيد مخاوف الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس على الرغم من كل التدابير التي اتخذها. إن عدم عودة الرسل الذين أرسلهم إلى قلعتي بيجاسي الموجودة على الشاطئ المقابل لبحر مرمرة وهراقليا بنوتيقا الموجودة على شاطئ بحر مرمرة حتى الأن كان يؤرقه كثيرا، وكان وهو في حال الضيق التي تنتابه يضغط باستمرار على رئيس الوزراء. أما رئيس الوزراء الذي اضطر إلى القيام بمهام وظيفته قبل أن يتعافى تماما من مرضه كان قد مل وسئم من البحث عن القائد العام الذي لم يأت للقائه مختلقا الأعذار باستمرار. كان كلما أرسل لأي مكان لاستدعائه عرف بأنه موجود في مكان آخر فإن بحث عنه في البحر يقولون على البر، وإن بحث عنه على البر يقولون بأنه في البحر. كان قد ندم أشد الندم لعدم التحفظ عليه بالقوة في قصر رئاسة الوزراء مساء ذلك الاجتماع، لكن لأنه قد فلت الأوان وقد سبق السيف العذل فلم يكن بمقدوره فعل شيء. وإن كان قد ارتاح بصفة مؤقتة عندما قرر إخبار الإمبراطور بالوضع الصعب الذي يمر به، فإن تفكيره في "بماذا يمكن أن أجيب عن سؤال أين كنت حتى الآن... " كان يشل حركته، ولم يكن يستطيع أن يشرح الوضع للإمبراطور بأي شكل من الأشكال.

لما نفد صبر الإمبراطور الذي كان يراقب طريق رئيس وزرائه كل يوم من قاعة مكتبه التي خرج منها بخطى سريعة وركب عربته التي تنتظره على أهبة الاستعداد باستمرار في فناء القصر قال لقائد العربة:

هيا إلى قصر عمل رئيس الوزراء.

قائد عربته الذي يفهم جياده جيدا أكثر من لغته، أوقف جياده التي وصلت أمام قصر عمل رئيس الوزراء بفقع السوط عدة مرات. إن الإمبراطور الذي نزل وهو يقفز من العربة على الفور سار وكأنه يطير نحو قاعة مكتب رئيس الوزراء. خلال هذه الفترة كان مراسلو رئيس الوزراء قد أخبروه بمجيء الإمبراطور. رئيس الوزراء كان محتاطا لأنه كان يتوقع منذ زمن طويل بأنه سوف يصيبه الأذى بسبب الآخرين. خرج على الفور أمام باب قاعة المكتب بخبرة السنين وبهدوء واستقبل الإمبراطور في الردهة. خلال ذلك أرسل إلى الخدم الموجودين في المبني الخلفي ليحضروا شراب تريستاسيس المعتق.

كان الإمبراطور يمشي في الردهة وكأنه يدفع الهواء الموجود حوله، وكأنه لم يكن يكتفي بالهواء الذي يتنفسه من أنفه، وكان زفيره كما لو كان سيشعل الهواء. رئيس الوزراء الذي يعلم جيدا أن هذا المجيء ليس مجيئا عاديا، كان ينتظر الإمبراطور بالصبر الذي انتظر به باريس الذي علم جيدا أنه سيكون هدفا لمرمى أخيليوس.

وربما كان الشيء الوحيد الذي تعلمه من كنتاكوزين السادس هو كيفية الوقوف في مثل هذه الأوقات. إن كان قد غضب بعض الشيء لذكر كنتاكوزين، فإنه فكر في عقله قائلا "الفكرة جميلة مهما كان صاحبها". انحنى وأثناء إلقائه التحية على الإمبراطور الذي اقترب أشار بإحدى يديه إلى القاعة الرسمية المفتوح بابها، فإنه بإشارة اليد تلك تم بطريقة أو بأخرى، تهدئة الإمبراطور الذي سيطر غضبه على عقله حتى ذلك الوقت. فكر وهو يخطو

خطوة نحو الباب قائلا "ليس من اللائق أن أوبخه أمام الجميع". ولم تكد قدمه تخطوخطوة واحدة من العتبة إلى الداخل، حتى لاحظ أن أحد الخدم الذي أدار ظهره إلى الباب داخل القاعة، وبينما يمسك نفسه بصعوبة حتى لا يصرح في وجه رئيس الوزراء الذي أغلق الباب، حدث نفسه قائلا " لأنتظر حتى يخرج الرجل". ولما كان الرجل كان يتحرك ببطء شديد، بدا وكأنه يتلكأ أكثر من اللازم ومشغول بإضاعة الوقت أكثر من إنجازه العمل. الإمبراطور الذي أدرك أن صبره قد نفد وأنه لم يعد قادرا على التحمل، وفي الوقت الذي كان ينظر فيه إلى الخادم ليأمره بالخروج من القاعة، فإن الخادم الذي استدار نحوه بالصينية الموجودة في يده، مد الصينية الفضية الموجودة في يده نحو الإمبراطور الذي شاهد القدح المطلي بالذهب المملوء بالشراب والذي يقف في وسط الصينية، ثم فكر قائلا "قدح واحد أمر جيد". تجرع عدة جرعات متتالية من الشراب الموجود في القدح. استحسن مذاق الشراب. شرب الشراب الموجود في القدح عن آخره. الخادم الذي رأى أن القدح صار فارغا ملأ القدح مرة أخرى ومشى بخطوات متتالية وسريعة واختفى خلف أحد الأبواب الجانبية المفتوح على القاعات الداخلية. الإمبراطور الذي شرب نصف القدح أثناء انتظاره خروجه من القاعة، كان قد لاحظ أن الشراب الذي ابتلعه قد ابتلع نصف غضبه. وهو ينظر بنظرات معبرة إلى وجه رئيس الوزراء، ثم حدث نفسه قائلا "تعرف كيف تمتص غضبي" وبعد أن تجرع جرعة ثانية قال:

ماذا يحدث يا أليكسيوس، أين القائد العام؟ تجيب عن كل الأسئلة التي سألتها قائلا بأنك تنتظر الخبر من رجاله. ألا تعلم مدى أهمية كل يوم يمر؟

مسح رئيس الوزراء بظهر يده عينيه المتورمتين والمتهدلتين وارتشف جرعة من الشراب من قدحه شبه المملوء الموجود على منضدته في كل الأوقات. وقال بصوت منخفض:

يا صاحب العظمة! عيناي لم تذق طعم النوم منذ عدة أيام لكن في الوقت الذي ساءت فيه الظروف والأجواء بدرجة كبيرة فإنني أيضا من قلة الحيلة لا أستطيع فعل أي شيء غير التألم والتحسر. لم أستطع الحصول على أي خبر من الرسل الذين أرسلناهم إلى القلاع وكأن الأحوال الجوية التي ساءت فجأة عندما أرسلنا السفن لم تكن كافية.

كان الإمبراطور عصبي المزاج جدا لعدة أيام سواء أكان في مكتبه، أم كان بجوار إيلينا، لكن لم يكن قد وضع ضمن حساباته العاصفة الموجودة في البحر قط. جلس على المقعد الكبير الموجود عند الطرف الأمامي للمنضدة وهو ينظر مندهشا إلى ملابس رئيس الوزراء السوداء. ثم قال وهو ينظر إلى الأرض:

لم أضع العاصفة في حسباني قط.

أخذ رئيس الوزراء نفسا عميقا بعد أن اطمأن لهدوء غضب الإمبراطور من خلال الجمل الأولى التي قالها ودون أن يشعره بذلك. وقال بتعبير قلق يعكس القلق الموجود على وجهه:

لدينا مشكلة أخرى يا صاحب العظمة، لم أستطع إيجاد أية وسيلة لنتمكن من حلها...

خيرا، ما هي تلك المشكلة؟

القائد العام... لا أعرف أين هو. في الوقت الذي كنت سأتي إليكم لأسألكم أين هو، سألتم أنتم يا سيدي.

بالرغم من عدم القول بأنها فرصته الوحيدة، فهذا يعني أنه لن يخبر بمكانه...

فم الشخص ليس جرابا، وفقا لما نما إلى مسامعي من هنا وهناك أنه كان على تواصل أيضا مع ماتيوس. أخشى حدوث شيء سيىء يا سيدي!.

وهو كذلك لا تقلق سأمر بالعثور عليه فورا. ولْنر هل سيفهم ماذا سيكون في حال عدم وجود جيشه الذي سيقوده؟

رئيس الوزراء كان قد شعر براحة كبيرة بإحالته موضوع القائد العام الذي يبحث عنه منذ بضعة أيام للإمبراطور. صدرت من أعماقه زفرة ألم وهو يبلع باشتهاء كبير شرابه الذي ينزلق من فوق لسانه وكأنه كان يشرب على شرف المشاكل التي قام بحلها. وحدث نفسه قائلا: إذن جاء ولكن لم يستطع القول. ثم قال هو يبتسم دون أن ينظر إلى الإمبراطور:

أتممنا استعداداتنا من أجل القيام بدفع المخصصات الكافية من خزانة الدولة كما قلتم. الشكر للرب على رخاء بيزنطة. الشكر للرب على رخاء قسطنطينيتنا. الشكر للرب على حب وعطاء شعبنا...

رفع الإمبراطور يده إلى الهواء قائلا:

ليفعل الشعب ما يريد. المهم يا أليكسيوس ألا يلحق بنا الضرر كما قلت.

رئيس الوزراء فهم على الفور الشيء الذي يُلَمِّح إليه. في الحقيقة كان يريد أن يسير الكلام في هذا الاتجاه. وكأنه استمرار للجمل السابقة التي ذكرت قبل قليل، قال:

الشكر للرب على ثراء إمبراطورنا، الشكر للرب على الفداء والعطاء العظيم لكل من قادة قلاعنا وكونتاتنا الأوفياء المخلصين، الشكر للرب على ربح تجارنا، الشكر للرب على كثرة بحارنا، الشكر للرب على إرسال الرياح الكثير إلى مراكب أهالي جنوة الشراعية...

ابتسم الإمبراطور عندما أدرك أن كل كلام رئيس الوزراء كان عن الآخرين ولم يتحدث عن نفسه بأي شكل من الأشكال. حدث نفسه قائلا " على الرغم من اتخاذنا الكثير من التدابير، أم هل مسألة ذاك السمك صحيحة؟" نظر إلى رئيس الوزراء الذي لم يتحدث بأي شكل من الأشكال عن غرفة خزانته الشخصية، وقال:

وهو كذلك، في الأغلب سوف يسقط جزء من البركة التي ذكرتها على غرف خزائننا كذلك.

قال رئيس الوزراء بتجاربه وخبراته:

بالقطع سوف يضاف ربع خزانة رئيس وزرائنا إلى هذا المبلغ... ولكن إذا ما تم وضع اليد على خزائن القائد العام لن يكون هناك أية حاجة كي نأخذ من خزانتي أو من خزانتكم يا صاحب العظمة.

إلى هذا الحد توجد أموال في خزانة القائد العام؟

إن ذلك هو سبب هروبه واختبائه. إن لم يكن بسبب المال، كان بسبب الخوف على حياته، كان قد ذهب إلى ماتيوس منذ فترة. حسنا كان لا يريد أن يقع في يده، ولكن لم يُشاهد حتى الآن أي إنسان قد مات من الكذب، يا صاحب العظمة...

نظر الإمبراطور وهو يقترب من رئيس الوزراء إلى قدحه شبه المملوء، وكأنه ندم على تجاوزه لغضبه عليه في فترة وجيزة لهذا الحد. وقال بهدوء الذي منحه إياه الشراب الذي شربه قبل قليل:

أنا سأذهب وسأمر بالبحث عن القائد العام وسأجعلهم يعثرون عليه. وبمجرد العثور عليه سوف أرسل لكم لأخبركم بذلك. أنت كذلك بمجرد انتهاء عملك تعال إليَّ. لنفهم في البداية ما هي مشكلته، وبعد ذلك نقوم بعمل اللازم.

رأى رئيس الوزراء وهو ينظر وكأنه يقول" ولا يستطيع كلانا العثور عليه ولسوف أتمكن أن إنهاء عملي وأتي إليكم" إن الإمبراطور وضع قدحه الموجود في يده على الطاولة. أعتقد أن الشراب كان مفيدا في تحقيق الهدف المرجو، فسأله بسرعة قائلا:

ألا تريدون كأسا أخرى يا صاحب العظمة؟ على الرغم من أنها ليست من عاداته قط، فإنه نهض من فوره وملأ القدح من الشراب الموجود في الإبريق. أوقفه الإمبراطورا قائلا:

لا أنا سأقوم، يجب أن أعثر على القائد العام قبل حلول المساء. وبعد ذلك يجب أن نعلم ماذا يحدث أيضا... يجب أن نعلم وضع الأسطول وكذلك وضع جميع قلاعنا... وفي الواقع أنه لا يوجد في الأناضول قلاع تستطيع

تقديم الدعم والمساندة لنا سوى قلعتي بيجاسي وهراقليا بنوتيقا. توجد أيضا فلاديلفيا ولكنها مثل الجزيرة بين أراضي الإمارات الموجودة هناك. في الواقع، يجب عدم انتظار الدعم منهم...

لما نهض الإمبراطور على قدميه من أجل الذهاب نهض رئيس الوزراء هو الآخر. وبعد أن ذهب بصحبته حتى الباب الخارجي لتوديعه رجع ببسمته الحزينة الموجودة على شفتيه... ولما بدأ مباشرة العمل على منضدته الكبيرة مرة أخرى سقطت من عينيه قطرتان من الدموع. ارتعد جسده مرتجفا. بينما ينظر إلى دموعه التي سقطت على الورقة الموجودة على المنضدة المصنوعة من خشب الجوز، جال في عقله لفترة تفكيره الذي يقول " هل من أجل بيزنطه أم من أجل آل باليولوج، أم من أجل نفسي؟" ولما أدرك بعد فوات الأوان أنه لن يستطيع العمل أكثر من ذلك في ذاك المساء، تمالك نفسه بسرعة ومشى نحو قصره الموجود في الناحية الجانبية. بعدما خطا عدة خطوات في الفناء الجانبي للحديقة عاد بخطى سريعة وكأنه قد خطر بباله شيء ما. قال للمراسلين الموجودين في غرفهم " إن جاء خبر من الإمبراطور أخبروني فورا سأكون في القصر". وأثناء سيره ثانية نحو قصره تذكر ابنه أحد قادة حرس الإمبراطور وابنته التي هي زوجة قائد حرس قلعة هراقليا بنوتيقا وأم طفلين. وأثناء قوله " كم أنا في مسيس الحاجة للحديث معهما الآن. ليتهما كانا في القصر وياليتنا كنا نتبادل الحديث" ولما تذكر والدة أولاده الكبار التي توفيت قبل سنوات دخل قصره وهو يقول " في الحقيقة إنني في حاجة للحديث معها". لما دخل قصره ولسبب ما شعر بأنه شديد الاتساخ. وبأمل في التخلص من أوساخه، طلب من خدمه ملء حوض

استحمامه الرائع المصنوع من النحاس بالماء. ودخل حوض الاستحمام فور امتلائه بالماء الدافئ.

عندما دخل رئيس الوزراء الماء الدافئ أسرع الإمبراطور يوحنا باليولوج باستدعاء قائد حرس الإمبراطورية إلى غرفته، وأمره قائلا:

أريدك أن تعثر على القائد العام خلال ساعتين. أرسل رجالك إلى كل مكان واعثر عليه قبل منتصف الليل وأحضره.

أما قائد حرس الإمبراطورية الذي لم يتلق أمرا صعبا لهذه الدرجة حتى هذا اليوم قط، فإنه أرسل الخبر إلى كل نوابه قائلا:

اعثرو على القائد العام حتى ولو كان مختفيا في نار جهنم.

الفرسان الذين تلقوا أمرا صعبا كهذا، أنجزوا جزءا من المهمة. وقع على عاتق ابن رئيس الوزراء أحد قادة الحرس مهمة تفتيش بيت القائد العام. بمجرد تكليف أريامانتوس بالمهمة وأثناء تحركه على الفور بالذهاب إلى قصر القائد العام كريلينادوس قال لفرسانه:

كل من يحاول الحيلولة دون دخولكم القصر لا تبقوا رأسه فوق عنقه، ثم قاد جواده.

(٧٥)

أورخان غازي كان يرى القدوم المفاجئ للبرد بأنه ليس بشير خير، وأنه سيكون سببا في تأخير الحملات التي كانت سيتم القيام بها قبل حلول الشتاء وبأن هذا التأجيل لن يكون في صالح الإمارة. وكان في الكثير من الأوقات التي يخلو فيها بنفسه يشخص بناظريه إلى مكان محدد ولم يكن ينظر إلى أي مكان آخر، كالذي تملكه خوفا ما مخفي بداخله. وهكذا بينما كان على هذه الحال ظل لأيام يردد باستمرار قائلا " كل شخص يقول بأن شدة الرياح أقوى في الارتفاعات ولكن لا يعلم بأنها تخفي شدتها الحقيقية على الأرض". وكان بعد كل مرة يقول فيها ذلك يتحسر على شيخوخته قائلا "بينما يوجد لدي الكثير من الأعمال الواجب إنجازها، نقصت الأعمال التي سأقوم بها".

كان الأمير مراد الذي كان حزينا جدا في الأيام التي أمضاها والده في التحسر على شيخوخته، يريد الانطلاق في أسرع وقت من أجل اللحاق بشاهين بك الذي انطلق بقواته من بورصه منذ عدة أيام إلا أنه لم يكن يستطيع الحصول على موافقة والده بأي شكل من الأشكال. أما الأمير مراد الذي انشرح صدره كثيرا عندما اُتخذ القرار بانطلاقه في اجتماع الديوان المصغر الذي شارك فيه نيابة عن والده فقد ذهب إلى القصر فور انتهاء الاجتماع مباشرة. عندما شاهد والده ينظر شاردا إلى الشمس الساطعة من نافذة الغرفة الواسعة وهو يقول :" ها قد أفلت أنا ها أنا أفل (أغرب). قال الأمير:

لم أكن أرغب في إزعاج والدي. ووضع إحدى يديه على الأخرى وصمت.

استدار أورخان غازي نحوه وقال:

ليكن اليوم الذي أشرق مباركا يا ولدي، كان يجب عليك أن ترتكب خطأ من سبّب لي إزعاجا. منذ متى كان المجيء لزيارة الوالد خطأ يا ولدي؟ هل تعلم فيما كنت أفكر وأنا أنظر إلى الشمس الساطعة؟

قال الأمير مراد:

من ذا الذي يستطيع أن يعرف السر الذي لم يفصح عنه أبي.

قال أورخان غازي وهو ينظر إلى ولده بفخر:

كنت أفكر في تلك الأيام الأولى التي جمعتني بوالدتك. كنت مع والدي الذي اعتدل على صهوة جواده مثل قطعة الرخام والذي كان ينظر إلى القلعة بكل طمعه. جنودنا كانوا قد دخلوا القلعة وكنا تقريبا قد سيطرنا عليها ولكن غضب والدي وطمعه الذي زاد كثيرا جدا، تجاوز الحد لم يخفف من حدة الهجوم بأي شكل من الأشكال، وكان لا يصدر أي أمر للمهاجمين بالتوقف عن الهجوم. كان القادة وأعمامي والقادة يدعون من أجل أن يهدأ غضب والدي. إلا أن أحدا منهم لم يكن يجرؤ على أن يطلب من والدي إصدار أوامره بإيقاف الهجوم. عندما التقت عيني بعين والدتك التي كانت ترتدي ثياب العرس لاحظت أنها تتألم من أجل من هم بالقلعة. وعندما حمسني الحزن الموجود في نظرات والدتك، اقتربت أكثر من والدي الذي أضفى بياض عينيه الواسعتين إلى محياه الأسمر بهاء فنار البحر وقلت له:

ليس من اللياقة أن أتحدث أمام أبي في حضور الكثير من الأبطال والأمراء، ولكن على أية حال، فإن قلب والدي الذي يرى أن تصير هولوفيرا خاتون عروسا لن يرضى قلبه بأن يجعلها تعاني أكثر من ذلك. بعد أسر كل حكام القلاع البيزنطيين وكذلك قادة القلاع والحراس الذين قدموا للمشاركة في العرس أطلب منكم أن تعفوا عما بقي من النساء والأطفال والشيوخ من أجلها.

وبينما كنت أظن أن غضب والدي سوف ينفجر غاضبا في وجهي، لم أستطع أن أصدق عيني عندما رأيت تلاشي آثار الغضب الموجودة على وجهه. لما تقدم بجواده خطوة نحو جوادي وفي الوقت الذي كنت أفكر فيه قائلا: "يقترب بوجه هادئ على هذا النحو نحو عدوه، ثم يغرس سيفه في صدره فجأة في الوقت الذي لم يُتوقع منه هذا". قال والدي:

يا ولدي إن الغضب مثل الريح العاصفة. ستنتظر ذهابه على النحو الذي جاء عليه، وإلا سوف تعاني الآلام أنت بدلا من الآخرين. كل ما أريده الآن، أن أمر بهدم جدران قلعة يار حصار من أساساتها. ولكن سلمت لك إحدى الأرواح التي أخذتها من هنا قبل قليل. من الآن فإن سكان تلك القلعة صاروا على صلة قرابة لنا من جهة ما. حفظك الله لأنك تذكرت ذلك. هيا إذهب وأبلغ الفرسان بأن يخرجوا من القلعة. فرحت وكأني سأطير إلى السماء من شدة سروري الذي سيطر على مشاعرى التي ستنفجر من عروقي بسبب ارتفاع حرارة دمي وحيويتي وشبابي. انحنيت له وبمجرد أن ابتعدت من أمامه ضربت جوادي الأدهم بالمهماز... كان أول جواد لي أدهما مثل جوادي الأدهم هذا. لما وصلت إلى جانب القادة أخبرتهم بأن تطلق الأبواق من أجل إيقاف الهجوم. وبينما كانت تطلق الأبواق أصواتها من ناحية، كان

رجال أقجه قوجه أوغلو من ناحية أخرى يصيحون بأعلى أصواتهم من فوق أبراج القلعة قائلين: انتهى الهجوم. ولما ترك مقاتلونا القلعة قيل للأهالي الذين تجمعوا في الميادين ارجعوا إلى بيوتكم. وبعدما وعدت حماي الذي هو الحاكم البيزنطي بالقسم له بأنه لن يتم خيانته والهجوم عليه مرة أخرى تم تسليم القلعة له. لكن تم أسر كل الحراس العصاة الموجودين بالقلعة وكذلك كل الحكام البيزنطيين ورجالهم الذين جاءوا للمشاركة في العرس. بعد ذلك تم أخذ كل أصحاب الحرف وتم توطينهم في بورصه. في البداية عارض أهالي بورصه ذلك ولكن صار قبولهم بهذا الأمر سهلا لما علموا أن حياتهم ستصير أيسر وأفضل بفضل مهارات هؤلاء الصناع والحرفيين. يا ولدي إن ما أريده من كلامي هذا، هو أنك إن كنت ترغب في إقامة إحدى الدول الكبرى يجب عليك أن تكسب رضاء البشر الذين يعيشون على الأراضي التي تستولي عليها. سعيت إلى تحقيق هذا في القلاع التي استوليت عليها حتى يومنا هذا، ولكن ما أراه الآن، أن الزمان الذي هو سيدنا جميعا يهمس في أذني بأن أقول لك هذا، لأن إقامة دولة لا يحتاج عمرا واحدا بل يحتاج أعمارًا طويلة. قال الأمير مراد الذي فهم جيدا ما قاله والده، وهو يميل برأسه مصدقا على ما قاله والده:

والدي القائد الذي يعلم أكثر مني، عمر الكثير من البشر ليس أكثر من قطرة في محيط الزمن. بيد أن عمر والدي القائد هو بحيرة كبيرة لم تختلط بالمحيط.

أُعجب أورخان غازي من الجملة التي قالها ابنه. وقال وهو ينظر إليه بإعجاب:

أنت على صواب يا ولدي يا مراد. أنا مهما وقفت مثل البحيرة التي لم تختلط بالمحيط، حتما سيأتي سيل الزمان يوما ما ويضيفها إلى المحيط. ومر وجلس على الوسادة الموجودة في الزاوية الرئيسية.

قال الأمير مراد لوالده الذي جلس صامتا على الوسادة:

والدي القائد، لقد اتخذ الديوان القرار اليوم بذهابي خلف مربيَّ... أريد الاستيلاء على أنيرا قبل حلول الشتاء وأن أقيم مشتى لجنودنا. إن أذنتم لي فإنني أرغب في اللحاق بالمربي شاهين باشا قبل أن يحاصر أنيرا. وبعد الاستيلاء على القلعة سأشيد جسور الصداقة والمحبة مع آل جندر كما ترغبون.

لما شاهد أورخان غازي حماس ولده، قال:

لتعلم يا بني أن أكبر معضلة هي اعتقاد قيلتش أرسلان القرماني أنه يمتلك السيف والأرض حتى الآن. مع أنهم ليسوا سوى فرقة من فرق السلاجقة الذين انقسموا إلى عشرات الفرق. لأن هذا ينبع من عدم معرفة الحقيقة وكما كان يردد والدي كل وقت قائلا: "غضبه وطمعه متلازمان". ضع في حسبانك دائما بأننا سنقوم بتصفية حسابنا معهم إن عاجلا أم آجلا.

قال الأمير مراد:

يا ولدي القائد، ترى كيف تنظر إلى هذا الموضوع في المستقبل؟

حك أورخان غازي لحيته القصيرة التي غلب عليها الشيب بأصابعه الضخمة. نظر إلى وجه ولده وبعد أن حدث نفسه قائلا: " كم هي نظيفة وجميلة" رجع ونظر هنيهة إلى آخر حزمة من الضياء الأحمر للشمس الذي تسلل من النافذة وانعكس على الجدار المواجه له. ودون أن يبتعد بناظريه عن حزمة الضياء تلك قال:

إني لعلى يقين، بأن سليمان ولدي كان قد شاهد مثلي غروب شمس يوم ما. هو أيضا كان دائم التفكير في المستقبل حتى كان دائم الاستشراف له. ولكن الحقيقة الواقعة الآن، أنه ترك المستقبل الذي كان يحلم به لي ولك وذهب.

كنت أريد أن أرى تقدمكما قدر ما تستطيعان تحقيقه من التقدم هو على الضفة الأخرى من الدردنيل وأنت على هذه الأراضي التي يطلق عليها اسم الأناضول. أما الآن فلا ينفع حتى مجرد التفكير في هذه الأمور. لتعلم، يكون من الظلم لك أن أطلب منك أن تقوم بتحقيق أحلامي بصفتك أكبر أولادي الموجودين على قيد الحياة. ولكن سأكون سعيدا جدا إذا ما وضعت نصب عينيك أحلامي إلى جانب أحلامك باستمرار. لم أكن أتخيل بأنه سيكون هناك أي شيء يؤلمني قدر مرض والدي إلى أن توفى شقيقك الأكبر. حتى أن ألم ولدي فاق ألمي الكبير هذا. لكن لم يغب عن بالي قط ما قاله والدي صاحب القلب الكبير الذي لم يكن طامعا في المال والملك، حيث همس في أذني بصوت يئن قائلا: " يا ولدي! إن روحي تسعد بوجودك، وهي تذهب إلى نهاية قدري الذي أخذني في قبضته منذ مولدي. في هذه اللحظات التي أستعد فيها لمفارقتك لن تبقى عيني من بعد موتي. لأنني أترك مكاني لك. ليجنبك الله كل الشرور والهموم". لقد أرهق كثيرا لأنه بذل جهدا كبيرا حتى يقول لي تلك الكلمات. وضع رأسه بهدوء على الوسادة. وتملكني الخوف عندما تراخت يده التي تمسك بيدي. ملت عليه. وتمالكت نفسي قليلا عندما شعرت بنفسه على وجهي. فتح والدي عينيه مرة أخرى. وكانت يده الضخمة تلك التي تحركت قليلا قد لجأت داخل كف يدي. وبينما أحدث نفسي وأنا أداعب يده بأصابعي قائلا: "لا يمكن أن تكون أنت الأمير عثمان غازي الذي يزمجر

في ساحات الوغى." التقط أنفاسه بصعوبة. نظر إلي وكأنه يشير إلى بأن أقترب منه بأذني. وقال لي بصوت يشبه النفَس: "يا ولدي، ابتعد عن الظلم. ولا تجنح إلى الظالمين. كن عادلا. واستمع لمن هم أكثر منك علما وخبرة. ولا تضيع وقتك هباءً... إن استطعت أن تنجح في ذلك تُسعد روحي وتكون عبدا عزيزا لله" وبعد ذلك لم أستطع أن أفهم جيدا ما كان يقول. لم أبعد عن ذهني قط شبهة أنه لا يمكن أن يتحقق كلام والدي إن كنت سأتخذ قراري قائلا: هذا يقول كذا، وذاك يقول كذا. لا يوجد أي مبرر لأن أزيد شيئا على الكلام الذي قاله لي والدي. أنت ستخرج إلى الحرب في أسرع وقت، أنا أيضا إنسان مسن نحن لا نستطيع أن نعلم كيف سيكون الغد ولكن ما نرجوه، أن يمد الله في عمرك. الآن اذهب إلى والدتك واستسمحها، واسترضي كذلك زوجكتم السيدة زهرة الورد. وفي الحرب انتبه أيضا إلى طمع المربي شاهين بك. ومد يده إلى ابنه.

الأمير مراد، كان قد احمر محياه الجميل وإن كان بدرجة بسيطة عندما سمع الجمل الأخيرة التي قالها والده. ولكن عندما تذكر أن والده أيضا هو من قال بأن كل شيء داخل في الحياة لاحظ ذهاب ذلك الخجل واختفاء أثره من وجهه.

أورخان غازي الذي مد يده لولده ليقبلها، قبض بقوة على يد ابنه الضخمة ضخامة يده والأكثر منها نضارة وحيوية. سحب ابنه نحوه وبعد أن احتضنه بقوة حتى شبع منه، قال بصوت غليظ:

فلتستول على أنيرا من أجل شقيقك الأكبر. ولا تتركنا أيضا هنا دون أية أخبار.

(٧٦)

الإمبراطور لم يكن غاضبا. ولكنه نظرا لعدم قدرته على تهدئة أعصابه لم يكن قادرا على الجلوس على مقعده لفترة طويلة، أو على كتابة الرسائل التي كان يريد كتابتها. وكان كل ما استطاع كتابته خلال عدة ساعات عبارة عن فقرتين قصيرتين. وكان مهما حاول السيطرة على نفسه ومهما حاول الكتابة مرات ومرات كان لا ينجح في ذلك. وفكر وهو يحاول شحذ ذهنه أثناء سيره داخل الغرفة، قائلا: "الرسالة الأولى يجب أن تكتب بلغة دبلوماسية في حين يجب أن يكون محتوى الرسالة الثانية يحمل التلميح للأمير، حتى لا يصاب بالدهشة والحيرة حينما يمسك الرسالة التي ستثير غضبه عندما يكون بمفرده". لما بدأت الأفكار والخيالات التي ملأت قلبه تجول في عقله شيئا فشيئا هرول مسرورا إلى قلمه ومحبرته اللذين ينتظرانه على المنضدة. غمس قلمه في المداد الموجود في المحبرة ولكن لاحظ أن كل الأفكار التي ملأت عقله قبل قليل قد تبخرت ولم يبق منها أي شيء. وكأن الكلمات خلال تلك البرهة القصيرة كانت قد تفتت وطارت.

أدرك وهو يجلس على مقعده بهدوء أنه لن يستطيع كتابة أي شيء في ذلك الوقت. وضع قلمه داخل المحبرة. استند بظهره على خلفية مقعد المكتب. نظر إلى مكان كرسي العرش الخالي الذي كان يستخدمه كنتاكوزين السادس خلال توليه عرش الإمبراطورية. كان قد رفع كرسي العرش وألقى به في غرفة الأشياء القديمة حينما رجع إلى القسطنطينية. وحدث نفسه لفترة

طويلة وكأنه كان يتحدث إلى كنتاكوزين السادس قائلا: " آه لو لم تكن سعيت لتغتصب مني عرش الإمبراطورية، ولو كنا عملنا معًا كذلك، ألم يكن ذلك ممكنا؟ انظر كم أنا الأن في أمس الحاجة إليك ولأفكارك. لو كنت موجودا فلربما استطعنا معًا إيجاد مخرج أسهل بكثير. رجعت من روما خالي الوفاض. أثناء ذهابك كنت تعلم أكثر مني بأن كلا من الفاتيكان وأفيجنون لن يعطيا شيئا قبل أن يحصلا على أضعافه. رحلتك لم تعد بأي نفع عليك أو على بيزنطة. وكأن ذلك لم يكن كافيا، قام ابنك أيضا بتفتيت قواتنا الموجودة هنا. ومع كل هذا فإن الوقت الراهن فرصة لنا. آه لو تقومون بتقديم الدعم والمساندة لنا، سيكون طرد العثمانيين من تراقيا أكثر سهولة ويسرا. ولكن على كل الأحوال، حتى وإن لم تدعمونا وتساندوننا فإننا سننجح في دحرهم وطردهم إلى حيث أتوا... أثناء إرسال كريليناودس بالسفينة اليوم فكرت قائلا: هل ما أقوم بها هو الصواب، ولكن رأيت أنه لا يوجد أمامي أي مخرج آخر. لا جرم أنه لم يعد محبوبا بين القادة كما أنه غير متوافق أو متآلف بدرجة كبيرة مع رئيس الوزراء. وكذلك فإن عدم تفكيره في أي شيء سوى إنقاذ نفسه خلال ذلك الحادث الغريب الذي تعرضنا له عند العودة الأولى من فوتشه جعلني أفكر كثيرا. عندما أرسلته قلت له بأن يقود بنفسه السفينة الصغيرة التي ركبها. ولكن حذرته بألا يغيب عن باله بأنه قائد الأسطول الذي كلفته بالقيادة العامة. إذا حاول الذهاب إلى ماتيوس مرة أخرى، لن يكون هناك أي شيء يمكن أن أقوم به أنا أو أي شخص آخر من أجله. فلربما تكون هذه آخر رحلة له. لما انتهي حديثه حينها فقط تذكر أنه ليس موجودا أمامه. أحس برغبته في الكتابة حتى ولو جملة واحدة فقط أخذ

القلم بيده مرة أخرى وهو يبتسم ابتسامة سريعة لا تحمل أي معنى. ولما غمس القلم في المداد الموجود في المحبرة شعر بأن ذهنه صار يعمل على نحو جيد. ابتسم مرة أخرى وقال: " أنت في مكان بعيد جدا يا حماي العزيز ولكن مازلت تمثل مصدر الإلهام بالنسبة لي. في الحقيقة كم كنت أريد أن الالتقاء بك، ولكن ربما لن يُقَدَّر لنا ذلك أبدا بعد الآن." أُصيب بحالة من الحزن. أصبح ذهنه وتفكيره على أفضل ما يرام بعدما تجاوز حالة الحزن التي تملكته. وبدأ في الكتابة. "... ابني العزيز، تعلم جيدا أنك أهم شيء موجود لنا بين العثمانيين. أثق بأننا سننجح معا في إنجاز الكثير من الأشياء من خلال تعاوننا معا. ليكن حولكم رجالكم الذين تثقون بهم والمطيعين لكم. أي أنه سيدعمك كل الناس حينما تقف على قدميك خلال الأيام القادمة. أريد أن أضرب مثالا لهذا. أصدرت ليلة أمس أمرا بإلقاء القبض على القائد العام لقواتي الذي كان يقوم بقيادة جيوشنا من قبلي وإحضاره أمامي. كانت ملابسه ممزقة بعدما اعتدى عليه حراسي. سألته عن سبب هروبه واختبائه لعدة أيام، حاول إقناعي وكأنه يقول الحقيقة قائلا " لقد أتيت من تقاليد قيادة تقوم بالهجوم من المواجهة على العدو مثل أجيسيليوس... أنا لا أهرب ولا أختبئ قط، ولا أتهرب من المهام التي توكل إليَّ. لكن أن أكون تحت إمرة رئيس الوزراء هو شيء يؤلمني ولا أتقبله، الموت أهون عليّ من أن أتلقى الأمر منه. لأنني القائد العام لجيوش الإمبراطورية". وبعد أن تحدث وكأن رئيس الوزراء ليس ممثلا لي، قلت له:

إنه رئيس وزرائي الذي يطيعني منذ سنوات، وفي نفس الوقت هو رأس إمبراطوريتنا في المكان الذي لا أكون فيه. أي أنه يمثلني بالصلاحية

التي منحته إياها. وإذا لزم الأمر فأنا أيضا مستعد لسماع كلامه. إذا كنت اليوم لا تستطيع القبول بالعمل تحت قيادته، لن تتقبل غدا أوامري أنا أيضا. ولذا أعزلك من القيادة العامة، ولكن سأعفو عنك من أجل الاستفادة من تجاربك وخبراتك. من الآن فصاعدا ستكون قائدا لسفينة صغيرة. ولن تغادر هذه السفينة حتى وقت الخروج للحرب. فتح عينيه بدرجة كبيرة من الدهشة والخوف. لو كان سيفه بيده لكان قد هجم على كل الموجودين بالقاعة بما فيهم أنا. كان لا ينجح في إخفاء غضبه مهما فعل وكان غضبه ظاهرا جليا. وكانت شجاعته قد تحطمت لأنه مجرد من سيفه. وطلب بصوته الذي يحمل شجاعته المنكسرة تلك الإذن قائلا:

على الأقل اسمحوا لي عظمتكم بالذهاب إلى قصري لرؤية زوجتي وأولادي. ولكن لم أستطع أن أسمح له بذلك لأنني كنت على يقين بأنه بمجرد ركوبه لعربته كان لن يلتقط أنفاسه إلا بعد الوصول إلى ماتيوس كنتاكوزين. قلت له، القائد الذي لا يقوم بمهامه منذ شهور، والذي لا يطيع أوامر إمبراطوره من المستحيل أن يكون له أي حق في لقاء امرأة بيزنطية. وبسبب حديثي على هذا النحو، هدأ وبدأ في إثارة مشاعر الرحمة الموجودة بداخلي وكأنه سوف يعترف بخطئه قائلا " يا صاحب العظمة أنا مذنب لأنني لم أقم بأداء مهامي على النحو الذي ينبغي. ولكن أتوسل إليكم حتى تعفو عني وتمنح فرصه لقائدكم الذي هو أفضل من يعرف بحاركم التي تقع فريسة للرياح التي ينفخها زيوس.

نظرت طويلا إلى جهه وقلت:

يا كريلينادوس، في آخر مساء اجتمعنا فيه أيضا، في المساء الذي سبقه كلفتك بالمهام المهمة، ومنحتك فرصة أخيرة. ولكن كما لم تف بالوعود التي

قطعتها على نفسك، قمت كذلك بمنع رسلنا من الذهاب إلى الأماكن التي كانوا سيذهبون إليها. وعللت ذلك للرسل الذين كانوا سيذهبون عن طريق البحر بالرياح التي ينفخها زيوس، فبمَ تعلل عدم عودة رسلنا الذين ذهبوا عبر البر؟ اشكرني لعدم تقديمي لك للجلاد كي يقتلك على الرغم من معرفتي بما حدث والخيانة التي تعرض لها رجالي ومن الآن لا تبخل بما لديك من معرفة ودراية عن قائدنا العام دميكسينوس. ولتهديده للقيام بفعل هذا، لا تقل لأترك السفينة، لو حاولت القيام بفعل كهذا، لا تنس أن زوجتك وأولادك الموجودين في قصرك تحت رقابة حراسنا.

ابني العزيز، لقد قلت كل هذا لكريليناوس خلال بضع دقائق... ولكن أنا لست إنسانا عديم الرحمة..." ونظر إلى ماكتب وكأنه غير مصدق ما كتبه. التقت نظراته بالمحبرة ثم بأحد الأباريق الموجودة على طاولة الاجتماعات المستديرة. غمس قلمه في المحبرة. لما أضاف إلى جمله السابقة قائلا "... الأمير العزيز، أثق بك كثيرا لأنك صهري، وإني لفخور بك. وبهذه الثقة أريد أن أبشرك بالأيام التي سنستطيع فيها أن نجعل سفننا تسير وتعبر من جانب لآخر عندما نصفها جنبا إلى جنب في بحر الجزر. يكفيني، ألا ترفض رغباتي الموجودة في خطابي الذي ستقرأه" استراح وكأنه قد نجح في إنجاز أصعب أعمال الدنيا. وهو يغمس قلمه في المحبرة من أجل كتابة رسالته الثانية، حدث نفسه قائلا: "أمل أن تفهم ما أريد". ثم وثب واقفا على قدميه وكأن إبرة قد غرست في ساقه. كان الشيء الذي جعله يثب على هذا النحو ويقف على قدميه، هي جملة "لو يقدم الرسالة الثانية لوالده" التي خطرت بباله.

ركض وذهب أمام النافذة. بعد أن نظر لفترة إلى حي أهالي جنوة الموجود على الضفة الأخرى وأثناء جلوسه على مقعده مرة أخرى ظل يحدث نفسه قائلا "إذا فعل سيلوس كسنيفونوس شيئا بمهارة سيقول له باختصار أن حياته في خطر. في الأغلب إن قيامه بالعمل رسولا لسنوات طويلة يجعله ينجح في هذا. لا يراني كفؤا في الدبلوماسية قط، ولكن أرى أنه سيعجب بفكري هذه المرة. وكأنه يؤكد إخلاصه كل وقت ظل يحدث نفسه قائلا: " لقد عشت مع آل باليولوج وسأموت معهم كذلك". وكأن كلماته قد انتهت فجأة قال: "إذا كان الأمر كذلك، فليمنح فرصة أخرى للحياة". في الواقع فإن كلماته لم تكن قد انتهت، بل كان يريد الحديث بها جميعا مع نفسه في ذهنه أثناء تفكيره، جال بناظريه على الجدران وتشوش تفكيره عندما التقت نظراته بإبريق الشراب المصنوع من الفخار الموجود على الطاولة. كان يوجد على الإبريق الخزفي ذي اللون البني الفاتح زهرة لها فروع مثل أزرع الإخطبوط. كان الإنسان إذا نظر من مسافة معينة وزاوية معينة يمكن أن يشاهد الإخطبوط. ولكن كان إذا تحرك قليلا من المكان الذي كان يوجد به كانت تختفي هذه الصورة في الحال، وكان يظهر مكانها أحد أغصان زهرة الأوركيدا. وكنت إذا ما تم النظر إليه من مسافة أبعد كان يشبه أحد النوّاتي (نوتيلوس). وهو ينظر مندهشا ومتسائلا لماذا قام العقل بمثل هذه التشبيهات، تذكر أيضا حماه يوحنا كنتاكوزين السادس، كان قد حدثني طويلا قائلا: "كان يجلس على كرسي عرشه الرائع أمامي. كنت إذا نظرت بعيني اللتين تفتحتا حديثا على الشباب إلى هذا الإبريق كان ينظر إليّ ويبتسم، وبعد أن حك لحيته البيضاء المتداخلة وكأنه يقلبها، تحدث إليّ طويلا قائلا: "يا ابن

أندرونيكوس، إن كنت تفكر فيما بداخله فأنا لا أدري. ولكن مر على صنعه والشرب فيه زمن طويل. إن تبدأ في شربه من الآن لن تبقى لديك القدرة على الحكم عندما تكبر. ولكن إن كنت تفكر في الرسومات الموجودة عليه من الخارج فكما ترى تتغير وفقا للمكان الذي تنظر منه. هي هدايا نبلاء مينوس إلى جميع أهالي البحر الأبيض المتوسط وبحر المورة وبحر الجزر. هذه الرسوم التي رسموها على الخزف تعلموها من الشعوب الموجودة في منطقة البحر الأسود وإذا قيل أيضا أنهم لونوها بالألوان التي أحضروها من هناك، فإن المكان الذي تنمو فيه النباتات التي يتم استخراج منها تلك الألوان هو موطن المينوسيين. ولا تنمو في أي مكان آخر غير جزيرة كريت. انظر هذا اللون البنفسجي لا يمكن أن تشاهده على أية أوانٍ خزفية غير تلك الأواني الخزفية التي جاءت من هناك.". وبعد أن انتظر لفترة كان قد قال" وفي الوقت الذي بدأت فيه أعداد المينوسيين في التناقص تدريجيا مع ذهاب أعضاء تنظيم الإخوة إلى هناك، وانصهارهم فيما بعد وسط أعضاء تنظيم الإخوة، صاروا لا يمكن تمييزهم. والآن كل ما نقوله بشأنهم يكون شيئا عبثيا لا فائدة منه. ولكن ها هي أمامك الحقيقة التي تركوها" وبعد أن قدم درسا كان قد قال أيضا قال " هيا حتى لا نتأخر على خطيبتك. حتى الآن لم أتأخر على ابنتي إلينا قط، ومن الآن لا تتأخر عليها وتجعلها تنتظر...".

في يوم تلك الخطبة كنت أبحث عنه في كل وقت تعرضت فيه لمأزق، وكنت قد حصلت على مساعدته فيما سأفعله في كل موضوع. أنا محتاج إليه الآن مثل احتياجي إليه في ذلك اليوم. رئيس وزرائي يدير أمور الإمبراطورية بشكل جيد ولكن لا يعرف إدارة الإنسان مثل كنتاكوزين. لو علمت أن حماي

في ديموطيقا، لكنت أرسلت إليه رسولا، وأذهب وألتقي به في أي مكان يشاء. ولكن لا أدري هل جاء إلى ديموطيقا أم لا؟ في الواقع ظل يتجول وهو خائف على حياته منذ ذهابه عن هنا. أظن أن سبب ذهابه إلى روما كان فرارا بحياته من ولده. وإلا هل كان ليذهب لطلب المساعدة وهو يعلم بأنه لا يستطيع أن يجازف بصدام كل من الصرب والمجريين والبلغار بفرساننا المدرعين، بمساعدة بابا الكاثوليك على الرغم من كونه أرثوذكسي العقيدة. لو كان يبحث عن مناصيرين فلماذا ماتيوس...

في هذه المرة انتهت رغبته في الحديث كما انتهت رغبته في الكتابة. وهو لا يرغب في استمرار حديثه على هذا النحو المتقطع وغير المتصل ببعضه، جال بنظراته التي لا تحمل أي معنى على الجدران لفترة. ونظر مرة أخرى إلى الإبريق الموجود على الطاولة. نهض على قدميه وهو ينظر إلى رمز الإمبراطورية المعلق على الجدار. مشى بخطوات متثاقلة متعبة وجلس على مقعده الموجود خلف الطاولة. أخذ قلمه وغمسه في الحبر الموجود في المحبرة. وقرأ الجمل الأخيرة التي استطاع كتابتها على الورقة الموجودة فوق الطاولة. وبالطاقة التي استمدها مما قرأه بدأ في إضافة الفقرة الأخيرة لرسالته الثانية. ثم شرع في كتابة آخر جملة في رسالته قائلا "ابني العزيز، كن مستعدا للنصر الذي تدخره الأيام القادمة، ولتكن أيضا جديرا بتحقيق النصر." وقال وهو ينظر لما كتبه: "صار حسنا". وأخيرا ذيل رسالته بكتابة اسمه قائلا : "يوحنا باليولوج الخامس إمبراطور بيزنطة". وبعد أن حدث نفسه قائلا : "بعد أن يقرأه كسينفانوس نلف كل واحدة بمفردها بالقماش المشمع ثم نضع الخاتم على الشمع... " وهو يضع الرسالة في درجة خرج بسرعة من مكتبه.

(٧٧)

قال أورخان غازي وهو ينظر خلف ابنه الأمير مراد الذي جاء من أجل طلب الإذن له بالخروج إلى الحرب أثناء خروجه من القاعة: "سوف يثبت جدارته". شعر باسستقرار وطمأنينة لحديثه مع ابنه في كل شيء والذي اعتبره بمثابة الوصية له، حتى وإن كان قد شعر بالندم لبرهة من الوقت؛ لأنه تصور أنه تعامل معه بشكل عاطفي وهو يتحدث معه. سيطر السرور الذي أوجدته هذه الثقة والطمأنية على قلبه في قاعته التي جلس فيها بمفرده حتى حلول الظلام. عندما أظلمت القاعة تماما نهض وذهب إلى جناح الحريم. وكان أثر ذلك السرور باديا على وجهه عندما دخل غرفة نيلوفر خاتون. التي رأت السرور والسعادة ظاهرة على وجه أورخان غازي حيث قالت:

يا أورخان هل تحاول أن ترسم السعادة على وجهك حتى تفرج همي؟

قال أورخان غازي بابتسامة تضيف سعادة جديدة إلى تلك السعادة الموجودة على وجهه الذي أصبح لونه أسمر قليلا في ضوء قناديل الزيت:

هل راحة بالي التي حصلت عليها بعد شهور بدت على وجهي يا نيلوفر؟

قالت: لم أستطع أن أفهم...

قال: لا يوجد شيء لا يمكن فهمه يا نيلوفر. بعد ولدي سليمان كتمت حزني داخلى ولم أظهره للمحيطين بي، أخفيت حزني حتى لا أضيف حزنا إلى حزنك. من الآن انتهت كل الأحزان. كأحد الذين خاضوا غمار الكثير

من الحروب أرى ضرورة أن أتخلص من أحزاني... ولذلك حصلت على راحة بالي وطمأنينتي. وذلك هو الذي يبدو على وجهي. أتأسف على تذكري لشيخوختي باستمرار وعلى شعوري بالبرد من هبوب نسيم خفيف بعد رحيل ولدي سليمان. أخاف قليلا ولكن سأحكي كل هذه الأمور.

أنت لا تخاف بسهولة يا عزيزي أورخان. بالتأكيد ستتحدث عن ذلك أيضا...

عزيزتي نيلوفر، أبدو لمن يراني شجاعا شديد البأس ولكن في هذه الأيام الأخيرة يتملكني خوف غريب وعجيب. وأظن أنه هو الذي يجعلني أشعر بالبرد. خلال الحروب التي خضناها في غابر الأيام كنت أنام في الملاجئ التي بنيناها من الثلوج لأيام عديدة ولكن لم أكن أعرف البرودة. ولكن الآن حتى النسائم الخفيفة تؤلم جراحي القديمة. ولكن الشيء الحقيقي الذي يشعرني بالخوف حتى اليوم ليس ذلك. كان تصوري أن ابني مرادا لم ينضج. أعرف، أننا سوف نرحل دون استياء حين يأتي أجلنا وقال "الزمن الذي قدر لنا أن نعيشه كان هذا العمر". ولذلك أيضا كنت قد تحدثت مع سليمان الذي كنت أرغب أن يتبوأ مكاني من بعدي عن كل شئون الإمارة عندما كان هنا العام الماضي.

ولكن لم أكن قد تحدثت مع مراد في هذه الأمور قط. ولكن الله تعالى جعل الجو باردا ومنحني الفرصة. واستطعت الحديث مع ولدي في هذه الأمور وإن كان بشكل مقتضب. لقد جاءني هذا المساء وارتاح قلبي عندما قلت له كل ما كنت أريد قوله له عندما جاء يطلب مني السماح له بالسفر. والآن أشعر بأني مرتاح ومطمئن بالقدر الذي يستعد فيه الإنسان للموت.

صمت. ثم حدث نفسه وهو ينظر إلى القناديل المضاءة قائلا: " سوف تحترق الفتائل باستمرار طلما تسحب الزيت. وسوف تمنح باستمرار نفس الضياء دون أن تأبه بمن أشعلها.". ثم نظر إلى نيلوفر خاتون وقال:

هل تتذكرين اليوم الذي ذهبت فيه إلى الدرويش الذي يمتطي الآيل؟ كنت قد رجعت من هناك وأنا سعيد مرتاح البال. هل كنت قد قلت لك عن الشيء الذي أشعرني بالراحة والطمأنينة؟ قالت نيلوفر خاتون وهي تقلب في يدها بالشعرتين اللتين سقطتا من شعرها الطويل الذي أصابه الشيب:

لا لم تكن قد قلت لي. الشيء الوحيد الذي قلته هو قولك " عندما كنت أميرا استدعيته عدة مرات ولم يأت، وعندما أردت الذهاب إليه عدة مرات رفض طلبي.

إذا كنت قد دعوته عدة مرات إلى مجلسي و لم يأت، وإذا كنت قد طلبت الذهاب إلى مجلسه ورفضه طلبي قائلا: " ليس الآن". فإنه بعد ذلك رد على ذلك وقام بغرس إحدى الشتلات التي أحضرها في حديقة قصرنا دون أن يسأل أحدا. ذهبت إليه استدار ورجع دون أن يقبل أي شيء مما قدمته له. غضبت قليلا. كنت قد تحريت عن المكان الذي يقيم به وأنا يتمكلني هذا الغضب. وعندما علمت أنه يقيم على السفح الشرقي لجبل الراهب امتطيت جوادي وذهبت إلى المكان الذي يقيم فيه. عندما وصلت إلى جواره كان يوجد في يده إحدى الملاعق الكبيرة التي هي عبارة عن ساق من قرن الأيل. بيد أنه لم يكن في الإناء الموجود أمامه أي شيء. نظرت إلى الإناء الفارغ وقلت:

أي فائدة للملعقة الكبيرة المصنوعة من قرن الآيل بعد أن صار الإناء فارغا؟

نظر إليّ. وانتظرت قائلا ليقل بعض الأشياء. صمت طويلا. وأدار لي جسده الطويل النحيل جدا. ثم قال وهو يقلب الإناء الفارغ بالملعقة الكبيرة المصنوعة من قرن الآيل:

يا أميرنا نحن لا نشبع بالغذاء، نشبع بالقلب. هذا الإناء يبدو دائما فارغا بيد أنه لا يفرغ، لأن أحباءنا يملئونه باستمرار.

نظرت إليه وقلت:

ألا تضعون شيئا في إنائكم بدلا من انتظاركم لما سيضعه أحباؤكم؟

مال جانبا وكأنه ممتعض قليلا، وقال بصوت رفيع:

كيف؟

قلت:

أيها الدرويش ما دمت عاشقا إلى هذه الدرجة وحولك الكثير من الدراويش، أنا أيضا سأقوم بعمل تطوعي كبير وسأتبرع لتكيتكم بالأراضي الموجودة في إينجول. ازرعوا الأرض بدلا من انتظاركم للتبرعات التي ستأتي من محبيكم، احصدوا وليكن لديكم ما تضعونه في إنائكم كل وقت.

قال بعد أن تدبر كلامي في عقله كثيرا:

سلمكم الله وبارك الله فيكم يا سيدي.

شغفت كثير وسألت قائلا:

حسن من صاحب هذا؟

أجاب قائلا:

أصحابه سادة مثلكم؟

عندما سألت قائلا لماذا؟

قال:

لأن متاع دنياكم من الذي يحكمكم. بسبب عدم الطمع في إمارتنا، فلا اهتمام لنا بمتاع وحطام الدنيا. ليكن ملككم لكم، يكفيني ما يأتي إليّ وما هو موجود عندي. ابتسم عندما قلت لن يرضى الله أن تبقي بطنك خاوية. نظر إلى وجهي، وأشار إلى أحد التلال الصغيرة الموجودة إلى الأمام قليلا من سفح الجبل الذي توجد به التكية وقال:

ما دمت مصرا، ليذهب قلبك بعيدا عنا. ليكن من هذه الربوة أحد حقول الدراويش الصغيرة، ليزرعوها ويحصدوا ما فيها في أوقات فراغهم من أذكارهم.

أنا أيضا قمت بمنحهم المكان الذي أشار إليه قائلا: لتكن هذه المساحة لهم وجئت. وكان الشيء الذي منحنى راحة البال في ذلك اليوم هو إعطائي له لهذه المساحة التي طلبها. ومنذ ذلك اليوم لم يأت إليَّ كما لم أستطع أنا أيضا الذهاب إليه إلى أن توفى. ولكن بعد وفاته صرت أهتم بضريحه. أتريدين أن أذهب معك في زيارة له قبل هطول الثلوج؟

نيلوفر خاتون، عندما رأت زوجها قرير العين على هذا النحو فكرت بضرورة أن تعم السعادة القصر الذي يخيم عليه جو الحزن والحداد منذ فترة طويلة. نهضت من فوق المقعد التي تجلس عليه وجلست إلى جوار أورخان غازي. الذي أمسك بيديها اللتين ضعفتا وذهب عنهما اللحم وذبلت بشرتاهما وضغط بهما على صدره، ثم قال:

إذا كان ذلك سيمنحنا الطمأنينة وراحة البال لنذهب غدا ولنقم بزيارته. ولكن لندفن الحزن الموجود بداخلنا في الأعماق هذا المساء. لأن الشيء الذي يقبض صدورنا سيأتينا يوما ما... بعد ذلك نطعم الكثير من الأيتام.

نعم لنفعل ذلك، لنشعر بالراحة والسكينة بتربية المساكين فيما بقى من عمرنا.

سيذهب مراد للحرب غدا ولكن سيترك زوجته زهرة الورد هنا. وهذا يعني، أن ولدنا سيعود بمجرد إنجاز مهمته وسيقضي الشتاء هنا.

ارتعد أورخان غازي وهو ينظر إلى خصلة شعرها الأبيض التي خرجت من تحت غطاء رأسها وهو يحدث نفسه قائلا: "آه يا عزيزتي نيلوفر لو استطعتِ أن تعلمي بوجود خدعة في كل جراب من أجربة القرمانيين لما كنتِ تقولين ذلك. وهل هناك من يعلم بأن من خرج للحرب سوف يعود أم لا؟". لما ارتعد فزعت نيلوفر خاتون هي الأخرى. نظر أورخان غازي إلى وجه نيلوفر خاتون مرة أخرى ثم قال " يجب أن يعود. لأن قلبي لا يتحمل فراقه...". ومن أجل إمكانية أن ينعم بطمأنينته وسكينته مرة أخرى قال:

هيا لنذهب إلى جناح الحريم. سنجعل الجزء القليل من سكينتنا التي حصلنا عليها يضيع طالما بقينا وحدنا.

على الفور صفقت نيلوفر خاتون بيديها. وقالت للخدامة التي تدخل إلى الداخل:

سنتناول الطعام في غرفة السمر... أخبري العازفات والراقصات كذلك. وأبلغي كلا من السيدتين تيودورا وأسبورجه وليأتيا إلى غرفة السمر.

كانت الجارية خفيفة وسريعة الحركة. ونظرا لقيامها بخدمة سيدتها منذ زمن بعيد فإنها كانت تعلم جيدا ماذا تعني كل جملة مما قالته سيدتها. وخرجت إلى الخارج وهي سعيدة نتيجة إحساسها بأن قصر الإمارة الذي خيم عليه الحزن والحداد منذ شهور سوف ترفرف عليه السعادة من جديد. لما خرجت مسرعة من الغرفة مدت نيلوفر خاتون يدها وأمسكت بيد أورخان غازي التي تركتها قبل قليل مرة أخرى. نهضا معًا. وبينما يسيران وكل منهما ممسك بيد الآخر اجتازا الممر الطويل الذي يضيئه الضوء الأصفر للقناديل الزيتية التي تصدر الأزيز، ووصلا إلى قاعة السمر الموجودة في الطرف الآخر من الممر. لما شاهد أورخان غازي الجاريتين الجديدتين اللتين لم يشاهدهما قبل ذلك بين الجواري قط وعندما بدأت حفلة السمر التفت ونظر إلى نيلوفر خاتون بنظراته التي تسأل.

(٧٨)

أصبح الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس لا يتمالك نفسه من الفرح بعدما انتهت استعدادات الحرب. كان هناك سببان لسعادته. أحدهما كان استتباب النظام في القسطنطينية بعد ذهاب آل كنتاكوزين، أما الآخر فكان قيامه بعمل تحالف مع القرمانيين ضد العثمانيين. بيد أن هذه السعادة لم تدم طويلا. أتى المراسلون بالخبر المشئوم حينما كان يستعد للذهاب لقداس الأحد الذي يقام في كنيسة آيا صوفيا قبل يوم واحد من الخروج إلى الحرب لطرد العثمانيين من تراقيا في الوقت لا يتوقعه العثمانيون. فإن بيسيدون الذي غضب على زيوس قبالة الفجر قائلا: "هل هو من سيجبرني على الامتثال رغما عني؟ لقد هيَّج بحر إيجه بنفخاته وأرسل أمواج غضبه على الميناء الذي توجد به سفن الأسطول، وأصبحت سفن الأسطول التي تنتظر في الميناء غير صالحة للإبحار إما بسبب اصطدام قسم منها ببعضه بعضا أو بسبب ارتطام القسم الآخر بالشاطئ. وكان الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يعلم جيدا أنه لا يمكن أن يخرج للحرب دون الأسطول قد أجل الخروج للحرب قائلا "إذن الرب ليس راضيا على خروجنا للحرب هذا الموسم.". ولكن هذا الحادث المشئوم لم يستطع إيقافه كذلك. ففي الوقت الذي كان يتم فيه إصلاح سفن الأسطول التي تعرضت للتلف ، فإنه من ناحية أخرى وعلى الرغم من حلول فصل الشتاء وهطول الثلوج كان قد أرسل الرسل والهدايا إلى حلفائه وعمل على تقوية التحالف الموجود بينهم.

كان الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يقضي حياته اليومية خلال أيام فصل الشتاء الطويل بين مقر إقامته وبين قصر الحكم، والذي زادت رسائله الدبلوماسية التي كان يكتبها، كان قبيل حلول الربيع يشعر بعدم الراحة لعدم تمكنه من إنجاز أعماله التي تسبق الحرب، وكان يفعل كل ما في وسعه حتى ينتهي من إنجاز أعماله قبل مجيء موعد الحرب. وبينما كان يشم رائحة الطحالب البحرية التي جلبتها رياح الشمال اللطيفة من النافذة التي كان يفتحها من أجل استنشاق الهواء كلما أصابه الإرهاق أثناء إنجازه لأعماله في مكتبه، كان يمني نفسه قائلا "إنها رائحة النصر". كانت كلما زادت الأخبار التي تقول بانضمام حلفاء جدد التي جلبها قادة قواته الذين عينهم مؤخرا في تلك الأيام، تزداد شهيته للحرب. في الأيام التي زادت فيه تلك الشهية بدرجة كبيرة، فإن الرسل الذين بعث بهم إلى قونيه ونيكوميديا، عادوا أيضا بالأخبار الجيدة. كان الرسول الذي بعث به إلى الأرطانيين هو الرسول الوحيد الذي لم يرجع. كان يعتقد أنه سيعود خلال بضعة أيام وكان يحدث نفسه قائلا: "بعد أســبوع كل شيء سيكون على ما يرام. وحتى لا يشك أورخان غازي سأسير أولا نحو آل كنتاكوزين، وبعد أن أقضي عليهم سوف أتجه أيضا نحو الوحدات العثمانية التي انسحبت إلى جنوب شبه الجزيرة".

مرت الأيام ولما عمت أجواء الربيع كل مكان وعندما أمر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس قائد الأسطول الذي عينه قائدا عاما للقوات قائلا: "أتموا استعداداتكم. ستبدأ حربنا الأسبوع القادم"، كان الرسول الذي ذهب إلى ولاية أرطانه لم يرجع بعد. لكن كل سفن الأسطول التي قضت الشتاء في

الموانئ الموجودة على بحر المورة كانت تنتظر اليوم الذي ستخرج فيه للحرب للانضمام إلى الأسطول الذي ينتظر في بوغازخريسوكريس. وكانت ستنضم إليهم أيضا السفن التي ستأتي من ميناء بيجاسي الموجود على مضيق الدردنيل. وكانت ستلتقي سفن الأسطول التي ستأتي من جزر بحر الجزر المختلفة مع الأسطول في أينوس.

وفي يوم من أيام الأحد الذي كسا فيها دفء الربيع الأرض جمالا، فإن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي انتظر على الشاطئ حتى إبحار آخر سفينة من سفن الأسطول الذي تحرك بعد انتهاء قداس الأحد، بعد أن لوح بيده آخر مرة للسفن التي ابتعدت عن الميناء عندما جاء إلى جوار العربة الإمبراطورية التي يجرها ثمانية من أقوى الجياد استدار وبينما ينظر إلى تلال القسطنطينية قال بصوت مرتفع وكأنه يخاطب والده قائلا: "ارفع رأسك يا أندرينكوس باليولوج الذي لم يجعلني أعيش طفولتي بموته المفاجئ من المكان الذي ترقد فيه وشاهد أسطولنا. انظر يتقدم على نحو أروع مما كان في زمانك في مارموران. وسأتحرك أنا غدا عن طريق البر كي ألتقي بذلك الأسطول المهيب. ودون أن أُشعر أورخان فبعد أن أقضي على آل كنتاكوزين سأقوم بطرد كل من هو ليس من أهل تراقيا من هنا إلى المكان الذي أتى منه.".

كان قائد العربة الذي أبلغه الإمبراطور أثناء ركوبه برغبته في الذهاب إلى قصر عمل رئيس الوزراء قد وجه جياده التي تسير على طريق المراسم المرصوف بالحجارة نحو البناية التي يعمل بها رئيس الوزراء. قال الإمبراطور وهو ينظر إلى مهارة قائد العربة في توجيه جياده، بشجاعة: "من

الآن فصاعدا لن يكون هناك معيشة في القصر. كلما لا نذهب إلى القصر يلومنا الآخرون. الآن سنصل نحن إليهم ونلومهم" وصاح قائلا وهو ينظر مبتسما إلى الحراس الموجودين أمام العربة ومن خلفها: "هؤلاء محاربون لا مثيل لهم سوف يتغلبون على كل شيء.".

في تلك الأيام التي انشغل فيها الإمبراطور بالاستعدادات للحرب كانت كل أعباء إدارة الدولة قد ألقيت على عاتق رئيس الوزراء. إلا أنه لم يكن يشتكي من هذا الأمر. ولأنه كان راضيا تماما لعدم تدخل أي شخص في الأعمال التي كان يقوم بها، حتى أنه في الوقت الذي كان قد عكف فيه تماما على أعماله، كان قد نسي تقدمه في العمر وصحته وحتى قداسات يوم الأحد. الشيء الوحيد الذي لم ينسه كان كيفية إضافة أموال جديدة إلى خزانته. ولذا كان قد وجد السبيل إلى جمع ألف نوع ونوع من الضرائب. إن لم يكن هناك شخص يفيد عمله، فقد كان الآخر يفيد. ولهذا السبب فإن الإمبراطور لم يكن يعترض قط عندما كان يقول: "لنضف بعض الأشياء من خزانتنا" من أجل المصروفات التي سيتم صرفها اعتبارا من الآن. وعلى الفور كان يتخذ تدابيره ويرسل عماله إلى حي أهالي جنوة المقابل من أجل جمع الضريبة التي أطلق عليها " ضريبة الحرب".

انطلق الإمبراطور الذي لوح بيده للسفن لأخر مرة بعد أن أبحرت آخر سفينة من سفن الأسطول بعربته نحو قصر عمل رئيس الوزراء. كان هناك أحد الضيوف في غرفة عمل رئيس الوزراء على الرغم من كون اليوم يوم عبادة. إن أهالي البندقية الذين يسكنون سيكايا (غلاطه) كانوا قد علموا عبر أتباعهم الموجودين في القصر أن الإمبراطور ليس لديه علم عن هذه

الضرائب التي تكررت في الأيام الأخيرة وكانوا قد أرسلوا رئيس البلدية لمقابلة رئيس الوزراء. ولم يكد يلتقي رئيس بلدية أحياء أهالي جنوة برئيس الوزراء حتى واجهه بحرية الحكم الذاتي التي منحها لهم الإمبراطور حتى وإن كانت بدرجة بسيطة، ثم قال:

نحن نعلم بأن إمبراطورنا ليس لديه علم عن هذه الضرائب التي يتم تحصيلها.

تحدث رئيس الوزراء بصوت هادئ جدا وكأنه لم يسمعه قائلا:

المفهوم أن جناب الدوق في ورطة حتى الآن بسبب الحي الجديد الموجود خلف بيرا... أم هل يؤرقه اليهود الذين طردهم أهل القلعة من القلعة قبل سنوات؟

قال رئيس بلدية سيكايا، وهو ينظر مندهشا إلى رئيس الوزراء الذي تحدث وكأنه لم يسمع ما قاله:

سعادة رئيس الوزراء، ليس لنا أية مشكلة مع أي شخص منذ فترة طويلة.

قال رئيس الوزراء اليكسيوس: إذن لا تستطيعون التفاهم مع البولينورميين، لنتخذ إجراءاتنا فورا جناب الدوق.

قال رئيس بلدية سكايا الذي يعلم أن قول رئيس الوزراء: "نتخذ الإجراءات" تعني الأمر بسلب ونهب الأحياء الخاصة بالقرويين:

يا سيدي نعلم بأنكم ستتخذون الإجراءات، لكن لا توجد لدينا أية مشكلة مع البولينورميين. مشكلتنا الوحيدة...

قبل أن يكمل رئيس البلدية جملته قال رئيس الوزراء:

إذن هل مشكلتكم ناجمة عن الربح الكثير؟

قال رئيس بلدية سيكايا:

ياسيدي، كان قد تم قبل ذلك جمع الضرائب دون علمكم.

رئيس الوزراء ارتدى على وجهه قناع أحد الأشخاص الذين يواجهون الظلم الخطير ونظر إلى رئيس البلدية وكأنه ينظر إلى أحد الأحجار ثم سأله قائلا:

هل من الممكن أن يتم شيء دون علمي؟ كما تعلمون فإن إمبراطورنا سيخرج للحرب. وحتى وأنا أخرج كل ما في خزانتي من أجل الحرب، نجد أن أهل سيكايا يتذمرون. ولكن يجب على الذين يشتكون اليوم ألا ينسوا أنهم مجبرون على دفع هذه الضرائب حتي يمكن أن يعود إمبراطورنا بالنصر. إن لم يعطوا هذه الضرائب فلينسوا تحقيق أرباح تبلغ خمسة أضعاف ما دفعوه اليوم عندما تعود جيوشنا مظفرة بالنصر. إذهب وقل ذلك لمن أرسلوك إلى هنا.

تحرك رئيس بلديه سيكايا من فوره بعدما أدرك من نبرة صوت رئيس الوزراء " أن الثمن سيكون باهظا" من أجل مغادرة القاعة. رئيس الوزراء الذي ينظر من خلفه، وفي الوقت الذي كان سيخرج فيه من القاعة، قال:

أبلغهم بأن من سيدفعون عند خروج إمبراطورنا للحرب، سيكون من حقهم المطالبة بما يريدون بعد عودته من الحرب مظفرا.

وما إن تحركت العربة التي يجرها جوادان التي كانت تنتظر رئيس بلدية سيكايا أمام باب حديقة القصر، حتى اقتربت عربة الإمبراطور التي يجرها ثمانية من الجياد من أمام الباب. نزل الإمبراطور الذي يرتدي زي المراسم من العربة واستدعى قائد الحرس. قفز قائد الحرس من فوق جواده وعندما دنا منه قال له:

أرسل الخبر إلى قائد القلعة، ليخرج كل فرساننا ومن في معيتهم من رجالهم الموجودين داخل الأسوار معًا من بوابة هاجيوس رومانوس، وليتجمعوا في معسكراتنا الموجودة خارج الأسوار. ستبدأ الحرب مع شروق شمس الغد.

بمجرد أن أنهى كلامه دخل من باب الحديقة وسار نحو غرفة عمل رئيس الوزراء.

(٧٩)

كان المربي شاهين بك على الرغم من منكبيه العريضين نحيل الخصر وفارع القامة. ولأنه كان يقف مستقيما فوق صهوة جواده فإنه كان يبدو وكأنه ينظر من أعلى إلى كل ما حوله. كان يخفي بشاربيه المفتلوين الكبيرين قباحة أنفه الكبير الذي يشبه منقار أحد النسور. كان يتفحص بالمكر الخبيث الموجود في نظرات عينيه الزرقاوين اللتين تزينان وجهه المفلطح الطويل. وكأن رأسه كذلك قد تخلى عن الاستدارة لتتناسق مع وجهه وكان يقف مفلطحا. وكان يضع إحدي يديه على سيفه باستمرار سواء أكان يسير أم كان على صهوة جواده. ولم يكن يخرج سيفه العريض ذا الحدين البتار مثل الموسي بسهولة من غمده ولكن كان إذا أخرجه لا يضعه في غمده دون أن يُخضب بالدماء. ولم يكن يصيح في ساحات الوغى بقدر غضبه ولكن كان إذا غضب أطلق الصيحات وكان يقتل من كان في مواجهته كائنا من كان ويشقه نصفين. وبسبب هذه الطريقة فإن الرجال التابعين له كانوا عندما يذكر اسمه يشبهونه بصلاح الدين الأيوبي. ولم يكن يقبل بعدم تنفيذ أي من أوامره التي يصدرها قط. وعلى الرغم من رغبته في تنشئة الأمير مراد مثله لأنه من قام بتربيته وتنشئته، فإنه قد استطاع أن يجعل الأمير مراد صاحب الطبيعة الطيبة مثله في ساحات الوغى فقط. حتى أنه في ساحات الوغى كان يأخذ الأمير مراد الذي كان لا يجعل عينيه تغيبان عنه جانبا بعد المعركة وكان يوضح له الأخطاء التي وقع فيها. وكان بعد ذلك يحذره قائلا:

إذا كان الحظ قد حالفك هذه المرة في المعركة فاشكره، ولكن لا تنس أنه في المرة القادمة لن تكون لديك الفرصة لتقديم الشكر.

كان الأمير مراد يتقبل باستمرار كل ما يقوله مربيه في كل مرة، وكان عندما ينتهي من كلامه ينحني للأمام باحترام في كل الأوقات وكان بعدما يلقي عليه التحية يتركه وهو يقول:

يا مربيَّ! أعدك بأن أخرج من المعركة سالما في المرة القادمة وبأنني لن أقع في الأخطاء التي وقعت فيها اليوم.

خرج شاهين بك من بورصه وبينما كانت وحدات المشاة تقطع الطريق رويدا رويدا فجأة بدأ الجو ينفخ البرد القارس. وبينما كانت تتقدم جنوب غرب الجبال التي يطلق عليها جبال بيتينيا تحولت الأجواء الباردة إلى عاصفة ثلجية. وخلال عدة أيام كسا اللون الأبيض الناصع الثلوج كل الأماكن. شاهين بك الذي أنقذ قوات وحدات المشاة من التجمد بتسكين قسم منها في القرى الصغيرة الموجودة بين الجبال وقسم آخر في الخيام الكبيرة التي تم إقامتها، بمجرد أن توقف هطول الثلوج أرسل الرسل إلى بورصه. عندما لم يتخذ الأمير مراد الذي التقى رسله عند نيكايا أي قرار بنفسه، أرسل رسله إلى بورصه وإلى أورخان غازي. وبينما ينتظر الخبر الذي سيأتي منه نزل في إحدى القاعات الكبيرة الموجودة في دور والدته الخيرية التي يستمر العمل في البنايات الملحقة بها في نيكايا.

لم يكد أورخان غازي يتلقى الخبر حتى ذهب إلى اليوان من أجل معرفة آراء الوزراء والشجعان الموجودين في الديوان. وطلب معرفة رأي

رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا وبقية الوزراء الآخرين. عندما اتفق رأي كل من هم بالديوان على " أنه في هذا الثلج وفي هذا الشتاء القارس لا يمكن أن يفعل أفضل الأمور الجيدة، ولا أسوأ الأمور السيئة " قال أورخان غازي" من الأفضل تأجيل الحملة إلى الربيع". بعد أن قال هذا أمر سنان الدين يوسف باشا، قاضي بورصه بأن يكتب رسالة من نسختين. وملخصها الرسالة على النحو الآتي: "عليكم أن تتحينوا الأوقات التي لا تنفخ فيها جبال بتينيا الثلوج وتتقدموا حتى جردا. ولتجدوا أحد المشاتي لقواتكم بمساعدة صديقنا سلطان شاه حاكم جردا. ولتستمروا في حملتكم التي سينضم إليكم فيها الأمير مراد مع حلول الربيع.".

رجع الأمير مراد الذي قرأ نسخة الرسالة التي قدمت له إلى بورصه. وبقى هناك حتى حلول الربيع. ومع تحسن حالة الجو وارتفاع درجة الحرارة انطلق للمشاركة في الحملة على رأس وحدات الفرسان التي ضمت بينها مجموعة من الفرسان الجدد. و استقر في أحد قصور سلطان شاه الموجودة في جردا بعد رحلة سفر لمدة أسبوع في السهول التي تخلصت من ثلوج الجبال الثلجية. وكان شاهين بك قبل مجيئه بعدة أيام قد أرسل وحدات الطليعة ومن خلفها وحدات المشاة نحو قلعة أنيرا التي تعرف بأنها موطن تنظيم الإخوة.

ولم يكد يعلم بمجيء الأمير مراد إلى جردا وإقامته فيها حتى ذهب إلى زيارته، دخل قاعة الاجتماعات الواسعة الموجودة في القصر الذي يقيم به وبعد أن ألقى عليه التحية قال:

مرحبا يا أميرنا، أرى أن الإقامة في بورصه كانت مفيدة لصحتكم.

قال الأمير مراد الذي يعرف جيدا معنى نبرات حديثه:

يا مربيَّ، إن الذي أفاد صحتي هو حب والدتي التي كنت بعيدا عنها لسنوات. وبعد أن صمت لبرهة، من المحتمل أن يكون ما علمه الجاندارلي نهارا، وبالقطع نصائح والدي مساءً.

قال المربي شاهين بك:

يا أميرنا لقد اكتسب بدنكم الحيوية بالأطعمة الكثيرة المتنوعة التي تناولتموها مثلما تجدد وتطور فكركم. آمل أن تكونوا قد تعلمتم الكثير من الجاندارلي، لأن يوسف سنان الدين باشا قد أهله جيدا وعلمه كل شيء في إدارة شئون الدولة... ونصائح والدكم في الأغلب صارت خزانة الحياة بالنسبة لكم. ولخص له كل ما تعرضوا له في الشتاء. بيد أنه لم يتحدث عن الصعوبات التي واجهتهم قط.

تحدث الأمير مراد الذي يصغي باهتمام أثناء حديث مربيه، قائلا:

بالقطع لقد واجهتكم كذلك المصاعب طوال الشتاء أيها المربي.

بسط المربي شاهين بك منكبيه وكأنه منتصب على صهوة جواده. ثم قال وهو ينظر إلى الأمير طويل القامة الذي هو في نفس طول قامته تقريبا:

يمكن أن أقول بأنه لم تواجهنا هنا الصعوبات الكثيرة. جئنا إلى هنا وعانينا من بعض الصعوبات إلى أن أسسنا المقر. ولكن بعد تأسيسه لم يكن ينقصنا أي شيء بفضل سلطان شاه. لقد كان أسلوبه الجميل وصحبته الجيدة نعمة من الله علينا طوال فصل الشتاء. عندما جئت رأيته مضطربا بعض الشيء. وبعد السؤال والتحري علمت بأن القرمانيين قد قاموا بعمل تحالف

مع الإلخانيين وتنظيم الإخوة، وأنهم أرسلوا إليه الرسل يعرضون عليه التحالف مع القرمانيين. وبأنه لا يأمن جانبهم. أوضحت له بأنه مع حلول الربيع سوف نقوم بالاستيلاء على أنيرا وبأن حدوده سوف تكون في أمان بفضل وجود القوات الكبيرة العدد التي سنتركها في القلعة. ووثق بكلامي، وتغلب على مخاوفه، وقال بأن قواته سوف تشارك قواتنا في حصار أنيرا. ونحن بدورنا قمنا بتدريب قواته التي ستنضم إلينا مع قواتنا وأعددناها للحرب. وأعتقد الآن أن مجيئكم كذلك شجعه ومنحه الثقة والقوة.

نظر الأمير مراد إليه مبتسما وكأنه يظهر سعادته بالأخبار التي قدمها له المربي شاهين بك. وقال بعد أن بلل بلسانه شفتيه اللتين جففتهما ريح جبال بيتنيا شديدة البرودة التي هبت بشكل خفيف وهما في الطريق:

أطال الله عمركم أيها المربي، في الوقت الذي يتحتم علينا إعطاء درس لتنظيم الإخوة، ليكن اختيارهم بأن يكونوا حلفاء لنا وأن يقطعوا علاقاتهم مع القرمانيين إلى الأبد. وليدفعوا ثمن ما فعلوه بأخي الأكبر سليمان باشا...

هذه المرة نظر المربي شاهين بك بعينيه الزرقاوين إلى الأمام ثم قال:

إن أعضاء تنظيم الإخوة عنيدون شديدو الشكيمة. من المحتمل ألا تكون مهمتنا سهلة إذا حصلوا على الدعم والمساندة من حاكم القرمانيين ولكن مصدر خوفي الأساسي ليس هم...

لما صمت لبرهة فهم الأمير مراد أن هناك ما يؤرقه. نظر إلى جدران القاعة المغطاة بالسجاد المزركش وإلى سقفها الخشبي الذي صنعته أيدي أفضل النجارين المتخصصين في فن الحفر على الخشب دون أن ينظر إلى

وجه مربيه حتى يمنحه بعض الوقت. لما رأى زوال القلق الذي كان باديا بجلاء على وجه المربي شاهين بك الذي رتب أفكاره واستجمع ما سيقوله ومن أجل أن يشجعه على الحديث سأله قائلا:

هل من بين ما يؤرقك وجود ما ينقصنا؟

قال المربي شاهين بك الذي شعر بالرضا لفهم الأمير مراد الذي ينصت إليه باهتمام للمخاوف الموجودة بداخله من بين ثنايا كلامه:

إن ما يقلقني هو، أن يأتي القرمانيون بقواتهم إلى مشارف أنيرا مع حلول الربيع. هذا لا يمثل مشكلة كبرى ولكن...

كان الأمير قد فهم مخاوف مربيه من القرمانيين ولكن كان قد شغف كثيرًا لمعرفة ماذا تخفي كلمة لكن التي كانت آخر ما قله.

ولكن ماالذي يمكن أن يكون وراء كلمة لكن أيها المربي؟

قال المربي شاهين بك للأمير مراد الذي شعر بأنه قد استوى وبلغ أشده:

نعم يا أميري، لكن آمل ألا يأتوا مع حلفائهم الإلخانيين. لو ساق الإيلخانيون تتار الجاودار الذين هم بقايا المغول علينا سيصعب ذلك من مهمتنا بشكل كبير حينذاك. لأن كل سكان هذه المناطق يعرفون بأنهم يشربون الدماء. من الممكن أن يثبط ذلك من عزيمة جنودنا إذا علموا بمجيئهم نحونا. هذا أولا ولكن في الأيام الأخيرة هناك بعض الإشارات والدلالات لنبحثها بعد أن تحصلوا على قسط من الراحة...

قطع المربي شاهين بك حديثه عندما لاحظ شدة إرهاق الأمير الذي يبدو بجلاء من خلال عينيه المراهقتين ونهض بسرعة على قدميه. استدار إلى الخلف قبل أن يخرج من باب القاعة وقال سآتي بصحبة القادة قبل تناول طعام العشاء، وسيكون بصحبتنا أحد ضيوفنا كذلك. ثم خرج من الباب وذهب.

ذهب الأمير مراد إلى غرفة الاستراحة بعد ذهابه مباشرة، وألقى بنفسه على الفراش. إن السفر منذ عدة أيام على ظهر جواده كان قد سبب له إرهاقا شديدا. واستغرق في النوم إلى ما بعد الظهر؟ وعندما أيقظوه لتناول طعام العشاء كان قد استراح بما فيه الكفاية.

لما دخل الأمير مراد إلى القاعة الكبيرة التي اجتمع فيها القادة قبل تناول طعام العشاء نهضوا جميعا على أقدامهم وألقوا عليه التحية. وعندما رد عليهم التحية برأسه مر وجلس على الوسادة المرتفعة التي أعدت له في الزاوية الرئيسية. وبعدما جلس القادة الذين انتظروا جلوسه واحدا واحدا وفق أعمارهم، أشار المربي شاهين بك إلى أحد الرجال الذي يرتدي ملابس التجار والذي يقف على قدميه بجوار الباب، وقال:

يا أميرنا، كنت قد قلت لكم ظهرا بأنه سيكون معنا أحد الضيوف، ها هو ضيفنا ذلك الرجل الذي يرتدي ملابس التجار. جاء من عند القرمانيين، وأثناء ذهابه إلى بيزنطة عبر المنطقة المحيطة بقلعة هراقليا بونتيقا الموجودة على سواحل البحر الأسود ألقى رجالنا في جردا القبض عليه. أخبرنا بأنه رسول للإمبراطور البيزنطي وأنه ذهب برسالة صداقة إلى حكام القرمانيين وعاد. ولما حققنا مع رجاله عرفنا بعض الأشياء الأخرى. عندما سألناه مرة أخرى عن ماهية المهمة التي ذهب من أجلها إلى حكام القرمانيين لم يغير ما

أجاب به. ونحن أيضا من خلال عملية البحث التي قمنا بها، وجدنا إحدى الرسائل التي أخفاها في أحد الأماكن السرية الموجودة في سرج الحصان. ولقد أثار اهتمامنا ما كتبه حاكم القرمانيين في الرسالة للإمبراطور، وتحفظنا على الرسول وانتظرناكم. والحكم والقرار لكم فيما ستتخذونه بشأنه.

أيها المربي، ما هو أكثر ما لفت انتباهكم في الرسالة؟ قولوا ما هو هذا الشيء، حتى نتخذ بشأنه قرارا بسرعة...

قال المربي شاهين بك:

يا أميرنا: إن حاكم القرمانيين، كتب في الرسالة صراحة أنه عندما سيهاجم الإمبراطور أراضي أورخان غازي فإن أهالي منطقة قهرمان وحكام القرمانيين وكذلك من يناصرونهم بمجرد علمهم بنشوب الحرب في تراقيا سيهجمون على أراضي إمارتنا من ناحية الشرق.

لا جرم أن الأمير مراد كان قد اشتد عوده أكثر مما تخيل المربي شاهين بك. بعد أن أنصت إليه بهدوء أعصاب قال بصوت هادئ:

أفهم كل شيء بيد أنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يكن لنا حاكم القرمانيين العداء. يوحدون قوتهم ضدنا لتأكدهم من أن الضعفاء سوف يلقون الهزيمة. وإن معرفتنا بخطة هذه الخيانة كان أمرا جيدا. لنضم منطقة هراقليا بونتيقا الموجودة على سواحل البحر الأسود التابعة له إلى أراضي إمارتنا حتى نبعث برسالة إلى الإمبراطور أثناء العودة من أنيرا. وليكن الرسول ضيفنا حتى نستولى على هراقليا بونتيقا الموجودة على سواحل البحر الأسود، لأنه سيكون رسولنا الذي سنرسله إلى الإمبراطور هذه المرة بعد أن نستولي على قلعة هراقليا بونتيقا، إذا لم يقبل بهذا فليعلم أنه سوف يضرب عنقه.

طلب المربي شاهين بك من طوبال حسن بك أفضل من يتحدث اليونانية بين القادة بأن يقول للرسول كل شيء. نقل طوبال حسن بك كل ما قاله الأمير مراد إلى الرسول. جثا الرسول الذي فرح بسبب عدم إصدار الحكم بإعدامه على ركبتيه وانحنى للأمام وألقى التحية على الأمير. قال المربي شاهين بك لرجاله:

قوموا بتسليمه إلى رجال الأمير سلطان شاه، ليستضيفوه في جردا إلى أن نرجع من أنيرا.

لما أخرج رجال المربي شاهين بك الرسول إلى الخارج، ردد القادة الموجودون بالداخل معًا بصوت عال وهم مسرورون وكأنهم قد حققوا النصر قبل أن يخرجوا للحرب، قائلين:

أطال اله عمركم يا أمير مراد.

في هذا المساء تم تناول الأطعمة التي أعدها طهاة الأمير سلطان شاه، وتم احتساء الشراب الذي تم جلبه من بلاد الفرنجة والذي قدمته الجواري. وعُزفت الموسيقى وتسلوا وهم يشاهدون الراقصات. عندما انتهت الاستعدادات التي بدأت في اليوم التالي وخُلعت الخيام انطلقوا نحو قلعة أنيرا التي يطلق عليها بأنها الحجر الأول الذي تم وضعه لمملكة الحيثيين. أما الأمير مراد الذي شاهد وجه المربي شاهين بك الذي يبدو عليه القلق عندما جاء إلى جواره عند أول مكان للاستراحة بعد عدة أيام من السفر فسأله بسرعة قائلا:

هل هناك خبر سيئ أيها المربي؟

(٨٠)

دخل الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بسعادته التي تكبر بداخله، من باب حديقة قصر والدته أنّا الإمبراطورة الأم. حديقة القصر التي تزينها الزهور المختلفة التي أُرسلت من سافويا حيث المكان الذي ولدت فيه الإمبراطورة الأم وأشجار الورود كثيرة إنتاج الزهور التي تبدو رائعة الجمال لكونها مع أشعة الشمس الساطعة التي تبدو وكأنها أحد القناديل المتأخرة التي أمسكت بضياء الصباح فوق الهضاب التي تطل على حي كريسوبولس الموجود على الضفة الأخرى من البسفور، كانت مثل الجنة الوحيدة المصنوعة بيد الإنسان على وجه الأرض. .كانت الإمبراطورة منذ بداية الجو الدافئ الذي يبشر بقدوم الربيع تقضي كل أيامها في الحديقة. ولم تكف وهي تتابع أعمال عمال الحديقة، ففي الكثير من المرات كانت تساعد في عزق التربة الموجودة حول الأشجار بالمعزقة التي كانت تمسك بها.

كانت تعزق الأرض الموجودة حول إحدى أشجار الكرز عندما دخل الإمبراطور يوحنا باليولوج إلى الحديقة. لما رأت دخول ابنها إلى حديقتها، تركت المعزقة التي بيدها، وسارت نحوه وهي سعيدة. وأثناء سيرها فتحت ذراعيها بسعادة أم تعيش فرحة معانقة ابنها أكثر من كونها الإمبراطورة. كان الإمبراطور باليولوج الخامس إمبراطور بيزنطة العظمى، هو وريث آل باليولوج ولكنها كانت تراه ولدها في تلك اللحظة. فضلا عن ذلك فإنه وفقا

لما سمعته كان ابنها سيخرج للحرب لأول مرة. ولكونها عايشت عن قرب زوجها الذي خرج للحرب على مدى الأعوام، فإنها كانت تعلم جيدا الحالة النفسية التي يعيشها ابنها. ولهذا السبب استقبلته بحميمية من نوع آخر قائلة : "ليرغب في اللقاء مرة أخرى أكثر من الموت والفرقة". بعد أن احتضنت ابنها الذي جاء إليها بذراعيها بشدة تراجعت خطوتين إلى الخلف ونظرت إلى ابنها. ثم ذهبت إليه وعانقته مرة أخرى. قبلته من وجنتيه. ولما دمعت عيناها قال لها الإمبراطور باليولوج الخامس:

يا أمي لا تفعلي هذا، يا جميلة الجميلات التي اختارها أهل سافويا وأرسلوها إلى عرش بيزنطة. لقد شجعتِ أبي أندرونيكوس ومنحتيه القوة في حروبه التي خاضها، والآن أيضا كوني مشجعة ومحفزة لولده يوحنا؛ لأن ابنه يريد أن يسعد روح أندرونيكوس الذي التي أحببتيه كثيرا بهذه الحرب...

الإمبراطورة التي لم تعش شعور اللهفة تقريبا منذ أن ولدته قط والتي أدركت الحماس الموجود في نبرة صوت ابنها، نحت الحزن الموجود في قلبها جانبا، ومن أجل بث روح الشجاعة فيه بدرجة أكثر، قالت:

أنا أيضا مثل أم كل إمبراطور سأنتظر بفرحة اليوم الذي سيعود ابني فيه مظفرا بالنصر. عندما تعود ستجدني هنا منتظرة فاتحة ذراعيَّ، كما حدث عند ذهابك. أريد منك ألا تخلع درعك من على جسدك في أي وقت غير الأوقات التي تخلد فيها للراحة. وليكن أخلص فرسانك الذين تثق بهم مرتدين دروعهم عندما تخلع درعك. لأن الحرب خدعة وكل لحظاتها خطيرة.

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي أمسك بيده يدي والدته ذات الأصابع الطويلة:

عندما أعود سآتي حتى أستطيع أن أبقى فترة أطول في حديقتك الجميلة هذه، فإذا ما خرجتي إلى هذه الحديقة الجميلة فلا تحرميني من دعائك. لم تكن قد سنحت لي الفرصة من قبل للخروج للحرب. لم يعد ماتيوس كنتاكوزين قادرا على خداع أي شخص في الأقاليم. سأقدمي عليه أولا وإلى أن يأتي أورخان غازي الذي ذهب قسم كبير من قواته لحصار أنيرا سأقوم بتطهير تراقيا من قواته وسأعود إلى القسطنطينية خلال أقصر فترة ممكنة.

قالت الإمبراطورة الأم أنّا السفويانية، وهي تنظر إلى ابنها بابتسامة حزينة:

لتعلم أنه كلما زادت قوتك، فلن يبق أحد إلى جواره. لا أريد التدخل في العقاب الذي ستعاقب به ماتيوس ولكن إن وقع والده تحت يدك، فلا تنسى أنه حماك. أنا أكثر من عانى من مساوئه، ولكن لا أريد كذلك أن تنس أفضاله عليك. حتى أن كلانا مدين له بحياته.

قال الإمبراطور:

بعد أن تراجع عن تصفية حسابه معي فليس لي عنده أي شيء أحاسبه عليه يا أمي. لن أفعل أي شيء يحزن زوجتي إيلينا... فإذا أراد فأحضره سأحضره وأجعل له في في قصره مقاما. ثم قبلت الإمبراطورة آنّا ابنها من جبهته مرة أخرى. كانت هذه القبلة تعبر عن كل شيء وتحمل بين ثناياها مغزى فحواه: "يمكنك أن تذهب الآن". الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس

الذي فهم ذلك، في البداية تراجع ثلاث خطوات إلى الخلف، وحنى رأسه وبعد أن ألقى التحية على والدته استدار وسار نحو عربته التي تنتظره أمام باب الحديقة. لم ينس أن يلوح بيده لوالدته حينما ثنى قائد العربة سوطه ونزل به فوق ظهر الجياد.

كان قد بقى شيئان يجب على الإمبراطور القيام بهما قبل انطلاقه للحاق بالوحدات العسكرية التي تنتظره. أولا لقاء رئيس الوزراء للمرة الأخيرة قبل الخروج للحرب ثم الذهاب إلى قصره وتوديع الإمبراطورة إيلينا وأولاده. لما توقفت عربته المقفلة أمام قصر الحكم ذهب أولا إلى مكتبه وأخذ شعار الإمبراطورية وسلمه لقائد الحرس. وأثناء سيرة نحو قاعة الاستقبال سأل هل جاء رئيس الوزراء أم لا. لما علم أنه على وشك الوصول دخل الغرفة وبدأ في انتظاره. وبينما ينظر مبتسما من نافذة القاعة إلى حي أهالي جنوة، وهو يحدث نفسه قائلا : "كان جيدا عقد اتفاق مع أهالي جنوة حتى وإن كان اتفاقا سريا. سال لعابهم لما علموا بأنه سيتم تخفيض الضرائب التي يدفعونها إلى أورخان غازي إلى النصف. ولو وسع صهرنا أفقه قليلا لحُل الأمر"، دخل رئيس الوزراء إلى الداخل. وبعد أن ألقى التحية على الإمبراطور، قال:

يا صاحب العظمة الآن تستطيعون الخروج للحرب وقلبكم مطمئن. لقد استيقظ الأسد الموجود في قلوب كل من أهالي جنوة والبندقية وقدموا الكثير من المساعدات التي يمكن أن يقدموها.

شعر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بأنه إمبراطور حقيقي لأول مرة منذ سنوات. إن كل وحداتنا العسكرية تنتظركم على مشارف سيليمرا.

إن إذعان كل قواته له وعزله القائد العام للقوات من منصبه جعله يشعر بأنه أصبح الآمر الناهي في كل شيء. نظر إلى رئيس الوزراء ألكسيوس وقال:

القسطنطينية أمانة في عنقك من الآن. أخبرت قائد حرس القلعة بأن أوامرك التي ستصدرها له، هي أوامري. سأرسل لك الأخبار ، وسأحصل منك عليها بواسطة مراسلي المسافات البعيدة. ولا تقصر في طلبات الإمبراطوريتين. ليتم تسليم الرسائل التي سأرسلها لهن إليهن في الحال ولترسل الرسائل التي سيكتبنها لي إليَّ دون توان. وسيطروا تماما على حي أهالي جنوة ولكن لا تضيقوا عليهم أكثر من اللازم...

كان رئيس الوزراء قد فهم جيدا ما يريد الإمبراطور قوله. وبعد أن تمتم في نفسه قائلا "مرة أو مرتين ثانية" قال للإمبراطور:

لا تنظروا خلفكم يا صاحب العظمة، إذا أرسل أهالي جنوة الهدايا من تلقاء أنفسهم فبها ونعمت وإذا لم يرسلوا فسيعلمون ما يفعلون.

لما انتهي الإمبراطور من أعماله هناك اتجه نحو قصره، بعد أن ودع الإمبراطور رئيس الوزراء. كانت الإمبراطورة إيلينا تعتني بحديقتها هي الأخرى مثل الإمبراطورة الأم آنا حينما وصلت عربته إلى فناء القصر. ولكن كانت توجد في حديقتها زهور وورود أقل مما هو موجود في حديقة الإمبراطورة الأم.

ركض الأولاد الذي شاهدوا دخول الإمبراطور إلى الحديقة نحو والدهم. احتضنهم وقبلهم من وجناتهم. وقال أثناء سيره معهم نحو الإمبراطورة إلينا:

إن حديقتك هي حديقتي يا ابنة كنتاكوزين. اذهبي وشاهدي الزهور التي تفتحت والورود المزهرة الموجودة في حديقة آنًا السوفويانية.

استدارت الإمبراطورة إلينا بجسدها اللطيف والناضج بخفة ودلال وقالت وهي تتابع سير الإمبراطور نحوها:

حتى وإن لم يكن في حديقة الأمهات أي شيء فإنها تبدو جميلة في عيون أولادها. من يدرى إلى أي درجة وصل جمال حديقة والدتي الموجودة في ديموطيقا الآن.

وفقا لآخر ما سمعته فإن والدتك كانت بصحبة مانويل.

من المؤكد أنها قد رجعت... إنها لا يمكن أن تبقى بعيدة عن حدائقها فترة طويلة...

إن نبرة صوتك تدل على اشتياقك إليها. إن كتب الرب ليَّ النصر، سوف آخذها وأحضرها إلى القسطنطينية. لا نستطيع أن نعلم ماذا سنفعل عندما نلتقي وجها لوجه مع ماتيوس، ولكن إذا التقيت بوالدك سأقول له بأنك اشتقت إليه كثيرا.

قالت الإمبراطورة إيلينا بعد أن ابتسمت بسمة حزينة:

أشكرك يا يوحنا... ولكن لا تنس، أن أخي ماتيوس قائد عظيم، ليتك تتعاون معه وتعملان معًا. ولكن افعل ما هو في مصلحة القسطنطينية. إن الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي خصص الوقت لأطفاله حتى تناول طعام العشاء بعد أن تبادلا الحديث لفترة أخرى، كان ينظر باستمرار إلى ابنته إيرينا خطيبة الأمير خليل التي أصبحت فتاة يافعة. وبينما يقول أحد

الأصوات الموجودة بداخله "يا بنيتي آه لو لم تكبري بهذه السرعة"، كان صوت آخر يقول: "يجب أن تذهبي إلى المكان الذي يتناسب مع بلوغك هذا العمر، ليتسع الأفق الذي ستشرق فيه شمسنا" وذهب متعبا إلى مائدة الطعام جراء تغيير كلا الصوتين لموقعهما باستمرار. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي كان يلتهم الطعام وكأنه لن يشبع أبدا كانت نفسه لا تشتهي الطعام، ترى هل هي فرحة الخروج للحرب لأول مرة أم الخروج لسفر غير معلوم العاقبة. ولكن تحمل على نفسه وتناول القليل من الطعام. وبعد تناوله ذهب بأولاده حتى أبواب غرفهم وسلمهم للخدم. وذهب إلى جناح حريمه الذي تنتظره فيه الإمبراطورة إيلينا. وقام بالاستحمام في حوض الاستحمام المملوء بالماء المعطر بالروائح الجميلة والذي أُلقي فيه الزهور التي قيل أنه تم إحضارها من الأماكن البعيدة. ذهبت به الجواري حتى غرفته وتمدد بجوار الإمبراطورة إيلينا التي تنتظره على السرير الواسع. وبينما ينظر بحب وولع إليها قالت له:

أشكرك يا يوحنا على كل الأشياء الجميلة التي جعلتني أعيشها على الرغم من أيامنا العصيبة التي نعيشها والتي ليس لنا دخل فيها. أتمنى أن تعود إلى قصرك دون أن تنسى هذه الليلة التي سنقضيها معا. سأنتظرك هنا على أحر من الجمر وكلي شوق إليك.

قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس، بعد أن التحم للمرة الأخيرة بالجسد النحيل الجميل للإمبراطورة ايرينا الذي جعلته يعيش ليلة شرهة:

لأني لا أعلم كيفية الخروج للحرب ولا كيفية العودة منها فلا أستطيع أن أعرف ما الذي سأقوله لك. لا أعرف ما الذي سيصيبني. ولكن فليكن ما هو مقدر لي. ولكن مهما يكن الأمر فلا تتركي القسطنطينية. لو قدرت لي العودة أريد أن أجدكم هنا. ثم نهض وارتدى ملابسه وانطلق بعد أن تقلد سيفه.

انطلقت العربات التي تجرها الجياد القوية وهي تسابق الريح ووصلوا إلى قلعة سيليمبريا، قائد القلعة الشاب الذي لم يستقبل أي إمبراطور في قلعته، استقبل الإمبراطور في حديقة قصره المطلة على بحر إيجه الذي يبدو من حديقته هادئا للغاية مثل البساط الأزرق بعد أن حصل على لقب فارس. لم يكن ينقص مائدة الفطور التي تم إعدادها في الحديقة حتى لبن العصفور. فهم الإمبراطور الذي تناول طعام الفطور مع قادة قواته من نظراتهم الضاحكة مدي شوقهم من فترة طويلة لهذه الحرب التي سيظهرون فيها قوتهم. لم يكد ينتهي من تناول طعام الفطور حتى نهض على قدميه. بعد أن وجه الشكر إلى قائد القلعة ولحرمه الموجودة بجانبه بعبارات مهذبة، نظر إلى قادة قواته الموجودين على مائدة الفطور، وقال:

هذه الحرب التي سنبدأها من سيليمبريا قلعة سيليس التي استولى عليها من يسمى بان ابن نيافا من سيلينوس صاحب النظرات التي تشبه نظرات الثور، سوف تزيد إمبراطوريتنا قوة وتمنحكم الفخار. وصاح قائلا النصر لنا ثم نهض على قدميه. كل المحاربين الذين نهضوا معه على أقدامهم صاحوا معًا في نفس واحد مرددين: "النصر لنا" عدة مرات وساروا نحو جياد سيليمبريا الأصيلة التي تنتظرهم خلف الإمبراطور.

(٨١)

كان الأمير مراد يسرع بجواده على الطريق الممتد بين الأشجار التي تفتحت زهورها على جانبي الطريق. كان هو الجواد الثالث الذي غيره ولكن كان فم جواده الثالث أيضا قد بدأ يلهث بشدة ويخرج الرغاوي البيضاء من فمه. ولأنه كان ينظر إلى ما حوله أكثر مما كان ينظر إلى جواده لم يكن قد لاحظ أن فم جواده يخرج الرغاوي البيضاء. ففي الوقت الذي كان ينظر فيه إلى زهور الأشجار، كان كذلك يضرب بطن جواده بالمهماز باستمرار. الجواد المسكين كان قد أيقن أن قدرته على الركض قد انتهت لكن من أجل عدم خيانة الدم الأصيل الذي يجري في عروقه وبينما كان يستمر في الركض وكأنه يسابق الريح هبت لنجدته أصوات التسابق القادمة من بين أشجار الفاكهة ذات الأزهار الوردية التي تقف وكأنها قد لجأت تحت أغصان أشجار الكستناء الضخمة. شد الأمير مراد الذي سمع الأصوات لجام جواده، ولما هدأ الجواد من سرعته لاحظ رغاء فم جواده. وبينما يداعب رأس جواده بامتنان ورضا استدار للخلف ونظر إلى المربي شاهين بك والآخرين القادمين من خلفه. إلا أنه لم يستطع أن يشاهد أي شخص لأنه في الوقت الذي كان يجعل جواده يركض بهذه السرعة، لم يكن القادمون من خلفه فحسب بل الذين انطلقوا من قبله كانوا قد تأخروا عنه بمسافات بعيدة. وفي الوقت الذي أرهف فيها السمع جيدا لكي يستمع إلى وقع أقدام الجياد التي تتبعه من بين أصوات الأشجار التي تهتز وتهمس بفعل تلك الرياح الخفيفة،

فجأة كثرت الأصوات التي كانت سببا لتهدئة سرعة جواده قبل قليل. الأمير مراد الذي أصابه الفزع لتزايد هذه الأصوات فجأة على هذا النحو، عندما نظر إلى الأمام شاهد قطيع الجاموس الذي خرج من بين الأشجار ويعبر إلى الجانب الآخر من الطريق. نظر وهو في حالة اندهاش فترة إلى قطيع الجاموس الذي قطع الطريق ثم اختفى بين الأشجار الموجودة عند جنوب الطريق. قفز بحركة سريعة ونزل من فوق صهوة جواده بعدما اختفى قطيع الجاموس بين الأشجار. ترك لجام جواده وجلس مستندا بظهره على جذع شجرة الكستناء الضخمة الموجودة على جانب الطريق. أدرك رغبته في إنجاز المهمة التي يرغب في إنجازها منذ أيام والتي لم يتمكن من إنجازها بعد، ومع صمت تلك اللحظات التي لا يوجد فيها أي شخص اغرورقت عيناه بالدموع سلم نفسه للنحيب والبكاء. وبكي إلى أن سمع أصوات أقدام الخيل التي تأتي من مسافة بعيدة جدا. مسح دموعه بطرف ردائه عندما سمع وقع أقدام الخيل. وشعر بنشاطه وحيوته وهو ينظر نحو القادمين. واندهش؛ لأن ذلك البكاء قد هدأ من روعه إلى هذه الدرجة وبث فيه الحيوية والنشاط لدرجة كبيرة. ونهض على قدميه أثناء مرور قوات الطليعة والمراسلين مسرعين وذهابهم. داعب جواده الذي يقف بالقرب منه والذي ما زال يلهث حتى الآن. قال وهو ينظر إلى جواده: " إن مربيَّ، ينصحني منذ زمن بعيد بأن أكون قاسيا أكثر من القسوة، ولكن ترى لم أستطع أن أقسو قدر ما يريد. أنا أرى أنه عندما تكون أميرا يجب أن تكون كذلك.". ومال ونظر إلى الخلف مرة أخرى. كان يرى أقدام الخيل التي تركض على الطريق المستقيم الممتد بين الأشجار، ولكن لم يتسن له رؤية الفرسان الذين يمتطونها. رجع

بنظراته مرة أخرى إلى جواده وابتسم. ومسح بيده العرق الموجود على صدر جواده العريض. الجواد الذي شعر بالسعادة والرضا من اهتمام فارسه به، لمس بفكه الأسفل كتف الأمير مراد لقاء الشفقة والرحمة التي أبداها له. الأمير مراد وكأنه يقدم ردا على لمسة حصانه الحنونة هذه حدث جواده قائلا:

يقولون إن الأمراء لا يبكون ولكن رأيت أنت أيضا قبل قليل أن هذا كذب. ولكن ليبق ذلك سرا بيننا. لا تظن أنني أخجل مما فعلت ولكن ليكن ذلك هو السر المشترك بيننا...

قال الأمير مراد الذي ينظر إلى المربي شاهين بك والفرسان الآخرين أثناء اقترابهم منه مرة أخرى: " أفضل شيء أنني بكيت". و حدث نفسه وهو ينظر إلى أحد الأغصان المزين بالزهور الوردية بعد أن التقط أنفاسه، قائلا: " ربما يكون والدي كان قد رأى تفتح تلك الأزهار العام الماضي". جاء الآخرون إلى جواره قبل أن يستغرق في العالم الموجود في أفكاره. وثب على ظهر حصانه وأمسك بلجامه حينما شاهد مجيئهم. وفي الوقت الذي كان يتحرك فيه بسرعة الجواد الذي حصل على قسط من الراحة، قال المربي شاهين بك:

يا أميري لقد قطعنا مسافة طويلة من الطريق. لقد التقط جوادكم أنفاسه ولكن جيادنا متعبة جدا، ليلتقطوا أنفاسهم قليلا، ثم ننطلق.

ترجل الفرسان عن جيادهم، ارتشفوا الماء من زمزمياتهم الخشبية المغلفة بالجلد المنقوش أثناء استراحة جيادهم. وحركوا أرجلهم وسواعدهم. امتطوا جيادهم بعد أن تبادلوا الحديث فيما بينهم عن الجزء الباقي من

الطريق. كان المربي شاهين بك الذي يقود جواده إلى جانب جواد الأمير مراد خلال رحلات السفر الأخرى، وكان يتبع الأمير من على بعد مسافة ما ظنا منه بأن الأمير في حاجة لأن يبقى بمفرده حتى يتمكن من البكاء. وكان يحدث نفسه أحيانا وهو ينظر إلى ظهر الأمير مراد من الخلف قائلا:

أفضل علاج للأوقات السيئة هو أن نخلو بأنفسنا يا أميرنا. بعد أن قال هذا، كان يسعى لوضع برنامج له للأعمال التي سيتم إنجازها بعد ذلك. كان أكثر ما يشغل عقله هو من سيكون رئيسا للوزراء خلفا لسنان الدين يوسف باشا. على الرغم من أنه كان كثيرا ما يتخيل نفسه مكانه، فإنه كان يفكر قائلا: يجب أن أكون إلى جوار أميري الذي سيصبح قائدا... يجب أن أرى انتصارته، مثلما رأيته قائدا. إذا تقدم بي العمر قليلا فلربما أصبح رئيسا للوزراء.". ولكن في الكثير من المرات، كان لا يستطيع التخلص من طموحه قائلا: مادام أميري سيصبح حاكما للدولة، فإن من حقي تبوأ أرفع المناصب.".

لما بدت في الأفق قلعة بورصه كانت الشمس قد تدلت مثل بندول مزيف من فوق جبل أولمبيا وكانت تنظر مستاءة بأشعتها عديمة البريق إلى بساتين بورصه الرائعة تلك. صوت أورخان غازي تجول لفترة فوق القلعة وكأنه يشاهد نظراتها الممتعضة تلك، قائلا:" لا لا ذنب لكما. لا تستاءوا من بعضكما.".

في الوقت الذي كان يجهز فيه سنان الدين يوسف باشا رئيس الوزراء الذي كان إلى جوار أورخان غازي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، للمراسم تشيع الجنازة، فإنه كان من ناحية أخرى قام بعقد اجتماع للديوان ومن أجل الحفاظ على كيان وسلامة الدولة كان قد أرسل إلى كل القضاة نص الخطبة التي

سيلقونها في خطبهم في أول جمعة حتى يعلنوا فيها أن الأمير مراد سوف يتولى حكم الولاية خلفا لوالده أورخان غازي. وبينما كان رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا يقوم بانجاز تلك الأعمال، فلم يكد يعلم باقتراب الأمير مراد من القلعة حتى جاء من فوره إلى باب القلعة وانتظر قدومه. ما إن رأى الأمير مراد رئيس الوزراء الطاعن في السن الذي يقف على قدميه بمساعدة الجاندرالي، حتى ترجل الأمير من فوق جواده. وقال رئيس الوزراء للأمير مراد الذي جاء إلى جواره:

البقاء لله يا قائدي.

قال الأمير مراد الذي لم يهتم كثيرا لخطاب رئيس الوزراء الذي كان يخاطبه في كل وقت قائلا "يا أميري" هذه المرة قائلا له "يا قائدي":

أحسن الله عزاءكم أنتم أيضا يا يوسف باشا. وقبل يده احتراما لسنه.

تأثر رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا كثيرا من تقبيل الأمير مراد الذي خاطبه قائلا يا قائدي ليده. مضيفا دموعه التي تنزل بصعوبة من عينيه الهرمتين إلى صوته وقال:

يا قائدي، فلنوار الجثمان الثرى بعد صلاة العصر وألا نجعله ينتظر أكثر من ذلك.

القائد مراد، لما وافق على ذلك عبر الإشارة برأسه، ركبوا جميعا عربة رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا التي تجرها الخيل وجاءوا إلى جامع أورخان غازي. أثناء الطريق حكى الجاندارلي للأمير عن موت والده وكل ما حدث بعد الوفاة. لم يكد ينتهي من حديثه حتى نظر إلى رئيس

الوزراء سنان الدين يوسف باشا. أمسك رئيس الوزراء العجوز بيد الأمير مراد الذي يجلس بجواره وقال:

كانت أمنية والدك هي أن تتولى حكم ولاية آل عثمان. ونحن أيضا قمنا بإبلاغ قضاتنا بالقرار الذي اتخذناه في اجتماع الديوان. بعد مراسم جلوسكم على عرش الحكم التي سيتم إجراؤها بعد تشيع الجنازة ستقرأ باسمك أولى خطب الجمعة. ربما تقولون إنه لا داع للعجلة في ذلك ولكن الولاية لن تبقى دون قائد يا ولدي. واغرورقت عيناه بالدموع.

أحس الأمير مراد للمرة الأولى بأن كل أوزار ومسئوليات الولاية قد حطت على كتفيه أثناء نزوله من العربة أمام جامع أورخان. قام بتقديم العزاء لشقيقيه إبراهيم وخليل اللذين قدما إلى بورصه وإلى جامع أورخان من قبله وجعل أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره وذهب إلى جثمان والدهم المسجى في التابوت. جثا ثلاثتهم مرة واحدة على ركبهم ووضعوا أيديهم على التابوت وتأملوا والدهم في خشوع. ومع ابتعادهم عن التابوت أمر سنان الدين يوسف باشا بحمل الجثمان وضعه على المصلى. بعد ذلك كان كل شيء طبيعيا. بعد أداء صلاة الجنازة حمل الرجال التابوت على أطراف أصابعهم حتى المقابر.

القائد مراد الذي ينظر للمرة الأخيرة إلى قبر والده الذي أهيل عليه التراب، اصطحب شقيقيه الموجودين إلى جواره وذهب بصحبة سنان الدين يوسف باشا إلى اجتماع الديوان. عندما دخلوا قاعة الديوان التي تشهد اجتماعات الديوان (الحكومة) قام رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا بالإشارة إلى المقعد الذي كان يجلس عليه والده في كل الأوقات. لما لم يستطع الأمير مراد الذهاب مباشرة إلى المقعد جراء تأثر مشاعره، قال:

يا قائدنا، إن مصابك مصابنا جميعا. لكن السبيل الوحيد لإنهاء هذا الألم هو أن تتبوءوا سدة حكم الولاية الذي تركه والدكم لكم وأن ترفعوا الرايات العثمانية على المناطق الموجودة خلف حدود الدولة. بعد ذلك سيكون مجلس حكمنا وكذلك قوات مشاتنا وأيضا قوات فرساننا تحت إمرتكم كحاكم للولاية. لينصركم الله، وانحنى باحترام قليلا إلى الأمام.

تغلب الأمير مراد على شعوره هذا، ثم مر وجلس جلسة غير مرتاحة على مقعد والده. جميع القادة والشجعان والعلماء الذين ينتظرون جلوسه، بعدما تربع وجلس خطب فيهم قائلا:

وزراء أبي أورخان غازي المحترمون، الأبطال البواسل، القادة الكبار، العلماء الأجلاء، الأمراء سوف أبذل كل ما في وسعي من أجل القيام بهذه المهمة الجليلة التي كلفتموني بها وفقا لوصية والدي، وأعدكم بأنني سأحمل راية الولاية من نصر إلى نصر. ومن الآن سيصبح شقيقاي إبراهيم وخليل قائدين للقلاع. وعند خروجنا للانتصارات الكبرى سوف ينضمان إلينا بفرسانهما. بعد إجراء مراسم الجلوس على عرش الحكم سوف يذهب مربيً شاهين بك ليتولى قيادة قواتنا الموجودة على مشارف قلعة أنيرا، وبعد أن تنتهي مهمته هناك سوف ينطلق نحو قلعة هراقليا بونتيقا آخر قلاع البيزنطيين الموجودة على سواحل البحر الأسود. وأنا كذلك بمجرد أن أنتهي من أعمالي في بورصه سوف أنطلق للحاق بهم. بمجرد أن ننجز مهماتنا الموجودة على هذه الضفة سوف ننطلق إلى الضفة الأخرى للدردنيل حتى نحقق الأحلام التي كان يحلم بتحقيقها شقيقي الأكبر سليمان باشا. ليقدر الله ليّ النصر مثل والدي وشقيقي الأكبر سليمان باشا. لا تنسونا بالدعاء لنا ولدولتنا.

نهض كل من بالداخل على أقدامهم ووضعوا أياديهم اليمنى على صدورهم وقالوا:

لتكن أرواحنا فداء لك من أجل زيادة عزتك ورفعتك أيها القائد مراد ابن أورخان ابن آل عثمان.

لما جلس كل شخص في مكانه مرة آخرى قرأوا الفاتحة على روح أورخان غازي وشربوا الشربات. وهكذا انتهي اجتماع الديوان في ذلك اليوم. اصطحب الأمير مراد الذي اعتلى سدة الحكم شقيقيه وذهبوا إلى أمهاتهم الموجودات في جناح حريم والدهم بعد انتهاء المراسم. تأثرت مشاعر نيلوفر خاتون وبدأت تجهش بالبكاء بصوت عال عندما رأت ابنها أمامها أثناء جلوسها بمفردها في قاعة الجلوس الكبيرة. القائد مراد الذي استمع فترة لبكاء والدته، قال وهو ينظر إلى يدي والدته اللتين أخذهما في قبضة يديه:

والدتي العزيزة يا سيدة السيدات، من الآن حريم والدي أمانة في عنقك... لن أطلب منكن تغيير أي شيء في جناح حريمكن. أنتم وزوجات والدي يمكنكن إن أردتن الإقامة هنا أو في أي قلعة من القلاع الأخرى حسب رغبتكن.

قالت نيلوفر خاتون وهي تنظر إلى وجه ابنها المشرق ذي اللحية الخفيفة:

لتسلم يا ولدي لمجيئكم إلى القصر وتخفيفكم عنا آلامنا. أمنيتي أن أكون من الآن بجوار ولدي. أنا لا أخشى على نفسي لكن زوجات والدك الأخريات ربما تكون لديهن بعض المخاوف حتى وإن كانت صغيرة. الآن أدعهن للمجيء إلى هنا، وقل لهن ما قلته لي حتى تستريح قلوبهن...

القائد مراد الذي ينظر إلى شقيقيه غير الشقيقين اللذين يجلسان إلى جانبيه، عندما وافقا على ما قالته والدته صفقت والدته نيلوفر خاتون بيديها واستدعت الخادم الموجود عند الباب. لما دخل الخادم إلى الداخل طلبت منه استدعاء السيدتين أسبورجه وتيودورا. نهض القائد مراد وشقيقاه اللذان شاهدا السيدتين اسبورجه وتيودورا اللتين دخلتا بعد قليل وألقوا عليهن التحية. لما جلسوا جميعهم باحترام على الأرائك بعد أن أخذ القائد مراد احدى يدي والدته ذات الأصابع الطويلة بين كفيه مرة أخرى، قال:

زوجات والدي أورخان غازي الفضليات. لتعلمن أنه لن يطرأ أي تغيير على حياتكن في قادم الأيام. وأن شقيقي إبراهيم وخليل سوف يستمران حاكمين وسيقومان بمهامهما في قلعتيهما. تستطيعان زيارتهما وقتما تشاءان. من الآن لن ينقصكن أي شيء، عما كان في الماضي. الأسبلة ودور رعاية الأيتام التي أمرتن بانشائها بأسمائكن سوف يستمر العمل في إتمام بنائها، وسيتم زيادة الأوقاف للعمل على زيادة مواردها. أنتن يا من تذكروننا بوالدي ستكونن تاجا على رأسي ورأس شقيقيَّ في كل وقت.

زوجتا أورخان غازي التي كانت كل واحدة منهن أكثر شبابا ولباقة أكثر من الأخرى قالتا وهما تلقيان التحية على أبناء زوجهما:

أطال الله عمركم أيها الحاكم مراد.

(٨٢)

خرجت عربة الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس من قلعة بيرنتوس المرسوم على أحد جدران بوابتها دينوزوس الذي يسير مع ستراي ونسائه اللواتي يحملن السجلات العامة للمجرمين، وعلى جانبه الآخر القوس الذهبي المنصوب فوق العربة التي تجرها الأيائل والمبنية على شكل مجسم أرتميس. بدأ الفرسان المدرعون من رءوسهم حتى أخمص قدمهم والذين شاهدوه والمحاربين البيزنطيين المشهورين بارتدائهم واقي الركب الجلدي والمسلحين بالتروس في إطلاق صيحات النصر التي هزت الأرض والسماء حينما اتجه نحو معسكر الجيش الموجود في الشمال. نهض الإمبراطور الذي جاء إلى جانبهم والذي خلع كل الأغطية الموجودة فوق جسده واقفا على قدميه داخل عربته وكأن كل صواعق السماء قد سقطت على تراقيا بعدما ألقى عليهم التحية. كان الإمبراطور الذي يلقي التحية على وحدات المحاربين التي تقف على شكل الطوابير المصفوفة، فإنه كان ينظر بطرف عينه إلى قلعة بيرنتوس الشامخة. لما رأى تحديها للزمن على هذا النحو، حدث نفسه قائلا : "وكأنها قد نسيت استسلامها لفيليب، وإلى ابنه كذلك، وتحولها إلى معسكر داريوس، واستعادتها إلى ساحة لعب سابتوموس". كما حدث نفسه أثناء رجوع عربته التي تجرها جياد أدريوس القوية من أمام الوحدة الموجودة في أقصى الأطراف، قائلا : "لو لم يكن من يحميها، لما كان من سيحافظ على حجارتها الموجودة في جدرانها". وبعد أن نظر إلى القلعة للمرة الأخيرة رفع يديه إلى كل الوحدات العسكرية وصاح قائلا:

ليكن النصر حليفكم. وأمر قائد عربته بأن يقود الجياد ببطء حتى يلقي التحية على الوحدات. مشت خيول أدريوس القوية التي تجر عربة الإمبراطور على مهل، ولما جاءت إلى منتصف الميدان الذي يوجد به الوحدات طلب الإمبراطور من قائد عربته إيقافها. لما أوقف قائد العربة العربة أنزل الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي يرتدي دروعه يده وأسكت الذين يطلقون الصيحات. نظر إلى الوحدات التي تنتشر بشكل منظم على الأراضي المنحدرة. عم الصمت المطبق المكان. صاح الإمبراطور الذي انتظر برهة وكأنه يستمع لهذا الصمت بأعلى صوته قائلا:

الدوقات، الكونتات، الفرسان والمحاربين الأعزاء! وبعد أن صمت برهة استمر قائلا، يا قوة بيزنطة التي لا تقهر. وعندما قال، إننا سنظهر بهذه الحرب التي خرجنا لها قوة بيزنطة العظمى للعدو وللصديق، شاهد الفرسان الذين يقودون جيادهم بشكل منظم نحو الوحدات. واستمر في حديثه وهو ينظر إلهم بطرف عينه. هذه هى الحرب الأولى التي أخرج فيها معكم. إن ثقتي بكم بلا حدود وقال ومعكم... ولكن لما أدرك أن ليس هذا الذي سيقوله، قال، ... بعد حربي الأولى هذه أريد أن تتوالى انتصارتنا معا. وكأن شيئا قد حال بين عقله ولسانه. لما أدرك أنه لن يستطيع أن يقول الكلام الذي سيقوله وفي حالة من العجز وقلة الحيلة، ردد جملة فليعش فرسان بيزنطة العظماء، ويحيا المحاربون البواسل... لثلاث مرات متتالية. ومع ترديد الوحدات ما قاله في صوت واحد فإن الإمبراطور الذي اكتسب الوقت اللازم، قام بإشارة منه باستدعاء قائد الحرس الذي يقف فوق جواده كالتمثال على بعد عدة أمتار خلف عربته.

ولما جاء قائد الحرس إلى جواره أشار إلى الفرسان القادمين، وسأله قائلا:

من هؤلاء؟

وبينما يرسل قائد الحرس بإشارة منه مراسله نحو القادمين، قال:

يا صاحب العظمة، ليس لدي أية فكرة عن ذلك ولكن ربما يكونون رسلا من وحداتنا.

على الرغم من حماس الإمبراطور بالصيحات التي يطلقها الفرسان، فإن الإمبراطور الذي تملكه الإحساس بالوحدة التي أحدثها الانتظار كان قد حاول التخلص من هذه الوحدة بالحديث مع قائد الحرس، إلا أن الأمر قد طال جدا إلى أن عاد المراسلون.

نزل كبير مراسلي القائد العام للقوات ديمتريوس من فوق حصانه وأثناء سيره نحو الإمبراطور أطبق الصمت على المكان كما حدث قبل قليل. لم يكد ينزل رسول القائد العام ديمتريوس من فوق حصانه حتى أعطى للإمبراطور الذي سلم عليه باحترام الرسالة المغلفة بالقماش المشمع التي أخرجها من بين طيات حزامه ارتبك الإمبراطور الذي قرأ الرسالة القصيرة من القماش المشمع بسرعة. وصار لا يدري ماذا سيفعل. نظر إلى قائد الحرس وحاول لفترة أن يتمالك أعصابه. ابتلع ريقه مرة أو مرتين. وبمجرد أن سيطر على الارتباك الذي تملك قلبه، قال:

أيها الدوقات، الكونتات، الفرسان والمحاربون الأعزاء! كنت أريد أن تكون رودس هي محطتنا القادمة، ولكن ديمتريوس العظيم قائد قواتنا البرية يستدعينا إلى قلعة تريهالوم. لأن ماتيوس كنتاكوزين كان سيواجهنا هناك. هيا حان وقت إلقاء القبض عليه متلبسا. وأشار إلى قائد عربته نحو طريق تريهالوم.

تحركت وحدات الفرسان التي شاهدت انطلاق عربة الإمبراطور نحو تريهالوم هي الأخرى على الفور وبدأت سحابة كبيرة من الغبار ترتفع نحو السماء. بعد قليل كان المحاربون البيزنطيون قد اختفوا وسط سحابة الغبار. كانت الشمس على وشك الغروب عندما شاهدت وحدات الفرسان التي تقدمت دون توقف خلف عربة الإمبراطور قلعة تريهالوم. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي جاء مع وحداته التي تقدمت عبر قاع الوادي: حتى لا يراهم من بالقلعة إلى مقر قائد الوحدات البرية، أمر على الفور بعقد اجتماع لمجلس الحرب الذي يتكون من القادة العسكريين الموجودين هناك في خيمة القيادة. وبينما ينتظر اجتماع مجلس الحرب، أرسل أوامره لكل الوحدات قائلا: "عدم قيام أي شخص بأي تحرك يمكن أن يُشَاهَد من القلعة قبل حلول الظلام. وألا يتم إشعال النار حتى يأتي أمر آخر بذلك". الفارس ديمتريوس قائد القوات البرية الذي ألقى كلمة افتتاح الاجتماع الذي بدأ بعد فترة قصيرة، بعد أن قدم معلومات عن الوضع داخل القلعة، أنهى كلمته قائلا:

وفقا لتقاليدنا الإمبراطورية، فإنه حينما يشارك الإمبراطور في الحرب، يكون هو القائد العام لكل الجيش ثم صمت.

سأل الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي ليس لديه علم عن هذا التقليد بعد أن أصابته الدهشة لفترة قصيرة، قائلا:

ممن حصلتم على المعلومات الموجودة عن الوضع داخل القلعة؟

أجاب ديمتريوس قائلا:

ألقينا القبض على رسل ماتيوس كنتاكوزين الذين أرسلهم إلى القسطنطينية يا صاحب العظمة. قال الإمبراطور بعد أن نظر إلى وجوه القادة الذين أنصتوا باهتمام إلى ما قيل واحدا واحدا:

فرساننا الأعزاء كما تعلمون فإن بيزنطتنا قد عانت كثيرا من ماتيوس كنتاكوزين حتى اليوم. وها هي فرصة تخليص بيزنطة من هذا البلاء قد جاءتكم...

لم يكن قد فرغ من حديثه ولكن عندما شاهد دخول رسول قائد الحرس إلى الداخل وقوله بعض الأشياء في أذن قائد الحرس نظر إليهما بقلق. لما أنهي المراسل كلامه واتجه نحو الباب نظر قائد الحرس إلى الإمبراطور الذي ينظر إليه وانحنى قليلا للأمام ثم قال:

أستميحكم عذرا يا صاحب العظمة لأني قطعت حديثكم. إن رسلنا الذي جاءوا من القسطنطينية أتوا لنا بخبر وفاة أورخان غازي زوج الأميرة أسبورجه وحما ابنتكم. إن هذا أيضا لدليل على مباركة الرب لهذه الحرب العادلة التي خرجتم لها...

نظر الإمبراطور إلى قائد الحرس نظرة غاضبة بعض الشيء ثم قال:

يجب ألا يسعدنا أي خبر بالموت يا منتاروس. صمت لبرهة وأحضر أمام ناظريه هيئة أورخان غازي عريض المنكبين رَبْعُ القامة. ولما أدرك بأنه سيتعرض إلى ذلك العجز المطلق أمام الموت قال من فوره، يا منتاروس إن الرب لا يقبض روح أي عبد من عباده من أجل إيجاد فرص للآخرين. سنتحدث فيما سنفعله بشأن هذا الموضوع بعد الاجتماع مباشرة. ولنناقش الآن خطتنا لحصار القلعة.

أعطى الكلمة لكل القادة واحدا واحدا وبعد أن استمع إليهم ودون أن يفكر كثيرا، قال:

سنحاصر القلعة أنا ووحدات الفرسان التابعة لي من الشرق، وأنت يا ديمتريوس من الغرب. سيسيطر دوق برينتوس الفارس أرخلياس على منطقة شمال القلعة وأما المحاربون البيزنطيون فسيسيطرون على منطقة جنوب القلعة. وسنقوم بتضيق هذا الخناق حتى الصباح وسنقترب تماما من القلعة. في تلك الفترة سننصب المناجق وسنقوم بوضع رماة المقلاع وقاذفي النيران في الأماكن المناسبة وسيكونون على أهبة الاستعداد. وما إن يشرق الصباح نرسل لهم رسولنا وسنطلب منهم تسليم مانيوس، إذا لم يوافق من بالقلعة على تنفيذ مطلبنا سيتم فورا رميهم بالحجارة بالمناجق والمقاليع وسنبدأ أيضا في الوقت ذاته قذفهم بالنار البيزنطية. وسيستمر الهجوم دون توقف حتى الظهيرة. وسنرسل لهم الرسول مرة أخرى عند الظهيرة، فإن لم يتم تسليم مانيوس حيئذ سيدخل رماة السهام في المعركة وسيستمر الهجوم إلى أن يقوموا بتسليمه.

لما انطلق قادة القوات الذين عرفوا الخطة العامة في اجتماع مجلس الحرب في طريقهم إلى وحداتهم، قال الإمبراطور بصوت حاد:

يا منتاروس أرسل الرسل فورا إلى القسطنطينية. ليذهب أحد نواب رئيس الوزراء على الفور لإبلاغ عزائنا. وليبلغهم هناك أيضا بأنني على وشك إلقاء القبض على مانيوس كنتاكوزين...

خرج الإمبراطور بعدما خرج قائد الحرس من الخيمة. استدار نحو ديمتريوس قائد القوات البرية الذي اتبعه هو ومستشاره وأشار إلى التل الموجود بالقرب منهم وقال:

هيا يا ديمتريوس لنصعد إلى ذلك التل قبل حلول الظلام ولنلق نظرة على القلعة من جوار مراقبينا الذين يراقبون القلعة. ولنتحرك مع وحداتنا بمجرد حلول الظلام ثم مشى.

قال الإمبراطور هو يتقدم إلى الأمام ومن خلفه القائد العام ومستشاره كذلك على سفح التل ذي التربة الزلقة، قال الرجل العجوز مستشار القائد العام:

لا بد أن يكون الأودريسيون أحد أقوام الموسولوس.

قال الإمبراطور الذي ليس لديه معلومات كافية حول هذا الموضوع :

كيف عرفتم؟

من الأشجار القصيرة عظمتكم. الأشجار قصيرة القامة في هذه الأماكن ولا ترتفع قاماتها كثيرا.

ليكن هل كان الأودريسيون يخفون شيئا في هذه المناطق؟

رماد ملوكهم الموتى ورماد جياهم يا سيدي.

هل يعني هذا أننا نسير الآن فوق رماد أحد ملوكهم ورماد جواده؟

إذا كان ذلك حقيقة، فإن هذه المنطقة لابد أنها تخص أحد التوموليسيين أو أحد الملوك أو أحد القادة الذين حققوا بطولات كبيرة. لأن التلال التي دُفن رفاتهم فيها تكون مرتفعة لهذه الدرجة.

قال الإمبراطور وكأنه يحدث نفسه:

إن شئت كن ملك الأودريس الذي لا يتوقف ولا يعرف الراحة، أو كن حاكم العثمانيين، في النهاية سيواريك ثرى الأرض تحته، المستشار العجوز الذي ظن أن الإمبراطور سأله عن شيء ما قال:

ليس الأودريسيون هم الذين لم يستطيعوا إيقاف أهالي تراقيا، بل الأستيين عظمتكم. كانوا يعيشون عند سفوح الجبال الموجودة شمال التومولوسيين.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس من أجل إسكات الرجل قليلا، سأله قائلا:

هل كان ملكهم هو الذي أمر بأن تضاف لحوم أسراه إلى علف جياده.

قال المستشار العجوز مبتسما:

لا يا سيدنا، كان ملك تراقيا ديومادیس هو من فعل ذلك. صمت المستشار العجوز بعدما شاهد الإمبراطور الذي صعد على قمة التل والذي ينظر بعيدا ولا ينصت إليه.

(٨٣)

كان الأمير مراد بمجرد علمه بخبر وفاة والده الذي وصله بعدما خرج من بورصه مرة أخرى من أجل بدء حصار قلعة أنيرا الذي كان قد بدأه في الخريف الماضي والذي لم يستطع تنفيذه بسبب دخول فصل الشتاء القارس كان قد تراجع عن محاصرة أنيرا وطلب من وحدات القوات الانسحاب إلى أراضي ويلاية جردا وهو في الطريق إلى بورصه بصحبة مربيه شاهين بك والقادة الشجعان. كانت الوحدات العسكرية قد بدأت في الانسحاب إلى أراضي حكام ولاية جردا تاركة خلفها وحدة هجومية واحدة بجانب ما بين وحدة إلى ثلاث وحدات من قوات المشاة بالقرب من أنيرا بعدما انطلقوا في طريقهم إلى بورصه. خرج أعضاء تنظيم الإخوة الذين كانوا يرقبونهم من القلعة وساروا في ثنايا الجدول الذي ينحدر نحو السهل واقتربوا خلسة من الوحدات الثلاث وانتظروا حلول المساء. وحينما أظلم الجو وذهبت الوحدات إلى الاستراحة هجموا فجأة على الوحدات الثلاث وقتلوا كل المقاتلين تقريبا وقطعوهم إربا. بعض المقاتلين الذين استطاعوا أن ينجوا من هذه المذبحة الوحشية والذين هم أسرع من الريح قادوا جيادهم بسرعة قاتلة من أجل إبلاغ قادتهم الذين تركوهم. وأثناء ذهابهم اللحاق بالوحدات التي اقتربت من أراضي حكام جردا استولى أعضاء تنظيم الإخوة على المتاع والخيول التي تركتها الوحدات الثلاث ورجعوا بها إلى القلعة. أما رجال المربي شاهين بك الموجودون في أقرب مكان لهم والذين تلقوا خبر الهجوم، أرسلوا الثلاث

فرق التابعة لقرى سونقور بك لدعمهم. ولما شاهد قرا سونقر بك ورجاله الذين وصلوا في الساعات الأولى من الصباح إلى المكان الذي وقع فيه الهجوم الأجساد والأشلاء المتناثرة على مساحة واسعة لم يصدقوا ما شاهدوه. أجهش سونقر بك الذي خاض العشرات من المعارك حتى الآن بالبكاء وهو ينظر إلى الأجساد العارية الممزقة إربا لأنه لم يشهد أبدا موتا مفزعا على هذا النحو. لما توقف عن البكاء وتمالك نفسه حدث نفسه وهو ينظر إلى قلعة أنيرا قائلا: "هناك مروءة حتى وإن كانت بسيطة في العداوة". نظر إلى القادة الذين لحقوا به وجاءوا إلى جواره في ذلك الوقت وقال:

أعضاء تنظيم الإخوة لا يفعلون هذا.

قال تكين بك أورتنجه الذي ينظر إلى أشلاء الأجساد المتناثرة في المكان، بعد أن لطم وجهه عدة مرات بيديه الضخمتين وبعد أن مسح عينيه:

آه لو كان رجال القرمانيين الحاقدين هم من حرضوا على ذلك...

قال قرا سنقور بك الذي ينظر نحو القلعة هربا من النظر إلى أشلاء الأجساد المتناثرة على الأرض، لأورتنجه تكين بك:

لا ياولدي، إن القرمانيين أيضا لا يفعلون هذا، إن كان هناك من فعلها فهم جاوادر أرطانه. تحروا وابحثوا هذا الموضوع، إذا كان هناك الجرحى الذين سقطوا منهم والذين تركوهم يواجهون الموت يمكننا أن نعرف منهم.

ذهب أورتنج تكين بك وفرسانه من فورهم إلى اصطياد أحد الجرحى. وفرحوا فرحا شديدا بعدما عثروا على أربعة من الجرحى المصابين بإصابات خطيرة والذين تركوهم على الطريق المؤدي إلى القلعة ظنا منهم

بأنهم فارقوا الحياة. كان من بين الرجال الذين عثروا عيلهم اثنان يلفظان أنفاسهما الأخيرة. تركوهما حيث كانا واستجوبوا الآخرين. كان أحد الجريحين لا يفهم الأسئلة التي يوجهونها له، وهم كذلك لا يفهمون ما يقوله. الرجل. الجريح الآخر الموجود بين أيديهم وضمدوا جراحه من أجل استنطاقه. وبعد ذلك، قالوا له:

إن تقصص علينا حقيقة ما حدث فلسوف يعفو عنك قائدنا.

قص عضو تنظيم إخوة أنيرا الذي سمع بأنه لن تزهق روحه وبأنه سيتم العفو عنه، لهم كل شيء بالتفصيل. وأن تتار الجاوادر الأرطانويين الذين يقيمون في القلعة منذ زمن بعيد هم الذين قاموا بتحريض أعضاء تنظيم الإخوة، وأنهم شاركوهم تنفيذ عملية الهجوم وقص كل ما قاموا به معًا بالتفصيل. حكى عضو تنظيم الإخوة الذي تم الإتيان به إلى قرا سنقر بك، كل ذلك للقائد سنقر بك وطلب العفو والسماح. قال قرا سنقر بك:

عفوي عنك لن يقلل ذنوبك، الأفضل أن نرسلك فورا إلى جهنم ولتحصل على جزاء ذنوبك التي ارتكبتها في أقرب فرصة. وقام بتسليم عضو تنظيم الإخوة الجريح إلى سيافه الذي يطلق عليه الجلاد.

قرا سنقر بك الذي وصل عند منتصف الليل إلى خيمة حفيد آلب أيقوت و قرا على بك أوغلو و قرا دميرداش باشا الذين يتولون قيادة القوات بدلا من المربي شاهين بك، وبعدما قص علهم ما حدث حزن قرا دميرداش باشا لعدم الحذر وعدم اتخاذ التدابير اللازمة. وقام علي الفور بإرسال الرسل إلى المربي شاهين بك الموجود في بورصه.

ولما علم المربي شاهين بك الموجود في بورصة غضب غضبا شديدا. وبدأ الدم يغلي في عروقة وشعر برغبة الانطلاق فورا إلى أنيراء وأن يذهب على رأس وحدته العسكرية ويسوي قلعة أنيرا بالأرض إلى أن يأتي الحاكم مراد. بحث الأمر مع رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا قبل أن يتحدث فيه مع القائد مراد. بعد أن هدأت ثائرته قليلا بالنصائح التي قدمها له سنان الدين يوسف باشا، وكان طوال الفترة التي قضاها يحدث نفسه قائلا: "لتهدأ آلام وأحزان قائدنا قليلا، ونذهب ونجعلهم يدفعون ثمن فعلتهم غاليا". ولما كان مراد الأول قد أعطى الأولوية للاستيلاء على قلعة هراقليا بونتيقا الموجودة على ساحل المورة، فإن المربي شاهين بك أيضا أرسل خبرا إلى قرا دميرداش باشا الموجود على رأس القوات الموجودة في جردا يأمره بالتحرك فورا إلى قلعة هراقليا بنوتيقا. وانطلق بنفسه بعد مراسم تنصيب مراد الأول بفترة قصيرة.

الأمير مراد الذي أرسل مُربيه لتولي قيادة القوات بعد مراسم التنصيب، ومن أجل التعود على إدارة شئون الولاية، عكف على معرفة الأمور والأشياء التي لا يعلمها من خلال التحدث باستمرار بشأن إدارة الولاية مع الوزير قرا خليل الجاندارلي الذي دربه رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا جيدا على ما يمكن القيام به من مهام وظائفه. كان سنان الدين يوسف باشا قد بلغ من الكبر عتيا. وفي أحد الأيام التي لم يكن فيها بصحبة قرا خليل بك الجاندارلي قال للقائد مراد:

يا قائدي، أنتم الأمانة التي استودعني إياها أورخان غازي.

مراد الأول، على الرغم من عدم إتمامه لحديثه فإمه تدخل على الفور وقال:

أنتم كذلك أمانة أبي عندي.

قال سنان الدين يوسف باشا وهو ينظر إليه راضيا مطمئنا: " نعم الله وهو كذلك". واستمر في حديثه قائلا:

أيها القائد مراد لقد كنت أرغب في أن أفارق الحياة وأنا أؤدي مهام وظيفتي ولكن تعال انظر إن ركبتي بدأتا تؤلمانني وتؤذيانني. أعاني جدا سواء عند المشي أو عند الجلوس والقيام. ربما الوقت ليس مناسبا ولكن أرجو أن تعفيني من اجتماعات الديوان بعد اليوم. ولكن سأكون معكم بآرائي ومشورتي باستمرار.

لم يعرف مراد الأول ماذا يمكن أن يقول. لأنه في الواقع كان يعاني الفراغ والوحدة بدرجة كبير بسبب موت شقيقه الأكبر ووالده على فترات متقاربة، والآن أيضا رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا الذي كان في أشد الحاجة إليه في إدارة شئون الولاية يتركه بمفرده. وهو ينظر إلى رئيس الوزراء بنظراته الحائرة والمذهولة تلك، قال سنان الدين يوسف باشا برزانة وهدوء أعصاب منحها إياه تقدمه في العمر:

أفكر في ذلك منذ أيام، وكنت أخفي آلامي ومعاناتي وأتحين الوقت المناسب لأقول ذلك والآن ها هو ذا الوقت المناسب يا قائدي. ولكن لتعلموا، أن من سيخلفني في موقعي هو قرا خليل الجاندارلي بك. وهو على دراية كاملة بشئون الولاية، كما أنه على علم ودراية كبيرة بالدرجة التي تجعله ليس في حاجة لي. لكن هذه الوظيفة هي من حق المربي شاهين بك الذي رباك بيد أنه ليست لديه القدرة على إدارة الدولة، كما أنه في الوقت الراهن

لا يستطيع أن يفصل طموحه عن غضبه. لكن في الوقت الحالي طموحه الممتزج بغضبه يفيده في ساحات الوغى. في الوقت الذي يكبح فيه عقله لجام طموحه حينئذ يصلح لأن يكون وزيرا.

رئيس الوزراء سنان الدين يوسف باشا الذي قال كل ما أراد بهذه الكلمة القصيرة، تحدث عن رغبته تلك أيضا في الاجتماع الموسع للديون الذي عقد بعد فترة قصيرة. الوزراء والعلماء الذين شاهدوا المعاناة التي يعانيها أثناء القيام والجلوس وجدوا أن رغبته هذه في محلها. وفي نفس الاجتماع وبناءً على اقتراحه أخذوا القرار أيضا بتكليف قرا خليل الجاندارلي بك بإدرة شئون الديوان بالوكالة خلفا له.

المربي شاهين بك الذي نما إلى علمه أن قرا خليل الجاندارلي بك صار خلفا ليوسف باشا، وقف أمام قلعة هراقليا بنوتيقا التي وضع أساساتها أهالي تراقيا الذين فروا من قهر اليونانيين الذين يطلق عليهم كل من سواهم الأجلاف غير المتحضرين، وكان ينظر إلى جدرانها الحجرية العريضة. كان يوجد سبعة أبراج فوق الجدران التي صبغتها شمس الغروب وهي تميل مثل رقاص ساعة الحائط الأحمر على البحر الأسود بلونها الأحمر. كانت السهام تنهال عليهم من الأبراج السبعة دون توقف لأيام. ولكن مهما يكن فإن وابل السهام هذا لم يكن يستطيع حتى الآن أن تمزج طموح المربي شاهين بك بغضبه. ولكن بعد فترة وجيزة من بلوغه الخبر شعر بامتزاج طموحه بغضبه وبأن غضبه سبق عقله. بينما ينتظر غضبه ألا يعمل تفكـيره وأن يتوقف عقله عن التفكير، تذكر قول الرسول العجوز الذين أسروه مساء أمس. الذي يقول" هذه الأراضي الخصبة، كما استضافت كل من تيران أثينا وهوسبتاليين

الإسكندر الذين لا يقهرون، فإن قاذفي اللهب لبروسيوس قولوس الأول وبحارة الملك بونتوس ميثريداتس السادس الذين يتحدون الأمواج، ورجال جلات غير المعروفين واللاتينين أتباع أوراليوس إمبراطور روما سوف تستضيفكم أيضا أيها القائد. ولما أدرك أن قلبه سوف يرق من جديد إذا نظر إلى الشمس كما فعل قبل قليل، تراجع عن النظر إليها كما نحى التفكير جانبا وحرك شاربيه المفتلوين إلى أعلى وصاح قائلا:

هجوم شامل من كل الجهات.

استطاع من بالقلعة مقاومة الهجوم الشامل الذي قام به رماة السهام وحاملو النبال وقاذفو المناجق ومتسلقو أسوار القلعة الذين سمعوا هذا الأمر العسكري الغاضب ليومين فقط. بعد تسليم القلعة بفترة وجيزة فإن المربي شاهين بك الذي دخل القلعة من الباب الرئيسي على صهوة جواده الكُمَيْت قال وكأنه يقرأ سرا نسيه في ركن من أركان عقله "من الآن لم يعد للعزيز آغيوس تيودور أي ملاذ سوى أراضي الدولة العثمانية. من الآن أصبحت وما تحتويه بداخلك من أحياء وجماد ملكا لقائدي الأمير مراد وتحت إمرته. أنا حزين للتدمير الذي حدث. لو كنا قد استطعنا العثور على أحد الداودية مثل عز الدين كيكاوس ما كنا سنفعل ذلك. ولكن ما الذي يتوجب علينا القيام به لم يخرج من بين أهالي القلعة هذا الداودي. لا سيما وأنه فضلا عن هذا فقدنا الكثير من جندنا. بعد أن نعاقب فقط من كانوا سببا في فقدانهم سوف يعود كل شيء إلى ما كان عليه سابقا.". ووثب ونزل من فوق جواده.

تسلق الدرج الموجود في الأعلى وصعد إلى أحد الأبراج العالية. ونظر نحو بورصة، وقال وكأنه يعاتب الأمير مراد " يا قائدي، جرت العادة

أن يصبح القائد مربي الأمير وزيرا للدولة، بيد أنكم ضننتم على بذلك، ولكن هأنذا أمنحكم إحدى القلاع مرة آخرى. لتكن قلعة مباركة...". ونزل الدرج بسرعة وذهب إلى ميدان القلعة الذي جمع فيه جنود باشا بيت بك الحراس الذين قاموا بأسرهم.

(٨٤)

دخل الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس وهو مزهو بأول نصر له من الباب الجنوبي لقلعة تريهالوم ليس بعربته الإمبراطورية المهيبة تلك، بل على صهوة جواد سليمبريا الأصيل ناصع البياض الذي أهداه له قائد حرس قلعة سليمبريا. لما أدرك جواد سليمبريا الأصيل، بأن هذا هو أحد مراسم الدخول إلى القلعة من سير جياد الحرس الموجودة في المقدمة والتي تسير في صفوف مصفوفة وبسرعة بطيئة، على الفور بدأ في السير ببطء مُتّبِعا الخيل التي تسير أمامه.

كان أهالي القلعة حتى دخول الإمبراطور على صهوة جواده إلى القلعة يعرفون الإمبراطور بأنه "الإمبراطور الطفل" بسبب الدعاية التي قام بها ماتيوس كنتا كوزين. ولكن تملكتهم جميعا الدهشة لما شاهدوه أحد الأباطرة الحقيقيين أمامهم متقلدا دروعه وواضعا التاج فوق رأسه على صهوة جواده الأبيض. كان نيكوفورس العجوز أحد وجهاء القلعة هو أول من أفاق لنفسه، ركض وجاء إلى جانب الإمبراطور. لم يكد يأتي حتى احتضن قدم الإمبراطور الموضوعة في الركاب الفضي. مال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي لم يعتد أن يجعل أحدا يقبل قدمه، على الفور أمسك الرجل العجوز من كتفه. ونظر إلى جهه وهو يبتسم. ألقى التحية على الأهالي الذين اجتمعوا أمام الكنيسة الموجودة بالقرب من الباب. نزل من فوق جواده ومشى حتى وصل إلى جوار الراهب العجوز الذي يقف أمام باب

الكنيسة. أما الأهالي الذي تشجعوا من إلقائه التحية باحترام على الراهب فقد بدعوا كمجموعة غنائية في إنشاد إحدى الأنشودات الدينية لدير استوديون الموجود في القسطنطينية والتي كانت تلقى إعجابا كبيرا في تلك الآونة. أما الإمبراطور الذي انضم إليهم أثناء إنشاد الأنشودة الدينية، بعد الانتهاء من إنشاد الأنشودة فخاطب أهالي القلعة قائلا:

كنت لا أرغب في الدخول إلى قلعتكم بعد الهجوم عليها، ولكن أجبرنا على فعل ذلك بسبب اختباء ماتيوس كنتاكوزين في قلعتكم وأمره بإطلاق وابل من السهام علينا. سنقوم على الفور بتعويض كل الذين أصابهم الضرر من هذا الهجوم. أدعو الرب ألا يجعلني أحاصر قلعتي بعد الآن. الآن ارجعوا إلى بيوتكم واستمروا في مواصلة أعمالكم وحياتكم اليومية.

لما أنهي كلماته تلك بدأ قداسة الراهب بصوت أعلى هذه المرة في إنشاد إحدى الأنشودات الدينية. بعد نهاية الأنشودة بدأ أهالي القلعة الموجودون في الميدان بالانصراف إلى بيوتهم مثنى وفرادى. دخل الإمبراطور الكنيسة وتحدث مع قداسة الراهب أثناء ذهابهم إلى بيوتهم. وبعد أن أنهى الإمبراطور الذي حصل من الراهب على معلومات حول القلاع التي يمكن أن يذهب إليها ماتيوس كنتاكوزين، عمله داخل الكنيسة ذهب إلى الميدان الموجود عند مدخل الباب الشمالي للقلعة الذي جُمع فيه فرسان وأفراد مشاة ماتيوس كنتاكوزين الذين وقعوا في الأسر. أصابه الفزع لما شاهد الفرسان وأفراد المشاة الجاثين على ركبهم والذين زاد عددهم كثيرا جدا عن المتوقع ولكن صعد الدرج وهو يحاول إخفاء الفزع الذي أصابه ووقف فوق كمر الباب. نظر إلى الفرسان والمشاة الجاثين على ركبهم في الميدان وقال بصوت عال:

أعلم أنه لم يكن أحد منكم يريد محاربة أشقائه البيزنطيين. ولكن ماتيوس كنتاكوزين الذي يدعي بأنه شريك للعرش ربما يكون قد وعدكم بوعود كبيرة. وأنتم أيضا صدقتموه وقمتم بإمطار إخوانكم البيزنطيين بوابل من السهام. أصبتم الكثير، وقتلتم الكثير منهم. وهكذا خرجتم على القوانين. وأنتم جميعا تعلمون معني ذلك جيدا. أنا كإمبراطوركم أمنحكم الفرصة الأخيرة. إن طلبتم العفو وطلبتم الانضمام إلينا سوف يتم تكليفكم الآن بوظائفكم التي كنتم تقومون بها قبل ذلك. أما الذين لن يقبلوا هذه الوظائف سيعتبرون موافقين على عقابهم وفقا للجرائم التي ارتكبوها.

بعد انتهاء الإمبراطور من كلمته طلبت الغالبية العظمى من الفرسان والحراس الأسرى العفو والسماح وقبلوا العمل في الوظائف السابقة. أما الذين وجدوا في إعادتهم إلى وظائفهم السابقة إنقاصا من شأنهم، فظلوا واقفين في أماكنهم مثل تماثيل الرخام، وبعد أن نظر إليهم الإمبراطور وهو حزين قال لقائد حرسه:

ليستريحوا واحدا واحدا، ليتم عقابهم على النحو الذي ارتكبوا به جرائمهم.

بعد أن استقر النظام في القلعة ذلك المساء، وفي صباح اليوم التالي تم تكليف كل الصناع والحرفيين الموجودين في قوات الإمبراطورية بإعادة ترميم القلعة. وبعد يومين من العمل لم يبق أثر لحجر ملقى على الأرض أولبيت منهدم داخل القلعة. ولما أنهي الحرفيون أعمالهم وعادوا إلى وحداتهم كانت المحكمة التي أقيمت في القلعة قد أراحت كل أنصار ماتيوس كنتاكوزين الذين تم أسرهم، وحكمت عليهم بالإعدام. ولكن لم يكن رجال

الإمبراطور هم الذين سينفذون فيهم حكم الإعدام. بل كان سيقتل الفرسان بعضهم بعضا والهوسبتاليين بعضهم بعضا والحراس بعضهم بعضا وكذلك قادة القلعة سيقتلون بعضهم بعضا. أما آخر من سيبقى من كل منهم فكان سيلقى به من أعلى أبراج القلعة. ولأن أيا منهم لم يكن يتوقع مثل هذا العقاب القاسي أثناء إجراء محاكمتهم، فإنهم كانوا يفكرون قائلين: "الأفضل أن أقضي فترة في السجن بدلا من قبولي بوظيفة غير مشرفة". ولكن لما صدر الحكم أصيبوا جميعا بالصدمة من جراء شدة عقوبة الخروج على الإمبراطور. لكن آخر شخص بقى الهوسبتاليين هو الوحيد الذي أنقذ روحه بطلب العفو وقبوله بالعمل في وظيفته السابقة، أما الآخرون فتم دفنهم جميعا بملابسهم بعد تجريدهم من دروعهم وأسلحتهم في أحد مخرات السيل الموجود في قاع الجدول الذي يجري بالقرب من القلعة.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي عين النبيل أرياماندهوس ابن رئيس الوزراء الموجود في فوج حرسه قائدا لحرس القلعة ونيكوفورس العجوز كذلك في منصب حاكم القلعة، وأثناء انطلاق كل وحدات الهوسبتاليين تحت قيادة ديمتريوس قائد القوات البرية نحو أدرنة قرر الذهاب بوحدات الفرسان التابعة له إلى رودستو وغادر تريهالوم على الفور.

الإمبراطور الذي تخلص من العناء والتعب خلال الأيام التي قضاها في رودستو، انطلق على الفور بمجرد أن علم من خلال الخبر الذي جاءه عند منتصف إحدى الليالي بتجمع بعض الوحدات العسكرية التي جاءت لدعم ماتيوس كنتاكوزين الموجود في أدرنه عند كيبسيلا. على الفور أرسل الخبر إلى قائد الأسطول الموجود في أينوس والذي هو القائد العام لقوات

الإمبراطورية وطلب منه بأنه إذا كان قد خرج إلى البر فعلى الفور، وإن كان لم يخرج إلى البر بعد فبمجرد خروجه إليه بدأ التحرك بوحدات الهوسبتاليين نحو كيبسيلا. ومن ناحية أخرى أرسل الرسل إلى ديمتريوس قائد القوات البرية الذي انطلق نحو أدرنه وطلب منه تقسيم وحدات الهوسبتاليين البرية إلى قسمين وإرسال أحدهما لمحاصرة أدرنه وخروج الآخر إلى كيبسيلا فورا.

ماتيوس كنتاكوزين الذي أعلن نفسه إمبراطورا على ديموطيقا والدردنيل وأينوس وما حولها والذي كان قد طلب تجميع القوات التابعة له عند كيبسلا، كان قد غادر أدرنه مع مجموعة من أخلص قادة قواته ووحداتهم وتحركوا إلى هناك نظرا لعدم علمه بوصول الأسطول إلى أينوس. كان هدفه هو التقدم مع مناصريه الذين تجمعوا عند كيبسلا نحو الجنوب الشرقي، وإيقاع وحدات قوات الإمبرراطور في الشرك والقضاء عليها عند وادي أوغراش الذي يعد بمثابة شرك طبيعي يعرفه جيدا.

(٨٥)

كان مراد الأول يخاطب جاندارلي قرا خليل في اجتماعات الديوان قائلا له يا باشا بعد أن تولى منصب رئيس الوزراء بالوكالة. وكان نائب رئيس الوزراء جاندارلي قرا خليل أيضا، يخاطبه في الكثير من الأحيان قائلا له يا سلطاني. كلمة الخان التي كان يقولها الكثير من الوزراء بموجب الاحترام والتوقير كان تحمل هي الأخرى نفس المعنى تقريبا لكن الجاندارلي بصفة خاصة كان يخاطبه قائلا يا سلطاني. لأنه كان قد أدرك من خلال أحاديثه مع مراد الأول أن يعتقد بأنه يمكن أن يحافظ بالعقل والحكمة على الأراضي التي استولى عليها بالسيف. ولذا كان يقول لنفسه "إن الأمير الذي يدير أعماله بالعقل والحكمة يستحق أن يكون سلطانا". إلا أنه لم يستطع التخلص من كل الشكوك الموجودة بداخله، ولم يكن يستطيع أن يقول له بأنه لا يمكن أن يتم إدارة أراضي العثمانيين التي تجاوزت كونها إحدى الإمارات منذ زمن بعيد كما كان في عهد عثمان غازي. كانت توجد بداخله مخاوف وشكوك باستمرار كلما قال له "يا خليل باشا، علينا ألا نجلب العادات الجديدة إلى القرية القديمة الآن". ولكن بعدما وردت الأخبار التي تفيد بالهجوم على الولاية من كل الجهات بعد أن تحرك كل حكام المناطق المجاورة والإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس إمبراطور بيزنطه وكأنهم قد اتفقوا فيما بينهم بعد وفاة أورخان غازي. كان سيتحدث في أول فرصة مع القائد مراد

أولا، وبعد ذلك كان سيعرض فكرته على العلماء والوزراء والقادة خلال اجتماع الديوان وكذلك على القادة الموجودين في بورصة. فكر في المكان والزمان المناسب للحديث فورا في الموضوع. ولما خطر بباله حمام روما الذي يذهب إليه كل أسبوع في تلك الآونة، حدث نفسه قائلا " كان أباطرة روما وبيزنطة يخرجون من القسطنطينية ويأتون إلى هنا من أجل تجديد نشاطهم وحيويتهم. فلماذا لا يذهب إلى هناك عندما يكون بصحبة القائد مراد؟" وبدأ في السير نحو قصر حكم الولاية الذي يوجد به قاعة اجتماعات الديوان من أجل عرض مقترحه. وكان طوال الطريق يلقي التحية على الأشخاص الذين كانوا ينهضون واقفين على أقدامهم عندما يرونه ويلقون عليه التحية وعندما جاء إلى أمام القصر شاهد كبير رسل مراد الأول ينتظره أمام الباب. ولما شاهد أسه أغلو قرا قال له:

إن قائدي ينتظركم في قاعة الاستقبال.

وقال رئيس الوزراء وهو يرد التحية ناظرا إلى وجه أسه أوغلو قرا على بك الذي يبدو باسما باستمرار:

سلمت يا علي بك.

وحدث نفسه وهو يقترب من الباب الخشبي المزين بالنقوش لقاعة مكتب مراد الأول الرائعة، قائلا: " هذه فرصة جيدة، لأتحدث عن الموضوع بشكل غير مباشر". دخل من الباب الذي فتحه أسه أغلو قرا على بك الذي يمشي أمامه. قال بعد أن رد عليه مراد الأول الذي يجلس على كرسي العرش ذي الإضاءة الخافتة الموجود داخل القاعة الرائعة المزينة جدرانها بالسجاد:

يا خليل باشا. وأطلق احدى التنهيدات التي تعبر عن مدى المعاناة التي يعانيها بداخله.

ولما ظل صامتا سأله رئيس الوزراء قائلا:

يا سلطاني، هل وصل إلى مسامعكم أحد الأخبار التي أحزنتكم؟ آمل أن يكون أميرنا في غاية الصحة والعافية ولا تعاني من أي مشكلة صحية.

كان مراد الأول الذي يعيش صدمة الخبر الذي نما إليه منذ منتصف الليل، لا يعلم من أين يبدأ الكلام بيد أنه رد من فوره قائلا:

الحمد لله صحة أميرنا على خير ما يرام، والسيدة زهرة الورد هي الأخرى في غاية الصحة والعافية لكن الخبر الذي وصل إلينا هذه الليلة قلب تفكيري رأسا على عقب ومد يده بالرسالة التي بعث بها مدير أمن قلعة نيكوميديا التي أخرجها من حزامه إلى الجاندارلي...

كان قد بدا الذهول لفترة على وجه الجاندارلي خليل باشا الذي قرأ الرسالة في نفس واحد. كان مراد الأول الذي وقف ينظر إليه على هذا النحو، في عجلة من أمره للحصول على مساعدته في التوصل إلى القرار الذي سيتخذه. قال الجاندارلي الذي سوى لحيته القصيرة الخفيفة الموجودة على وجهه الأسمر بأطراف أصابعه، وصحح بيده الأخرى أيضا وضع عمامته الجميلة ذات اللون البيض المتداخل مع اللون الأصفر الموجودة فوق رأسه بصوت هادئ:

يا سلطاني، إن لم يكن هناك بعض من الذين يحمسونهم ويشجعونهم على ذلك فلن يجرءوا على القيام بذلك، ولكن الواضح أنهم أيضا لديهم

الرغبة للقيام بهذا العمل. نحن أمام أحد الموضوعات التي يجب أن نتخذ قرارا بشأنها فورا. إن القرمانيين الذين حرضوا تنظيم الإخوة، والذين يتحينون الفرصة الآن لاسترداد أراضي الحكام الآخرين التي قمنا بضمها إلى أراضينا، وتشجيعهم لأشقائك على القيام بهذا العمل شيء لا يمكن أن يغتفر. إن لم نتخذ فورا التدابير اللازمة لمواجهة هذا الخطر، فهذا يعني أننا سوف نواجه مخاطر أكبر في المستقبل. تفضلوا أنتم احصلوا على قسط من الراحة، ولأذهب أنا لدعوة الديوان إلى الاجتماع فورا. لنتخذ معًا القرار المناسب في اجتماع الديوان. وانحنى قليلا إلى الأمام وبعد أن ألقى التحية تراجع إلى الخلف وخرج من الباب وذهب.

مراد الأول الذي وصله بعد فترة وجيزة خبر اجتماع الديوان وأنه في انتظار تشريفه، انضم إلى الاجتماع وهو هادئ إلى حد ما. وما إن تربع وجلس على المقعد الموجود في الزاوية، حتى قال نائب رئيس الوزراء الجاندارلي قرا خليل باشا:

إن صاري سنقر بك المسئول عن أمن قلعة نيكوميديا أفاد في الرسالة التي أرسلها بأن كلا من الأمير خليل حاكم نيكوميديا والأمير إبراهيم الذي يحمي أملاك إمارتنا الخاضعة للسلطنة يخططان معًا ضد قائدنا السلطان مراد. وينتظر منا الرأي في التدابير التي يجب اتخاذها.

كان قرا دميرداش باشا أحد رجال المربي شاهين بك الذي قدم من أجل إخبار مراد الأول بالاستيلاء على قلعة هراقليا بنوتيقا من بين الحاضرين للاجتماع. وكان هو الذي استجوب الرسول البيزنطي الذي تم أسره، كما كان قد تحدث معه من آن لآخر. في بعض من تلك الأحاديث وكان الرسول قد

قال بعض الأشياء المتعلقة بالأمير خليل الذي تحدث عنه قائلا: " صبهر إمبراطورنا " ولكن قرا دميرداش باشا لم يتوقف عند ذلك كثيرا قائلا: "يقول ذلك حتى ينجو بنفسه". بعدما سمع هذا الخبر، أخذ الكلمة على الفور وقص على الموجودين في الديوان كل ما استطاع أن يتذكره مما قاله الرسول. وتحدث عن شكوكه. وقال إنه أخطأ عندما لم يأخذ ما قاله الرسول مأخذ الجد. وطلب أيضا العفو لتصرفه غير الحكيم على هذا النحو.

الكثير من الوزراء والأبطال الذين استمعوا إلى ما قاله:

عبروا عن آرائهم التي تقول، إنه يجب عزل كلا الأميرين من أجل الحفاظ على مستقبل إمارتنا.

لما سمع مراد الأول كلمة العزل أحس ببرودة قلبه بريح لم يعرف من أين أتت. وبينما تتراكم قطرات العرق البارد على جبهته، أصاب الغثيان معدته مثل الذين يرون الدم لأول مرة. بينما ينتظر هدوء معدته التي ماجت وهاجت، تحدث النائب الأول لخليل الجاندارلي قائلا:

يجب أن نعطي الكثير من الأهمية للتفكير بالعقل في ولايتنا التي تضم كل يوم القلاع الجديدة والأراضي الجديدة إلى حدودها منذ القائد عثمان وحتى اليوم، بدلا من معاقبة الأميرين، يجب أن نختبرهما أولا، يجب معرفة مع من يتعاونان ويجب أن نثبت الجرم الذي ارتكباه. أرى أن تعاون قائد القلعة مع مسئول الأمن بولاية قوجالي يحل هذا الأمر. وحتى يكون الموضوع أكثر عدلا لنرسل أحد القضاة الذي يعينه قاضي بورصه إلى القلعة. إذا ثبت أن تخطيطهما ضدنا صحيح فليصدر حينئذ قرارًا باسمنا هناك.

أعرب كل من نائب رئيس الوزراء الجاندارلي قرا خليل باشا وكذلك مراد الأول عن مشاركتهما لهذا الرأي. وتناقشوا لفترة فيما إذا كان سيتم تكليف مسئول الأمن بالقلعة، أم يتم تكليف المربي شاهين بك بمراقبة الأميرين. فبينما كان يرى القادة تكليف المربي شاهين بك الذي يعد قائد كل القوات لكونه مربي الأمير مراد بهذه المهمة، أما الوزراء الذين يعتقدون بأن المربي شاهين بك سيعزل الأميرين الآخرين بسهولة من أجل أميرة ولأجل طموحه فكانوا يرون بأن تسند المهمة إلى مسئول الأمن بالقلعة ولأحد القضاة الذي سيتم إرساله إلى حاكم القلعة. وفي النهاية كان قد تم تقاسم المهمة بتدخل الجاندارلي قرا خليل باشا.

ذهب مراد الأول الذي خرج من اجتماع الديوان الذي اتخذ القرار بعزل شقيقيه مباشرة إلى قصرة. واحتضن الأمير بيازيد الذي جاء من فوره إلى الدنيا قبل تناول الطعام قائلا: هذا شيء جيد من أجل التغلب على الرعشة الموجودة بداخله. وبينما ينظر إلى وجه ابنه الأمير الساكن الذي يشبه قطعة اللحم الحمراء الموجود في حضنه، خطر بباله كلمة العزل. وتضايق لعدم عثوره على ما يفرج عنه همه. أراد إعطاء ولده فورا إلى زوجته السيدة زهرة الورد. لكن ابنه فتح عينيه المغمضتين لفترة قصيرة ولما نظر إليه تراجع عن ذلك، واستمر في النظر إلى وجه ابنه. لكن كلما نظر إليه ازداد قلقه واضطرابه. نسى ابنه الموجود في حضنه وأراد الخروج من الغرفة. وهدأت سريرته وإن كان بدرجة بسيطة عندما تذكر فجأة قول أحد الوزراء المسنين الذي قال : "يجب أن يُعزل إن كان يلزم العزل من أجل سلامة الإمارة. وكان من ذلك أيضا عزل القائد عثمان لعمه دوندور بك من أجل

الحفاظ على النظام الموجود في الإمارة. وتخيل هيئة شقيقه خليل الذي دخل مرحلة الشباب حديثا أمام ناظريه. عندما تذكرعنقه النحيل الطويل نظر إلى عنق الأمير الموجود في حضنه. لم يكن يرغب أبدا في عزل شقيقيه ولكن كان قد تم كتابة الرسائل وتم إرسالها على الفور إلى كل من حاكم القلعة وإلى المسئول عن أمن القلعة، وإلى المربي شاهين بك. ولم يكن بمقدوره فعل أي شيء قط، بخلاف تمنيه أن يكون كل ما قيل غير صحيح... فجأة خطر بباله شقيقه الأكبر سليمان باشا. وبينما يتذكره ويفكر فيه قال: "لو كان قد طال به العمر هل كان سيعزلني؟". وكأن بعض الأشياء أغلقت حلقه. أعطى ولده لزوجته زهرة الورد التي تقف بجانبه وخرج مسرعا من غرفة الأطفال الموجودة بجناح الحريم. مشى لفترة في قصره ذي الجدران الحجرية. صعد إلى أحد الأماكن المرتفعة ونظر إلى الأشجار الخضراء التي تغطي سفح جبل أوليمبيا.

غلبه الظن بأن الأشجار تنظر إليه وكأنها ممتعضة منه. وذهب من فوره إلى غرفة النوم الموجودة في جناح الحريم ظنا منه بأنه لن يكون هناك أحد في ذلك الوقت وألقى بنفسه على السرير. كان لا يريد البكاء ولكن كانت التنهيدات تخرج من داخله. حاول أن يغمض عينيه فترة. ونهض بعد أن بكي فترة حتى وإن كانت قصيرة وسار نحو غرفة الطعام. عندما رأى نيلوفر خاتون صار وكأن غمامة سوداء قد ذهبت من فوقه. قالت والدته بصوتها الجميل:

لقد نسيتنا يا ولدي بعد أن ذهب سنان الدين باشا إلى بيته. إنه لشيء حسن لو تمر علينا ولو مرة كل فترة حتى تسعدنا وتدخل علينا السرور. قال مراد الأول عندما رن صدى ذلك في أذنه:

آه يا والدتي العزيزة، لو قلت لكم إنني لم أستطع تخصيص أي وقت حتى لزهرة الورد إلى أن وضعت فلن تغضبي عليَّ أليس كذلك؟ منذ أن وضعت وحتى الآن وأحاول ألا أتركهـــا بمفردها على الأقل ليلا. إن المخاطر التي تحدق بالولاية ثقيلة للدرجة التي تنهار أكتاف الإنسان من ثقلها. لم أواجه أيا من هذه الأمور قط عندما كان أبي على قيد الحياة ولم أكن أتعب أيضا إلى هذه الدرجة. عندما تظهر إحدى القلاع التي يجب الاستيلاء عليها، لم أكن أفكر في أي شيء غير قيادة جوادي نحوها، ولكن الآن، لا أستطيع أن أجد الوقت والذهاب حتى نحو تنظيم الإخوة الذي يجتاز حدودنا كل يوم تقريبا.

مراد الأول الذي تحدث كثيرا مع والدته نيلوفر خاتون على مائدة الطعام، على الرغم من أنه حاول لعدة مرات الحديث مع والدته عما حدث في الديوان إلا أنه لم يستطع. بعد أن نهضت والدته ذاهبة إلى جناح حريمها ذهب إلى السيدة زهرة الورد التي لم تخرج من غرفة المولود منذ عدة أيام. عندما شاهد السيدة زهرة الورد ووليدها نائمين بجوار بعضهما، ظل ينظر إليهما فترة في ضوء القناديل. ثم ذهب بعد أن قدم العطايا لبعض الخدم الذين دخلوا الغرفة وخرجوا منها في صمت تام مثل الأنفاس من أجل عدم إزعاجهم للحصول على قسط من الراحة.

كانت الأيام التي تلت ذلك المساء وكأنها قد تملكتها العاصفة. فكما كانت تمر بسرعة كانت كذلك تخفي بداخلها ألف مشقة ومشقة. كانت الرسل تأتي بالأخبار غير السارة سواء من الحاج إلباي الذي يقود القوات الموجودة على الضفة الأخرى من الدردنيل أو من المربي شاهين بك الموجود على

رأس القوات الموجودة في بولو. القائد مراد الذي أرسل الخبر إلى الحاج الباي الموجود على الضفة الأخرى من الدردنيل، كان قد أخبره بألا يقوم بعمل أي شيء غير مراقبة الجهة التي تذهب إليها قوات الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس فقط. لأن الأخبار التي أرسلها المربي شاهين بك بخصوص شقيقيه لم تكن مشجعة ولم تكن تبعث على الاطمئنان قط. وكأن ذلك لم يكن كافيا، فإن تنظيم الإخوة الذي كان يقوم بالهجوم على أملاك حاكم جردا، كان يقوم كل مساء تقريبا بالهجوم على قوات الطليعة وكان يقوم بقتل عدد من القوات وأسر البعض الآخر. أما مراد الأول الذي قضى الصيف مستمعا إلى تلك الأخبار التي كانت تتواتر على هذا النحو، بمجرد أن تحسنت صحة ابنه وفي اليوم الذي قرر فيه الخروج للحرب جاء الخبر من الحاج الباي بأن ماتيوس كنتاكوزين الذي يطارده الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس طوال الصيف قد هرب من يد خصمه في آخر مواجهة بينهما. وأما مراد الأول الذي لم يقرر كيف سيكون رد الفعل على هذا الخبر، خرج من قصره وأثناء ذهابه إلى اجتماع الديوان علم بمجيء رسل المربي شاهين بك والذين يريدون تسليمه الأمانة التي أحضروها.

(٨٦)

جاء ماتيوس كنتاكوزين الذي التقى بأنصاره الذين جاءوا من محيط ديموطيقا بعد أن خرج من أدرنه متقدما نحو الجنوب الشرقي عبر سواحل مارتيزا إلى قلعة كيبسلا. ولكن في الوقت الذي وصل فيه إلى القلعة، وأثناء اجتماعه بأنصاره الموجودين بالقلعة شُوهِدَ الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس مع نبلائه وقوات وحدات الفرسان التابعة له عند شرق القلعة. سيطر الخوف والرعب على ماتيوس كنتاكوزين الذي بدأ على الفور في إعداد التجهيزات الدفاعية داخل القلعة، بسبب وصول الإمبراطور بهذه السرعة المذهلة. اعتقد أن أحدا من سكان القلعة أخبر الإمبراطور بأنه سيأتي إلى القلعة أمر بجمع وجهاء قلعة كبسيلا وعائلاتهم في الميادين فيما عدا الراهب العجوز، وأمر أيضا بنهب وسلب قصورهم وكأنه كان لن يكتفي بقطع رءوسهم هم وأفراد أسرهم جميعا. أهالي القلعة الذين شاهدوا عمليات السلب والنهب والقتل الجماعي دون رحمة أو شفقة بالرعب والفزع هرعوا إلى بيوتهم وأغلقوا عليهم أبوابهم. وكما لم يقوموا بفتح أبوابهم لفرسان ماتيوس كنتاكوزين الذين جاءوا إلى بيوتهم، فإن البعض منهم قام بسكب الماء المغلي على الذين طرقوا أبوابهم من نوافذهم وسلقوهم.

ماتيوس كنتاكوزين الذي أدرك أن شعب القلعة لن يقدم الدعم والمساعدة له ولمقاتليه، قرر ترك القلعة على الفور. وبمجرد حلول الظلام خرج في معية

وفرسانه ومناصريه من الباب الغربي للقلعة. كان هدفه هو الوصول إلى أدرنة في أقل فترة زمنية ممكنة، إلا أن البوابة الغربية للقلعة كان قد تمت السيطرة عليها كذلك من قبل هوسبتاليٌ البحرية المعروفين الذين جاءوا من أينوس قبل فترة وجيزة. ما إن لاحظ الهوسبتالون المشهورون الذين يجيدون فنون القتال والدفاع جيدا خروجهم من القلعة حتى بدءوا بقوة لا يمكن أن يتصورها حتى ماتيوس كنتاكوزين في قتل رجال ماتيوس كنتاكوزين بلا رحمة. ماتيوس كنتاكوزين الذي شاهد الهوسبتاليين الذين يحصدون نبلاءه وفرسانه وخيولهم وكأنهم يحصدون أحد الحقول، لم يستطع أن ينظر خلفه حتى وصل إلى مشارف أدرنة من الخوف بسبب حالة الرعب والذعر التي ألمت به. ولما استدار ونظر خلفه بعد أن اقترب من القلعة بدأ في البكاء من شدة حزنه وألمه. ولما تجاوز حالة البكاء التي سيطرت عليه وحتى لا يفقد ما بقى من رجاله حتى وإن كان العدد القليل منهم دخل القلعة من الممرات السرية التي يعرفها. ولما وقف أمام رجاله الموجودين في القلعة أقسم بأن ينتقم وأعطى أوامره بقذف النار الرومية على قوات الإمبراطورية.

حزن يوحنا باليولوج الخامس الذي دخل قلعة كبسيلا كأحد الأباطرة المنتصرين نصرا مؤزرا، بعدما علم بفرار ماتيوس كنتاكوزين من بين يديه. ولكن لما نما إلى علمه بعد عدة أيام بأنه موجود في أدرنة لم يستطع أن يتمالك نفسه وصاح وهو على صهوة جواده قائلا: "انتهت لعبة القط والفأر يا ماتيوس كنتاكوزين، لن أدعك تهرب من أدرنه إلى أي مكان آخر.". وما إن انتهى من صياحه حتى قاد جواده الأبيض نحو أدرنة.

ولما جاء إلى مشارف القلعة، وبعدما شاهد أيضا تضييق وحداته التي تحاصر قلعة أدرنه التي تفوق قلعة كبسيلا عدة مرات في المساحة الخناق عليها تدريجيا بشكل رائع ومنظم واقترابهم من القلعة، نظر إلى القلعة من فوق التل الذي وقف عليه قبل عام ونظر منه إلى قلعة سليمان باشا مرة أخرى، وأعطى صوته للريح وصاح قائلا: "حانت نهايتك يا ماتيوس كنتاكوزين". ولكن ماتيوس كنتاكوزين الذي لم يسمع صوته الذي أطلقه مع الريح، كان يحاول منع اقتراب قوات الإمبراطور من القلعة من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يقوم بهمة ونشاط بعمل الاستعدادات لهجوم كاسح دون توقف وكان يسيل لعاب أنصاره ويحفزهم باستمرار من أجل سلب القسطنطينية ونهبها.

أما الإمبراطور الذي لم يكن لديه علم عن الوعود التي قطعها ماتيوس كنتاكوزين، أو عن الفخاخ والشراك التي عملها والتي لا يصدقها العقل والذي اعتقد قرب اللحظة التي سيطلق فيها صيحة النصر، كان يركض بجواده بين الوحدات الموجودة حول القلعة من وحدة إلى أخرى، وكان يحفز ويشجع فرسانه وقوات الهوسبتاليين التابعة له بإطلاقه الصيحات. أما الفرسان والهوسبتاليون التابعون له والذين تحمسوا من تشجيعه لهم فكانوا يقتربون من القلعة وهم يصيحون.

كان الإمبراطور قبل أن يصدر أمره بهجوم شامل وكاسح في اليوم الثالث للحصار قد أرسل رسله يعلنون ابتعادهم حتى يتمكن المهاجرون الموجودون في الأحياء الخارجية وأصحاب القوافل الذين أقاموا أسواقهم من مغادرة القلعة فورا. بمجرد ابتعاد هؤلاء أُمِر بنصب المانجق الكبيرة في أنسب الأماكن. ومن أجل اختبار كفاءتها تم إلقاء الحجارة وكرات اللهب لعدة مرات على القلعة. في الواقع كان ذلك بمثابة هجوم تحذيري. وتحت جنح

الظلام تم تحريك الكثير من المناجق الصغيرة إلى مسافة قريبة جدا من جدران القلعة. واتخذ رماة السهام والمتسلقون المدرعون من رأسهم حتى أخمص أقدامهم مواقعهم في المناطق المحيطة بهذه المناجق الصغيرة.

اقترح الإمبراطور الذي جمع مجلس الحرب، بأن يتم إرسال رسول إلى ماتيوس كنتاكوزين بمجرد شروق الشمس ويطلب منه التسليم، وإذا رفض التسليم حينذاك يتم القيام بالهجوم الشامل على القلعة. رأى الموجودون في مجلس الحرب هذا الاقتراح مقبولا ووافقوا عليه. وانتهى الاجتماع باتخاذ القرارات التي تقول باتخاذ وعمل التدابير اللازمة طوال الليل حتى لا يتم فقدان ضحايا في هجوم مفاجئ وحتى لا يندس أحد بين حضور الاجتماع.

في صباح اليوم التالي وبمجرد شروق الشمس وبعد إطلاق الطلقات التحذيرية الأولى أرسل الإمبراطور الرسول وطلب من ماتيوس كنتاكوزين التسليم. لكنه استشاط غضبا لما شاهد قيام ماتيوس كنتاكوزين بقطع إحدى يدي كل من الرسول والحارسين اللذين ذهبا معه وإعادتهم إليه مرة أخرى، وعلى الفور أصدر أوامره بالهجوم الشامل. وبعد توقف إلقاء إلقاء السهام عليهم من القلعة التي أمطرتهم بوابل من السهام طوال اليوم، فإن الإمبراطور الذي ظن أن الحراس الموجودين داخل القلعة لم ينفذوا أوامر ماتيوس كنتاكوزين، أوقف الهجوم ذلك المساء وقرر إرسال مجموعة من ثلاثة رهبان رسلا إلى القلعة مرة أخرى في الصباح. لكن عندما قام أنصار ماتيوس كنتاكوزين الذين خرجوا من الأنفاق السرية بارتكاب مذبحة شديدة البشاعة في وحدات الخدمة الموجودة خلف الواحدات الهجومية في تلك الليلة، فإن

الإمبراطور الذي شاهد الجثث في صباح اليوم التالي لم يدرك ماذا سيفعله من شدة حزنه. حتى أنه انزوى في خيمته وترك القيادة لفترة قصيرة للقائد العام للقوات. وبينما يستعد الأطباء الذي رأوا مرضه واضطرابه التقى القائد العام ديميسكونيس بديمتريوس قائد القوات البرية وأمرا بتحديد فتحات الأنفاق التي خرج منها رجال ماتيوس كنتاكوزين ليلا وأمرا بإغلاقها بالتراب والحجارة. إلا أنهما أمرا بترك بعض المخارج مفتوحه لتكون شركا لهم ووضعوا حولها المناوبين من المصارعين الذين لا يقهرون.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي تحسنت صحته تماما، أعطى الأمر بالهجوم الشامل صباح اليوم التالي. وأعطى أمره كذلك بإطلاق كرات النار الرومية التي لم يكن قد أصدر الأمر بإطلاقها بالمناجق حتى الآن قائلا : "لا يمكن أن أقبل بحرق أتباعي". ولما بدأت ألسنة اللهب ترتفع من كل أرجاء القلعة التي تم قذفها بالسهام وكرات اللهب ليوم وليلة، وبعدما قام أهالي القلعة مذعورين أمسكوا بنبلاء ماتيوس كنتاكوزين وألقوا بهم وسط النيران، أدرك ماتيوس كنتاكوزين أنه لن يتمكن من البقاء في أدرنه بعد الآن. وهرب على الفور في هدوء من النفق السري المفتوح على شاطئ مارتيزا مثلما هرب من يد سليمان باشا. ثم عبر هو ورجاله النهر وركبوا الجياد التي كانت تنتظرهم عند الشاطئ الآخر وأثناء انطلاقهم نحو ديموطيقا دخل الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي كان ينتظر الصباح وهو شديد الغضب أدرنة مع شروق الشمس. الإمبراطور الذي تحدث لفترة وجيزة مع كبير قساوسة الكنيسة فقد خاطب أهالي أدرنة الذين اجتمعوا في ميدان الكنيسة قائلا:

ما دمتم قد حميتم حتى اليوم ماتيوس كنتاكوزين الذي أزهق أرواح الكثير من الناس دون رحمة أو شفقة، فسوف تدفعون أنتم أيضا ثمن ذلك ثم مشى وغادر القلعة الداخلية التي هي في حالة حرب.

انطلق الإمبراطور الذي لم يذهب إلى القلعة قط بعد ذلك اليوم والذي ترك مهمة ضمان الأمن والنظام داخل القلعة إلى ديمتريوس قائد القوات البرية وهو مستاء جدا نحو القسطنطينية في اليوم الذي أبحرت فيه قوات الأسطول نحو أينوس.

لم يشعر الإمبراطور بالسعادة بعد شاهد عن بعد أسوار القسطنطينية بعد رحلة استمرت يومين اثنين.ثم قال.وهو ينظر مهموما محزونا نحو القلعة " كيف أسعد وأنا عائد خاوي الوفاض؟" حدث نفسه وهو ينظر إلى أديم السماء الذي يُرى من الجهة الأمامية قائلا " طاردته موسمين ولكن...".

وبينما ينظر إلى ماحاوله شاردا على هذا النحو سقطت أولى قطرات المطر على قماش الخيمة السميك الموجود فوق عربته. سمع أصوات قطرات المطر وبينما كان يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة حزينة قائلا: "السماء غاضبة عليَّ هي الأخرى"، هطل المطر كالماء المنهمر. وكأن السماء قد انشقت لدقيقة أو دقيقتين وكانت تصب الأنهار من السحب الموجودة فوق القسطنطينية. الجياد الثمانية التي تجر العربة الإمبراطورية المهيبة صارت عصبية المزاج من الهطول المفاجئ للمطر. ولما أدرك قائد العربة أنه لن يتمكن من التحكم فيها أرخي لها مقاودها حتى لا تزداد عصبيتها أكثر. الجياد التي أُرخيَت لها مقاودها بدأت في ركض غير آمن نحو أسوار القسطنطينية. وأثناء دخول العربة من باب هاجيوس رومانوس إلى داخل القلعة أمسك

الإمبراطور المقبض الموجود بجانب مقعده حتى لا يطير من مكانه. وكان مهما صرخ من أجل تهدئة سرعة الخيل فإنه لا يستطيع إسماع صوته لقائد العربة. وحتى لو أسمعه صوته، فإن قائد العربة لم يكن يستطيع التحكم في الجياد. على أية حال، اتسع الطريق وكان ممهدا، وقل كذلك اهتزاز وتأرجح العربة. لكن الإمبراطور الذي مازال ممسكا المقبض بقوة والذي كان قد تحامل على نفسه إلى درجة كبيرة، كان جسده قد تسمر في مكانه. لما نظر هنيهة بعينيه الخائفتين ورائه، شاهد الحراس في الخلف على مسافة كبيرة جدا. عندما اقتربت العربة من البيوت ذات الحدائق البعيدة عن بعضها بعضا ضاق الطريق فجأة. التقط الإمبراطور أنفاسه بعدما هدأت الجياد التي لا تستطيع الركض على راحتها كما كان على الطريق الواسع قبل قليل أبطأت سرعتها من تلقاء نفسها وترك المقبض واستند بظهره على خلفية المقعد وحاول إيقاف ارتعاش جسده. لكنه لم يستطع السيطرة على جسده الذي يرتعد بشده. نظر إلى المنازل ذات الحدائق الواسعة الهادئة الموجودة على جانب الطريق. وبينما يسمع صوت المطر الذي لم تهدأ شدته، ولا يدرى كيف خطر بباله، حدث نفسه قائلا : "العودة من الانتصار". ارتسمت ابتسامة مرة على شفتيه. ولما سمع وقع الأقدام آتيا من خلفه استدار ونظر إلى الخلف. لما نظر إلى المظهر المهيب لقائد الحرس الذي يرتدي الدروع المصنوعة من الأسلاك الرفيعة، حدث نفسه قائلا : "جسد محبوس طوال عمر بأكمله". ثم نظر إلى الأمام ثانية. مد قدميه. وبينما يفكر هل يستمر في مشاهدة المطر الذي يهطل بغزارة أم لا خطر بباله الإمبراطورة إيلينا. حدث نفسه قائلا : "من يدرى كم مرة تخيلت هي الأخرى عودتي بالمراسم والاحتفالات... ".

بينما لم يزل التشاؤم مُمسكا بتلابيبه، قال: " المنتصرين في الحروب يعودون بالمراسم والاحتفالات... دعك من أنني انتصرت في الحرب، لقد حولت قلاعي إلى خرابات ورجعت". وفي الوقت الذي كانت ستفيض فيه عينيه بالدموع وبينما كان ينظر إلى الخارج، خرج من بين شفتيه، " أنا مدين بالشكر للمطر. لأنه هطل من أجل عدم إذلال ناصية إمبراطور عاد دون تحقيق النصر." ونحى التشاؤم الذي يسيطر عليه جانبا وواسى نفسه قائلا : "العودة سالماِ هو نصر أيضا...". وواصل تفكيره في ذهنه، قائلا : "ما إن يحل الربيع سأخرج للحرب ثانية وأمحوه من الوجود. لأنه يا إما أنا وإما هو... آمل ألا يخدع الصرب والبلغار حتى موعد حربنا الجديدة. ولكن لأعمل كل استعداداتي ولأرسل إليهم الرسل". توقف عن التفكير فترة قصيرة. بعد صراع داخلي كبير، وفي الوقت الذي حدث فيه نفسه قائلا : "في الوقت الذي انسحب فيه العثمانيون إلى حدود شبه الجزيرة، يجب عليَّ أن أتقاسم جوزتي مع ماتيوس كنتاكوزين. آمل أيضا أن ينجح خليل"، فجأة تجسد أمامه وجه الأمير مراد ناصع البياض ذو اللحية الخفيفة الذي شاهده في حفل الخطبة في نيكايا. كان وجهه ناصعا جدا وشديد الإشراق لدرجة أن الإمبراطور كان يستطيع عد أسنانه ناصعة البياض الموجودة في فمه، كما أنه كان يستطيع رؤية ضربات قلبه الموجود في قفصه الصدري. اندهش الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي شاهد حالته شديدة الشفافة تلك. وهو ينظر مندهشا إلى مراد الأول، انشق قلب مراد الأول الشفاف ولطخ وجه باليولوج بكل الدم الموجود بداخله. ولما مد الإمبراطور يده ليمسح وجهه أمسكت يد ما بمعصمه. لما دفعته اليد التي أمسكت بمعصمه للخلف

ثار ونهض على قدميه داخل عربته. وبينما ينظر يمنة ويسرى وهو يفكر وعيناه مفتوحتان في سبب رؤيته لرؤيا كهذه، حدث نفسه قائلا : " في الأغلب أنني أرتكب خطأ ما في مكان ما". ولما نظر إلى الخارج رأى أنه قد بقيت مسافة قصيرة على الوصول إلى قصره. وفجأة انفرجت أساريره. ولما نظر مسرورا إلى جانبي الطريق شاهد الأعداد القليلة من أهالي القسطنطينة الذين يستقبلونه بالتصفيق.

أمر بإلقاء العملات البيزنطية على الذين يصفقون له إلى أن وصل إلى باب قصره الذي يعد واحدا من أورع وأعظم بنايات القسطنطينية. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس لم يكن قد أخبر أحدا أثناء خروجه للحرب أو أثناء عودته منها، ومن ثم فإنه دُهش من وجود المستقبلين حتى وإن كانوا بأعداد قليلة. عانق والدته وزوجته إيلينا اللتين استقبلتاه أمام قصره. وقبل أولاده حتى شبع. تحدث لفترة في قاعة الجلوس مع كل من الإمبراطورة الأم آنّا والإمبراطورة إيلينا. خلع دروعه وفي الوقت الذي هم فيه بالخروج من قاعة الجلوس من أجل الذهاب إلى الحمام أخبره رئيس خدمه بأن رئيس الوزراء يريد لقائه على وجه السرعة. على مضض أمر الإمبراطور بإدخاله المكتب وذهب هو الآخر إلى مكتبه. ما إن دخل رئيس الوزراء العجوز أبوكافوس القاعة، حتى قال:

أهلا بكم في قصركم يا صاحب العظمة. إن انتصارتكم في تراقيا كبيرة لدرجة أنها ستشفي صدورنا وستخفف آلامنا.

لما نظر الإمبراطور نظرات تحمل الكثير من المعاني إلى وجه رئيس وزرائه الذي قال له بصوت هادئ:

آسف جدا يا صاحب العظمة لأني أقلقتكم فور مجيئكم، ولكن ما سأقوله لا يمكن أن يحتمل التأخير ولو لدقيقة واحدة. بعد إلقاء القبض على واحد من الرسل الذين أرسلناهم إلى القرمانيين والأرطانيين أعلن الأمير مراد إلغاءه للاتفاقيات التي أبرمها معكم، وأرسل القوات العثمانية إلى هراقليا بنوتيقا. على الرغم من قيام قائد القلعة بالدفاع عنها بكل ما أوتي من قوة، فإنه في النهاية استطاع أن ينجو بروحه فقط. عزاؤنا الوحيد أن قائد القلعة جمع كل ما خف وزنه وزادت قيمته من الأشياء التي كانت موجودة بالقلعة وأحضرها إلى هنا...

قال الإمبراطور بصوت غاضب إلى حد ما:

لماذا لم تخبرونني بهذا قبل ذلك؟

قال رئيس الوزراء بسرعة وكأنه لم يسمعه:

كنتم تسعون لتحقيق النصر في كبسيلا، لم نخبركم لأننا قلنا ألا نفسد عليكم فرحتكم بتحقيق النصر. لأن هراقليا بنوتيقا كانت قد بقيت جزيرة صغيرة بين الإمارات ولذا لم يكن هذا الخبر مهما جدا من وجهة نظري...

قال الإمبراطور وهو يبتسم متألما:

إذا لم يكن هذا مهما يا أليكسيوس، فما هو الأهم من هذا؟

يا صاحب العظمة، لقد عرفنا الخبر قبل بضعة أيام... وبعد التحري عن كونه صحيحا من عدمه فكرت في إبلاغكم ولكن نشكر الرب جئتم أنتم.

(٨٧)

تخلص مراد الأول الذي يشعر بالوحدة والفراغ بعد وفاة شقيقه الأكبر الأمير سليمان باشا ووالده أورخان غازي، من الإحساس بالوحدة والفراغ بعد مولد ابنه الأمير بايزيد. وكان قد أحكم قبضته على كل مقاليد إدارة شئون الإمارة. ولكن بعد أن استمع إلى ما قاله يوسف سنان الدين باشا الذي يدير مهام وظيفته من بيته والتي تعادل كل كلمة منها أطنانا من الذهب خلال الزيارة الأخيرة التي قام بها له فرغ نفسه تماما لإدارة شئون الإمارة. وكان يمضي بعض الأوقات التي يبقى فيها بمفرده مع الجاندارلي قرا خليل باشا نائب رئيس الوزراء الذي كان يناديه قائلا سنان الدين باشا الذي طور أسلوب إدارته لشئون الإمارة على هذا النحو حيث كانا أحيانا يتحدثان حتى منتصف الليل حول إدارة شئون الحكم. وكانا يقومان في الصباح بعرض ما ناقشاه في المساء على وزراء الديوان والعلماء. كان الجاندالي قرا خليل باشا الذي يخاطب مراد الأول في الكثير من الأحيان قائلا: "يا سلطاني" أنا مسرور جدا من هذا الوضع، لأن مراد الأول كان أيضا يدعم ويساند موضوع أن الإمارة العثمانية من الآن فصاعدا لا يمكن أن تتم إدارتها كما تدار الإمارات الصغيرة. كما أن القائد مراد الأول كان يضع يوسف سنان الدين باشا في منزلة كبيرة مثله وكان يروق له كثيرا ترديد مقولته "إن القلعة التي تم الاستيلاء عليها بالسيف، يجب أن يتم الحفاظ عليها بالعقل والحكمة".

ذات يوم ذهب مراد الأول الذي قضى في بورصه أكثر من أربعة مواسم وانشغل بالأمور الإدارية للإمارة لزيارة سنان الدين يوسف باشا وبعد أن أخذ مشورته شارك في اجتماع الديوان. وقال في نهايته:

أبطالنا وشجعاننا وقادة قواتنا وزراء حكومتنا وعلماؤنا أعتقد أن زمن الخروج للحرب قد حان. أولى غزواتنا ستكون على تنظيم إخوة أنيرا الذين أذاقونا وأصدقاءنا الآلام المرة. وقال بعد أن صمت لبرهة، أترك بورصه أمانة في عنق خير الدين باشا، وأترك خير الدين باشا أمانة في أعناقكم. الكلمة كلمتي والأمر أمري والقرار قراري ثم نهض واقفا على قدميه.

الشجعان والقادة والوزراء والعلماء الذين نهضوا معه على أقدامهم صاحوا معا قائلين:

لتذهب بالسلامة ولتعد بالسلامة يا قائد مراد.

مراد الأول الذي فرغ وقته بالكامل منذ ذلك اليوم للاستعداد للحرب، كان يذهب كل صباح إلى مقر الجيش الموجود بالقرب من القلعة التي يطلق القادة عليها اسم لبلوجه والتي تقف مثل جمانة الوادي، ويشارك في التدريب وكان يعود إلى القلعة في الساعات المتأخرة من الليل. مراد الأول الذي كان يذهب إلى التدريب كان سعيدا جدا بعدما شاهد قوات المشاة الذين دربهم يخشي بك ورجاله، وقوات الفرسان النشطين جدا الذين دربهم سانسا أغلو ساري بك ورجاله، وفي يوم من الأيام الذي بدأت فيه درجة حرارة الجو في الارتفاع، قال لكل من يخشي بك وسانسا أغلو ساري بك:

يا يخشي بك، أرسل فورا أفضل وحدات المشاة للانضمام إلى قوات الحاج إلباي الموجود على الضفة الأخرى من الدردنيل والذي ينتظر الدعم منا منذ فترة طويلة. ثم استدار ونظر إلى سانسا أغلو ساري بك، وقال ليكن أمام وخلف قوات المشاة أفضل فرسانك يا سانسا أغلو. وقال بعد أن صمت لبرهة، أما الوحدات الباقية فلتستعد بأقصى سرعة للسفر إلى أنيرا.

خصص مراد الأول الذي لم يكن يذهب إلى معسكر التدريب خلال الأيام التي بدأ فيها القادة الاستعدادات النهائية للحرب، كل وقته لوالدته وولده وزوجته. جاء يوم السفر، وعندما أصبحت كل القوات على أهبة الاستعداد للانطلاق وقبل أن يذهب إلى مقر الجيش قام بوداع والدته نيلوفر خاتون وزوجته زهرة الورد وبعد أن قام بوداعهما ذهب مباشرة إلى قصر الحكم. نظر طويلا إلى الخزانة المصنوعة من خشب الجوز والموجودة في إحدى زوايا قاعة العمل. ذهب إلى جوار الخزانة وفتح قفلها. ومسك مقبض الخزانة حتى يفتح بابها. وظل فترة لم يستطع التجرؤ على فتح الباب. ولما شعر بالحزن جذب الباب وفتحه. أخذ الصرة الحريرية التي لم تلمسها يد منذ أن رآها. وضعها برفق على الطاولة. وفتح طبقاتها الموجودة فوق بعضها واحدة تلو الأخرى وأخرج قمصان شقيقيه الملطخة بالدماء والموضوعة فوق بعضها بعضا. ثم نظر إليها، وحدث نفسه قائلا: "كنت قد وعدت زوجات أبي بأنه من الآن فصاعدا لن يتغير أي شيء. كيف سأخبرهن بذلك الآن؟". وفي الوقت الذي اغرورقت فيه عيناه بالدموع، قُرع باب القاعة. وانتظر دون أن يتكلم. وعندما قُرع الباب بإصرار من القارع، قال بصوت مرتعد:

ادخلوا.

كان الداخل نائب رئيس الوزراء الجاندارلي سنان الدين قرا خليل باشا، ولما رأى القمصان الملطخة بالدماء الموجودة على الطاولة، قال:

يا سلطاني، إن أضفتم شقيقيكما إلى آلاف البشر الذين ماتوا في سبيل إمارتكم فيمكنكم أن تخففوا آلامكم. ولكن إذا فصلتم شقيقيكما عن الآخرين زدات آلامكم كما يصبح نسيانكم للأمر شيئا صعبا.

قال مراد الأول دون أن ينظر إليه:

يا خليل باشا، بعد موت والدي كنت قد قلت لزوجات أبي بأنه من الآن فصاعدا لن يطرأ أي تغيير على حياتهن. والآن كيف سأخبرهن بذلك؟

نظر إليه الجاندارلي قائلا:

هذا شيء يتم عمله من أجل الحفاظ على سلامة الدولة. إن إخبارك لزوجات والدك بالقرار الذي اتخذ من أجل الحفاظ على سلامة الدولة سوف يسبب لك بعض الألم ولكن يجب عليكم القيام بواجبكم هذا قبل السفر، لأنه حتى أنتم لا تعلمون إن كنتم ستعودون من هذه الغزوة أم لا، يجب أن تُبرءوا ذمتكم وألا يكون لأي أحد حق في ذمتكم وأنتم ذاهبون للحرب.

وبينما يجلس مراد الأول صامتا على المقعد، انصرف الجاندارلي سنان الدين قرا خليل باشا الذي عدل عن قول الكلام الذي كان سيقوله قبل قليل في صمت وخرج من القاعة. مراد الأول الذي نظر لبرهة إلى الباب الذي خرج منه، في البداية فكر في أن يقول لأمهات الأمراء بعد الحملة ولكنه اعتقد أنه سيكون من الخطأ أن يخرج إلى الحرب وعلى كاهله حمل ثقيل كهذا، أخذ معه

صرة القمصان الملطخة بالدماء وذهب إلى قصر والدته. وبعد أن حكى كل شيء بالتفصيل لزوجات والده اللواتي استدعتهن والدته، قال:

إن ما أريده هو ألا يكون لأحد حق في رقبتي إن أصابني مكروه في هذه الغزوة التي سأقوم بها. أريد منكن أن تبرئن ذمتي. وقبل يد والدته وخرج من الغرفة. في الأيام التي انطلق مراد الأول مع يخشي بك وسانسا أغلو ساري بك من بورصه، كان المربي شاهين بك الذي أسس معسكرا للجيش على أراضي ولاية جردا الموجودة في شرق جبال بيتانيا طوال فصل الشتاء بعدما حصل على الأمر بالحرب قد تحرك مع وحدات الفرسان وأقام معسكرا في أول مكان يمكن منه مشاهدة قلعة أنيرا. مراد الأول الذي جاء بعد عدة أيام إلى مقر شاهين بك مع وحدات الفرسان الرئيسية، وفي الوقت الذي كان قد قرر فيه انتظار وحدات المشاة التي تأتي من خلفه في مقر المربي شاهين بك، جاء الخبر الأول من الوحدات الموجودة في الطليعة. لكن الخبر الذي وصل أسكت كلام كل من مراد الأول والمربي شاهين بك. القادة الذين ينظرون إلى بعضهم بعضا انطلقوا على الفور مع فرسانهم. اجتازوا في لمح البصر وادي جوبوق أباد الذي يأخذ اسمه من اسم زيطا بك الذي حمى إمارته من الغزاة العرب لفترات طويلة والتي تأخذ اسمها من اسمه. اسودت الدنيا في وجه مراد الأول عندما شاهد مئات القتلى المشقوقين نصفين والمرصوصين إلى جوار بعضهم بعضا عند ملتقى الجدول الذي يجري شاقا الوادي من منتصفه مع الجدولين الآخرين. وغشى وجهه الهادئ الحزن والكدر. ونظر إلى المربي شاهين بك وهو يرغب في البكاء. عندما شاهد عجزه هو الآخر بعد أن اعتصر ألما قال مغاضبا:

أيها الرجال، إن الجريمة التي ارتكبها تنظيم الإخوة العام الماضي قد تضاعفت وصارت جريمتين. سوف يدفعون ثمن ذلك غاليا.

قال المربي شاهين بك الذي ينظر بنظرات حائرة إلى مراد الأول، والذي كان أميره حتى العام الماضي والذي يخاطبه الآن بالسلطان مراد:

كانوا قد فعلوا أسوأ من ذلك بوحداتنا الأخرى بعد أن افترقنا العام الماضي يا سلطان مراد... أعتقد أنهم تجرعوا على تكرار نفس الفعلة هذا العام لأنهم لم يدفعوا ثمن فعلتهم التي ارتكبوها العام الماضي...

إذن لماذا لم يتخذ قادتنا الكبار الذين يعلمون بأنهم سيقومون بهذا العمل التدابير اللازمة أيها المربي؟

قال المربي شاهين بك وهو يقطب وجهه بالحزن والهم:

أظن أنهم سينخدعون في انبساط أرض الوادي مثلي يا سيدي وبدأ الإشارة بيده إلى الربى الصغيرة الموجودة في الجهة المقابلة.

أدار مراد الأول رأسه ونظر إلى ربى فريك التي يحاول المربي شاهين بك الاشارة إليها بإصرار. لما ثنى شفته وكأنه لم يفهم أي شيء، قال المربي شاهين بك:

لسنا وحدنا من خُدعنا باستواء أرض الوادي يا سلطان مراد. فلقد انخدع هنا الكثير من قبلنا. مثل قادة فريك الذين ينامون تحت التلال التي شاهدتموها.

بدأ مربي الأمير مراد الأول في إعطاء معلومات عن الفريكيِّن وكأنه يشرح الدرس لمراد الأول الذي قال إنه لا يعرف الكثير عن الفريكيِّن. ولكن أثناء استماع مراد الأول إليه كان قد تذكر سنان الدين يوسف باشا الذي ذهب إلى زيارته في بورصه قبل الخروج للحرب، والذي قال له " يا ولدي، كان والدك يرغب في الاستيلاء على أنيرا. كان يعتبر تلك المنطقة ذكرى سليمان. وفارقنا بينما كان يقوم بعمل الاستعدادات من أجل الاشتراك في الحرب العام الماضي. والآن في رقبتك دينان. أحدهما عن شقيقك الأكبر سليمان باشا، والآخر عن والدك أورخان غازي. إذهب واستول على أنيرا. وبذلك تسدد دينك وتلقن درسا للقرمانيين الذين يحدثون الفتن عند حدود إمارتنا في كل الأوقات. "وبعد أن صمت لبرهة قال أيضا بصوته الهادئ هذا محذرا إياه قائلا "لكن لا تنس أن دماء جدران تلك القلعة لم تجف قط منذ زمن الغلاطيين (الكلتيِّن)..." ثم أمسك يده وقال، "هيا لتكن غزوتك غزوة مباركة... وسأدعو لك بالخير والتوفيق". المربي شاهين بك الذي أدرك أن مراد الأول لا ينصت إليه، ترك الحديث عن الفريكيِّن وكان ينظر إلى وجه أميره. الأمير مراد الذي أفاق لنفسه متأخرا جدا، لما شاهد مربيه ينظر إليه صامتا على هذا النحو، قال:

أستميحكم عذرا مربيّ العزيز. لم أتذكر بعض ما قلته لأنني تذكرت ما قاله سنان الدين يوسف باشا. لقد استحقت أنيرا أن نلطخ نحن أيضا جدرانها بالدماء.

إن قادة قواتنا غاضبون للغاية لأجل رجالنا الذين قتلوهم وقطعوهم إربا مرتين على هذا النحو الذي حدث. ولكن ليثأروا إما من أحفاد ميداس أو من الغلاطيِّن أو من الكيميريين أما انتقامهم فلا يمكن أن يكون بدرجة انتقامي

أنا. إن لم أعلق حاكم هذه القلعة ورجاله الذين يعادون ملك الملوك العادل على أعواد المشانق في نفس المكان الذي شنقوا فيه محيى الدين بك وابنيه فلا تقولوا إنّي مراد بن أورخان... ثم امتطى صهوة جواده الأدهم الذي نزل عنه قبل قليل.

تملكت الحيرة والدهشة المربي شاهين بك، لغضب أميره الذي كبر بين يديه والذي تأثر بطموحه لأول مرة والذي لم يضع وقته هباء أثناء قيامه بمهام الحكم في بورصه. وخاطبه هو يمتطي صهوة جواده من خلفه قائلا:

يا سلطان مراد، انتظر! إن لم تكن هناك قوة تحرض تنظيم الإخوة ما كانوا ليقوموا بمثل هذه الأعمال الإجرامية. لنقم أولا بإعداد إحدى الخطط، ولنقم بالهجوم بعد ذلك.

كان يعلم بأن قائده لن يتوقف حتى يصل إلى القوات الموجودة في الطليعة إلا أنه كان قد حاول إيقافه. في الحقيقة حدث ما توقع، ولم يوقف القائد مراد جواده حتى وصل إلى الوحدات الهجومية الموجودة في الطليعة. في الحقيقة كان جواده الأدهم أيضا كان قد ذهب دون توقف إلى المكان الذي يريده وكأنه كان قد توقع إلى أين يريد أن يذهب.

كانت الوحدات الهجومية الموجودة في الطليعة ومن في معيتهم من المحاربين مصطفين إلى جوار بعضهم بعضا. تعرف قائد الوحدات الهجومية على القائد مراد من العمامة الموجودة على رأسه وهرع مسرعا إليه. قال القائد مراد وهو ينظر إلى أسوار قلعة أنيرا الموجودة على المرتفع والتي تقف وكأنها عش نسور تنظيم الإخوة:

كيف حدث، ولِمَ لم تهرعوا لنجدة أصدقائكم يا يعقوب زاده؟

قال يعقوب زاده سليمان بك قائد الوحدات الهجومية:

سامحونا يا سيدي، في الأغلب بعد منتصف الليل لن ترى العين العين حيث يغلف الوادي الضباب الكثيف. هم خرجوا من القلعة مع نزول ذلك الضباب. بينما كنا نتقدم من جهة الجنوب كانوا يتقدمون من جهة الشمال. وعندما يسقط البصاصون الموجودون في بطن الوادي في الشرك يكونون حينئذ مثل الصيد الغافل. ولما وصلنا إلى هناك فور تلقينا الخبر لم يكن هناك أي شخص بخلاف بعض الجرحى. من حسن الحظ، أننا وصلنا بسرعة ولم يستطيعوا إيجاد الوقت لتقطيع موتانا كما فعلوا العام الماضي. وبينما يستمع المربي شاهين بك لهذا الكلام مسح شاربه الطويل الرفيع بظهر يده، وبعدما أنهى يعقوب زاده سليمان بك كلامه سأله قائلا:

وما هو الوضع الآن يا يعقوب زاده؟

نظر يعقوب زاده سليمان بك إلى جاوا أغلو كريم بك قائد المحاربين الموجود بجواره وقال:

كنت قد ناقشت مع كريم بك قبل قليل الأخبار التي أتى بها مخبرونا. الآن أغلقوا كل أبواب القلعة. في الأغلب يحكون لسكان القلعة عن الهجوم الذي قاموا به لتحفيزهم. نتوقع ألا يكون لديهم علم بوصول سلطاننا إلى هنا. يظنون بأنهم سيرهبوننا بتكرار ما فعلوه العام الماضي. ولذا فمن المحتمل أن يخرجوا الليلة من أجل الهجوم... استدار المربي شاهين بك ونظر إلى السهل الموجود خلفه. كانت القوات في ذلك الوقت على بعد مسافة بعيدة وكانوا لا

يستطيعون رؤيتها. وفي الحقيقة كان من غير الممكن مشاهدة الوحدات التي ذهبت للراحة في ذلك الوقت من القلعة. استدار ونظر إلى السلطان مراد وقال:

أنا أشارك القائدين رأيهما. لندفع بفرساننا بسرعة نحو القلعة بمجرد حلول الظلام. وأثناء تقدم قوات المشاة نستدرجهم إلى الممرات التي سنتركها بين فرساننا. بعد ذلك فلننجز العمل على طريقة فخاخ الذئاب. إن لم يخرجوا من القلعة كما نتوقع لنكمل غدا كافة الاستعدادات ونشن الهجوم الشامل عليهم بعد غد. نريدهم أن يستسلموا قبل هجوم الفدائيين.

هز مراد الأول رأسه بعد أن انتظر لفترة حتى يسيطر على غضبه ووافق على ما قاله المربي شاهين بك. طير المراسلون الذين أُرسِلوا عبر منحدرات الوادي حتى لا يُشاهدوا من القلعة على الفور الخبر إلى وحدات الفرسان والمشاة. ولم يذهب مراد الأول والمربي شاهين بك إلى القوات عبر الطريق الذي سلكوه أثناء مجيئهما بل عبر قاع الوادي. أطبق الصمت المطبق الذي أثار دهشة حتى الموجودين بالقلعة على الوادي طوال اليوم. وفي الوقت الذي اختفت فيه الشمس خلف جبال بيتنيا وكالمعتاد بدأت التحركات فور تناول طعام الحرب معًا في الوحدات. بدأت تتقدم فرسان قرا حسن أوغلو الذين يطلق عليهم الجبابرة من ناحية شمال قلعة أنيرا ووحدات الفرسان والمشاة التابعة للمربي شاهين بك وقرا أيقود ألب من ناحية الجنوب، ووحدات الفرسان والخيالة الرئيسية التي يقودها مراد الأول من ناحية الغرب شيئا فشيئا نحو أنيرا التي توارت في الظلام. أما المحاربون والمغيرون الموجودون في طليعة المقدمة فكان يقودهم قرا على بك.

انتهى هذا السير والتقدم الصامت الذي استمر حتى منتصف الليل مع وصول الخبر الذي يقول بسيطرة أيقوت آلب وفرسانه شرق القلعة. بعد هذا الخبر بدأت القوات بشكل منظم في تشكيل الأطواق المفتوحة الأطراف حول القلعة من ناحيتي جنوب وشمال القلعة. وتم تسكين وحدات الطليعة كذلك في المناطق المفتوحة من الأطواق فور رؤيتها. وكانت المهمة المكلفة بها هذه القوات هي سحب القوات الموجودة بالقلعة إلى الكمائن المعدة لهم. ولما كان المربي شاهين بك قد درب مراسليه جيدا فإنهم كانوا يقومون بتوصيل الخبر الذي يأتي من الوحدات الموجودة في طليعة المقدمة إلى مراد الأول والقادة في مدة وجيزة جدا. بعد منتصف الليل بفترة طويلة بدأ الضباب ينزل على سهول الجبال الموجودة شمال القلعة. لما كسى الضباب القلعة التي يُرى ظلها في ضوء القمر الباهت تماما، قامت الوحدات بتضييق الأطواق دون الإخلال بنظام السلاسل. اقترب المغيرون والمحاربون أكثر من القلعة.

عندما بدأ الأفق يشرق وفي الوقت الذي بدأ فيه الضباب يتبدد بفعل ريح الصباح وإن كان بدرجة بسيطة، فإن مراقبي يعقوب زاده بك الذين يراقبون أبواب القلعة أخبروا القادة بالخارجين من القلعة عبر إطلاقهم صيحات البوم. وفي لحظة تواصل صياح البوم بين الحين والآخر في سهول الوادي. إن مراد الأول الذي أخذته سنة من النوم في ذلك الوقت عندما تم إخباره بذلك نهض وامتطى جواده الأدهم من فوره. وكان كل من المربي شاهين بك وقرا حسن أغلو اللذين علما بالأمر قد امتطيا جواديهما. وفي الوقت الذي خرجت فيه الوحدة التي يشكل الفرسان الذين يمتطون الجياد غالبيتها في فترة وجيزة من القلعة على هذا النحو، كانت أصوات صياح البوم التي يصدرها المراقبون لا تنقطع.

أما الفرسان الذين خرجوا من القلعة فكانوا يقودون جيادهم بسرعة البرق نحو الجهة التي يوجد بها قوات مراد الأول الموجودة في الغرب وقوات قرا حسن أغلو الموجودة في الشمال. المربي شاهين بك الذي وصله خبر إتمام الخروج من القلعة، على الفور أرسل الجبابرة الذين هم تحت إمرة أويوز حسن بك للسيطرة على طريق عودة القوات التي خرجت من القلعة. وعندما تبدد الضباب تماما كان الصبح قد انبلج. وكان وقت السحر يستعد ليترك مكانه لضوء الشمس. عندما تقدمت الوحدات التي خرجت من القلعة كثيرا بعدما رأت أنها لن تلتقي بالوحدات العثمانية، ظنوا أن الوحدات العثمانية التي خافت من وحشيتهم التي حدثت بالأمس تراجعت عن حصار قلعتهم كما حدث العام الماضي وفي الوقت الذي كانوا قد بدعوا فيه في الفرح والسرور، رأوا وحدات الطليعة التي فرت منهم. عندما تشجعوا من هروبهم جاءوهم من خلفهم.

(٨٨)

كان الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس يواصل دون توان الاستعدادات للحرب التي ستبدأ مع بداية فصل الربيع، وكان يتابع كل يوم تقريبا تدريبات القوات الجديدة ووحدات الفرسان المتطوعين التي ستنضم إلى الجيش الذي تركه في تراقيا، رغم أن الجو كان مطيرا وباردا جدا طوال فصل الشتاء. وانطلق أسطول يتكون من ستة سفن تقل على متنها مقاتلى البحرية الهوسبتاليين المعروفين لحصار قلعة هراقليا بنوتيقا، رغم عدم ملاءمة الأحوال الجوية بشكل كبير للخروج إلى المورة، لم تكد تخرج قوات البحرية الهوسبتاليين إلى الشاطئ حتى تعرضوا لوابل من السهام، ولم يتمكنوا من حصار القلعة فحسب بل استطاعوا أن ينجوا بأرواحهم بالتقهقر إلى الخلف وإلقاء أنفسهم في البحر فقط. كان قائد الأسطول الذي أيقن بأن استعادة هراقليا بنوتيقا ليس ضربا من ضروب المستحيل فحسب، بل بل إنه يتعذر كذلك فرض الحصار عليها ومن ثم عاد أدراجه إلى القسطنطينية مارا بقلعة شاليه آخر قلاع البيزنطين الموجودة على شواطئ المورة، وكان قد اشترى بعض البحارة ليعوض البحارة الذين فقدهم خلال عملية محاولة فرض الحصار على هراقليا بنوتيقا. ثم قال للإمبراطور بعدما وصل إلى القسطنطينية:

لم نستطع حتى محاولة إنزال القوات على الشاطئ عندما هجموا علينا كالمسعورين، سنذهب إليها المرة القادمة بأسطول أكبر ونستولي عليها يا صاحب العظمة.

قال الإمبراطور الذي فقد أمله في استعادة القلعة مرة أخرى في هذا الوقت الملائم لهم تماما:

استعدوا خلال أسبوع أو اثنين، لنطهر تراقيا أولا، وعندما لم يبق خلفنا من يقوم بطعننا في ظهورنا نعاود الذهاب مرة أخرى ونقوم بالاستيلاء عليها.

انطلق الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس بعربته الإمبراطورية بعد يوم من مساء اليوم الذي أبحر فيه الأسطول إلى بحر إيجه. كانت قوات الهوسبتاليين البحرية سيبدءون عمليات التطهير هذه المرة بدءا من شواطئ أينوس تقريبا وسيتقدمون نحو ديموطيقا، وسينطلق الإمبراطور كذلك بمجرد إنهاء أعماله في أدرنة نحو الجنوب مطهرا شمال ديموطيقا.

وصلت الوحدات البرية التابعة للإمبراطور، والفرسان الذين يمتطون الخيل الذين انطلقوا معا من القسطنطينية إلى أدرنه خلال يومين. لما وصلت الوحدات ذات التدريع الثقيل والأعداد الصغيرة والتي كانت قد انطلقت قبلهم عبر الطريق البري إلى أدرنه بعدهم بعدة أيام، انطلقت كل وحدات المشاة والفرسان نحو الغرب. كان خبر انضمام البحارة أتباع ماتيوس كنتاكوزين الذي يسير على شواطئ أينوس للأسطول من جديد هو الخبر الذي أثلج صدر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي استُقبل بحفاوة بالغة في القلاع البيزنطية القديمة التي مر عليها في الطريق. قال لقائد القوات البرية ديميتريوس في اليوم الذي تلقى فيه الخبر:

هذه أول إشارة على أن النصر سيكون حليفنا في حربنا هذه.

استدار للخلف ونظر إلى وحداته العسكرية المنظمة التي تسير خلف عربته الإمبراطورية دون أن ينتظر رد ديمتريوس قائد القوات البرية. انشرح صدره. وحدث نفسه قائلا "لقد قضيت على الأمير خليل ولكن لن تستطيع أن تهزمني أيها القائد مراد.". ثم التفت ونظر إلى وحدات الطليعة. وإلى الفرسان والخيالة الذين يسابقون الريح على ظهور جيادهم. وقال وهو يتبسم ضاحكا أثناء نظره إلى ديمتريوس الذي اقترح عليه أن يرافقه خلال الرحله في عربته الإمبراطورية المهيبة: "إن اقتلعنا العثمانيين وطردناهم بعيدا عن تراقيا فلن تكون هناك قوة قادرة على مواجهتنا بعد ذلك". وصدق ديمتريوس قليل الكلام على ما قاله الإمبراطور بهز رأسه.

أمر الإمبراطور الذي قطع الطريق ليومين نحو ماتيا التي تقع غرب تراقيا، والذي لم تترك له وحدات الطليعة الكثير من الأعمال، بأن تتجه قواته نحو الجنوب. كان قد تقدم بسرعة بكل ما أوتي من قوه حيث كان يريد الذهاب حتى ثيرما بعد إلقاء القبض على ماتيوس كنتاكوزين الذي توقع أن يكون في ديموطيقا. وكان خلال العودة سينطلق نحو القوات العثمانية الموجودة في جنوب مغالغاره منذ فترة طويلة. ولكن وفقا لآخر الأخبار التي وردت إليه فإنه تراجع عن الذهاب إلى ثيرما بعدما علم بتحرك القوات العثمانية نحو الشمال. وقرر الانطلاق نحو القوات العثمانية بمجرد إلقاء القبض على ماتيوس كنتاكوزين. وفي الوقت الذي تحركوا فيه من المكان الذي استراحوا فيه، رأى الإمبراطور قائد قوات الطليعة يقود جواده نحو عربته الإمبراطورية المهيبة. ولا حظ وهو ينظر إليه أن الوادي الواسع الذي اتخذوه طريقا يضيق شيئا فشيئا. قال قائد قوات الطليعة الذي جاء إلى جواره بعد أن ألقى عليه التحية:

يا صاحب العظمة إن الوادي يضيق شيئا فشيئا. يوجد أحد المعابر يمكننا المرور من خلاله، ولكن نظرا لكونه ضيقا جدا فهو يمثل شركا طبيعيا. وإذا ما واجهنا وحدة صغيرة فإن خسائرنا ستكون فادحة جدا.

قال الإمبراطور من فوره:

إذا كان الأمر كذلك فلتخرج وحدات الاستطلاع إلى جانبي الوادي. ولننتظر نحن هنا. تقدم بحرص مع طلائعكم قدر ما تستطيعون التقدم في الوادي. ولكن كن على تواصل باستمرار مع حاملي التروس شبه المدرعين ووحدات الفرسان التي ستتبعكم.

قاد قائد قوات الطليعة جواده وذهب، ونزل الإمبراطور بدوره من عربته ومشى في الوادي لفترة. عندما وصل إلى جوار إحدى أشجار الصنوبر الموجودة على حافة الطريق جلس على العشب وأسند ظهره على جذع شجرة الصنوبر الضخم. أما الخدم الموجودون في عربة الخدمة الموجودة خلف عربته مباشرة فقد أحضروا على الفور شربات التفاح المرطب المخلوط بماء الزؤان. وقال الإمبراطور الذي ينظر إلى سفوح الوادي شديدة الإنحدار وهو يشرب مشروبه، لديمتريوس قائد الوحدات البرية الذي جاء إلى جواره:

السفوح شديدة الانحدار.

قال ديمتريوس الذي يحب التصرف بحكمة:

يا صاحب العظمة، من أجل بداية الخطوة التي خطاها الهيموسيون إلى الوادي.

نظر الإمبراطور الذي لا يحب الحديث عن الموضوعات التي لا علم له بها إلى دوريات الاستطلاع التي نزلت من فوق جيادها والتي تحاول التقدم على السفوح وهو يهز رأسه إلى الخلف وإلى الأمام.

نزل الفرسان الموجودون في دوريات الاستطلاع عن جيادهم وكانوا قد أرهقوها إرهاقا شديدا في تسلق السفوح واستبدلوها بالجياد الاحتياطية. ولما اختفوا بين الأشجار الكثيفة بالقرب من القمة مشى الإمبراطور حتى الجدول الموجود بالقرب منه. وقف فوق إحدى الصخور الموجودة على شاطئ الجدول وغسل وجهه بماء الجدول البارد. انطلق من جديد على الطريق الذي هو أوسع قليلا من الدرب. ونظر إلى الأشجار الكثيفة الموجودة بالقرب من القمم. أمسك نفسه عن الضحك عندما شاهد أشجار الفاكهة البرية المتنوعة التي تقف وكأنها تتسلق السفح حتى المكان الذي تبدأ منه أشجار الصنوبر لسبب ما. حينما نظر إلى القمم التي تكسوها الجبال جاءه الخبر بأن دوريات الاستطلاع أتمت استطلاعها على جانبي المعبر وبأن قوات الفرسان تواصل تقدمها. ولكن انتظر حتى تسير في المقدمة قوات المشاة ذات التدريع الثقيل لمواجهة أية مخاطر محتملة. وتحرك بعدهم مباشرة رماة السهام الذين يصطادون حتى الطائر الذي يطير في السماء. وفي أثرهم المشاة المسلحون بالرماح والحراب كما عبرت وحدات الفرسان التابعة للإمبراطور. تنفس الإمبراطور الصعداء بعدما اتخذت وحدات المشاة والفرسان الذين وضعوها على المعبر مواقعها على جانبي المعبر، وعندما بدأت عربات الخدمة التي تحمل الأحمال الثقيلة تتقدم على الطريق بشكل آمن، ونظر إلى السهل الذي يكسوه اللون الأخضر المزين بالزهور الذي يمتد أمامه بعد المعبر مباشرة.

لم تكن هناك أية شجرة على السهل المنبسط. أما الإمبراطور الذي ينظر إلى السهل ذي الحقول الخضراء الممتدة وإلى الأشجار التي تبدأ من سفوح الجبال التي تحيط بالسهل، فإنه فكر قائلا: "لماذا التباين إلى هذا الحد".

تتذكر جملة "إن أي شيء لا يتحقق من تلقاء ذاته، بل على العكس فإن كل شيء يكون وينتهي لسبب ما وتحت تأثير ضغط الضرورة "الموجودة في كتاب فيلسوف الطبيعة ليوكيبوس الذي جعلته الإمبراطورة إيلينا يقرأه الشتاء الماضي بعد أن قرأته وأعجبت به. وردد مرة أو مرتين عبارة "كل شيء لضرورة ما". أخذ نفسا عميقا عدة مرات. شعر بالجوع بعدما بدأت كركرة معدته التي تحركت بفعل دخول وخروج النفس. نظر إلى ديمتريوس العجوز. وأشار إلى الحارس الموجود بالقرب منه بالاقتراب. ولما دنا منه، قال له:

أشعر بالجوع أنا وديمتريوس. أخبر الطهاة، فليجهزوا طعام العشاء عند وصولنا إلى هذه القرية.

كان الجو قد أظلم تماما عندما وصل الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي كان ينظر إلى الأشجار الموجودة على سفح الجبل المقابل أحيانا، وأحيانا أخرى إلى الحقول المزروعة الموجودة على جانب الطريق عندما وصل مع قواته الرئيسية إلى القرية الموجودة في نهاية السهل. جهز الخدم الذين ذهبوا إلى القرية على الفور أحد البيوت حتى يكون استراحة للإمبراطور حينما يأتي، وكان الطهاة قد أعدوا طعام العشاء كذلك. غلب النوم الإمبراطور الذي تناول طعامه مع ديمتريوس بعد تناول الطعام. اندهش ديمتريوس الذي أمر بعمل استقصاء في القرية أثناء نوم الإمبراطور بعدما علم بعدم وجود أي رجل في القرية يمكن أن يقوم بأي عمل. ذهب على الفور إلى كنيسة القرية. وكان الغريب في الأمر عدم وجود الراهب في المكان. على الفور أمر ديمتريوس باستدعاء بعض نسوة القرية إليه. وعلم من خلال المعلومات التي حصل عليها منهن بالمكان الذي يختبئ فيه

الراهب. قائد القوات البرية الذي ارتاب من نظر الراهب العجوز الذي وجده في المكان الذي يختبئ فيه إليه بخوف ووجل، ودون أن ينبس ببنت شفة اصطحب الراهب معه وأحضره إلى المنزل الذي ينام فيه الإمبراطور. استدعى الإمبراطور الذي تم إيقاظه لحدوث أحد الأمور الملحة والضرورية الأطباء على الفور حينما شاهد نظرات الراهب الباهتة التي يتملكها الخوف. فحص الأطباء الراهب من رأسه حتى أُخمص قدمه. إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا شيئا مهما. لما انتهوا من الفحص أوضحوا رأيهم للإمبراطور قائلين " يا صاحب العظمة ربما تكون صدمة الخوف الناتجة عن العنف". ثم أمر الإمبراطور بإعداد الطعام للراهب.

أمسك راهب القرية من يده وأجلسه بعدما أُعد الطعام. وأشار إلى الراهب بالبدء في تناول الطعام. لكن الراهب العجوز مد يده وأمسك يد الإمبراطور فقط. قلق الإمبراطور من أجل الراهب ومد يده الأخرى وأمسك باليد الأخرى للراهب. ونظر كلاهما إلى عيني الآخر لبرهة. وفي الوقت الذي كانت ستحرك فيه مشاعر الرحمة الدافئة الموجودة في نظرات الإمبراطور قلب الراهب، بدأ بعد فترة يشم رائحة الأطعمة النفيسة. وبينما يتذكر جوعه برائحة الأطعمة من ناحية، فإنه من ناحية أخرى عبرت نظراته عما بداخله. استرد وعيه بشكل جيد بعد فترة طويلة. و بدأ في تناول الطعام بعد أن بكى قليلا. سأل الإمبراطور الذي يتابع تناوله للطعام نفسه لعدة مرات قائلا :" ترى منذ كم يوم لم يتناول الطعام؟"... انطلق لسان قداسة الراهب بعد أن تناول وبعدما استرد وعيه. قال للإمبراطور الذي عرفه من النياشين الموجودة على صدره بعد أن مسح لحيته غير المهذبة:

يا صاحب العظمة المحترم، إن رجال ماتيوس كنتاكوزين أخذوا بالقوة كل الرجال القادرين على العمل وذهبوا بهم قبل ثلاثة أيام. وقاموا بتهديدي دون أدنى اعتبار لشيخوختي لأنني اعترضت على ما قاموا به. بعد ذلك اليوم تبدلت أحوالي. حنيما أري إحدى المجموعات الكبيرة تأتي نحوي يصمت لساني على هذا النحو.

سعد الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس سعادة بالغة لانطلاق لسان الراهب. وأمسك يده مرة أخرى وهو يحاول فهم الحزن والامتعاض الموجود في صوته وقال وهو ينظر إلى وجهه:

قداسة الأب، أزفت نهاية آل كنتاكوزين. ومن الآن سنعيش جميعا على الأراضي البيزنطية دون خوف. هل تعلمون إلى أين اتجهوا أيها الأب العزيز؟

قال قداسة الأب الذي شعر بالثقة بنفسه، بتلك الرقة وبصوت رجال الدين الذي يداعب القلوب:

أظن أنهم ذهبوا إلى ديموطيقا، واستغرق في صمت وبكاء عميق.

أمر الإمبراطور الذي رأى أن المعلومات التي قدمها الراهب كافية بأن تنطلق وحدات قوات مشاته والوحدات المدرعة إلى ديموطيقا فورا.

(٨٩)

كان مراد الأول قد اعتاد بدرجة كبيرة أن يخاطبه غالبية القادة الذين قابلوه منذ خروجه للحرب بلقب "السلطان". كان يلتفت باستمرار وهو فوق صهوة جواده وينظر نحو قلعة تنظيم الإخوة، وكان يغضب لعدم مجيء قائد تنظيم إخوة أنيرا الذي استدعاه من أجل الحديث معه قبل معاقبة الأسرى. وكان جواده الأدهم غاضبا مثله. وكأنه قد تأثر من حالة الغضب التي تنتابه، وكان يحرك أقدامه باستمرار وهو ينظر إلى جياد الأسرى الموجودين داخل الطوق. كان يضرب الأرض بقوة بإحدى قدميه بين الحين والآخر. مد مراد الأول يده بعدما استرعى انتباهه تلك الحالة التي عليها جواده، وداعب غرته التي جدلها السائسون مثل ضفيرة الفتيات العرائس. وقال بصوت لا يمكن أن يسمعه أحد وهو يداعبه:

أنا أيضا عصبي المزاج وغاضب مثلك تماما، ولكنني أبذل كل ما بوسعي حتى لا يسيطر غضبي على عقلي كما قال سنان الدين يوسف باشا. إن جاء حاكم القلعة في المهلة التي أعطيتها له، فبها ونعمت وإن لم يأت فسأقودك إلى حيث هم. قفز ونزل عن صهوة جواده بعدما انتهى حديثه مع نفسه. نظر إلى الرجل طويل القامة الذي يقال بأنه قائد تنظيم الإخوة وتتار الجاودار الذي خرج من القلعة صباحا، والذي يقف بين اثنين من الفدائيين المسلحين بالمعاول أمام المربي شاهين بك والقادة الآخرين. قال أحد أسرى تنظيم الإخوة الموجود بالقرب منه والذي أدرك عدم صبره بصوت مهزوز:

يا سيدي إن قائد قلعتنا شيخ كبير. وتأخره كان لهذا السبب.

أشغل مراد الأول نفسه لفترة بالمشي عشر خطوات للأمام ومثلها للخلف دون أن ينظر إليه. وفي الوقت الذي نفد فيه صبره، جاء الخبر بخروج قائد تنظيم إخوة قلعة أنيرا العجوز من القلعة. استدار ونظر نحو القلعة. ثم عد جياد القافلة التي نزلت إلى المنحدر. ثم مشى يمينا ويسار عدة مرات. نظر إلى المربي شاهين بك الذي يقف بالقرب منه. في الواقع كان المربي أشد غضبا منه ولكن كان يحاول إخفاء ذلك، وكان يشد شاربه المبروم لأعلى باستمرار كما كان يحركه باستمرار كذلك. اقترب منه قليلا. أراد الحديث ببعض الكلمات التي تُقيِّم الموقف. ولكن وكأن الكلمات التي كانت على لسانه قد طارت وهربت. تراجع عن الحديث وأمضي بعض الوقت بالمشى حتى قدوم حاكم أنيرا العجوز. ولما نزل قائد تنظيم الإخوة العجوز من فوق حصانه ببطء بمساعدة رجله الموجود خلفه، ذهب إليه سنقور بك وبينما كان يرشده إلى الطريق أشار إلى مراد الأول وقال:

حاكم العثمانيين القائد مراد ابن أورخان غازي.

اقترب قائد الإخوة الطاعن في السن الذي يعرف مقام الرجل من مراد الأول. وثنى إحدى ركبتيه ووضعها على الأرض، وقال بعد أن حنى رأسه للأمام:

أهلا ومرحبا بكم في قلعتنا أيها القائد مراد، أستميحكم عذرا على التأخير، كان ذلك بسبب تقدمي في العمر.

فكر مراد الأول لبرهة في اتزان تصرفات الرجل المسن. وقال بصوت مثل لهيب النار الموجود بداخله:

نحن كذلك كنا نريد الترحيب ولكن ما أراه أننا لم نستقبل قائد الإخوة بشكل جيد...

اعتدل قائد الإخوة المسن قليلا، ثم قال:

قلعتنا هي قلعة العثمانيين منذ اليوم الذي تركها شقيقكم الأكبر سليمان باشا أمانة في عنقنا. ولكن لأن قواتكم قد تركت قلعتنا بسرعة فإنه من أجل إمكانية استمرار الحفاظ على وجودنا، قبلنا بنير وظلم الأرطانيين والقرمانيين. ولما علمنا بقدومكم إلى قلعتنا العام الماضي أقمنا الأفراح في قلعتنا ولكن وفاة والدكم لم يكمل فرحتنا.

عندما نظر مراد الأول إلى مربيه دون أن يدري ماذا سيقول، قال المربي شاهين بك:

إذن، ماذا تقول يا قائد الإخوة عن قتل ثلاثة من قادتنا ورجالهم وتمزيقهم إربا العام الماضي والمذبحة التي حدثت ليلة أمس؟

قال قائد القلعة على استحياء بعض الشيء:

عمليات الهجوم تلك التي لم يردها إخوة أنيرا، قام بها بعض الأشقياء الذين يتحالفون مع تتار الجاودار الذين أرسلهم الأرطانيون إلى قلعتنا. والذي سيخلصنا منهم قائدنا مراد، والتفت وأشار إلى قائد تتار الجاودار وقادة الإخوة الموجودين بجواره الواقعين في الأسر. وقال يا سيدي، هاهم هؤلاء الذين يذيقوننا قسوتهم وظلمهم داخل القلعة.

أدرك مراد الأول الذي وقت إصدار الحكم قد حان بعد نهاية ما قاله الرجل الطاعن في السن، بعد أن قال للمربي شاهين بك بتطبيق القرار الذي

أُتّخذ في مجلس الحرب، استدار شاهين بك إلى الخلف ونظر إلى السيافين ضخام الجثث الذين يقفون صفا خلف الفدائيين. وتقدم السيافون إلى الأمام بعد الإشارة التي أصدرها لهم بنظرته، انقسموا إلى مجموعات تضم كل واحدة منها ثلاثة سيافين وذهبوا إلى جوار القادة الأسرى. أُمر القادة السبعة الأسرى بالسير معًا حتى أحد الأماكن المرتفعة الذي يمكن أن يشاهده جميع الأسرى وجعلوهم يجثون على ركبهم. لم يكد يجثون على ركبهم، حتى ذهب إليهم السيافون السبعة المعروفون بالجلادين أصحاب السيوف التي لا ترحم أبدا. ومع إنزال المربي شاهين بك ليده طارت الرءوس السبعة إلى سبع جهات.

قائد القلعة المسن الذي تملكه الخوف من الموقف الذي شاهده جثا على ركبتيه على الفور ثم قال:

يا سيدي الله يعلم أننا لم نخن أبدا عهودنا لشقيقكم الأكبر المرحوم سليمان باشا. بيد أننا لم نستطع بسط سيطرتنا على الرجال الذين ضُربت أعناقهم قبل قليل. كل الذين لم يتبعونهم ينتظرون إرساء عدالتكم في قلعتنا. سأكون سعيدا إن لم تضنوا عليهم بعدالة آل عثمان. ولكن إن كنت لن تعفو عنهم وستعاقبهم فعاقبني أنا أولا، حتى لا نكون شهودا على تألم روح قائدنا تشابوق بك الذي ذاع صيته من الموصل حتى مصر ومن مصر حتى اليمن والذي أُطلق اسمه على هذا السهل، ثم صمت.

لما نظر مراد الأول الذي تأثر بكلام حاكم أنيرا العجوز، إلى المربي شاهين بك أثناء حديثه قائلا : "قلوبنا ليست من الحجر" وكأنه يشير بأنه لا يوجد لديه جواب، مشى المربي شاهين بك ببطء ورفع يديه إلى أعلى على نحو يشاهده كل الأسرى وقال بصوت عال:

يا أعضاء تنظيم إخوة أنيرا! لا توجد أي قيمة لأرواحكم بعد إشعالكم الفتنة وإزهاقكم أرواح رجالنا ولكن مراد الأول ذو القلب الرحيم، يقول: إن خضعتم لنا مثل أعضاء إخوة قلعتكم الذين انضموا إلى قوات سليمان باشا قبل ذلك، سوف ندمجكم في قوات مشاتنا الموجودة في بورصه وسوف نرسلكم للانضمام إلى قواتنا التي أُرسلت للحرب في الروملي. إن لم ترضوا القيام بذلك ستصبحون أنتم وعائلاتكم أسرى لنا.

التفت نحو تتار الجاودار الذين يقف كل منهم مثل القنفد الذي لجأ إلى جلده الشوكي بعدما أُخذت منهم جيادهم. وفتح ذراعيه وكأنه يضيف هيبة إلى هيبته. وقال بصوت أعلى من الصوت الذي أطلقه آنفا:

أيها التتار! بسبب بذور الشر الموجودة بداخلكم أزهقتم أرواح الكثير من رجالنا تنفيذا لأوامر القرمانيين والأرطانيين. وحتى تدفعوا ثمن ذلك فإنه اعتبارا من الآن أنتم أسرى لقائدنا طول العمر. إن لم تقبلوا بالأسر ستكون نهايتكم مثل نهاية قادتكم.

كانت أبصار أعضاء تنظيم الإخوة وتتار الجاودار الذين تملكهم الصمت بعدما سمعوا ما قاله شاخصة نحو مراد الأول الذي جاء وشاهد نظراتهم إليه وقد سيطرت عليهم حالة من الصمت المطبق على هذا النحو، ثم دنا المربي شاهين بك وقال بعد أن جال بنظراته الحادة على أعضاء تنظيم الإخوة وتتار الجاوادار:

لقد استمعتم لما قاله المربي شاهين بك، لن أقول لكم أقل أو أكثر من ذلك. اعلنوا أولا طاعتكم لقائد إخوان أنيرا. ثم انطلقوا إلى بورصة مع قوات باشا ييت بك.

أعلن العصاة أعضاء تنظيم الإخوة الذين أدركوا إصراره الذي تعبر عنه نبرات صوته طاعتهم لقائد الإخوة العجور وهم جاثون على ركبهم، ثم نهضوا جميعا على أقدامهم ودخلوا إلى طابور السير. المربي شاهين بك الذي غضب لحديث تتار الجاودار فيما بينهم حينما ابتعد عنهم قليلا، نظر إلى دلي رستم أغا، ثم قال:

افصل هؤلاء إلى مجموعتين وبعد ذلك شقهم جميعا نصفين.

(٩٠)

كانت الشمس التي أشرقت مبكرا، والقوات التي اجتازت المرتفعات التي بقي عليها الثلج مثل الذوائب على قممها والتي اقتربت من بعضها تتعالى أصواتها وكأنها تصرخ من أجل التراجع عن الحرب. لكن ماتيوس كنتاكوزين شريك الإمبراطور الذي أعمى عينيه طمع الانفراد بالحكم، وكذلك الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس لم يكن لديهما النية للتراجع عن القتال وإراقة الدماء. فضلا عن ذلك فإن الإمبراطور كان قد تلقى رسالة من قائد الأسطول الذي استولى على قلعة ديموطيقا بمساعدة دوق أينوس تقول : "يا صاحب العظمة، إن شعب ديموطيقا ينتظركم وهو في غاية السرور والسعادة. لو قمنا بعمل كماشة على قوات ماتيوس كنتاكوزين أنتم من الشمال ونحن من الجنوب، لن يكون أمامه أي سبيل للهروب؟". وكان طموحه قد ازداد بدرجة أكبر.

ارتدى الإمبراطور الذي أعد قواته للقتال بعد تلقيه هذه الرسالة، درعه بمساعدة خادمه داخل عربته التي تنزل بسرعة من السفوح نحو الأسفل. ووضع خوذته فوق رأسه. التفت الإمبراطور نحو راهب القرية الذي اصطحبه في عربته لإصراره الشديد والذي تتوق نفسه للصلاة من أجل جيش الإمبراطور، ثم قال:

قداسة الأب، حان الوقت الذي سنتخلص فيه من آل كنتاكوزين. صل نيابة عنا هذا اليوم المشمس ونيابة عن الفجر الذي جعله يبدو لنا ومن أجل نصرنا كذلك.

بدأ راهب كنيسة القرية العجوز في الصلاة بعدما أشار الإمبراطور إلى قائد العربة من أجل تهدئة السرعة. نزل الإمبراطور من العربة، وامتطى بمساعدة حراسه جواده الموجود في عربته الاحتياطية. وألقى التحية على الراهب برأسه للمرة الأخيرة، وضرب جواده بالمهماز، وذهب مع حراسه أمام الفرسان الذين يمتطون الخيل، ولما علمت الوحدات الأخرى بتحركه عن طريق إشارة الراية البيضاء، عم الضجيج سفوح الجبال بوقع الأقدام. وحدات ماتيوس كنتاكوزين الموجودة على السفح المقابل التي شاهدتهم ينزلون من السفوح على شكل نصف دائرة تحركت هي الأخرى. نظرا لأن ماتيوس كنتاكوزين يجيد القتال في الجبال فإنه كان يظن بأنه سيلحق الهزيمة بفرسان الإمبراطور قبل وصول الهوسبتاليين من أجل الهجوم عليهم ليس من اتجاه واحد فقط بل أيضا عبر الهجوم عليهم بوحدات فرسانه التي أخفاها خلف التلال. لكن عندما بدأت قوات فرسان الإمبراطور التي هجمت من المنتصف بعد فترة في التقهقر للخلف أصدر ماتيوس كنتاكوزين الذي أحس بنشوة النصر فجأة إلى فرسانه المدرعين الموجودين في القلب بإلقاء القبض على الفرسان الفارين. إن فرسان الإمبراطور الذين أبعدوا فرسانه المدرعين عن القوات الموجودة تحت إمرة أمراء الصرب قاموا بالعودة بشكل مفاجئ وقاموا بالهجوم من خلال الارتداد الخاطف. وقاموا خلال مدة وجيزة بالقضاء على فرسان ماتيوس كنتاكوزين غير المنظمين الذين جاءوا خلفهم. في ذلك الوقت بدأ رماة السهام التابعون للإمبراطور والذين عبروا الجدول الموجود بين التلين في إطلاق وابل من السهام على القوات الرئيسية لماتيوس كنتاكوزين. قاد الإمبراطور يوحنا

باليولوج الخامس الفرقة الثانية من الفرسان المدرعين تدريعا ثقيلا والمسلحين بالحراب والرماح الموجودين في القلب بعدما شاهد قوات ماتيوس كنتاكوزين يتملكها الرعب. سحب ماتيوس كنتاكوزين الذي رأى انطلاقهم نحوه قواته للخلف وصعد إلى سفح التل الموجود خلفهم. في ذلك الوقت لفت انتباه ديمتريوس قائد القوات البرية الموجودة في الميمنة السهام الطائشة التي تطلق على فرسانه. حيث كانت تُطلق السهام التي تأتي نحوهم بلا هدف تقريبا. حدث نفسه قائلا " ربما يكون هذا ناتجًا إما عن أنهم لا يريدون إصابتنا وإما لأنهم ليسوا مدربين تدريبا جيدا ولا يحسنون إطلاق السهام". ومع هذه الرؤية حرك فرسانه المدرعين. بعد فترة وجيزة من قيامهم بالهجوم تركت قوات ماتيوس كنتاكوزين الموجودة في الميسرة مواقعها واختفوا بين الأشجار الكثيفة. أمر ماتيوس كنتاكوزين الذي رأى تعرضهم للتقهقر والهزيمة، على الفور قواته الاحتياطية التي تركها خلف التل بالهجوم من كلا الجانبين. وبحالة الهياج التي تملكته وعدم سيطرته على نفسه قام بالهجوم على قوات القلب التي يوجد بينها الإمبراطور. في البداية سُمعت صيحات البشر التي تمزق السماء، ومن بعدها أصوات الدروع التي صارت صدفا للحراب. أما الدماء التي أُريقت فقد كونت جداول صغيرة، بعدما توقف صدام الحراب بالدروع بدأ تصارع قوات أولئك الهوسبتاليين المشهورين الذين يطلق عليهم سيوف البيزنطيين الذين تم تكوينهم قبل عصر روما بفترات طويلة. ماتيوس كنتاكوزين الذي رأى تفوق هوسبتاليين الإمبراطور بعد فترة قصيرة، وكآخر وسيلة قاد جواده مع أخلص وأشجع حراسه نحو الحراس الذين يحمون الإمبراطور. بعدما هجم أمراء الصرب الذين حذوا حذوه كذلك على قوات

الإمبراطور المركزية بدأ التناحر الذي لم يشاهد مثله من قبل. وفي الواقع فإن حراس ماتيوس كنتاكوزين كانوا يتقدمون بالشكل الذي يتناسب مع شهرتهم. تملك الإمبراطور الذي رأى اقترابهم منه الرعب وفي الوقت الذي كان سيقرر فيه الانسحاب إلى الخلف، رأى أن قادة قوات الميمنة والميسرة التابعين له قد طوقوا قوات ماتيوس كنتاكوزين بطوق على شكل نصف دائرة. لما رأى هذا أخذته الشجاعة وقفز من فوق جواد بشجاعة لم يشاهد عليها من قبل وبدأ يركض أمام الوحدات التي تحمل السلاسل والقضبان الشائكة نحو حراس ماتيوس كنتاكوزين الذين يقتربون منه. شجاعته المجنونة منقطعة النظير هذه والتي بثت الحماسة في قواته بشكل كبير، مُزِّقت حراس ماتيوس كنتاكوزين في فترة وجيزة. لما رأى ماتيوس كنتاكوزين أنه فقد كل حراسه تقريبا قاد جواده بأقصى سرعة وهو يتملكه الرعب من أجل اللحاق بقوات الصرب الذين انسحبوا إلى الجهة اليسرى. واختفى بعد فترة وجيزة تاركا خلفه آلاف القتلى كما فعل في كل من تيريهاليوم وكبسيلا وأدرنه. كان ماهرا جدا في هذا الأمر، كان وكأنه كان يُنحِف (يُصغِر) جسده الضخم ويدخل في جحر أحد الفئران أو كأن أحد الجبال كان ينشق أمامه ويبتلعه ويخفيه.

الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي حقق نصرا كبيرا لأول مرة لم يكن يدري هل يفرح بالأسرى غير البيزنطيين الذين أسرهم أم يحزن لهروب ماتيوس كنتاكوزين من يده. بينما يتجول حائرا على هذا النحو بين الموتى فإن قائد عربته الذي يسير خلفه قاد خيله وجاء إلى جواره. لما رأى الإمبراطور العربة تذكر راهب القرية الذي تركه داخل العربة. نسى كل شيء وركب العربة من فوره. وأمسك بيدي الراهب العجوز وقال:

لقد فر من بين أيدينا ماتيوس كنتاكوزين مرة أخرى أيها الأب ولكن ظفرنا بالنصر بسبب دعائكم لنا، لا تضنوا علينا بالدعاء بعد الآن.

هز الراهب المسن رأسه للأمام ثم قال:

سأدعو لكم باستمرار يا صاحب العظمة... إن أرواح الكثير من إخواننا الذين ذهبت ثمنا لحرب من أجل الصراع في الدين يحزنكم أيضا ولكن ما الذي كان بوسعكم أن تفعلوه ليس بيدكم أي شيء، قال الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس،:

نعم يا قداسة الأب، لم يكن أمامي أي بديل عن الحرب في مواجهة طمع آل كنتاكوزين في الحكم.

ولكن آمل ألا يجد أميرا صربيا يخدعه ولا قائد قلعة يلجأ إليه ويحتمي به بعد الآن.

وضع راهب القرية يده على رأس الإمبراطور وقرأ أحد الأدعية. وقال بعد أن أخرج الصليب وكأنه يباركه:

يا صاحب العظمة أظن أن طرقنا ستفترق هنا. إذا كان بين أسراكم رجال قريتنا الذين أخذهم رجال ماتيوس كنتاكوزين عنوة وذهبوا بهم أرجوكم أن تعفوا عنهم وتطلقوا سراحهم من أجل نسائهم وأطفالهم.

اتجه الراهب العجوز الذي شعر بالراحة والطمأنينة من يده التي وضعها على رأسه والذي قال هذا الكلام نحو الباب من أجل النزول من العربة، ونهض الإمبراطور هو الآخر على قدميه. وهو ينظر مبتسما إلى الرجل المسن الذي يعيش نمط حياة بسيطة والذي يدافع عن هذا النمط من الحياة الذي نسيه البطاركة منذ زمن سنوات، وقال وهو ينظر أمامه:

أيها الأب، إن أردت يمكنك أن تأتي معي إلى القسطنطينية.

قال الراهب العجوز:

يا صاحب العظمة، أنا لا أستطيع النزول حتى إلى ديموطيقا. أنا إنسان الأماكن الصغيرة، أختنق في القسطنطينية. ثم نزل من عربة الإمبراطور.

نزل الإمبراطور هو الآخر من العربة. ونبه على حراسه الموجودين بالقرب منه بتحقيق كل طلبات الراهب وإعطاء إحدى العربات التي يجرها اثنان من أفضل الجياد إلى قداسة الراهب.

عندما انطلق راهب القرية العجوز والقرويون الذين استطاع أن يجدهم على الطريق نحو قراهم، أشعلت قوات الإمبراطور النار في الحطب الذي وضعوه فوق جثث القتلى التي جمعوها وانطلقوا على الطريق المتجه نحو قلعة ديموطيقا.

(٩١)

ذهب مراد الأول إلى قلعة أنيرا مع قائد الإخوة العجوز بعد التخلص من تتار الجاودار مباشرة، وعيَّن قرا حسن أغلو قائدا للقلعة، وواحدًا آخر من الرجال الذين دربهم ورباهم سنقر آلب مديرا للأمن وواحدًا آخر من الفقهاء في منصب قضاء القلعة. وأسر كل عائلات تتار الجاودار وقسمهم بالتساوي بين قادة قواته. وترك قيادة المهاجمين والمحاربين الذين تركهم خارج القلعة إلى كل من ساري علاء الدين بك ودلي رستم أغا ثم غادر القلعة.

انطلق مراد الأول عائدا إلى بورصه بعد أن غادر قلعة أنيرا بيومين مع فرسانه تاركا وحدات المشاة للمربي شاهين بك، كان يبدو مهيبا للغاية حيث نصب كتفيه على صهوة جواده الأدهم الذي يسابق الريح أمام وحدات الفرسان.

وفي الوقت الذي حقق فيه ضم قلعة أنيرا إلى أراضيه في فترة أقصر مما كان يعتقد حالة من الابتهاج والسرور، وبينما يتقدم إلى بورصه من جنوب جبال بيتنيا كان قد ضم إلى الأراضي العثمانية حتى ذلك الوقت كل القلاع التي ظهرت أمامه على أراضي الكرمانيين الذين كان يطلق عليهم والده مستقبل السلطان والتي تمتد مثل شبه الجزيرة من الجنوب نحو الشمال واحدة تلو الأخرى. وأرسى النظم في القلاع وانطلق إلى بورصه من جديد بعد أن أعد ودرب الأعداد الكافية من المهاجمين والمحاربين على الحدود وجاء إلى قلعة قولجه حصار التي تطلق عليها والدته حتى الآن اسم كرولّلا.

استقبله أهالي قولجه حصار الذين علموا من فرسان الطليعة بقدومه بحفاوة وسعادة بالغة. وعلى الرغم من تعجله الوصول إلى بورصه من أجل أن يلتقي بأمه وزوجته زهرة الورد خاتون وابنه بايزيد في أسرع وقت، قرر بعدما شاهد ذلك الاستقبال الحار أن يبقى ليلة في القلعة التي قضت فيها والدته طفولتها. وعقد اجتماعا مع قادة وحداته التي سيرسلهم إلى الحدود قبل أن يشارك في المأدبة التي أعدها حاكم القلعة البيزنطي. وقال بعد أن طالبهم بأن يتقدموا بروية دون إحداث أية عداوة مع أي شخص على الحدود:

أيها الرجال إن أنصار ومؤيدي الكرمانيين أكثر منا في الوقت الراهن لأنهم ضربوا بجدورهم في هذه الأراضي من قبلنا. وحدثهم عن آخر ما يصبو إليه قائلا: وليكن الشعب أحد أسبابكم التي تعملون من أجلها أثناء قيامكم بالهجوم واعملوا على كسب الكثير من الأنصار والمؤيدين لكم. ذهب جميع قادة وحدات المحاربين وقادة الوحدات الهجومية الذين سيذهبون إلى الحدود بقواتهم الجديدة بعد أن قالوا إنهم فهموا جيدا ضرورة ما يجب القيام به للمشاركة في مأدبة العشاء التي أقامها الحاكم البيزنطي للقلعة...

لم يعط مراد الأول الذي أسرع بجواده نحو بورصه أمام وحدات الفرسان في اليوم التالي أي فترة للاستراحة إلى أن وصلوا إلى معسكر الجيش الموجود بالقرب من قلعة لُبلُجه. ترك الواحدات في معسكر الجيش وقاد جواده الأدهم نحو القلعة. ذهب مراد الأول من فوره إلى جناح والدته نيلوفر خاتون وقبل يدها بعد أمضى مع ابنه بايزيد وزوجته زهرة الورد خاتون بعض الوقت. وسأل عن أحوال زوجتي والده طيب خاطرهما. ولكن عندما شاهدهما تذكر قمصان شقيقيه الملخطة بالدماء. أحس بالضيق وذهب إلى جناح حريمه.

خرج من قصره في اليوم التالي بعد تناول طعام الفطور وبينما يسير من أجل المشاركة في اجتماع الديوان حدث نفسه قائلا: "لو يعلمن أن ولديهما هما من أعدا الموت لنفسيهما لربما تسامحاني، ولكن لعدم علمهما بهذا لن تسامحاني أبدا. في الحقيقة إن قلبي لن يرتاح في أي وقت. كلما شاهدت والدتيهما سيأتي أمام ناظري قمصانهم الملطخة بالدماء. الأفضل أن أقول لهن بأن ينقلا إقامتيهما إلى القلاع التي يُرِدْنَهَا. فلربما ننسى بسرعة إذا لم يتم اللقاء بيننا". وحدث نفسه وهو على وشك الدخول من باب القصر الذي يوجد فيه قادة الديوان، قائلا: "كان مسئول الأمن في قولجه حصار في تنافس مع حاكم القلعة باستمرار. يجب أن يتخلصا من هذا التنافس. آمل أن يكون خليل باشا قد قام بعمل بعض التغييرات في إدارة القلعة كما تحدثنا قبل الذهاب عن القلعة". اجتاز الفناء القصير بسرعة ولما دخل من باب قاعة اجتماعات الديوان نهض نائب رئيس الوزراء ورئيس الديوان الجاندارلي قرا خليل بك وأعضاء الديوان الآخرين على أقدامهم وألقوا عليه التحية. وبعد أن جلس جلسوا هم أيضا في أماكنهم. استقام نائب رئيس الوزراء الجاندارلي قرا خليل بك على ركبتيه، وقال:

يا سلطاني ليجعل الله من نصيبكم الغزوات المظفرة المشرقة.

قال مراد الأول:

ليكتب الله لنا النصر على الدوام. انتظر لبرهة وبعد أن تمت قراءة الأدعية، قص بالتفصيل كل الذي حدث أثناء الغزوة. بعد هذه الكلمة الطويلة شُرِبَ شربات الانتصار. استنشقوا النشوق ولما عم الصمت المكان قال:

يمكن أن أقول بعد كل ما شاهدته في هذه الغزوة إننا من الآن فصاعدا في حاجة إلى جيش نظامي وإلى إدارة منظمة في قلاعنا. ونظر إلى الجاندارلي وكأنه يذكره بالموضوع الذي ناقشاه قبل الخروج للغزوة، قال الجاندارلي:

تناقشت مع السلطان مراد الأول عدة مرات حول أدق تفاصيل هذا الموضوع على فترات طوال فصل الشتاء ولكن لم يستطع اتخاذ أي قرار، الجاندارلي خير الدين قرا خليل باشا الذي تحمل الكثير من مهام الوزير الأعظم والذي خرج عن الحديث عن الأفكار، نظر إلى أعضاء الديوان ثم قال:

أيها المحاربون الأبطال والوزراء والعلماء الذين بذلوا ما في وسعهم من أجل بناء وبقاء الدولة العثمانية. لا جرم أن كلا من المرحوم علاء الذى على بك والمرحوم الأمير سليمان باشا ومحمود أوغلو أحمد باشا وحاجي باشا وأخيرا سنان الدين يوسف باشا قد أداروا بإخلاص شئون إمارتنا التي توسعت حدودها باستمرار منذ زمن الحاكم عثمان غازي وحتى الآن. إن أول ما يجب معرفته، هو أن إدارة هؤلاء لشئون الإمارة قد تحققت بمشاركة قادتنا وأبطالنا. ولكن إذا ما كنتم ستنظرون إلى حدود الإمارة وإلى سكانها خلال المراحل الأولى، فإن أساليب وطرق الإدارة التي كانت موجودة في عهودهم لم تعد كافية لنا في الوقت الحالي. كنا قد توصلنا مع حاكمنا مراد الأول قبل خروجه للحرب إلى اقتناع بتقسيم الإدارة كما هو الحال في الممالك التي سبقتنا، من أجل حدودنا التي تتسع كل يوم وعمالنا ومزارعينا الذين يكدحون داخل حدودنا، وكذلك من أجل وحداتنا المسلحة التي تتزايد يوما بعد يوم. قمت بعمل الكثير من الدراسات أثناء وجود قائدنا في الحرب،

واستقصيت وبحثت الأمر جيدا. توصلت إلى أن منصبى قاضي العسكر والوالي الموجودين في بعض الدول التي سبقتنا يتناسب مع وضعنا الحالي. كنت سأناقش الموضوع معكم في الديوان بعد مناقشته مع حاكمنا، ولكن مادام قائدنا يرغب في ذلك فلأتحدث إليكم اليوم عن ذلك. قدر الله أن يكون الحديث عن هذا الموضوع اليوم. قاضي العسكر الذي سيكون تابعا لحاكم إمارتنا، سوف يصدق على قرارات الديوان خلال سفر سلطاننا، إن اضطرت قواتنا الموجودة في بورصه إلى الخروج لحرب ما سيتولى والي الأناضول قيادة قواتنا نيابة عن سلطاننا، وسيكون الجهة الأعلى التي سيراجعها القضاة الموجودون في قلاعنا. فضلا عن ذلك فكما تعلمون فإن جيشنا يخوض حاليا حروبا في كل من الأناضول والروملي. سيتولى قاضي العسكر منصب والي الأناضول مثلما سيتولى قيادة قواتنا في حال عدم وجود قائدنا، وأيضا في الأوقات التي لن يكون فيها قائدنا موجودا في الروملي يجب أن يتولى أحد ولاة الروملي قيادة قواتنا هناك. إن كان قائدنا يرى البعض من أمرائنا وأبطالنا ووزرائنا وحكامنا مناسبين لتولى هذه المناصب فلنبحث ذلك في ديواننا ولنتوصل إلى قرار. ثم نظر إلى مراد الأول:

داعب مراد الأول لحيته الخفيفة والقصيرة برفق. الأمر الذي زاد من طمأنينة وجهه الباسم المشرق، ثم قال:

إذا كان الأمر كذلك فلنناقش بالتفصيل أولا منصب قاضي العسكر وبعد ذلك نناقش منصبى (أمير أمراء) والي كل الأناضول والروملي، وبعد تحديد مهام المناصب ننتقل إلى مناقشة أمر تعين من سيشغل هذه المناصب...

بعد مناقشة الأمر بإسهاب لعدة أيام وافق أعضاء الديوان على استحداث مناصب قاضي العسكر ووالي الأناضول والروملي. إن مراد الأول الذي شارك في الاجتماع الأخير للديوان الذي شارك فيه المربي شاهين بك الذي استدعاه إلى بورصه عبر رسل مراد الأول الخاصة، قال:

رأيت أنه من المناسب أن يتولى الجاندارلي خير الدين قرا خليل باشا منصب قاضي العسكر وأثق بأنه سيؤدى مهامه على أكمل وجه في إدارة شئون إمارتنا. وأرى أن يتولى أمراؤنا مناصب الولاة، ولكن نظرا لأن أميرنا في الوقت الحالي لم يبلغ العمر الذي يمكنه من تولى منصب أمير أمراء الأناضول فسيتولى المنصب نيابة عنه قاضي العسكر الجاندارلي الأمير خير الدين قرا خليل. ورأيت أن مربِيَّ شاهين بك الذي حاصر هراقليا بنوتيقا والذي يتولى قيادة قواتنا بشكل منقطع النظير كان جديرا بتولي منصب أمير أمراء الروملي، وأن يتولى قيادة قواتنا في الروملي في حال عدم وجودى هناك.

بعدما صَدَّق أعضاء الديوان على الجاندارلي الأمير قرا خليل والمربي الأمير خليل، اللذين رأى مراد الأول أنهما جديران بمنصبيْ قاضي العسكر وأمير الأمراء، تقدم محمد أفندي قاضي بورصة باقتراح قائلا:

مادام سيخاطب أميرينا بألقابهم الجديدة فإنهم سيعدون من الآن من أسرة آل عثمان وأقترح بضرورة مخاطبتهما بلقب باشا بدلا من لقب بك. وتمت الموافقة على هذا الاقتراح من قبل كل الموجودين في الديوان. وأثناء تناول شربات هذا التغيير الكبيرالذي حدث في الإدارة داخل الديوان، فإن كبير المراسلين قام بمواربة الستارة الموجودة أمام الباب ودخل بسرعة إلى الداخل. انحنى إلى الأمام وبعد أن ألقى التحية، قال:

يوجد بالباب مراسل لنا جاء من ولاية أوروم. وهو يطلب سرعة الدخول يا سيدي.

لأول مرة منذ أن تولى مراد الأول حكم الإمارة دق قلبه وكأنه سيخرج من قفصه الصدري. وبينما يحاول السيطرة على اضطرابه الرهيب ذلك الموجود بداخله، قال:

أدخله على الفور.

سنقور بك انجه أحد رجالات قراد دميرداش بك الذي دخل إلى الداخل، بعد أن ألقى التحية باحترام على مراد الأول والموجودين بالداخل ثم جثا على ركبتيه، وقال:

يا سيدي، أنقل لكم تحية أمراء ولاية أوروم، إيجه بك وأفرانوس بك والحاج إلباي وفاضل بك وأقجه قوجه أوغلو وقرا ديميرداش باشا الذي انضم إليهم مؤخرا.

الجاندارلي خير الدين قرا خليل باشا الذي صار قاضيا للعسكر وأمير أمراء الأناضول قبل قليل توقع بأن سنقر انجه بك سيطيل في التمهيد والتقديم نفد صبره وقال:

يا انجه سنقور بك، هل الأخبار التي أتيت بها خير أم شر؟

انجه سنقور بك دون أن يفقد هدوءه، طأطأ رأسه نحو صدره بهدوء. وبعد أن بقي صامتا هكذا لبرهة، قال بصوت هادئ:

إن الخبر الذي أتيت به قطعا هو خبر خير يا سيدي ثم صمت مرة أخرى.

(٩٢)

لما وصل يوحنا باليولوج الخامس إمبراطور بيزنطة إلى ديموطيقا، واستعد لإلقاء القبض على ماتيوس كنتاكوزين الذي علم بأن أهالي القلعة قد أخفوه في قلعتهم، بعدما علم بأن ماتيوس كنتاكوزين الذي أيقن أنه لا يمكن أن يختبئ هناك قد اضطر إلى الهرب من القلعة، تملكته السعادة قائلا "أعتقد أن بيزنطة قد تخلصّت من آل كنتاكوزين الغاصبين للأبد. وجاء الدور على طرد العثمانيين من شبه الجزيرة.". وعلى الفور أمر بإقامة الاحتفالات في ديموطيقا بمناسبة "التخلص من آل كنتا كوزين". وأمر بأن تُصَب الخمر بدلا من المياه من صنابير قلعة ديموطيقا المخروطية التي تشبه الأقماع الموجودة على ربوة مرتفعة. شعب ديموطيقا أكل وشرب ومرح لعدة أيام. الإمبراطور الذي ذهب مع كل قواته إلى أينوس بعد أيام من الترفيه الأسطوري الذي سُطِّرَ في تراثهم الأدبي، لم يستطع أن يشبع قط من ألوان زهور أشجار الكرز الموجودة في هذه القلعة التي وصل إليها عبر بحر جزر هبيروس. صعد إلى برج القلعة الموجود بالقرب من قصر دوق قلعة أينوس الذي يعد أجمل القصور الموجودة بالقلعة وظل يشاهد لفترات طويلة التقاء البحر مع نهر. الإمبراطور الذي استقبله دوق قلعة أينوس الذي ينتمي إلى أهالي جنوة على أفضل وجه، بعد استجم الاستجمام الإمبراطوري لعدة أيام فجأة اتخذ قرارا بتحرك قوات الأسطول على الفور، وأمرهم بأن يرسو على سواحل جاليبولي لتطهير ساحل الدردنيل الشمالي الموجود في شبه الجزيرة من

القوات العثمانية. ولم يكد يتحرك الأسطول حتى انطلق هو الآخر بقواته البرية نحو روسيا وبوزابا. كان هدفه هو طرد قوات العثمانيين من الشمال نحو جاليبولي والحيلولة دون عبورهم الدردنيل. وكان سيطلب استعادة هراقليا بنوتيقا مقابل أرواح القوات العثمانية التي سيحاصرها في جاليبولي. وهكذا وبحرب واحدة سيكون قد تخلص من ماتيوس كنتاكوزين، واسترد هراقليا بنوتيقا وطرد العثمانيين من تراقيا. الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس الذي انطلق بهداياه التي لا تسعها الصناديق وعشرات العازفات والمحظيات والخدم الذين أهداهم إليه دوق قلعة أينوس، عندما حل المساء أقام معسكر جيشه في الوادي الواسع والحصين الواقع بين قلعة روسيا وقلعة بوزابا. بعد فترة من قوله للحارس الموجود بجانبه بأن يبلغ قائد قوات الفرسان بأن يُرسل المراقبين إلى جهتي الجنوب والشرق وبأن اجتماع مجلس الحرب الذي سيشارك فيه كل القادة سيعقد في المساء تابع أعمال الخدم الذين يقيمون خيمة القيادة الكبيرة. نُصبت الخيمة المستعملة المتواضعة. دخل إلى الدخل على الفور للاستراحه. خلع خوذته. مسح عرق جبهته. وخلع بمساعدة الخدم دروعه الصدرية التي تضغط عليه مثل المكبس. وقال للخدم قبل أن يخلع واقي ركبتيه:

أحضروا الماء البارد واغسلوا رأسي.

نظر الخدم الذين لم يألفوا مثل هذا الشيء لبعضهم بعضا، ثم ركضوا إلى عربات الخيل التي تحمل براميل المياه. بعد أن ضحك الإمبراطور قليلا بسبب إندهاشهم والحيرة التي تملكتهم بعدما ذهبوا، حدث نفسه بصوت عال قائلا : "تملكتهم الحيرة عندما قلت لهم لأول مرة بأن يغسلوا رأسي بالماء

البارد.". حرك جسده الذي بدأ يسمن شيئا فشيئا وخرج أمام الخيمة. جلس على أطراف قدميه، وانتظر مجيء الخدم وهو يقلب شعره المبتل من العرق بأصابعه الطويلة. أما الخدم الذين شاهدوه ينتظر جالسا على أطراف قدميه أمام الخيمة فقد اندهشوا مرة أخرى. قال الإمبراطور الذي ابتسم ضاحكا بسبب اندهاشهم:

لا داعي لاندهاشكم على هذا النحو، أنا أيضا لست معتادا على ذلك، ولكن سأشارك في الاجتماع بعد قليل. أليس من الأفضل أن أشارك في الاجتماع برأس مستريحة، بدلا من الذهاب إلى الاجتماع وأنا أحك رأسي؟

بدأ الخدم الذين تم إعداهم لمثل هذه الأيام العمل على الفور وغسلوا شعر الإمبراطور بالصابون المعطر بعطر زهرة الأقحوان. ولم يكادوا ينتهون من عملية غسيل الشعر حتى قاموا بتجفيف شعر الإمبراطور من الماء بالمنشفة المصنوعة في فلاديلفيا. مشطوا شعره بالمشط المصنوع من خشب البقس بعد تجفيفه. قام الخدم بعدما تمدد الإمبراطور الذي نهض ودخل الخيمة على إحدى الوسائد المفروشة من أجل الاستراحة عليها بخلع واقي ركبتيه ونعليه. واختفوا فجأة أثناء حصول الإمبراطور على قسط من الراحة.

هدأ الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس تماما بعد غسل رأسه، أو بسبب عناء السفر في المكان الذي تمدد فيه وأخذته سنة من النوم. أجل قائد فرسان الحرس الإجتماع قليلا بعدما أدرك أن الإمبراطور متعب ووفر له فرصة للحصول على الراحة. ولما أيقظوه " حدث نفسه قائلا : "السفر على ظهر الجواد مرتديا الدروع سيصيبني بالإرهاق". نهض على الفور وجهز نفسه وذهب إلى خيمة الاجتماع. لما دخل إلى الداخل أحنى القادة المجتمعون

حول الطاولة المصنوعة من الخشب المعشق رءوسهم وألقوا عليه التحية. أشار ديميتريوس قائد القوات البرية، على الخريطة الموجودة على الطاولة إلى المنطقة الموجودة بين روسيا وبوزابا ثم قال:

سنتحرك كما قررنا مع إمبراطورنا من هذه المنطقة التي نحن فيها الآن، في البداية على شكل قوس واسع نحو الجنوب الغربي في اتجاه الشرق والغرب. فرساننا سريعو الحركة على الأطراف، وإلى جوارهم فرساننا المدرعون، ومعهم بين قواتنا الرئيسية مشاتنا المدرعون، وسيكون رماة السهام سريعي الحركة ومشاتنا المدرعون مع فرسان الحرس في المنتصف. وسنتقدم بسرعة دون أن نترك أية ثغور بين وحداتنا صوب جاليبولي الموجودة في الجنوب. وسنقضي على كل القوات العثمانية التي ستواجهنا والتي سنجدها في طريقنا. وسنقوم بمحاصرة الآخرين بأعداد هائلة. بعد أن شكر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس قائد القوات البرية الذي شرح بالتفصيل الخطة التي ناقشاها معا ليلة أمس، نظر بطرف عينه ليرى نشوة الثقة بالنصر الموجودة على وجوه القادة. ونهض على قدميه بعد أن ظل صامتا لبرهة على هذا النحو وعاش هو الآخر لحظة النشوة الغامرة تلك. ثم قال:

قادة قواتي، الكونتات والدوقات فرساننا الأبطال الذي خلصوا بيزنطتنا من آل كنتاكوزين أريد منكم أن تطردوا قوات مراد التي أزهقت أرواح الكثير من إخوانكم إلى الشاطئ الآخر. ستقوم قواتنا البحرية مع مطلع فجر الغد بمحاصرة مايدوس وساستوس. ونحن أيضا سنتحرك من هنا مع مطلع الفجر. آمل أن نلتقي مع قواتنا البحرية خلال يوم أو يومين على الأكثر. إن ما أطلبه منكم هو أن تقوموا بأسر الكثير من قوات العثمانيين. لأنه كلما كثر

عدد الأسرى الذين سنقوم بأسرهم زادت فرصتنا في التفاوض حول هراقليا بنوتيقا. حتى الآن لا توجد لدينا معلومات صحيحة عن أعداد الموجودين منهم على شبه الجزيرة. ولكن وفقا لتوقعاتي يوجد تقريبا أعداد تقارب نصف أعداد وحداتنا. الآن اذهبوا إلى وحداتكم واستريحوا حتى منتصف الليل وانتظروا الخبر منا.

خلد القادة الذين ذهبوا إلى وحداتهم فور انتهاء الاجتماع للراحة حتى وإن كانت لفترة قصيرة. وفي الوقت الذي خلدوا فيه للراحة جاء من وسط الظلام الدامس صوت بعض الثعالب ثم جاءت بعد ذلك بعض الأصوات الغريبة لا تشبه أي صوت من أصوات الحيوانات. سمع كل الأشخاص غير النائمين تقريبا هذه الأصوات ولكن لم يأبه أحد بذلك لأنه لم تُسمع هذه الأصوات مرة أخرى.

لكن الوادي الملتوي سعى إلى إيقاظهم بنسيم خفيف من أجل إشعارهم ببعض الأشياء وكأنه قد أحس بما سيحدث.

الإمبراطور يوحنا لاليولوج الخامس الذي تناول بعض الأطعمة الخفيفة بعد الاجتماع عندما لاحظ الريح الخفيفة التي تضرب خيمته خرج أمام باب الخيمة. انسحب الحراس المناوبون بحرابهم الموجودة في أيديهم إلى الجانبين مسافة بسيطة وأفسحوا له الطريق للخروج إلى الخارج. خرج وعندما أدار وجهه للنسيم القادم من الشمال سمع صوتا يشبه الشخير يأتي من مكان قريب جدا. أثناء نظره إلى وجوه الحراس المضطربة جدا نظر الحراس إلى وجهه. هدأ عندما لم تعد تُسمع الأصوات مرة أخرى ولكن لما شاهد ذهاب بعض الحراس إلى المكان الذي أتت منه الأصوت شك في الأمر ودخل خيمته.

وارتدى درع الصدر الخاصة به. وأثناء قيام الخدم بوضع درعه على جسده جاء الخبر الذي يقول " بأن واحدا من المراسلين أصيب بإصابات بالغة لدرجه أنه لا يستطيع رؤية أمامه". فكر الإمبراطور يوحنا باليولوج الخامس في خلع درعه والخلود للراحة وبينما يراوح نفسه هل يتمدد على فراشه أم لا، أتت أصوات متتالية مشابهة للأصوات التي أتت قبل قليل. تقلد سيفه ولم يكد يضع خوذته فوق رأسه ويسير من أجل الخروج من باب الخيمة حتى دخل قائد الحرس إلى الداخل. وقال للإمبراطور وهو يقول للخادم أطفئ القناديل:

لا نستطع الحصول على أي خبر من المراقبين الذين وضعناهم أو من المراسلين الذين أرسلناهم. أعتقد عظمتكم بأننا تعرضنا للهجوم. لا أستطيع أن أصدق إمكانية حدوث شيء كهذا ونحن على أهبة الاستعداد. شيء واحد يدور برأسي هو أنه تم إلقاء القبض على كل طلائعنا ومراسلينا.

وفي الوقت الذي لم يكمل فيه قائد الحرس الإمبراطوري كلامه، بدأت تأتي أصوات السيوف والدروع التي تصطدم ببعضها من مكان قريب جدا. أصابت الدهشة الإمبراطور لعدم معرفته ما حل بهم، وخرج إلى خارج الخيمة لمعرفة ما يحدث. قال قائد الحراس الذين أحاطوا:

يا صاحب العظمة، إنه من الأفضل أن تبتعدوا عن هنا، لأننا لسنا قادرين على رؤية من الذي رفع علينا السيوف، ولا على من سنرفع السيوف في هذه الظلمة الحالكة.

قائمة بأسماء الأعلام والشخصيات والأماكن

(الأبدال): هم المرتبة الرابعة من مراتب الأولياء عند الصوفية، وهم من رجال الغيب أي لا يعرفهم أحد ويعرفون بالرقباء ولهم كرامات خاصة. وتقول بعض المراجع إنهم قوم من الصالحين لا تخلو منهم الدنيا؛ لا يموت أحدهم إلا قام بدله آخر من سائر الناس، وهم في الشام .

ابن عربشاه (٧٩١ ــ ٨٥٤هــ/١٣٨٩ــ ١٤٥٠م) أبو العباس أحمد ابن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي نصر محمد بن عربشاه بن أبي بكر الأستاذ الشهاب أبو محمد بن شمس الدين الدمشقي الرومي الحنفي، ويُعْرَفُ بالعجمي، وبابن عربشاه، وُلِدَ بدمشق ونشأ فيها، وقرأ القرآن على الزين عمر بن اللبان المقري. شهد غزو تيمورلنك لدمشق وتدميرها، ووقع مع أمه وإخوته وابن أخته أسرى ونُقِلوا إلى سمرقند عام ٨٠٣هــ/١٤٠١م، فحمل لتيمور أعمق الضغينة. وعُرِف ببراعته في الكتابة والنظم بالعربية والفارسية والتركية.

(الحاج إلباي): أحد القادة العثمانيين الأبطال. شارك مع كل من فاضل بك وإيجه يعقوب بك وأفرانوس بك سليمان باشا فتوحات الروملي.

(أتريوس): أتريوس في الميثولوجيا الإغريقية هو ابن بيلوبسو هيبوداميا والأخ الأكبر لثييستس، وبعد أن قتل أخاه غير الشقيق خريسبوس فر مع ثييتس إلى ميكيناي، حيث خلفوا يوريستيوس على العرش. قام ثييستس بإغواء زوجة أخيه أيروبي وطرد من ميكيناي، ولكي ينتقم لنفسه أرسل

بليستينيس (وهو ابن أتريوس الذي رباه ثييتس كابنه) ليقتل أتريوس ولكن بليستينس كان قد قتل من أبيه. وتصالح أتريوس بعدها مع أخيه ودعاه إلى مأدبة ليأكل ابنه الذي قتله اتريوس وفر ثييتس مذعورا. ولاحقا تزوج أتريوس من ابنة ثييستس وتدعى بيلوبيا، والتي أنجبت من أبيها ابنا هو أيغيستوس الذي تبناه أتريوس. وعثر على ثييستس من قبل أجاممنون ومينلاوس، وهما أبناء أتريوس، وسجن في ميكيناي. وتم إرسال أيغيستوس لقتل ثييستس ثم حصل التعارف المتبادل بينهما، وانطلق الأب والابن ليقتلا أتريوس ويحتلا العرش مكانه، وطردا أغاممنون ومينلاوس من البلاد.

(النَّواتي): النُوتِيّ والجمع النّواتِيّ أو البحار وهو الاسم الشائع لهذا الحيوان البحري من طائفة الرأسقدميات، يتألف من ستة أنواع. بعد العيش من دون تغيير للملايين من السنين غالبا ما تعرف بـــ"المتحجرات الحية."

(أجيسليوس) الثاني (٤٤٤/٤٤٣-٣٥٩): ملك إسبرطة (٤٠٠-٣٥٩).

(آخيليوس): آخيل، أحد الأبطال الأسطوريين في الميثولوجيا الإغريقية هو ابن بيليوس ملك فثيا من حورية البحر ثيتس حفيدة لتيتانية تيثيس ابنة أورانوس وجايا كان له دور كبير في حرب طروادة، والتي دارت أحداثها بين الإغريق وأهل طروادة. وهو البطل المركزي في إلياذة هوميروس.

(أخييان الروم – Ahiyan-i Rum): إحدى التشكيلات التي تم تكوينها مع بداية ظهور الدولة العثمانية. قام بتشكيلها رجال التركمان. وكانت تنتشر في المدن والقرى التابعة للعثمانية في الأناضول.

(أدرنة): إحدى مدن تركيا في إقليم تراقيا وتقع في أقصى الجهة الشمالية الغربية من الجزء الأوروبي للجمهورية التركية بالقرب من حدود بلغاريا واليونان، حيث تبعد عن حدود اليونان ٧ كم وبلغاريا ٢٠ كم، كما يمر بها نهر ماريتزا وكان اسمها قبل العثمانيين أدريانوبل.

أسس ملك الرومان (آدريان) مدينة أدرنة في القرن الثاني الميلادي ولكن بعد ذلك سقطت الرومان وأصبحت مدينة يونانية وبعد ذلك سيطر عليها العثمانيون في سنة 1362م وصارت عاصمتهم من 1365 م إلى 1453 م والآن هي عاصمة المحافظة التي تسمى أدرنه.

(أرتميس): بحسب الميثولوجيا الإغريقية القديمة، هي إلهة الصيد والبرية، حامية الأطفال، وإلهة الإنجاب، العذرية، والخصوبة. وتعتبر أرتميس إحدى أهم، وأقوى، وأقدم الآلهة الإغريقية، حيث إنها تنتمي للأولمبيين، أو الآلهة الإثنتى عشرة. هي ابنة كلا من زيوس، ملك الآلهة، وليتو، وهي أيضًا الأخت التوأم لأبولو (أبولون) . غالبا ما كانت أرتميس تُجسد وفي يدها قوس وسهام، وكان الآيل وشجر السرو مقدسين بالنسبة لها. وفي فترة لاحقة خلال العصر الهليستني، لعبت أرتميس دور إليثيا، الإلهة الكريتيّة، التي تساند النساء عند الولادة.

(آرغوس): مدينة يونانية تقع في جنوب البلاد ضمن مقاطعة أرغوليذا، التابعة لمنطقة البيلوبونيز الإدارية.

(أسبورجه خاتون): ابنة الإمبراطور البيزنطي وزوجة السلطان العثماني أورخان غازي. أنجبت له إبراهيم وفاطمة. تاريخ ميلادها غير معروف وكذلك تاريخ وفاتها.

(أفرانوس بك): أحد قادة مرحلة تأسيس الدولة العثمانية. يعرف باسم أفرانوس غازي بك أو الحاج أفرانوس. ولد في باليكسير سنة ١٢٨٨م. توفي سنة ١٤١٧ عن عمر يناهز ١٢٩ سنة. واسمه الحقيقي أفرن. شارك سليمان باشا ابن السلطان أورخان غازي حروبه في منطقة لروملي. عاصر أربعة من السلاطين العثمانيين هم أورخان غازي، مراد، بيازيد ومحمد.

(الجثويون): الجثوة هي كومة تراب أو حجر توضع فوق قبر ما وهي موجودة في معظم أرجاء العالم. في كثير من الحضارات، تغطى الجثوات أو كومات التراب مقابر مدفونيهم المهمين، ويوضع الجسد في تابوت غالبًا ما يكون حجريًا أو في نعش غالبًا ما يكون خشبيًا . الضريح هو هيكل نصب ليكون مقبرة في الأصل، وجاء الاسم من ضريح موسولوس في هاليكارناسوس . مفهوم اللوحة التذكارية يعبر عن بناء من الحجر يعرف الآن بالشاهد . توجد السفن المقابر على سواحل أوروبا غالبًا، بينما توجد مقابر العجلات الحربية بكثرة عبر أوراسيا . أم أسراديب الموتي- التي من أكثر أمثلتها شهرة هي تلك التي في روما والإسكندرية - فهي مقابر تحت أرضية متصلة بممرات نفقية. تدعى مجموعات القبور الكبيرة المصحوبة بآثار البقايا فوق الأرض مدن الموتي. في حال عدم وجود إحدى البنايات المذكورة تصبح القبور قبور ما قبل التاريخ لا تصحب أي آثار فوقها. أما القبر الأجوف فلا يحتوي على أجساد الموتي بل هو للذكرى فقط.

(الكيميريون): كانت قبيلة هندية أوروبية قديمة تعيش شمال القوقاز وبحر آزوف حتى شُردوا جنوبًا بواسطة السكوثيين إلى

منطقة الأناضول أثناء القرن الثامن قبل الميلاد. ولغويا كانوا يعدون من التراقيين أو الإيرانيين، أو على الأقل كان لديهم طبقة حاكمة إيرانية. وبعد خروجهم من السهوب البونطية ربما أغار السيميريون على أرارات (أرمينيا) نحو عام ٧١٤ قبل الميلاد، ولكن في ٧٠٥ بعد أن صدهم سرجون الثاني ملك آشور، تحولوا تجاه الأناضول وفي ٦٩٦-٦٩٥ هزموا فريجيا . وفي عام ٦٥٢، كان استيلاؤهم على سارد، عاصمة ليديا، بمثابة إعلان عن وصولهم إلى ذروة القوة. وسرعان ما بدأ تراجعهم، ويسجل تاريخ هزيمتهم النهائية بين عامي ٦٣٧ أو ٦٢٦، عندما هزمهم ألياتس ملك ليديا. وبعد ذلك لم يُذكروا في المصادر التاريخية ولكن المحتمل أن يكونوا قد استقروا في كبادوكيا.

(القسطنطينية): تأسست عام ٦٥٨ ق.م. وكانت من قبل قرية للصيادين. وتعرف باسم بيزنطة وفي عام ٣٣٥ م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية على اسم الإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية، وكان بها مقر بطريركية الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية كنيسة آيا صوفيا. خلال العصر الذهبي للإمبراطورية بيزنطية خاصة تحت حكم الأسرة المقدونية حيث دعي عصرهم بعصر *النهضة المقدونية* والكومنينيون ففي عهدهم مرت الإمبراطورية البيزنطية نهضة ثقافية وعلمية، وكانت القسطنطينية في عهدهم المدينة الرائدة في العالم المسيحي من حيث الحجم والثراء والثقافة. فقد كان هناك نمو كبير في مجال التعليم والتعلم ممثلة بجامعة القسطنطينية ومكتبة القسطنطينية وجرى الحفاظ

على النصوص القديمة وإعادة نسخها. كما ازدهر الفن البيزنطي وانتشـــرت الفسيفساء الرائعة في تزيين العديد من الكنـــائس الجديـــدة، وفـــي عصـــر الكومنينيون تجدد الاهتمام بالفلسفة الإغريقية الكلاسيكية، بالإضافة إلى تزايد الناتج الأدبي باليونانية العامية. احتل الأدب والفن البيزنطيان مكانة بارزة في أوروبا، حيث كان التأثير الثقافي للفن البيزنطي على الغرب خلال هذه الفترة هائلاً وذا أهمية طويلة الأمد.

تراجعت أحوالها إثر وفاة الإمبراطور جوستنيان العظيم. وفقدت الكثير من مناعتها جراء الحملة الصليبية الرابعة التي أنهكت دفاعاتها. فالمدينة لم تستطع في مئتي عام أن تتعافى من سبي اللاتين أهلها وحرقهم بيوتها ومبانيها وساحاتها. وإذا كان الانشقاق الكبير ما بين الكنيستين قد حصل عام ١٠٥٤ نتيجة التنافس على الأولوية بين أباطرة الشرق والغرب وأحبارهم، فإن الانشقاق قد اتسع كثيرًا في العام ١٢٠٤، أي عند دخول الجيوش الصليبية المدينة وحرقها مبانيها العامة والخاصة وانتهاكها حرمة كنائسها.

وفي عهد السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح (١٤٥١-١٤٨١) فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية، فقوضوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وفتحوا أراضيها في منطقة البلقان أساسًا وفي غيرها، وما زالت منطقة القسطنطينية، أي مدينة الآستانة كما أطلقوا عليها وما حولها، هي الجزء الأوروبي من السلطنة التي انحصرت في تركيا الحديثة حتى الآن.

الغلاطيّن، (الكلتيّن): (الكلت أو القلط أو السلت) باللاتينية Celtae : هم أي مجموعة أوروبية تستخدم اللغة الكلتية التي تعتبر فرعًا من اللغات الهندية الأوروبية. بالرغم من أن الكلت اليوم منحصرون في الحافة الكلتية المزعومة

في ساحل الأطلسي من جهة غرب أوروبا، فإن اللغة الكلتية كانت اللغة المهيمنة على أوروبا، من أيرلندا حتى البرتغال وشمال إيطاليا وسلوفاكيا. تشير المصادر الأثرية والتاريخية إلى أن أقصى امتداد للكلت كان في القرون السابقة للميلاد، وأنهم وُجدوا أيضًا في شرق أوروبا وآسيا على شكل أقليات.

(الفرجيّن): هم أقوام عاشوا في منطقة تراقيا وحول مضيق البسفور في الفترة من (٧٥٠- ٣٠٠) قبل الميلاد. هاجروا إلى منطقة الأناضول في النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد.

(الفُرس) هم شعب يقطن منطقة فارس التاريخية في الهضبة الإيرانية ويتحدث اللغة الفارسية وينتمي الفرس الأوائل إلى المجموعة الأريانية. لكن مع مرور الزمن امتصت المجموعة الفارسية العديد من الشعوب التي كانت تقطن أو قطنت المنطقة واستوعبتها خلال فترات عديدة ومن هذه الشعوب العرب واليونانيون والترك والمغول وغيرهم.

(القوط) قبائل جرمانية شرقية .أرجح الآراء أنهم قدموا من إسكندنافيا إلى وسط وجنوب شرق القارة الأوروبية، لكن يبقى الخلاف على البلاد الأوروبية التي قدموا منها قائمًا إلى اليوم. كان للقوط تأثير قوي في تاريخ أوروبا السياسي والثقافي والديني. يُقسَمون إلى قوط شرقيين وقوط غربيين.

(الكيميريون أو القيمريون): كانت قبيلة هندية أوروبية قديمة تعيش شمال القوقاز وبحر آزوف حتى شُردوا جنوبًا بواسطة السكوثيين إلى منطقة الأناضول أثناء القرن الثامن قبل الميلاد. ولغويا كانوا يعدون من التراقيين أو الإيرانيين، أو على الأقل كان لديهم طبقة حاكمة إيرانية.

وبعد خروجهم من السهوب البونطية ربما أغار السيميريون على أرارات) أرمينيا (نحو عام ٧١٤ قبل الميلاد، ولكن في ٧٠٥ بعد أن صدهم سرجون الثاني ملك آشور، تحولوا تجاه الأناضول وفي ٦٩٦-٦٩٥ هزموا فريجيا . وفي عام ٦٥٢، كان استيلاؤهم على سارد، عاصمة ليديا، بمثابة إعلان عن وصولهم إلى ذروة القوة. وسرعان ما بدأ تراجعهم، ويسجل تاريخ هزيمتهم النهائية بين عامي ٦٣٧ أو ٦٢٦، عندما هزمهم ألياتس ملك ليديا. وبعد ذلك لم يُذكروا في المصادر التاريخية ولكن المحتمل أن يكونوا قد استقروا في كبادوكيا.

(المقدونيون): قبائل السلافيين المقدونية التي استوطنت شرق أوربا منذ بداية القرن الخامس الميلادى بحثا عن أراض تصلح للزراعة ويمكن أن يطلق على المقدونيين لقب الصقالبة، وهو لقب أطلق قديما على السلافيين عامة.

(الهوبليت): جندي الهوبليت، هو الجندي المدني في المدينة الدولة في اليونان القديمة. وكان الهوبليت يجهّز كمقاتل رمح ويقاتل في مجموعة هي التشكيلة السلامية . وكلمة هوبليت اليونانية، هي مشتقة من الهولبون، وهو نوع التروس الذي يستخدمه هذا المقاتل.

وقد كان الهوبليت - بشكل أولي - مواطن حرا مسئولا عن تجهيز سلاحه ودروعه من نفقته الخاصة. وفي معظم المدن الدول الإغريقية، كان المواطنون يحصلون على تدريب عسكري أساسي في أقل تقدير، ليُدرجوا في الجيش القائم لفترة معلومة من الزمن. وكان من المتوقّع منهم أن يشاركوا في الحملات العسكرية عندما يستدعون لأداء الواجب. وكان المواطنون

من لاكيدايمونيا) إسبرطة (يشتهرون بتدريبهم العسكري المستمر طوال حياتهم، كما اشتهروا ببراعتهم القتالية الأسطورية الفائقة، بينما أعفي أعداؤهم اللدودون، الأثينيين، من الخدمة بعد عمر الستين فقط.

ولا يعرف بالضبط متى ظهر جندي الهوبليت وأساليب خروبه على وجه التحديد، وتقول النظرية الأشهر إنها ظهرت في فترة ما، ما بين القرن الثامن والقرن السابع قبل الميلاد، فيما تزعم أقوال أخرى أنها بعد عام ٤٨٠ ق.م.

(الهون): هم مجموعة من الرعاة الرحل، الذين ظهروا من وراء نهر الفولجا في روسيا حاليا، وهاجروا إلى أوروبا الشرقية حوالي ٣٧٠ ميلادية، وقاموا ببناء إمبراطورية في أوروبا.

(أورخان غازي): السلطان أورخان غازي بن عثمان بن أرطغل ثاني سلاطين الدولة العثمانية، (680)هـ 6 / فبراير 1281 م- 761 هـ / مارس 1361 م) خلف والده عثمان بن أرطغل 1 محرم عام ٦٢٧ هـ 1359 - 1324)/م) وعمره ستة وثلاثون عاما، وقد اعتمد على أعوان أقوياء لوضع القوانين وسن الأنظمة أبرزهم أخوه الأمير علاء الدين الذي نصبه وزيرا له وكذلك علاء الدين بن الحاج كمال الدين وقرة خليل جاندارلي وفي عهده نقلت عاصمة الدولة العثمانية من اسكي شهر إلى بورصه كما تم سك أول نقد عثماني وتمكن من انتزاع) أزمير (و) أنقرة (وامتلك) قره سي (وبرغمة ثم حاصر سمندره وإيدوس واستولى عليهما وقد دامت فترة حكمه خمسة وثلاثين عاما. وعندما زار الرحّالة المعروف "ابن بطوطة "بلاد الأناضول في فترة حكم السلطان أورخان وقابله هناك، قال عنه : إنه أكبر ملوك التركمان، وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا، وإن له

من الحصون ما يقارب مائة حصن، يتفقدها ويقيم بكل حصن أياما لإصلاح شئونه وخلفه ابنه السلطان مراد الأول"

(إيروس): في الميثولوجيا اليونانية هو إله الحب والرغبة والجنس يعادل آمور (كوبيدو) في الميثولوجيا الرومانية. ومع أنه لا علاقة تذكر لهذا الإله بالطقوس الدينية فإنه من الشخصيات المحبوبة في الأدب والرسم والنحت والموسيقا. ظهر إيروس للمرة الأولى في ثيوغونية الشاعر هيسيود في بداية الكون، كما جايا وتارتاروس من الكاوس (الفوضى). حتى بدايات الكلاسيكية اليونانية كان يُمثل بفتى جميل، من صفاته أنه يحمل سوطا أو شبكا أو يلبس صندلا. أما في الهلينية فإنه أصبح يُمثل بطفل صغير يحمل قوسا وسهاما. قد يكون السبب في هذا التجسيد هو في التناقض بين براءة الطفولة وقوة الحب العنيفة. ويعتقد أن تماثيل وصور إيروس مُنِحت أجنحة لأن التقلب من صفات الحب والرغبة.

(باجييان الروم): إحدى الزمر الاجتماعية التي تم تشكيلها في بداية عصر الدولة العثمانية. تم تكوينها من رجال الأناضول على غرار تشكيل (أخيان الروم) الذي شكله شباب التركمان إبان عصر السلاحقة.

(بخور مريم): نبات السكلامين المعطر.

(بنو ذولقادر): وهم أحد أمراء الأناضول خلال الفترة الثانية الذين حكموا خلال أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، ظهرت هذه الإمارة بعد اضمحلال قوة سلطنة سلاجقة الروم، كانت عاصمة هذه الإمارة البستان، ضمن مقاطعة مرعش.

امتدت سيطرة هذه الإمارة في أوجها من منطقة تمتد من كيرشهر إلى الموصل، ومع صعود قوة العثمانيين أصبحت هذه الإمارة تشكل منطقة عازلة بين العثمانيين والمماليك. وضمت إلى الدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر. حافظت هذه الإمارة على علاقة طيبة مع العثمانيين عن طريق الزواج، حيث تزوجت العديد من أميرات هذه الإمارة بأمراء وسلاطين الدولة العثمانية.

(بيليساريوس): فلافيوس بيليساريوس كان أحد أعظم الجنرالات الرومان الشرقيين. كان مفيدًا لمشروع الإمبراطور جستنيان الطموح لإعادة احتلال جزء كبير من أراضي حوض البحر الأبيض المتوسط التي تبعت الإمبراطورية الرومانية الغربية السابقة والتي فقدتها قبل قرن من الزمان .

كان بيليساريوس قد ولد حوالي العام ٥٠٥ ميلادي، في جرمانيا، وهي منطقة على حدود تراقيا ومقدونيا. ويحتمل أن اسمه ذو أصل سلافي. وعندما كان شابا خدم بين حرس جستين جوستنيان، الذي عينه قائد الجيش الشرقي. وحقق نصرا بارزا على الفرس في معركة دارا عام ٥٣٠، وقاد الحملة ضدهم بنجاح، حتى أجبر في السنة التالية على الدخول إلى معركة كالينيكوم وعانى من الهزيمة بسبب طيش جنوده. وبعد استدعائه إلى القسطنطينية، تزوج أنطونينا، وهي امرأة جميلة وذكية، ومفضلة من الإمبراطورة ثيودورا. أثناء عصيان الفريقين "الأخضر" و"الأزرق" في المدرج (المعروف بعصيان نيكا عام ٥٣٢) أدى إلى جوستينيان معروفا، وسحق بفعالية الثوار الذين أعلنوا هيباتيوس إمبراطورا.

(تنظيم الآخية: Akhalar**):** باليونانية akhaîos وهم أحد الأقوام اليونانية القديمة. كانوا يعيشون في شبه الجزيرة اليونانية والجزر الغربية الموجودة بالقرب منها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

(تيليوتياس): شقيق الملك أجيسليوس الثاني، وقائد البحرية في حرب كورنثية. قاد أول حملة لاستعادة السيطرة على الخليج كورنثية بعد وقوع الكارثة البحرية في كنيدوس في ٣٩٤ قبل الميلاد.

حرب ملازجيرت: حرب وقعت بين آلب أرسلان سلطان الدولة السلجوقية والإمبراطور البيزنطي رومانوس في السادس من أغسطس ١٠٧١م في منطقة ملازجيرت الواقعة شرق الأناضول.

(جردا): أحد المراكز التابعة لمحافظة بولو التركية. تقع في منطقة غرب البحر الأسود.

(جستينيان): (الإمبراطور جستينيان الأول) فلافيوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس كان إمبراطورا رومانيا شرقيا بيزنطيا، حكم منذ أغسطس عام٥٢٧ حتى وفاته في نوفمبر ٥٦٥. يشتهر بإصلاحه الرمز القانوني المسمى قانون جستينيان خلال لجنة تريبونيان، والتوسع العسكري للأرض الإمبراطورية أثناء عهده، وزواجه وشراكته مع الإمبراطورة تيودورا . يعرف أيضا باسم "الإمبراطور الروماني الأخير". يعتبر قديسا في الكنيسة الأرثوذكسية.

(خالكيدون): احدى مقاطعات اليونان. عاصمة المقاطعة هي مدينة بوليپروس.

(خريسوكيراس): هو الميناء الداخلي الضيق والطويل الموجود في إستانبول والممتد من أحياء أمين اننو وفاتح وبيوغلو حتى قاغتهانه. وكان يطلق عليه في زمن البزنطيين خاريسوكيراس أي القرن الذهبي.

(ديوجين): فيلسوف إغريقي. وُلد في سينوب (في تركيا حاليًا) ٤١٢ ق.م تقريبا. ومات في ٣٢٣ ق.م في كورينث. تم نفيه إلى أثينا . وهناك أصبح تلميذا لأنتيسيتنيس . الذي كان تلميذًا بدوره لسقراط. كان ديوجين شحاذا يقطن شوارع أثينة. جعل من الفقر المدقع فضيلة. ويقال إنه عاش في برميل كبير. وأنه مشى يحمل مصباحًا في النهار. يبحث عن رجل فاضل (على حد قوله). في النهاية استقر بكورينث حيث استمر في بناء نموذجه الكلبي للاكتفاء الذاتي. حياته كانت طبيعية ولم يعتمد على مباهج المدنية. وآمن بأن الفضيلة تظهر في الأفعال وليس النظريات. حياته كانت حملة بلا هوادة لهدم قيم المجتمع ومؤسساته التي كان يظنها فاسدة.

(ديوميديس): ديوميديس، في أسطورة يونانية، ابن Tydeus ، بطل Aetolianالذي كان واحدا من السبعة ضد طيبة. كان ديوميديس قائد ٨٠ سفينة الآرغوسي واحدًا من أبرز القادة المرموقين في حرب طروادة. وتشمل مآثره الشهيرة جرح أفروديت.

(ديونسيوس): هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثيولوجيا الإغريقية. وتم إلحاقه بالأوليمبيين الاثني عشر. أصوله غير محددة لليونانيين القدماء، إلا أنه يعتقد أنه من أصول "غير إغريقية" كما هو حال الآلهة آنذاك. كان يعرف أيضا باسم باكوس أو باخوس .

(راغوز) بالإيطالية (Ragusa): مدينة إيطالية في جنوب شرق صقلية عاصمة مقاطعة رغوس سكانها ٧١.٧٦٥ نسمة. ترتفع ٥٢٠ مترا على مستوى سطح البحر.

(رودس): رودستو؛ مدينة تكيرطاغ هي عاصمة محافظة تكيرداغ تقع في شمال غرب تركيا ويبلغ تعداد سكانها حوالي ١٠٧، ١٩١ نسمة .

(سليمان باشا): يعرف باسم سليمان باشا أو سليمان باشا غازي أو سليمان غازي. هو الابن البكر للسلطان العثماني أورخان. هو رائد الفتوحات العثمانية في أوروبا. والدته هي نيلوفر خاتون. ويلقب بفاتح الروملي.

(سيكايا): هو الحي الذي يطلق عليه الآن اسم غلاطه، وهو أحد أحياء إستانبول المشهورة. يقع في منطقة بيوغلو.

(فاضل بك): أحد المحاربين العثمانيين القدامى. شارك مع كل من الحاج إلباي وإيجه يعقوب وأفرانوس بك سليمان باشا فتوحات الروملي.

(فوتشه): إحدى المقاطعات الموجودة غرب البوسنة والهرسك.

(طروادة): (باليونانية) (تروي / ترويا) مدينة تاريخية قديمة تقع في منطقة الأناضول، ازدهرت هذه المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اشتهرت قصة حصان طروادة الخشبي الذي اختبأ داخله الجنود الإسبرطيون وتسللوا ليلا لفتح أبواب المدينة أمام جيوش الملك مينلاوس ملك إسبرطة بقيادة أخيه أجاممنون. الذي حاصر المدينة المنيعة ردها من الزمن يقارب العشر سنوات وما كان من الممكن إسقاطها إلا بهذه الخدعة.

كيخسرو الثاني: هو غياث الدين كيخسرو بن كيقباد، وهو سلطان سلاجقة الروم في الفترة ما بين ١٢٣٧ إلى ١٢٤٦. وقد حكم خلال فترة تمرد البابای والغزو المغولي للأناضول. وقاد جيش السلاجقة مع حلفائه من دول مسيحية في معركة جبل كوسي ضد المغول في سنة ١٢٤٣. يعتبر كيخسرو الثاني آخر سلاطين سلاجقة الروم الأقوياء وتوفي بعد خضوع السلطنة للمغول.

(قاضي العسكر) هو منصب قضائي في الدولة العثمانية. منذ سنة ١٤٨١ م انفصل قاضي عسكر الى اثنين: قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول.

(ليوكيبوس) : من رواد المدرسة الذرية و يعتبر أن أصل العالم ذرات وهذه الذرات كلما تكاثفت أعطتنا جسما صلبا وكلما تخلخلت أعطتنا جسما سائلا.

(مراد الأول): السلطان مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل، ثالث سلاطين الدولة العثمانية، تولى الحكم بعد وفاة أبيه أورخان بن عثمان وكان ابن ٣٦ عاما وقتها عام ١٣٥٩، واستمر حكمه ٣١ سنة (١٣٥٩- ١٣٨٩) استولى على مدينة أدرنة ١٣٦٢م وجعلها عاصمته وهزم التحالف البيزنطي البلغاري في معركتي ماريتزا ١٣٦٣م، وفتح بلاد الصرب بعد قوصوة ١٣٨٩م وفيها استشهد وخلفه ابنه السلطان بايزيد الأول.

(مرمرة): بحر مرمرة بحر داخلي يربط البحر الأسود ببحر إيجة ويفصل الجزء الأسيوي لتركيا عن جزئها الأوروبي . يتصل بحر مرمرة بالبحر الأسود عن طريق مضيق البسفو روببحر إيجة عن طريق مضيق

الدردنيل .تصل مساحته الإجمالية لحوالي ١١.٣٥٠ كم٢ و يبلغ طوله حوالي ٢٢٥ كم، أما عرضه ٦٥ كم عند أقصى اتساع له ، ومتوسط ملوحته هي ٢٢ جزءا في الألف، وهذه نسبة أعلى من نسبة ملوحة البحر الأسود.

يوجد في البحر أرخبيلين من الجزر وهي جزر الأمراء، وجزيرة مرمرة، والأخيرة تحتوي على كميات كبيرة من رخام المرمر ومنها اشتق اسم هذا البحر، وقد كان بحر مرمرة في وقت يسمى بروبنتس. تقع على البحر مدينة إسطنبول التركية.

(ميداس): (الملك ميداس) بالإنجليزية(King Midas):

في الميثولوجيا الإغريقية هو ملك كان له قدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب، والاسم موجود لدى العديد من الملوك الفريجيين، ويقال إنه كان ابن غورديوس والربة كوبيليو الذي كان أبوه أول كهنتها وبنى معبد بيسينوس على شرفها، وكان قد ظهر لأول مرة في التاريخ بإهدائه عرشا لدلفي حوالي ٧٠٠ ق م والكتابات اللاحقة تقول إنه تزوج ابنة أجاممنون ملك كيمي الأيولية وتاجر مع الأقوام البعيدة ويظهر اسمه على وجهة إحدى أعظم النصب التذكارية المنحوتة في الصخر في إقليم شاكاريا، وقبل ٧٠٠ ق، م قال الآشوريون إنهم حاربوا ملك قبائل الموشكي ويدعى ميتا وآخر ميداس انتحر عندما هاجم مملكته الغزاة السيمريون.

(ميغارا) : مدينة يونانية ومركز لبلدية تقع في جنوب وسط البلاد، وهي تقع ضمن مقاطعة آتيكا الغربية التي تتبع إداريًا لإقليم آتيكا الإداري.

(مينتينيا): إحدى المدن اليونانية.

(مينوس): مينوس ملك كريت الأسطوري تحدث عنه هوميروس وثوكيديدس، ويقال إنه كان ابن زيوس ويوروبا وزوج باسيفاي ووالد أندروغيوس وفايدرا وأريادني وغلاوكوس .

أقامت زوجته علاقة مع ثور أرسل قربانا إلى كريت من بوسيدون فأنجبت منه وحشا نصفه آدمي ونصفه الآخر ثور واسمه مينوتور فطلب من مخترع أثيني يدعى دايدالوس أن يبني له متاهة رهيبة لا يخرج منها وقام مينوس بحبس دايدالوس وابنه إيكاروس داخل تلك المتاهة وخرجا منها بأن ألصقا الريش بأذرعهما وطارا وحذر دايدالوس ابنه بألا يقترب من الشمس لكنه استمتع بالطيران وتجاهل نداء والده فذاب الشمع وسقط إيكاروس في البحر ومات بينما وصل دايدالوس إلى صقلية.

وفي حكاية أخرى وقع ابنه أندروغيوس ضحية لخطط أيغيوس ملك أثينا فهجم مينوس على أثينا وميغارا وأمرهم بدفع جزية من سبع شبان وسبع عذارى ليأكلهم المينوتور ولكن الوحش قتل من أمير يدعى ثيسيوس في قصة أخرى، أما هو فقد قتل في صقلية من بنات الملك كوكالوس الصقلي بصب الماء المغلي عليه عندما كان يستحم وأصبح بعد موته حاكما للعالم السفلي.

اكتشف عام الآثار الإنكليزي السير آرثر إيفانز حضارة عظيمة سادت في كريت ومركزها كنوسوس أسماها الحضارة المينوسية تيمنا بمينوس وكذلك بافتراض أن هذه الحضارة هي من غذت مخيلة اليونانيين عن أساطير كريت.

(نيكايا) : أحد أحياء القسطنطينية. شهدت مدينة القسطنطينية (إسطنبول حاليا) في عام ٥٣٢ أكبر عصيان شهدته المدينة. احترق على إثره نصف المدينة وراح ضحيته عشرات الآلاف من البشر – المدينة – احترق نصف البلدة أو التالفة .عشرات الآلاف من الناس فقدوا حياتهم.

(نيقوميديا): كانت مدينة قديمة في تركيا المعاصرة تأسست عام ١١/٧١٢ قبل الميلاد كسمتعمرة ميغارية وعرفت باسم أستاكوس. بعد أن دمرها ليسيماخوس، أعاد نيقوميديس الأول من بيتانيا بناءها عام ٢٦٤ قبل الميلاد باسم نيقوميديا.

(هكتور): هكتور أو هكطور : أمير طروادة وقائد جيشها وأهم أبطالها تصدى لهجمات الإغريق طوال عشر سنوات من حصار طروادة، اشتهر بفروسيته وحنكته وشجاعته ومهارته بترويض الخيول وهو الابن المفضل للملك بريام ملك طروادة وولي عهده. وأمه هي هيكوبا وأخ الأمير هيلينوس توأم الأميرة كاساندرا والأمير ديفوبوس والأمير بارس الذي تسبب بالحرب المدمرة بسبب خطفه هيلين أجمل نساء الأرض زوجة مينلاوس يعتبر هيكتور أول العظماء التسعة في التاريخ اليوناني القديم ليس فقط بسبب شجاعته الحربية، ولكن أيضًا بسبب طبيعته النبيلة حيث اشتهر بنبل أخلاقه.

(يوحنا الخامس باليولوج): –) ١٣٣٢ - ١٣٩١ (كان إمبراطورًا بيزنطيا حكم من ١٣٤١ حتى وفاته سنة ١٣٧٦. ولد يوحنا الخامس في ١٨ يونيه سنة ١٣٣٢ م، وهو الابن الثاني للإمبرطور أندرونيكوس الثالث من زوجته آنا دي سافوي، وقد خلف والده علي عرش القسطنطينية سنة ١٣٤١، وهو طفل في التاسعة فتولي الوصاية علي العرش يوحنا السادس

كانتاكوزينوس وقد حاول يوحنا أن يستغل صغر سن الإمبراطور في استخلاص العرش لنفسه، فتمرد ونادى بنفسه إمبراطورا في تراقيا ، بينما ظل الإمبراطور وأنصاره في القسطنطينية. ناصر الإمبرطور الصغير في ذلك الصراع أمه آنا دي سافوي والتي شكت في إخلاص يوحنا منذ البداية، وناصره أيضا يوحنا السادس عشر بطريرك القسطنطينية، وفي سنة ١٣٥٣ أصبح يوحنا الخامس الإمبراطور الأوحد للدولة.

(يوحنا السادس كنتاكوزين): الإمبراطور يوحنا كنتاكوزين السادس تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية في الفترة (١٣٤٧- ١٣٥٤).

المصادر

Ahmedi , *Iskendername* , *çev.* Dr. I. Ünver , TDK , 1983

Akşin , Sina , *Osmanli Devleti* , Cem Yay. , 1993

Akurgal, Ekrem, *Anadolu Uygarliklari* , Net Yay.,2003

Alexiou,stlianos, *Minos Uygarligi, çev.* Dr. E. T. Tulunay, Arkeoloji ve Sanat Yay.,1991

Aprim, Frederick , *Asurlular* , *çev.* V. Ilmen Yaba Yay.,2008

Asurlular, cev. V .Ilmen , Yaba Yay ., 2008

Arslan, Murat, *Galatlar,*Arkeoloji ve Sanat Yay.,2000

Aydın, Mehmet, *Islan Selsefesi Yazilari*, Ufuk Kitabevi,2000

Bayram, Mikail, *Ahi Evren – Mevlana Mucadelesi*, Damla Osset – Konya, 1991

--Baciyan – I Rum, NKM, 2008

Baytop, Turhan, *Turkçe Bitki Adlari Sozlugu*, TDK, Yay.,2007

Brendjes, Burchard-Sonja,*Ibn Sina çev.* O. Özugul, Pencere Yay.,1978

Buyuk Laiousse, Milliyet , Yay ., 1986

Carem, C. W.,*Tanrıların Vatani Anadolu, çev.* Esat Nermi Erendor, Remzi Kitabevi, 1979

Carpelle, Yilhelm, *Sokrat'tan Önce Felsefe, çev.* O.Özugul,Pencere Yay.,2006

Cevdet,Muallim, *Islam Futuvveti ve Ahilik*, Işarat Yay.,2008

Çiğ, Muazzez Ilmiye, *Sumerler (Arastirmalari)*, Kaynak Yay.,1996

Cogito Osmanlilar, sayı 19, YKY,1999

Cogito Bizans, sayi 17, YKY, 1999

Cokay, Sedef, *Antik Çağda Aydinlatma*, Turk Eskiçağ Bil. Enst. Yay., 2000

Danisment, Ismail Hami, *Izabli Osmanli Tarihi Kronolojisi*, Turkiye Yay., 1971

Dincol, Belkis, *Eski Önasya ve Mısır'da Muzik*, Turk Eskicag Bil. Enst. Yay., 2003

Ekremkocu, Resat, *Osmanli Padişahlari*, Ana Yay., 1981

Ercan, Yavuz, *Osmanli Imparatolugu'nda Bulgarlar ve Voynuklar*, TTK , 1989

Erhat, Azra, *Mitoloji Sözlügü*, Remzi Kitabevi, 1978

--*Mavi Anadolu, Cem Yay, 1979*

--*K. P. Mavi Anadolu, Cem Yay., 1979*

Evliya Çelebi, *Evliya Çelebi Seyahatnamesi*, Iskit Yay.,1962, YKY, 2006

Eyici, Semavi, *Son Dönem Bizans Mimarisi*, Istanbul Ünv. Edebiyat Fakültesi Yay., 1980

Faroqhi, Suraia, *Osmanlı Dunyasinda Üretim Pazarlama, cev.* G. C. Guven, O. Turesay, YKY, 2003

Gibbon, Edward, *Bizans Tarihi, çev.* A. Baltacıgil, Arkeoloji ve Sanat Yay., 1994

Guilmartin jr, J.F., *Kalyonlar ve Kadirgalar*, cev. A. Özdamar Kitap Yay., 2010

Haci Bektaş-1 Veli, *Makalat*, TDV Yay., 2007

Halaçoğlu, Yusuf, Osmanlilarda Devlet Teşilati ve Sosyal Yapi, TTK Yay., 2007

Ibn Battuta, *IbnBatuta Seyahatnamesi, çev.* A. S. Aykut, YKY, 2004

Ibn Sina, Kültür Bakanliği Yay., 1999

Inalcik, Hilal, *Devlet-I Aliyye*, Turkiye Iş Bankası Yay., 2009

Islam Anisklopedisi, TDV, 2004

James, Henri, Avrupalilar, *çev..* Z. Bakir, Altın Bilek, 2006

Kabaağacli, C. Şakir, *Anadolu Tanrıları* , Bilgi Yay., 1983

--*Anadolu Efsaneleri,* Bilgi Yayınevi, 1985

--*Mavi Yolculuk,* Bilgi Yay., 1979

Karal, E. Ziya, *Osmanli Tarihi (Teşkilatlar),* TTK Yay., 1999

Ksenophon, *Yunan Tarihi, çev.* Suat Sinanoglu, TTK Yay., 1999

Koprulu, M. Fuat, Türk Edebiyatında Ilk Mutasavviflar, Akçağ Yay.,2007

Küçüksöz, Sema, *Tebe'a-I Sadika,* Tek Yay., 2006

Lamartine, Alphonso D., *Osmanlı Tarihi, çev.* S. Bayram, Sabah Yay., 1991

Mabeynci Pavlos, *Ayasofyanın Betımı,* çev. S. Rıfat, Istanbul Araştirmaları Enstitüsü., 2010

Marozzi, Justin, *Timurlenk, çev.* H. Kocaoluk, YKY, 2006

McEvedy, Colin, *ilk ve Ortaçağ Tarihi Atlası* , *çev.* Ayşen Anadol, Sabanci Unv, Yay., 2005

Mercil, Erdoğan, *Gazneliler Devleti Tarihi,* TTK Tay., 2007

Özdızbay,Askim, *Eski Yunan'da Tarım,* Turk Eskicag Bil. Enst. Yay.,2004

Roma Tarihi, çev. Halil Demircioğlu, TTK Yay., 1998

Roux, Jean-Paul, *Türklerin ve Moğollarrin Eski Dini, çev.* A. Kazancıgil Kabalci Yay., 2002

--*Orta Asya, Tarih ve Uygarlik, çev.* A. Kazancigil, Kabalci Yay., 2006

Saltik, Gazali, *Emir Sultan,* Asa Kitabevi, Bursa, 1959

Sevim, M., *Gravürlerle Türkiye (Saray Giysileri),* Kültür Bakanliği, Yay., 1997

Shaw, Stanford, *Osmanli Imp Tarihi, çev.* M. Harmanci, E Yay ., 1983

Strabon, *Antik Anadolu Cografyası,* çev. Prof. Dr. A. Pekman, Arkeoloji ve Sanat Yay., 1993

Şeyh Bedrettin, *Varidat* , Esma Yay., 1994

Seyh-Sadi-I Şirazi, haz. Ibrahim Ülgen, Berfin Yay., 2004

Tuğlaci, Pars, Osmanlı Şehirleri, Milliyet Yay., 1985

Uzunçarsili. Ismail H., *Osmanlı Tarihi (Teskilatlar),* TTK Yay.,2003

Walter, Gerard, *Bizans'ta Günlük Yaşam,* Uitgeverey Hollandia,1989

Yesevi, A., *Divan –I Hikmet Seçmeler, Kültür Bakanlığı, 1991*

Zerdüşt, *Avesta,* Kora Yay., 199.

المؤلف في سطور

مراد تونجل: ولد عام ١٩٥٢ في قرص هناق (Kars-Hanak). تخرج في مدرسة المعلمين ثم أكمل دراسته في قسم اللغة التركية بكليـــة التربيـــة جامعة أتاتورك بإسطنبول. اشـــتغل بالتـــدريس فـــي المـــدارس الابتدائيـــة والإعدادية. ترك العمل بمهنة التدريس عام ١٩٨٤م، وعمل بجريدة صـــباح الخير. هاجر إلى هولندا عام ١٩٩٤م. وقد واصل حياته الأدبية في هولندا، درس لغته الأم (اللغة التركية) في مدارس التعليم الأساسي التابعة لـــوزارة التربية الهولندية، كما درَّس اللغة والأدب التركي في كونسرفتوار روتـــردام بهولندا. نُشرت وتُنشر حكاياته ومقالاته التعريفية وخطبه في المجلات الأدبية التركية، مثل: الوجود، أجندة الأدب، شريان الحياة، فيحيا الأدب، الشاطئ، الأدب المقابل، المنعطف، مجلة اللغة التركية، الكتابـــات الجميلـــة، الثقافـــة العالمية، كتاب الجمهورية وكتاب العالم. نشر أول مجموعاته القصصية عام ١٩٨١م، تبوأت الكثير من قصصه القصيرة مكانها في المجوعات الأدبية في كل من هولندا وتركيا، كما تُرجم ونُشر الكثير منهـــا باللغـــات الهولنديـــة، (الروسية) التركية الأذرية واللغة العربية في المجلات الجامعية. نشرت دار (3C) للنشر روايته (قصر العدالة كان أزرق) باللغة الهولندية باسم " Vahse Hoop "، أي الأمل الزائف، كما نشرت (دار نشر التكوين بسوريا) روايته " إينانا – İnanna " (إلهة الحب والخصب والحرب في الأساطير الســـومرية) بالعربية، ونشرتها (دار آسيا للطباعة والنشر) باللغة الكورية، ونشرتها (دار Ednorog للطباعة والنشر) باللغة البلغارية. أما روايتاه " الموت الثالث" التي

كتب لها المؤلف السيناريو، وكذلك " الضفدع الخارق" التي كتبها للأطفال فتم تحويلهما إلى مسرحيتين وعرضتا على مسارح مدينة أنقرة.

وهو عضو في الجمعيات الآتية: نقابة الكتاب الأتراك، نقابة الكتـــاب الهولنديين، نقابة الصحفيين الأتراك، الرابطة العالمية للكتاب بتركيا.

الجوائز التي حصل عليها الكاتب:

جائزة قصة الكتاب الشبان من وزارة الثقافة والرياضة عام ١٩٧٤ عن قصته " الحقيقة ". جائزة إذاعة (NPS) في هولندا عام ١٩٩٧ عن قصته "انتهت الجنة أيضا ". جائزة شكري جومش للرواية ١٩٩٤ عن روايته " قصر العدالة كان أزرق ". جائزة الرواية في مسابقة بيوت الثقافة والفنون عام ١٩٩٧ عن روايته (الموت الثالث). جائزة أورخان كمال للقصة عام ٢٠٠٠ بملف قصة لم تنشر.

نتاجه الأدبي:

القصص:

" لست ممتعضا من الحياة " (١٩٨١)، " المزلاج " (مزلاج الباب) (١٩٨٣)، " دنيا بلا شمس " (١٩٨٧)، "صراخات بيوغلو" (١٩٨٩)، " فتاة الظل" (٢٠٠٢)، "صندوق فيلما" (٢٠١٠).

الروايات:

"قصر العدالة كان أزرقا" (١٩٩٤)، "الأمل الزائف" (باللغة الهولندية – ٢٠٠٣) ونشرت على شكل كتاب منطوق بالهولندية (٢٠٠٧)، " الموت الثالث " (١٩٩٧، ١٩٩٨، ٢٠٠٧)، " إينانا" ٢٠٠٦ م.

المترجم في سطور

محمد عزت سعيد غازي من موليد ١٩٦٣م. تخرج في قسم اللغة التركية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر عام ١٩٨٦. عين معيدا في قسم اللغة التركية عام ١٩٨٨م. حصل على دبلوم الدراسات العليا في اللغة التركية من جامعة الأزهر عام ١٩٩٠م. عمل مشرفا لغويا ومترجما بشبكة الإذاعات الأجنبية الموجهة – القسم التركي من١٩٨٧ – ١٩٨٨م. حصل على درجة الماجستير في اللغة التركية من جامعة الأزهر عام ١٩٩٣ م. عُين مدرسا مساعدا في قسم اللغة التركية عام ١٩٩٤م. حصل على بعثة دراسية للحصول علي درجة الدكتوراه في لغويات اللغة التركية على نفقة الحكومة المصرية عام ١٩٩٦م. سافر إلى تركيا للحصول على الدكتوراه عام ١٩٩٧م. حصل على درجة الدكتوراة في اللهجات التركية من معهد العلوم الاجتماعية بجامعة غازي بأنقرة، تحت إشراف الأستاذ الدكتور/ أحمد بيجان أرجلاسون، رئيس مجمع اللغة التركية عام ٢٠٠١م. عُين مدرسا في قسم اللغة التركية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر عام٢٠٠٢م. أُعير للعمل بكلية اللغات والترجمة جامعة الملك سعود خلال الفترة من ٢٠٠٥ وحتى ٢٠١٠م. رُقي إلى درجة أستاذ مساعد بقسم اللغة التركية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر مايو ٢٠١٠ م.

المؤلفات العلمية:

١. اللغويات التركية المعاصرة، ٢٠٠٣م.

٢. اللهجات التركية المعاصرة ، ٢٠٠٤م.

٣. الخصائص الصوتية للهجتين الخوارزمية والقبجاقية، ٢٠٠٥م (باللغة التركية).

المقالات العلمية:

-الإضافة وأقسامها في اللغة التركية. مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر عام ٢٠٠٧م.

- Harezm Türkçesi ve Ses Özellikleri ، مجلة كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر عام ٢٠٠٧م.

– التركية القبجاقية والتركية المعاصرة: دراسة صوتية تقابلية، مجلة كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر عام ٢٠٠٨م.

– الخصائص الفعلية للتركية القبجاقية، مجلة كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر ٢٠٠٩م.

– الظروف الفعلية في التركية: (المعاني والاستخدامات)، القاهرة ٢٠٠٩.

– بناء الجملة في اللغة التركية، القاهرة ٢٠١٠.

- المشترك اللفظي في قوتادغو بيلك، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، يوليو ٢٠١١.

- التركية القراهانية والتركية المعاصرة دراسة صوتية تقابلية، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر عام ٢٠١٢م.

- قراءة لغوية نقدية لديوان لغات الترك ٢٠١٣.

التصحيح اللغوى: **سعيد عثمان**

الإشراف الفنى: **حسن كامل**